الأعمال الكاملة

المجلد الثاني

مصطفى لطفي المنفلوطي

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة ـ ميدان حليم خلف بنك فيصل ـ شارع 26 يوليو من ميدان الأوبرا

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : الأعمال الكاملة (المجلد الثاني)

المــــــؤلف : مصطفى لطفي المنفلوطي

رقم الإيداع :

مكتبة جزيرة الورد

ميدان حليم ـ خلف بنك فيصل الرئيسي ـ شارع 26 يوليو من ميدان الأوبرا .

الطبعة الأولى 2010

ماجدولين

أو تحت ظلال الزيزفون

تأليف الكاتب الفرنسي الشهير

ألفونس كار

ملخصة

بقلم المرحوم

مصطفى لطفي المفلوطي

1 – من ماجدولين إلى سوزان

سواء لديّ أقرأت كتابي هذا أم مزقته فهو خلو من كل شيء يهمك العلم به أو النظر إليه .

كل ما يمكنني أن أطرفك به من الأخبار أن أقول لك : إن أشجار الربيع قد بدأت تبتسم عن أزهارها ، وأن النسيم العليل يحمل إليّ في غرفتي هذه الساعة التي أكتب إليك فيها شذى أول زهرة من زهرات البنفسج وأول عود من أعواد الزنبق .

ويمكنني أن أخبرك أيضًا وإن كنت لا أعرف لمثل هذه الأخبار معنى ـ أن الغرفة التي كانت خالية في الدور الأعلى من منزلنا قد سكنها اليوم فتى اسمه « استيفن » غريب الأطوار في وحشته ونفوره وانقباضه عن الناس حتى يكاد يظن الناظر إليه أنه بائس أو منكوب ، فهو ينزل في صبيحة كل يوم إلى الحديقة وبيده كتاب واحد لا يغيره ، فإذا جلس للقراءة فيه علق نظره بأول سطر يمر به ثم لا ينتقل عنه بعد ذلك ، فهو في الحديقة مطرق إلى الأرض من حيث يظن الرائي أنه يقرأ في كتاب ؛ فإذا رآني مارة أمامه رفع رأسه إليّ وحيّاني تحية وجيزة ، ثم انتقل من مكانه وانساب بين الأشجار ، أو صعد إلى غرفته ، لذلك لم تتصل بيني وبينه معرفة حتى اليوم ، وربما لا يقع شيء من ذلك فيما بعد لأني لا ألتمس السبيل إلى التعرف به ولا أحسب أنه يلتمسه ، فإن كنت لابد سائله عما يتساءل عنه النساء في مثل هذا الموقف فأقول لك : إن الفتى ليس بجميل ولا جذاب ، بل إن في منظره من الخشونة والجمود ما ينفر نظر الناظر إليه ، وأحسن ما فيه أن سمعته ليلة وكانت نافذة غرفتي مفتوحة يغني غناءً شجيًا مؤثرًا

وإن كان لا يجري فيه على قاعدة من قواعد النغم فهو يطرب البؤساء والمحزونين ولا يعجب الموسقيين المتفننين ، ولقد تمكن أبي من مجالسته هنيهة فحدثني عنه أنه من المتعلمين الأذكياء ، وبعد : فأحسب أني أمللتك يا سوزان بحديث يتعلق أكثره بإنسان لا شأن لي ولا لك معه فلا تعتبي عليّ ، فهذا كل ما تستطيع أن تملأ به صفحات كتابها فتاة تعيش في قريتها الصغيرة عيشًا متشابه الصور والألوان : لا فرق بين ليله ونهاره ، وصبحه ومسائه ، لا تطلع الشمس فيه على مرأى جديد ، ولا تغرب عن منظر غريب .

2- من ماجدولين إلى سوزان

الجو رائق ، والسماء مصحية ، وقرص الشمس يلتهب التهابًا . والأرض تهتز فتنبت نباتًا حسنًا ، والأرض تنتفض عن أوراقها اللامعة الخضر ، والهواء الفاتر يترقرق فينبعث إلى الأجسام فيترك فيها أثر هادئًا لذيذًا ، وكل ذلك لا قيمة له عندي ، ولا أثر له في نفسي ، فإني أشعر أن الحياة مظلمة قاتمة ، وأن هذا الفضاء على سعته وانفراج ما بين أطرافه ضيق في أعيني من كفة الحابل ، وأن منظر العالم قد استحال إلى شيء غريب لا أعرفه ولا عهد لي بمثله ، فأظل أنتقل من مكان إلى مكان ، وأفر من الحديقة إلى المنزل ومن المنزل إلى الحديقة ، كأنني أفتش عن شيء ، وما أفتش إلا عن نفسي التي فقدتها ولا أزال أنشدها ، فإذا نال مني التعب أويت إلى أشجار الزيزفون في الحديقة لأستريح في ظلالها قليلاً ،

فلا يكاد يعلّق نظري بأول زهرة يروقني منظرها من بين أزهارها حتى أشعر كأني أنتقل من هذا العالم شيئًا فشيئًا إلى عالم جميل من عوالم الخيال ، فأتغلغل فيه كما يتغلغل الطائر المحلق في غمار السحب ، وتمر بي على ذلك ساعات طوال لا أعود بعدها إلى نفسي إلا إذا شعرت بسقوط الكتاب من يدي ، فإذا استفقت وجدتني لا أزال في مكاني ، ولا يزال نظري عالقًا بتلك الزهرة الجميلة التي وقفت عليها .

يقولون : إن فصل الربيع فصل الحب ، وإن العواطف تضطرم فيه اضطرامًا فتأنس النفوس بالنفوس ، وتقترب القلوب من القلوب وتمتلئ الحدائق والبساتين بجماعات الطير صادحة فوق زواهر الأغصان ، وجماعات الناس سائحة بين صفوف الأشجار ، أما أنا فلا أصدق من كل هذا شيئًا ، فإن أجمل الساعات عندي التي أخلو فيها بنفسي فأناجيها بهمومي وأحزاني وأذرف من العبرات ما أبرد به تلك الغلة التي تعتلج في صدري .

وأعجب ما أعجب له من أمر نفسي أنني أبكي على غير شيء ، وأحزن لغير سبب ، وأجد بين جنبي من الهموم والأشجان ما لا أعرف سبيله ولا مأتاه ؛ حتى يخيل إلىّ أحيانًا أن عارضًا من عوارض الجنون قد خالط عقلي فيشتد خوفي واضطرابي .

إن الذين يعرفون أسباب آلامهم وأحزانهم غير أشقياء لأنهم يعيشون بالأمل ويحيون بالرجاء ، أما أنا فشقية لأني لا أعرف لي داء فأعالجه ، ولا يوم شفاء فأرجوه .

كل أسباب العيش حاضرة لديّ ، وأبي لا يعرف له سعادة في الحياة غير سعادتي ، ولا هناء غير هنائي ، ولا يعجبه منظر من مناظر الجمال في العالم سوى أن يراني باسمه ، ويرى أزهار حديقته ضاحكة ، بل ربما أغفل أمر حديقته أحيانًا حتى تذبل أوراقها وتموت زهراتها في سبيل قضاء مرافقي وحاجتي ، فأنا إن شكوت فإنما أشكو بطرًا وأشرًا وكفرانًا بأنعم الله التي يسبغها عليّ ويسديها إليّ فغفرانك اللهم ورحمتك ، فإني ما اعترفت بجميلك ، ولا أحسنت القيام بشكر أياديك .

إني لأذكر يا سوزان تلك الأيام التي قضيناها معًا ، وتلك السعادة التي كنا نهصر أغصانها ، ونجني ثمارها ، ونطير في سمائها بأجنحة من الآمال والأحلام ، فأندبها وأبكي عليها ، واحن إليها حنين الليل إلى مطلع الفجر والجدب إلى ديمة القطر .

3- من إدوار إلى استيفن

الآن عرفت أنك لا تثق بي ولا تعتمد عليّ وأنك لا تزال تنظر إليّ بالعين التي تنظر بها إلى أولئك الذين آثرت مغاضبتهم والتبرم بهم من أفرد أسرتك ، فقد كتمت عني ما كنت أرجو أن تفضي به إليّ من تبرم ذات نفسك فيما اعتزمت عليه من رحلتك لأعرف ماذا تريد وأين تريد ولكني لم أؤثر أن أنزل بك في الود إلى المنزلة التي نزلت بي إليها ، فلم أرَ بدًا من أن أكتب إليك .

إنا نبتنا معًا يا استيفن في تربة واحدة ، تحت سماء واحدة يغذونا ماء واحد وجو واحد ، وما زلنا كذلك حتى شببنا فاختلفنا كما تختلف الشجرتان المتجاورتان في منبتهما ثمرة وشكلاً ، ولذلك أنت تفر مني الفرار كله وتنقبض عني ، ولا تراني أسلك فجًا من فجاج الأرض إلا سلكت فجًا غيره ، لأنك أصبحت تسعد بحياة غير التي أسعد بها ن وتهنأ بعيش غير الذي أهنأ به ، وتطرب لنغمة غير التي تسمعها مني ، ولا تستطيع أن ترى في وجهي تلك المرأة التي تحب أن ترى فيها صورتك واضحة جلية لا غموض فيها ولا إبهام .

إنك لا تبغضني يا استيفن ، ولكنك لا تحب أن تراني ، لأنك تعلم أن لي في الحياة رأيًا غير ريك ، وطريقًا غير طريقك ، فأنت تخاف أن تسمع مني ما يفجعك في تصوراتك وأحلامك ، ويكدر عليك لذائذك التي تجدها في العيش في ذلك العالم الخيالي المظلم وتقنع بها فيه قناعة الشعراء المحزونين بالعيش بين أشباح خيالاتهم السود .

كن كما تشاء وعش كما تريد ، فستنقضي أيام شبابك وستنقضي بانقضائها أمانيك وأحلامك ، وهنالك تنزل من سمائك التي تطير فيها إلى أرضي التي أسكنها ، فنتعارف بعد التناكر ونتواصل بعد التقاطع ونلتقي ما كنا .

لابد أن نفترق اليوم لأننا غير متفقين ، ولابد أن نجتمع بعد اليوم لأننا سنتفق ، فلا بأس أن تكتب إليّ وأكتب إليك ، وأن نتواصل على البعد إبقاء على تلك الصلة التي بيننا ، واحتفاظًا بها ، ورعاية لها حتى يأتي ذلك اليوم الذي تجلو فيه عن نفسها وتبرز من مكمنها .

إن أهلك يعجبون لأمرك كثيرًا ، ويرون أنك مكرت بهم ، وأضللتهم عن مقاصدك وأغراضك فسافرت خفية من حيث لا يعلمون بأمرك ولا بنيتك التي انتويتها ، ويقولون إنك ما سافرت على هذه الصورة إلا لأنك عدلت عن رأيك في الزواج من تلك الفتاة التي أعدوها لك ، وعندي أنهم أصابوا فيما يقولون ، وأنك مخطئ فيما فعلت ، لأنك تعلم أن والدك فقير لا يملك من المال أكثر مما يتسع لأيام حياته ، ولقد كان لك في هذا الزواج من تلك الفتاة التي اختارها لك حظك من سعادة العيش وهنائه لولا أنك شاعر ، والشعراء يفهمون من معنى السعادة غير ما يفهمه الناس جميعًا .

أخوك يحبك كثيرًا ، ولا يزال يحدثني عنك كما أحدثه ، فاذكرنا كما نذكرك واكتب إلينا بكل شيء .

4- خواطر استيفن

مضى الليل إلا أقله ، ولم يبقَ إلا أن تنفجر لّمة الظلام عن جبين الفجر ولا أزال ساهرًا قلق المضجع ، أطلب الراحة فلا أجدها ، وأهتف بالغمض فلا أعرف السبيل إليه .

إن كان إدوار يسخر مني في كتابه ويهزأ بي ، وينذرني بيوم أرى فيه أوهامًا كاذبة وأحلامًا باطلة ، ما كنت أحسبه أماني وآمالاً ، ويرى أن جميع ما أقدره لنفسي من سعادة في الحياة وهناء أشبه شيء بالخيالات الشعرية التي يسعد الشعراء بتصورها ، ولا يسعدون بوجودها . فلئن كان حقًا ما يقول فما أمر طعم العيش ، وما أظلم وجه الحياة .

لا .. لا .. إن الذي غرس في قلبي هذه الآمال الحسان لا يعجز عن أن يتعهدها بلطفه وعنايته حتى تخرج ثمارها وتتلألأ أزهارها ، وإن الذي أنبت في جناحي هذه القوادم والخوافي لا يرضى أن يهيضني ويتركني في مكاني كسيرًا لا أنهض ولا أطير . وإن الذي سلبني كلّ ما يأمل الآملون في هذه الحياة من سرور وغبطة ، ولم يبقَ لي منها إلا حلاوة الأمل ولذته ، لأجل من أن يقسو عليّ القسوة كلها فيسلبني تلك الثمالة الباقية التي هي ملاك عيشي ، وقوام حياتي .

على أنني ما ذهبت بعيدًا ، ولا طلبت مستحيلاً . فكل ما اطمع فيه من جمال هذا العالم وزخرفه ؛ رفيق آنس بقربه وجواره ، وأجد لذة العيش في التحدث معه ، والسكون إليه ، وما الرجال كما يقولون إلا أنصاف مائلة تطلب أنصافها الأخرى بين مخادع النساء ، فلا يزال الرجل يشعر في نفسه بذلك النقص الذي كان يشعر به آدم قبل أن تتغير صورة ضلعه اليسر حتى يعثر بالمرأة التي خلقت له فيقر قراره ، ويلقى عصاه .

وبعد : فأي مقدور من المقدورات تضيق به قوة الله وحكمته ، وأي عقل من العقول الإنسانية يستطيع أن يبدع في تصوراته وتخيلاته الذهنية فوق ما تبدع يد القدرة في مصنوعاتها وآثارها ، وهل الصور والخيالات التي تمتلئ بها أذهاننا وتموج بها عقولنا إلا رسوم ضئيلة لحقائق هذا الكون وبدائعه ، ولو أن سامعًا سمع وصف منظر الشمس عند طلوعها ، أو مهبط الليل عند نزلوه ، أو جمال غابة من الغابات ، أو شموخ جبل من الأجبال ، ثم رأى بعد ذلك عيانًا ، ما كان يراه تصورًا وخيالاً ، لعلم أن جمال الكائنات فوق جمال التصورات وحقائق الموجودات فوق هواتف الخيالات ، لذلك أعتقد أني ما تخيلت هذه السعادة التي أقدّرها لنفسي إلا لأنها كائن من الكائنات الموجودة وأنها آتية لا ريب فيها .

إن اليوم الذي أشعر فيه بخيبة آمالي ، وانقطاع حبل رجائي ، يجب أن يكون آخر يوم من أيام حياتي . فلا خير في حياة يحياها المرء بغير قلب ، ولا خير في قلب يخفق بغير حب .

5- الحب

نزل استيفن صبيحة يوم من الأيام إلى حديقة المنزل فرأى « مولر » والد ماجدولين واقفًا على رأس بعض الجداول متكئًا على فأسه فلم يرَ بدًا من أن يحييه فحيّاه بتحية حيي بأحسن منها ؛ ثم أراد أن يستمر أدراجه فرآه ينظر إليه نظره المستوقف ، ورأى كأن كلامًا يتحير في شدقيه فاستحيا أن يمضي لسبيله فوقف ، فقال له مولر : ما أجمل شمس هذا اليوم وما أصفى سماءه ، فأراد استيفن نفسه على كلمة يصل بها الحديث بينه وبينه

فلم يرَ شيئًا أقرب إلى ذهنه من أن يسأله عن ابنته ، ثم بدا له أنه إن فعل أرابه وألقى في نفسه أمرًا غير الذي يريد ، وهي المرة الأولى التي خطر له فيها أن في سؤال الرجل عن حال ابنته شيئًا غريبًا ، أو أمرًا مريبًا ؛ ثم استمر مولر في حديثه يقول : إن منظر الطبيعة في هذه الساعة جميل جدًا لا يكدّره عليّ إلا تلك الرعدة التي أشعر أنها تتمشى في أعضائي ، فما أمر مذاق الشيخوخة ، وما أثقل مؤونتها ، وسلام على الشباب وعهوده الزاهرة أيام كنت لا أحفل بنكباء ور مضاء ، ولا أبالي أن أبكر في صبيحة كل يوم تبكير الغراب إلى قمم الجبال وشواطئ الأنهار عاري الرأس حافي القدم ، أمرح وألعب وأتأثر طرائد الصيد في مسارحها وملاعبها ولم يبقَ لي من تلك الذكريات إلا وقوفي في هذا الضاحية تحت هذه الشمس المشرقة أنسج من خيوطها البيض كساء أتقي بها هذه الرعدة ، وأمتع نظري برؤية الفتيات الصغيرات صواحب ماجدولين وهن يلعبن معها فوق تلك الهضبة الثلجية . وهنا وجد استيفن مكان القول ذا سعة فقال : إن ماجدولين لم تنزل اليوم كعادتها فلعلها بخير ، قال : نعم ، هي بخير ، ولكن ضيفًا من أقربائنا نزل بنا أمس فلم أرَ بدًا من أن أكل إليها أمره والعناية به فتركتهما وذهبت لشأني ، وإن كنت أعلم أن ماجدولين ليس في استطاعتها الصبر عن النزول إلى الحديقة ، ولا يقنعها من الشمس تلك الخيوط البيض التي تنحدر إليها من نافذة غرفتها . ثم ذهبا في الحديث بعد ذلك مذاهب مختلفة ، وإنهما لكذلك إذ فتح باب المنزل ، وإذا ماجدولين وأرشميد مقبلان يحدثها فتتهلل ، وتحدثه فيبتسم ، وكأن منظرهما منظر عاشقين يتغازلان ، لا قريبين يتسامران فخيل لاستيفن أن هذا المشهد الذي يشهده غير مستحسن ولا مستعذب .

ثم اقتربا منه فصدف عنهما يتلهى بالنظر إلى بعض الزهرات وود لو وجد السبيل إلى الهرب منهما لولا أنهما اعترضا طريقه فسلما عليه فرد ردًا فاترًا .

ثم تركهما مكانهما وانحدر إلى خميلة من الخمائل ، فما خطا فيها بعض الخطوات حتى سمع الفتى يغرب في الضحك ، فما شك أنهما في شأنه ، وأنه قد أصبح موضوع هزئهما وسخريتهما ، وأنهما ما ضحكا إلا للعبث به والزراية عليه ، فأحس في قلبه بدبيب البغض لذلك الفتى وود بجدع الأنف لو جد السبيل إلى منازلته في ميدان خصام يضربه فيه ضربة تهشم أنفه وتخضب الذي فيه عيناه ليقنعه أنه ليس سخرية الساخر ، وأضحوكة الضاحك .

ثم عاد إلى نفسه يسائلها عن السبب في انقباضه ووحشته ، وعن تلك الحالة الغريبة التي ألمت بفؤاده منذ الساعة ويقول : ما لي ولهذا الفتى ؟ وبأي حق احمل له بين جنبي ما أحمل من الضغينة والموجدة ؟ فما أنا بعاشق للفتاة فأغار منه عليها ! ولا هو بمزاحم لي على هوى فأبغضه فيه! ولم يزل يسائل نفسه أمثال هذه الأسئلة فلا تجيبه ، ويراجع عقله فلا يهديه ، حتى عرف أنه لا يسمع خارج الخميلة صوتًا فبرز من مكمنه فلم يرَ أمامه أحدًا فخرج من الحديقة هائمًا على وجهه بين الغابات والأحراش حتى أدبر النهار فعاد إلى المنزل وصعد إلى غرفته ، وإنه ليمر أمام باب غرفة ماجدولين إذ سمع صوت حديث فذكر ما كان قد نسيه ، وعلم أنها تسمر مع قريبها أرشميد، وأنه لا بد أن يكون سعيدًا بهذا الحديث ، وهذه الخلوة ، فنفس عليه ذلك ، ولا ينفس الإنسان على صاحبه شيئًا يكون في نظره حقيرًا ،

فتريث في مشيته قليلاً حتى علم أنه إن دنا من باب الغرفة لا يشعران بموقفه ، فدنا منهما وأنشأ يتسمع حديثهما فلم يفهم كلمة مما يقولان ، ثم انقطعا عن الحديث وأنشأت ماجدولين تغني غناءً شجيًا قد يكون عذبًا لذيذًا في نفس استيفن لولا أن أذنًا أخرى غير أذنه تزاحمه على سماعه ، ثم انقطع الغناء أيضًا فسمع خفق نعال تتقدم نحو الباب . فابتعد عن مكانه حتى خرج الفتى وخرجت ماجدولين وراءه تشيعه في غلالة رقيقة بيضاء لا تلبسها الفتاة إلا بين يدي عشيقها أو مَن لا تحتشمه من ذوي قرباها ، فرأى في وجهها صورة جديدة غير التي كان يراها من قبل ، وأحس في نفسه بشيء غير الذي كان يحس عند رؤيتها، ثم عادت إلى الغرفة وأغلقت الباب وراءها فعاد إلى موقفه الأول وما زال راكبًا أمام بابها حتى مشت جذوة النهار في فحمة الليل ، فصعد إلى غرفته ، وقد علم أن الذي قام بنفسه منذ اليوم ليس الهذيان ، ولا الجنون ولا الوسواس ، ولا حرارة الحمى كما كان يظن ، وإنما هو الحب !

6 – الدعوة

دخل مولر على ابنته ذات يوم فقال : يا بنية إني دعوت اليوم جارنا الذي يسكن في الغرفة العليا من منزلنا إلى العشاء عندنا في الساعة السابعة فأعدي له الطعام ، واعلمي أنك ستغنينا في هذه الليلة فقد وعدته بذلك ، وقد لقيت من كرم هذا الفتى وعلو همته وشدة عارضته وكثرة ذكائه وسعة علمه بالنبات وطبائعه ما حبّبه إليّ ،

وأنزله من نفسي المنزلة العليا ، ولد أن أتخذه صديقًا ؛ وأن تكون تلك الدعوة فتحة تلك الصداقة ، ثم تركها وخرج إلى الحديقة وظل مشتغلاً بشأنه فيها حتى مالت الشمس إلى مغربها فعاد إلى المنزل وجلس إلى نافذة غرفته المطلة على الحديقة ينتظر ضيفه ، وإنه لكذلك إذ رآه خارجًا من باب الحديقة يعدو عدوًا شديدًا ، وفي يده رسالة مفضوضة فهتف بابنته يقول : يا مجدولين ، ما أحسب إلاّ جارنا قد حيل بينه وبين الوفاء بوعده فقد رأيته الساعة خارجًا يعدو من باب الحديقة ، ثم رأيته قد سلك تلك الطريق التي لا ينتهي فيها السائر إلى غرض إلا بعد سفر عشرة أميال ، فقالت : لابد أن يكون قد عرض له شأن ما كان يقدره في نفسه . فلا بد أن ننتظره حتى يعود ، ثم جلسا صامتين ، هذا يدخن لفافته وتلك تخيط ثوبها ، حتى علما أنه لن يعود ، فقاما إلى العشاء ثم إلى المنام .

7- الزيارة

جلس مولر إلى ابنته ، فنظر نظرة في النجوم ، وقال : ما أحسب إلا أن السماء ستمطرنا في هذه الليلة مطرًا غزيرًا يبلل هذه التربة الظامئة ، ويملأ هذه البقاع الجدر ، فما أجمل الربيع ، وما أجمل غيوثه المنهلة ، وما أجمل أرضه بعد أن يكسوها الغمام من نسج يده تلك الغلائل الخضر ، فقالت ماجدولين : لا تنسَ يا أبتِ أن كثيرًا من ضعفاء السابلة وطرائد الليل يعانون في مثل هذه الليلة الماطرة من تدفق الغيوث فوق رؤوسهم واعتراض الوحول في طريقهم ،

وبعد الشقة عليهم مالا طاقة لهم باحتماله ، فوارحمتاه لهم إن الشقاء كامن لهم في كل شيء حتى في الشؤون التي يسعد بها غيرهم ، فاكتأب مولر وقال : نعم يا ماجدولين إنهم أشقياء بؤساء ولابد أن يكون استيفن واحدًا منهم ، فقد مر الهزيع الأول من الليل ، ولم يعد إلى المنزل حتى الساعة بعدما قضى ليلة أمس خارجه ، فأخذت هذه الكلمة مكانها من نفس ماجدولين فأطرقت برأسها تقلب صحائف كتابها ولا تقرأ منه شيئًا ، وإنهما لكذلك إذا بطارق يخفق الباب خفقًا ضعيفًا ، فاضطربت ماجدولين ودهش مولر وقامت جنفياف إلى الباب ففتحته فإذا استيفن ماثل بعتبته فاستأذن ودخل ، وهو يقول : عفوًا يا سيدي إن كنت ترى أنني لم أفِ لك بوعدي فقد أرسل إليّ أخي كتابًا يدعوني فيه إلى مقابلته على الحدود لتوديعه قبل سفره إلى الحرب ، فأعجلني كتابه عن كل شيء حتى اعتذاري إليك فمشيت إليه عشرة أميال لا أتريث ولا أتئد حتى بلغته فودعته وداعًا جمع بين السرور له والحزن عليه . أما السرور فلأني رأيته فرحًا مغتبطًا برحلته يغني أنشودة الحرب مرة ، ويلاعب جواده أخرى ، ويمشي مشية الخيلاء بين ريش قبعته وخمائل سيفه ، وأما الحزن فلأني أخاف أن يسبقني القدر إليه فيحول بيني وبينه ، فأصبح في هذه الحياة غريبًا منفردًا ، لا أجد بين هذه القلوب الخافقة حولي قلبًا يحزن لحزني ،

ولا بين هذه العيون الناظرة إليّ عينًا تبكي لبكائي ، وهنا ذرفت من عينه دمعة كادت تبكي لها ماجدولين ، ولكنها لم تفعل ذلك حياءً وخجلاً ، وألقت عليه نظرة عطف ورحمة من حيث لا يشعر ، حتى إذا التفت إليها استردت نظرتها والقتها على صفحة كتابها ، فقال مولر : لا تجزع يا بني فالله أرحم بك من أخيك وأرحم بأخيك من نفسه ، ثم أخذ بيده إلى مائدة الشاي وجلسا يشربان معًا وأنشأ مولر يحدث صاحبه عن الشاي ومغرسه ، ومنبته وأعواده أوراقه ، وأنواعه وألوانه ، وطريقة طبخه وأصل كلمته ومصدر اشتقاقها وآراء علما النبات في ذلك وردود بعضهم على بعض وردوده هو عليهم جميعًا ، وما زال يثرثر في ذلك ويسهب ظانًا أن استيفن حاضر معه واستيفن عنه في شغل بها يختلس من نظرات ماجدولين وما تختلس من نظراته حتى فرغا من شأنها ، فاقترح مولر على ابنته أن تغني لهما صوتًا فأنشأت تغنيه بنغمة تخالطها رعدة الخائف أو رنة المحزون ، فما أتت عليه حتى طرب استيفن طربًا ملك عليه قلبه وأحاط بعواطفه ومشاعره ، شعر كأن الفضاء يدور به ، وكأن قد بدلت الأرض غير الأرض والسموات ثم خاف أن يمتد به شوطه إلى أبعد من ذلك فتناهض للقيام فمشى معه مولر إلى الباب يشيعه ويقول : زرنا يا استيفن كلما بدا لك أن تفعل ، فما دون مزارك باب موصد فانصرف بقلب غير قلبه ، وعقل غير عقله ، وحال بين جنبيه فريبة لا عهد له بمثلها من قبل .

8- المرأة

قضت ماجدولين ليلتها راكعة في معبدها مستغرقة في صلاتها تدعو الله تعالى أن يعينها على أمرها ، وينير لها ظلمة هذه الحياة الجديدة التي بدأت تسير فيها ، وقد ألمت بنفسها في تلك الساعة عاطفة غريبة متنوعة الألوان مختلفة الأشكال كأنما هي مزيج من الحب والخوف والسرور والحزن والأمل الواسع ، والرجاء الخائب ، فكانت تبتسم مرة حتى تلمع ثناياها وتبكي أخرى حتى تبتل رداؤها ، ولا تعلم ما الذي أضحكها ولا ما الذي أبكاها ولم تزل على حالها تلك حتى حلّق طائر الكرى فوق أجفانها ، فاضطجعت في مصلاها ، وأسلمت روحها إلى خالقها .

أما استيفن فقضى ليله جالسًا إلى نافذة غرفته يقلب وجهه في السماء كأنما هو يساهر كواكبها ونجومها ، ويفضي إليها بما ألمّ بنفسه في تلك الساعة من سروره إلا أنه أصبح يشعر في نفسه ببرد الراحة من البحث على ضالة غرام ظل ينشدها ويتعلق بآثارها عهدًا طويلاً حتى وجدها . وأن نفسه التي كانت حبيسة بين جنبيه قد أشرقت عليها شمس الحب فانتعشت ورفرفت بجناحها في الفضاء ، فأنشأ يحدث نفسه ويقول : أحمدك اللهم فقد ظفرت بالحياة التي كنت أقدرها لنفسي ، ووجدت المرأة التي كنت أصورها في مخيلتي ، وما المرأة إلا الأفق الذي تشرق منه شمس السعادة على هذا الكون فتنير ظلمته ،

والبريد الذي يحمل على يده نعمة الخالق إلى المخلوق ، والهواء المتردد الذي يهب الإنسان حياته وقوته ، والمعراج فيه النفوس من الملأ الأدنى إلى الملأ الأعلى ، والرسول الإلهي الذي يطالع المؤمن في وجهه جمال الله وجلاله ، ففي وجه هذه الفتاة التي عثرت بها اليوم قد عثرت بحياتي وسعادتي ، ويقيني وإيماني .

وكان يخيل إليه وهو يحدث نفسه بهذا الحديث أن الحب الذي ملأ قلبه قد فاض عنه إلى جميع الكائنات التي يراها بين يديه ، فكان يرى في صفحة السماء صورة الحب ، ويسمع في حفيف الأشجار صوت الحب ، ويستروح في النسيم المترقرق رائحة الحب ، ويرى في كل ذرة ثغرًا باسمًا وفي كل نأمة عودًا ناغمًا .

ولم يزل يهتف بهذه الصورة حتى انحدر برقع الليل عن وجه الصباح فهجع في مرقده قليلاً ثم قام فنزل إلى الحديقة يترقب نزول ماجدولين إلى متنزهاتها فلم تنزل حتى أخذت الشمس مكانها من كبد السماء ، فرابه من أمرها ما رابه فلم يَر بدًا من زيارة مولر فمشى إلى المنزل بقدم مضطربة وقلب خفّاق حتى بلغ الباب فقرعه ، ثم شعر أن شعبة من شعب قلبه قد سقطت بين أضلاعه ، وأن لسانه قد التوى عليه فأصبح لا ينطق ولا يبين فندم على أن لم يكن قد سلك سبيلاً غير تلك السبيل ، وتمنى لو فترت الخادم قليلاً من خطواتها إليه حتى يستجمع رويته وأناته ، ويسترد ما تفرّق من شمله ، فكان له ما تمناه ، ولم تفتح جنفياف الباب إلا بعد فراغها من شأن كان لها ،

فسألها أين مولر فمشت أمامه إلى قاعة الأضياف ثم تركته وذهبت لتخبر سيدها بمكانه ، وكان يقرأ في قاعة الكتب ؛ فلما خلا استيفن بنفسه أخذ يدور في جوانب الغرفة فرأى على مقربة منه بابًا مفتوحًا يلوح من ورائه سرير قائم ، فعلم أنه مخدع ماجدولين ، فتسمع فلم يرَ أحدًا فهاجه الشوق إلى اقتحامه فاقتحمه ، وهو يعلم أنها المخاطرة بعينها ولكنه كان على حال لا ينتفع فيها بما يعلم ، فدخل واقترب من السرير فوجد الفراش لا يزال مشعثًا ، ومكان رأس ماجدولين من الوسادة لا يزال منخفضًا ، ورأى بين يدي السرير حوضًا مملوءًا ماء وإلى جانبه كرسي قد انتشر فوقه رداء مبتل ، ثم نظر إلى الأرض فرأى بللاً يمثل أقدامًا صغيرة ، فعلم أن في هذا السرير كانت ماجدولين نائمة ، وفي هذا الماء كانت تبترد وبهذا الرداء كانت تتمسح ، وعلى هذه الأرض كانت تنتقل ، فجمد في مكانه جمود الصنم في هيكله ، وأخذ يقول في نفسه لقد سعد السرير الذي لامسها ، والرداء الذي ضمها ، والأرض التي لثمت أقدامها ، والماء الذي انحدر على جسمها ، ثم مشى إلى الرداء المنتشر فأخذ يلثمه كما يلثم العابد المتشدد ستائر معبده .

وتهافت على الأرض يقبل آثار تلك الأقدام . ثم خيل إليه أنه يسمع من ورائه صوتًا فرجع إلى نفسه وعاد منفتلاً إلى مكانه الأول ، فما لبث إلا قليلاً حتى دخل عليه مولر فحيّاه وقال له : عفوًا يا استيفن فقد شغلني عنك أني كنت أفتش في قواميس اللغة عن أصول أعلام نباتية ما زلت معنيًا بأمرها منذ اليوم ،

فهل لك أن تكون عونًا لي عليها على شرط أن لا تفارق منزلي قبل الغداء ـ، فابتسم استيفن ابتسامة الرضا والقبول ، لأنه علم أنه سيقضي وقتًا طويلاً في منزل ماجدولين . ثم ذهبا معًا إلى قاعة الكتب فلما أخذا مكانهما منها أنشأ مولر يسرد على صاحبه تلك الأعلام التي يقول إنها تشغله ويشرح له مدلولاتها وما رآه علماء النبات في مصادر اشتقاقها وما بدا له في المآخذ عليهم ؛ فإذا ورد في كلامه اسم كتاب قام إلى خزانة الكتب واستخرجه وتصفح أوراقه حتى يجد الكلمة التي يريدها فيتلوها بنغمة الهازئ الساخر ويقول : هكذا الأستاذ فلان ! أما أنا فأرى غير ما يراه ؛ وماذا عليّ إن بدا لي غير ما بدا له فالعلم ليس وقفًا على المؤلفين والمدونين ! وإنما هو قرع الحجة ودفع الرأي بالرأي .

وما زال يهدر في حديثه هدير الجمل المخشوش واستيفن لاه يردد النظر إلى باب القاعة من حين إلى حين عله يرى ماجدولين داخلة ، فقال له مولر : أراك تنظر إلى الباب كثيرًا كأنك تخاف أن يلج علينا الغرفة والج فيكدر علينا خلوتنا ، فاعلم أمه ما من أحد في هذا المنزل يستطيع أن يخالف أمري ويقتحم عليّ باب قاعتي من غير إذن ، وهنا صاحت الخادم تدعوه إلى الغداء فلم يقطع حديثه ، فصاحت به مرة أخرى فنهض متثاقلاً ومشى متباطئًا لا يقطع حديثه حتى وصلا إلى غرفة الطعام ، فراع استيفن أنه لم يرَ حول المائدة غير مقعدين ، فعلم أن أحدهما له ، وأن الآخر لا يمكن أن يكون لأحد غير مولر ؛ فوجم وجوم الحزين المكتئب واستمر يأكل صامتًا لا يتحدث ولا يصغي إلى حديث حتى فرغا ،

فقال له مولر : لقد أراد الله بي خيرًا إذ أرسلك إليّ في هذا اليوم فقد كدت لا أجد لي في هذه الوحدة مؤنسًا ، ولا على هذه المائدة رفيقًا فإن ابنتي سافرت منذ الصباح لزيارة إحدى صواحبها ولا أحسبها راجعة قبل المساء فهل لك أن تنزل الحديقة لنرتاض فيها قليلاً ؟ فنزلا ، فما أمعنا فيها إلا قليلاً حتى سمع مولر صوت الخادم تصيح به من النافذة أن قد عادت سيدتها ، فمد يده إلى استيفن مودعًا وتركه مكانه حائرًا مشدوهًا وليس وراء ما به من الهم غاية .

9- الحيرة

كان من أمر استيفن بعد ذلك أنه كلما رأى ماجدولين في الحديقة فر من وجهها ، وسلك طريقًا غير طريقه ، ليخلو بنفسه لحظة يصور فيها الموقف الذي يقفه بين يديها ، والتحية التي يجمل به أن يحييها بها ، فلا يصل إلى ما يريد من ذلك حتى يراها راجعة أدراجها إلى المنزل ، فكان يحمل في سبيل ذلك من الهم ما يقلق مضجعه ويطيل سهده ، ويحول بينه وبين قراره ، فلا يرى بدًا من الفرار بنفسه إلى الغابات والأجمات والهيام على وجهه في قمم الجبال ، وعلى ضفاف الأنهار ليروّح عن نفسه بعض ما ألمّ بها ، واستمر على ذلك أيامًا طوالاً لا يمشي في الحديقة ولا يرى ما جدولين ولا يزور مولر ، حتى تلفت نفسه ، وذهب به اليأس كل مذهب ، فعاد يومًا من بعض مذاهبه محمومًا لا يكاد يتماسك ضعفًا واضطرابًا فلزم غرفته أيامًا يعالج داء قلبه وداء جسمه مالا طاقة له باحتماله .

وكانت جنفياف قد ألّمت بجملة حاله فكاشفت بها سيدها فصعد إلى غرفته ليعوده فرآه مستفيقًا بعض الاستفاقة فسأله عما به فانتحل له عذرًا فجلس إليه يحادثه ساعة ، فلما أراد القيام مد استيفن يده إلى طاقة بنفسج كانت في آنية إلى جانب وسادته وقال له : إني جمعت هذه الطاقة لماجدولين لأني أعلم ولعها بالغريب المستطرف من الزهر ، فعلك تنوب عني في تقديمها إليها ، فأخذها مولر شاكرًا وانصرف .

ومرت بعد ذلك أيام كان استيفن بين يأس الحياة ورجائها حتى أدركته رحمه الله فأبل من مرضه فنزل إلى الحديقة وقد استقر في نفسه العزم على أن لا يفر من وجه ماجدولين إذا رآها وأن يتقدم نحوها فيحييها ويحادثها ، وينفض لها جملة حاله ، ولم يلبث أن رآها مقبلة عليه وجهًا لوجه فلم يرَ سبيلاً للفرار من بين يديها ، فحيّاها فحيّته ثم أغضى فأغضت ، فلم يَر بدًا من المخاطرة بكلمة يخرج بها من هذا الصمت المعيب ، فاستنصر قوته ، وتجمع تجمع مَن يريد الوثوب فوق هوّة عميقة ، وأراد أن يقول شيئًا فسمعها تتكلم ، فاستفاق وحمد الله على أن كفاه تلك المؤونة ، قالت : أراك يا سيدي شاحب اللون ، خائر النفس فلعلك عالجت من مرضك هذا عناءً كبيرًا ، قال : نعم ، قالت : أشكر لك يا سيدي هديتك الثمينة التي بعثت بها إليّ ، ولقد أعجبني منها أن تلك الزهرة هي أحب الزهور إليّ ، فكأنما ألهمت ما في نفسي ، وإني أعجب لشعرائنا في إغفالهم ذكر هذه الزهرة في أشعارهم كما ذكروا غيرها مما لا يقوم مقامها ، ولا يكافئها في حسنها وروائها ،

ولا أذكر أني قرأت لأحد منهم شعرًا فيها إلا قطعة صغيرة لشاعرنا جيتي ، وهنا وجد استيفن متسعًا في الحديث عن الشعر والشعراء ، والنبات والزهر ، واستمر يحادثها ساعة حتى حان وقت رجوعها فودعته وانصرفت ، فصعد إلى غرفته وقد عزم أن يراسلها فيما عجز عن مفاتحتها فيه .

10 – من سوزان إلى ماجدولين

كنا قد عزمنا على أن نزورك في قريتك يا مجدولين أنا ووالدي فحدث حادث حال بيننا وبين ذلك : دعانا أحد الأصدقاء لزيارته في بلدته ، وهي على بعد ثلاثة فراسخ من قريتنا ، ولا تبعد عن قريتك إلا قليلاً فذهبنا إليه صبيحة يوم وقضينا في منزله عدة ساعات حتى إذا زلفت الشمس عن كبد السماء خرج القوم إلى الخلاء للتنزه في غاباته وأجماته ، وأنت تعلمين فيما تعلمين من أمري أنني لا أجد في نفسي تلك اللذة التي يجدها الشعراء المتخيلون في جمال الطبيعة وحسنها ، وبهجتها وروائها ، ولا أغتبط بما يغتبطون به من منظر الغابات والأحراش والجبال والآكام ، ولا أطرب لخرير الماء ، ودوي الريح ، وهزيم الرعد ، وحرارة الشمس ، ووعث الطريق وخشونة الأرض ، واقتحام الصخور ، والتعثر بين أغوار الفلاة وأنجادها ، كما يطربون ، ولكنني لم أرَ بدًا من مصانعتهم ومجاملتهم ، فمشيت صامته ومشوا يتحدثون بجمال الحياة القروية ، ويتمدحون بعيش العزلة بين سكون الطبيعة وهدوئها ، وجمال الكائنات وجلالها ،

والله يعلم أنه ما من أحد منهم يعلم من نفسه أنه صادق فيما يقول ، أو أنه يتمنى لنفسه ذلك الشقاء الذي يحسد الأشقياء عليه ، فكان مثلهم في ذلك كمثل أولئك الكتّاب المرابين الذين يكتبون الفصول الطوال في مدح الفلاح ، والتنويه بذكره ، والثناء على يده البيضاء في خدمة المجتمع الإنساني ، حتى إذا مر ذلك المسكين بأحدهم وأرد أن يمد يده لمصافحته تراجع وكفكف يده ضنًا بها أن تلوثها بأقذارها تلك اليد السوداء .

وما زلنا كذلك حتى بلغنا شاطئ النهر فراعنا أن رأينا هنالك جمعًا عظيمًا من الناس يتدفع فوق الشاطئ الآخر تدفع الموج المتراكم ، ويشير إلى الماء بأصبعه وينادي : الغريق الغريق ، النجدة النجدة فالتفتنا حيث أشاروا ؛ فإذا رجل بين معترك الأمواج يصارع الموت والموت يصرعه ويغالب القضاء والقضاء يغلبه ، يطفو تارة فيمد يده إلى الناس فلا يجد يدًا تمتد إليه ، ويرسب أخرى حتى تنبسط فوقه صفحة النهر فتحسبه من الهالكين ، وما زال يتخبط ويتشبث ، ويظهر ، ثم يختفي ، ويتحرك ثم يسكن ، حتى كلّ ساعده ، ووهت قوته ، وابيضت عيناه ، واستحال أديمه ، ولم يبقَ أمام أعيننا منه إلا رأس يضطرب ، ويد تختلج ، فبكى الباكون وأعول المعولون ، ونظر الناس بعضهم إلى بعض كأنما يتساءلون عن رجل رحيم ، أو شهم كريم ، وإنهم لكذلك إذا رجل عار يدفع الجمع بمنكبيه ، وينزلق بين الناس انزلاق السهم إلى الرمية ، حتى ألقى بنفسه في النهر وسبح حيث هبط الغريق فهبط وراءه ، وما هي إلا نظرة والتفاته أن انفرج الماء عنهما فإذا هما صاعدان ، وقد أمسك الرجل بذراع الغريق ، فكبّر الناس إعجابًا بهمة المخلص ، وفرحًا بنجاة المسكين .

ولكنا ما كدنا نستفيق من هذا المنظر المحزن حتى راعنا منظر آخر أجل منه وقعًا وأعظم هولاً ، فقد رأينا الغريق كأنما جن جنونه فظن أن مخلصه يريد به شرًا ، وأنه ما أمسك بذراعه إلا وهو يريد أن يهوى به إلى قاع الماء فيعيده سيرته الأولى ،، فأفلت منه وضربه بجميع يده في صدره ضربة شديدة ، ثم أنشب أظافره في عنقه ولفه بساقيه لفة خلنا أن عظامه تئن لها أنينًا ، فاستيأس الرجل وعلم أنه هالك ما من ذلك بد ، فرفع يديه إلى السماء وهتف باسم أظنه اسمك يا مجدولين ، فلم أفهم ماذا يريد ، ولا مَن هي تلك التي يريد ، ثم ما لبثا أن هوى الماء بهما ، وجرى مجراه فوقهما ، فخفقت القلوب ، ووجفت الصدور وخفتت الأصوات وامتدت الأعناق ، وتواثبت الأحشاء وتزايلت الأعضاء ، ومشى اليأس في الرجاء مشى الظلام في الأضواء ، ومرت على ذلك دقائق لا تضطرب فيها موجة ، ولا تهب نسمة ، ففزعت إلى أبى ذاهلة حائرة ، وقلت : أيتعذب الغرقى كثيرًا في مصارعة الموت ؟ فبكى لبكائي ، وقال : نعم يا بنية ، ولقد يبلغ الأمر ببعضهم أن يدور بيده في قاع الماء يفتش عن حجر يضرب به رأسه ضربة قاضية يستريح بها من الآلام والأوجاع . فركعت على كثيب من الرمل ورفعت إلى السماء يدي وقلت اللهم إنك أعدل من أن تجازي بالإحسان سواءً وبالخير شرًا ، فلقد أبلى هذا الرجل في إنقاذ هذا الغريق بلاءً حسنًا ، وبذل في سبيل ذلك من ذات نفسه ما ضنّ به الناس جميعًا ، فأمدد يديك البيضاء التي طالما مددتها لإنقاذ البائسين واكشف عنه كربته التي يعالجها إنك أرحم الراحمين .

ثم استغرقت في دعائي ، فلم أعد أشعر بشيء مما حولي ، حتى سمعت ضجة على الشاطئ ، فاستفقت ، فإذا النهر يتثاءب عن الرجل ، وإذا الرجل صاعد وحده حتى بلغ سطح الماء فهتف به الناس : أن انج بنفسك فقد أبليت ! فأبى عليه كرمه ووفاءه أن يكون قاسيًا أو منتقمًا ، فألقى بنفسه في الماء مرة أخرى ، وعاد بالغريق يحمله على كتفه ، وما زال يسبح به حتى بلغ الشاطئ فسقطا جميعًا . فتولى القوم أمرهما ، وما زالوا بهما حتى أفاقا ، فمشى الغريق إلى مخلصه بعدما ألمّ بقصته معه يتوجع له ويمسحه ، ويشكر له يده عنده ، ويعتذر له عن ذنبه له ، ثم انفض الجمع ، وبقى الرجل وحده فلبس ثيابه ، ثم مشى يتحامل على نفسه إلى شجرات بنفسج كن على الشاطئ فأخذ يقتطف من زهراتها ويضعها في منطقته ، كأنما يريد أن يتخذ منها طاقة يجعلها لتلك الحادثة تذكارًا ، فتركناه على حاله وعدنا إلى المنزل صامتين محزونين ؛ وقد فاتنا ما كنا نؤمل من زيارتك في ذلك اليوم .

لا أستطيع أن أكتب غير هذا ، فقد أصبحت لا ذكر تلك الحادثة إلا وأجد لذكراها من الألم في نفسي ما يخيل إليّ أنها حاضرة بين يدي ، وربما كتبت إليك فيما بعد والسلام .

11 – المكاشفة

مال ميزانها النهار ، وانحدرت الشمس إلى مغربها ، ودب الظلام في الأضواء دبيب البغضاء في الأحشاء وسكن كل صوت إلا صوت العصافير المزدحمة على أبواب أعشاشها . وجلس استيفن في الحديقة تحت ظلال أشجار الزيزفون يترقب نزول ماجدولين .

وقد كتب لها كتابًا نطق فيه قلمه بما عجز عنه لسانه ، فنشرة بين يديه وأنشأ يقلب نظره فيه فخيل إليه أنه غير مستعذب ولا سائغ ، وأن في كل جملة من جمله موضع ضعف ، فاستقر رأيه على أن يطويه حتى يكتب لها خيرًا منه ، ثم رآها مقبلة نحوه تحمل في يدها كتابًا ، فلما دنت ابتسمت له وقالت له : أتذكر يا سيدي مكان الشجرات التي اقتطفت منها زهرات البنفسج التي أهديتها إليّ فاضطرب لسؤالها . وقال : نعم ، إنها على ضفة نهر صغير يبعد عنا فرسخًا أو فرسخين ، قالت : اقرأ هذا الكتاب فإن لك فيه ذكرًا ؛ فأخذ منها كتاب سوزان في حادثة الغريق وأمرّ نظره عليه مرارًا فعرف كل شيء فرده إليها صامتًا وهو لا يدري ماذا يقول ، فقالت : إنك تكتم عني نفسك يا استيفن فقد عرفتك وعرفت يدك البيضاء في حادثة الغرق وبلاءك فيها وما عالجت من آلام الحمى على أثرها ، ثم مدت يدها إليه فصافحته ، فلم يكن بين تلامس كفيهما ، وخفوق قلبيهما ، إلا كما يكون بين تلامس أسلاك الكهرباء واشتعال مصابيحها ، ولبثا بعد ذلك ساعة صامتين لا ينطقان ، إلا أن في الجبين لغة لا تقرأها إلا العيون ، فقرأ استيفن في وجه ماجدولين لوعة الحب وألم الحزن ، واضطراب الجأش وحيرة النفس ، وقرأت في وجهه الحب والسعادة والدهشة والسرور المتلألئ ، والدمع المترقرق فهاجها هذا المنظر فأرسلت من محاجرها أول دمعة من دموع الحب ، فبكى لبكائها وحنا عليها حنو المرضعات على الفطيم

وشعر في نفسه وقد ضمها إليك بتلك العاطفة اللذيذة التي يجدها الغريب النائي عن أهله وجيرانه إذا لاقى في مطارح غربته غريبًا مثله يأوي إليه ، ويحنو عليه ، ثم أخذ بيدها فألصقها بكبده كما يفعل المريض بيد عائده ليدله على موضع ألمه ، وكأنما هو يقول لها : إن لغة اللسان لا تكشف لك عما اشتملت عليه أضالعي من الوجد بك ، والحنين إليك ، فالمسي قلبي بيدك لتعرفي مكنونه ، وتكشفي غامض سريرته ، ثم خر راكعًا بين يديها وقال : أتحبينني يا مجدولين؟ فلم تجب ، فأعاد كلمته فاستمرت في صمتها ، فمد يده إليها ضارعًا وقال : رحماك يا مجدولين ، إنني أخاف أن أكون في حلم ، وأن تكون هذه السعادة التي أراها بين يدي خيالاً من الخيالات الكاذبة التي كانت تتراءى في أحلامي الماضية فأغتبط بها وأسكن إليها حتى إذا ما استيقظت وجدت يدي صفرًا منها ، فأسمعيني كلمة الحب لأعلم أنك حاضرة لدي ، وأنني لست واهمًا ولا حالمًا .

ومرت بهما على ذلك ساعة لا يعرف مكانها من نفسهما إلا من مرت به في يوم من أيام شبابه ساعة مثلها ، فقد كانا يشعران أنهما في معزل عن العالم ، وأن مكانهما من تلك الحديقة في انفرادهما وسكونهما وهنائهما وغبطتهما مكان آدم وحواء من جنتهما ، قبل أن يأكلا الشجرة ويهبطا إلى الأرض ، وأن روحهما قد تجردت عن جسمهما فطارت ترفرف بأجنحتها في فضاء الملأ الأعلى ، فرأت مدارات الشموس في أفلاكها وحركات الكواكب في منازلها ، ومرت بين صفوف الملائكة ، وسمعت زجلها وتسبيحها تحت قوائم العرش ،

ودخلت جنة الخلد فرأت حورها وولدانها ، ولؤلؤها ، ومرجانها ، وروحها وريحانها ، فلم يستفيقا من غمرتهما حتى سمعت ماجدولين صوت جنفياف تناديها ، فمدت إليه يدها مودعة وهي تقول : غدًا في مثل هذه الساعة في هذا المكان ، فمد يده إليها ذاهلاً لا يعلم ماذا يريد به ثم مضت ومضى بنظراته على آثارها حتى اختفت آخر طية من طيات ردائها الأبيض ، فجمد في مكانه ساعة لا يتحرك ولا يلتفت كأنما يتخيل أنها لا تزال جالسة بين يديه ، فلما سمع خفق بابها دار بعينيه حول نفسه يمنة ويسرة فعلم أنه جالس وحده .

12- النشوة

خرج استيفن بعد ذهاب ماجدولين هائمًا على وجهه يعدو في عرض الفضاء ينحدر إلى يمينه مرة وإلى يساره أخرى ، وكأنما يريد أن يشهد الأرض والسماء ، والبحار والأنهار ، والجبال الشُّمَّ ، والسهول الفِيحَ ، والحيوان الناطق ، والجماد الصامت ، على سروره وغبطته ، وكان يشعر في نفسه أن السعادة التي نالها هي فوق ما يحتمل طوقه . فكان كلما مر بأحد من الناس حدثته نفسه أن يفضي إليه بقصته ليحمل عنه جزءًا من سعادته ومر بأطفال يلعبون فجمعهم حوله وأخذ يقبلهم واحدًا بعد واحد ، ثم نثر عليهم كل ما معه من المال ، وبوده لو ملك مفاتيح الأرزاق فأسبغ على الناس جميعًا أنعمه وآلاءه فمحا بؤسهم وشقاءهم ، وما زال يتغلغل في أحشاء الظلام متيمنًا متياسرًا صاعدًا منحدرًا ،

حتى رأى باب الحديقة مفتوحًا بين يديه فاقتحمه ومشى إلى مكانه الأول فجلس فيه وأخذ ينظر إلى شعاع النور المنبعث من بين ستائر غرفة ماجدولين فخيل إليه أنه يرى قيامها وقعودها ، وجيئتها وذهابها ، ويسمع حفيف ثوبها ، وخشخشة أوراق كتابها ، حتى انطفأ المصباح ، فصعد إلى غرفته وجلس إلى مكتبه يكتب إليها كتابًا طويلاً ، ثم نال منه التعب فقام إلى سريره ونام نومًا هادئًا لذيذًا حلم فيه أحلامًا ما رأى مثلها بعد ليالي طفولته الجميلة .

13 – من استيفن إلى ماجدولين

لا أزال أشعر حتى الساعة بجمال ذلك المقام الذي قمته بين يديك أمس ولا أزال ألمس صدري بيدي لأعلم أين مكان قلبي من أضالعي مخافة أن يكون قد طار سرورًا بتلك السعادة التي هي كل ما يتمنى المحب أن يكون ؛ والتي لا أعتقد أن أبناء الخلود يقدرون لأنفسهم في دار نعيمهم خيرًا منها ، ولو أن لامرئ أن يعبد مَن يسدي إليه أفضل النعم وأسبغها ، وأجمعها لكل خير وبر ، لوجدتني يا مجدولين ساجدًا بين يديك في كل مطلع شمس سجود العبد الشاكر للإله المنعم .

إن الله لم يهبني نعمة الجمال التي وهبك ، ولم يجملني بمثل ما جملك به من رقة الحس وعذوبة النفس ، فإن أنت أحببتني فقد أحببت فتى مجردًا من مزايا الفتيان ؛ لا يستطيع أن يمت إليك بمثل ما تمتين به إليه ، ولا أن ينيلك من السعادة ما أنلته منها ، فإن كنت ترين أن الإخلاص في الحب والوفاء بالعهد ، وهبة النفس هبة خالصة بلا ندم ولا أسف ، مزية أستحق لها محبتك ، فها أنذا أقدمها بين يديك ؛ فتقبليها مني وقولي إنك سعيدة . كما أنا سعيد بك .

14- العهد

قد استيفن كتابه إلى ماجدولين يدًا بيد فدهشت حينما رأته وألقت عليه نظرة الحائر المتردد ، فنظر إليها استيفن نظرة المتوسل المستعطف ، فتناولته منه وخبأته في ثنايا صدرها ، وقالت : أصحيح يا استيفن ما حدثتني به سوزان في كتابها أن اسمي كان آخر كلمة هتفت بها في الساعة التي كنت تحسب أنها آخر ساعاتك في الحياة؟ قال : نعم ، ولقد نلت ببركة هذا الاسم ما كنت أقدر لنفسي من النجاة عندما هتفت به ، فقد علمت أن الله ما منحك هذه المنحة من الجمال ولا جملك بما جملك به من محاسن الخلال ، إلا وأنت آخر بنات حواء عنده ، وأكرمهن عليه ، فهو أضن بك من أن يجرح قلبًا يخفق بحبك ، أو يخرس لسانًا يهتف بذكرك ، فعذت باسمك في شدتي كما يعوذ المؤمن في شدته باسم الله ، فكان لي خير معاذ وملاذ ، قالت : إنك قد لقيت في شدتك هذه عناءً كثيرًا ، ولقد كنت فيما فعلت من القوم المحسنين ؛ قال : قلما كنت محسنًا قبل اليوم ،

ولكنه الحب ملأ القلب رحمة وحنانًا ويصغر في عينيه عظائم الأمور وجلائها ويوحي إليه أفضل الأعمال وأشرفها . أما ما لقيت في ذلك اليوم فقد كان فوق ما يحتمل المحتمل ، فقد خيل إليّ أنني أهوي في منحدر لا أعرف له قرارًا ؛ وأن جسمي يتفتح عن روحي تفتحًا فتلمس منه إملاس الفرخ من بيضته ، فلما ذكرتك استروحت من ذكراك ما استروح يعقوب من قميص يوسف ، فلما نجوت علمت أنك سبب نجاتي ، فما بلغت الشاطئ حتى جمعت تلك الزهرات فأرسلتها إليك تذكارًا لتلك النعمة السابغة التي أسديتها إليّ ، فمدت يدها إلى صدرها ، وأخرجت منه طاقة زنبق وقالت : إن أبي قد جمع لي بها هذه الأزهار صباح هذا اليوم فأنا أقدمها إليك ردًا لتحيتك التي حييتني بها ، فتناولها منها ونثرها بين يديه وأخذ يؤلف بين أشتاتها وينظمها في سلك مستدير حتى صارت إكليلاً جميلاً فوضعه على رأسها وقال : إن مَن يرى هذا الإكليل الزاهر فوق هذا الجبين الساطع لا يرى إلا أنه إكليل عرس على رأس عروس فأخذت كلمته هذه مأخذها من نفسها فأطرقت قليلاً ، ثم رفعت رأسها فإذا دمعة رقراقة تترجح في محجريها . فقال : لا تبكي يا ماجدولين ، فما في قوى هذا العالم كلها قوة تستطيع أن تحول بيني وبينك ، قالت : إنما أبكي خوفًا من الحب ، وما أنا إلا فتاة مسكينة منقطعة أشعر بالحيرة التي تشعر بها كل فتاة لا أم لها ترشدها ولا ناصر لها يعينها ، قال : ألا تعتقدين أن قلبك طاهر؟

قالت : ذلك ما أعتقده وأشهد الله عليه ، قال : إذن فالله هو الذي ينصرك ويعينك ، وهو الذي يأخذ بيدك في حيرتك وينير لك السبيل في ظلمات هذه الحياة ، لا تخافي من الحب يا ماجدولين ، ولا تخافي من غضب الله فيه ، واعلمي أن الذي خلق الشمس وأودعها النور ، والزهور وأودعها العطر ، والجسم وأودعه الروح ، والعين وأودعها النور ، قد خلق القلب وأودعه الحب ، وما يبارك الله شيئًا كما يبارك القلبين الطاهرين المتحابين لأنهما ما تحابا إلا إذعانًا لإرادته ، ولا تعاقدًا إلا أخذًا بسنّته في عباده ، فامددي إليّ يدك وأقسمي بما أقسم به أن نعيش معًا ، فإن قدر لنا أن نفترق كان ذلك الفراق آخر عهدنا بالحياة ، فمدت إليه يدها فتقاسما وتعاهدا ، وكانت الشمس قد انحدرت إلى مغربها فافترقا .

15 – من إستيفن إلى ماجدولين

كتبت إليك كثيرًا فلم تكتبي إليّ كثيرًا ولا قليلاً ، لأنك تعتقدين ما يعتقده كثير من النساء من أن المرأة التي تكتب إلى حبيبها كتاب حب آثمة أو غير شريفة ؛ أما أنا فأعتقد أنها إن لم تفعل فهي مرائية مصانعة لأن المرأة التي وهبت قلبها هبة خالصة لا يخالطها شك ، ولا ريبة ، لا ترى مانعًا يمنعها من أن تكتب لحبيبها في غيبته ، بمثل ما تحدثه به في حضرته .

إن الحيطة في الحب رأي تراه لنفسها المرأة البغي التي تتخذ لها كل يوم حبيبًا تقسم بين يديه بكل محرجة من الأيمان أنها ما فتحت باب قلبها لزائر قبله ، فهي تخاف أن تسجل بيدها على نفسها في يومها ما يفسد عليها أمرها في غدها ، أما المرأة الشريفة فما أغناها من ذلك كله ، لأنها تحب فتخلص فتقول ، فتكتب ما تقول .

اكتبي إليَّ يا ماجدولين ، فإن الذي يستطيع أن يكتم سر حديثك لا يعجز عن أن يكتم سر كتابك ، واعلمي أن رجلاً غيري ذلك الذي يتخذ من رسائلك سيفًا يجرده فوق عنقك ، إن بدا لك في الفرار منه رأي ، وإن فتاة غيرك تلك التي ترضى لنفسها أن تهب قلبها إلى رجل يتجر بأسرار النساء .

17 – البحيرة

مضت على استيفن وماجدولين بعد ذلك أيام كانا يلتقيان فيها في المنزل أو في الحديقة أو في الغابة أو على ضفة النهر ، وكثيرًا ما كانا يجلسان بجانب شجرات البنفسج ، ويذكران حادثة النهر ، وطاقة الزهر ، وأحيانًا كانا ينزلان في زورق صغير يسيران به في البحيرة ساعة أو ساعتين ، ثم يعودان .

فنزلا في الزورق يومًا ، وكانت الشمس قد لبست ثوبها الثالث ، ثم ما لبثت أن هوت إلى مستقرها على أن ترسل من خلفها سليلها القمر إلى هذا الوجود ليقوم عنها بحراسته حتى تعود إليه ، فأمعنا في البحيرة ، وكانت هادئة ساكنة كصفحة المرآة ، وكان النسيم باردًا رطبًا يترقرق فيلامس الوجوه بخفة كما تلامس يد الحسناء وجه حبيبها ، وقد سكن كل شيء إلا صوت قطرات الماء المنحدرة من المجاذيف إلى البحيرة ونقيق الضفادع من حين إلى حين ، ثم هتك القمر ستر الظلام وأرسل أشعته الزرقاء إلى الزورق والبحيرة والشاطئ ، وما وراء ذلك ، فكانا يريان على ضوئه بعض الأشجار كأنها أشباح متحركة ، ويتخيلان أن عيون الحشرات السارية بين لفائف الأعشاب شرر ينقدح ،

فلذ لهما هذا المنظر البديع ، وذلك السكون العميق ، وتلك الوحدة التي لا يكدرها عليهما مكدر ، وتركا الزورق يمشي بهما حيث يشاء . وينحدر كما يريد ، وأنشآ يتحدثان ؛ فقال استيفين : إني أؤثر يا ماجدولين أن يكون البيت الذي نسكنه في المستقبل على شاطئ بحيرة كهذه البحيرة ، وأن يكون لنا زورق أوسع من هذا الزورق وأجمل منه شكلاً نقضي فيه الليالي المقمرة بين الرياضة والصيد والاستحمام ، ولابد أن يكون للمنزل حديقة صغيرة نغرس بها ما نشاء من الكروم والأعناب والأزهار والأنوار ، وسأتولى بنفسي غرس شجرات البنفسج لك ، وسأنشر على جدران الحديقة والمنزل غلائل رقيقة من الخضرة اليانعة ، أما المنزل فأرى أن يكون مشتملاً على طبقتين ، طبقة عليا يكون فيها أربع غرف : غرفة للأضياف ، وأخرى للمكتبة ، وأخرى للملابس ، وصمت لحظة ، ثم قال : أما الرابعة فهي التي تكون لي ولك ، فاحمرت ماجدولين خجلاً ، ثم قالت : لقد فاتك أن تذكر غرفتين أخريين . إحداهما لأخيك والثانية لأبي . قال : نعم ، لقد فاتني ذلك فلابد إذن أن تكون الطبقة العليا مشتملة على ست غرف ، أما الطبقة السفلى فتشتمل على قاعة الطعام ومخزن المؤونة وبيت الخدم والحمام ، إلى ما يلحق ذلك من مرافق البيت وحاجاته . قالت : لقد فاتك أيضًا أن الحديقة لا يجمل منظرها إلا إذا كان في وسطها حوض صغير يتدفق ماءًا نميرًا ، قال : نعم وسنتخذه لتربية الأسماك الملونة ، ولا يفوتنا أن نحوطه بسياج عال من الأغصان المشتبكة وقاية لأطفالنا الصغار .

فأخذت هذه الكلمة مأخذها من نفس ماجدولين ، واصفر لها وجهها ، ثم أطرقت برأسها طويلاً ، فحنا عليها استيفن وسألها عما بها ، فرفعت رأسها فإذا هي تبكي ، فقال : ما بك يا ماجدولين؟ قالت : إن الدهر يا استيفن أضن بالسعادة من أن يهبها كلها لشخص واحد ، وأخاف أن نكون كاذبين في آمالنا ، أو مخطئين في تصور مستقبلنا ، فليت الدهر ـ إن كان يعلم أنه سيحول بيننا وبين سعادتنا في المستقبل ويكدر علينا صفو عيشنا بفاجعة من فواجعه أو نازلة من نوازله ـ أن يمد إلينا يده في هذه الساعة فيستل حياتنا من بين يدي أجلنا لتخف في أفواهنا مرارة الموت؟ قال : لا تخافي يا ماجدولين ، فإن سلطان الدهر لا تمتد يده إلى مواقف الحب إلا إذا أراد المحبون أنفسهم أن يكون له هذا السلطان عليهم ، فكوني معي أتخذ من حبك عدة أنازل بها حوادث الدهر وأرزاءَه ، وأفسد عليه حوله وقوته ، فصمتت واجمة ، ثم ألقت نظرها على البحيرة ومجرى الزورق منها وقالت : لو أن لامرئ أن يتمنى لنفسه ما يشاء لتمنيت أن يكون هذا الطريق الذي نسير فيه طريق الأبدية وأن يظل هذا الزورق مطردًا بنا في مسيره لا يقف في طريقه شيء حتى يلج بنا أبواب السماء .

ثم تنفست الصعداء ، وقالت : حسبنا يا استيفن ، فقد أوشك القمر أن يغيب ، وأنا لا أحب أن أرى مغيبه ، لأني أخاف أن تغرب سعادتنا بغروبه ، فنظر إليها واجمًا مكتئبًا كأنما دار بنفسه ما دار بنفسها من المخاوف والأوهام ، ثم قام إلى المجاديف يحركها واضطجعت تحت قدميه ، وما زالا حتى بلغا الشاطئ ثم مشيا حتى بلغا المنزل ، فلما أرادا أن يفترقا أدنى يدها من فمه يحاول أن يقبلها ، فأبت فقبّلها في جبينها فارتعدت ، وألقت عليه نظرة عتب أخذت من نفسه مأخذها وانصرفت .

17– من ماجدولين إلى استيفن

ماذا صنعت يا استيفن؟ إنك سلبتني الليلة الماضية راحتي وسكوني ، فإني كلما تذكرت تلك القبلة التي وصمت بها جبيني شعرت كأن نارًا مشتعلة تتأجج بين أضالعي ، وأن صحيفتي التي لم تزل بيضاء حتى ليلة أمس قد أصبحت تضطرب في بياضها الناصع نقطة سوداء ، فأحاول أن أطردها من أمامي فأكون كالأرمد الذي يحاول أن يطرد الغشاوة السوداء عن عينيه فلا يستطيع ، لقد سكبت عيناي كثيرًا من العبرات ، وتوسلت كثيرًا إلى الله تعالى أن يغفر لي ذنبي ، ولا أدري ما هو صانع بي ، ولا كيف أستطيع أن أقف بين يديه يوم الحساب بهذا الجبين المسود من الإثم ، وهذا الوجه المحمر من الخجل ؟ لا أكتمك يا سيدي لأنني لولا أن عزيت عن هذه النكبة بأنك أخذت مني تلك القبلة أخذًا ، ولم أمنحها لك منحة ، لقتلت نفسي بيدي . لا تعد إلى مثلها يا استيفن إلا إذا أردت أن تراني يومًا من الأيام بين يديك جثة هامدة .

18– من استيفن إلى ماجدولين

ما كنت أعلم قبل اليوم أن الفتاة التي تحب ، وتعاهد مَن تحب ، وتقسم بين يدي حبيبها يمين الإخلاص والوفاء على أن تكون له كما يكون لها ، وألا تجعل ليد غير يد الموت سبيلاً إلى التفريق بينهما ـ تستكثر عليه قبلة شريفة يأخذها من جبينها كما يأخذ الأخ من جبين أخته ، والمتعبد من يد كاهنه .

ما أحسب إلا أنك قد خدعت نفسك بنفسك يا ماجدولين حين ظننت أنك عاشقة ، وما أنت من الحب في شيء لأن الفتاة التي تحب لا ترى بأسًا في أن تمنح قبلة لحبيبها منحة ولا تنظر أن يأخذها منها أخذًا .

الآن عرفت أن بكاءك بين يدي واضطراب يديك في يدي ، وخفوق قلبك عند رؤيتي ؛ إنما كان أثرًا من آثار الخوف لا مظهرًا من مظاهر الحب ، وأن عطفك عليّ وتحببك إليَ ولصوقك بي ، لم يكن لأنك كنت تحبينني ، بل لأن فتاة مسكينة ضعيفة مثلك لابد لها أن تشعر بالميل إلى كل رجل قوي بجانبها .

تقولين لي أنك قضيت ليلك أمس معذبة ، لا يهنأ لك مضجع ، ولا يغتمض لك جفن ، أما أنا فأقول لك : إني لم أقض في حياتي ليلة أهنأ من تلك الليلة ، لأني بت أتخيل تلك القبلة التي تناولتها من جبينك كأنها ثغر منضد يبتسم إليّ أرق ابتسام وأعذبه ، فأشعر بروح الحب تدب في أعضائي دبيب الحميا في وجه شاربها ، أما اليوم فأني أصبحت أتخيلها تمثالاً جامدًا من الحجر الصلد ماثلاً بين يدي لا يتحرك ولا ينطق .

عفوًا يا ماجدولين . فإني ما تناولت القبلة من جبينك إلا وأنا أعتقد أني أقبل زوجتي لأني لا أرى فرقًا بين عهد الإخلاص الذي يؤخذ بين يدي الحب وعقد الزواج الذي يعقد بين يدي الكاهن . وأشكر تلك الساعات القليلة التي سعدت فيها على يدك ، وإن كانت سعادة موهومة . ويمكنني أن أقول لك إني ما نقضت ـ

حتى الساعة ـ ذلك العهد الذي عاهدتك عليه ، وإني لا أزال أحبك كما كنت ، لأني ما كنت أحببتك لأجازيك على حب بمثله ، ولا لأنك جميلة أو عاقلة أو ذكية ، ولا لشيء مما يحب الرجال له النساء ، بل أحببتك للحب نفسه والسلام .

19- من ماجدولين إلى استيفن

عفوًا يا استيفن فما كنت أحسب أن كلمتي بالغة ما بلغت ، أو أنها ذاهبة بك هذه المذاهب كلها ، فاغفر لي ذنبي ، فوالله ما احتفظت بعرضي إلا لك ، ولا منعتك نفسي اليوم إلا لأبذلها لك غدًا ، أنت اليوم حبيبي ، وغدًا تكون زوجي ، وكل ما صنعته أني توسلت إلى حبيبي أن يزفني طاهرة نقية إلى زوجي ، أما الخداع الذي تذكره في كتابك فأنا أعتقد أنك تعلم من أمري غير ما تقول ، ولكنك غضبت فقلت غير ما علمت .

20- من مولر إلى استيفن

أكتب إليك كتابي هذا ويدي ترتعد خجلاً ، ونفسي تسيل حزنًا ، لأني ما كنت أقدر في نفسي أن ستمر بي ساعة من ساعات حياتي أرى نفسي فيها مضطرًا أن أقول لصديقي الذي أجله وأعظمه وأنزله من نفسي خير منزلة ، إني لا أستطيع أن أستقبلك في منزلي بعد اليوم ، بل لا أستطيع أن أحتمل بقاءك في المنزل الذي أسكنه وتسكنه ابنتي لأن لي شرفًا أبقي عليه أكثر مما أبقى على صداقة الأصدقاء ، على أنني أرجو ألا تزال تعدني صديقك المخلص إليك ، كما أني لا أزال أعدك كذلك ، وإن فرقت بيننا الأيام .

21- حديث

جلست ماجدولين في غرفتها تخيط ثوبًا لها ، ربما كانت تعده لليلة عرسها فندت إبرتها من يدها فرفعت رأسها فإذا أبوها ماثل بباب الغرفة فدهشت لمرآه وراعها منظر سكوته وجموده . ثم مشى إليها بقدم مطمئنة حتى وضع يده على عاتقها وقال : أتعلمين يا ماجدولين إني أرسلت جنفياف الساعة بكتاب إلى استيفن أمنعه فيه من دخول بيتي ، بل أمنه من البقاء في منزلي ؟ قالت : لا أعلم عن ذلك شيئًا ، ولا أعرف لصنيعك هذا سببًا ، قال : لا سبب له إلا أنه يحبك ، قالت : إنه لا يحبني ، ولكنه يحب أن يتزوج بي ، قال : ذلك ما لا أريد أن يكون ، قالت : ولماذا ؟ قال : لأنه لا يصلح أن يكون زوجًا لك ، قالت : أنا أعلم أنك اتخذته لنفسك صديقًا ، وأنك تعرف مكانه من الفضل والنبل ، فكيف ترضى أن تتخذ لنفسك صديقًا مَن لا ترى أنه لا يصلح أن يكون لابنتك زوجًا ؟ قال : إني أصادقه لأنه شخص كريم ، ولا أحب أن أصاهره لأنه بائس فقير ، فقد عثرت بكتاب سقط منه فقرأته فعرفت أنه لا يملك ما يقوت به نفسه فأحرى ألا يملك ما يقوت به أهله ، قالت : إنك حدثتني عنه أنه فتى ذكي متعلم ، ومَن كان هذا شأنه لا يكون بينه وبين الغنى إلا بضع جولات يجولها في ميدان هذا العالم ، فيعود من بعدها رجلاً غنيًا وزوجًا صالحًا ، قال : إن في أخلاقه من الأنفة والترفع ما يحول بينه وبين النجاح ، قالت إن الحب يقوم ما اعوج من الأخلاق ويحيي ميت الأمل في نفس المحب ،

فلا تطفئ جمرة الحب التي تشتعل في قلبه ، فإنك إن فعلت قتلته وقتلت أمله وأتلفت عليه حياته ، قال : يا بنية إني أعلم من أخلاق الناس وشؤونهم مالا تعلمين ، وقد رأيت أني أكون مخاطرًا بك وبمستقبلك وبكل ما أرجو لك من سعادة في العيش وهناءة ، إن أنا رضيت لك الزواج الذي أعلم أن شره أكثر من خيره بل أعلم أنه شر كله لا خير فيه ، فانظري يا بنية في أمر نفسك بعين غير عين الحب ، فإنها دائمًا حولاء ، واذكري أن أباك الذي يحبك وينزلك من نفسك منزلة لا يغلبك عليها غالب لا يمكن أن يكون غاشًا لك أو خادعًا ؛ فركعت بين يديه ومدت يدها إليه ضارعة وأنشأت تسترحمه بالبكاء مرة والدعاء أخرى ، فكانت كأنها تستنبط الماء من الصخر ، أو تستنبت الربيع في القفر حتى وهت قوتها ، فسقطت تحت قدميه فتركها مكانها ومضى لسبيله وهو يقول : إنك اليوم تجهلين ، وغدًا تعلمين .

22 – الخبر

دخلت جنفياف على استيفن في غرفته وقد جلس إلى مصباح ضعيف يقرأ في كتاب فأعطته كتاب سيدها ورجعت أدراجها ، وكان أول كتاب جاءه من مولر ، فمر بخاطره وهو يفض غلافه كل شأن إلا الشأن الذي كتب فيه ، فما أمر نظره عليه حتى فهم كل شيء .

فلو أن راميًا سدد إلى قلبه سهمًا جديدًا فنفذ إليه ما بلغ منه ما بلغ هذا الكتاب ، ولو أن نازلة من نوازل القدر هوت عليه فاختطفت نفسه من بين جنبيه لكان في مصابها رأي غير رأيه في هذا المصاب ، فقد سكن على أثر ذلك سكونًا لا تطرف فيه عين ولا ينبض فيه عرق ، ولا يخفق قلب ، ولا يتحرك خاطر ، حتى ليكاد يعتقد الناظر إليه في تلك الساعة أن هناك منزلة وسطى بين الحياة والموت ، تنبعث فيها الحواس في سبلها ولكنها لا تعود إلى الدماغ بشيء مما تحس به .

واستمر على ذلك ساعة ، ثم انتفض انتفاض الطائر المذبوح ، ودار بعينيه يمنة ويسرة كأنما يفتش عن شيء أضاعه فرفع نظره على الكتاب وهو ملقى بجانبه فقرأه مرة أخرى ، ثم ضرب جبهته بيده وأنشأ يقول بصوت خافت : لا أمل لي بعد اليوم ، هأنذا ، وها هو ذا الكتاب بين يدي ، وما أنا بحالم ولا الكتاب بكاذب ، نعم إن مولر طردني من بيته وقتل نفسي قتلاً ، وفجعني في جميع آمالي ، وحال بيني وبين ماجدولين . أي إنه فرق بين روحي وجسدي إنه فعل ذلك وهو لا يدري ماذا يفعل ، إنه احترم هذه الجرائم كلها ساكنًا هادئًا كأنما هو يعبث بفأسه في أرضه ، أو يحول جدوله من طريق إلى طريق ، لقد قسا عليّ قسوة لم يقسها أحد من قبله على أحد ، إنه علم أني فقير لا املك شيئًا ، ورأى أن الفقر جريمة لا عقاب لها إلا القتل ، فقتلني .

ثم كأنما جن جنونًا فثار من مكانه ثورة الأسد الهائج ، وتمثل له كأن مولر ماثل بين يديه فمشى إليه مهددًا ، وصار يهذي ويقول :

مهلاً رويدًا أيها الشيخ الأبله ، أظننت أني بين يديك شاة خرقاء أو دجاجة بلهاء تقدم نفسها لسكين الذابح حينما يردي ؟ لا .. لا ! أنا إنسان عاقل ورجل شجاع ، لا بد أن يكون لي أمل أحيا به ، وسعادة أنعم بها ؛ ولا بد أن أقاتل عن أملي وسعادتي حتى أبلغهما أو أقتل دونهما .

كذبت أيها الرجل ، إنك أضعيف من أن تمد يدك إلى هذا الرباط المقدس فتقطعه ، إنك أعجز من أن تنتزع شعرة من شعور رأسك البيض فأحرى أن تعجز عن أن تنتزع روحًا من جسدها .

إن الذي بيني وبين ماجدولين شيء لا تصل إليه يديك ، ولا يمتد إليه سلطانك ، ولا يتعلق به أمرك ونهيك وعطاؤك ومنعك .

إنك لا تستطيع أن تطردني من بيتك لأنك تملكه ، وأن تحبس ابنتك في غرفتها لأنك أبوها ، ولكنك لا تستطيع أن تمنع قلبينا أن يتحابا ونفسينا أن تتصلا .

إن الذي خلق الإنسان وأسدى إليه نعمة الحياة والرزق لم يسترقه بهذه النعم ، ولم يملك عليه قلبه ثمنًا لها ، بل تركه حرًا يحب مَن يشاء ، ويبغض مَن يشاء ، وأنت تريد أيها الشيخ الضعيف المسكين أن يكون لك على قلوب الناس سلطانًا فوق سلطان الله ، وإرادة فوق إرادته .

أي شيء لك عندنا ، وأي صلة لك بنا ؟ وقد ذهب عصرك وذهبت بذهابه ، وأصبحنا لا نعد وجودك وجودًا ، ولا حياتك حياة ، فإن نظرنا إليك فكما ننظر في ساعة من ساعات فراغنا إلى صفحة من صفحات التاريخ الغابر .

إن عقلك الذي بلى ورث وانتشرت فوقه طبقة سوداء من القدم لا يصلح أن يكون مرآة صادقة نرى فيها وجوهنا ، ونتحاكم إليه في سعادتنا وشقائنا .

إنك شره طمّاع ، رأيت أن ماء حياتك قد نضب ، وأن أغربة الفناء السود تحلّق فوق رأسك المشتعل شيبًا ، فعز عليك أن تموت فجئت إلينا تحاول أن تقاسمنا حياتنا الجديدة الغضة ، فكان مثلك كمثل ذلك الملك الظالم الذي كان يمتص دماء الأطفال ظنًا منه أن ما ينقص حياتهم يزيد في حياته .

إنني لم أكن أريد بك أيها الشيخ المأفون ولا بابنتك شرًا ولا ضيرًا ، بل كنت أعد لها عيشًا هنيئًا رغدًا في مستقبل حياتها ، فأنا خير لها منك ، لأنك ما أردت بها فيما صنعت اليوم إلا عذابًا دائمًا وشقاءً طويلاً .

وأعجب من ذلك كله أنك تذكر في كتابك الصداقة والإخاء والإخلاص كأنك تظن أن البله قد بلغ مني مبلغه منك ، وأني اجهل أنك شيخ مداج مصانع ، تكتب الحكم بالإعدام ، وكأنك تكتب بطاقة دعوة إلى وليمة ، وتقدم قطعة الحلوى ، وقد دسست في باطنها ناقع السم ، وترفع قبعتك احترامًا لمن يقطر خنجرك من قلبه دمًا .. وهنا بلغ منه التعب مبلغه فسقط مكبًا على وجهه ، يبكي بكاء الطفل الصغير ، وينشج نشيجًا محزنًا ، ثم جثا على ركبتيه ورفع وجهه إلى السماء وأنشأ يقول :

رحمتك اللهم وإحسانك ، فأنت تعلم أني رجل ضعيف لا ناصر لي ، ولا معين ، فكن أنت ناصري ومعيني . اللهم إني أعترف بأني أذنبت إليك في اعتزازي بنفسي ، واعتدادي بحولي وقوتي ، وأني أغفلت قضاءك وقدرك ، وما تجريه على عبادك من أحكام السعادة والشقاء ، والسلب والعطاء ، فقدت لنفسي من سعادة المستقبل وهنائه مالا أملكه ، ولا سبيل لي إليه إلا بمعونتك وقوتك ، فاغفر لي ذنبي ، وخذ بيدي في نكبتي ، فقد أصبحت أعجز الناس عن الصبر والاحتمال .

ثم سكن بعد ذلك سكونًا عميقًا ، ولم يزل باسطًا يديه رافعًا رأسه إلى السماء ، كأنما كان ينتظر أن يسمع هاتفًا يهتف به من الملأ الأعلى ؛ فلم يلبث أن رأى من خلال دموعه الحائرة في عينيه شبحًا من نور يتلألأ أمامه ، وكان المصباح قد انطفأ ، وأضاءت الغرفة بأشعة القمر فمسح دموعه بيمينه ونظر ، فإذا هي ماجدولين .

32 – الوداع

لبثت ماجدولين في غرفتها بعد أن فارقها أبوها ساعة تقلب النظر في أمرها ، فلا ترى في ذلك الظلام الحالك نجمًا يتلألأ ، ولا ذبالة تضيء ؛ فبكت ما شاء أن تفعل حتى مضى الليل إلا أقله ، فحدثها نفسها بأمر ما كانت تحدثها به لولا لوعة الحب ، وفجعة البين ، وقامت تختلس خطواتها اختلاسًا ، وما على وجه الأرض قلب أضعف من قلبها ولا لوعة أشد من لوعتها ، حتى وصلت إلى السلم فصعدت تسترق درجاته حتى انتهت إلى أعلاه فوقفت قليلاً تستغفر الله من ذنبها وتسأله إحسانه ورحمته ،

ثم مشت إلى غرفة استيفن ودفعت الباب قليلاً فرأته جاثيًا على ركبتيه يهتف بدعائه فأثر منظره في نفسها ، وأخذت تبكي لبكائه ، وتدعو بدعائه حتى التفت فرآها فخفق قلبه خفقًا متداركًا ، وتعلقت أنفاسه وجمد نظره ، وتزايلت أوصاله ، حتى ما يكاد يتحرك من مكانه ، فمد إليها يده كالمستغيث المتلهف فدنت منه وقالت : إني جئتك لأودعك يا استيفن ، ولا أستطيع أن أبقي عندك طويلاً ، فهل تستطيع أن تعدني وعدًا صادقًا ألا تترك نفسك في يد الهموم تعبث بها كيف تشاء ، وألا تجعل لليأس سبيلاً إلى قلبك حتى يجمع الله بيني وبينك ؟ قال : ذلك أمره إليك ، فأنت التي تستطيعين أن تجعليني شجاعًا صبورًا متحملاً ، وأنت التي تملكين أن أحيا بالأمل ، أو أن أموت باليأس ، قالت : إني أقول لك اليوم ، وهي أني أحببتك حبًا ملأ فراغ قلبي ، فيما يسع غيره ، ونزل منه منزلة الروح من الجسد ، فما ينتقل عنه ، وقد عاهدتك على الزواج بين يدي الله ويدي ضميري ، وما أنا بخائنة ضميري ، ولا بكاذبة ربي ، فسافر يا استيفن ، وتفتش عن سعادتنا في كل مكان ، وبكل سبيل ، حتى تجدها ، وعد إليّ بعد ذلك فإني سأكون لك ما حييت ، سافر حيث شئت ، وتقلب في البلاد كما أردت ، وعد إليّ بعد عام أو عامين أو عشرة أعوام أو أكثر من ذلك ، فإنك ستجدني كما تركتني نقية طاهرة ، ووفية ، واعلم أن الله ما ألهمني الصبر عنك ، وألهمك مثل ذلك في مثل هذا الموقف الذي تطيش فيه العقول وتطير رواجع الأحلام ، إلا وقد أرد بنا خيرًا في جميع شؤوننا ، وقدر لنا السعادة والهناء في مستقبل أيامنا ؛ سافر يا استيفن غدًا واكتب إليّ بكل ما تلاقي من خير أو شر لأقاسمك سراءك وضراءك وسأكتب إليك ما تكتب إليّ .

فسكن ثائره قليلاً ، وقال : إن سفري سيكون طويلاً يا ماجدولين ، فهل لك أن تزوديني بقليل من الزاد أستعين به على بعد الشقة وعناء المسير ، فمدت يدها إلى شعرها وقصت منه خصلة فأعطاها من شعره مثلها ، ثم تراجعت قليلاً قليلاً ، وهي تنظر إليه بعين ملؤها الحب والجزع ، والصبابة والدموع ، فقام إليها ليدركها فاختفت .

24- السفر

استيقظ استيفن صباح يوم الرجيل واطل من نافذة غرفته المشرفة على الحديقة فرأى الأفق يتفتح عن نفسه شيئًا فشيئًا ، ورأى الشمس قد هبت من مرقدها ، ولا تزال في جفنها سنة الغمض ، ثم رآها وقد لبست ثوبها الأول وخطت بعض الخطوات إلى مطلعها فمشت أمامها حاشية من الأضواء تتقدمها كما تتقدم الملك حاشيته في مطلعه من باب قصره ، ثم نظر إلى السماء من ناحية المشرق ، وقد انتشرت في أنحائها تفاريق السحب ومشت في جذوتها حمرة النور ، فخيل إليه أنه يرى هنالك برجًا عظيمًا تضطرم فيه النار اضطرامًا ، وأن دخان تلك النار يتراكم فوقها مرة وينفرج عنها أخرى ، ثم رأى أشعة الشمس البيضاء تخالط حبات الطل في أوراق الزهر والطل لم يجر ذائبة ، فكان كأنه يرى أحجارًا من الماس تضيء فتنعكس عنها ألوان مختلفة بديعة تملك القلوب والأبصار ، ولم يكن يسمع في تلك الساعة من الأصوات غير طنين النحل وهو مكب على أزهاره يرشف كؤوسها ، ويتطاير من حولها كما تتطاير الأحلام اللذيذة حول الأطفال الصغار .

فألقى على تلك المناظر كلها نظرة عامة لم يسترجعها إلا مبللة بالدمع حينما ذكر أنه سيفارق عما قليل هذه الدار ، ويفارق بفارقها سعادته وهناءه ، ويفارق ظلال الزيزفون التي كان يجلس إليها مع ماجدولين ، والجدول الذي كانا يمشيان بجانبه ، والزروق الذي كانا يتنزهان فيه ، والمقعد الذي كان يقتعده من الحديقة لينتظر مجيئها ، أو ليرى خيالها من نافذة غرفتها ، والغرفة التي كان يشرف من نافذتها ليسمع نغمات صوتها العذب ، وطاقات الزهر التي كانت تهديها إليه فيستروح منها نسيمها ، فلم يزل يبكي بكاء الشيخ على عهود صباه ، حتى كادت تتلف نفسه ، لولا أنه ذكر حديثها معه ليلة أمس فعزى نفسه عن فراقها بإخلاصها ووفائها ، وما عقدت بينها وبينه من العهود لقضى في مكانه أسفًا ، ثم قام إلى حقيبته فوضع فيها ملابسه ومرافقه ، ونزل إلى الحديقة فودع أزهارها وأشجارها ومجالسها ومقاعدها ، ولم يترك جذعًا لم يقبله ، ولا غصنًا لم يلثمه ، ولا مقعدًا لم يمرغ خده فوقه ، ويبلله بدموعه ، ونقش اسمه واسم ماجدولين على كثير من المقاعد والجذوع ، واقتطف من كل شجرة زهرة ، وجمع تلك الأزهار في طاقة واحدة وتركها على بعض المقاعد لماجدولين ، ثم ذهب إلى البستاني واتفق معه على أن يحمله على فرسه إلى (كوبلانس ثم فارق (ولفاخ) بين وجد يقتله ، وأمل يحييه .

25- من ماجدولين إلى استيفن

سافرت يا استيفن وأصبحت بعيدًا عني ، وما أحسب أني أراك في عهد قريب ، فما أعظم بؤسي وشقائي ، وما أشد ظلمة الوحشة المحيطة بي .

لقد خدعت نفسي يوم أشرت عليك بالسفر ، فقد ظننت أن بين جنبي ذخيرة من الصبر والاحتمال ، أقوى بها على تجرع كأس فراقك المريرة ، فلما فقدت وجهك علمت أني فتاة ضعيفة بائسة ، لا تقوى على احتمال أكثر مما تطيق من الآلام والأحزان ، وإنني فيما أدليت به إليك من تلك النصيحة ، إنما كنت أحدث عن خواطر عقلي ، لا عن شعور نفسي .

لقد كنت أرجو أن يكون آخر عهدي بك يوم رحيلك وقفة أقفها في نافذة غرفتي أحييك فيها تحية الوداع ، وألقي عليك فيها آخر نظرة من نظرات الحب ، لولا أنني خفت عليك الجزع أن تراني باكية ، وعلى نفسي التلف أن أراك جازعًا ، فافتديتك وافتديت نفسي بهذه اللوعة التي تتأجج اليوم في صدري ، فما أصعب الوادع ، وما أصعب الفراق بلا وادع !

ونزلت بعد سفرك إلى الحديقة فلم أجدك ، ووجدت على بعض مقاعدها طاقة الزهر التي تركتها لي قبل سفرك ، فلثمتها ولثمت شخصك فيها ، ثم مشيت إلى ذلك المقعد الذي كنا نجلس عليه معًا تحت شجرة الزيزفون فجلست فيه وحدي ، ونشرت بين يدي رسائلك الماضية ، وأنشأت أقرؤها وأصغي إلى حديثك فيها ، فخيل إليّ أنك جالس بجانبي تحدثني فمًا لفم ، وأن ما يقع عليه نظري في صفحات رسائلك إنما هي نبرات تسمعها أذني ، لا خطوط تبصرها عيني ،

فسكنت لذلك الخيال ساعة سكون الطفل الباكي لنشيد المهد ، حتى سمعتك تدعوني في بعض أحاديثك « يا خطيبتي » وهي تلك الكلمة الحلوة العذبة التي تهبط حلاوتها إلى أعماق قلبي كلما سمعتها ، فانتفضت وألقيت نظري على مكانك الذي تخيلته بجانبي فوجدته خاليًا ، فعلمت أن تلك الساعة الجميلة التي مرت بنا تحت هذه السماء الصافية ، وفوق تلك المقاعد الجميلة ، وبين مشتبك هذه الغصون والأوراق ، قد ذهبت ، ولم يبقَ منها غير ذكراها ، فبكيت ساعة طويلة لا علم لي بمداها ، ثم استفقت فصعدت إلى غرفتي ، وجلست إلى منضدتي أكتب إليك هذا الكتاب .

فمتى تعود يا استيفن ؟ ومتى تعود بعودتك الأيام الحسان ؟!

26- من ماجدولين إلى استبفن

لقد كابدت بالأمس ليلة ليلاء ، فلم ينحدر كوكب الشمس إلى مغربها حتى سمعت صوت العاصفة يهدر في كل مكان ، رأيت آفاق السماء قد أربدت واقشعرت ثم ارفضت عن غيوثها المنهملة ، فذكرت أنك لا تزال على الطريق ، وأنك تقاسي في تلك الساعة من عثرات الطريق وعقباته وقفقفة البرد ورعشته عناءً عظيمًا ، فالتحفت ردائي وأويت إلى بعض زوايا غرفتي ، وظللت أبكي على فراقك مرة وعلى شقائك أخرى ، وأذود النوم عن عيني ذيادًا لأنني لا أستطيع أن أكون راضية عن نفسي ، ولا هانئة في مضجعي إن نمت في ساعة لا تجد فيها أنت إلى الراحة سبيلاً ، حتى مضى الليل

إلا أقله ، فشعرت أن النعاس الذي يغالب جفني قد غلبني عليهما فنمت في مكان ، نومًا مشردًا مذعورًا ، حتى استيقظت مع الصباح ، فإذا الريح ساكنة ، والشمس ساطعة والجو باسم طلق ، فحمدت الله على ذلك .

إني أعد الساعات واللحظات يا استيفن ، وأنتظر بشوق عظيم وصول أول كتاب منك يبشرني ببلوغك مستقرك سالمًا ، فمتى يأتي كتابك إليّ ؟

27- من ماجدولين إلى استيفن

لم تكف الأربعون ساعة التي مرت بي لتخفف شيء من همومي وأحزاني ، فلقد قضيتها حائرة الذهن مشردة اللب أقلب عيني في كل مكان فلا أجد في بارقة من بوارق الحقيقة ولا سانحة من سوانح الخيال عزاء ولا سلوى ، فصعدت إلى غرفتك المهجورة علني أجد في مقامي بها ساعة علاج ما أكابده من هموم وأحزان ، فلما بلغتها ووضعت يدي على مفتاحها شعرت برعشة شديدة ملأت ما بين قمة رأسي إلى أخمص قدمي ؛ فلقد خيل إليّ أنني لو فتحت الباب وجدتك وراءه واقفًا تبتسم إليّ وتفتح ذراعيك لاستقبالي ، فلما فعلت لم أجد غير الوحشة السائدة ، والسكون المخيم ، وغير سريرك المشعث ، وأوراقك المبعثرة في كل مكان ، والغبار المنتشر في أرضها وسمائها ، فمهدت ما تشعث وجمعت ما تبعثر ومسحت الغبار عن المقاعد والنوافذ ، وأعدت الغرفة إلى عهدها الأول أيام كنت تسكنها وتزينها ، كأنما أبيت إلا أن تكون غرفتك المعدة لك المسماة باسمك ، حاضرًا كنت أو غائبًا .

ووجدت على بعض المقاعد بضعة دراهم في كيس صغير ، فعلمت أنها أجرة الغرفة التي يتقاضها أبي قد تركتها له ليأخذها من حيث لا تراه فأخذتها لأحملها إليه ثم أستوهبه إياها لأبتاع به حلية أو ذخيرة أتقلدها ، كأنها هدية مرسلة منك إليّ .

سأحمل نفسي يا استيفن على الصبر عنك ، حتى يطوي القدر مسافة البعد بيني بينك وستكون تعلتي التي أتعلل بها منذ الساعة كلما هاج بي هائج الشوق إليك ، أنك ما بعدت عني إلا لتقترب مني ، ولا فارقتني إلا لأنك آثرت اجتماعًا آمنًا طويلاً على اجتماع مصرد غير مأمون ، فامض في سبيلك أيها الصديق المحبوب ، وذلل بهمتك جميع العقبات التي تعترض سبيل سعادتنا وهنائنا ، حتى نلتقي بعض ذلك لقاء تنسينا حلاوته مرارة ذلك الماضي المحزن الوبيل .

28- من استيفن إلى ماجدولين

بالأمس كنا ، وكان يجمعنا بيت واحد ، لا يكدر صفاءنا فيه مكدر ، واليوم نحن وبيني وبينك خمسون فرسخًا لا تمس يدي يدك ، ولا تعبث أناملي بشعرك ، ولا أستنشق عبير أنفاسك ، ولا يرن صوتك العذب في جوانب قلبي ، ولا تضيء ابتساماتك الجميلة ظلمات نفسي . ولا تلتقي أنظارنا في مكان واحد ، ولا تمتزج أنفاسنا في جو واحد ، فلا السماء صافية كعهدي بها ، ولا الجو باسم طلق كما أعرفه ، ولا الماء صاف عذب ، ولا الهواء رقراق عليل ، ولا الروض متفتح عن أزهاره ، ولا الزهر متنفس عن عبيره كأنما كنت سر الجمال الكامن في الأشياء ، فلما خلت منك أقفرت واقشعرت ونبت عنها العيون والأنظار .

ولقد لقيت في « كوبلانس » أبي وأهلي وكثيرًا من أبناء وطني فلم يغنني لقاؤهم عن لقائك ، ولم أجد في وجوههم ذلك الأنس الذي كنت أجده فيها قبل أن أعرفك ، فأصبحت أشعر في مقامي بينهم بما يشعر الغريب المنبت الذي يعيش في وطن غير وطنه ، ودار وأهل غير داره وأهله ، فمتى تنقضي أيام غربتي ومتى أعود إلى أهلي ووطني ؟

قد أحزنني كثيرًا ما تكابدينه من الآلام والأحزان من أجلي ، ولو كشف لك من أمر نفسك ما كشف لي منها ، لعرفت أنك أسعد منى حظًا ، وأروح بالاً ، لأنك تعيشين في المواطن التي شهدت سعادتنا وهناءنا ، والتي نبتت في تربتها آمالنا وأحلامنا ، فكل ما حولك يذكرك بحبك ، وأيام سعادتك ؛ أما أنا فكل ما حولي غريب عني ، أنكره ، ولا أكاد أعرفه . كأنما هو مؤتمر بي أن ينتزع مني ذكرى تلك الأيام الجميلة التي قضيتها بجانبك وهي كل ما أصبحت أملكه من بعدك .

سأكون شجاعًا كما أمرت يا ماجدولين ، وسأبذل جهدي في تذليل كل عقبة تقف في طريق سعادتي بك ، فاكتبي إليّ كثيرًا ، وحدثيني عن كل ما يحيط بك من الأشياء ، وما يعرض لك من الشؤون ، صغيرها وكبيرها ، لأجد على البعد عنك لذة القرب منك ، واجعلي حبك عونًا لي في مقاصدي وآمالي ، فحبك هو الذي يحييني ، وهو الذي من أجله أعيش وأبقى .

29- حفلة رقص

أقام والد استيفن في بيته حفلة راقصة ، وأمر ولده أن يشهدها ، ولم يكن قد شهد حفلة رقص قبل اليوم ، فأذعن على كره منه ، فلما اجتمع وماجت قاعة الرقص بالراقصين والراقصات ، وقف استيفن موقف الحيرة والخجل أمام هذه المناظر المدهشة الغريبة ، لا يدري ماذا يفعل ، وأي سبيل يأخذ ؟ وخيل إليه أن هناك قانونًا موضوعًا للحركات والسكنات والجيئات والروحات ، وأن مَن أغفل حرفًا واحدًا من حروف ذلك القانون أخذته العيون ، ودارت به الأنظار ، ورنت حوله ضحكات الهزء والسخرية ، وكان لا بد له من أن يخرج من موقفه هذا إلى حالة من الحالات ، كيفما كان شأنها ، فلمح على البعد شمعة يتضاءل نورها بين الشموع المحيطة بها ، فخطر له أن يتلهى بإصلاح ذبالتها . فمشى إليها يتخبل في ثيابه تخبلاً ، لأنها لم تكن ثيابه ، بل ثياب بعض أقربائه أعاره إياها هذه الساعات من الليل وصاحبها أطول منه قامة ، وأضخم جسمًا ، فلما دناها رأى أن ذبالتها قد التوت على نفسها فطالت واسودت وغرقت في الدهن المحيط بها ، فبدا له أن يقرض أعلاها ليصفو أسفلها ثم يمسح الدهن السائل حولها ، فما هو إلا أن مد يده بالمقراض إليها حتى انطفأت وتطاير دهنها إلى ثوبه فانتشر في أنحائه فجمد في مكانه جمود المقراض في يده ، واستحال إلى تمثال مضحك مائل بين أعمدة الشموع ، لا يستطيع أن ينقل قدميه حياءً وخجلاً ، فوقع ما كان يخافه ، وعقدت حوله الأنظار نطاقًا ،

ومشت البسمات والغمزات في الأفواه والعيون ، ومر به في موقفه هذا أحد الظرفاء المتأنقين وكان لا يعرفه فأسر في أذنه « أما تعلم يا سيدي إن إصلاح الشموع في الحفلات عمل غير لائق ؟ » وسمع فتاة تقول لصاحبتها وقد وقفتا به : « ما أجمل زركشة هذا الثوب » فأجابتها الأخرى : « إنه آخر طراز في الكرنفال » فلم يجد بدًا من النجاة بنفسه . ففر من مكانه هاربًا لا يلوي على شيء حتى دخل بعض القاعات الخالية وجلس على مقعد فيها يمسح بشفرة المقراض ما تناثر على ثوبه من الشمع ، فلحق به أبوه بعد قليل ، وقال له : ما بقاءك هنا وحدك يا استيفن ، إن أسرة البارون قد حضرت ، ولا بد لك من مقابلتها والبقاء معها حتى تنصرف ، فامتعض استيفن في نفسه وتثاقل في مكانه لأنه عرف ما يراد منه ، فألح عليه أبوه فأذعن . ومشى إلى مكان هؤلاء القوم فحياهم وحيا تلك الفتاة التي يريدون خطبتها له تحية جامدة لا تشبه تحية الخطباء ولا المحبين ، بل لا تنقص عن تحية المتنافرين المتناكرين إلا قليلاً ، ثم لم يلبث أن وجد السبيل إلى الخلاص منها فانفتل من مكانه وخرج إلى فضاء الحديقة ، وجلس على بعض مقاعدها ينقم على المحافل والمراقص ، وما ضمت بين أطرافها من رذائل وشرور ويقول :

ويل لهؤلاء القوم المرائين الكاذبين ، يفسقون ويزعمون أنهم يرقصون ، ويقترفون صنوف السيئات والآثام ، ويقول إنهم يغنون أو يطربون ، ووالله ما اجتمعوا إلا ليخطف العاشق معشوقته من يد زوجها أو أخيها أو أبيها ، حين أعيته الوسائل إليها ،

أو لتفتش الزوجة التي ملت زوجها وسئمته عن عشير جديد غير مملول ، أو ليلقي الأب بابنته العانس الشهواء بين ذراعي فتى من الفتيان الأغرار يرجو أن يعميه الشغف الحاضر بها عن النظر إلى عيوبها فيقع في حبالتها ، ويصبح على الرغم منه زوجًا لها .

إن كانوا يريدون الغناء فلمَ لا يغنون إلا راقصين ، أو الرقص فلمَ لا يرقص الرجل إلا مع امرأة ؟ ولا ترقص المرأة إلا مع رجل ؟ ثم لا يرقصون إلا متلاصقين متماسكين ، كأنهم بين جدران مخادعهم ، أو وراء أستار نوافذهم وأبوابهم .

مَن لهذا الزوج الغبي الذي يلقي بزوجته عارية الصدر والظهر والذارعين والكتفين بين ذراعي فتى جميل ساحر يلاصقها ويخاصرها ويقلبها بين يدي شهواته ما شاء ـ أن تعود إليه ساعة تعود بالعقل الذي ذهبت به ، وبالقلب الذي كانت تحمله بين أضالعها ؟ ومَن لهذا الأب الأبله المأفون الذي تبرم بابنته ويستثقل مكانها منه فيقذف بها بين مخالب هذه الوحوش المفترسة ـ ألا تعود إليه بعد قليل حاملة مع همها الأول همين آخرين ، عارًا على رأسها ، وجنينًا في أحشائها .

إنهم يقودون على أنفسهم من حيث لا يشعرون ، ويمزقون أعراضهم بأيديهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا .

ولم يزل يهتف في نفسه بأمثال هذه التصورات الغريبة حتى انصرف الناس فلم يحضر انصرافهم ، كما لم يحضر اجتماعهم ، وكان أبوه قد أشار إلى جماعة من أهل بيته

وخاصة أصدقائه أن يتخلفوا ، ففعلوا ، فلما خلا بهم المكان دعا استيفن أمامهم ، وقال له على مشهد منهم : قد كنت دعوتك إلى مصاهرة هذه الأسرة منذ عام ودللتك على مكان الخير لك في هذه الصفقة الرابحة ، فأبيت واستعصيت وفقرت مني راكبًا رأسك إلى حيث لا أعلم لك مذهبًا ، فلما عدت في هذه المرة ظننت أنك قد أذعنت وأصحبت وفهمت معنى الحياة كما يفهمها الناس جميعًا فجئت تطلبها من الطريق التي يطلبونها منه فأقمت هذه الحفلة الراقصة وأنفقت في سبيلها ما لا طاقة لي باحتماله لا أريد بها إلا أن تكون موضع الصلة بينك وبين تلك الفتاة التي اخترتها لك والخطوة الأولى إلى خطبتها فأبيت إلا تمردًا وعنادًا كأنما ظننت أنني باق لك الدهر ، أكفلك وأقوتك ، أو خيل إليك أن هذا العلم الذي تدل به تعتز بمكانك منه منجم من مناجم الذهب يخرج لك ما يقوتك اليوم ويقوت من وراءك من بنيك وأهل بيتك غدًا ، فإن كان هذا ما ذهبت إليه فاعلم أن ثروتي لا تتسع لأكثر من أيام حياتي ، ولا تتسع في حياتي لأكثر من الإنفاق عليك طفلاً وغلامًا وفتى ، ثم أنت وشأنك بعد ذلك ، وأن هذه الفنون الأدبية التي هي كل ما تملك يدك في هذه الحياة ما صلحت أن تكون في زمن من الزمان وسيلة من وسائل الرزق ، ولا سببًا من أسباب العيش ، ولن تكون كذلك أبد الدهر ، لأن السعادة حقيقة من الحقائق لا يتوصل إليها من طريق الخيال ، فإن أردت لنفسك الخير فدونك الرأي الذي رأيته لك ، وأنت أعلم به ، أو لا ، فدونك الأرض الفضاء فامش في مناكبها ماشئت ، واطلب لنفسك الرزق من الوجه الذي تعرفه ، فقد أصبح وجودك في منزلي على حالتك هذه من البطالة والفراغ عارًا عليَّ وعلى أهلك جميعًا ، بل عارًا على نفسك إن كنت من الشاعرين !

ثم التفت إلى القوم وقال لهم : هأنذا قد أشهدتكم عليه وبرئت إليه وإليكم وإلى الله من ذنبه ، فلا معتبة عليّ بعد اليوم .

فقال أحد أقربائه : « إني لم أرَ في حياتي جنونًا مثل هذا الجنون » !

وقال آخر : « لعله سقط في هوة من هوى الغرام ، فلا مناص له من الارتباط في قعرها حتى الموت » !

وقالت زوج أبيه : « لعله أحب عروس الشعر فغنى بها عن كل عروس سواها » !

وقال عمه وهو يزمجر غضبًا : « قبيح بالفتى أن يكون في سن كهذه السن حاملاً فوق كاهله قوة كهذه القوة ، ثم يرضى لنفسه أن يكون عالة على قومه وذويه » .

فطار طائر الحلم من رأس استيفن واختفى من وجهه ذلك الفتى الحي الخجول الذي كان يذوب منذ ساعة خجلاً أمام النظرات واللفتات ، وحل محله رجل هائل جبار لا يخشى أحدًا ولا يبالي شيئًا ، فرفع رأسه ونظر إلى الجمع نظرة شزراء ذهلت لها أنظارهم ، وخفقت لها قلوبهم ، ثم التفت إلى أبيه ، وقال له : إني لا أعتب على واحد من هؤلاء ، لأنهم سمعوك تغني فضربوا على نغمتك ، أما أنت فإني أقول لك : نعم إنك قد أحسنت إليّ فيا مضي كما تقول ، ولكن لا يمل بك أن تمنّ عليّ إحسانك هذا ، ولا يجمل بي أن أشكره لك ، أو أثني عليك به ، لأنك أب ، وللأبوة ثمن لابد لك من أدائه ، واحتمال المؤونة فيه ، على أنك لم تمنحني في يوم من أيامك الماضية عطفك ،و لا رحمتك ، ولو فعلت لكان ذلك خيرًا لي من كل ما أسديت إليّ من صنوف البر والمعروف ،

بل كان شأنك معي في كل آناء حياتك شأن رجل عابر في سبيل ، وجد في طريقه طفلاً ملففًا في قماطة مطرحًا تحت جدارن بعض المنازل أو على باب إحدى الكنائس فالتقطه وكفله منة وإحسانًا لا رحمة وحنانًا ، فقد أبعدتني عنك أنا وأخي منذ ماتت أمي ، وبنيت بزوجتك الحاضرة قبل أن أبلغ السابعة من عمري ، ووضعتني في جحور قوم لا تجمعني بهم جامعة محبة ، ولا تعطفهم على آصرة رحم ، ولم أجد فيهم من يذكرني بك ، أو يحببك إليّ ، أو يحدثني عنك حديثًا واحدًا ، وكنت كلما عدت إليك في أيام إجازتي من العام استقبلتني بالوجه الذي تستقبل به أبعد الناس عنك ، وأصغرهم شأنًا عنك ، فلا تختصني بكلمة طيبة ، ولا تؤثرني بنظرة رحمة ، ولا تسهر عليّ في مرض ، ولا تتفقدني في شدة ، ولا تبتسم للقائي ، ولا تحزن لفراقي ، وكثيرًا ما سهرت الليالي ذوات العدد أندب حظي عندك وأضرع إلى الله تعالى أن يدني قلبك من قلبي ، ويرزقني حبك وحنانك ، فلم يستجب دعائي ؛ فاستوحشت نفسي من نفسي وغلبت على طبعي هذه النفرة التي لا تزال ملازمة لي حتى اليوم ، ولولاك لما كنت نفورًا ولا متوحشًا ، وقسا قلبي القسوة كلها ، فأصبحت لا أعطف على أحد ولا أحب أحدًا ، لأني لم أتعلم العطف ولا الحب من أحد ، ولما لم أجد في الناس مَن أحبه وأصطفيه أحببت نفسي وحريتي واصطفيتهما وآثرتهما على كل شيء في العالم ، فلا أحتمل أن أرى مَن ينازعني فيهما أو يغالبني عليهما .

إن حياتي لي ، وأنا صاحبها الذي أتولى شأنها ، فلا سلطان لأحد غيري عليها ولا شأن لكائن مَن كان فيها سواي ، فلا أسير في طريق غير الطريق التي ترسمها يدي ، ولا أبني مستقبل حياتي على أساس غير الأساس الذي أضعه بنفسي ، ولا أحب إلا الفتاة التي أحبها أنا ، لا التي يحبها الناس لي ، ولا أعاشر إلا المرأة التي أقيس سعادتي معها بمقياس عقلي ، لا بمقياس عقول الآباء والأعمام .

فهاج القوم عليه هياجًا عظيمًا ، وصرخ أبوه في وجهه ، وثاوره عمه يريد الفتك به وتناولته الألسن بالشتم والسب ، فلم يأبه بذلك كله ، ولم يتزلزل من موقفه ، واستمر في حديثه يقول :

بأي حق تريدون أن تسلبوني حريتي وتملكوها عليّ ، أبحق العطف الذي بذلتموه لي ، فيما مضى ، وما عرفت بينكم محبًا لي ، ولا راحمًا ؟ أم بحق الكرامة والبقيا ، وقد كنتم جميعًا تضربونني صغيرًا ، وها أنتم أولاء اليوم تشتمونني كبيرًا ؟

إني قائل لكم جميعًا كلمة لا أقول لكم غيرها بعد اليوم : إني لا أحب إلا من يحبني ، ولا أكرم إلا من يكرمني ، ولا أذعن إلا لرأيي وإرادتي ، ولا أبيع حياتي وحريتي حتى لخالقهما الذي منحني إياهما بثمن من الأثمان مهما غلا .

إني لا اطلب منكم مالاً ، ولا معونة ، ولا أشكو إليكم فقرًا ، ولا عدمًا ، وسأرسم لنفسي بنفسي خطة حياتي ، فإن قدّر لي النجاح فيها فذاك ، أو لا ، فحسبي من السعادة أنني قضيت أيام حياتي حرًا طليقًا ، لا سبيل لأحد عليّ ، ولا شأن لكائن من الكائنات عندي ، حتى يوافيني أجلي ، وهذا فراق ما بيني وبينكم .

ثم انفتل من بين أيديهم وهرع إلى غرفته فبدل ثيابه وتناول حقيبة ملابسه وخرج هائمًا على وجهه يخترق أحشاء الظلمات ، حتى خرج إلى ضاحية المدينة فتبعه فتى من أبناء أخواله كان قد ألمّ ببعض قصته ، فقال له : أين تريد يا استيفن ؟ قال : إلى حيث أرسلني أهلي ؛ فبكى قريبه مرثاة له مما هو فيه وقال له : وارحمتاه لك أيها البائس المسكين ، ثم دس له في جيبه بضع قطع من الذهب ، لم ينتبه لها استيفن إلا بعد ذهابه ، فشكرها له في نفسه ، ثم مضى لسبيله .

30 – النفس العالية

لا تخضع النفس العالية للحوادث ولا تذل لها ، مهما كان شأنها ، ولا تلين صعدتها أمام النكبات والأرزاء مهما عظم خطبها ، وجل أمرها ، بل يزيدها مر الحوادث وعض النوائب قوة ومراسًا ، وربما لذ لها هذا النضال الذي يقوم بينها وبين حوادث الدهر وأرزائه ؛ كأنما يأبى لها كبرياؤها وترفعها أن يوافيها حظها من العيش سهلاً سائغًا لا مشقة فيه ولا عناء ، فهي تحارب وتجالد في سبيله وتغالب الأيام عليه مغالبة

حتى تناله من يدها قوة واغتصابًا ، فمثلها بين النفوس كمثل الليث بين السباع لا تمتد عينه إلى فريسة غيره ، ولا يهنأ له طعام غير الذي تجمعه أنيابه ومخالبه .

كذلك كانت نفس استيفن بعد نزول تلك النكبات به ، فإنه لم يجزع ولم يتألم ، ولم يعبث اليأس بقلبه ، بل فارق (كوبلانس) كما دخلها ساكن النفس ، مطمئن الضمير ، مملوء القلب ثقة وأملاً ، فلم يزل سائرًا بقية ليلته يطوي الأرض على قدميه طيًا حتى مشت في جلدة الظلام أشعة الفجر ، فالتفت فإذا بقية من شبح (كوبلانس) لا تزال ماثلة ، فألقى عليها نظرة واجمة مكتئبة ثم قال :

الوداع أيها القوم الذين طردوني من بينهم ، ولم يزودوني لقمة واحدة أتبلغ بها في طريقي ، ولا دابة أحمل عليها حقيبتي ، ولا كلمة طيبة آنس بها في مطارح غربتي ، لقد نبذت حبكم من قلبي نبذ الفم النواة ونفضت يدي منكم نفض المودع يده من تراب الميت ؛ فأصبح قلبي وضميري وحبي وحناني ونفسي وحياتي وكل ما تملك يدي ملكًا خالصًا لذلك الإنسان الذي أحبني وأحببته ، ووفى لي من دون الناس جميعًا ووفيت له ، لا ينازعه في منازع ، ولا ينزل معه في سويداء قلبي نازل ، وسيكون حبه مناري الذي أهتدي به في ظلمات حياتي ، حتى أبلغ ذروة السعادة التي أطلبها لنفسي ، وهناك ترون أيها القوم الجفاة القساة أن ذلك الفتى الخامل المسكين الذي وقف بينكم بالأمس مهينًا ذليلاً لا يكاد يرفع طرفه إليكم حياءً وخجلاً ، قد أصبح رجلاً نابهًا عظيمًا غنيًا بماله وجاهه عن مالكم وجاهكم ، وسعيدًا بين أهله وأولاده سعادة لا يحفل من بعدها بنسبكم ولا برحمكم .

ثم مشى في طريقه يعلل نفسه بالآمال الحسان ، ويرسم لمستقبل حياته ما شاء من الخطط والنظم ، وكان كلما أتعبه المسير دفع إلى أصحاب العجلات المارة في طريقه تحمل الأثقال درهمًا أو درهمين ، ليحملوه على عجلاتهم أو يأذنوا له بالجلوس في مؤخرتها ساعة أو ساعتين ، ثم يعود إلى شأنه الأول ، حتى وصل عند مجتنح الأصيل إلى « جوتنج » وهي البلدة التي تعلم في مدرستها ، وقضى فيها أكثر أيام صباه .

31 – النفس الشعرية

ذهب استيفن ساعة هبط « جوتنج » إلى أستاذه القديم في الموسيقى « هومل » ليفضي إليه بشأنه ، ويستعين به على قضاء حاجته ، وكان له بمثابة الأب الرحيم ، يحبه ويكرمه ويؤثره على تلاميذه جميعًا ، فلما وقف بين يديه عقل الحياء لسانه ، فلم يستطع أن يقول له شيئًا وكذلك شأن أصحاب النفوس الشعرية يملأ الشعر نفوسهم عزة وخيلاء ، فتملأ العزة وجوههم حياءً وخجلاً ، فلا يذلون ولا يضرعون ، ولا يجرءون على شيء مما يجرؤ عليه الناس جميعًا كأن تحليقهم الدائم في سماء الخيال وطيرانهم في تلك الأجواء العالية غادين رائحين ، قد مثل لنفوسهم أنهم يعيشون في ملأ أرفع من الملأ الذي يعيش فيه الناس ، فإن عرضت لهم حاجة من الحاج أبوا أن يسألوها أحدًا من سكان الأرض ، وربما أنفوا أن يسألوها ساكن السماء ذهابًا بأنفسهم من مواطن الضعة والمهانة ، وضنًا بأديم وجوههم أن يخلقه السؤال ، وكذلك يعيشون فقراء ويموتون بؤساء .

لذلك لم يستطع استيفن أن يفضي بحاجته إلى أستاذه في المقابلة الأولى فزعم أنه إنما جاء ليتلقى عنه دروسًا في الموسيقى ، وظل يختلف إليه أيامًا يسمع غناءه ويحفظه عنه حتى جرى بينهما يومًا من الأيام ذكر الحياة والمستقبل ، فسأله أستاذه عما رسم من الخطط في مستقبل حياته ، فقال : لا أعرف لك سبيلاً غير هذا الفن الذي تحبه وتستهيم به ، وأرى أن غرامك به سيجعلك غدًا من أصحاب الشأن العظيم فيه ، فنفض له استيفن إذ ذاك جملة حاله ، وصارحه برغبته التي يريدها ، فوعده بمساعدته والأخذ بيده ، فانصرف مغتبطًا مسرورًا .

32 – من ماجدولين إلى استيفن

لم أستطع أن أكتب إليك منذ شهرين لأني كنت مريضة وسأقص عليك قصة مرضي .

خرجت ذات ليلة لألقي برسالة كنت كتبتها لك في صندوق البريد في قرية «هال» فلما بعدت عن «ولفاخ» وغاب عني شبحها وأصبحت في منتصف الطريق بينها وبين «هال» هبت عليّ ريح عاصفة شديدة دوت بها جوانب الأفق ، وقعقعت لها قبة السماء حتى حسبتها توشك أن تنقض ، وأخذت تجاذبني ثوبي مجاذبة شديدة كأنما تأبى إلا أن تنتزعه مني أو تنتزعني معه ، فحدثتني نفسي بالعودة من حيث أتيت ، ثم ذكرتك وذكرت أنك تنتظر رسالتي ، فاستمررت أدراجي ومشيت في طريقي أتيامن مع الريح مرة ، وأتياسر أخرى . وأندفع متقدمة ، وأكر راجعة ، فمَن رآني في تلك الساعة خيل إليه أنه يرى فتاة بائسة مرزأة ، قد لعبت النار بأثوابها ، وعلقت بأطرافها وأوصالها، فهي تهيم على وجهها في كل مكان تطلب الخلاص

مما هي فيه فلا تجد إليه سبيلاً ، فلم أصل إلى تلك القرية إلا بعد ساعتين ، فألقيت الكتاب في الصندوق ثم رجعت ، وكانت العاصفة قد هدأت قليلاً ، ولكنها ما هدأت إلا لتفتح الطريق إلى الغيث الهاطل ، فلم تهدأ ثورتها حتى ثار ثائره وأخذ يتساقط سقوطًا شديدًا ، فابتل ردائي ، ومشت الرعدة في جميع أعضائي ، واشتدت ظلمة الليل فما أهتدي إلى طريقي .

ولقد حدّثتني نفسي لشدة ما نالني من التعب والإعياء ، وما ملأ قلبي من الخوف والوحشة . أن أسلّم نفسي إلى كنف من أكناف الهضاب أو سفح من سفوح الجبال ، أنتظر فيه منيتي حين توافيني ، فحال بيني وبين ذلك أني أريد أن أحيا لك ، وأتولى شأن سعادتك التي عاهدتك على أن أتولاها لك ، وأني إن قتلت نفسي قتلتك معي ، فبعث ذكرك في نفسي قوة غالبت بها الطبيعة وعواصفها وثلوجها ، وبروقها ورعودها ، حتى بلغت المنزل بعد لأي ، فسقطت مريضة محمومة .

ولقد كابدت في مرضي شدة عظمى لم أرَ مثلها فيما مرّ بي من أيام حياتي ، دب اليأس في نفسي دبيب المنية في الأجل ، وظننت أني لابد هالكة ، وأني لا أراك بعد اليوم ، فلم يكن يحزنني في تلك الساعة شيء سوى أنك ستسمع بخبر موتي ، ولا تسمع معه أنك كنت الإنسان الوحيد الذي كنت أفكر فيه في ساعتي الأخيرة فحاولت أن أكتب إليك كتاب وداع أبثك فيه بعض شأني فلم أستطع ، ثم شعرت في فترة من فترات السكون التي تتخلل سكرات الحمى أني أستطيع النهوض من فراشي ،

فكتبت إليك كتابًا أوصيت لك فيه بجميع ما تملك يدي ، وما تملك يدي إلا كتبي ومحفظة رسائلك والخاتم الذي نسجته من شعرك وذخيرة من الذهب ورثتها عن أمي وهي أعز الأشياء عندي ، وكيسًا صغيرًا يشتمل على بعض قطع فضية وذهبية مما كنت أستفضله من نفقاتي ، ثم طويت الكتاب وأعطيته لجنفياف لتوصله إليك بعد موتي ، ولكن الله كان أرحم بي وبك من أن يحرمني منك ويفجعك بي ، فمد إليّ يد معونته وإحسانه واستنقذني من مخالب الموت ، فحمدت له منته ونعمته ، ولقد بكيت كثيرًا عندما أعدت النظر في تلك الوصية المكتوبة لأني تمثلت حزنك وتفعجك وخيبة آمالك لو قدّر لك أن تقرأها ، فرثيت لك مما بك وبكيت لبكائك .

رجائي عندك يا استيفن أن تكتب إليّ عنوان أخيك في الجيش لأني أريد أن أبعث إليه بهدية أخطب بها وده إكرامًا لك ، فقد أصبحت أحبه من أجلك حبًا كثيرًا ؛ وأترقَّب بفرح وسرور ذلك اليوم الذي يضمنا وإياه ببيت واحد ، تحت سماء واحدة .

لا يحزنك يا استيفن ما قصصت عليك ، فتلك حادثة ماضية قد ذهبت وانقضت ، ولم يبقَ منها في نفسي حتى آثارها ، فليذهب الماضي بخيره وشره ، وليأتِ لنا المستقبل بما نريد .

33 - من استيفن إلى ماجدولين

عفا الله عنك يا ماجدولين . أكنت تظنين أني أستطيع أن أحيا من بعدك ساعة واحدة أتمتع فيها بالحياة وطيبها ، والدنيا ونسيمها ، فأوصيت بما أوصيت به إليّ ؟

إنك لا تعلمين أنك روحي التي أحيا بها في هذا العالم ، ودنياي التي أتنسم فيها رائحة السعادة والهناء ، وأن اليوم الذي يخلو فيه مكانك من الدنيا هو آخر عهدي بالعالم وما فيه .

متى أهدى الميت إلى الميت وأوصى القبر إلى القبر! ومتى عاش المحب بعد فقد حبيبه ساعة واحدة ، أو هنئت له لحظة من لحظات عيشه إن قدّر له أن يعيش من بعده؟

إن لي في الحياة كما للناس أماني كثيرة ، وبودّي لو استطعت أن أبيعها جميعها بأمنية واحدة ، وهي أن أموت يوم أموت بين ذراعيك ، ملقيًا رأسي على صدرك ، شاخصًا بعيني إلى وجهك المشرق الجميل ، وأن يكون صوتك آخر ما أسمع من الأصوات ، وصورتك آخر ما أرى من الصور عالمًا أن مَن يمت ميتة كهذه تفتحت له أبواب السماء ، واتصلت سعادة دنياه بسعادة أخراه فلا يشعر بشقاء الموت ، ولا ما بعد الموت .

هنيئًا لك إبلالك من مرضك ، وشكرًا لله على صنيعته عندك في شفائك ؛ وصنيعته عندي في حفظ حياتك لي ، وما أحسب أن الله أراد بي أو بك سوءًا فيما كان ، ولكنه يبتلينا اليوم لنعرف مقدار ما يستقبلنا به من السعادة غدًا .

أما عنوانه ، فهو : «الفصيلة الثالثة ، من قسم الجياد الخفيفة في جيش الحدود» .

34 – الحظ

مر الشتاء واستيفن يختلف إلى أستاذه «هومل» وأستاذه يسعى له سعي المجد الملح فلا ينجح ، حتى أوشك أن ينفد ما كان معه من المال ، ولم يبقَ في يده منه إلا بقية غير صالحة لا يعلم ما هو صانع بعدها ، فلم يجد له بدًا من أن يأخذ نفسه بالتقتير ، ويحمل عليها العيش حملاً شديدًا ، فأكل التافه من الطعام ولبس الخلقان من الثياب ، وغنى بالأكلة عن الأكلتين ، وبالخبز عن الأدم . يقول في نفسه كلما برحت به الفاقة ، واشتدت به ضائقة العيش : لقد قال لي عمي : إن مَن كان فتى قويًا مثلك لا يجمل به أن يعيش عالة على أهله وذويه ، وها أنذا على فتوتي وقوتي أكاد أموت جوعًا . فما أقسى قلوب قومي ، وما أبعد الرحمة عن أفئدتهم !! لقد كان في استطاعتهم أن يقبلوني عندهم ضيفًا عامًا أو عامين ، حتى يفتح الله لي بابًا من أبواب الرزق فأرحل عنهم ، أو أن يهيئوا لي قبل أن يطردوني من بيتهم ملجأ أعتصم به في المكان الذي طردوني إليه حتى لا أموت ميتة الغرباء المشردين .

وكان أكبر ما يحزنه من أمر فاقته أنه وعد ماجدولين بالسعي إلى الثروة والنجاح فيها ، وملأ قلبها ثقة وأملاً في المستقبل ، وأن فشله إن قدر له الفشل سيقتلها ، ويلقي بها في مهواة اليأس والشقاء ، فرثى لها وأشفق عليها إشفاقًا عظيمًا ، وود لو صلحت حياته لأن تكون ثمنًا لسعادتها فبذلها في سبيلها ، ثم رحل عن الدنيا طيب النفس عنها وعن جميع آماله وأمانيه فيها .

ولقد مرّ به يومًا ـ في بعض مواقفه بجانب بعض الجدران ـ فتى زري الهيئة سيء الحال ومد إليه يده يسأله بعض المعونة فزوى وجهه عنه حياءً وخجلاً ، فقال له الفتى : أقسم لك بالله يا سيدي أني تركت زوجتي ورائي ما تطيق الوقوف من الطوى ، ولقد مر بي وبها يومان ما نجد ما نتبلغ به إلا البكاء والدموع ، فانتفض استيفن انتفاضة شديدة والتفت إليه وقال له : أتحب زوجتك كثيرًا أيها الفتى؟ قال : نعم يا سيدي كما أحب حياتي . فأطرق برأسه هنيهة وظل يقول في نفسه : إنه يستعدي عطف الناس ورحمتهم على جوع زوجته وطواها ، والناس لا يعطفون ولو عقل لعلم أنه يسألهم حقًا من حقوقه المقدسة لا يعترضه من دونه معترض إلا استحل دمه ومشى على جثته إليه ، فلا جريمة في الدنيا أكبر من أن يرى الإنسان المرأة التي يحبها تموت بين يديه جوعًا فلا يفعل شيئًا أكثر من أن يغمض عينيها ويسجيها بثوبها ، ثم يجلس بجانب سريرها يبكيها ويندبها ، ومد يده إلى جيبه فأخرج كل ما كان معه من المال فأعطاه للفتى صامتًا ، ومشى في طريقه وهو يقول : لقد أنقذتها من مخالب الجوع بضعة أيام ، وأسأل الله أن يقيض لهما مَن يتولى شأنهما بعد ذلك .

وكذلك عاد استيفن إلى مأواه ، وهو لا يملك من متاع الدنيا حتى قوت يومه .

35- من ماجدولين إلى استيفن

مرت بي اليوم صديقتي سوزان وهي عائدة من مصيفها إلى كوبلانس فاغتبطت بزيارتها اغتباطًا عظيمًا وتمنيت أن لو كنت حاضرًا بيننا لتراها فترى أجمل الفتيات وجهًا ، وأرقهن شمائل ، وأعذبهن حديثًا ، وأجمعهن لأفضل الصفات وأكرمها فهي تنطق بلغات كثيرة ، وتحسن الرسم والتصوير ، وتوقع على جميع أنواع الأوتار ، وتغني غناءًا ساحرًا فتانًا ، ولها ثغر وضّاء لا يفارقه الابتسام لحظة واحدة ، ولا يطربها في الحياة شيء مثل مناظر اللهو واللعب ولا يعجبها حديث مثل حديث المحافل والمراقص ، وقد أصبحت مفتنة بها لا أكاد أصبر عنها لحظة واحدة ، ورجائي إليك يا استيفن أن تحبها كما أحبها ، وأن تتودد إليها كثيرًا يوم تراها .

36- من استيفن إلى ماجدولين

سأحب صديقتك يا ماجدولين كما أمرت ، ولكن ليس لأنها جميلة فاتنة كما تقولين ، فقد ملأ جمالك فضاء قلبي فلم تبقَ بقية لسواك ، ولا لأنها ترقص أو تغني فإن نفسي الحزينة لا يشفيها من دائها إلا أحد الأمرين : إما لقاؤك ، أو الموت ، بل لأنها تؤنس وحشتك ، وتخفف آلامك ، وتعينك على احتمال أعباء الحياة وأثقالها ، فاشكريها عني شكرًا جزيلاً ، وبلغيها تحيتي وسلامي .

لا يزال الدهر عابسًا في وجهي ، ولكنني صابر محتمل ، لا أيأس ولا أستسلم ولا تفتر لي همة حتى أنال بغيتي ، والسلام .

37- من أوجين إلى استيفن

وصلت إليّ هدية السيدة ماجدولين ، فشكرت صنيعها شكرًا جزيلاً ، ولقد أصبحت بفضل هديتها صاحب رداء جديد كنت في أشد الحاجة إليه وكانت يدي تقصر عنه ، فابتعته وأصبحت فخورًا مختالاً به بين أترابي وعشرائي ، فبلغ صاحبة الهدية شكري ، وأرجو أن أراها في عهد قريب فأجزيها خيرًا بما فعلت ، فإن عجزت عن ذلك فلا أعجز عن أن أحدثها عن الوقائع الغريبة التي شاهدتها أحاديث جميلة عذبة تملأ قلبها غبطة وسرورًا .

شاهدت بالأمس أول وقعة من وقائع الحرب فجزعت عند الصدمة الأولى ، ولكنني ما لبثت أن سمعت صهيل الخيل وقرع الطبول وأزيز الرصاص وأنغام الموسيقى الحربية حتى انتشيت واندفعت بجوادي اندفاع السيل المنهمر لا أشعر بشيء مما حولي ولا أرى إلا بريق سيفي في يدي ، ولقد امتلأت نفسي غبطة وسرورًا عندما رأيت جيش العدو يتقهقر أمام جيشنا ، حتى خيّل إليّ أنني أنا الذي زحزحته وحدي عن مكانه وألجأته إلى الفرار . وقد عرف قائدي فضل ما أبليت في هذه المعركة فرقاني إلى درجة «صف ضابط» ولي أمل أن أعود إليكم في عهد قريب باسم «الضابط أوجين» .

38- من استيفن إلى ماجدولين

قد ابتسم لي الدهر قليلاً يا ماجدولين؟ فقد زارني أستاذي بالأمس في الخان الذي أنزله بعدما انقطعت عن زيارته بضعة أسابيع لأمر ما ، وبشرني أنه وجد لي عملاً في بعض المدارس الصغيرة بوظيفة شهرية قليلة .. وقال لي إن مدير المدرسة وعده أن يضاعفها لي ضعفين بعد ثمانية شهور ، فحمدت الله على ذلك .

لا صعب في الحياة يا ماجدولين غير الخطوة الأولى ، فإذا خطاها المرء هان عليه ما بعدها ، فلنهنأ منذ اليوم باللقاء ، ولنغتبط بالسعادة التي طالما تمنيناها حتى بلغناها .

39- من إدوار إلى استيفن

لا يزال النزاع قائمًا بيني وبين عمي ، يأبى إلا أن أعيش عيش المقلين وآبى إلا أن أتمتع بمالي الذي ورثته عن أبي كما أحب وأشتهي ، ولا أدري ما الذي يعنيه من الحرص على مال يعلم أنه ليس له ، وأن مصيره مهما طالت الأيام لصاحبه؟ ولكنها خلة البخلاء والأشحاء ، لا يقع في أيديهم شيء من مالهم أو من مال غيرهم حتى تتلوى أصابعهم عليه التواء الحية على العصا ، ثم لا يفلت منها بعد ذلك ، فمثلهم كمثل الحبالة التي تنطبق حافتاها على كل ما يدنو منها ، وإن لم تجنِ لنفسها من وراء ذلك شيئًا .

على أنها أيام قلائل ستنقضي ، وسأبلغ سن الرشد بعد بضعة شهور ، فلا يبقى له ولا لغيره عليّ من سبيل .

ألممت ببعض شأنك الحاضر وعلمت أن أهلك قد نقموا منك مخالفتك إياهم ، فوكلوك إلى نفسك ، ونفضوا أيديهم منك ، فتركت لهم «كوبلانس» وسافرت إلى «جوتنج» تطلب لنفسك فيها الرزق من طريق العمل ، فلم يوافك حتى اليوم ما تريد ، فليت الذي كان يا صديقي لم يكن ، وليتك أخذت بذلك الرأي الذي رأيته لك من قبل ، وسلكت إلى الحياة طريقًا غير هذا الطريق الخيالي الذي تسلكه اليوم فتزوجت من الفتاة التي اختاروها لك ، وظفرت بنعمة العيش في ظلالها ، فلا سعادة في الدنيا يا صديقي غير سعادة المال ، وكل ما في أدمغة البشر من علم وعقل وما في أجسامهم من قوة وأيد ، وما في نفوسهم من فضائل ومزايا ، إنما هي سبل المال وذرائع إليه .

أهديك تحيتي وسلامي ، وربما زرتك في «جوتنج» في عهد قريب ، فقد ضقت ذرعًا بذلك الرجل ، وأصبحت لا أطيق البقاء معه لحظة واحدة في بلد واحد .

40- من استيفن إلى إدوار

لا تعتب عليّ يا صديقي ، إن قلت لك إن لي في الحياة رأيًا غير رأيك وغير ما يراه الناس جميعًا .

إنني لا أعرف سعادة في الحياة غير سعادة النفس ، ولا أفهم من المال إلا أنه وسيلة من وسائل تلك السعادة ، فإن تمت بدونه فلا حاجة إليه ، وإن جاءت بقليله فلا حاجة إلى كثيره .

ماذا ينفعني من المال وماذا يغني عني يوم أقلب طرفي حولي فلا أرى بجانبي ذلك الإنسان الذي أحبه وأؤثره ، وأرى في مكانه إنسانًا آخر لا شأن لي معه ، ولا صلة لقلبي بقلبه ، فكأنني وأنا خال به خال بنفسي منقطع عن العالم وما فيه .

إن الرجل الذي يتزوج المرأة لمالها إنما هو لص خائن ، لأنه إنما يأخذ من مالها باسم الحب ، وهو لا يحبها ، وعاجز أخرق ، لأنه قعد عن السعي لنفسه ، فوكل أمره إلى امرأة ضعيفة تقوته وتمونه وساقط المروءة مبتذل ، لأنه يأجر جسمه للنساء ، كما تأجر البغي نفسها للرجال ، ليستفيد من وراء ذلك قوته .

نعم إنني بائس فقير ، كما تقول ، ولكنني أسعى لنفسي سعي المجد الدؤوب وقد بدأت أنجح في مسعاي منذ الأمس ، فقد حصلت على وظيفة صغيرة ستكون كبيرة فيما بعد ، واستأجرت لي غرفة بسيطة فأصبحت ذا مسكن خاص وسينتهي بؤسي وشقائي ، وأنال السعادة التي أرجوها ، وسيكون أعظم ما أغتبط به في مستقبل حياتي أنني أنا الذي صغت إكليل سعادتي بيدي .

أحييك يا إدوار ، وأرجو ألا تعتب عليّ فيما قلت لك ، ولعلك تفي بوعدك لي ؛ فأراك في جوتنج في عهد قريب .

41- غرفة استيفن

سكن استيفن بعد حصوله على وظيفته الجديدة في غرفة صغيرة طولها عشرة أقدام وعرضها سبع ، ووضع فيها سريرًا من خشب ومنضدة عارية يكتب عليها ليلاً ويأكل عليها نهارًا ؛ وكرسيين مختلفي الحجم والشكل ، يجلس على أكبرهما وأصلحهما شأنًا ، ويضع حقيبة ملابسه على الآخر . ومنصبًا للطبخ ، وجرة للماء وبعض آنية أخرى ؛ وكان بغرفته كوة تشرف على سطوح منازل قديمة مهجورة لا يسكنها أحد ، فلما أشرف منها ورأى ذلك المنظر الموحش اشمأزت نفسه قليلاً ، ثم قال : لا بأس ، فذلك خير لي من أن يطلع على خلتي أحد ، ثم لمح على البعد دوحة عظيمة مورقة في بعض المنازل القاصية فقال : تلك هي الروضة التي أفتح عليها نظري كل صباح ، وهل يتمتع صاحبها الذي يملكها ويتعهدها منها بأكثر من ذلك؟ ثم رأى على مقربة منه كنيسة صغيرة فقال في نفسه : أرجو أن تساعدني دقات ساعتها على معرفة المواقيت ، ثم ما لبث أن سمع رنينها فأخذ يعدها فرحًا مبتهجًا وهو يقول : لن أشتري ساعة بعد اليوم .

وكذلك اغتبط استيفن بمسكنه الجديد على صغره وحقارة شأنه اغتباطًا عظيمًا لأنه أول مسكن نزل فيه عند نفسه ، وابتاع أثاثه وأدواته من ماله وظل يقول في نفسه : في المسكن الخاص يستطيع المرء أن يكون حرًا في قيامه وقعوده وجلوسه واضطجاعه ، ونومه على الهيئة التي يريدها لا يتكلف ولا يتعمل ، يجامل الناس ولا يرائيهم ،

ولا يضع نفسه في القالب الذي يصنعونه له ، فيرفع يده في الهواء بغتة دون أن يخاف وقوعها على وجه أحد ، ويستعين بتقليب يده وتحريك رأسه على النظر والتفكير دون أن يسميه أحد ، مجنونًا أو مختبلاً ، ويمد قدميه في الناحية التي يريدها لا يخشى محاسبًا يحاسبه على الأدب أو يلاحيه في قواعده وأصوله ، أي أنه يكون على الصورة التي خلقه الله عليها ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص شيئًا .

وكان لابد له من أن يعيش عيش الإقلال والتقتير فلا يلاقي في ذلك عناءً عظيمًا لأنه كان قنوعًا مجتزئًا . فقسم دخله بين نفقات طعامه ، وشرابه وملبسه وأجرة مسكنه ووفاء ما عليه من دين الأثاث الذي ابتاعه ، وعاش عيشة ساكنة لا يكدرها عليه مكدر ، لأنها كانت مملوءة أملاً ورجاء .

42- الطارق الجديد

جلس استيفن في غرفته غداة يوم من أيام الآحاد ، وهي الأيام التي يشعر فيها بالراحة من عناء الدرس ونصبه ، فسمع خفق نعل ثقيلة على السلم يختلف صوتها عن صوت نعل جارته العجوز التي كانت تختلف إليه من حين إلى حين لتملأ له جرة الماء من البئر ، فدهش وتسمع فإذا القادم يصيح باسمه صياحًا عاليًا فخيل إليه أنه يعرف صاحب هذا الصوت ، فابتدر الباب ففتحه فإذا صديقه «إدوار» فابتهج بمرآه وعانقه عناقًا طويلاً وقال له : لقد وفيت بوعدك أيها الصديق فلك الشكر على ذلك

ولقد كنت أترقب حضورك ترقب المقرور أشعة الشمس ، والظامئ ديمة القطر ، فقال له : سأنزل عندك في غرفتك هذه الصغيرة ضيفًا شهرين أو ثلاثة ، وهي المدة الباقية لي على بلوغ سن الرشد ، ولقد اشتد النزاع بيني وبين عمي حتى أصبحت لا أطيقه ولا يطيقني ، ففارقت منزله وأقسمت ألا أرى وجهه حتى تنتهي قضية الوصاية التي بيني وبينه ؛ ثم دخل ، وهو يقول : ما أجمل هذه الغرفة وأبدع شكلها ! إنها أوسع مما كنت أظن ، وأجمل مما كنت أقدر ، وعمد إلى حقيبته ففتحها وأخرج منها زجاجة عطر ومشطًا وبضعة مناديل من الحرير وقدمها هدية إلى استيفن ، فقبلها منه شاكرًا ، ثم قام استيفن إلى شريحة لحم كان يعدها لطعام الغد فاشتواها ووضعها على المائدة ووضع بجانبها زجاجة من الخمر وقطعة من الجبن ، ثم أخذا يأكلان ويتحدثان ويتذاكران أيام طفولتهما الماضية ؛ وكذلك قضيا بقية يومهما مسرورين مغتبطين حتى أتت ساعة النوم ، ففرش استيفن لنفسه حشية في بعض جوانب الغرفة وترك السرير لضيفه وناما .

ولما أصبحا أعطى استيفن «لإدوار» قبل ذهابه إلى المدرسة جميع ما كان معه من المال وقال له : إن وظيفتي في الشهر مائتا فرنك أنفق منها على الطعام والشراب ستين ، وأحفظ الباقي لأجرة الغرفة وسداد دين الأثاث الذي ابتعته ، وقد أنفقت منها خمسين فرنكًا في الأيام العشرة الماضية ، وها هو ذا الباقي فتول أنت إنفاقه ؛ فأنت رب البيت منذ اليوم وصاحب الشأن فيه ،

ثم تركه ومضى ، فلم يلبث «إدوار» أن نزل إلى السوق فاشترى لحمًا وخبزًا وتوابل وفاكهة وخمرًا ، وأنفق في سبيل ذلك اثنى عشرة فرنكًا وجلس يطبخ ويشتوي حتى انتصف النهار وحضر استيفن فقال له : ما هذا يا إدوار؟ أوليمة هي؟ قال : نعم وليمة الاحتفال بقدومي ؛ فابتسم استيفن وقال له : لقد أحسنت فيما قلت : وذكرتني بما كنت عنه لاهيًا ، وجلس يؤاكله حتى فرغا من الطعام ، فقال له إدوار : أرى أن الغرفة تنقصها بضعة أشياء لابد لنا منها ، فأذن لي بمشتراها ، وأعدك ألا أبتاع إلا ما لابد لنا منه ، ولا أنفق في سبيل ذلك إلا ثمنًا قليلاً ، فقال له : لك ما تريد ، فخرج ثم عاد بعد ساعة يقتاد كلبًا أسود ضخمًا ووراءه حمال يحمل له مرآة كبيرة ومشجبًا للثياب وهو يقول : ما أقبح الغرفة التي لا مرآة فيها ، وما أشد وحشة البيت الذي لا ينبح فيه كلب ، على أنني لم أنفق في جميع ما ابتعته أكثر من عشرين فرنكًا ، وأظنك ترى يا استيفن كما أرى أنها صفقة رابحة نادرة قَلَّما يتفق مثلها لأحد ، فضحك استيفن وقال له : ما أعذب جنونك يا إدوار؟ قال : وهل تطيب الحياة بغير جنون؟ وكذلك لم يأتِ اليوم العشرون من الشهر حتى صفرت أيديهما من النقود ، ولم يجد عليهما الكلب ولا المشجب ولا المرآة شيئًا . فقال استيفن : ما العمل يا إدوار؟ قال : الأمر أهون مما تظن ، وسأرى لك الرأي الذي ينفعنا ، ثم تركه وخرج وعاد بعد قليل يصحبه أحد الحمالين ورجل آخر من تجار الأثاث ، فوقف على عتبة الغرفة وقال للرجل : خذ هذا السرير فإنه يضايق الغرفة كثيرًا ، ولا ظهر أثبت تحت جسد النائم من ظهر الأرض

وخذ هاتين الوسادتين الزائدتين ، فالوسادة الواحدة إذا ثنيت تكفي صاحبها ، ثم نظر إلى استيفن وقال له : أليس كذلك يا صديقي؟ فانتبه استيفن وكان مكبًا على منضدته يكتب كتابًا إلى ماجدولين ففهم كل شيء ، وقال : بلى يا إدوار ، قال : أتظن أن زجاجًا رقيقًا كزجاج هذه النافذة يبقى طويلاً على هذه الرياح العاصفة في هذا الشتاء الشديد؟ قال : لا ، قال : أليس من الحزم أن ننتفع بثمنه بدلاً من أن نتركه لعبة في أيدي الرياح تعبث به ما تشاء؟ قال : ذلك هو الرأي ، فمشى إلى النافذة فانتزع ألواحها واحدًا بعد آخر وأعطاها الحمال ، ثم قال له : وهل ترى أننا في حاجة إلى مثل هذا الغطاء الثقيل في مثل هذه الغرفة الضيقة؟ قال : لا ، فأمر الحمال بحمله ، ثم قال له : وهل تضع في هذه الخزانة شيئًا تخاف عليه أن يسرق ؟

فضحك استيفن وقال له : لو كان عندي ما أخاف عليه لم نصر إلى ما صرنا إليه ، قال : إذن ما بقاء هذا القفل فيها؟ ثم مدّ يده إليه فانتزعه من مكانه ، وظل يقلب نظره في الغرفة حتى وقع على المنضدة ، فذعر استيفن وقال له : انتظر يا إدوار لا تمسسها حتى أتمم رسالتي ، فضحك وقال : إني أتركها لك إكرامًا لماجدولين ، وأخذ يساوم الرجل في ذلك الأثاث حتى باعه منه بثلاثين فرنكًا ، ثم عاد إلى استيفن قال له : ماذا ترى فيما تم؟ قال : أرى أن تعطيني هذا المال الذي معك لأتولى إنفاقه بدلاً منك ، فإنك لا تستطيع أن تكون حازمًا ، قال : أظن أننا قد بدأنا نختلف يا صديقي ، لأنك تحب التقتير

وهو لا يعجبني ، وأنا أحب السعة وهي لا ترضيك ، فخير لي ولك أن نقتسم راتبك بيننا قسمين ، وأن يعيش كل منا وحده بالقسم الذي يصيبه ، وصمت هنيهة ثم قال : على أن افتراقنا في المعيشة لا يتم إلا إذا افترقنا في السكن ، فليختص كل منا بجهة من الغرفة مستقلة عن جهة صاحبه ، وهأنذا أقسمها بيننا قسمة عادلة ، ثم عمد إلى قطعة من الجص وخط بها وسط الغرفة خطًا مستطيلاً ، وقال : هذا قسمي أنا وكلبي ومرآتي ومشجبي وهذا قسمك وحدك وهو خير من قسمي وأكثر منه مرافق ومنافع ، لأن فيه المنصب الذي تطبخ عليه طعامك ، والمنضدة التي تكتب عليها رسائلك والنافذة التي تمد في فضائها ذراعك كلما أردت أن تلبس قميصك أو معطفك ، فأغرب استيفن في الضحك وخرج لشأنه وترك له الغرفة يفعل فيها ما يشاء .

وكذلك استمر إدوار ينغص على استيفن عيشه ، واستيفن لا يغضب ولا يشكو ، بل لا يشعر بألم ولا ضيق لأنه كان صديقه وكفى .

43 – التضحية

خرج إدوار وذات يوم يرتاض في بعض أطراف القرية ، وبقي استيفن وحده يدون في دفتره بعض نغمات موسيقية لدروس الغد ، وإنه لكذلك إذ سمع على السلم خفق نعال كثيرة وأصواتًا مختلفة وصياحًا عاليًا فدهش وقام إلى الباب ففتحه فإذا رجل طويل القامة عريض الكتفين يلبس لباس عمال المناجم تشتعل عيناه نارًا ويتدفق الزبد من شفتيه وقد أمسك بيده سيفين عريضين ، فلما وقع نظره على استيفن قال له : أأنت المسمى إدوار؟

فعلم استيفن أن الرجل يريد بصديقه شرًا وأنه لا يعرف شخصه فأشفق منه وأراد أن يعرف ما ترته عنده فقال له : نعم أنا هو فماذا تريد مني؟ فابتدره الرجل بلطمة على وجهه أظلمت لها عيناه وقال له : لعل شجاعتك التي دفعتك إلى مغازلة زوجتي وانتهاك حرمة بيتي والعبث بشرفي لا تفارقك في هذه الساعة حين أدعوك إلى مبارزتي على ضفاف النهر ، وها هم أولاء شهود المبارزة فليختر كل منا من يشاء منهم ، فأخذ استيفن منه السيف صامتًا وقد فهم كل شيء وكان ملمًا بعض الإلمام بقصة إدوار مع زوج هذا الرجل . وأشفق عليه أن يصيبه من تلك المبارزة شر ، ولأنه كان يعلم أنه لم يجرد في حياته سيفًا قط ، فمشى مع خصمه صامتًا لا يقول له شيئًا حتى بلغا ضفة النهر وجردا سيفيهما للقتال ، وهنا ذكر استيفن ماجدولين وود لو استطاع أن يكتب إليها كلمة وداع فنظر إلى الشهود وقال : هل أجد مع أحد منكم بطاقة صغيرة؟ فأعطاه أحدهم ما أراد فكتب هذه الكلمة الموجزة «إني أموت في مبارزة شريفة وأنت آخر من أفكر فيه فالوداع يا ماجدولين» وكان أحد الملاحين واقفًا على مقدمة سفينته بجانب الضفة فرأى استيفن وهو يكتب كلمته ثم رآه وهو يقلب نظره حوله يفتش عن رسول يبعث بها معه ، فأثر منظره في نفسه وتقدم نحوه وقال له: ائذن لي يا سيدي أن أحمل رسالتك إلى مَن تريد ، فشكر له استيفن صنيعه وأعطاه الرسالة بعدما كتب عنوانها على ظهرها ، ثم شرع في المبارزة فكانت يده فيها أعجز من يد خصمه ، فجرح بعد ضربات في ذراعه جرحًا بليغًا ،

فأوقف الشهود المبارزة وتصافح الخصمان والملاح لا يزال واقفًا مكانه ، فقال له استيفن وهو ساقط على الأرض بصوت ضعيف : مزّق الرسالة التي معك فلا حاجة إليها الآن ، فمزّقها الرجل ودنا منه فأخرج من جيبه منديلاً فعصب ذراعه ، ثم أنهضه من مكانه وأخذ بيده وظل سائرًا معه حتى صعد إلى غرفته ، فأضجعه على فراشه وجلس بجانبه يضمد جراحه ويواسيه .

44- الصداقة

جلس إدوار إلى صديقه في الليلة التي عزم على السفر في غدها وكان جرحه قد أشرف على البرء ، وقال له : سجّلت لنفسك بدمك يا استيفن في صفحة قلبي نعمة لا أنساها لك مدى الدهر ، كما لا أنسى لك أنك وأنت في أشد حالات بؤسك وضيقك قد آويتني وواسيتني أيامًا طوالاً ، واحتملت لي ما لا يحتمله أخ لأخيه ولا حميم لحميمه ، فلو أنني جمعت لك في يوم واحد جميع ما كافأ به الناس بعضهم بعضًا على الخير والمعروف مذ خلقت الدنيا حتى اليوم لما جازيتك بعض الجزاء على الخير الذي صنعت ، فقال له استيفن : إنني لم أسد إليك يدًا تستحق مكافأة ، ولكنك صديقي وللصداقة آثار طبيعية تتبعها وتنبعث وراءها جريان الماء في منحدره ، فإن كنت لابد شاكرًا فاشكر الصداقة التي ظللتنا بجناحيها مذ كنا طفلين صغيرين ، والبؤس الذي لف شملي بشملك ، وخلط نفسي بنفسك ، وحول قلبينا القريحين الكسيرين إلى قلب واحد ، وإن قدر لك يومًا من الأيام أن تمد يدك لمعونتي فليكن منك إذعانًا لرحمة قلبك وحنانه لا مكافأة على خير ، ولا مجازاة على معروف .

إنني شقي مذ ولدت يا إدوار ، فأنا أحب الأشقياء وأعطف عليهم لأنني واحد منهم ، ولا صداقة في الدنيا أمتن ولا أوثق من صداقة الفقر والفاقة ، ولا رابطة تجمع القلبين المختلفين مثل رابطة البؤس والشقاء ، فلو أنني خيرت بين صحبة رجلين : أحدهما فقير يضم فاقته إلى فاقتي فيضاعفها ، وثانيهما : غني يمد يده لمعونتي فيرفّه عني ما أنا فيه من شدة وبلاء لآثرت أولهما على ثانيهما ، لأن الفقير يتخذني صديقًا والغني يتخذني عبدًا ، وأنا إلى الحرية أحوج مني إلى المال .

يظن السعيد دائمًا أن السعادة التي يمرح في ظلها إنما هي منحة سماوية قد آثره الله بها من دون عباده جميعًا لفضيلة كامنة في نفسه لا يشاركه فيها غيره ، ولا يعرفها الله لشخص من العالم سواه ، وليس في استطاعته أن يتصور بحال من الأحوال أن السعادة عارية من عواري الدهر ، يأتي بها اليوم ، ويذهب بها غدًا ، ولعبة من ألاعيبه ، يختلف بها بين الناس أخذًا وردًا ، ويداولها بينهم عطاءًا وسلبًا ، فتراه واثقًا بها مستنيمًا إليها ، ينطق بذلك لسانه ، وتهتف به حركاته وسكناته ، وملامح وجهه ، وابتسامات ثغره ، ومَن كان هذا شأنه نظر إلى غيره من البائسين المحدودين الذين لا يتمتعون في حياتهم بمثل متعته ، ولا يهنأون فيها بمثل نعمته ، نظر الشمس إلى ذرات التراب المبعثرة على سطح الأرض ، فهو يمن عليهم باللفتة والنظرة ويحاسبهم على القعدة والقومة ويتقاضاهم إجلاله وإعظامه كأنما يتقاضاهم حقًا من حقوقه المقدسة التي لا ريب فيها ، فإن أذن لأحدهم يومًا من الأيام أن يجلس في حضرته لا يعجبه منه إلا خضوعه له ، واستخذاؤه بين يديه ،

وتضاؤله أمام نظراته المترفعة تضاؤل الحمامة الساقطة تحت أجنحة النسر المحلّق ، ثم لا يجازيه على ذلك بأكثر من دعائه إلى مائدته ، أو الإنعام عليه بفضلة ماله أو خلقان ثيابه ، لا يبعثه إلى ذلك باعث رحمة أو حنان ، بل ليريه فرق ما بينه وبينه في مظاهر الحياة وزخارفها ، وحظوظ الأيام وحدودها ، وليضيف إلى عنقه المثقل بأغلال الفقر غلاً جديدًا من الذلة والاستعباد ، فإذا أراد المسكين أن يفضي إليه بهم من هموم قلبه ترويحًا عن نفسه ، وترفيهًا لآلامه أعرض عنه وبرم به ، وخيل إليه أنه ما ذهب معه هذا المذهب في حديثه إلا وقد أضمر في نفسه أن يقاسمه ماله ، أو يساكنه في قصره ، أو يشاطره نعمته وسعادته ، فلا يعزيه عن بأسائه بأكثر من أن يلومه على تبذيره وإسرافه ، أو على بلادته وغفلته ، ثم يختم حديثه معه بقوله : إن جميع ما يصيب المرء في حياته من بؤس وشقاء ليس الذنب فيه على القدر ، بل على قصور الإنسان وجهله ، وعدم اضطلاعه بشؤون الحياة وتجاريبها ، وإن الله تعالى أعدل من أن يمنح نعمة جاهلها أو يسلبها مستحقها ، أي أنه يجمع عليه بين بليتين : بلية الهم ، وبلية اليأس من انفراجه وانقشاعه .

لا يستطيع الغني أن يكون صديقًا للفقير لأنه يحتقره ويزدريه فلا يرى فيه فضيلة يصادقه عليها ، أو يصطنعه من أجلها ، ولأنه يشعر من نفسه باقتداره على احتمال أعباء الحياة وحده دون أن يعينه عليها معين من الفقراء أو الأغنياء ، أما صديق الفقير فهو الفقير الذي يصغي لشكاته إذا بثها إليه ، ويفهم معناها إذا سمعها منه ، ويعزيه عنها إذا فهمها عنه ، ويجعل له من صدره متكأً لينًا يلقي رأسه عليه ، وهو تعب مكدود فيجد فيه برد الراحة والسكون .

لذلك أحببتك يا إدوار ، واتخذتك صديقًا ، وكان الشقاء هو الوثيقة التي تعاقدنا فيها أن يكون كل منا عونًا لصاحبه على دهره ، وجنة له من دون نكبات الأيام وأرزائها ، مهما تقلبت بهما الأحوال ، أو فرقت بينهما الأيام .

فأخذ إدوار بيد استيفن وأقسم له بكل محرجة من الأيمان ألا يهدأ له في حياته روع ولا يثلج له صدر ، حتى يراه ظافرًا من دهره بالسعادة التي يرجوها ، ثم عرض عليه أن يضع بين يديه جزءًا من ثروته التي صارت إليه فأبى ، وقال أما هذه فلا ، لأني لا أريد أن أشتري سعادتي في دنياي إلا بأشرف أثمانها .

وفي الصباح مشى استيفن مع إدوار ليودعه حتى بلغا مكان الافتراق فتعانقا طويلاً وبكى استيفن على صديقه ، ثم افترقا .

45- من استيفن إلى ماجدولين

خرجت ليلة أمس أرتاض على شاطئ النهر ، فلما استقبلت الفضاء شعرت أن أوراق الأشجار تضطرب اضطرابًا سريعًا في خفوت وهمس ، وأن الهواء يمشي متثاقلاً مترجحًا يتحامل بعضه على بعض ، ورأيت قطع السحاب الضخمة السود تنتقل في صحراء السماء تنقل قطعان الفيلة في غاباتها ، وخيل إليّ أني أسمع في أعماقها قعقعة مبهمة تدنو حينًا وتنأى أحيانًا ، وكأنما قد راع هذا الصوت الأجش طيور الماء ، وحشرات الأرض ، فرأيت الطيور مرفرفة على سطح النهر تستبق إلى أوكارها ، والحشرات متعادية بين الصخور تتسرب إلى أحجارها ورأيت السواد قد صبغ كل شيء حتى لون الماء ، فقبة السماء ورقعة الأرض والأفق الذي يصل بينهما منجم أجوف عميق من مناجم الفحم يحاول البرق أن يجد له في جدرانه العاتية الصُّمِّ منفذًا ينحدر منه إلى جوفه فلا يستطيع إلا الومضة بعد الومضة تعتلج بين طبقاته ولا تنفذه .

ثم ما لبثت هذه الطبيعة الصامتة الخرساء أن هدرت وزمجرت فهبت الزوبعة من كل مكان تخبط بيديها أوراق الأشجار فتطير بها كل مطار وتهتز السقوف والجدران هزًا وتضرب بعضها ببعض ، ثم أقبل المطر يمزق قطع السحاب ويفتح لنفسه والبرق طريقًا في خلالها ، ثم همى فسالت به الأودية والأرجاء ، وامتلأت الأخاديد والأغوار . وكنت على مقربة من كوخ صديقي «فرتز» وهو فلاح فقير أسدى إليّ فيما مضى من الأيام صنيعة لا أزال أحفظها له حتى اليوم . فلجأت إليه فخيل إليّ حين دخلته أنه مقفر موحش ليس به أنيس .

ثم أضاء البرق فرأيت في داخله منظرًا من أجمل المناظر وأبدعها ، رأيت زوج الرجل وأولاده جاثين على أقدامهم خاشعين باسطي أيديهم إلى السماء يدعون الله تعالى بدعوات جميلة يرددونها بصوت شجي محزن . فخيل إليّ ، ولا مصباح هناك ولا ضياء ، أني أرى إشراق وجوههم وتلألؤها في هذه الدجنة الحالكة وأحست بي المرأة فالتفتت إليّ وقالت : لم يعد «فرتز» حتى الساعة ، ونحن نخشى أن يكون قد أصابه مكروه من أهوال تلك الليلة ، فنحن ندعو الله تعالى أن يرده إلينا سالمًا ، فأثر في نفسي هذا المنظر تأثيرًا وقلت في نفسي : «ويل للذين يحاولون أن يسلبوا أمثال هؤلاء المساكين إيمانهم ويقينهم : إنهم يسلبونهم حياتهم التي يحيون بها في هذا العالم ، وكل ما تملك أيديهم من سعادة وهناء» وشعرت بحزن شديد في أعماق قلبي لحرماني من مثل هذه السعادة النفسية التي ينعم بها هؤلاء القوم ، فجثوت بجانبهم أهتف بهتافهم ، وأدعو بدعائهم وأضرع إلى الله أن يمنحني يقينًا مثل يقينهم ، ولم أدرِ أن ما أنا فيه إنما هو اليقين الذي أنشده ، وأضرع إلى الله فيه ثم رفعت رأسي فإذا «فرتز» واقف على عتبة الباب ، فهرعت زوجته إليه تقبله وتنضو عنه رداءه المبتل ، ودار أولاده يلثمونه ويستقبلون لثماته الأبوية الرحيمة ويستطيرون فرحًا به وسرورًا ثم احتملوه جميعًا إلى المائدة وجلسوا حوله يحادثونه ويسألونه عما كابد من أهوال هذه الليلة وشدائدها ، وجلست على مقربة منه أسمع حديثهم ، وأستشف سريرة نفوسهم ،

فأخذ منظرهم هذا من نفسي مأخذًا شديدًا . وكدت ـ وما حسدت أحدًا في حياتي على نعمة قط ـ أن أحسدهم على نعمتهم هذه ، وقلت في نفسي : زوجة تحب زوجها وتبكي رحمة به وإشفاقًا عليه وأولاده يجثون على أقدامهم ويمدون أيديهم إلى الله تعالى ضارعين أن يحفظ لهم حياة أبيهم ، وأب يبكي فرحًا برؤية أولاده بين يديه سالمين مغتبطين ؛ إنها السعادة النفسية العالية التي لا تستمد بهجتها ورواءها من القصور والرياض ، والأثاث والرياش ، والفضة والذهب ، بل من الحب الخالص والود المتين .

وكذلك سيكون شأننا في مستقبلنا يا ماجدولين ، كتب لنا أن نعيش عيش الفقراء المقلين ؛ ولكننا سنكون على فقرنا وإقلالنا سعداء مغتبطين .

لم يبقَ بيني وبين الحصول على تلك الزيادة التي وعدوني بها إلا ثلاثة أشهر سأسافر من بعدها إليك في «ولفاخ» لأخطبك إلى أبيك ، وأضع يدي في يدك ، فلا يبقى للشقاء بعد اليوم إلينا من سبيل .

46- من ماجدولين إلى استيفن

سافرت سوزان إلى «كوبلانس» وتركتني حزينة آسفة على فراقها ، ولكنني سألحق بها عما قليل ، فقد وعدها أبي أن نسافر إليها بعد شهر واحد لنقضي عندها بقية أيام الشتاء ، وسأكتب إليك عند وصولي لتكون على بينة من ذلك ، فلعلك تجد السبيل إلى موافاتي هناك ، فأراك ولو على البعد ـ السلام .

47- من ماجدولين إلى استيفن

وصلنا منذ ثلاثة أيام أنا وأبي إلى «كوبلانس» ونزلنا ضيفين في منزل سوزان وأنا مغتبطة بلقائها وبالسعادة التي أجدها في منزلها اغتباطًا عظيمًا وقد أخبرتني اليوم أنها ابتاعت لها مقصورة في ملعب «الأوبرا» نذهب إليها مساء كل أحد ؛ فها نحن أولاء قد وجدنا المكان الذي يمكننا أن نتراءى فيه أو نتلاقى إن استطعنا .

فتعال إليّ يا استيفن ، ولا يحل بينك وبين ذلك أنك سترى مرة ثانية وجه ذلك البلد الذي أبعدت عنه واجتويته وخرجت منه ناقمًا عليه .. اغتفر كل شيء من أجلي .

48- الحياة الجديدة

سافرت ماجدولين مع أبيها إلى «كوبلانس» ونزلت في ضيافة صديقتها سوزان فأدهشها منظر القصر وأبهاؤه وحجراته ، وما يشتمل عليه من أثاث ورياش ، وما يتلألأ في جوانبه من زخرف وآنية ، وعجبها منظر الوصائف في إقبالهن وإدبارهن ، وما يتراءين فيه من ألوان الثياب وأنواع الأزياء ، حتى خيل إليها وهي واقفة أمام المرآة تنظر إلى نفسها وإلى موقفهن بجانبها أنهن فوق أن يخدمنها أو يسعين بين يديها ، بل تمثل لها أنهن يسخرن في أعماق نفوسهن بمنظرها ، ومنظر ثيابها القروية القصيرة المخططة التي خاطتها بيدها ، وكثيرًا ما كانت تحدثها نفسها كلما بدت لها حاجة من إلحاح أن تقوم إلى قضائها بنفسها خجلاً منهن وحياء ،

والله يعلم كم نالها في مبدإ أمرها من حيرة وارتباك كلما جلست إلى طعام أو شراب ، أو شهدت مجمعًا ، أو حضرت ملعبًا ، وكم كابدت من عناء في صياغة نفسها على أوضاع تلك الحياة الجديدة التي انتقلت إليها حتى أسلست واستقادت .

وكانت سوزان قد أعدت لها أنواع الأقمشة من حرير ومخمل وخز وصوف وفرو ، فخاطت لها خياطة ماهرة ثوبًا للرقص ، وآخر للملعب وآخر للمائدة وقميصًا للبيت ، وغلائل للنوم . فرقصت وغنت وأنست بمنظر الراقصات والمغنيات ، وتحدثت بأحاديث فتيات «كوبلانس» ؛ وذهبت مذاهبهن في آرائهن وتصوارتهن ، ولذّت لها هذه الحياة الجديدة لذة عظمى وملأت ما بين جوانحها حتى غلبتها على أمرها ، فتضاءل في نظرها كل شيء في ماضيها إلا حبها لاستيفن .

49- الفتنة

دخلت ماجدولين على سوزان ذات ليلة في غرفتها الخاصة في القصر وهي غرفة بديعة فاخرة قد كُسيت أرضها وجدرانها بالقطيفة الحمراء المطرزة وأسبلت على نوافذها وأبوابها ستائر حريرية بيض تتراءى في خلالها أسلاك الفضة اللامعة ، وتدور في أطرافها ألوان الفصوص المتلألئة وانتثرت في جوانبها وأركانها المقاعد الثمينة ، والمناضد الجميلة ، وآنية الفضة والذهب ، وأصص الريحان والزهر ، فرأت بين يديها صناديق صغيرة من الفضة فقالت لها سوزان حين رأتها : لقد أرسل إليّ خطيبي اليوم هدية الزواج فهل تحبين أن تريها؟

قالت : لا أحب إليّ من ذلك ، ففتحت سوزان الصناديق أمامها واحدًا بعد آخر فإذا عقود ودمالج وأساور وأقراط مصوغة أجمل صياغة وأبدعها ، مرصعة بأنفس اللآلئ وأثمن الجواهر ، فدهشت ماجدولين لمنظرها وظلت تقلبها بين يديها ساعة ، ثم تناولت قرطًا صغيرًا من الماس فوضعته في أذنيها ، فاقترحت عليها سوزان أن تتقلد الحلية بأجمعها لترى منظرها عليها . ففعلت ووقفت بها أمام المرآة وأقبلت بها وأدبرت . فقالت لها سوزان : ما أحوج جمالك يا ماجدولين إلى مثل هذه الحلية وما أحوج هذه الحلية إلى مثل هذا الجمال وإني لا أتمنى على الله شيئًا سوى أن أراك خطيبة رجل من ذوي النعمة والثراء يحبك ويستهيم بك ، ويملأ فضاء حياتك هناءً ورغدًا ، ثم أنشأت تصف لها قصرًا بديعًا ابتناه لها خطيبها في إحدى ضواحي «كوبلانس» وأعد لها فيه من أسباب النعمة والرفاهية ما لا يعد مثله أصحاب التيجان لنسائهم وحظياتهم وختمت حديثها بقولها :

وفردريك فوق ذلك فتى جميل ساحر لا تقع العين على أبدع ولا أظرف منه ، وهو يحبني حبًا شديدًا ، ولا أحسب أن الذي أضمر له من الحب أقل مما يضمر لي ، فأطرقت ماجدولين هنيهة ولم تكن قد أفضت إلى صديقتها حتى الساعة بسر حبها لاستيفن ، ثم رفعت رأسها وقالت : هل تكتمين سري يا سوزان إن أفضيت به إليك؟ قالت : نعم ، ومَن يكتمه إن لم أكتمه؟ فقصّت عليها قصتها مع استيفن وذكرت لها ذلك العهد الذي أخذه كل منهما على صاحبه أن يعيش له ،

وألا يفرق بينهما إلا الموت ، فقالت سوزان : إني أذكر أنك كتبت لي عنه وكان حديث عهد بالنزول بداركم ، إنه غير جميل ولا جذاب ، قالت : نعم هو كذلك ، ولكنني أحببت فيه أخلاقه أكثر من كل شيء ، وإن رجلاً يخاطر بنفسه من دون الناس جميعًا في سبيل إنقاذ غريق لا يعرف مَن هو حتى أنقذه وكاد يهلك دون ذلك لهو أشرف الرجال وأنبلهم قصدًا ، وأعلاهم همة ، ولقد شهدت أنت بنفسك ذلك المنظر وكتبت لي عنه ، وعلمت منه أكثر مما أعلم ، قالت : أهو الرجل؟ قالت : نعم؛ قالت : إني أذكر ذلك ، ولقد أعجبت به في ذلك اليوم إعجابًا عظيمًا ، وهل هو غني؟ قالت : لا ، ولكنه يسعى إلى الكفاف من العيش وسيناله ، وحسبي منه أنه يحبني حبًا لا يحبه أحد أحدًا ، قالت : ما أقبح المهر يا ماجدولين إذا كان كله حبًا ، إنك إذًا تريدين أن تبتلي وتستوحشي وتهجري العالم كله بجماله ورونقه إلى غرفة خاملة في أحد المنازل المهجورة المنفردة تقتلين فيها نفسك همًا وكمدًا .

فصمتت ماجدولين ولم تستطع أن تقول شيئًا ، لا اقتناعًا برأي صديقتها ، بل حياءًا منها وخجلاً ، ثم افترقتا .

50- الملعب

جلست ماجدولين وسوزان في مقصورة الأوبرا وجلس بجانبهما ألبرت ابن عمة ماجدولين ، وأشميد ابن عم سوزان ، وهما فتيان جميلان متأنقان في ملبسهما ، وحليتهما ، شأنهما في حياتهما شأن أمثالهما من الفتيان الأثرياء المستهترين الذين تنقسم حياتهم كلها إلى ساعتين اثنتين ، واحدة للضحك والسرور ؛ والأخرى لتصبي النساء واستغوائهن ، فينفقون على الأولى عقولهم ، وعلى الثانية أموالهم ، حتى لا يبقى لهم من هذا ولا ذاك شيء .

جلسا يقلبان النظر في وجوه الجالسين في المقاصير المماثلة لهما فإن وجدا وجهًا جميلاً تغامزا وتهامسا ، أو قبيحًا ضحكا وسخرا ، ثم علا صوتهما بالضحك والسخرية ؛ فلم تلبث سوزان أن اشتركت معهما . ثم تبعتها بعد قليل ماجدولين ، ولم يكن ذلك من شأنها أو مما يلتئم مع مزاجها ولكنها فعلته مجاملة لهما ، ثم لم تلبث أن طربت لهذا الأسلوب من المجون وأنست به فأخذت فيه أخذهما ، وبينا هي تقلب نظرها في المقاصير المجاورة لمقصورتها إذ رأت امرأة في سن الشيخوخة تلبس زينة الفتيات وحليتهن فلفتت نظر أصدقائها إلى ذلك فضحكوا لفطنتها ضحكًا عاليًا رنانًا ، لا لأن هناك فطنة تستحق الإعجاب والإطراء ، بل لأنهم أرادوا أن يجازوها مجاملة بمجاملة ، ومصانعة بمصانعة ، فخدعها هذا الإطراء فاسترسلت في نكاتها ومجونها حتى كادت تستأثر بالحديث وحدها من دونهم جميعًا .

وإنهم لكذلك إذ هتف ألبرت وأشار إلى رجل جالس على كرسي في مؤخرة الصفوف وقال : هل رأيتم أعجب من هذا القرد اللابس ثوب الإنسان؟ فقال أشميد: أذكر أني رأيت هذا الوحش المستأنس مرة قبل اليوم ، ولا أدري أين رأيته؟ وقالت سوزان : أظنه قدم الملعب الساعة فإني لم أره قبل هذه اللحظة ، وما أحسبه إلا الشيطان الذي كانوا يخيفوننا به صغارًا ولا نراه ، فقال أشميد : إن حلته وإن كانت ثمينة فاخرة فهي من الحلل التاريخية التي لا يلبسها إلا الممثلون ، فأجاب ألبرت : لعله سرقها من قبور الفراعنة أو دور الآثار ، فإن مَن يملك مثل هذه الحلة الثمينة لا يعجز عن أن يشتري مشطًا يمشط به شعره المشعث ، فقالت سوزان : لا عار على الرجل أن يكون قبيحًا ، ولكن القبيح أن يلبس ثيابًا جميلة تختلف صورتها عن صورته فتلفت الأنظار إلى قبحه ودمامته ، ثم التفتوا جميعًا فرأوا ماجدولين قد تراجعت إلى الوراء وهي ترتعد وتضطرب وقد استحالت حمرة وجهها إلى صفرة كصفرة الموت فسألوها ما بالها؟ فزعمت أنها مقرورة ، وأنها تشعر برعدة في جسمها ودوار في رأسها ، ولم تكن صادقة فيما تقول ، ولا يمكن أن تصدقهم فيما تقول ، لأن الرجل الذي يسخرون منه ويتناولونه منذ حين بألسنتهم ويذهبون كل مذهب في تحميقه وتجهيله والسخرية به ، إنما هو خطيبها الذي تحبه وتستهيم به ، فأمسكوا عن الضحك هنيهة وأقبلوا عليها يعللونها حتى هدأ ما بها ،

فانصرفوا إلى الرواية يشاهدون فصولها وعادت هي إلى مجلسها الأول ، وظلت تخالس استيفن النظرة بعد الأخرى حتى انتبه لها فحيّاها بابتسامة خفيفة لم يشعر بها أحد غيرها ، ثم ما لبثت الرواية أن انتهت فنهضوا للانصراف ، وألقت ماجدولين على استيفن نظرة ضمنتها معنى شكرها إياه على اهتمامه بها ، وحضوره لرؤيتها ثم انصرفوا .

51 – الرجل والمرأة

ينظر الرجل إلى المرأة في حبه إياها بعين غير العين التي تنظر بها إليه في حبها إياه ، فهو يراها أداته الخاصة به التي لاحق لإنسان غيره في التمتّع بها بوجه من الوجوه ؛ ويرى أن حقًا عليها أن تختصه بجميع مزاياها وصفاتها فلا تقع على حسنها عين غير عينه ، ولا تسمع رنة صوتها أذن غير أذنه ، ولا يشعر بروعة جمالها قلب غير قلبه ؛ فيغار عليها من النظر واللفتة ، وكلمة الاستحسان ، وبسمة الإعجاب ، ويخيل إليه أن الناظرين إليها والمحتفلين بها ، والمتحدثين بأحاديث حسنها وجمالها ، إنما هم قوم جناة متلصصون قد مدوا أيديهم إلى خزانة ذخائره التي يملكها وحده من دون الناس جميعًا فاختلسوا من جواهرها جوهرة لا حق لهم فيها ، وفازوا بها من دونه ، فيلم بنفسه من الألم والامتعاض ما يلم بنفس الشحيح المختبل إذا رأى السابلة تفر من حر الهاجرة إلى جدران داره لتستذري بظلالها ساعة من الزمان ، وإن لم يضره ذلك شيئًا ،

وقد يكون من أشهى الأشياء إلى نفسه وأعجبها إليه أن يرى الناس قد أجمعوا رأيهم على استقباحها والزراية عليها ووصفها بأقبح الصفات وأشنعها ، وأنها قد أصبحت في نظرهم ضحكة الضاحكين ، وآية السابلين ، حتى يكون جمالها سرًا من الأسرار الخفية ، لا تراه عين غير عينه ، ولا يبلغ صميمه نفس غير نفسه .

أما المرأة فتنظر إلى الرجل الذي تحبه نظرها إلى حليتها التي تلبسها وتعتز بها وتدل بمكانها على أترابها ونظائرها ، فلا أوقع في نفسها ، ولا أشهى إلى قلبها من أن تسمع الرجال يقولون عنه إنه رجل عظيم ، والنساء يقلن عنه إنه فتى جميل ، فهي تحبه لخيلائها ، أكثر مما تحبه للذاتها وشهواتها ، وترى في إعجاب المعجبين به وافتتان المفتتنات بحسنه وجماله ، اعترافًا منهم بحسن حظها وسطوع نجمها واكتمال أسباب سعادتها وهنائها ، وهذا كل ما يعنيها من شؤون حياتها .

لذلك شعرت ماجدولين بلوعة الحزن في أعماق قلبها حينما عرفت أن حليتها التي كانت ترجو أن تفاخر بها أترابها غدًا ، وتكاثرهن بحسنها وجمالها ، قد بذأتها العيون ، واقتحمتها الأنظار ، وسخر منها الرجال والنساء جميعًا ، وظلت تفكر في ذلك ساعة كابدت فيها من آلام النفس ولواعجها ما تكابد نفس المحتضر في ساعته الأخيرة ، ثم لم تلبث أن عادت إلى نفسها وظلت تقول : إنهم لا يعرفون من أمره ولا أمر نفسه شيئًا ، ولو أنهم علموا من شأنه بعض الذي أعلم ، وعرفوا ما تنطوي عليه جوانحه من الفضائل والمزايا ، لأعظموا منه ما استصغروا وأجلوا ما احتقروا ، ولأنزلوه من نفوسهم المنزلة التي يستحقها فضله وكرمه .

وهنا ذكرت آماله وأحلامه ، وبؤسه وشقاءه ، وما يكابده في حياته من شدة وبلاء ، في سبيل عيشه مرة وحبه أخرى ، فبكت ، رحمة به ، وإشفاقًا عليه .

وهكذا أخذ حبها يستحيل إلى رحمة وشفقة ، والحب إذا استحال إلى هذين فقد آذن نجمه بالأفول .

52 – من استيفن إلى ماجدولين

رأيتك يا ماجدولين بعد افتراقنا عامًا كاملاً ، وكانت ساعة من أسعد الساعات وأهنئها ، فغفرت بعدها من أجلها كل سيئاته عندي ، بل نسيت عندها أنني ذقت طعم الشقاء ساعة واحدة في يوم من أيام حياتي ، وظللت أقول في نفسي : هذا شأني ، ولم أرها إلا لحظة واحدة على البعد ، فكيف بي إذا أصبحت كل ساعات حياتي ساعات لقاء . واجتماع؟ إني أذكر ذلك يا ماجدولين فيخيل إليّ أن قلبي أضعف من أن يحمل هذه السعادة كلها ، وأنها يوم توافيني ستذهب إما بعقلي أو بحياتي .

عفوًا يا صديقتي فقد أذنبت إليك بيني وبين نفسي ذنبًا لابد لي من أن أعترف لك به حتى لا أكون قد أذنبت ذنبًا آخر بكتمانه وإخفائه .

تركت (جوتنج) وقلبي يخفق رعبًا وخوفًا أن تكون الحياة الجديدة التي انتقلت إليها قد نالت من نفسك منالها من نفوس الفتيات الضعيفات اللواتي تتلون قلوبهن وأهواؤهن بلون الهواء الذي يستنشقنه ،

والجو الذي يعشن فيه ، فلما رأيتك ورأيت تلك السحابة السوداء من الحزن التي كانت تغشى وجهك وتظلله ومنظر عينيك الساجيتين المنكسرتين المملوءتين كآبة وحزنًا ، وعلمت أني مخطئ في هواجسي وظنوني ، وأن المكان الذي شغلته من قلبك لا يزال آهلاً بي كعهدي به ، وأن تلك الريبة التي عرضت لنفسي فيك إنما هي وساوس الحب وأوهامه .

غير أن لي عندك أمنية واحدة ، وأحب أن تأذني لي بذكرها وأن تنوليني إياها .

رأيتك في الملعب تلبسين ثيابًا رقيقة ناعمة تشف عن ذراعيك وكتفيك ونحرك ، وتكاد تنم عن صدرك وثدييك ، ورأيت الأنظار حائمة حولك تكاد تنتهبك انتهابًا ، فاشتد ذلك عليّ كثيرًا وألم بنفسي من الغيظ والألم ما الله عالم به ، وما أحسب أنك كنت راضية عن نفسك في هذا المظهر الذي ظهرت به بين الناس ، ولكنك خضعت فيه لرأي النساء ، ورأيهن في هذا الشأن أخيب الآراء وأطيشها ، فرجائي عندك أن تنزعي عنك هذه الشفوف المهلهلة ، وأن تعودي إلى ثيابك القروية الأولى ، صونًا لجسمك من عبث الأنظار وفضولها ، فليس يكفيني منك أن تهبيني قلبك ويؤثريني بمحبتك ، بل لابد لك من أن تذودي عنك قلوب الرجال وأفئدتهم فلا تجعلي لها سبيلاً إلى الافتتان بك ، أو الاهتمام بشأنك ، لا بالبشاشة والوداعة ولا بالتزين والتحلي ، ولا بالتجمل والتأنق ، واعلمي أن المرأة لا تخلص للرجل الذي تحبه الإخلاص كله حتى تؤثره بجميع مزاياها وصفاتها ،

فلا تحفل برأي أحد فيها غير رأيه ، ولا تنزل منزلة الرضا في قلب غير قلبه ، ولا تأذن لكائن مَن كان أن يقول لها في وجهها ، أو بينه وبين نفسه ، أو في رؤياه وأحلامه ، إنها جميلة أو فاتنة ، أو ما أظرفها وأبدعها ! حتى توافيه يوم توافيه طاهرة نقية كاللؤلؤة المكنونة التي يلتقطها ملتقطها من صدفتها .

وتحيتي إليك وإلى السيدة سوزان ، وسأذهب مساء كل أحد إلى الملعب لأراك ، وألتمس السبيل إلى لقائك .

53 – الدسيسة

دخلت سوزان على ماجدولين في غرفتها فرأتها جالسة جلسة الحزين المكتئب ورأت ذلك الكتاب في يدها فاختطفته منها قبل أن تتمكن من إخفائه ، فقرأته ثم ابتسمت وقالت لها : لم يبق على خطيبك هذا يا ماجدولين سوى أن يأمرك بأن تشوّهي وجهك ، أو تفقئي إحدى عينيك ، أو تجدعي أنفك ، أو تهشمي مقدم أسنانك ، حتى تبذأك العيون وتقتحمك الأنظار ، وتقشعر لرؤيتك الأبدان ، فلا يجرؤ أحد على أن يقول لك بلسانه ، أو بينه وبين نفسه ، إنك جميلة أو فاتنة ، وأن تحملي بيدك قيثارة رنانة تطوفين بها أنحاء البلاد كما كان يفعل شعراء اليونان والرومان في عصورهم الأولى ، وتتغنين عليها بمدحه والإشادة به ، وتنشدين أناشيد الثناء على حسنه وجماله ، فما أقل عقله وأقصر نظره وأجهله بالحياة وشؤونها ؛ إني لأحسبه قد أعد لك في بيته منذ الساعة قفصًا من حديد يستقبلك به يوم تزفين إليه ، ليسجنك فيه ،

ثم يقف على بابك حارسًا يقظًا يصونك من عبث العيون وفضول الأنظار ، فلا ترين إلا وجهه ، ولا تسمعين إلا صوته ، ولا تشعرين بوجود أحد في العالم سواه .

فقالت ماجدولين : إنك تتهمينه يا سيدتي بما ليس فيه ، فهو من أحسن الناس أدبًا ، وأشرفهم نفسًا ، وأطيبهم قلبًا ، ولكنه محب ، وكل محب غيور ، قالت : أعاذني الله وإياك من حب يختلس الحياة اختلاسًا ، ويأتي عليها بأسرع من ضربة السيف ، وكرة الطرف ، والله لو جاء في خطبتي ملك من ملائكة السماء يحمل على رأسه تاج الملأ الأعلى ، ويمهرني بالجنة التي أعدها الله للمتقين وما فيها من حور وولدان ، وروح وريحان ، ويعدني بالخلود الدائم ، والنعيم الذي لا يفنى ، على أن يضعني في قفص مثل هذا القفص الذي أعده لك هذا الخطيب المأفون لآثرت موت الفجأة ، والتغلغل في أعماق السجون ، والفرار إلى أديرة الصحاري المنقطعة ، على الرضا به ، والنزول على شرطه .

ثم نهضت قائمة وقالت : محال أن أخاطر بك وبمستقبلك يا ماجدولين وأن أتركك فريسة في يد هذا الوحش المفترس ، ينغص عليك عيشك ويكدر صفو حياتك ، ويقطف زهرة شبابك الغضة قبل أوانها ، ثم حيتها وانصرفت إلى مخدعها .

فقضت ماجدولين بعد انصرافها ليلة ليلاء لا تستريح فيها من الضجعة إلا إلى القعدة ، ولا من القعدة إلا إلى القومة ، تتلمس بارقة الصواب في هذه الدجنة الحاكلة فلا تهتدي إليه ، وتقلب أمرها ظهرًا لبطن فلا يزيدها التقليب إلا جهلاً ، حتى غلبتها السنة على عينيها فنامت .

54- من أوجين إلى استيفن

صدر أمر القيادة العليا للتهيؤ للسفر بعد بضعة أيام إلى جهة لا تعرفها ويقول ضباطنا أن هناك ستكون الواقعة الكبرى التي يفصل فيها في مستقبل الحرب ، ولا أعلم ماذا يعده القضاء لي في ذلك اليوم . فإن قدر لي الله النجاة فسأكتب إليك ، وإن كانت الأخرى فستقرأ اسمي بين أسماء القتلى في جريدة الحرب ، ولا يحزنك في ذلك اليوم مصيري ، فهو مصير كل رجل شريف .

لي إليك حاجة يا استيفن أرجو ألا تضن عليّ بها :

قد بلى سرجي ، ووهت علائقه ، ولم يبق معي من المال بعد ما أنفقت عطائي كله في هذا الشهر بين اللعب والشراب ما أبتاع به سرجًا غيره ، فابعث إليّ بعشرين فرنكًا قبل مرور عشرة أيام ، فإن فاتك أن ترسل إليّ في ذلك الوقت فلا ترسل إليّ شيئًا فإنه لا يصلني .

وتحيتي إليك وإلى السيدة ماجدولين .

55- العرس

استطاع استيفن بعد سفر صديقه إدوار أن يستفضل جزءًا من مرتبه الشهري فاجتمع له بعد بضعة أشهر خمسون فرنكًا ، استأجر بسبعة منها الحلة التي ذهب بها إلى ملعب الأوبرا لرؤية ماجدولين ، وابتاع بخمسة تذكرة الملعب ، غير ما أنفق على طعامه وشرابه وسفره وبقى معه بعد ذلك اثنان وعشرون فرنكًا ، فلما عاد إلى جوتنج لبث بضعة أيام ينتظر كتابًا من ماجدولين ردًا على كتابه الأول فلم يأته ، فساء ظنه

ووقع في نفسه أنه قد أغضبها وآسفها فيما كتب إليها ، فاشتد حزنه وغمه وكتب لها رسالة أخرى يعتذر إليها فيها عما ورد في رسالته الأولى فكتبت إليه أنها كانت عاتبة عليه في سوء ظنه بها . واشتداده في مؤاخذتها وأنها قد قبلت عذره ، وسألته ألا ينقطع عن زيارة الملعب لتراه ، فعزم على أن يسافر يوم الأحد ليراها ويلتمس السبيل إلى مقابلتها بكل وسيلة ليجدد لها اعتذاره بنفسه ، ويشكر لها صفحها عنه ورضاها .

فبينما هو جالس في غرفته صباح اليوم الذي عزم على السفر إذ جاءه كتاب أخيه فحزن عند قراءته حزنًا شديدًا ، وذكر أنه لا يملك من متاع الدنيا غير هذه القطع القليلة ، وأنه في حاجة إليها لينفقها على زيارة ماجدولين ، فلبث حائرًا لا يدري ماذا يصنع ، ثم غلبته عاطفة الحب على كل عاطفة سواها ، فقام ليهيئ نفسه للسفر ، وابتاع نعلاً جديدًا لأن نعله القديمة كانت قد بليت ، وبلغت آخر درجات الاحتمال ، فعجز عن استئجار الحلة التي استأجرها في المرة الأولى فلم يجد بدًا من أن يستصلح حلته التي يلبسها ، فرتق فتوقها وصبغ بالمداد الأسود ما ابيض من خيوطها ثم ركب عجلة وسافر إلى «طوبلانس» في الساعة الأولى من الليل ، فأكل في بعض المطاعم الصغيرة ، ثم ذهب إلى الملعب فلم ير ماجدولين في مقصورتها فلم يقلق لذلك كثيرًا وقال : لعل لها شأنًا شغلها عن التبكير وهي آتية ما من ذلك بد ، وأقبل على المسرح يتلهى بالنظر إلى فصوله فرأى بين القطع الممثلة مشهد رجل من أرباب الثراء والنعمة قد استهام بحب امرأة واستهامت به ،

ثم نزلت به نكبة من النكبات المالية فتنكرت له وبرمت به وعزمت على مقاطعته والرحيل عنه فجثى الرجل بين يديها يستعطفها ويسألها ألا تفعل ، فأبت ، وصارحته بالسبب الذي يدعوها إلى مقاطعته ، وقالت له فيما قالت : «إن المرأة لا تحب الرجل قط ، بل تحب فيه نفسها ، فإن كان من أرباب المال أحبت فيه زينتها ولهوها ، أو من أرباب الجمال أحبت فيه لذتها وشهوتها ، فإن لم يكن أحد الاثنين ، فهي لا تحب إلا هذين» فاشمأز استيفن عند سماع هذه الكلمة ، وقال في نفسه : إنهم يمثلون أخلاق البغايا الفاسقات ، ويزعمون أنهم يمثلون أخلاق النساء عامة ، ها هي ذي ماجدولين تكاد تعبدني حبًا ، وما أنا من أرباب الجمال فتحبّ فيّ شهوتها ، ولا من أرباب المال فتحبّ فيّ زينتها ، ولقد أراد الله بها خيرًا إذا كفاها مؤنة سماع هذه الكلمات المنفرة ، ولو سمعتها لآلمتها ونالت من نفسها منالاً عظيمًا .

ثم انتظر بعد ذلك ساعة فلم يبق له أمل في مجيئها ، وعلم أن هناك شأنًا عظيمًا عرض عليها فشغلها عن الحضور ، فاشتد عليه الأمر كثيرًا ، ورأى ألا بد له من الوقوف على شأنها قبل العودة إلى قريته ، وخشي أن تكون مريضة ، فخرج من الملعب ومشى في طريق قصر سوزان ، وهو لا يعلم كيف يلتمس السبيل إلى الوصول إليها حتى داناه فرأى أنوارًا كثيرة تتلألأ في أبهائه وحجراته ، وتتدفق من نوافذه وكواه ، وسمع ألحانًا مختلفة تتردد في أنحائه ، ورأى الخدم رائحين غادين في صحونه وأفنيته يحملون على أيديهم آنية الشراب وصحف الطعام فعلم أنها وليمة عامة ، ولكنه لم يدر ما المراد بها! فدنا من الباب فرأى عجلات كثيرة مصطفة أمامه ، ورأى حوذيًا متكئًا على كرسي عجلته ، فسأله : ما هذه الليلة الحافلة في هذا القصر

؟ فصعد الرجل نظره فيه وصوبه ، ثم قال له ، وهو لا يفارق متكأه : إنه عرس السيدة سوزان ابنة صاحب هذا القصر ، فاطمأن وهدأ وعلم بأن ما بصاحبته من بأس ، وعزم على الانصراف ، ثم حدثته نفسه أن يحتال لرؤيتها ، ولو على البعد لحظة واحدة قبل انصرافه ، فمشى إلى ظلة دانية من ظلل القصر فوقف تحتها يفكر في الوسيلة التي يتذرع بها إلى الدخول ، فما لبث أن رأى عجلة مقبلة تحمل بعض الكبراء ، ورأى الخدم يهرعون إليها فانتقل من مكانه واختلط بهم كأنه واحد منهم ، ولا تختلف هيئته عن ذلك إلا قليلاً ، ثم نزل الزائر فمشي بين يديه مع الماشين حتى اجتازوا فناء القصر ووصلوا إلى قاعة الرقص ، فدخل الرجل ودخل معه الخدم وبقي هو وحده على الباب يستشف من ألواح زجاجه ما وراءها من المناظر ، فرأى الراقصين والراقصات يسبحون في بحر من الهناء والسرور ويطيرون في أجواء مختلقة من اللذائذ والمناعم ، فظل يدير عينيه بينهم يفتش عن ماجدولين حتى لمحها ترقص مع رجل فتبينه فإذا هو صديقه إدوار ، فلم يأبه لذلك كثيرًا ، إلا أن ما راعه وأزعجه وكان يطير بلبه أنه رآها ترقص في ثوب رقيق شفاف لا يكاد يحجب جارحة من جوارحها ، وخيل إليه أن صدرها ملتصق بصدر مخاصرها ، وأن رأسها ملقى على كتفه ، وخدها تحت متناول لثماته ، وأنه يحتضنها أكثر مما يخصرها ، فأنّ أنينًا مؤلمًا ، وقال في نفسه : ماذا فعلت بك الأيام يا ماجدولين؟ وحدثته نفسه أن يقتحم الباب ويتغلغل بين الزائرين حتى يبلغ مكانها ويلقي عليها نظرة عتب وتأنيب ، ثم يعود أدراجه ، ولكنه استحيا لها ولنفسه أن يراه الناس في هذه الأثواب الجافية الغليظة ، فتماسك على مضض ،

وأنشأ يسري عن نفسه ويقول : هذا شأن جميع الراقصين والراقصات وهذه أثوابهم التي يلبسونها ، ومواقفهم التي يقفونها ، برهم وفاجرهم ، وتقيهم وعاهرهم ، فلا ألومها ، ولا أعتب عليها ، فتلبس ما تشاء من الثياب ، ولترقص مع من تشاء من الرجال ، فحسبي منها أني الشخص الوحيد الذي يتيمها ويخلبها ، ويملأ فراغ قلبها ، من بين هؤلاء جميعًا ، ثم أعاد النظر مرة أخرى فرآها قد فرغت من الرقص ومشت هي وإدوار إلى مقعد قريب من الباب فجلسا عليه فلم ير في مجلسهما بأسًا ، ولا مسترابًا ، فهدأ ثائره ، بل أعجبه ما رأى من عناية صديقه بها ، وعطفه عليها ، وخيل إليه أنه ما رقص معها ، ولا احتفل بها إلا من أجله ، وأنهما ما اجتمعا على هذا المقعد في هذه الساعة إلا ليتحدثا بشأنه ويتذكرا أيامه وعهوده ، ثم ما لبث أن لمح في أصبعها خاتمًا فتبينه فإذا هو الخاتم الذي نسجته من شعره ، والذي لا تزال تحدثه عنه في رسائلها كلما كتبت إليه ، فاغتبط بذلك اغتباطًا عظيمًا ، ولم يبق في نفسه من ذلك الخاطر المؤلم الذي مر بذهنه منذ ساعة أثر واحد .

وأنه لكذلك إذ دفع الباب بغتة وخرج منه فتى متأنق من الزائرين يهز في يده سوطًا مستطيلاً فرآه واقفًا فظنه بعض الخدم فصرخ في وجهه بلهجة الآمر أن يدعو له سائق عجلته ، وسماه له ، فارتبك قليلاً ، ثم لم ير بدًا من الامتثال مخافة أن ينكشف من أمره ما كان خافيًا ، فهرع إلى الباب الخارجي يهتف باسم غير الاسم الذي سمعه وكان قد نسيه ، فأدركه الفتى ، وقد طار الغضب في دماغه فضربه بالسوط على وجهه ضربة أدمته وأخذ يسبه ويشتمه ، فاحتمل استيفن تلك الضربة صامتًا ، ومشى في طريقه لا يلوي على شيء .

وما أبعد إلا قليلاً حتى انحدرت من جفنه دمعة جرت على خده فأصابت موضع الضربة منه فآلمته فهتف صارخًا : ماذا لقيت في سبيلك يا ماجدولين؟

56- المريض

عاد استيفن إلى «جوتنج» فوجد كتابًا من قريبه الذي كان قد أحسن إليه بتلك القطع الذهبية يوم خروجه من «كوبلانس» شريدًا وطريدًا يقول له فيه إنه مريض مشرف ، وإنه يحب أن يراه بجانبه في ساعته الأخيرة ، فرثى له وحزن عليه حزنًا شديدًا ورأى ألا بد له من موافاة رغبته في الذهاب إليه ؛ فاستأذن المريضة في بضعة أيام يقضيها بجانبه فلم تأذن له إلا بثلاثة ، فسافر إليه ، وكان يسكن بيتًا في ضاحية من ضواحي «كوبلانس» لا يرى فيه إلا وجه خادمه وطبيبه ، وكانت زوجته قد ماتت منذ عهد قريب ، وليس له من الأقارب الأدنين غير ابن عم له من قساة الأغنياء وجفاتهم لا يحبه ولا يحفل بشأنه ، فدخل عليه استيفن في ساعة من ساعات الليل فرآه ساهرًا يئن الآلام والأوجاع ، وقد نال منه الداء منالاً عظيمًا ، فأصبح لا يستطيع النطق إلا همهمة وتجمجمًا ، فجلس بجانبه يتوجه له ويواسيه حتى استطاع الرجل بعد لأي أن يقول له : لقد مرت بي بضعة أشهر ، وأنا طريح هذا الفراش لا أفارقه لحظة واحدة حتى مللت وبرمت ، وأصبحت أخشى غائلة الضجر أكثر مما أخشى غائلة المرض ، فلا تفارقني بعد الموت حتى يحكم الله في أمري بما يشاء .

فلبث معه الثلاثة الأيام التي أجازوه بها ثم عزم العودة فتوسل إليه المريض بانكسار عينيه وترقرق الدمع فيهما ألا يفارقه حتى يقضي الله في أمره بقضائه ، وكان قد ثقل وأشرف وأصبح على حالة لا ترجى له معها الحياة ، فتذمم استيفن أن يفارقه على حاله تلك وكتب إلى المدرسة يستأذنها في بضعة أيام أخرى يتخلفها وأدلى إليها بعذره في ذلك ، ولبث ينتظر جوابها فلم يأته فاشتد به القلق ، ثم جاء منها بعد حين كتاب تقول له فيها إنها لم تر بدًا من الاستغناء عنه والاستبدال منه وأنها قد أرسلت إليه ما بقي له عندها من مرتبه ، فما أتى على آخر الكتاب حتى صاح صيحة كادت تنقطع لها أضالعه وسقط مغشيًا عليه وهو يقول : «رحمتك اللهم فقد عجزت عن الاحتمال» .

57- الموت

نامت العيون وهدأت الجفون في مضاجعها ، وسكنت كل سارية في الأرض ، وكل سابحة في السماء ، وظل استيفن وحده ساهرًا بجانب مريضه المحتضر يسمع حشرجة الموت في صدره ترن في هدوء الليل وسكونه فيخيل إليه أنه واقف في وسط فلاة موحشة تعزف جنانها وتزمجر غيلانها ، فامتلأت نفسه رهبة ووحشة ، وأن هناك معركة قائمة بين الروح والجسد ، تأبى إلا أن تفارقه ، ويأبى إلا أن يتشبث بها ، فيدركه من التعب والنصب ما لا يحتمله محتمل حتى عي بأمرها فتساقط خائرًا مستسلمًا لا تطرف له عين ولا ينبض له عرق ، فوضع استيفن أذنه على صدره فلم يسمع شيئًا ،

فعلم أن الأمر قد انقضى ، وأن الراقص قد ألقى قناعه ، والممثل قد خلع ثوب تمثيله ، وأن عنصري الحياة قد افترقا وعاد كل منهما إلى أصله ، فطار منهما ما طار ، ورسب ما رسب ، فجثا بجانب الميت يرثيه ويتوجع له ويبكي عليه مرة وعلى نفسه أخرى ، ومرت أمام نظره في تلك الساعة رواية حياته الماضية من مبدئها إلى منتهاها ، فظل يقرؤها صفحة صفحة ، ويقلب نظره في سطورها وكلماتها فرأى بؤسًا وشقاء ، وأحزانًا ودموعًا ، وجدودًا عاثرة ، ونحوسًا متتابعة ، حتى انتهى إلى الصفحة الأخيرة منها فقرأ فيها كتاب العزل الذي جاءه من المدرسة ، فانتفض عند قراءته انتفاضًا شديدًا ، وصاح صيحة عظمى دوت بها أرجاء الغرفة قائلاً : ما هذا! هل فقدت ماجدولين؟ ثم أطرق إطراقًا طويلاً لا يعلم إلا الله أين سبحت نفسه فيه ، ولبث على ذلك ساعة ، ثم رفع رأسه فإذا عيناه جمرتان ملتهبتان وإذا وجهه أسود مربد كأنما قد لبس نسيجًا غير نسيجه فدار بنظره في أنحاء الغرفة دورة الحية الرقطاء بجوهرتيها في جنبات جحرها حتى وقع على خزانة المال التي كان يأمره الميت في حال مرضه بالإنفاق منها ، فعلق بها ساعة لا ينتقل عنها ولا يتحول ، كأن عينيه قد استحالتا إلى مسمارين لامعين من مساميرها ، ثم وثب على قدميه فجأة وقد أصابه مثل الجنون وهتف صارخًا : لابد لي من النجاح في حياتي ولا أسمح لعقبة من العقبات مهما كان شأنها أن تقف في طريقي ، وإن الدهر لأعجز من أن يعترض سبيلي ، أو يغلبني على أمري ، فهو لا يغلب إلا الضعفاء ،

ولا يقهر إلا الأغبياء ، وما أنا بواحد منهم ، وإن من الجبن والخور أن أضع حياتي بين يديه يتصرف بها كيف يشاء ، فلأكن أنا دهرًا وحدي ، أتولى شأن نفسي بنفسي ، وأتصرف بحياتي على الصورة التي أريدها ، لا أتقيد بقانون ولا نظام ، ولا أسجن نفسي في هذه الدائرة الضيقة التي يسمونها الفضيلة ، فما سقط الساقطون في معترك الحياة ، ولا داستهم أقدام المعتركين فيه ، إلا لأنهم وقفوا من ميدان في نقطة واحدة لا يتحولون عنها ولا يتحلحلون فلم ينتبهوا إلى الضربات المختلسة التي جاءتهم من خلفهم فقضت عليهم ، ولو أنهم داروا مع المعركة حيث دارت ، وتقلبوا في جنباتها كرًا وفرًا ، لظفروا بالغنيمة مع الظافرين ، ولنجو من غائلة الموت الزؤام .

لا رذيلة في الدنيا غير رذيلة الفشل ، وكل سبيل يؤدي إلى النجاح فهو سبيل الفضيلة ، وما نجح الناجحون في هذه الحياة إلا لأنهم طرقوا كل سبيل يؤدي إلى نجاحهم فاقتحموه غير متذممين ولا متلومين ، وما سقط الساقطون فيها إلا لأنهم تأثموا وتحرجوا وأطالوا النظر والتفكير ، وقالوا : هذا حلال وهذا حرام .

من هم الذين يملكون الدور والقصور والضياع الواسعة ، والرباع الحافلة ، والذين تموج خزائنهم بالذهب ، موج التنور باللهب؟ أليسوا اللصوص والمجرمين الذين يسمون أنفسهم ويسميهم الناس سراة ووجوهًا ؟

من هم الذين يسهرون الليل طاوين لا يطرق النوم أجفانهم ، ويقضون أيامهم هائمين على وجوههم يفتشون عن الرزق في كل مكان لا يظفرون منه باللقمة أو الجرعة إلا إذا أراقوا في سبيلها محجمًا من دماء قلوبهم؟ أليسوا الأشراف والفضلاء الذين يسميهم الناس ويسمون أنفسهم معهم رعاعًا وغوغاء؟

أنا لا أعترف بقانون الملكية ولا قانون الوراثة لأن المالكين سارقون ، ولأن الوارثين أبناء السارقين ، فلا أسمي نفسي لصًا إلا إذا سرقت فقيرًا يكدح لقوته ليله ونهاره فلا يبلغ منه إلا الكفاف ، ولا أسمي نفسي ظالمًا إلا إذا ظلمت عادلاً مستقيمًا لم يظلم في حياته نملة في حبة شعيرة يسلبها إياها .

إن نشاط الرذيلة وشطاطها أحرص من أن يترك للفضيلة المتئدة المترفقة في سيرها شيئًا وراءه تبلغه فتلتقطه ، فلأغامر في ميدان هذه الحياة مغامرة فإن ظفرت فذلك ما رجوت ، أو لا ، فقد أبليت في حياتي عذرًا .

وكان يهذي بأمثال هذه التصورات وهو يضرب في أرجاء الغرفة ذهابًا وجيئة بخطوات واسعة متلاحقة ، ثم وقف بغتة وألقى نظرة على الجثة المسجاة أمامه وقال : لقد أصبحت ميتًا أيها الرجل ، فلا يغنيك من المال الذي تركته وراءك شيء ، ولا شأن لك بمن يخلفك عليه من بعدك أكان صديقك أم عدوك ، أم أقرب الناس وحميمك الذي واساك وجاملك في ساعاتك الأخيرة، وقام لك بما لم يقم به صديق ولا حميم ،

حتى أضاع آماله ومستقبل حياته في سبيل أن توصي إليه بمالك فهو أحوج إليه من ابن عمك السعيد المجدود الذي لا يبالي أزاد مالك على ماله ، أم نقص منه ، فأنا قائم عنك بعد موتك بما فاتك أن تقوم به في حياتك .

ثم أدار ظهره إلى الجثة ومشى إلى الخزانة وكانت على كثب منه فوضع يده على مفتاحها فشعر برعدة شديدة تتمشى في أعضائه ، وخيل إليه أن الغرفة كلها عيون ترقبه وتحدق في وجهه ، وأن روح الميت تلقى عليه من نوافذ جثتها نظرات شُزْرًا ملتهبة يكاد أوارها يصل إليه فيحرقه ، فتريث في مكانه قليلاً ثم تماسك واستجمع لبه وأناته وأدار المفتاح فدار الباب على عقبه وصر في دورانه صريرًا خشنًا ، فارتعد وتمثل له أن صوتًا أجش من أصوات الحراس الأشداء يهتف به ويخاشنه ، فابتعد عن الباب خطوة ، ثم التفت يمنة ويسرة فلم ير شيئًا ، فقال إنها خيالات الشقاء تلاحقني في كل مكان ، ومد يده إلى الأوراق يقلبها على نور مصباح ضعيف كان في يده حتى عثر بالسفاتج التي يريدها ، فما وضع يده عليها حتى شعر أن دمه الذي كان يغلي في عروقه غليان الماء في مرجله قد هدأ وبرد حتى كاد يقف عن الجريان ، وأن قطرات باردة من العرق تنحدر من جبينه على وجهه متتابعة ، وأحس نفسه بذلك السكون العميق الذي يشعر به الهائج المصروع بعد استفاقته من صرعه ، وخيل إليه أن الخزانة التي أمامه تهتز وتضطرب ويموج بعضها في بعض ، ثم ما لبثت أن استحالت إلى مرآة ثقيلة لامعة فوقع نظره على صورته فيها فامتلأ قلبه خوفًا وذعرًا ، وأنكرت نفسه نفسه ،

فقد رأى في أسارير وجهه تلك السحنة المنكرة التي يعرفها في وجوه المجرمين ، ورأى في عينيه تلك النظرات الطائرة الشاردة التي ينظر بها المحكوم عليه بالموت إلى سيف الجلاد حين يلمع فوق رأسه فظل يرتعد ويضطرب ، وظلت الأوراق تتساقط من يده واحدة بعد أخرى ، وإنه لكذلك إذ أحس بيد ثقيلة قد وضعت على كتفه فلم يأبه لها في أول الأمر ، وظنها بعض الخيالات التي لا تزال تعاوده منذ الليلة ، إلا أنه لم يلبث أن أحس ببرودتها فوق كاهله فتمالك في نفسه وتجمع تجمع المتوقع ضربة هائلة تسقط على أم رأسه ثم التفت قليلاً ليري ماذا دهاه ، فإذا الميت واقف خلفه عاري الجسم ينظر إليه بعينين جامدتين فصرخ صرخة عظمى ودفعه بيده دفعة شديدة فسقط على الأرض بعيدًا عن مضجعه الأول فرنت عظام رأسه على أرض الغرفة رنينًا شديدًا ، فاختبل وأصابه الجنون وألقى المصباح من يده فانطفأ فازداد رعبه وفزعه ، وهرع يطلب الباب للفرار منه فلم يهتدِ إليه ، فظل يعدو في أنحاء الغرفة ، ويتلمس جدرانها مقبلاً مدبرًا لا يعثر حتى يقوم ، ولا يقوم حتى يعثر ، وقد خيل إليه أن الجثة تعدو وراءه وتتعقبه حيثما ذهب ، حتى أعياه الجهد ، عن الحركة ، فسقط مغشيًا عليه .

ولم يكن ما رآه في هذه المرة خيالاً بل حقيقة لا ريب فيها فقد عاودت الميت الحياة لحظة ففتح عينيه للمرة الأخيرة فرأى باب خزانته مفتوحًا ورأى إنسانًا لا يعرف من هو يقلب أوراقه ، فدفعه الحرص الغريزي الذي لا يفارق الإنسان من مبدأ ساعات حياته إلى نهايتها إلى الوثوب على قدميه ، والإهواء بيده على كتف السارق ، ثم كان ما كان من سقوطه على أرض الغرفة فكان في سقطته القضاء عليه .

لم يستفق استيفن من غشيته حتى طلع الفجر وأرسل بعض أشعته من نافذة الغرفة ففتح عينيه وظل ينظر حوله يمنة ويسرة ، فرأى المصباح الساقط والخزانة المفتوحة ، والأوراق المبعثرة ، والجثة الملقاة ، فذكر كل شيء وقام يتحامل على نفسه فأعاد كل شيء إلى مكانه ، ونقل الجثة إلى مضجعها وأسبل عليها غطاءها ، ولم يلبث أن جاء الطبيب ، فلما رأى الصدع الذي في رأس الميت قال لاستيفن : أحسب أن المريض قد ثار من فراشه في ساعته ألخيرة ولم يكن معه من يتولى شأنه فسقط بعيدًا عن مضجعه فأصابه ما أصابه ، فارتعد استيفن وقال : نعم يا سيدي ، ولقد كنت نائمًا في تلك الساعة فلم أستطع مساعدته ولم أستيقظ إلا على صوت سقطته . فاحتملته إلى مكانه وكان أسفي لذلك عظيمًا ، فلم ير الطبيب بأسًا فيما قال ، وانصرف لشأنه .

وما انقضى النهار حتى دفن الميت وحضر دفنه وارثه ، وسافر استيفن إلى « جوتنج » وهو يردد في طريقه قوله : « ويل لي من مجرمٍ أثيم » فما وصلها حتى كان قد بلغ آخر درجات الاحتمال فسقط في فراشه مريضًا مدنفًا ، لا يفارقه خيال تلك الهائلة التي كابدها لحظة واحدة

58- إدوار

علق إدوار بماجدولين منذ الليلة التي رآهما فيها استيفن من وراء ألواح الزجاج يرقصان معًا ، فأنشأ يختلف إلى منزل سوزان وكان يمت إليها بحبل قرابة ليرى حبيبته ويستدني قلبها ، وكان من أقدر الناس على مثل ذلك ، لعذوبة يعرفها له النساء في أخلاقه ، وحلاوة تجتذب قلوبهن في أحاديثه فأنست به وبمحضره وأعجبها منه أنه كان يسرد عليها كلما جلس إليها أحاديث المحافل والأندية ، ويطرفها بغرائبهما ونوادرهما ، ويذكر لها أسماء الراقصين والراقصات وفضل ما بينهم في البراعة والافتتان ، ويشرح لها أنواع الرقص غربيه وشرقيه ، قديمه وحديثه ، وتاريخ كل نوع منه ومنشأه ومصيره ويقص عليها قصص الغرام التي تنشأ كل يوم في قاعات الرقص بين النساء والرجال ، وكانت حديثة عهد بذلك كله ، فلم يكن شيء من الأشياء أعجب إليها من ذكره وترديده ، وكان إذا جرى ذكر استيفن بينهما أثنى عليه وأطراه ، وقص عليها طرفًا من نوادر طفولتهما وصباهما ، وما مر لهما في حياتهما الأولى من يؤس ورغد وشدة ورخاء ، ثم يصف لها بلهجة الحزين المتفجع حياة البؤس والشقاء التي يحياها اليوم في « جوتنج » وغرفته التي يسكنها ، وأثاثها الذي تشتمل عليه ، وثيابه التي يملكها ، ثم يتبع ذلك بالتوجع له ، والتألم لبؤسه وشقائه ، ومحاربة الدهر إياه في مساعيه وأغراضه ، فتصغي إلى حديثه وتقبل عليه إقبالاً عظيمًا .

ولم يزل بها حتى خلبها ووقع من نفسها ، وأصبحت لا تكاد تصبر عن مجلسه ساعة ، ولا تزال تفتقده وتسائل نفسها عنه كلما غاب عنها ، وهي تظن أنها إنما تحبه من أجل استيقن ، ولو كشف لها عن دخيلة نفسها لعلمت أنها قد بأت تنسى استيفن من أجله .

ولقد أعجبت سوزان تلك الصلة التي نشأت بين صديقتها وقريبها ورضيت عنها الرضا كله ، ورأت أن الله قد أراد به وبها خيرًا ، فرزقه أفضل الفتيات جمالاً وأدبًا ، ورزقها خير الفتيان ثروة وجاهًا ، وكانت تعرف شيئًا عن عيوب إدوار ، ولكنها كانت ترى أنها عيوب خاصة به لا تتعداه إلى غيره ، وكانت تعتقد أن المرأة لا ترى في زوجها الغني الذي يملأ فضاء بيتها نعمة ورغدًا عيبًا واحدًا مهما كثرت عيوبه ، فأنشأت تسعى سعيها للبلوغ بهما إلى الغاية التي تريدها لهما ، فأشارت على إدوار أن يتودد إلى الشيخ مولر ويداخله مداخلة الصديق صديقه ، وقالت له : إنه رجل مفتون بحب النبات والزهر ، فلا يعجبه إلا الحديث عنهما ! ولا ينزل من نفسه المنزلة العليا إلا من يعلم أنه يشاركه في العلم بهما ، والاهتمام بأمرهما ؛ وكان إدوار قد درس شيئًا في علم النبات في مدرسته فاستعان ببستاني حديقته على معرفة ما كان يجهله منه ، وغرس في حديقة بيته بعض أنواع الزهر الغريبة ؛ وعرف خصائصها وصفاتها ، ثم خالط الرجل وداخله ودعاه إلى بيته وأراه حديقته ، ومشى معه في كل مكان وجاراه في كل حديث ، فلم يلبث أن أعجبه ووقع من نفسه ؛ وهكذا أصبح أثيرًا عند الأب وابنته .

59- سريرة المرأة

ما أبغضت ماجدولين استيفن ، ولا أحبت إدوار ، ولكنها لبست حالاً جديدة لم تكن تلبسها من قبل ، فكان لابد لها من أن تلبس معها جميع آثارها ومتعلقاتها ، فقد ألفت المجامع والمحافل ، وأنست بالمراقص والملاعب ، وصادقت النساء المتحضرات المتأنقات ، وغنت كما يغنين ، ورقصت كما يرقصن ، ومشت في مثل أزيائهن ، وتحدثت بمثل أحاديثهن ، وفهمت من سعادة الحياة وهنائها المعنى الذي يفهمن ، ورأت في الرجال والنساء والصلة التي بينهما الرأي الذي يرين ، فتناست استيفن لأنه صورة من صور الحياة الماضية التي عافتها واجتوتها وأحبت إدوار لأنه مظهر من مظاهر الحياة الجديدة التي أحبتها وافتتنت بها .

على أنها كانت إذا خلت إلى نفسها ، وهدأت عنها ضوضاء الحياة وضجيجها ، واستطاعت أن تمد نظرها إلى أعماق سريرتها حتى ترى ما في قرارتها تراءى لها شبح استيفن في نحوله واصفراره وحزنه واكتئابه وبؤسه وشقائه ، ومنظر عينيه الممتلئتين حزنًا ودموعًا ، وقلبه المتقدم حبًا وغرامًا ، ونفسه الشاعرية الهائمة في أودية الهموم والأحزان ، فتحن إليه حنين الغريب إلى داره والشيخ إلى عهود صباه ، وتذكر أيامه الماضية التي قضاها معها فتبكي حسرة عليه وإشفاقًا ؛ بل وجدًا به وغرامًا ، ثم لا تلبث أن ترى سحابة بيضاء من النور ماثلة أمام عينيها ،

فلا تزال تنبسط وتستفيض حتى تشف عن قاعة الرقص التي شهدتها ليلة عرس سوزان ، فترى الوجوه المشرقة ، والثغور الباسمة ، والذهب اللامع ، والجوهر الساطع ، والغلائل المطرزة ، والحلل المدبجة ، والصدور اللاصقة بالصدور والأذرع المحيطة بالخصور ، والجو المائج بالأنوار ، والروض الحافل بالأزهار . وترى العروسين كالفرقدين ، يبسمان للسعادة المقبلة عليهما ، ويتدفق تيار الحب والصبابة بين قلبيهما ، فيتضاءل أمام عينيها ذلك الشبح الأول ، ثم لا يلبث أن يتغلغل في ظلمات الوجود الحالكة حتى يغيب عن نظرها ، فلا يبقى له عين، ولا أثر .

ولقد دخلت سوزان عليها صبيحة يوم في غرفتها ، وكان قد مضى على زفافها شهران فقالت لها : أتدرين ما اتفقنا عليه أنا وأبوك ليلة أمس يا ماجدولين ؟ قال : لا ، قالت : أن نسافر جميعًا إلى ضياع زوجي في « سان مارك » لنقضي فيها أسبوعين أو ثلاثة ، ثم ننتقل إلى ولفباخ وهي على بضعة أميال منها ، فنستضيفكم أسبوعًا واحدًا نقضيه في التنزه بين مزارع القرى ودساكرها ، ثم نفترق بعد ذلك . فتهلل وجه ماجدولين فرحًا بتلك السياحة الجميلة التي ستقضيها مع أصدقائها في أجمل البقاع وأبهجها ، ثم ما لبثت أن اكتأبت وتغضن جبينها لأنها ذكرت ساعة الفراق القريبة ، وأنها ستعود بعد أيام قلائل إلى عزلتها في قريتها ، وتعيش فيها عيشة موحشة والوحدة بعيدة عن « كوبلانس » ومجامعها ومزدحم الحياة ، فاشتد ذلك عليها كثيرًا ، وألمت سوزان بما دار في نفسها وعرفت مأتاه ،

إلا أنها تباهت واستمرت في حديثها تقول : وسيصحبنا في سياحتنا هذه إدوار ، وسيكون أنسنا به وبعشرته عظيمًا ، ألا ترين رأيي في ذلك يا ماجدولين ؟ ففهمت ماجدولين مقصدها ، وأين تريد أن تذهب بحديثها . فقالت : ليذهب معكم مَن تشاءون من أصدقائكم وخلطائكم ، فلا شأن لي في ذهاب من يذهب ، أو بقاء من يبقى ، فابتسمت سوزان واستطردت في حديثها تقول : ولقد اتفقنا كذلك على ألا يسافر إدوار معنا إلاّ باسم خطيبك ، وقد قطعنا هذا الأمر من دونك ، لأنا نعلم أنك لا ترين لنفسك إلا الرأي الذي نراه لك ؛ فاضطربت ماجدولين وقالت : لقد قلت لك يا سوزان قبل اليوم إنني لا أستطيع أن أتزوجه ، قالت : لماذا ؟ وهل تطمع الفتاه في زوج أفضل منه عقلاً وأدبًا ، وشرفًا وجاهًا ، وهو فوق ذلك يحبك ويستهيم بك ، ولا يؤثر على سعادتك وهنائك غرضًا من أغراض الحياة ، لا مأربًا من مآربها ؟ قالت : ولكنه لا يستطيع أن يحبني محبة استيفن إياي ، قالت : أما هذه فنعم ، وإنه يحبك حب العقلاء والأكياس ، لا حب النوكى والمأفونين .

إذن هذا الذي تزعمين أنه يحبك ويستهيم بك ، لا يحبك ، بل يحب فيك المرأة الخالية التي يتخيلها في ذهنه ، التي لم يخلق الله لها مثالاً في هذا العالم ، ولا يعبدك ، بل يعبد إلهه الموهوم الذي يظن أنه حال في جثمانك كما كان يعبد آباؤنا الأولون آلهتهم في جذوع الأشجار وقطع الأحجار .

إنه يتخيلك ملكًا من ملائكة السماء تحيط بوجهه هالة من النور ، ويرفرف في جنبيه جناحان أبيضان متلألئان تلألؤ الأشعة ويحمل بين أضلاعه نفسًا غريبة عن النفوس في جوهرها ومعدنها قد جملها الله بجميع صنوف الكمال ، وطهرها من أدناس الحياة وأرجاسها ، فلا تفهم شهوة من الشهوات ، ولا تشعر بلذة من اللذائذ ، ولا تعرف فرق ما بين السعادة والشقاء والغنى والفقر والراحة والتعب ، والسرور والحزن ، فويل لك منه يوم تنحسر عن عينيه بعد ساعة واحدة من بنائه بك غشاوة الحب الأول ، فيراك كما أنت ، ويرى فرق ما بينك وبين الصورة الخيالية الهائمة في رأسه ، إنه لا بد يبغضك ويحتقرك ، ويهوي بك إلى أدنى دركات الذل والشقاء ، ولا نهاية للإغراق في الحب ، غير الإغراق في البغض ، فإن كان لابد لك من أن تحتفظي بمكانتك في قلبه فلا تتزوجيه ودعيه ينظر إليك دائمًا بهذه العين التي ينظر بها إليك اليوم ، ولا تخشى عليه أن يشقى بفراقك فليست فجيعته فيك يوم يفقدك ، بأعظم من فجيعته في آماله وأحلامه يوم يراك ويرى في ثوبك امرأة غير المرأة التي كان ينتظرها ويطير شوقًا إليها . أنت تعلمين من شئون الحياة ودخائلها مثل ما أعلم يا ماجدولين ، ولقد خبرت فيما خبرت من صروفها وتجاربها أن الغرام أضعف العلائق بين الزوجين والمصلحة أقواها وأوثقها ، وأن الحب كالزهرة ، والمال كالطل الساقط عليها ، فإذا انقطع الطل عن الزهرة بضعة أيام ذوت أوراقها

وتساقطت ثم تطايرت في مهاب الرياح الأربع ، وأن هذه الثورة النفسية التي يسمونها الصبابة أو الوجد أو الوله أو الهيام ، والتي لا يزال يهتف بذكراها الشعراء ، وتطير في سماء خيالها ألباب الرجال والنساء ، إنما هي عرض من أعراض الأعصاب المريضة ، يهيجة البعد ويطفئه القرب ، ثم تبقى بعد ذلك الحاجة إلى العيش ومرافقه والسعادة وأسبابها ، فإن أعوز ذلك فقد مات الحب في القلب ، ودفنت جثته في ضريح الفقر ، والفقر يطوي في أحشائه جميع عواطف القلوب وخوالجها ، بل ربما دارت الوساوس والأوهام في رأس ذينك الزوجين اللذين كانا متحابين بالأمس ، فرأى كل منهما في وجه صاحبه صورة الشؤم له ، وألقى عليه تبعة بؤسه وشقائه ، فاستحال حبهما إلى بغض متغلغل في سويداء القلب ، لا ينتزعه إلا الموت .

أنت فقيرة يا ماجدولين ، واستيفن أفقر منك ، فلا تضمي فقره إلى فقرك وليختر كل منكما لنفسه العشير الذي يعلم أنه يسعده ، ويملأ فضاء حياته غبطة وهناء ، فإن كان لا بد لك من الوفاء له فإن أوفى ما يكون المرء لصاحبه حين يؤثر مصلحته على مصلحة نفسه ويكفكف من نزعات قلبه وأهوائه في سبيل سعادته وهنائه ، فليكن ذلك شأنك معه ، واحتملي مرارة فراغه وألم الحرمان منه رحمة به وإبقاء على حياته التي توشك أن تعبث بها نكبات الدهر وأرزاؤه ، فقد أصبحت أخشى عليه ـ وفي رأسه هذا العقل الصغير المختبل ، وبين جنبيه مثل هذا القلب الضعيف المستطار ـ إن بعثر به جده فيما يحاول من الأمل الذي يسعى إليه من أجلك ،

فيدفعه جنون الطمع إلى سلوك طريق غير طريق الشرف ، فيقترف جريمة ، أو ينتهك حرمة ، أو تثور برأسه ثائرة اليأس فيقتل نفسه طلبًا للراحة من عناء الحياة وشقائها ، فإن فعل فأنت الجانية عليه ، والموردة إياه هذا المورد من التلف ، فانظري كيف يكون موقفك بين يدي ربك وضميرك غدًا إن تم ذلك على يدك ؟

فاستعبرت ماجدولين باكية ، وما بكت إلا رحمة بذلك البائس المسكين وإشفاقًا عليه أن يناله بسببها هذا الشقاء العظيم ، وأطرقت مليًا ثم رفعت رأسها وقالت : دعيني الساعة وحدي يا سوزان فإنني في حاجة إلى الخلوة بنفسي .

60- الجريدة العسكرية

التحم جيشنا أمس بجيش العدو واستمرت المعركة عشر ساعات لقى فيها جنودنا من بأس العدو وشدته وقوة مراسه هولاً عظيمًا ، حتى بلغ منهم اليأس أو كاد ، ثم برز من بين صفوفنا ضابط من ضباط الفرسان اسمه « أوجين ولتز » فهتف بجنوده «ورائي أيها الأبطال!» وانقض على العدو انقضاض النازلة السماوية فانقض معه جنوده فسرت الحمية في نفس الجيش بأجمعه فهجم وراءه ، وما هي إلا جولة أو جولتان حتى تمت الهزيمة للعدو ففر يطلب النجاة لنفسه في كل مكان فتبعناه وأمعنا فيه قتلاً وأسرًا وغنمنا منه غنائم كثيرة .

إلا أنه حدث لذلك الضابط الشجاع في نهاية المعركة حادث كدر صفو ذلك الانتصار ، فإنه بينما كان يتتبع آثار العدو ويضرب في مؤخرته إذا انقطع حزم سراجه وكان باليًا واهيًا فعجز عن التماسك فسقط عن جواده فداسته حوافر الخيل ، ثم انتبه له من الحياة فقضى ساعة يتألم ألمًا شديدًا ويهتف باسم أخ له اسمه « استيفن » حتى فاضت روحه ، فحزن الجيش عليه حزنًا شديدًا وبكاه القواد ورؤساء الفرق ، ثم دفن باحتفال عظيم لائق بشجاعته وإقدامه وحميته التي ليس لها مثيل .

61- البيت الجديد

وقف استيفن على عتبة باب بيته الجديد وكان البناءون لا يزالون يشتغلون باستصلاح بعض أنحائه فهتف بصديقه فرتز فلباه فقال له : هل تم بناء الغرفتين الجديدتين على الصورة التي اتفقنا عليها ؟ قال : نعم يا سيدي وتم كذلك تجصيصهما وتزجيج نوافذهما ، فجزاه خيرًا ، ثم التفت إلى البستاني وقال له : هل غرست أشجار الفاكهة التي أرسلتها إليك بالأمس ؟ قال : نعم يا سيدي ، وستكون الكرمة المنبسطة فوق الجدار من أبدع الكرمات وأجملها قال : لا تنسَ أن تكسو السور كله باطنه وظاهره بأزهار البنفسج كما أمرتك . قال : سأفعل يا سيدي إن شاء الله ، فتركه ودخل المنزل فألقى على الطبقة السفلى نظرة عجلى ، ثم صعد إلى الطبقة العليا ووقف في بهو متسع تدور به الحجرات وقال : ها قد أصبح البيت على الصورة التي اتفقنا عليها منذ عامين أنا وماجدولين ، على الطبقة السفلى غرفة المائدة والمطبخ وغرف المؤونة والمرافق ،

وفي الطبقة العليا غرفة الأضياف ومخدع النوم وقاعة الكتب وغرفة الشيخ مولر ، ثم فتح باب الغرفة الخامسة وألقى عليها نظرة ألمت بجميع ما فيها فاغرورقت عيناه بالدموع وقال : لقد كنت أرجو يا أوجين أن تشركني في سعادتي كما شركتني في شقائي ، ولكن هكذا أرد القدر أن يفرق بيني وبينك ، وأن تكون سعادتي منغصة بذكراك أبد الدهر ، فو أسفًا عليك يا أخي أسفًا لا يفارقني حتى الموت ، وستمر الأيام وتكر الدهور والأعوام ، وسأنسى كل ما مر بي من حوادث الدهر خيرها وشرها وبؤسها ورغدها ، ولا أنسى أنني ضننت عليك بتلك الدراهم القليلة التي سألتنيها أحوج ما كنت إليها ، وأن يدي هي اليد الخفية التي أوردتك هذا المورد من الردى ، فاغفر لي ذنبي واعف عني والقني يوم تلقاني في آخرتك بذلك الوجه البشوش الغض الذي كنت تلقاني به في حياتك ، فأنا من لا يعيش إلا بذكرك ، ولا يموت إلا بغصتك ، وأقفل باب الغرفة وقال : لن يفتح هذا الباب بعد اليوم ، ثم كفكف عبرته ، وسرى عن نفسه ، وأشرف على الحديقة يتلهى بالنظر إليها ، فوقع نظره على حوض الماء المبني في وسطها فعاد إلى مناجاة نفسه يقول : وها هو الحوض الذي سنربي فيه الأسماك ذات الألوان المختلفة ، وها هو السياج الذي رأينا أن نقيمه من حوله خوفًا على أولادنا المستقبلين من السقوط ، وها هي أزهار البنفسج التي تحبها ماجدولين ، وتؤثرها على الأزهار جميعها تملأ البيت داخله وخارجه .

إنها لا تعلم الآن شيئًا عن هذه السعادة المهيأة لها ، وربما كانت تكابد اليوم أشد حالات يأسها وحزنها بعد انقطاع رسائلي عنها أيامًا طوالاً ، وسأباغتها بها مباغتة لا يزول أثرها من نفسها أبد الدهر ، فقد شقينا ما استطاع الشقاء أن يكون ، وسنسعد بعد اليوم سعادة تنسينا همومنا الماضية وآلامنا ، ولا نذكرها إلا كما نذكر دموع طفولتنا وبكاءها .

ثم نزل ومشى في الحديقة مع صديقه فرتز يناظر القائمين بتنظيم أغراسها ، وتمهيد طرقاتها ، وينتقل بين أشجارها وأزهارها مسرورًا مغتبطًا وكأنه لم يذق طعم الشقاء في دهره يومًا واحدًا .

62- بروتس

ما كان استيفن قبل اليوم آمرًا ولا ناهيًا ، ولا صاحب بيت ولا حديقة بل ولا صاحب أي شيء من الأشياء إلا إذا كانت أثوابه البالية المرقعة شيئًا تتعلق به الحيازة والملك ، فقد عاد إلى جوتنج بعد تلك الليلة الليلاء التي كابدها في غرفة قريبه صفر اليدين من كل شيء حتى من آماله وأمانيه ، فقضى في فراش مرضه بضعة أيام كابد فيها من آلام جسمه ونفسه ما يعجز عن احتماله ، ثم أبل قليلاً فأنشأ يفكر فيما يصنع بعد الذي كان من فشله وانقطاع رجائه به ، فخطر له الانتحار ثم منعه منه أنه سيكون آخر عهده بماجدولين فلا يراها بعد اليوم ، وفكر في الرجوع إلى أهله والإذعان لهم في رغبتهم التي يرغبونها إليه ، ثم ذكر المواثيق التي أعطاها لماجدولين ألا يبتغي بها بدلاً حتى الموت ،

فعظم عليه أن يخيس بعهده ومر بخاطره الفرار بنفسه إلى أية بقعة من بقاع الأرض يطلب فيها السلو والراحة والتفرج مما به ، ولكنه أشفق على ماجدولين أن يقتلها الحزن عليه من بعده ، وهو إنما يحيا في العالم من أجلها .

ولم يزل يراوح بين هذه الفكر ويستدني بعضًا منها ويذود بعضًا حتى صحت عزيمته على أن يكتب كتابًا إلى ماجدولين ، ولم يكن قد كتب إليها منذ عهد بعيد يقص عليها قصته ، وما آل إليه أمره ويحللها من اليمين التي أقسمتها له ، ثم يضع أمره بين يديها فإما أحيته فعاد إلى أمله وسعيه ، أو قتلته فاكتفى مؤونة قتل نفسه بنفسه ، فإنه ليكتب ذلك الكتاب إذ دخل عليه رسول البريد يحمل إليه رسالة من مسجل القرية التي مات فيها قريبه يقول له فيها : إن الميت قد أوصى إليه في كتاب وصيته بعشرين ألف فرنك يأخذها في الحال وعشرة آلاف يأخذها في كل عام ، فاستطير فرحًا وسرورًا ، وقال : أحمدك اللهم غللت يدي عن أن آخذ هذا المال حرامًا ، حتى بعثت به إليّ حلالاً ، ومزق الكتاب الذي كان يكتبه وعلم أن أيام محنته قد انقضت ، وأنه قد أدى الدهر ما عليه له من ضريبة الشقاء ، فلم يبق بين يديه إلا أن يستقبل السعادة المقبلة عليه خالصة هنيئة لا يكدرها عليه مكدر حتى الموت .

وأنشأ يفتش بمعونة صديقه « فرتز » عن بيت صغير يشرف على نهر « جوتنج » ويكون على الضفة التي تمناها هو وماجدولين ليلة ركبا زورق البحيرة وتحدثا عن آمالهما ومستقبلهما ، فوجد بيتًا يشبهه فابتاعه واستصلحه ، وحوله إلى الصورة التي أرادها ، وأخذ يؤثث غرفه ، ويغرس أشجار حديقته .

وإنه لكذلك إذ قرأ في الجريدة العسكرية خبر وفاة أخيه فبكاه كثيرًا ، ثم ما لبث أن تجلد واصطبر ودفن حزنه في أعماق قلبه ، وألهاه سروره بحاضره عن التفكير في ماضيه فابتاع خاتمًا للخطبة ثمينًا وأعد عدته للسفر إلى « ولفباخ » وكان قد علم أن ماجدولين قد عادت إليها من « كوبلانس » منذ عهد قريب ، ليباغتها بتلك السعادة التي هيأها لها ، ويخطبها إلى أبيها ، ثم يعود بها إلى « جوتنج » ليريها البيت الجديد .

ثم ركب عجلته في صباح أحد الأيام وسافر وقلبه يخفق فرحًا وسرورًا حتى وصل إلى ضاحية القرية ، فترك العجلة مكانها ، وأمر السائق أن ينتظره حتى يعود ونزل يمشي على قدميه ويقلب نظره في تلك المعاهد التي قضى فيها أيام سعادته الأولى وأشرق على قلبه من سمائها أول شعاع من أشعة الحب ، فرأى الغابة التي كان يهيم فيها وحده في الليالي المقمرة مناجيًا نفسه بحبه وغرامه ، ومصورًا لها أعذب الآمال وأحلاها ، ومر بالنهر الذي اقتحمه منذ يومين لاستنقاذ ذلك الرجل الذي كان مشرفًا على الغرق حتى كاد يغرق معه لولا معونة الله وعنايته ، ووقف على ضفة البحيرة التي كان يتنزه فيها وهو وماجدولين ساعة الأصيل ويقضيان الساعات الطوال بين سمائها ومائها .

ثم أشرف على بيت الشيخ مولر فلاحت له أعالي أشجار الزيزفون التي كان يجلس تحتها هو وماجدولين كما كان يراها في ذلك العهد ، ورأى من خلال أوراقها غرفته العالية التي كان يسكنها ، فعادت إلى ذهنه تلك الأيام الماضية التي قضاها في هذه المواطن ، فرأى صبحها ومساءها ، وليلها ونهارها ، وبكورها وأصائلها ، وكل ما مر له فيها من سرور وحزن ، ورجاء ويأس ، وصحة ومرض ورخاء وشدة ، حتى خيّل إليه أنه لا يزال مقيمًا في ذلك المنزل حتى اليوم ، وأنه إنما خرج الساعة من غرفته لقضاء بعض حاجاته وها هو ذا عائد إليها .

ولم يزل يهيم في أمثال هذه التصورات حتى وصل إلى باب الحديقة فوقف على عتبته وقال : ها هو ذا الباب الذي خرجت منه بالأمس طريدًا شريدًا لا أملك من أمر نفسي ولا كما أزور أهلي وقومي ، لا أخشى عينًا ولا رقيبًا ، ولا أتقي غائلة من غوائل الدهر ، ولا رزيئة من رزاياه ، فما أعجب تقلبات الأيام وأغرب ما تأتي به الأقدار !

ثم مشى في الحديقة يقلب نظره في أشجارها وأغراسها ، وجداولها وطرقاتها ، ويقول في نفسه : لقد بقى كل شيء على ما هو عليه ، فها هي ثغرة الحائط الغربي لا تزال باقية كما هي ، وها هي الصخرة العاتية السوداء ملقاه في مكانها تحت الجدار كما تركتها ، وها هي أعشاش الطيور فوق قمة شجرة السنديان ، تختلف إليها عصافيرها غادية رائحة كعهدي بها ، ثم التفت إلى يمينه وقال : وها هو الجذع الذي حفرنا عليها اسمينا أنا وماجدولين ،

ثم مشى إليه فرأى الكتابة لا تزال على حالها كأنها قد حفرت بالأمس فاغرورقت عيناه بالدموع ، وجثا بين يدي الجذع وأهوى بفمه إليه فلثمه كأنما يشكر له تلك اليد التي أسداها إليه في احتفاظه بتلك الذكرى القديمة التي أودعه إياها ، وهبت على وجهه في تلك الساعة نسمة مرت قبل مرورها عليه بأزهار الحديقة وأعشابها ، فحملت إلى رأسه تلك المجموعة العطرية البديعة التي طالما استروحها في هذا المكان نفسه مع ماجدولين ، ولا يحمل الذكرى القديمة مثل الأريج العطر ! فهاج وجده وحنينه ، وأخذ يعانق الهواء ويضمه إليه كما يضم حبيبًا ملقى بين ذراعيه .

ولم يزل سائرًا حتى وصل إلى رأس الطريق الموصل إلى مكان المقعد الذي كان يجلس عليه هو وماجدولين تحت أشجار الزيزفون ، ولم يبق بينه وبينه إلا خطوات قليلة فاشتد تأثره وخفق قلبه خفقانًا شديدًا ، وحدثته نفسه أن ماجدولين جالسة هناك الساعة وحدها تبكي وتنتحب ، وتندب آمالها وأحلامها وتفكر في انقطاع كتبه عنها ، فشفق عليها أن يباغتها بالخبر مباغتة فيقتلها ، فأخذ يهيئ في نفسه طريقة إلقائه ، ثم مال برأسه قليلاً فرأى طرف المقعد ، ورأى ذيل ثوب حريري أبيض منسدلاً عليه فاستطير فرحًا وسرورًا وقال : ها هي ذي جالسة كما كنت أتوقع أن أراها فثبت اللهم قدمي وقدمها في ذلك الموقف الجلل العظيم

ثم انعطف فما وقع نظره على المقعد حتى جمد واصفر ، ووقفت دورة الدم في عروقه ، وتعلقت بين لحييه فما تصعد ولا تهبط ! فقد رأى ماجدولين جالسة بجانب فتى غريب تبسم له ويبسم لها ، وقد أخذ يدها بين يديه وألقى رأسه على صدرها ، وحنا عليها حنو المحب على حبيبه ؛ فظل يقول في نفسه : ما هذا الذي أرى ! إنني لا أفهم من كل ذلك شيئًا .. إنها ماجدولين بعينها ! فمن هو هذا الإنسان الجالس إليها ، أليس هو صديقي إدوار ؟ نعم هو بعينه فما مجيئه هنا في هذه القرية ، وما وجوده في هذا البيت ؟ وما جلوسه بجانبها هذه الجلسة الغريبة ؟ ثم شد بيده على قلبه كأنما يحاول أن يحبسه عن الفرار ومشى يقتلع قدميه اقتلاعًا كأنما هو شبح من الأشباح الهائمة في ظلال الليل حتى دنا منها ، ففزعا إذ رأياه ، ووثبا على أقدامهما وثبة واحدة ، ثم ما لبثا أن اختلف شأنهما ، فأخذ إدوار بطرف شاربه يعبث به ويقلب عينيه في السماء كأنما منجم يفتش عن النجم السابع والسبعين بعد المائة والخمسة والعشرين مليونًا كما يصنع المنجمون ، وأطرقت ماجدولين إلى الأرض فسكنت في إطراقها سكونًا عميقًا لا تتخلله حركة ، ولا نأمة ، فظل استيفن يردد نظره بينهما باهتًا مشدوهًا لا يقل لهما شيئًا ، ولا يفهم من موقفهما أمرًا ، ثم مشى خطوة إلى ماجدولين ، وقد أخذ الذهول مأخذه من عقله فنسى المنظر الذي رآه منذ لحظة ، وأنشأ يخاطبها باسمًا متطلقًا ويقول لها : لقد انقضت أيام شقائنا يا ماجدولين ، ولقد أصبحت والحمد الله صاحب ثروة لا أقول إنها عظيمة ، ولكنها كافية لسعادتنا وهنائنا ، فجئت إليك أتنجز وعدك ، وأخطبك إلى أبيك ،

ثم أذهب بك إلى جوتنج لأريك البيت الجديد الذي ابتعته لك منذ عهد قريب ، وسترين حين ترينه أنه على الهيئة التي تمنينا أن يكون عليه ليلة ركبنا زورق البحيرة وتحدثنا عن آمالنا وأمانينا ؛ فارتعدت ماجدولين وامتقع لونها وقالت بصوت ضعيف خافت كأنها تهمس في نفسها ببعض الأحاديث « إني أهنئك بصلاح حالك يا سيدي » فعجب استيفن لذلك واستطير عقله وقال في نفسه : ما هذا الذي أسمع ، إنها تهنئني بصلاح حالي كأنها ترى أن لي حالاً خاصة بي مستقلة عن حالها ، فليت شعري ما بالها ! وما هذا السكون المخيم عليها ! وما هذا الوجه الغريب الذي تلقاني به ؟ ! لقد كنت أخشى أن أقتلها فرحًا وسرورًا ، فإذا هي تقتلني همًا وكمدًا ، ثم نسى هذا المنظر الأخير كما نسى الأول ، فأخرج من جيبه خاتم الخطبة ومشى إليها خطوة أخرى يقدمه إليها ، فما وقع نظره على أصبعها حتى تراجع خائفًا مذعورًا ؛ فقد رأى فيه خاتمًا غير ذلك الخاتم الذي نسجته من شعره ؛ وكانت تحدثه عنه في رسائلها كثيرًا وتقول له إنه لا يفارق أصبعها لحظة واحدة فاشتد خفوق قلبه واضطرابه ؛ وظل يدور بعينيه حائرًا ملتاعًا لا يعلم أخيالاً يرى أم حقيقة ؟ وازدحمت الدموع في عينيه تتبادر إلى السقوط ، فمد يده إلى ماجدولين ضارعًا وقال لها : ألا تستطيعين يا سيدتي أن تقولي لي كلمة واحدة فإني أشعر أني على وشك الجنون ؟ فرفعت رأسها ونظرت إليه كأنها تريد أن تقول له شيئًا ، ثم عادت إلى إطراقها وسكونها ، وهنا تقدم نحوه إدوار ووضع يده على كتفيه وقال له : حسبك يا استيفن فإنك تقتل السيدة قتلاً ،

فانتبه استيفن وكأنه لم يكن رآه قبل هذه اللحظة فصعد نظره فيه وصوبه وقال له : إنني لم أكن أتوقع أن أراك هنا في هذا المكان يا إدوار ! فقال له : سواء أتوقعت أو لم تتوقع ، فقد كان يجب عليك أن تستأذن قبل الدخول ، ولم يكن يجمل بك وأنت في هذه السن المتقدمة أن تنسى أول درس يتلقاه التلميذ في مدرسته في أدب الزيارة والاستئذان .

فانتفض استيفن انتفاضة شديدة وعلت جبينه سحابة بيضاء لم تزل تتسع وتستفيض حتى لبست وجهه كله فصار كأنه البرد الناصع ، واسترخت يداه كما يكسر الطائر جناحيه للوقوع ، وشعر بتخاذل أطرافه فتراجع إلى شجرة وراءه فاستند إليها ، ثم نظر إلى إدوار نظرة يقطر منها الدم وقال له تلك الكلمة التي قالها يوليوس قيصر حينما طعن من خلفه ؛ فالتفت فرأى أن الذي طعنه هو صديقه وصفيه « حتى أنت يا بروتس » !؟ وصمت لحظة حتى رجعت إليه نفسه ، ثم التفت إلى ماجدولين وقال لها بصوت خافت متهدج تتطاير معه أجزاء نفسه : أصحيح ما يقول هذا الرجل يا ماجدولين ؟ وهل ترين كما يرى أنني أخطأت في دخولي عليك بغير استئذان ؟ وهل تعتقدين أن له شأنًا عندك يسمح له بأن يتولى أمر مؤاخذتي بالنيابة عنك؟ فاعترض إدوار بينهما ومد يده إليها وقال لها : هيا بنا يا سيدتي فقد طال جلوسنا في هذا المكان حتى مللنا ، فأعطته يدها وتبعته صامتة مطرقة حتى دخلا البيت وتركاه في مكانه ينظر إليهما وهما يبتعدان عنه شيئًا فشيئًا حتى اختفيا وسمع خفق الباب وراءهما فظل شاخصًا إلى الباب الذي دخلاه لا يتحرك ولا يطرف ولا تنبعث له جارحة ، ولا ينبض له عرق ، ومرت به على ذلك ساعة ،

ثم أخذ يحدّث نفسه ويقول : إن إدوار يخاطبني بلهجة الآمر الناهي كأن له شأنًا في هذا البيت فوق شأني ، فلا بد أن يكون له هذا الشأن الذي يزعمه ، ولا بد أن يكون قد استمده من ماجدولين نفسها ، فقد رأته بعينها وهو يحتقرني ويزدريني ، بل يسبني ويشتمني فلم تقل له شيئًا ، لا ! إنها وافقته على أكثر من ذلك ، فقد مدّ يده إليها ودعاها للدخول معه إلى المنزل ، وهي تعلم أنه لا يريد بذلك إلا طردي ، وإذلالي ، فتبعته طائعة مذعنة ، ولم تلتفت إليّ ساعة انصرافها التفاتة واحدة تعتذر بها عن عملها هذا ، وها قد مضت ساعة بعد ذهابها ولم تعد إليّ لترى ماذا حل بي من بعدها ، فليت شعري ما دهاني عندها ؟ وما هذا الذي بينها وبين إدوار ؟ إنني أخشى أن يكون خطيبها ، وأن يكون هذا الخاتم الذي في يدها خاتم الخطبة الذي أهداه إليها ، وأن تكون تلك الجلسة التي رأيته يجلسها بجانبها جلسة غرام يتشاكيان فيها الحب ويتباثانه ، فأي كان ما ظننته حقًا ، فهي فتاة مجرمة خائنة ، لأنها وعدتني بالانتظار حتى ييسر الله لي سبيل الرزق فلم تفِ بوعدها بل أقسمت لي بالأيمان التي لا فسخة فيها على الوفاة حتى الموت فلم تبر بيمينها .

لا .. لا ، إنها لا تستطيع أن تفعل ذلك ، لأنها تعلم حق العلم أنها لي وأنني صاحب الشأن فيها من دون الناس جميعًا ، فقد اشتريتها بدم حياتي وبجميع دموعي وآلامي ، وكابدت في سبيلها من نكبات الدهر وأرزائه ما يخرج احتماله عن طوق البشر ، فجعت حتى أشرفت على الموت ، وعريت حتى حبست نفسي عن الخروج من غرفتي إلا في ذمام الليل وحمايته ،

ونمت في الليالي القرة الباردة في ممر الهواء الجاري بلا غطاء ولا دثار ، وخرجت تحت جنح الظلام أفتش في صناديق القمامة عن لقمة متروكة أو عظمة مطروحة أسد بها رمقي ، وبعت الخبز الأبيض بالخبز الأسود لأستطيع أن أجد لقمة لغذائي ، وأخرى لعشائي وما زلت أرقع قميصي حتى صار القميص الرقاع وذهب القميص بأجمعه بل ركبت في سبيلها ما هو أعظم من ذلك فقد قتلت أخي ومثلت بالرجل الذي أحسن إليَّ في حياته وبعد مماته ، وحدثت نفسي بسرقة ماله ، بل مددت يدي إليه ، فأصبحت بذلك من المجرمين .

إنها لا تستطيع أن تنتزع يديها من يدي ، ولا أن تفصل حياتها من حياتي ، فقد خلقت لي كما خلقت لها ، وها هو اسمي محفور بجانب اسمها على جذور أشجار حديقتها ، وها هي شعرات رأسها منسوجة في الخاتم الذي ألبسه منذ عامين ، وها هي الأرض والسماء ، والبحيرة والفلك ، والشمس والقمر ، والأشجار والأعشاب ، والطيور والأزهار ، تشهد بحبنا وغرامنا ، ومواقف آمالنا وأحلامنا ، وأيماننا التي أقسمناها ألا يفرق بيننا إلا الموت ، فإذا كانت نفسها قد حدثتها بمقاطعتي ، واتخاذ سبيل في الحياة غير سبيلي فقد قضت علي وعلى نفسها في آن واحد ، لأن الحياة الواحدة لا يمكن أن تنقسم إلى حياتين تعيش كل منهما مستقلة على الأخرى . ثم تأوه آهة طويلة وقال : من لي بمن أبيعه نصف حياتي على أن يكشف لي الحقيقة التي أجهلها ؟ ولقد كان جديرًا بي أن أقف في طريقهما عندما حاولا الفرار مني وآبي عليهما أن ينصرفا إلا بعد أن يعترفا لي بحقيقة أمرهما ،

ويمزقا عن وجهيهما هذا الستار الذي أسبلاه عليهما ، فإن أبياه قتلتهما غير ظالم ولا آثم ، فليس من العدل ولا من الرحمة أن يذهبا إلى خلوتهما لينعما فيها بما يشاءان أن ينعما به ، ويتركاني في هذا المكان وحدي أعالج ما أعالج من الهموم والآلام .

ثم قام يتحامل على نفسه حتى خرج من باب الحديقة ومشى يترنح في مشيته ترنح الشارب الثمل ، فما ابتعد إلا قليلاً حتى سمع صوتًا شديدًا يخفق وراءه ؛ فالتفت فإذا إدوار خارج من الحديقة ممتطيًا صهوة جواد أصهب فاختبأ استيفن وراء ربوة على الطريق حتى دنا منه فخرج إليه وأمسك بعنان جوداه فذعر إدوار إذ رآه ولكنه تماسك وقال له : ماذا تريد يا استيفن؟ قال : أريد أن أسألك عن سبب اختلافك إلى هذا البيت ، وعن الشأن الذي لك فيه وما أعرف لك فيه شأنًا قبل اليوم ، قال : لا أستطيع أن أجيبك على سؤالك هذا وأنت آخذ بعنان جوادي لا تتركه ، فدعه وسلني ما تريد ، فترك استيفن العنان إلا أنه وقف في وجه الجواد ، فقال له إدوار : لو غيرك سألني هذا السؤال بهذه اللهجة الجافة الخشنة التي تخاطبني بها لما كان لها جواب عندي سوى أن أقول له إني حر مطلق أتصرف في شؤون نفسي كيف أشاء ، فأزور ما أزور من المنازل وأترك ما أترك منها دون أن أعرف لإنسان في الوجود حقًا في مراقبتي أو مساءلتي عما أفعل ، ولكن إكرامًا للصداقة التي بيني وبينك أستطيع أن أجيبك على سؤالك هذا جوابًا موجزًا فأقول لك : إني أختلف إلى بيت الشيخ مولر لأني خطيب ابنته ، وسأبني بها بعد شهر واحد ولو شئت لحضرت حفلة عرسنا ؛

بل أنا أدعوك إلى ذلك ؛ فارتعدت شفتا استيفن وشعر بالموت يتسرب إلى قلبه قليلاً قليلاً ، وقال له بصوت خافت ضعيف : أتعني ماجدولين؟ قال : نعم ، وليس لمولر ابنة غيرها ، فأطرق استيفن هنيهة ثم رفع رأسه وقال له : ولكنك تعلم يا إدوار أني أحبها وأنها كل حظي في هذه الحياة ، وأن انتزاعها من يدي إنما هو بمثابة انتزاع حياتي من بين جنبي ، فهل يهون عليك وأنا صديقك ورفيق صباك وشريكك الدائم في سراء الحياة وضرائها أن تقتلني؟ قال : أنا أعلم أنك تحب هذه الفتاة ، وأنك استملتها في بعض أيام حياتك الماضية بعض الاستمالة ، حتى كادت تسقط في أحبولة الشقاء التي نصبتها لها ، لولا أن تداركها أبوها فاستنقذها من يدك ، وطردك من بيته طردًا قبيحًا ، وحماها ذلك المستقبل المظلم الذي كنت تهيئه لها ، فقاطعه استيفن وقال له : ولكنك لم تجبني على سؤالي الذي سألتكه ، قال : وما سؤالك؟ قال : سألتك هل يهون عليك قتلي وأنت أخي وصديقي ، ورفيق طفولتي وصباي؟ قال : إني ما أردت قتلك بل أردت حياتك ، فقد تركت لك السبيل بعملي هذا إلى الرجوع إلى نفسك والتفكير في شأن حاضرك ومستقبلك ، فلعلك إن روأت في أمرك قليلاً علمت أن خيرًا من هذه الحياة المضطربة المبعثرة التي تقضيها بين أحلام خائبة ، وآمال كاذبة : الرجوع إلى أهلك والانضواء إليهم والسكون تحت أجنحتهم والإذعان لهم فيما يريدون لك من الخير في تزويجك من تلك الفتاة الثرية التي اختاروها لك ،

ولا يذهب عليك أن زواجك من فتاة موسرة تظلل بوارف نعمتها ضاحي فقرك ، خير لك من القعود مقعد الذل والمتربة بجانب فتاة فقيرة تضم شقاءها إلى شقائك فتعيا بحملهما معًا ، فها أنت ترى أنني أردت لك الخير فيما فعلت ، وأسديت إليك نعمة إن جهلتها اليوم فستعرفها غدًا ، وستهدأ عما قليل هذه العاصفة الثائرة في رأسك فتعرف لي مكان اليد التي اتخذتها عندك وتشكرها لي شكرها جزيلاً .

فما أتى إدوار على آخر كلماته حتى طار الغضب في رأس استيفن ، وبرزت من مكمنها تلك الصورة التي كانت رابضة وراء سكونه فانقض عليه ولببه وهزه هزًا شديدًا حتى كاد يقتلعه من سرجه وأنشأ يقول له : الآن عرفت مكان الخديعة التي خدعتم بها تلك الفتاة المسكينة أيها القوم الأشرار ، ومن أي باب دخلتم إلى قلبها فعبثتم به ، وإلى عقلها فطرتم بصوابه ، فقد علمتم ما تضمره لي بين جوانحها من الحب والإخلاص ، وأنها لا تبتغي بسعادتي بدلاً من أغراض الحياة ومآربها ، فألقيتم في روعها أنها علة ما ألاقيه في هذه الحياة من بؤس وشقاء ، وألا سبيل لي إلى أن أنال من حياتي حظًا من سعادة العيش وهنائه إلا إذا أيأستني من نفسها وانتزعت يدها من يدي وقطعت ما كان موصولاً من الود بيني وبينها ، فصدقت حديثكم وأزعجها هذا المصير الذي خيلتم لها أنني سأصير إليه بسببها ، فأذعنت لرأيكم ، واستقادت لكم ، وفعلت ما اقترحتم عليها ، رحمة بي وإشفاقًا عليّ ،

كذلك استطعتم أن تستثمروا ضعفها وتستغلوه لأنفسكم ، وما بكم من رحمة بي ، ولا بها ، ولكن هكذا أراد الشيخ الجشع المأفون أن يستمتع بنعمة المال الذي يعبده ويدين به ، فباعك ابنته بيع الإماء في سوق الرقيق ، وهكذا أردت أن تتمتع بشهواتك البهيمية التي لا تفهم من شؤون الحياة شأنًا غيرها ، ولا يعنيك من زواجك من مثل هذه الفتاة أمر سواها ، فمثلك من يعجز عن إدراك سريرة نفسها ، وما تضمره بين جوانحها من نبل وشرف ، وكل ما تستطيع أن تفهمه منها أنها فتاة وضيئة حسناء تشبه في بهائها ورونقها رونق أولئك الفتيات الجميلات اللواتي طالما خدعتهن عن أنفسهن ، وقضيت لياليك في مقاصيرهن ، ثم ما لبثت أن نفضت يدك منهن ، وتركتهن يندبن حياتهن وآمالهن ، ولو استطعت أن تسلك إلى المتعة بهذه الفتاة تلك السبيل التي سلكتها إلى المتعة بأولئك الفتيات لفعلت ، ولما جشمت نفسك مشقة الزواج منها ، ولأغنتك ليلة واحدة تقضيها في مخدعها عن أن تحبس نفسك عليها الدهر كله .

ومن كان هذا همه من حياته فويل لزوجته منه وويل منها وويل لهما من شقائهما الدائم الطويل .

فقال له إدوار : إن كنت تريد أن تقول إنها أرغمت على زواجها إرغامًا ، أو خدعت فيه خديعة ، فأنت مخطئ في ظنك لأنها قد نسيت كل ماضيها خيره وشره . ولم يبق بين يديها إلا حبها لخطيبها وإخلاصها إليه ، وتعليل نفسها باليوم الذي تسعد فيه بجانبه .

فاستطير استيفن غضبًا ، وقال : كذبت أيها الرجل الساقط ، إنها أشرف مما تظن ، وانقض عليه يريد الفتك به ، فأمسك إدوار بيديه ، وقال له بنغمة المستعطف المسترحم : أتريد أن تقتلني يا استيفن؟ فاستخذى استيفن وتضاءل ، وتراءى له طيف ذلك الود القديم الذي كان بينه وبينه ، ونظر إليه بعينين مغرورقتين بالدموع ، وقال له : لا يا إدوار لا أستطيع أن أقتلك لأنك صديقي ، ولقد وقفت مرة في حياتي أسفك بضع قطرات من دمي فداء عنك ، فلا أندم على معروفي قط ، ولا أسترد يدي التي اتخذتها عند الله فيك أبدًا .

ثم ألقى برأسه على قربوس السرج وأخذ يد إدوار بين يديه يبللها بدموعه وظل يناشده ويقول : إنني لا أدعوك يا إدوار باسم الصداقة التي رضعنا ثديها منذ طفولتنا معًا كما يتقاسم الأخوان ثدي أمهما ، ولا باسم المدرسة التي أظلّتنا سماؤها وأقلتنا أرضها خمسة أعوام كاملة آنس بك فيها وتأنس بي ، وأعينك على أمرك وتعينني على أمري ، ولا باسم ذلك الشهيد المسكين أوجين الذي كان كريمًا عليك وعليّ ، وكان يرعى لك ودك ويحفظ عهدك ، حتى مات ، وهو يعتقد أنه قد تركني من بعده في كلاءة أخ كريم وصديق حميم ، ولا باسم اليمين التي أقسمتها لي ليلة سفرك من «جوتنج» ألا يهدأ لك في حياتك روع ، ولا يثلج لك صدر ، حتى أنال أمنيتي من حياتي ؛ بل أدعوك باسم الرحمة والشفقة ، لأنك محسن كريم ، ولأني بائس مسكين ، وليس للبائس المسكين من سبيل في حياته غير رحمة المحسن الكريم .

فلم يعبأ إدوار بذلك كله وتغفله وهمز جواده فطار به ملء فروجه ، فركض استيفن وراءه فلم يدركه ، وكان قد أعياه الجهد فسقط في مكانه ، وهو يقول «لابد أن يكون ما قاله صحيحًا» .

ولم يزل في سقطته تلك حتى مر به بعض السابلة ، وكان قد رآه عند حضوره فعرفه فآذن به سائق عجلته ، فهرع إليه الحوذي وأخذ بيده حتى أركبه العجلة ، ثم ذهب به إلى منزله .

فلما انفرد بنفسه في غرفته حتى أخذ يصيح صياح المجانين ويضرب رأسه بالجدران ، وهو يقول «آه لقد فقدتك يا ماجدولين» .

رسائل استيفن

63- من استيفن إلى ماجدولين

أصحيح يا ماجدولين أن ما كان بيننا قد انقضى؟! وأننا أصبحنا متناكرين غير متعارفين لا يذكر الواحد منا صاحبه إلا كما يذكر حلمًا من أحلام صباه قد عفت آثاره الأيام والأعوام ؟

أصحيح أننا إذا التقينا بعد اليوم في طريق واحد مضى كل منا في سبيله دون أن يلوي على صاحبه ، أو في مجتمع لا يكون بيننا من الشأن إلا كما يكون بين سائر رجال هذا المجتمع ونسائه ، أو في خلوة لا نجد ما نتحدث به أو لا نتحدث إلا بحديث الأجواء والأمطار؟!

ما أسرع تقلبات الأيام وما أغرب تصاريفها وشؤونها ؟!

أفيما بين يوم وليلة تنهدم جميع الآمال الجسام التي بنيناها وأحكمنا بناءها وبذلنا في سبيلها همومنا وآلامنا وأرقنا من أجلها كل ما نملك من دموع وشؤون ، وتصبح أثرًا من الآثار الدارسة التي يتحدّث عنها التاريخ الحاضر كما يتحدث عن التاريخ الغابر!؟

هكذا تقوم الساعة ، وهكذا ترجف الراجفة ، وهكذا تنتثر الكواكب في الفضاء ، وتطوى السماء طي السجل للكتاب .

لقد كنت أحسب يا ماجدولين ألا يتولى ذلك الأمر منا غير الموت ، أما وقد توليناه من أنفسنا بأنفسنا ونسجنا خيوطه بأيدينا ، ونحن أحياء فتلك أعجوبة الدهر التي لم ير مثلها راء ولا سمع بمثل حديثها سامع؟

ماذا أنكرت مني يا ماجدولين؟ وماذا دهاني عندك؟

لقد أحببتك حبًا لم يحبه أحد من قبلي أحد ، وأخلصت لك إخلاصًا لا يضمر مثله أخ لأخيه ، ولا والد لولده ، وأجللتك إجلال العابد لمعبوده فما خنتك في سر ولا جهر ، ولا كذبتك في قول ولا عمل ، وملأت فراغ حياتي كله بك فلا أنظر إلا إليك ولا أشعر إلا بك ولا أحلم إلا بطيفك ، ولا أطرب لرؤية الشمس ساعة شروقها إلا لأني أرى فيها صورتك ولا لسماع أغاريد الطير في أفنانها إلا لأني أسمع فيها نغمة حديثك ، ولا لمنظر الأزهار الضاحكة في أكمامها إلا لأنها تمثل لي ألوان جمالك ، ولا تمنيت لنفسي سعادة في هذه الحياة إلا من أجل سعادتك ، ولا آثرت البقاء فيها إلا لأعيش بجانبك ، وأستمتع برؤيتك .

إن كنت ترين أني لا أستحق محبتك ، وأني أصغر شأنًا من أن أملأ فراغ قلبك ، فأحبي في حبي إياك وإخلاصي لك ، واجزيني خيرًا بما بذلت لك في حياتي من دموع وآلام وشجون وأحزان ، واعلمي أنك إن استطعت أن تجدي بين الرجال من يرضيك بجماله أو ماله ، أو حسبه أو جاهه ، فإنك لا تستطيعين أن تجدي فيهم من يحبك محبتي ، أو يخلص لك إخلاصي .

إنهم قد خدعوك يا ماجدولين ، وزينوا لك حب المال والشهوات وخيلوا إليك أن الحياة طعام وشراب ، وثوب فاخر ، وقصر باذخ وعقد ثمين ، وقرط جميل ، وأن الزواج شركة مالية يتعاون فيها الزوجان على جمع المال واكتنازه ، وما علموا أن الزواج المالي نوع من أنواع البغاء ، وأن المرأة التي تتزوج الرجل لماله لا تتزوجه كما تزعم ، بل تبيعه نفسها بيعًا كما تبيع البغي جسمها لعاشقها ، بل هي أحط من البغي شأنًا ، وأسفل غرضًا ، لأنها لم تبع نفسها من أجل لقمة تقيم بها أودها ، أو خرقة تستر بها ضاحي جلدها ، فينفسخ لها صدر العذر في ذلك ، بل من أجل عقد ثمين تطمع في أن تزين به صدرها أو ثوب فاخر تكاثر به أترابها ، أو قصر جميل تستمتع في جوه بأنواع لذائذها .

لا تصدّقي يا ماجدولين أن في الدنيا سعادة غير سعادة الحب فإن صدقت فويل لك منك ، فإنك قد حكمت على قلبك بالموت .

لقد كنت عندي آخر من يحفل بأمثال هذه المظاهر الكاذبة ويأبه لها ، وكان أكبر ما أعظمك في عيني ، وأجلك في نفسي واستعبدني لك أنك المرأة التي وجدت فيها وحدها من بين النساء جميعًا قلبًا نقيًا طاهرًا يفيض بالحب النقي الطاهر الذي لا تشوبه شوائب النوازع والشهوات ، ولا يكدره مكدر من أعراض الحياة ومطامعها ، فهل كنت مخطئًا في ظني ؟ لا .. لا . إنك لا تزالين صاحبة ذلك القلب الذي أعرفه حتى الساعة ، وهذا هو الذي أخافه عليك ، وأرثي لك من أجله .

أنت لا تعلمين شيئًا من شؤون إدوار ، وأنا أعلم من شؤونه كل شيء وأخص ما أعلم منها أنه لا يحمل بين جنبيه قلبًا مثل قلبك ، ولا يفهم من معنى الحب وسره المعنى الذي تفهمين ، ولا يستطيع أن يكون شريكًا لك بحال من الأحوال في شعورك ووجدانك ، وكل شأنه معك أنه رآك فاستملحك فاشتهاك ، والملاحة عرض زائل ، والشهوة ظل متنقل ، فأخشى عليك أن ينالك بعد قليل على يده ذلك الشقاء الذي تفرين منه اليوم ، وألا ينفعك ولا يجدي عليك شيئًا في ذلك الحين مال ولا نسب ، ولا فضة ولا ذهب ، ولئن تم لك ذلك لأكونن أشقى الناس عيشًا وأعظمهم بؤسًا ، لأني أحبك ، وأحب لك السعادة في كل موطن تكونين فيه ، من أجلك لا من أجل نفسي .

ليت شعري! هل يصل صوتي إلى أعماق قلبك يا ماجدولين كما كان يصل إليه قبل اليوم؟ وهل تستطيعين أن تتصوّري كما كنت تتصورين من قبل أنني أحبك لنفسك أكثر مما أحبك لنفسي ، وأنني فيما أفضيت به إليك من تلك النصيحة إنما أردت سعادتك وهناءك أكثر مما أردت سعادة نفسي وهنائها !

64- من استيفن إلى ماجدولين

لقلما أبقى على ما أرى .

الحياة مظلمة في عيني ، والدنيا موحشة مقفرة لا أسمع فيها حسًا ولا حركة ، الليل متواصل لا ينقطع ، وكأن الناس رقود في مضاجعهم ليلهم ونهارهم ، لا يستيقظون ولا يستفيقون ويخيل إليّ أنني أعيش في صحراء نائية منقطعة عن العالم وما فيه ، لا يمر بها طير ، ولا يجري فيها نهر ، ولا يطأ تربتها إنسان ، ولا يجول في أكنافها حيوان ، وأنني أهيم فيها وحدي ليلي ونهاري ، أطلب الخلاص منها فلا أعرف السبيل إليه ، وأحمل نفسي على البقاء فيها فيقتلني الضجر والضيق .

فمتى يحين حيني وتأتي ساعتي فأرتاح من همومي وآلامي؟

لا شيء يعزيني عنك في العالم يا ماجدولين ، لأنك كنت لي كل شيء فيه فلما فقدتك لم أجد عنك عوضًا ولا بدلاً ، وكنت كمن قامر في ساعة واحدة بجميع ما تملك يده فلما خسر خسر كل شيء .

كانت لي آمال كبار ، وأمان حسان ، وكانت لي نفس مملوءة بعظائم الأمور وجلائلها ، وكنت أشعر بقوة في جسمي لا يقوم لها شيء في هذا العالم ، فأصبحت رجلاً ضعيفًا خامدًا متألمًا يائسًا قانطًا لا أشعر ولا أفكر ولا آخذ ولا أدع ، ولا أتجه إلى مقصد ،ولا أتعلق بغرض ، ولا أجلب لنفسي خيرًا ، ولا أدفع عنها ضرًا ، ولا شأن لي بين الناس أكثر من شأن جثة ملقاة لا روح فيها ، أو حجر مطرح في قارعة الطريق .

ألا تخافين يا ماجدولين أن يأخذك الله بذنبي يوم يأخذ الناس بذنوبهم ، ويسألك عن هذه النفس الطيبة الطاهرة التي قتلتها وفجعتها في جميع فضائلها ومواهبها ، وأن يتبعك صوتي في كل مكان تكونين فيه ، في خلواتك ومجتمعاتك ، ومنامك ويقظتك ، وبين ذراعي زوجك ، وبجانب مهود أولادك ، ويصيح بك : إنك قد قتلت رجلاً لو عاش لكان أفضل مثال للأزواج الصالحين ، والآباء الرحماء والأصدقاء والأوفياء ، ولكان خير الناس للناس جميعًا؟!

ألم تعديني يا ماجدولين أن تسهري على سعادتي وتحرسيها كما تحرس الملائكة سعادة البشر وهناءهم؟ فهأنذا أشقى الناس جميعًا ، وأعظمهم بؤسًا وبلاء ، فأين ما وعدتني به؟

تعالي إليّ وقفي أمامي ساعة واحدة لأراك وأرى في وجهك صورة سعادتي الزائلة وآمالي الضائعة ، وأسمعيني صوتك العذب الجميل الذي اسمعتنيه من قبل ، وألقي عليّ نظرة واحدة من نظراتك العذبة الرائقة يحيي بها نفسي الميتة ، وقولي لي صدقًا أو كذبًا إنك لا تزالين تحبينني وتعطفين عليّ ثم لا تزيدي على ذلك شيئًا ، فقد أصبحت أقنع منك بكل شيء .

أقسم لك يا ماجدولين أنني لو رأيتك في طريقي لهرعت إليك وجثوت تحت قدميك كما يجثو العابد تحت قدمي معبوده وسألتك البر والإحسان كما يفعل السائل المستجدي ، فإن أعرضت عني زحفت وراءك على ركبتي وتعلقت بأهداب ثوبك حتى تصغي إليّ وتسمعي شكاتي .

ولكن ماذا أقول لك؟ وماذا عندي من الأحاديث فأحدثك به؟ لا شيء عندي سوى أن أذرف دموعي تحت قدميك ، وأمد يدي إليك صامتًا ثم أضع حياتي بين يديك فإما أحييتني أو قتلتني .

إنني أتألم كثيرًا يا ماجدولين ؛ ولا أحسب أن في العالم نفسًا تحمل ما تحمله نفسي من الآلام والأوجاع ، فارحميني واعطفي عليَّ ، فإن لم أكن كفئًا لمحبتك ، فامنحيني صداقتك ، فإن أبيتها فاسبلي على ستر حمايتك ، فإن ضننت بها فائذني أن أسير وراءك في كل مكان تسيرين فيه كما يتبعك كلبك الذليل ، لأراك وأسمع صوتك ، وأستنشق الهواء الذي يحيط بك لأني لا أستطيع أن أعيش في العالم دون أن تكون لي صلة بك .

كنت قد وضعت قبل اليوم بين يديك سعادتي وهنائي ، أما الآن فقد حالت الحال ، وتراجعت الآمال ، وأصبحت لا أطمع في أن أضع بين يديك شيئًا غير حياتي .

فهل تبقين عليها؟

لي الله من بائس مسكين ، فقد ذبلت زهرة حياتي قبل أن تتفتح ، ودبت إليّ الشيخوخة وأنا لا أزال في ريعان الشباب ، وانطفأ ما كان مشتعلاً في قلبي من الهمة وفي رأسي من الذكاء ، وفي جسمي من القوة ، وانقطع ما كان موصولاً بيني وبين الناس جميعًا ، فمات أخي ، وطردني أبي ، وعاداني أهلي ، ولم يكن باقيًا لي في العالم سواك ، ثم انقضى ما كان بيني وبينك ، فأي أرب لي في العيش من بعد ذلك .

تدرين لمّ أؤثر الحياة على الموت يا ماجدولين وقد كان الموت أروح لي مما أكابده؟ لأني لست على يقين مما بعده ، وأخشى إن حل بي أن ينتزع مني ذكرى تلك الأيام الجميلة التي تمتعت فيها بحبك وعطفك وبحلاوة الأمل فيك ، والتي هي كل ما بقي في يدي بعد الذي كان ، ولولا ذلك لقتلت نفسي ، ثم استحالت روحي إلى طائر جميل يطيف بك ويرفرف على رأسك حيثما ذهبت ، ويتناول الحب من يدك مرة ، والقبلات من فمك أخرى ، فأظفر منك ميتًا بما عجزت عنه حيًا .

إنك سلبتني سعادتي يا ماجدولين ، ولكنك لم تعطني شيئًا بدلاً منها أعيش به ، بل تركتني وشأني كما يترك المسافر رفيقه الجريح الظامئ في الصحراء المحرقة لا ظل فيها ولا ماء ، وينجو بنفسه غير مبال بما تصنع به المقادير من بعده ، فما أقساك ، وما أبعد الرحمة من قلبك!

ردي عليّ آماني وآمالي ، ولياليّ التي قضيتها فيك ساهرًا متململاً ؛ وحياتي التي وضعتها بين يديك ، ووكلت أمرها إليك ، وأعيدي إليّ عطفي وحناني ، ورحمتي وإشفاقي ، وجميع عواطف قلبي التي ضننت بها على أهلي وقومي جميعًا وآثرتك بها من دونهم ، وعقيدتي في الحب والهناء ، وإيماني بالله وبقاء الخير في الأرض .

ماذا تقترحين عليّ يا ماجدولين ، وأية ذخيرة من ذخائر الأرض أو كنز من كنوز السماء تحبين أن أضعه بين يديك؟ أتريدين قصرًا من المرمر الأبيض ، أم صهريجًا مملوءًا باللؤلؤ الرطب ، أم بساطًا مصوغًا من الجوهر ، أم حلة منسوجة من أشعة الشمس ، أم تاجًا مرصعًا تتضاءل بين يديه تيجان الملوك والأقيال ؟ لقد أصبح ذلك كله لك ، وليس بينك وبينه إن أردته إلا أن تعيدي إلى قلبي الأمل الذي سلبتنيه فأصبح أقوى الناس جميعًا وأقدرهم على امتلاك ناصية الكون بأجمعه ، أرضه وسمائه .

آه ما كان أشد سروري وفرحي يوم أعددت لك ذلك البيت الصغير في «جوتنج» ، وبنيت لك فيه تلك الغرفة الزرقاء الجميلة ووضعت فيها ذلك السرير ، كنت أرجو أن يكون الدوحة الفينانة التي أنعم بك في ظلالها ، وأنشأت تلك الحديقة البديعة التي لم أدع زهرة تحبينها أو يحبها أبوك إلا غرستها فيها ، وكنت كلما دخلت ذلك المنزل ووقفت في فنائه لحظة خيل إليّ أنه آهل بك ، وأن صوتك العذب الشجي يرن في أنحائه ،

وأن أولادنا يلعبون بين أيدينا في حديقته ، ويقطفون أزهارها وورودها ويقدمونها هدية إلينا ، بل كنت أتخيل عندما كنت أدخل غرفة زينتك أني أراك جالسة إلى مرآتك فيها تمشطين شعرك الأصفر الجميل ، وأنني واقف وراءك أغمس يدي في ذلك الخليج الذهبي الرجراج وأختلس منه قبلة بعد أخرى .

أما اليوم فقد ذبل كل شيء فيه وضوى ، فانقطع الماء عن حديقته ، وذوت أشجاره وأزهاره وعصفت الريح بنوافذه وأبوابه ، وكست الترب أرضه وسقوفه فأصبح كالعروس الحسناء التي نزلت بها منيتها ليلة زفافها .

أصبحت لا تكتبين إليّ حرفًا واحدًا ، ولا تجيبين عن كتاب واحد من كتبي ، وما كان ذلك من شأنك قبل اليوم ، فاكتبي إليّ كلمة واحدة قولي فيها ما تشائين من خير أو شر ، فقد وطنت نفسي على احتمال كل شيء .

66- من استيفن إلى ماجدولين

لم تكتبي إليّ تلك الكلمة التي ضرعت إليك فيها ، وعهدي بك أنك مشيت قبل اليوم على قدميك بضع ساعات كابدت فيها ما كابدت من الأهوال العظام حتى وصلت إلى صندوق البريد في قرية بعيدة عن قريتك فبعثت إليّ برسالتك ، فهل ذهب ذلك الماضي بأجمعه ولم يبق في نفسك منه أثر واحد؟

لا أستطيع أن أصدّق ذلك ، فكل ما حولك يذكرك بي وبأيامي التي قضيتها معك ، فهناك الشمس التي كنا نستقبلها معًا طالعة ونودعها غاربة ، والقمر الذي كان يشرف علينا من علياء سمائه ، ويرسل إلينا أشعته الفضية البيضاء فتضمنها غلالتها معًا . والمقعد الذي كنا نجلس عليه بين الظل والماء ويدك في يدي ورأسك على صدري ، وخدك تحت متناول لثماتي ، والبحيرة التي كنا نقضي فيها كل يوم ساعة الأصيل سائرين على ضفتها صامتين تتحدث قلوبنا بما تمسك عنه ألسنتنا ، ثم نعود وبودنا أن لو استمر بنا المسير أبد الدهر إلى دار الخلود ، والغرفة التي التقينا فيها ليلة وبللنا تربتها بدموعنا وأقسمنا بين سمائها وأرضها يمين الوفاء حتى الموت .

إني أناديك في اليوم مائة مرة يا ماجدولين صارخًا مستغيثًا باكيًا منتحبًا ، لا أهدأ ولا أستريح ، وأنت لاهية عني بذلك الشأن الجديد الذي استحدثته لنفسك ، لا تسمعين ندائي ، ولا ترثين لمصابي ، وما أعلم أني أذنبت إليك في حياتي ذنبًا واحدًا تأخذينني به ، بل أعلم أني اقترفت جميع الذنوب والآثام من أجلك .

إن كنت مررت مرة في حياتك بامرأة جاثية على قبر زوجها تندبه وتبكيه أحر بكاء وأشجاه لأنها كانت تحبه حبًا جمًا ، ولأنه تركها في ريعان شبابها فقيرة معدمة ؛ وترك لها أطفالاً صغارًا لا حول لهم في الحياة ولا قوة ، فحزنت لحزنها ، وبكيت لبكائها .

أو رأيت في طريقك فتاة فقيرة هائمة على وجهها تبكي وتنتحب وتسأل الغادين والرائحين أن يمنحوها درهمًا واحدًا تبتاع به دواء لأخيها الصغير المريض الذي لا سند له غيرها ، ولا عائل له سواها ، فأويت لها ، وأسعفتها بطلبتها .

أو مررت بضفة نهر فرأيت امرأة واقفة به تعول وتصيح وتستصرخ الناس لوحيدها الذي يغرق في النهر أمامها فلا تجد من يعينها عليه حتى سقط سقطة لم يطف من بعدها فجن جنونها واندفعت وراءه بثيابها فطواهما البحر معًا في لحظة واحدة ، فأعظمت نكبتها ، وبكيت مصيرها .

أو سمعت بقصة ذلك الشيخ المسكين الذي دخل عليه الجند منزله ، وهو جاث بجانب زوجه المحتضرة وابنته المريضة ليأخذوه إلى السجن لأنه كان قد سرق من أجلهما بالأمس رغيفًا يقيم به أودهما فسأل الجند أن يمهلوه ساعة واحدة حتى يرى ما يصنع القضاء بعيلته ، فأبوا ذلك عليه فعظمت عليه النازلة فذهبت بعقله فعدل به الجند عن طريق السجن إلى طريق المارستان .

أو سمعت بقصة ذلك الرجل الذي ضل في مفازة فاشتد به العطش وهام على وجهه في كل مكان يطلب الماء فلا يجده حتى أعياه الجهد ، وعجز عن المسير ، ثم لمح على البعد صفحة ماء تترقرق ، فما زال يزحف على ركبتيه إليها ويخضب الحصى بدمه المتدفق ، حتى إذا داناها ، ولم يبق بينه وبينها إلا خطوة واحدة سقط من دونها ميتًا .

أو قرأت قصة تلك المرأة التي رآها الناس في إحدى المجالات جالسة أمام كوخها ، وفي حجرها كتلة لحم حمراء مختلفة وبين يديها قدر يتصاعد بخارها فلما دنوا منها هالهم أن رأوا في يدها سكينًا مخضبة بالدم ، ورأوا قدمًا صغيرة بارزة من القدر ، فعلموا أن الجوع قد أفقدها عقلها ، وأن هذه الكتلة الحمراء التي في حجرها إنما هي رضيعها قد ذبحته وأنشأت تقطع أوصاله بمديتها وتطبخها لتأكلها .

إن كنت سمعت بخبر هؤلاء المنكوبين ، وسمعت أنين المعذبين في السجون وصراخ المرضى في المستشفيات ، وضحك المجانين في المارستانات فرثيت لهم ، وأويت لمصابهم ، فاعلمي أنني أشقى من هؤلاء جميعًا ، وأنني أولى منهم برحمتك وإشفاقك وعطفك وحنانك .

لم تبق فيّ بقية تحتمل أكثر مما احتملت ، وربما لا أستطيع أن أكتب إليك غير هذا الكتاب فقد بلغ بي الضعف منتهاه ، وأظلم بصري فما أكاد أبصر شيئًا . فالوداع يا ماجدولين وداع الحياة إن كان لا يزال في الأجل بقية ، أو وداع الموت إن كانت الأخرى .

«انتهت الرسائل»

67- من ماجدولين إلى استيفن

لا أكتمك يا سيدي أني بكيت كثيرًا عند قراءة رسائلك ولكنني عدت إلى نفسي وقلت إنها زفرة من زفرات اليأس ستطفئها الأيام كما أطفأت غيرها من زفرات اليائسين ، وربما علمت بعد قليل من الأيام أن الله قد خار لك فيما كان ، وأنه قد أعد لك من حيث لا تحتسب حياة أسعد وأهنأ من هذه الحياة التي تندبها وتبكيها .

أنت تعلم يا استيفن أنني فتاة فقيرة وأنك فتى لا مال لك ، أو لا تملك من المال ما يقوم بشأنك زوجًا ووالدًا ، فخير لي ولك أن نفترق وأن يسلك كل منا في حياته الطرية التي يعلم أنها تنتهي به إلى سعادة عيشه وهنائه أحببنا ذلك أم كرهنا ، فتناس كل شيء يا صديقي ، وسافر إلى كوبلانس واستصلح عليك أباك وأهلك ، وتزوج من الفتاة التي اختاروها لك ، وحسبك مني أن أكون صديقتك الوفية لك ما حييت ، ولا تحمل في نفسك ضغينة لصديقك إدوار فقد علم الله أنه ليس له يد في شيء مما كان وإنما هو رأي رأيته لنفسي ، ولم أستشر فيه إلا عقلي وضميري ؛ فأنا صاحبته والمأخوذة به إن كنت لابد آخذًا به أحدًا ، والسلام عليك من صديقتك التي ترجو عفوك وغفرانك .

68- من استيفن إلى ماجدولين

قد نسيت كل شيء يا ماجدولين ، فاختاري لنفسك في حياتك ما شئت ، وها هي ذي رسائلك عائدة إليك فليس من الرأي بقاؤها عندي بعد اليوم ، وإني أتقبل صداقتك بالصدر الرحب الذي تقبلت به حبك من قبل ، أما النقمة فإني لا أنقم عليك ولا على خطيبك شيئًا ، بل أسأل الله لكما السعادة في حاضركما ومستقبلكما .

69- الزفاف

ازدحمت الكنيسة بسكان قرية ولفباخ رجالاً ونساءًا وظلوا جميعًا ينظرون إلى الباب بشوق وتلهف ينتظرون حضور العروسين ، ثم ما لبثوا أن سمعوا صوت العجلات وهي مقبلة فنهضوا جميعًا على أقدامهم واصطفوا صفوفًا متتالية لاستقبال القادمين ، ثم دخل إدوار آخذًا بيد ماجدولين وهي لابسة ثوبًا أبيض ناصعًا كأنما قد قدّ من جرم الزهر وعلى رأسها إكليل من الزهر يتلألأ في شعرها الذهبي الجميل ، ودخل وراءهما الشيخ مولر وسوزان وأبوها وزوجها وأشميد ابن عمة ماجدولين وألبرت ابن عم سوزان وكثير من أهله وأهلها فرأى الناس أجمل فتاة رأوها في حياتهم فدعوا لها ولزوجها بالسعادة والهناء . وملأوا أرجاء المعبد هتافًا بهما وثناء عليهما ن ثم مشيا إلى المذبح وركعا بين يدي القسيس على وسادتين من القطيفة المزركشة فركع الناس بركوعهما ، وركع استيفن معهم ، وكان قد جاء إلى المعبد قبل حضور الناس واختبأ وراء سارية من سواريه فلم يشعر به أحد ، وظل يقول في ركوعه بصوت ضعيف خافت لا يحسه أحد «اللهم احرسها بعين عنايتك ، وأسبل عليها ستر حمايتك ، وامنحها السعادة والهناء في نفسها وفي عيشها ، واكتب لها في صحيفة حياتها ما كنت أسألك أن تكتب لي في صحيفة حياتي » .

ثم بدأ القسيس يتلو صلاته وجاءت الساعة التي ينطق فيها بكلمته الأخيرة التي لا مرد لها ولا رجعة فيها ، فشعر استيفن أن قلبه يخفق خفقانًا شديدًا ويضرب ضربًا يعلو صوته على أصوات النواقيس فأمسك بكفيه على أحشائه وأغضَّ عينيه وقبع في أعماق نفسه واستلهم الله الصبر على نكبته ، ثم غشيته غاشية لم يشعر بما كان فيها حتى استفاق بعد ساعة فإذا الكنيسة خالية مقفرة تعتلج الظلمة في أرجائها وتضرب رياح الليل الباردة في نوافذها وكواها ، فزفر زفرة حرى كادت تتساقط لها أضلاعه وجعل يقول في نفسه : لقد قضي الأمر وخرجت ماجدولين من يدي ، وأصبحت كفي صفرًا من جميع آماني وآمالي ، فما العمل؟ وكيف أعيش؟ وأين أقضي بقية أيام حياتي؟ وأية غاية بقيت لي في هذا العالم أحيا من أجلها؟ ثم خرج هائمًا على وجهه لا يعلم أي فج يسلك من فجاج الأرض ، والأرض أضيق في عينيه من كفة الحابل ، فإذا هو أمام بيت الشيخ مولر فرأى المدعوين منصرفين من الحفلة زمرًا فاختفى بركن مظلم من أركان السور حتى انقطع خفق الأقدام ، وعلم أن المكان قد خلا بأهله ، فرمي البيت بنظرة شزرة ملتهبة لو اتصلت شرارة من شرارها بسقف من سقوفه أو كوة من كواه لأتت عليه في لحظة واحدة ، ثم ما لبث أن رأى النور قد انطفأ في جميع الغرف والقيعان إلا غرفة واحدة ، فعلم أنها غرفة العرس ، فلم يتمالك أن ثار من مكمنه ثورة الأسد المهتاج وأخذ يدور حول السور ذهابًا وجيئة

وهو لا يعلم لمَ يدور ، وأين ينتهي؟ حتى رفع نظره على ثغرة مفتوحة فيه فوقف أمامها لحظة ، ثم حدثته نفسه باقتحامها فرأى حجرًا ضخمًا معترضًا في فجوتها ، فما زال به حتى زحزحه عن مكانه ، ثم انحدر إلى الحديقة غير خائف ولا وجل ولا مبال بما أقدم عليه ، وأخذ سمته إلى سلم الدار حتى بلغه فصعده يختلس الخطى اختلاسًا حتى وصل إلى باب الغرفة المضيئة فوقف به وأحس صوتًا من ورائه ، فشعر برعدة تتمشى في جميع أعضائه ؛ وخيل إليه أن قلبه ينحدر في هوة عميقة لا قرار لها وأخذ يقول في نفسه : إنها الآن له وبين يديه لا يحول دونهما حائل ، وكأني به وهو يضمها الآن إلى صدره ويلصق فمه بفمها ، ويوسعها لثمًا وتقبيلاً فتعطيه من نفسها ما يعطيها من نفسه ، ثم نظر من ثقب الباب فلم ير شيئًا أمامه فوضع أذنه عليه وأصغى إلى حديثهما فرنت في مسمعه أصوات الضحكات والقبلات ، وسمعها تقول له فيما تناجيه به «أنت حياتي التي لا حياة لي بدونها» فجن جنونه وحدثته نفسه أن يضرب الباب بقدمه ضربة هائلة تطير به ثم يقتحمه عليهما فيقتلهما ويخضب سرير العرس بدمهما ؛ ثم يقتل نفسه على أثرهما ، واستنصر قوته على ذلك فخذلته ، فوقف بين الإقدام والإحجام يغلي دمه في عروقه غليان الماء في مرجله ، ويمزق صدره بأظافره تمزيقًا شديدًا ، حتى امتلأ قميصه دمًا ، وتناثرت أفلاذ جلده بين أصابعه ، وهو لا يشعر بألم ، بل لا يعلم أنه يصنع من ذلك شيئًا حتى أعياه الجهد ، فزلت به قدمه فانقلب إلى أسفل السلم ، وهو بين الحياة والموت .

ولم يزل في سقطته تلك حتى استيقظت الخادم «جنفياف» مبكرة قبل أن يستيقظ أحد من أهل البيت وضيفانه فرأته صريعًا في مكانه ، فراعها أمره ، وأدهشها وجوده في هذا المكان ، ثم رأت الدم العالق بثوبه وأظافره فظننته قتيلاً فحاولت أن تصيح فخانها صوتها ، فأكبت عليه لتعلم ما شأنه فأحست رجع أنفاسه ، فهدأت قليلاً ، وعلمت أنه في غشية جديدة فأشفقت عليه ، وكانت تحبه وتكرمه ، ولم تزل تنضح جبينه بالماء وتمسح صدره حتى استفاق فدار بعينيه حول نفسه فذكر ما كان ورأى جنفياف بين يديه فاحمر وجهه خجلاً وسألها هل عرف شأنه أحد غيرها؟ قالت : لا . فاعترف لها بمجمل قصته ، وناشدها الله والمودة أن تكتم عليه ما كان ، فوعدته بذلك فقام يتحامل على نفسه حتى خرج من المنزل ومشى في طريق قريته .

70- الهذيان

قالت جوزفين زوج فرتز للطبيب . وكانت تتولى تمريض استيفن : لقد أصبحت أخشى على الرجل أن يصيبه شر عظيم ، وأخاف ما أخاف عليه أن تنزل بعقله نازلة من نوازل الجنون ، فقد أصبح لا ينطق إلا باسم تلك المرأة ، ولا يفكر إلا فيها ، ولا يرى في يقظته أو في منامه غيرها ، فيتخيلها تارة مقبلة عليه فيبتسم لها ويتهلل ويفتح ذراعيه لاستقبالها ؛ وأخرى منصرفة عنه فيضرع إليها ويهتف باسمها هتافًا عاليًا ويحاول النهوض من فراشه لإدراكها والتشبث بها فهو إما ضاحك أو باك أو هاتف أو ضارع أو مسترحم .

ولئن دامت له حالته هذه بضعة أيام أخرى ذهبت النكبة بعقله أو بحياته ، وما أحسب أن شيئًا غير ظفره بتلك المرأة أو اتصاله بها يشفيه من دائه ، فقال الطبيب : لقد خاطرت اليوم بآخر ما في كنانتي من الأسهم ، فسافرت إلى قرية ولفباخ وقابلت ماجدولين على غير سابق معرفة لي بها ووصفت لها حالة المريض في جنونه واستهتاره بها ، وقيامه وقعوده بأمرها ليله ونهاره ، وسألتها أن تزوره زورة واحدة عسى أن تنفعه وترفه عنه بعض ما به ، فأبى زوجها عليها ذلك إباء شديدًا ، فلم أزل به أسترحمه وأستعطفه وأنشده الله والمروءة حتى أذعن بعد لأي ، واشترط أن يصحبها في زيارتها فقبلت ذلك منه على مضض ، وقد تركتهما الآن يتهيآن للحضور على أثري .

ثم مشى إلى المريض وجس نبضه وأمر يده على رأسه : يا للعجب! لقد قصدته ليلة أمس مرتين في ساعة واحدة فما أجدى ذلك عليه شيئًا ، ثم جلس بجانبه ينضح جبينه بالماء ويجرعه بضع قطرات من الدواء .

وإنه لكذلك إذ قرع الباب قرعًا خفيفًا ففتح فدخلت ماجدولين ووراءها إدوار ، فلم يشعر استيفن بهما عند دخولهما ، ثم فتح عينيه بعد قليل ونظر إلى جوزفين وقال لها : أين ثيابي التي أمرتك بإحضارها؟ أما تعلمين أن اليوم يوم الأحد ، وهو موعد ذهابي إلى الكنيسة للاحتفال بعقد زواجي؟ فأطرقت المرأة واجمة ، وأدارت ماجدولين وجهها حتى لا يرى أحد اصفرارها . فتقدم نحوها الطبيب وسألها أن تدنو منه وتناديه باسمه لعله يعرفها ، فدنت من سريره ووقفت أمام وجهه ،

فنظر إليها نظرة ذاهلة ، ثم أدار رأسه وأغمض عينيه ، فعلمت أنه لم يعرفها فنادته باسمه بذلك الصوت الرخيم العذب الذي طالما سمعه من قبل فملك عليه مداركه ومشاعره ؛ فكأن موجة كهربائية اندفعت في جسمه دفعة واحدة ، فانتفض من مكانه وفتح عينيه وتناهض متكئًا على إحدى يديه ، وظل يضرب بيديه على جبهته كأنما يستحيي في ذهنه ذكرى قديمة طال عليها العهد ، ويدير رأسه يمنة ويسرة ويقلب نظره في وجوه الجالسين حتى وقع على ماجدولين ، فأخذ يحدق في وجهها تحديقًا شديدًا ، ثم ابتسم ومد يده نحوها وقال لها : شكرًا لك يا ماجدولين فقد جشمت نفسك مشقة المجيء إليّ ، وقد كنت على وشك أن أذهب إليك الساعة لو لا أن النوم طرقني فغلبني على أمري ، فهلمي بنا الآن فقد حان الوقت ، وما أحسب إلا أن أصدقاءنا ينتظروننا الآن في الكنيسة ، وكأنني أراهم ، وقد جلسوا في دهليزها صفوفًا متتالية ينظرون إلى الباب بشوق وتلهف يترقبون حضورنا ، وأرى القسيس يعد لنا وسادتين من القطيفة المزركشة لنركع عليهما أمام المذبح ، وكأنني أشم رائحة البخور متصعدة من الموقد ، وأسمع أصوات النواقيس تقرع قرعًا متتابعًا ، ثم صعد نظره فيها وصوبه وقال لها : ما أجملك يا ماجدولين ، وما أجمل هذا الثوب الأبيض الذي ترتدينه ، إنك لا ينقصك الآن غير إكليل الزهر . ثم مد يده إلى أزهار كانت بجانبه فأخذ يضفر منها إكليلاً جميلاً ويتأنق في تنسيقه وتنظيمه ، ثم نظر إلى الطبيب ، وقد خيل إليه أنه الشيخ مولر فقال : ائذني يا أبتاه أن أضع هذا الإكليل على رأس ابنتك ، فنظر الطبيب إلى ماجدولين نظرة استعطاف يسألها فيها أن ترحمه ،

وألا تنغص عليه هناءه الذي يتخيله ، فوضع استيفن الإكليل على رأسها ، وهي واجمة صفراء كأنما قد انتفضت من كفن وقال لها : أتذكرين يا ماجدولين يوم وضعت على رأسك منذ عامين في ساعة من ساعات أنسنا ولهونا إكليلاً مثل هذا الإكليل فتفاءلنا بذلك خيرًا وقلنا : ليس بكثير على الأيام أن يصبح جدًا ما لهونا به ؛ وحقيقة ما حسبناه خيالاً؟ فها قد صدق اليوم فألنا ، وصحت آمالنا وأحلامنا ، فالحمد لله على ذلك وله الشكر على آلائه ونعمائه .

ثم نظر إلى جوزفين وقال لها إني أشعر بضيق في صدري لا أعلم له سببًا فافتحي هذه النافذة لأستنشق هواء هذا الصباح الجميل ، ففعلت ، فأخذ يقلب وجهه في السماء ويقول : ها هي ذي الطبيعة تهدي إلينا في يوم عرسنا أجمل ذخائرها وأعلاقها ، وهواءها العليل ، وشمسها الساطعة ، وسماءها الصافية الجميلة ، فشكرًا لها على يدها عندنا وشكرًا للدهر الذي أنالني أمنيتي وأظفرني بها بعد أن كنت على وشك اليأس منها ؛ ثم التفت فوقع نظره على إدوار فهش له وابتسم في وجهه وقال له : شكرًا لك يا صديقي ، ما أحسب إلا أنك الذي أشرت على ماجدولين بزيارتي في منزلي ولولاك لحال بينها وبين ذلك الحياء الذي لا يفارقها في جميع آناء حياتها ، فامدد إليّ يدك وكن أول من يهنئني بسعادتي من بين أصدقائي فأنت أكرمهم عليّ جميعًا ، وآثرهم عندي ، أتذكر يا إدوار أيام كنا نعيش في هذه الغرفة الصغيرة التي نحن فيها الآن عيش البؤس والشقاء ، وكنا نتساقى من الورد كؤوسًا تنسينا حلاوتها مرارة الحياة وآلامها ،

وكنت لا أجلس إليك مجلسًا إلا قصصت عليك فيه شأني مع ماجدولين ، وأبثك وجدي بها ، ورجائي فيها ، وقلت لك كلما رأيتك تنظر إليّ نظرات الهزء والسخرية : إنها قد أقسمت لي يمينًا محرجة ألا يفرق بيني وبينها إلا الموت ، وإنها لن تخيس بعهدها أبدًأ . وإن هذه السحابة السوداء التي تراها متلبدة في سماء حياتي لا تستطيع أن تثبت طويلاً على أشعة الحب الحارة المتدفقة ، والحب إله قادر لا يعجزه شأن في هذا العالم ، ولا يثبت على قدرته شيء؟ فها أنت ترى أنني لم أكن كاذبًا في تصوراتي وأحلامي ، وأن أماني وآمالي لم تكن كما كنت تظنها خيالات شاعر ، ولا هواجس مجنون .

ثم تناول يد ماجدولين وأهوى بفمه ليقبلها فلمع أمام عينيه شعاع خاطف من أشعة الخاتم الماسي الذي يتألق في أصبعها فاضطرب ومر بخاطره مرور البرق منظر ذلك الخاتم بعينه يوم رآه في يدها للمرة الأولى ، وهي واقفة بجانب إدوار في حديقة منزلها فتراخت يده وامتقع لونه وانطفأ ذلك الشعاع الذي كان يلمع في عينيه وارفض جبينه عرقًا وأخذ صوابه يعود إليه شيئًا فشيئًا ، فظل يقول بصوت خافت متهدج : لا .. لا ، لا حق لي في تقبيل يدها ، لأنها ليست لي ولا شأن لي عندها ، ثم تناول غطاءه فأسبله على رأسه وأخذ يبكي بكاء شديدًا ، ويقول للطبيب : ليخرجوا عني جميعًا فلا شأن لهم عندي ، ولا شأن لي عندهم ، فاغرورقت عينا ما جدولين بالدموع ومدت يدها إليه كالضارعة وهمت بالركوع بجانب سريره فجذبها إدوار جذبًا شديدًا فتبعته متثاقلة ، خطوة والتفاتة ، وهي تقول بينها وبين نفسها « وارحمتاه لك أيها البائس المسكين » .

وما انقضى النهار حتى ترك إدوار قرية « ولفباخ » ، وسافر بزوجته إلي « كوبلانس » .

71 – اليأس

لبث استيفن في سرير مرضه شهرين كاملين كابد فيهما من آلام النفس والجسم ما قدر له أن يكابده ، ثم أبل قليلاً فهجر فراشه وأخذ يهيم على وجهه ليله ونهاره ، ينام حيث يجد مضجعًا لينًا أو خشنًا ، ويأكل حيث يجد لقمة ، بيضاء أو سوداء ، لا يستقر بمكان ، ولا يأوي إلى ظل ، ولا يتعهد جسمه أو ثوبه بما يصلح شأنهما ، واستبدّ به الحزن فدق جسمه ، وغارت عيناه ، واسترسل شعر رأسه ولحيته ، وآضت نضرة وجهه شحوبًا ، وحمرة خدّيه اصفرارًا ، وأصبح آية السابلين ، وعبرة الغادين والرائحين .

وكان لا يمر بكوخ صديقه «فرتز» إلا اتفاقًا ، فإذا مر به خرج الرجل إليه وزوجه وأولاده وتعلقوا به وناشدوه الله والمودة أن يدخل معهم كوخهم ، فيدخل فلا يلبث إلا ساعة أو بعض ساعة حتى يدركه الملل فيثور ثورة الوحش المهتاج ويفر من بينهم راكضًا وقد عاد إلى شأنه الأول .

وكثيرًا ما كان يمر في تطوافه بمنزله الصغير الذي بناه في «جوتنج» وبنى فيه صروح آماله الذاهبة وأمانيه الضائعة فيصرف وجهه عنه ولا يطيق النظر إليه ، وربما انكفأ راجعًا حين يلمح أول شرفة من شرفاته حتى لا يمر به ، ولا يقع نظره عليه .

وكان إذا ركب رأس طريق مشى فيه قدمًا لا يقف ولا يتريث ولا ينظر يمنة ولا يسرة حتى يعترضه نهر أو جدار أو يرى بين يديه مجتمعًا من الناس فيستفيق من ذهوله ويعود أدراجه .

ولقد استمر به المسير يومًا في بعض غدواته حتى وصل في منتصف النهار إلى «كوبلانس» فأخذ يهيم في شوارعها وطرقاتها ، والناس ينظرون إليه وإلى منظره الغريب وشعره المشعث الثائر ونظراته الحائرة المتبددة ويعجبون لأمره .

وإنه لكذلك إذ مرت على القرب منه عجلة فسمع فيها ضحكًا عاليًا خيل إليه أنه يعرف نغمته فالتفت فإذا ماجدولين وإدوار فصعق من مكانه وتراجع إلى جدار كان وراءه فاستند به إليه وهو يقول : «ما أسعدهما وأهنأ عيشهما ، إنهما يبنيان سعادتهما على أنقاض لقائي» ثم ذهل عن نفسه وظل في ذهوله ساعة فلم يستفق حتى رأى حلقة من الناس محيطة به ورأى قومًا يتضاحكون ويتغامزون ويشيرون إليه إشارات الهزء والسخرية فرماهم بنظرة شزراء رجفت لها قلوبهم وخطا خطوة واسعة إلى الأمام فهالهم منظره وتفرجوا له عن طريقه ، فسار في سبيله لا يلوي على شيء مما وراءه حتى بلغ ضاحية المدينة فرأى نهرًا جاريًا على رأس مزرعة خضراء فجلس على ضفته يؤامر نفسه على الموت ويقول :

لقد كذب الذين قالوا إن الانتحار ضعف وجبن ، وما الضعف ولا الجبن إلا الرضا بحياة كلها آلام وأسقام فرارًا من ساعة شدة مهما كابد المرء من الغصص والأوجاع فهي ذاهبة ولا رجعة لها بعد ذلك .

وهل يوجد في باب الجهالات أقبح من جهالة الرجل الذي يفضل حياة يموت فيها مائة مرة على موتة سريعة عجلى تريحه من هذه الميتات المتقطعة المتداولة؟

إني لا أدري لمَ يضق الرجل بثوبه فينزعه ، ويسمج في نظره منزله فيهجره ويتبرم بصاحبه فيفارقه ، ويثقل على ظهره حمله فيلقي به ، فإذا ضاقت به حياته لا يخلعها ، ولا يحدث نفسه بالخلاص منها ، والحياة إذا بؤست كانت آلم للنفس وأثقل مؤونة عليها من ثوب ضيق ، أو حمل ثقيل .

إنا لا نخاف الانتحار إلا لأنا نحب الحياة ، ولا نحبها على ما هي حافلة به من الكوارث والمحن إلا لأننا جهلاء أغبياء ، نطمع في غير مطمع ونرجو ما لا يمكن أن يكون ، فمثلنا في ذلك كمثل لاعب القمار يزداد طمعًا في الربح كلما ازداد خسارة ، فلا يزال يخسر ، ولا يزال يطمع ، حتى تصفر يده من كل شيء .

إنا لم نأتِ إلى هذا العالم باختيارنا ، فلمَ لا نخرج منه متى شئنا؟ وإنا لم نكتب على أنفسنا عهدًا بين يدي أحد أن نبقى فيه بقاء الدهر ، فلا يسمى سعينا في الخلاص منه خيانة وغدرًا ، أو كفرانًا بنعمة الله وإحسانه؟

إنها هفوة هفاها شيشرون الروماني في ذلك العهد القديم حينما قال : «إن كان لصاحب الراية في الحرب حق في إلقائها على عاتقه كلن للإنسان حق في قتل نفسه» وجاراه المجتمع الإنساني كله على هفوته هذه حتى اليوم دون أن يخطر على بال فرد من أفراده أن يقول له : إن لصاحب الراية الحق كل الحق في إلقائها عن عاتقه إذا ثقل حملها عليه .

أعجب من ذلك أنهم لا يذكرون الانتحار إلا ذكروا اسم الله بجانبه وافتنوا في تصوير غضبه ونقمته على المنتحرين ، والله أعدل وأرحم من أن يبتلي عبدًا من عبيده ببلية لا تطيب له معها الحياة ، ثم يأبى عليه إلا أن يربط بجانبها مدى الدهر ، ولا يبتغي لنفسه طريقًا إلى الخلاص منها .

وكذلك صحت عزيمته على الانتحار ، وأخذ يفكر في الصورة التي يفارق فيها الحياة عليها فلم يزل يقلب وجوه الرأي في ذلك حتى اهتدى إلى صورة أعجبه خيالها الشعري ، وهي أن يكتب كتابًا إلى ماجدولين يبثها فيه آلامه وأحزانه ويحدثها عن عزمه على الانتحار وعن المكان الذي سيلقي نفسه فيه من النهر ثم ينزع من إصبعه خاتمه المنسوج من شعرها ويضعه على فمه ويضع يده عليه ويقبله بلهفة شديدة ثم يلقي بنفسه في الماء على هذه الحالة ، فإذا أتت ماجدولين وأخرجته من النهر ورأت هذه الصورة المحزنة التي مات عليها أثر في نفسها إخلاصه ووفاؤه ، وأسفت على نفسه أسفًا عظيمًا ، وألم بنفسها الندم على فعلتها معه ، فلا تزال تذكره طول حياتها وتندب مصرعه ومصيره حتى تلحق به .

وهنا رنت في أذنه تلك الضحكة العالية التي سمعها منذ ساعة وهي راكبة عجلتها مع زوجها ، فطار ذلك الخيال من رأسه واضمحل في مسراه اضمحلال الأبخرة الذاهبة في آفاق السماء ، وعادت له أناته ورويته وقال في نفسه إن من كان مثلها في خيانتها وغدرها ، وصلابة قلبها وقسوته ، لا يبالي ما أقدم عليه من شئونه ، فربما ورد عليها كتابي فأغفلته

ثم سمعت بخبر موتي فتنفست تنفس الرحمة والدعة واغتبطت بينها وبين نفسها تلك الغيمة السوداء التي كانت تغشى سماء حياتها ، وأعجبها أنها قد أصبحت آمنة مدى الدهر من أن يذكرها مذكر بخيانتها ، أو يتراءى لها في مسلك من مسالكها شبح تلك الخيانة التي اقترفتها

ثم أنّ أنّة مؤلمة وقال : «ويل لي من بائس مسكين! لقد استحال عليّ كل شيء حتى الموت»

.

72- السعادة

قال فرتز لاستيفن وقد ركب معه في زورقه ساعة الأصيل فسار بهما يشق عباب الماء شقًا . رفه عليك قليلاً يا سيدي فذلك أمر قد فات واستبد به من قدر له ؛ وليس لي في فائت حيلة ولا لما قضى الله مرد ، ولو شئت أن أقول لك لقلت : إنه غير جميل بك في فضلك وأدبك ، ووفور عقلك واكتماله ، وعزة نفسك وأنفتها أن تحبس حياتك كلها على امرأة قد علمت ألا خير لك فيها ، وأنها قد خانتك وخذلتك ، وبلغت بك في الشقاء المبالغ التي لم يبلغها أحد وطعنت قلبك تلك الطعنة النجلاء التي لا يثل منها جريحًا إلا بمعونة من رحمة الله وإحسانه وإنها ـ وأنت تشقى الشقاء كله في سبيلها ـ تقضي ساعات ليلها ونهارها بين ذراعي زوجها هانئة مغتبطة ، غير حافلة بك ولا آسفة عليك

ولا ذاكرة لك ذمة ولا عهدًا ، فأين شرفك وإباؤك؟ وأين عزة نفسك وأنفتها؟ وأين ترفعك الذي أعرفه لك ويعرفه لك الناس جميعًا عن مواطن المهانة والضعة؟ الحق أقول إني لا أعرف سهمًا أخيب من سهمك ، ولا رأيًا أضعف من رأيك ، ولا حياة أضيع من حياتك .
لقد سلبتك هذه المرأة يا سيدي زهرة عمرك ، فحسبك ذلك واستبق لنفسك ما بقي منه ، وتمتع فيه بما أعد الله لك في هذه الحياة من لذائذ ومتع لا تنفد ولا تبلى ، واطلب السعادة إن أردتها بين أحضان الطبيعة وأعطافها ، وفي كل ما يحمل بساط الأرض وتظلل قبة السماء ، فالطبيعة أم حنون تضم بين ذراعيها أولادها البؤساء المحزونين فتمسح همومهم عن صدورها ، ودموعهم عن مآقيهم ، وتملأ قلوبهم غبطة وهناء .
أطلب السعادة في الحقول والغابات والسهول والجبال ، والأغراس والأشجار والأوراق والأثمار ، والبحيرات والأنهار ، وفي منظر الشمس طالعة وغاربة والسحب مجتمعة ومتفرقة ، والطير غادية ورائحة ، والنجوم ثابتة وسارية ، واطلبها في تعهد حديقتك وتخطيط جداولها ، وغرس أغراسها ، وتشذيب أشجارها ، وتنسيق أزهارها ، وفي وقوفك على ضفاف الأنهار ، وصعودك إلى قمم الجبال ، وانحدارك إلى بطون الأودية والوهاد ، وفي إصغائك في سكون الليل وهدوئه إلى خرير المياه ، وصفير الرياح ، وحفيف الأوراق ،

وصرير الجنادب ، ونقيق الضفادع ، واطلبها في مودة الإخوان وصداقة الأصدقاء ، وإسداء المعروف وتفريج كربة المكروب ، والأخذ بيد البائس المنكوب ، ففي كل منظر من هذه المناظر ، أو موقف من هذه المواقف ، جمال شريف طاهر يستوقف النظر ، ويستلهي الفكر ويستغرق الشعور ، ويحيي ميت النفس والوجدان ويملأ فضاء الحياة هناءً ورغدًا .

إنكم تابون يا أهل المدن إلا أن تشتروا سعادة الحياة بدمائكم وأرواحكم والسعادة حاضرة بين أيديكم لا ثمن لها ولا قيمة ، ولكنكم تجهلونها وتعرضون عنها وتظنون ألا وجود لها إلا في أحضان النساء ، وبين أستارهن وأرائكهن فتبذلون في سبيلها من دموعكم وآلامكم ، ما لا قبل لكم باحتماله فلا تلبثون أن تذبل حياتكم ، وتضوي أجسامكم ، وتنطفئ جذوة نفوسكم قبل أوانها ، فتموتوا أضيع ميتة وأخسرها ، لا أملاً أفدتم ولا حياة حفظتم .

إنما يشقى في هذا العالم أحد ثلاثة : حاسد يتألم لمنظر النعم التي يسبغها الله على عباده ، ونعم الله لا تنفد ولا تفنى ، وطماع لا يستريح إلى غاية من الغايات حتى تبنعث نفسه وراء غاية غيرها فلا تفنى مطامعه ، ولا تنتهي متاعبه ، ومقترف جريمة من جرائم العرض والشرف لا يفارقه خيالها حيثما حل وأينما سار ، وما أنت يا سيدي بواحد من هؤلاء ، فمن أي باب من الأبواب يتسرب الشقاء إلى قلبك؟

أنت شاعر يا مولاي ، وقلب الشاعر مرآة تتراءى فيها صور الكائنات صغيرها وكبيرها ، دقيقها وجليلها ، فإن أعوزتك تلك السعادة ففتش عنها في أعماق قلبك ، فقلبك الصورة الصغرى للعالم الأكبر وما فيه .

السماء جميلة ، والشاعر هو الذي يستطيع أن يدرك سر جمالها ، ويخترق بنظراته أديمها الأزرق الصافي فيرى في ذلك العالم العلوي النائي ما لا تراه عين ، ولا يمتد إليه نظر .

والبحر عظيم ، والشاعر هو الذي يشعر بعظمته وجلاله ، ويرى في صفحته الرجراجة صور الأمم التي طواها ، والمدن التي محاها ، والدول التي أبادها ، وهو باق على صورته لا يتغير ، ولا يتبدل ، ولا يبلى على العصور والأيام .

والليل موحش ، والشاعر هو الذي يسمع في سكونه وهدوئه أنين الباكين وزفرات المتألمين ، وأصوات الدعاء المتصاعدة إلى آفاق السماء ويرى صور الأحلام الطائفة بمضاجع النائمين ، وخيالات السعادة والشقاء الهائمة في رؤوس المجودين والمحدودين .

والشاعر يرى الجمال في كل شيء يتناوله سمعه وبصره حتى في الزهرة الذابلة والنبتة الحائلة ، والنحلة الطائرة ، والفراشة الحائمة ، وفي مدارج النمال ، وأفاحيص القطا ، والنؤى المنهدم ، والجدث البالي ، والشبح المخيف ، والخيال الرائع ، وفي الضفدعة الملقاة على شاطئ البحر ، والدودة الممتدة في باطن الصخر فهو من خياله الواسع في نعمة دائمة لا تنفد ولا تبلى .

أنت كالطائر السجين في قفصه ، فمزق عن نفسك هذا السجن الذي يحيط بك ، وطر بجناحيك في أجواء هذا العالم المنبسط الفسيح ، وتنقل ما شئت في جنباته وأكنافه ، واهتف بأغاريدك الجميلة فوق قمم جباله ، ورؤوس أشجاره ، وضفاف أنهاره ، فأنت لم تخلق للسجن والقيد ، بل للهتاف والتغريد .

فأطرق استيفن ساعة ، ذهبت بها نفسه كل مذهب ، ثم رفع رأسه وقال : إني أحاول ذلك يا فرتز منذ أيام طوال فلا أستطيعه ، ولو كان لي فيها قضى الله حيلة لسحقت قلبي بقدمي سحقًا ، ثم أسلمت ذراته إلى الرياح الأربع تذهب بها حيث تشاء ولكن لا سبيل إلى ذلك ، وإنما هو بلاء قد بليت به لحين قد أريد لي ، على أني أعاهدك منذ الساعة عهدًا لا أخيس به ألا تراني بعد اليوم ذاكرًا لها ، ولا باكيًا عليها ، أما ما يضمره القلب من ثكل ولوعة فأسأل الله أن يعينني عليه ، فقال له فرتز : ذلك كل ما أريده منك ، والله يتولى شأنك ويعينك على بقية أمرك .

73- الهدوء

الحب قطرة غيث صافية تنزل بالتربة الطيبة فتثمر الرحمة والشفقة والبر والمعروف ، وبالتربة الخبيثة فتثمر الحقد والغضب والشر والانتقام ، وكان استيفن ، طيب القلب ، طاهر السريرة فاستحالت تلك الآلام التي كانت تعتلج في نفسه إلى وجدان طاهر شريف يشعر ببؤس البائسين فيرثى لهم ، وفجيعة المتفجعين فيبكي عليهم ، ولقد وفى بعهده الذي عاهد عليه صديقه فرتز فأمسك عن ذكر ماجدولين والتفكير فيها ، وأخذ نفسه بنسيانها ونسيان ماضيها معه فاستقام له بعض الذي أراد وتراجعت آلام نفسه وأحزانها إلى زاوية منفردة من زوايا قلبه فكمنت فيها فلم يعد يشعر إلا في الفينة بعد الفينة ، ولا يذكرها إلا كما يذكر المستيقظ حلمًا ضئيلًا من أحلامه المزعجة ساعة أو بعض ساعة ، ثم يمضي لسبيله .

وكان أكبر ما أعانه على هدوئه وسكونه أنه أخذ نفسه بعمل الخير والمعروف فوجد فيه لذة تفوق لذة تلك الآمال والأحلام ، فولع به ولعًا شديدًا ، وأصبح لا يسمع بمنكوب قريب منه أو ناء عنه إلا ذهب إليه وأعانه على نكبته جهد استطاعته ، ولا يطرق عليه بابه في دجى الليل أو ضحوة النهار طارق لحاجة من الحاجات إلا أخذ بيده فيها واحتملها في نفسه أو في ماله ، واتخذ أسرة صديقه فرتز أسرة له فعالها ، وواساها وخلط نفسه بها ، وأصبح أخًا لكبيرها ، ووالدًا لصغيرها ، ووجد في نفسه من الأنس بها والاغتباط بعشرتها ما كان يتمنى لنفسه طول حياته أن يكون له بين زوجته وأولاده ، وعاد إلى فنه القديم ، فن الموسيقى ، وكانت قد شغلته عنه تلك الشئون الماضية ، فتعهده بنفسه واستحياه واستجد جميع آلاته وأدواته ، فكان إذا جن الليل وخلا بنفسه قام إلى قيثارته فلعب بأوتارها أو جلس إلى البيانو فوقع عليه بعض الألحان القديمة الحديثة توقيعًا يجيد فيه إجادة لا عهد له بمثلها من قبل ، فقد صقلت تلك الآلام الماضية التي كابدها في حياته صفحة نفسه وأثارتها وملأتها شعورًا ووجدانًا وسمت بها إلى سماء فوق سمائها الأولى ، فتجلت بجلالها ورونقها في نبرات صوته حين يتنغم ، وحركات أنامله حين يوقع ، وما هي إلا أيام قلائل حتى ارتقى به الأمر إلى منزلة الابتكار ، فوضع ألحانًا جديدة محزنة كانت تتفجر من ذلك القلب المصدوع تفجر المياه الصافية من صدوع الأحجار ، فتنساب في أفئدة البائسين والمحزونين ، وتتغلغل في أعماق قلوبهم حتى تبلغ سويداءها .

وما كان استيفن عالمًا من علماء الموسيقى ، ولا حافظًا من كبار حفاظها ، ولا كان نصيبه من الإلمام بقواعدها وأصولها أكثر من نصيب زملائه ولداته ، ولكنه كان ذا قلب ، والقلب هو الينبوع الثجاج الذي ينفجر منه الشعر والموسيقى وسائر الفنون الأدبية ، وليس أشعر الشعراء أحفظهم لقواعد اللغة وقوانينها ، بل أدقهم شعورًا وألطفهم حسًا ، وليس أفضل المغنيين أعلمهم بفنون النغم ، وضروب الإيقاع ، بل أنطقهم قلبًا وأفصحهم فؤادًا ، وما ملك نوابغ الممثلين أفئدة الناس وقلوبهم في مواقف تمثيلهم ، ولا استدروا دموع الباكين من محاجرها إلا لأن لهم قلوبًا حزينة متفجعة تتأثر بصور الوقائع التي يمثلونها ، فإذا بكوا صدقوا في بكائهم وإذا تفجعوا تفجعوا بقلوبهم ، ولا يفهم لغة القلب غير القلب ، ولا يشعر بسر النفس غير النفس ، ورب أنّة بسيطة ساذجة يسمعها السامع في جوف الليل من ثاكل منكوب تأخذ من نفسه ما لا تأخذ قطعة شعرية بليغة مملوءة بغرائب المعاني وبدائع التصورات ، ينظمها شاعر غير باك ويغنيها مغن غير محزون ، وما قواعد الشعر والموسيقى والرسم والتصوير إلا حدود يتقي بها المقلدون المحتذون الوقوع في الخطأ الفني ، أما الملهمون فما أغناهم برقة وجدانهم ، ولطف حسهم وصفاء نفوسهم ، وسلامة طباعهم ؛ عن التمثيل والاحتذاء .

74- من ماجدولين إلى سوزان

كنت أرجو أن تطول عشرتنا في «كوبلانس» أكثر مما طالت ، وألا يفرق بيني وبينك إلا الموت ، ولكن هكذا أراد زوجك أن يطوي بك هذه المرحلة البعيدة ، وأن يحرمني أعز صديقة كنت لا أجد لذة العيش إلا بجوارها ، ولا أستسيغ طعم الحياة إلا معها ، ولعلك هانئة في موطنك الجديد كما كنت هانئة في «كوبلانس» .

أنا سعيدة والحمد لله ، لا أشكو شيئًا غير فراقك ، وحرماني رؤيتك ؛ وإدوار لا يزال يحبني وينزل عند رغباتي ويتفقد جميع مرافقي وحاجاتي فله الشكر على ذلك .

لا أكتمك يا سوزان أني كنت اشعر في نفسي ببعض الحزن على ذلك الفتى المسكين الذي لقي في سبيلي الشقاء العظيم الذي تعلمينه ، ولقد سررت اليوم سرورًا عظيمًا حينما علمت من أخباره أنه قد نسي ذلك الماضي جميعه خيره وشره ، وأنه قد عاد إلى رشده وصوابه ونزع عنه تلك التصورات الغريبة والخيالات السود التي كانت تخالط عقله ، وتذهب براحته وسكونه ، وأصبح يأنس بالناس ويشعر بلذة المخالطة والاجتماع ويعيش في بيته الذي بناه في «جوتنج» عيشًا هادئًا ساكنًا لا يمازحه حزن ولا كدر ؛ بل سمعت عنه ما هو أكثر من ذلك ، وهو أنه يشتغل بفن الموسيقى اشتغالاً يستغرق جميع مشاعره وعواطفه ، وأنه قد برع فيه براعة غريبة لا يبلغ مبلغه إلا القليل من الناس ، ويقول الذين حدثوني حديثه إن شأنه في ذلك الفن سيكون شأنًا عظيمًا ، وربما بلغ فيه بعد قليل من الأعوام مبلغ النابهين من نوابغه وأفذاذه ،

فحمدت الله على ذلك حمدًا كثيرًا ، لأني كنت أشعر في أعماق نفسي بالحزن عليه والرثاء له ، بل النقمة على الدهر من أجله ، وكان يخيل إلي أنه لو مات في سبيله هذه لتنغص عليّ عيشي ، ولقضيت بقية أيام حياتي محزونة النفس ، موحشة القلب حتى يوافيني أجلي .

اكتبي إليّ كثيرًا يا سوزان ، وحدثيني عن كل ما يحيط بك من الأشياء ، فذلك ما يعزيني عن فراقك بعض العزاء .

75- من ماجدولين إلى سوزان

أنعي إليك مع الأسف والدي فقد مات رحمه الله عليه بعد مرض لازمه خمسة أشهر وكنت قائمة بتمريضه كل هذه المدة في «ولفباخ» حتى مضى لرحمة ربه ، ولم أعد إلى «كوبلانس» إلا منذ أيام قلائل وهذا ما حال بيني وبين الرد على كتبك التي أرسلتها إليّ فسامحيني في تقصيري وابكي معي ذلك الأب البر الرحيم الذي أحبني في حياته فوق ما يحب الآباء أبناءهم ومات وهو لا يأسف على فقد شيء في الدنيا سواي ، ولقد كنت أسمع قبل اليوم أن الفتاة الثاكل لا تبكي أباها وهي متزوجة ، كما تبكيه وهي عذراء ، فأرتاب في ذلك ارتيابًا كثيرًا ، حتى مات فبكيته بكاءً لا تبكيه متزوجة ولا عذراء ، فرحمة الله عليه وعلى أيامه الغر الحسان ، وعلى نفسه الطيبة الطاهرة .

ولقد عزاني عن فقده بعض العزاء أن كثيرًا من صواحبي وأصحاب زوجي كتبوا إليّ كتب تعزية رقيقة حملت عن نفسي بعض همومها وأشجانها ، والذي عجبت له كل العجب وملأ نفسي دهشة وحيرة أني وجدت بين تلك الكتب كتابًا من استيفن أرسله إليّ من «جوتنج» يعزيني فيه أجمل تعزية وأرقها ويتفجع فيه على الموت تفجعًا عظيمًا ويخاطبني بتلك اللهجة التي لا يخاطب بها المرء إلا أكرم أصدقائه عليه ، وآثرهم عنده ، فعجبت لأمره كثيرًا وقلت في نفسي إن كان الرجل لا يزال يضمر لي في قلبه حتى اليوم بقية من ذلك الإجلال القديم بعد الذي كان بيني وبينه ، فهو أكرم الناس خلقًا وأشرفهم نفسًا وأعلاهم همة ، على أن الذي سرني في عمله هذا أكثر من كل شيء أنه قد غفر لذلك الشيخ المسكين تلك الإساءة التي كان يظن أنه أسلفها إليه فمضى لربه طاهر النفس ، نقي الصحيفة ، لا يحمل تبعة ، ولا يجر وراءه إثمًا .

ألا تعجبين معي يا سوزان لهذا الإنسان الغريب الذي كنا نتهمه بالأمس في عقله وننزل به إلى مرتبة المخالطين المغرورين الذين لا يصلحون لشأن من شؤون الحياة ، كيف استحالت حاله وهدأت ثورة نفسه ، وأصبح رجلاً كريمًا مهذبًا عاملاً مستقيمًا طيب السريرة والنفس ، لا يحقد ولا يضطغن ، ولا يأبى أن يغفر الذنب الذي لا يغفره أحد ، وينسى الإساءة التي لا ينساها إنسان ؟! أهديك يا سوزان تحيتي ، وبلغي فردريك تحيتي وتحية إدوار .

76- من ماجدولين إلى سوزان

لم تكتبي إليّ يا سوزان منذ ثلاثة أشهر إلا كتابًا واحدًا لا يزيد على خمسة أسطر وهو قليل لا يقنعني منك ، فإن لم تكتبي إليّ لتعزيتي وتسرية هموم نفسي أكتبي إليّ لأعلم أنك سعيدة هانئة في موطنك الجديد .

أشعر يا سوزان منذ مات أبي أنني ضيقة الصدر خائرة النفس ، ولا أدري ما الذي طرأ على إدوار ، فقد تغير بعض التغير عما كان عليه وأصبح لا ينظر إليّ بالعين التي كان ينظر بها إليّ من قبل ولا أريد أن أقول إنه أبغضني أو تبرم بي أو فتر عن خدمتي والقيام بشأني ؛ بل أريد أن أقول إنني أصبحت أرى في عينيه قصرًا عني وازورارًا لا عهد لي بهما من قبل وصارت ابتسامته مزيجًا من المجاملة والحب ، وكانت خالصة للحب قبل ذلك ، وأصبحت تتخلل أحاديثنا فترات طويلة موحشة ما كانت تتخللها قبل اليوم ، وكنت لا أذهب معه في الحديث مذهبًا أستحسن فيه أمرًا أو أستهجنه إلا ذهب معي فيه ، فأصبح يستهجن أكثر ما أستحسن ، ويستحسن أكثر ما أستهجن ، كأنما يتعمد مغايظتي ومحادتي ، وصار يأنس بالزائرين والوافدين ويطيل جلوسه معهم ، وقلما كان يهتم بهم أو يهش للقائهم أو يستخفه شيء غير الجلوس معي والحديث إليّ ، وكنت لا أبتسم إلى رجل من الرجال ابتسامة ود أو مجاملة أو أتبسط معه في حديث إلا وجم لذلك وجومًا يظهر في عينيه وفلتات لسانه ، فأصبح لا يأبه لشيء من ذلك ولا يحفل به ، والغيرة دخان الحب ، فإذا انطفأت ناره انقطع دخانه .

لا يحزنك من ذلك شيء يا سوزان ، فربما كنت واهمة أو متخيلة ، وربما كتبت إليك بعد قليل أنني هانئة سعيدة ، وأن هذا الوهم لا أثر له في نفسي .

77- من سوزان إلى ماجدولين

لاشك أنك واهمة يا ماجدولين ، فإن إدوار يحبك حبًا شديدًا ، ولا يؤثر على رضاك غرضًا من أغراض الحياة ومآربها ، وأرى لك أن لا تتغلغلي بنفسك هذا التغلغل كله في بواطن الأشياء وأعماقها ، فعفو الحياة خير من مجهودها ، والسعادة كالزهرة لا تزال ناضرة ما قنع رائيها منها بمنظرها وأريجها ، فإذا جاوز إلى لمسها والعبث بها ذبلت وذوت وذهب جمالها ورواؤها وأهديك تحيتي وسلامي .

78- من ماجدولين إلى سوزان

لقد وقع لي منذ أيام أمر غريب لا أجد لي بدًا من الإفضاء به إليك :

دعيت أنا وإدوار منذ أيام قلائل إلى حفلة أنس قال صاحبها حين دعانا إليها إن الذي سيقوم بأدوار الغناء والتوقيع فيها صديق له من مهرة الموسيقيين وحذاقهم ، فسألناه عن اسمه فأبى إلا أن يباغتنا به مباغتة ، وقال إنه حديث عهد بذلك الفن وإن هذا أول عهده بالغناء في المجامع العامة ، وظل يثني عليه ثناءًا عظيمًا ، ويذهب في تقريظه والإشادة به كل مذهب ، فلم يكن لي هم عندما ذهبت إلى تلك الحفلة إلا رؤية ذلك الموسيقي الماهر واستماع أغانيه وألحانه ، فظللت شاخصة إلى كرسي البيانو أنتظر ذلك الذي سيتقدم من بين الحاضرين

فيجلس عليه حتى رأيت فتى نحيلاً ساهم الوجه تتراءى بين أعطافه مخايل العزة والشرف قد مشى إلى ذلك الكرسي حتى جلس عليه بلباقة وظرف فتأملته فإذا هو «استيفن» وما كدت أعرفه قد اختفى من وجهه ذلك الإنسان الأشعث الأغبر الخشن الأعضاء والملامح ، وحل محله إنسان آخر ظريف متأنق هادئ الحركات حلو الشمائل يكاد يحسبه الناظر إليه للمرة الأولى جميلاً ، وما هو بجميل ولا مستملح ، ولكنه جمال نفسه قد فاض على جسمه فكساه رونقه وبهاءه .

ثم بدأ التوقيع فأنشأت أنامله تعلب بأوتار البيانو فكأنما كانت تلعب بأفئدتنا وقلوبنا ، وأخذ يغني في أثناء توقيعه غناء مشجيًا محزنًا خيل إلينا ونحن نسمعه أننا قد انتقلنا من هذا العالم إلى عالم آخر من عوالم الأرواح ، وأن ما نسمعه ليس صوتًا صاعدًا من عالم الأرض بل هابطًا من آفاق السماء حتى أتى على النغمة الأخيرة فلم يملك السامعون أنفسهم أن هرعوا إليه جميعًا وداروا به يهنئونه ويقرظونه ويرددون في أحاديثهم أنهم ما سمعوا في حياتهم توقيعًا أفضل من توقيعه ولا ألحانًا أبدع من ألحانه وهو يشكر لهم ثناءهم عليه واحتفاءهم به ويبتسم لهم فيما بين ذلك ابتسامة هادئة غريبة ، لا يعلم الناظر إليها أمتكلفة هي أم ابتسامته التي لا تنفرج عن غيرها شفتاه؟ وكيفما كان الأمر فقد خيل إليّ أني رأيت فيها معنى دفينًا لا أحسب أن أحدًا من الناس يدركه سواي ، وهو أنها مصبوغة بصبغة رقيقة من الحزن العميق .

ولقد كادت تحدثني نفسي لكثرة ما نالني من الطرب وخالط قلبي من الجذل والسرور أن أذهب إليه أهنئه كما يفعل سائر الناس ، فلم أستطع حتى أرى رأي إدوار ، فلم ألبث أن رأيته يمشي إليه فتبعته حتى هنأه فهنأته مثله وكنت أتوقع أن أرى على وجهه عند رؤيتنا حالة من حالات الغضب أو الارتباك ، فلم أرَ إلا رجفة خفيفة مرت بشفتيه عندما نظر إلينا ثم عاد إلى ابتسامته وتطلقه وأنشأ يحدثنا بسكون وهدوء كأنما هو يتمم حديثًا كان بينا وبينه من قبل ، فعلمت أن الرجل قد محا من سجل حياته تلك الأعوام التي شقي فيها ، ومحا معها ذكرى علاقتنا ببؤسه وشقائه ، وأصبح لا يرى بين يديه إلا امرأة قد منحته في عهد من عهود حياتها الماضية ودها وإخلاصها وإلا رجلاً قد صادقه وآخاه وقاسمه بؤسه وشقاءه في أيام طفولته وصباه ، ثم لا يزيد على ذلك شيئًا ، فلم ينقض الليل حتى ذهب ما كان بينه وبيننا من الوحشة والجفاء ، وذهبنا معه في الحديث مذاهب مختلفة ووعده إدوار أن يزوره في منزله في عهد قريب ، ثم افترقنا .

79- من ماجدولين إلى سوزان

لا أزال يا سوزان ضيقة الصدر ، كثيرة الهم ، ولا يزال إدوار قريبًا مني بعنايته واهتمامه بعيدًا عني بقلبه وعواطفه ، فقد ملأ فراغ قلبه بشؤون مختلفة لا أعرفها ولا آبه لشيء منها ، ولم يترك فيه للحب إلا زاوية صغيرة محدودة لا تتسع ولا تنقبض ، ولا تجد العواطف لنفسها فيها مجالاً ،

فهو يحبني حبًا هادئًا فاترًا ربما لا يزيد عن محبته لخيوله وعجلانه ، وقصوره وبساتينه ، وأحسب لو أنه أراد أن يزيد على ذلك شيئًا لما استطاع ، لأن نفسه ليست تلك النفس الشعرية المتلألئة التي تذهب في الحب كل مذهب ، وتطير في سمائه كل مطار ، ولأنه لا يفهم من الحب أكثر من ذلك المعنى المادي البسيط الذي يفهمه الحيوان الأعجم ، بل لا يدرك من شؤون الحياة جميعها غير ما يقع تحت حواسه ومشاعره .

والآن أستطيع أن أعترف لك يا صديقتي بأنني ما شعرت في يوم من أيام حياتي معه على حبي إياه وإعجابي به بأن نفسي خالطت نفسه ، أو لامستها أو امتزجت بها ذلك الامتزاج الذي يحيل النفسين المختلفين إلى نفس واحدة ، بل كنت أرى دائمًا أنه وإن كان يحبني ويستهيم بي ويبذل لي من ذات نفسه وذات يده كل ما يستطيع أن يبذله زوج لزوجته فهو عاجز عن أن يشعل في قلبي نار ذلك الحب الشعري الجميل الذي لا تقنع المرأة من الرجل بدونه ولا تأنس منه بشيء سواه ، ونار الحب إن لم يتعهدها متعهدها بالتأريث والتأجيج فترت وانفثأت واستحالت جذوتها إلى رماد ، والحب كالطائر لا حياة له إلا في الغدو والرواح ، والتغريد والتنقير ، فإذا طال سجنه في قفص القلب تضعضع وتهالك ، وأحنى رأسه يائسًا ، ثم قضى .

وأعظم ما أشكو من الهموم في حياتي معه أنني أصبحت أشعر منذ أيام طوال أنني أعيش في عزلة منقطعة عن العالم كله لا أنيس لي فيها ولا سمير ، فإذا مر بخاطري فكر من الأفكار أو اختلج في نفسي غرض من الأغراض ، أو خفق قلبي خفقة سرور أو حزن أو ارتياح أو انقباض ، لا أستطيع أن أفضي إليه بشيء من ذلك مخافة ألا يفهمه أو يفهم منه غير ما أريد فيزدريه ويزدريني من أجله ، ويوسعني هزءًا وسخرية فلا أجد لي بدًا من أن أتكتمه في نفسي ، وأطويه بين أضالعي .

ألا ترين بعد هذا يا سوزان أنني في أشد الحاجة إليك ، وإلى بقائك بجانبي ، لتأخذي بيدي في ظلمات حياتي وتحملي عني بعض همومي وأشجاني : فهل يقدر لي الله أن أراك بين يدي في عهد قريب ؟

80- الوحدة النفسية

لقد صدقت ماجدولين فيما قالت ، فقد ملها إدوار بعد عامين اثنين من زواجه منها وبرم بها وانتهى أمره معها بما ينتهي به كل زوج تعقده يد الشهوة ، ولقد مل منها أكثر من كل شيء تلك الوحشة التي كانت سائدة على نفسها ، وذلك السكون المخيم على عواطفها ومشاعرها وذهابها في تصوراتها وآرائها مذهب الخيال الشعري الذي لا يألفه ، ولا يأنس به ، ولا يلتئم مع طبيعة نفسه ومزاجها فلقد كانت نفسه نفسًا مادية ضاحكة ونفسها نفسًا روحية مكتئبة ، وقد تكلف كل منهما الخروج عن طبعه برهة من الزمان لغرض طارئ من أغراض الحياة ،

فأخرجها عن طبعها ذلك اللألاء الساطع الذي بهر عينيها عند انتقالها من القرية إلى المدينة وتلك الضوضاء العظيمة التي أحاطت بأذنيها وحالت بينها وبين سماع صوت قلبها ، وأخرجه عن طبعه أنه أحبها وافتتن بها ، وكان لابد له من أن يقع من نفسها ، وينزل عند رغبتها ، فتجمل لها في أحاديثه ومنازعه ، وتصوراته وآرائه ، بما يتجمل به كل رجل لكل امرأة عند خطبتها حتى اتصلا بصلة الزواج فأخذا يتراجعان شيئًا فشيئًا إلى طبعهما وسجيتهما ، ويذهبان في الحياة مذهبهما الذي فطرا عليه ، فتنافرا وتناكرا ، واستوحش كل منهما من صاحبه ، ولقد يكون إدوار خير الأزواج لو أنه تزوج امرأة مثل سوزان مادية النفس .

وقد تكون ماجدولين أسعد الزوجات لو أنها تزوجت رجلاً مثل استيفن شعري الطبيعة ، وما خدعت سوزان ماجدولين في تزيين هذا الزواج لها وإغرائها به ، ولا أرادت بها في ذلك سوءًا ، لأنها لم تر لها إلا ما ترى مثله لنفسها ، ولا سلكت بها إلا الطريق التي سلكت مثلها في حياتها .

والهفوة التي يهفوها الرجال والنساء جميعًا في مسألة الزواج أنهم يتساءلون عن كل شيء من جمال أو مال ، أو خلق أو ذكاء أو علم أو عقل أو عفة أو أدب ويغفلون النظر في ملاك هذه الأشياء جميعها وزمامها ، وهو الوحدة النفسية بين الزوجين ؛ فالنفس نفسان : مادية تقف عند مظاهر الحياة ومرائيها ، وروحية تتغلغل في أعماقها وأطوائها ، وأصحاب النفس الأولى هم أولئك الجامدون المتبلدون الذي يدورون في الحياة حول محور أنفسهم ،

ولا يحفلون بشيء فيها إلا بما يتصل بمطامعهم أو بشهواتهم والذين إذا شغفوا بشيء شغفوا باعتبار علاقته بأجسامهم لا بنفوسهم ، وإذا أعجبوا بمنظر من المناظر أعجبوا به من حيث قيمته ومنفعته لا من حيث بهاؤه ورونقه ، وإذا وقفوا أمام قصر باذخ جميل شغلهم النظر في غلته وثمرته عن الشعور بجماله وعظمته ، وإذا أشرفوا على الطبيعة ضاقت صدورهم بمناظر غياضها ورياضها وآجامها وأحراشها واستوحشوا منها وحشة السائر في فلاة جرداء أو الهائم في مغارة جوفاء ، وإذا صادقوا الناس صادقوهم على المنفعة أو الشهوة ، أو عادوهم فيهما ، يضحكون والعالم باك ، ويعرسون والدنيا في مأتم ، ولا يبالون أهلك الناس أم بقوا ، ما داموا باقين ، وسعدوا أم شقوا ما داموا سعداء مغتبطين ، وأصحاب النفس الثانية : هم أصحاب الملكات الشعرية الذين صفت قلوبهم ، فأصبحت كالمرائي المجلوة فيتراءى فيها العالم بما فيه من خير وشر ، ففرحوا بخيره وحزنوا لشره ورقت أفئدتهم ، فشعروا بألم المتألمين فتألموا معهم ، وببكاء الباكين فبكوا عليهم ، وخفت أرواحهم فطاروا بأجنحتهم في آفاق السماء وحلقوا في أجوائها فأشرفوا على الطبيعة ، ورأوها في جميع مظاهرها ومرائيها ، فوجدوا في رؤيتها من اللذة والغبطة ما زاحم في قلوبهم حب المال والشهوات ، فاعتدلوا في مطامعهم ، وترفقوا في مساعيهم ، وازدروا كل لذة في الحياة غير لذة الحب ، وكل جمال غير جمال الخيال .

ولا تلتئم النفس المادية بالنفس الروحية بحال من الأحوال ، ولا تأنس بها ، ولا تجد لذة العيش معها ، وليس الذي يفرق بين الصاحبين أو الزوجين أو العشيرين تفاوت ما بينهما في الذكاء أو العلم أو الخلق أو الجمال أو المال ؛ فكثيرًا ما تصادق المختلفون في هذه الصفات ، وتخادنوا وصفت كأس المودة بينهم ، وإنما الذي يفرق بينهما اختلاف شأن نفسيهما ، وذهاب كل منهما في منازعه ومشاربه ورغباته وآماله وتصوراته وآرائه غير مذهب صاحبه ، وأن يكون أحدهما ماديًا ضاحكًا للحياة سعيدًا بضحكه ، والآخر روحيًا باكيًا عليها سعيدًا ببكائه ، وهذا هو الذي كان بين إدوار وماجدولين .

ولم يكن الجمال وحده هو كل مزايا ماجدولين ، بل كان أقلها شأنًا وأدناها قيمة ، ولكن إدوار لم يستطع أن يفهم شيئًا غيره أو يعني بأمر سواه ؛ فما هو إلا أن حصل في يده واستنفد متعته به حتى بدأ الملل يدب في نفسه دبيبًا خفيًا ، فلم تشعر به ماجدولين في مبدأِ الأمر ، ثم أخذت تحسه شيئًا فشيئًا ، فذعرت وارتاعت ، وملأ الريب ما بين جوانحها ، وما هي إلا أيام قلائل حتى أخذت تنقشع عن عينيها تلك الغيابة عن صورة الرجل الذي تعاشره وتزعم أنها تحبه ، فرأت صورة لا تعجبها ، ولا تروقها ، ولا تخالط نفسها ، ولا تمازحها ، وعادت إلى ماضيها معه ، فأخذت تقرأ صفحاته صفحة صفحة حتى أتت على آخرها ، فتبين لها أنها لم تكن تحبه ، أو أنها كانت تحب فيه شيئًا غير نفسه ، وأن الصلة التي بينها وبينه إنما هي صلة الزوجة بالزوج ، لا صلة القلب بالقلب ، فعرفت أنها لم تحسن الاختيار لنفسها ، وأن شقاءً طويلاً ينتظرها فيما بقي لها من أيام حياتها .

81- من سوزان إلى ماجدولين

أراك تحدثينني في كتبك كثيرًا عن استيفن ، كأنك قد نسيت أنه أصبح رجلاً غريبًا عنك لا شأن لك به ، وأن ما كان بينكما قد انقضى وذهب لسبيله ، وأغرب من ذلك أنك تكتبين عنه بلهجة أفضل من اللهجة التي تكتبين بها عن زوجك ، وأخاف أن يكون لالتقائه بك في تلك الحفلة التي قصصت عليّ قصتها صلة بهذا الألم الجديد الذي أصبحت تشعرين به اليوم ، فما عهدتك قبل الآن باكية ، ولا شاكية ، ولا ناقمة من زوجك شأنًا من شؤونه ، ولا متبرمة بعشرته ، ولا ضيقة الصدر بأطواره وأخلاقه ، ولا طائرة في سماء الخيال ليلك ونهارك تفتشين عن الحب الشعري وتتلمسينه تلمس من لا يرى لنفسه غناء عنه ، ولا يعرف معنى للحياة بدونه . فخذي حذرك من نفسك يا ماجدولين ، واعلمي أن ما كان يعتد بالأمس هفوة من الهفوات الصغيرة يصبح اليوم جنونًا مطبقًا لا يماثله جنون ، ولا يوحشنك مني ما أقول لك ، فأنا لا أتهمك ، ولا أرتاب فيك . وأنت أعلم بذلك ، ولكني أخشى عليك أن يتلاقى في مكان واحد من قلبك ذكرى ماضيك ، وهناء حاضرك ، فيصطرعا ، فينغص عليك أولهما ثانيهما ، فلا الماضي تدركين ، ولا بالحاضر تسعدين .

هذا ما أريد أن أقوله لك ، وهذا ما أطلب إليك أن تتعهديه من نفسك وتتولي حراسته من قلبك أن يأتي يوم لا ينفعك فيه تعهد ، ولا انتقاد .

82- من ماجدولين إلى سوزان

لا علاقة لاستيفن بهذا الهم الذي أشعر به ، وليس بيني وبينه أكثر مما يكون بين صديقين احتمل أحدهما في سبيل الآخر في عهد من عهوده الماضية أقصى ما يستطاع احتماله من المشقة والمؤونة ، فعرف له الآخر يده ، وشكرها له وجازاه ودًا بود ، ومعروفًا بمعروف .

أما هذا الذي تريدين أن تذهبي إليه في كتابك فأقسم لك أني لا أعرف له أثرًا في نفسي ، ولا أحسب أن له أثرًا في نفسه ، فقد رأيته في تلك الليلة التي قصصت عليك قصتها ، ثم رأيته بعد ذلك مرتين ، فلم أرَ في نظرات عينيه ، ولا ملامح وجهه ، ولا في نغمة حديثه أثرًا من ذلك الحب القديم الذي تعرفينه ، وكل ما يستطيع الناظر إليه أن يلمحه في وجهه تلك المسحة الرقيقة من الحزن التي تتراءى في عينيه حين ينظر ، وفي ابتسامته حين يبتسم وما هو بحزين ولا مكتئب ، ولكنها صورة الألم القديم قد رسمها الماضي على وجهه ثم ذهب فبقيت هي من بعده دليلاً عليه كما تبقى صورة الجرح بعد التئامه ، فاطمئني يا سوزان وليكن رأيك في اليوم رأيك بالأمس ، ولا يقم هذا البعد الذي بيني وبينك حجابًا بين نفسي ونفسك .

نبه ذكر استيفن ، وعظم شأنه ، وأصبح نابغة من نوابغ الموسيقى ، وانتشر له صيت بعيد في جوتنج وما يليها من البلدان ، ثم امتد صيته إلى كوبلانس ، فزاره في قريته كثير من المغنين والممثلين . واقترحوا عليه تلحين القطع التمثيلية ، وأجزلوا له الأجر عليها ، فلحنها أفضل تلحين وأبرعه ودرت عليه أخلاف الرزق ، وسال واديه بالذهب سيلاً ، وكان أبوه قد مات وورّثه تلك الصبابة من المال التي كانت في يده ، فكان إذا ذهب إلى كوبلانس ليقضي فيها ليلة أو ليلتين لبعض شؤونه الخاصة نزل في بيته وزاره فيه أصدقاؤه وخلانه ، والمعجبون بفضله ، والمعترفون بصنائعه وأياديه .

ولقد وجد في تلك الخطة التي انتهجها لنفسه في حياته بعض العزاء عما لقي في ماضيه ، إلا أنه كثيرًا ما كان يخلو بنفسه في هدوء الليل وسكونه فتمر أمام نظره على الرغم منه جميع آلامه وهمومه الماضية فيذكر الليلة التي خرج فيها من كوبلانس شريدًا طريدًا لا يجد مواسيًا ولا معينًا ، والليلة التي ذهب فيها إلى عرس سوزان لرؤية ماجدولين فضربه أحد الزائرين على وجهه سوطًا فأدماه ، والليلة التي كابد فيها الأهوال العظام في غرفة قريبه ليلة وفاته حتى أشرف على الجنون ، والليلة التي قضاها طريحًا تحت سلم دار ماجدولين حتى الصباح وهي خالية بزوجها في غرفة عرسها تعانقه وتقبله وتقول له :

«أنت حياتي التي لا حياة لي بدونها» ويتراءى له مرة شبح أخيه «أوجين» وهو ساقط في حومة الوغى تحت سنابك الخيل تدوسه وتخوض في أحشائه ، وأخرى منظر ماجدولين وهي جالسة مع إدوار على مقعد حديقتها تناجيه بالحب ويناجيها ، إلى ما بقي من أيام بؤسه ، وليالي شقائه ، ثم تتمثل أمام عينيه روضة آماله وهي مورقة خضراء يتسلسل ماؤها ويترقرق هواؤها ، ثم يراها وقد عصفت بها ريح الحوادث فصوح نبتها ، وذبل زهرها ، واستحالت إلى قفرة جرداء لا يترنح فيها غصن ، ولا يهتف بها طير ، فيخيل إليه أنه يعيش وحده منقطعًا عن العالم وكل ما فيه ، لأن ماجدولين ليست بجانبه ، وأن ما يتمتع به من مجد ومال لا قيمة له عنده لأنها لا تقاسمه إياه ، وأن هذه الألحان التي يضعها والأصوات التي يغنيها إنما هي مأتم يقيمه بنفسه على نفسه وعلى آماله الذاهبة ، وأمانيه الضائعة ، فتمتلئ نفسه غمًا وحسرة فلا يجد له سبيلاً سوى أن يتناول قيثارته فيضمها إلى صدره ويبثها هموم قلبه وآلام فؤاده ويبكي ما شاء الله أن يفعل حتى يجد بعض الراحة في نفسه فيأوي إلى فراشه وينام نومًا طويلاً ثم يستيقظ بارئًا مستفيقًا .

ولم يزل هذا شأنه حتى التقى بماجدولين في تلك الليلة التي قصت هي قصتها على سوزان فاغتبط بمرآها اغتباطًا ممزوجًا ببعض الألم لذكراها وذكرى ماضيه معها ، إلا أنه تجلد واستمسك وكاتم نفسه غصتها فلم تشعر بشيء مما دار في نفسه حتى انصرفت .

وما هي إلا أيام قلائل حتى زاره إدوار في بيته كما وعده واعتذر إليه عن فعلته التي فعلها معه فقبل عذره قبول من لا يرى من قبوله بدًا بل زعم له حين جرى بينهما ذكر ذلك الماضي وشؤونه أن حبه لماجدولين لم يكن إلا خدعة النفس ونزعة طائشة من نزعات الشباب ، وأنه قد بدأ يمل بماجدولين ويأجمها فلم يعد يحفل بأمرها ، ولا يفكر في ماضيها ولا حاضرها ، وأصبح ولا هم له إلا أن يجدد صداقته مع رجل قد أصبح من أصحاب الشأن العظيم والمظهر الفخم ، والثروة الطائلة ، فصدقه في زعمه وسكن إليه وذهب في مجاملته والتودد له كل مذهب ، ثم رد له استيفن الزيارة في بيته في اليوم الثاني ورأى ماجدولين وحادثها وتبسط معها تبسط من لا يحفل بحاضرها ، ولا يعنى بماضيها ، ثم لم تزل يراها بعد ذلك في منازل بعض أصدقائه ، أو في المحتفلات العامة ، وحدها ، أو مع إدوار فيحسن ملتقاها ، ويؤثرها بعطفه ورعايته ، إلا أنه كان يتجنب جهده أن يجلس معها مجلسًا منفردًا أو يتحدث إليها حديثًا خاصًا لأنه كان قد أخذ نفسه بنسيانها ونسيان ماضيها ، فلا يحب أن يستثير ذلك ، ولأنه كان لا يزال يمسك في نفسه بعض العتب عليها في غدرتها به فلا يحب أن ترى ذلك في نغمة حديثه ، أو لحظات عينيه ، أنفة وكبرياء وذهابًا بنفسه مذهب من لا يبالي بمن لم تبال به ، ولم ترع له ذمامًا ولا عهدًا .

وجملة حاله معها أنه كان يجمع لها في قلبه في آن واحد بين عاطفتين مختلفتين عاطفة الرضا ، وعاطفة السخط ، فهو يحبها لا يستطيع مقاطعتها ويجد عليها فلا يريد أن تشعر بحبه إياها .

84- قلب ماجدولين

ما زال الملل يأخذ من نفس إدوار حتى مل بيته واجتواه ، وأنشأ يطلب لنفسه السعادة خارجه بعدما فقدها داخله ، فأخذ يتلهى بتلك الشؤون التي يعالج بها فقراء القلوب أمراض مللهم وسآمتهم ، فقامر ثم ضارب ثم ولع بالشراب ثم قضى بعض لياليه خارج منزله ، فاشتد ذلك على ماجدولين ، ونال منها منالاً عظيمًا ، وساء ظنها بالحياة وما فيها ، فقبح في نظرها كل مظهر من المظاهر المادية التي أحبتها هنيهة من الزمان واستهامت بها فعافت المراقص والمحافل وزهدت المظاهر والمفاخر ، وملت كل شيء حتى ثيابها وزينتها ، وأصبحت لا تفكر ليلها ونهارها إلا في الكلمة التي قالها استيفن في بعض كتبه الماضية «لا تصدقي يا ماجدولين أن في الدنيا سعادة غير سعادة الحب ، فإن صدقت فويل لك منك فإنك قد حكمت على قلبك بالموت» .

إلا أنها راضت نفسها مع الأيام على مكروهها ، واصطبرت للحالة التي طرأت عليها صبرًا جميلاً لا يتخلله تذمر ولا شكوى فقد علمت أن القدر قد جرى في أمرها بما هو كائن ، وأنها قد أصبحت زوجة لرجل قد أقسمت له بين يدي الله يمين المحبة والولاء ، فلابد لها من الوفاء له ، والإخلاص إليه ، واحتمال كل مكروه في عشرته حتى يقضي الله في أمرهما بقضائه

وكان يعزيها عن شقائها بعض العزاء أنها كانت ترى استيفن من حين إلى حين ، وتحضر بعض مجالسه ومجتمعاته فتسمع في حديثه ذلك الأسلوب الشعري البديع ، وتلك التصورات السماوية العالية التي طالما سحرتها وملكت عليها قلبها وأهواءها ، وترى تلك الشهرة العظيمة التي تنتشر له شيئًا فشيئًا في أقطار البلاد فتمتلئ نفسها إكبارًا ، وإعظامًا ، ولا يملك قلب المرأة من الرجل مثل الشهرة وامتداد الصيت ، وكان يداخلها شيء من إعجاب بنفسها كلما ذكرت أنها قد نزلت في عهد من عهود حياتها الماضية منزلة الحب من ذلك القلب الطاهر الشريف ، فتجد في سعادة الماضي وذكراه بعض العزاء عن شقاء الحاضر .

إلا أن أمرًا واحدًا لم يخطر ببالها ، ولم يدخل في أحاديث نفسها وهو أن تعود إلى حبه بعدما نفضت يدها منه ، أو أن تكون الصلة التي بينها وبينه صلة حب وغرام .

85 – من ماجدولين إلى سوزان

قد اطلعت منذ أيام قلائل على سر هائل ليتني لم أطلع عيه وليتني مت قبل أن أعرف منه حرفًا واحدًا .

قد أفلس إدوار وباع جميع ما يمتلك ولا تزال عليه بقية من الدين لا سبيل له إلى أدائها ، وهأنذا أعد عدتي لبيع جواهري وحلاي علني أستطيع أن أستنقذ البيت الذي نسكنه ، ولا أدري ما يكون شأننا بعد ذلك ، ولقد فاتحته ليلة أمس في هذا الشأن

فراوغني قليلاً ثم اعترف لي بكل شيء وقال : إنه إنما أُتِيَ من قبل المقامرة أولاً ، والمضاربة آخرًا ، وأن طمعه في الثروة واستهتاره بها هو الذي أفقده إياها ، فعاتبته في ذلك عتابًا لا أظن أنني أثقلت عليه ، ولكن أتدرين يا سوزان ماذا قال لي؟ قال : إنه لم يخطئ في حياته إلا في أمر واحد ، وهو أنه تزوج من زوجة فقيرة لا تستطيع أن تمد له يد المعونة في ساعات شدّته ولقد صدق فيما قال ، فليس للرجل الغني أن يتزوج إلا امرأة غنية تلائم نفسه نفسها ، وليس للمرأة الفقيرة أن تتزوج إلا رجلاً فقيرًا يشابه عيشه عيشها .

إنني لا ابكي يا سوزان على نفسي ، فقد قضيت أكثر أيام حياتي فقيرة معدمة لا أملك من متاع الدنيا شيئًا ، بل على ذلك الجنين المسكين الذي يختلج في أحشائي والذي سألده غدًا للفقر والمتربة والذل والشقاء .

لقد أصبحت لا أسأل الله إلا موتة عاجلة تذهب بي وبه وتريحني وتريحه من شقاء الحياة وعنائها ، والويل لي وله إن عشت بعد اليوم ساعة واحدة .

86 - الغرفة الزرقاء

مرض إدوار على أثر تلك النكبة التي نزلت به مرضة شديدة كادت تتلف فيها نفسه ، ثم أبل بعض الإبلال فاقترح عليه استيفن ـ وكان قد لازمه مدة مرضه ، ومد إليه يد المعونة في نكبته ـ أن يسافر معه إلى «جوتنج» ليفرج قليلاً مما به ، ففعل وسافرت معهما ماجدولين حتى بلغت بهم العجلة ضاحية القرية ، فاستقبلهم «فرتز» وزوجه وأولاده على ضفة النهر فرحين مغتبطين ،

وكانوا على موعد منهم ، فصافح استيفن فرتز وعانقه معانقة الصديق لصديقه ، وقبّل جبين جوزفين ، وضم الأولاد إليه وأنشأ يقبلهم ويدير لهم خديه فيقبلونه ويهتفون له ويقولون : لقد طال غيابك عنا في هذه المرة يا سيدي حتى ظننا أنك قد آثرت الإقامة في «كوبلانس» على الإقامة بيننا ، وقال أكبرهم وكان في الثالثة عشرة من عمره : هأنذا ألبس الرداء الجديد الذي أرسلته إليّ فشكرًا لك يا سيدي ، فسأله : هل أصبح يستطيع نشر شراع الزورق وحده بلا مساعد ولا معين؟ قال : نعم وأستطيع أيضًا أن أطويه وقت اشتداد العاصفة ، قال : سأرى الآن ذلك أيها الملاح الصغير ، وقال أوسطهم وكان في التاسعة من عمره : لقد بلي حذائي يا سيدي فهل جئتني بحذاء جديد؟ قال : نعم لقد جئتكم جميعًا بأحذية جميلة ، وقبعات فاخرة .

فرح الأولاد وتهللت وجوههم ، وأحاطوا بأمهم يهمسون في أذنها بهذا النبأ الجديد ، وتشبثت بردائه الطفلة الصغيرة وقالت له : لقد ولدت الشاة التي أهديتها إليّ صغيرًا أبيض اللون أسود العينين فتعال معي أريك إياه ، فتبسم وضمها إليه وقال لها : سأذهب معك يا فكتورين عما قليل ، ثم التفت إلى ماجدولين وقال لها : إنهم يحبونني كثيرًا ، وأنا الآن أعيش بينهم كأنني أعيش في أسرتي بين أهلي وقومي ، فارتعدت ماجدولين واصفر وجهها وظلت تقول في نفسها : «لقد أصبح سعيدًا بنفسه ، وكان يظن أنه لا يستطيع أن يكون سعيدًا بدوني» ثم ركبوا الزورق جميعًا وأخذ الملاح الصغير ينشر الشراع ويصيح : ها أنذا يا سيدي أنشر الشراع وحدي بلا مساعدة ولا معين ، فيقول له :

أحسنت يا بني أحسنت! حتى عبروا النهر إلى الضفة الأخرى ، فاعتمد إدوار على ذراع استيفن ومشوا جميعًا على أقدامهم إلى المنزل ، وكان على كثب منهم ، فتقدّم فرتز وكان معه مفتاح الباب ففتحه . فدخلوا الحديقة ووقع نظر ماجدولين على حائط السور فرأيتها مكسوة بغلالة بديعة من أزهار البنفسج تدور بها من جميع جوانبها ، فذكرت ذلك الكتاب الذي كتبه إليها استيفن منذ خمسة أعوام قبيل زفافها إلى إدوار ، وقال لها فيه : إنه قد كسا سور البيت الذي ابتناه لها في جوتنج بأزهار البنفسج التي تحبها ، ثم التفتت فرأت حوض الماء المقام في وسط الحديقة ، ورأت حوله ذلك السياج الذي قال لها استيفن في كتابه إنه قد أقامه حوله خوفًا على أولادهما من السقوط ثم لمحت في زاوية من زوايا الحديقة كرسيًا طويلاً مؤلفًا من مقعدين متقابلين ، وأرجوحة صغيرة من أراجيح الأطفال ، فعجبت من احتفاظه بهذه الآثار التي تؤلمه وتذكره بشقائه الماضي ، ثم قالت في نفسها : ما أحسب أنه تعمد إبقاءها والمحافظة عليها ولكنه تركها وشأنها فبقيت في مكانها على حالها .

وهنا شعرت بتلك الغضاضة التي يشعر بها الذليل في موقف ذله ومهانته ، وظلت تقول في نفسها : إنه ما عفا عنها ، ولا غفر لها سيئتها عنده ، ولا أمسك عن عتابها وتأنيبها ، ولا أعطاها من نفسه هذا الوجه من الرضا ، إلا لأنه يحتقرها ويزدريها ، ويراها أصغر في عينيه من أن يأخذها بذنب ، أو يعتد عليها بسيئة ، وإن هذه النظرة العذبة التي أصبح ينظر بها إليها إنما هي نظرة العزيز المترفع التي يلقيها على البائس الشقي الذي يستحق عطفه ومرحمته ، فأخذ من نفسها هذا الخاطر مأخذًا شديدًا ، وأحزنها وملأ قلبها غصة وألمًا أنها قد فقدت كل ما كان لها في قلبه حتى منزلة الاحترام .

وكان استيفن قد أنشأ في طرف من أطراف الحديقة غرفًا أعدها لمنامه وجلوسه ونزول ضيفانه وترك المنزل جميعه لا يطرقه ولا يأوي إليه طلبًا لراحة نفسه من آلام الذكرى وهمومها ، فأعد لإدوار غرفة منها ذهب به إليها ساعة وصوله ، وكان إدوار يشكو بقية من الألم في جسمه فما أخذ مضجعه من فراشه حتى استغرق في نومه وأقبل الليل فعادت أسرة فرتز إلى بيتها ولجأ بستاني الحديقة إلى مخدعه وبقي استيفن وحده مع ماجدولين وهي المرة الأولى التي جلس إليها منفردًا منذ أن افترقا فعادت إلى ذهنه تلك الصورة القديمة التي كان يتخيلها في ماضيه لسعادته وهنائه ، وظل يقول في نفسه : ها هو البيت وها هي الحديقة ، وها هو النبت والشجر ، والليل والقمر ، والسماء الصافية والأشعة المترقرقة ، والنسيم العليل ، والسكون السائد ، وها هو حوض الماء تسبح فيه الأسماك غادية ورائحة ، وها هي ماجدولين جالسة ليس بيني وبينها حائل ولكنني لا أستطيع أن أمد يدي إليها ، بل لا أستطيع أن أملأ نظري منها لأن بيني وبينها على شدة هذا القرب بعد ما بيني وبين ذلك النجم المتألق في أفق السماء .

وظل مستغرقًا في خياله هذا ، حتى فاتحته ماجدولين الحديث وقالت له : ما أجمل دارك يا استيفن وما أبدع منظرها ، إنها أجمل مما كنت أتوقع ، فخيل إليه أنها تهزأ به وتستهين بآلامه فلا تبالي أن تذكره بها ، فداخله ما لم يملك نفسه معه وقال لها : إن من يعيش في قصر جميل فخم كقصرك الذي تعيشين فيه في كوبلانس لا يعبأ بمنزل صغير كهذا المنزل ،

فشعرت أنه يؤنبها ويعرض لها بتلك الإساءة التي أسلفتها إليه فيما مضى فتألمت في نفسها ألمًا ممزوجًا ببعض الغبطة والارتياح ؛ لأنها علمت أنه لا يزال يفكر فيها ، ولا يزال يضمر في نفسه بقية من ذلك الحب القديم ، وأرادت أن تتغلغل إلى أعماق نفسه فقالت له : حيثما يجد المرء سعادته في مكان مهما صغر شأنه فهو أجمل القصور وأفخمها ، فنظر إليها نظرة منكسرة كاد يقول لها فيها إنه ليس بسعيد ؛ وإنه أشقى إنسان على وجه الأرض ، ثم استردها سريعًا ، فلم تشعر به وظل صامتًا .

فذهبت معه في الحديث مذاهب أخرى ، حتى مضت قطعة من الليل فنهضت من مكانها ، ونهض بنهوضها ، وتمشيا قليلاً في أنحاء الحديقة حتى مر بسلم الطبقة العليا فقالت له : هل تأذن لي يا استيفن أن أصعد إلى هذه الطبقة لأراها ، وهل تتفضل بالصعود معي إليها ؟ فاضطرب قليلاً ثم قال لها : لك ما شئت يا سيدتي ، وصعد معها ذلك السلم الذي لم تطأه قدمه منذ خمس سنين حتى بلغا أعلاه ، فمشي إلى الغرفة الأولى وفتح بابها وقال لها : ها هي الغرفة التي كنت أعددتها لجلوسي ودراستي ، ولا حاجة لي بها الآن ؛ فقد اتخذت من بين غرف الحديقة بدلاً منها ، ثم تركها وفتح باب الغرفة الثانية وقال : وها هي الغرفة التي كنت أعددتها لمقام أبيك رحمة الله عليه أيام كنت أظن أنه سيساكنني في هذا المنزل ويعيش معي فيه . فرأت فرشًا جميلاً وأثاثًا حسنًا وأصص زهر وريحان قد يبست وجف ورقها وتناثر في أنحاء الغرفة ، فشعرت بانقباض في نفسها لذكرى أبيها ،

واغرورقت عيناها بالدموع ، ثم انتقل إلى الغرفة الثالثة ومد يده إلى مفتاحها ثم استردها وقال بصوت خافت متهدج : عفوًا يا ماجدولين فإنني لا أستطيع أن أفتح هذه الغرفة لأنها الغرفة التي كانت معدة لأخي أوجين ، وقد آليت على نفسي أن لا أفتح بابها ما حييت ، فأثر في نفسها منظره ، وأكبرت حزنه وألمه ، وقالت له : أحزين أنت حتى اليوم على أوجين يا استيفن؟ قال : نعم حزنًا لا يفارقني حتى الموت ، ثم مشى إلى الغرفة الأخيرة ومد يده إلى مفتاحها بهدوء وسكون ففتحها ثم انحرف عنها قليلاً وأطرق برأسه ولم يقل شيئًا ، فألقت عليها ماجدولين نظرة ألمت بجميع ما فيها ، فرأت غرفة جميلة رحبة قد دهنت جدرانها باللون الأزرق ، وبسط في أرضها بساط أزرق ؛ وأقيم في أحد أركانها سرير من النحاس الأبيض مغطى بملاءة حريرية زرقاء ، ورأت منضدة جميلة قد صفت عليها أدوات زينة النساء ، وخزانة للملابس ، ومرآة كبيرة وكرسيًا طويلاً ذا مقعدين ، وبضعة مقاعد أخرى كلها زرقاء اللون ، وقد علتها جميعها طبقة رقيقة من الغبار ، فعلمت أنها أمام الغرفة الزرقاء التي حدّثها عنها في بعض رسائله الماضية وقال لها إنه قد أعدها مخدعًا لنومهما ، وأنه إنما اختار لها هذا اللون لأنه لو البنفسج الذي تحبه ، فثارت في نفسها تلك الذكرى القديمة ، ومشت ما بين قمة رأسها وأخمص قدمها رعدة شديدة كادت تتزايل لها أعضاؤها ، واشتد خفوق قلبها واضطرابه ، ثم نظرت إليه فإذا هو مطرق صامت ،

وإذا دموعه تنحدر على خديه يتبع بعضها بعضًا ، فهالها منظره ، وازدحمت الدموع في عينيها تتبادر إلى السقوط ، فأخذت يده بين يديها وقالت له : ما بك يا استيفن؟ وكأنما قد راعه أن يفضح الدمع سره الذي كان يكتمه منذ عهد طويل ، فاجتذب يده من يدها برفق وقال لها : لقد هاجني ذكر أخي أوجين ، وأشار إليها بالنزول ، فنزلا حتى وصلا إلى مكانهما الأول من الحديقة ، فقالت له : رفه عليك قليلاً يا صديقي فليس فيما قضى الله حيلة ، ولا لفائت مرد ، ولقد مات أخوك ميتة كريمة لم يمتها أحد قبله ، فليكن صبرك عليه كريمًا كميتته ، فرفع رأسه إليها وقال لها : إنني أستطيع أن أنسى كل عهد من عهود حياته الماضية ، ولا أستطيع أن أنسى تلك الأيام التي أحببته فيها وأحبني ، وأخلصت له فيها وأخلص لي ، ولقد جمعت بيني وبينه المصائب مذ كنا طفلين صغيرين ، وألفت ما بين قلبينا الكسيرين حتى أصبحنا قلبًا واحدًا ، يشعر بشعور واحد ، ويتألم بألم واحد ، ولا تزال حاضرة أمام عيني حتى الساعة تلك الأيام التي قضيناها معًا في مدرسة جوتنج بعيدين عن أبوينا ورحمتهما وعطفهما لأن أمنا كانت قد ذهبت إلى قبرها ، وأبانا كان يقسو علينا ، ولا يحفل بنا ؛ وقد بؤس عيشنا بؤسًا يعي به الصغير ويطير له لب الكبير ، وبلغنا في الشقاء المبالغ التي لا يبلغها إلا اليتامى المنقطعون عن الأهل والرحم ، أو أبناء السبيل المشردون في آفاق البلاد ، وكنا نرتدي أرث الثياب ، ونأكل أتفه الطعام ، ولا نحتذي إلا الأحذية المرقعة ، ولا نلبس إلا القلانس المخرقة ، ولا نجد ما نستعين به على إصلاح شأن ملابسنا وأجسامنا ، فكنا نلاقي بسبب ذلك من معلمينا أشد العقاب وأقساه ، فنحتمل الألم بصبر وجلد .

ولا نستطيع أن نعتذر إليهم عذرًا شديدًا ، نقيم به وجهنا لأننا إن فعلنا قد عققنا أبانا وتركنا للألسنة سبيلاً إليه ، وهذا ما لا نحب أن يكون ، وكان طلبة المدرسة في شأننا قسمين ، هازئ لا يزال يسخر بنا ، وراحم لا يزال يتوجع لنا ، ودمعة الراحم كابتسامة الساخر وكلاهما يؤلم النفس ويملؤها غصة وأسى ، فكنا نضيق بالحالين ، ونتألم في الموقفين ، وكثيرًا ما كان يأمرنا معلمونا كلما زارهم زائر كريم بالانزواء في الركن المظلم من أركان قاعة الدرس حتى لا يخجلوا بنا أمامه فإذا انصرف عدنا إلى مقاعدنا كما كنا ، فكنا نجد في نفوسنا من المضض والألم ما لا يعلم سبيله إلا الله ، وكان الطلبة يخرجون جميعًا في أيام الآحاد مع المعلمين للتنزه في الأحراش والغابات أو على ضفة النهر أو على سفح الجبل في أزياء جميلة وشارات حسنة ، ما عدانا فقد كان معلمنا يتطلب علينا العلل في ذلك اليوم حتى يأمر بسجننا في بيت الدجاج تبرمًا بنا ، واستثقالاً لزينا وهيئتنا ، فإذا خلا بنا المكان اختلف شأننا اختلافًا عظيمًا فأظل أبكي وأنتحب ، ويظل أوجين يلعب ويمرح لأنه كان على صغر سنة أوسع مني صدرًا وأكثر احتمالاً، وكان لا يعرف سبيلاً لتعزيتي وتسرية هموم نفسي غير هذا السبيل ، فلا يزال يغني ويصيح ويقلد أصوات الحيوان ، ويطارد الدجاج والأوز ويفتن من مجونه ولهوه ، حتى تهدأ نفسي ، ويجف مدمعي ، ولا أرى لي بدًا من المضي معه في شأنه ، وكنت أرحمه وأحنو عليه حنو الأم على رضيعها ، فلا أستطيع أن أراه باكيًا أو شاكيًا أو مستوحشًا أو متألمًا ، وكان يخيل إليّ أنني لو رأيت دمعة واحدة تجرى على خده لقتلت نفسي حزنًا وكمدًا ، كثيرًا ما كنت أتمارض ساعة الغداء

أو أتظاهر بالشبع إن رأيت الطعام قليلاً في أيدينا حتى يستطيع أن يأخذ حظه منه ، فلا أرى على وجهه صفرة الجوع ، وطالما ضممت في الليالي الباردة غطائي إلى غطائه وأسبلته على من حيث لا يشعر رحمة به وحنوًا عليه ، حتى إذا أصبح الصباح ورآني نائمًا بجانبه بغير غطاء ضمني إلى صدره وقبلني ، وقال إنك تقتل نفسك يا استيفن من أجلي ! .

ولم يزل هذا شأننا حتى وفد علينا إدوار ، وكان منكوبًا بمثل نكبتنا فتقاسمنا نحن الثلاثة هذا الشقاء وتعاونا عليه برهة من الزمان حتى فرقت بيننا الأيام .

وهنا اختنق صوته بالبكاء فلم يستطع المضي في حديثه وأطرق إطراقًا طويلاً ثم رفع رأسه ، فإذا عيناه محمرتان من البكاء فألقى على ماجدولين نظرة طويلة دامعة وقال لها : أتدرين يا ماجدولين ماذا صنعت بهذا الأخ الذي كنت أحبه أكثر من كل إنسان في العالم ، وكان يحبني أكثر مما أحبه ؟ قالت : لا أعلم أنك صنعت به شيئًا ، قال : إنني قد قتلته ، فذعرت ماجدولين واصفر وجهها وقالت : إني لا أفهم ما تقول ! قال : كتب إليّ من ميدان القتال أن سرجه بال ممزق يوشك أن يخذله في الميدان ، وأنه في حاجة إلي عشرين فرنكًا ليبتاع به سرجًا جديدًا ، وكنت قادرًا عليها فضننت بها عليه ، فانقطع به سرجه أثناء المعركة فداسته حوافر الخيل فمات ، فاستعبرت ماجدولين باكية ، وقالت : واأسفاه عليه وعلى شبابه الغض وغصنه الباسق النضير ، فحدق استيفن في وجهها تحديقًا وقال لها : وهل تدرين لِمَ ضننت عليه بهذا المال الذي سألنيه ؟

قالت : لا . قال : لأنني كنت لا أملك سواه ، وكنت بين أن أرسله إليه ليبتاع به السرج الذي يريده ، أو أنفقه في السفر إلى كوبلانس لأراك ، فآثرت رؤيتك على حياته ، فنكست ماجدولين رأسها ، واحمر وجهها حياء وخجلاً ، وظل جسمها يرتعد ارتعادًا شديدًا ـ ثم عاد إلى حديثه يقول : وهل تعلمين ماذا تم لي بعد أن سافرت إليك هذه السفرة ؟ فصمتت ماجدولين ولم تقل شيئًا ، فقال : ذهبت إليك في ملعب الأوبرا فلم أجدك فانتظرتك طويلاً فلم تأت فقلقت عليك قلقًا عظيمًا ، وذهبت إلى بيت سوزان لأقف على أمرك فرأيت هناك وليمة حافلة فسألت عنها فعلمت أنها عرس صديقتك ، فأبيت أن أذهب دون أن أراك ولو على البعد لحظة واحدة ، ثم أنصرف لشأني وكان لا بد لي من أن أحتال لذلك احتيالاً ، فاختلطت بالخدم كأنني واحد منهم وكانت ثيابي أشبه بثيابهم حتى تمكنت من الدخول إلى فناء القصر ، ووصلت إلي باب قاعة الرقص فنظرت من زجاجها فرأيتك ترقصين مع إدوار تلك الرقصة التي كنت تفتحين بها حياتك الجديدة معه ، وبينا أن كذلك إذ دفع الباب دفعًا شديدًا وخرج منه أحد الزائرين فأمرني أمرًا لم أحسن القيام به فضربني على وجهي سوطًا لا يزال أثره باقيًا على خدي حتى الساعة .

وهنا وضع يده على خده كأنما قد وقع السوط عليه في هذه اللحظة وانفجر باكيًا بصوت عال وتركها مكانها ومشي في الطريق الموصل إلى مخدعه فلحقت به عند باب المخدع وتشبثت بردائه ومدت يدها إليه ضارعة وقالت له : ألا تستطيع أن تعفو عنه يا استيفن ؟ فجذب رداءه منها ، وألقى عليها نظرة شزراء هائلة ،

وقال لها : اذهبي أيتها السيدة إلى مخدع زوجك فإنه مريض ، وربما كان في حاجة إليك ؛ ثم دخل مخدعه وأقفل بابه فلبثت في موقفها ساعة باهتة مذهولة ، ثم انصرفت إلى مخدع زوجها . في هذه اللحظة علمت أنه لا يزال يحبها . ويستهيم بها ، وأنها تحبه حبًا يستعبدها ، ويملك عليها كل عاطفة من عواطف قلبها ، وإن قد حيل بينها وبينه إلى الأبد ، فقضت في مضجعها ليلة ليلاء ما يكاد يغرب لها نجم ، ولا يطلع لها فجر ، وما كان ليله بأقر من ليلها .

87 - من ماجدولين إلى سوزان

لم يبق بدّ من أن أعترف لك بكل شيء .

قد أصبحت أحب استيفن حبًا لم أضمر له مثله فيما مضى من أيام حياتي ، لأنه حب بلا أمل ولا رجاء .

لا ، بل أعتقد أنني ما سلوته يومًا من الأيام ولا نسيته ، وأنني كنت أخدع نفسي وأكذبها حينما ظننت أنني أستطيع أن أحيا بدونه ، أو أسكن إلى عشرة إنسان سواه .

إنه لا يزال يحبني ويستهيم بي ، ولا يزال يذكر ذلك الماضي كأنه لا يزال حاضرًا بين يديه ، وقد كنت أجهل ذلك منه ، ولا أرى له أثرًا في وجهه ، حتى جلست إليه منذ ليالي مجلسًا منفردًا فجرى بيني وبينه حديث ثارت فيه عواطف نفسه ثورة شديدة ، فبكى وتألم وغضب واحتدم ، فعلمت أنه لم ينس شيئًا وأنه إنما كان يكاتمني لواعج نفسه وآلامها ، ويطوي أحناء ضلوعه على مهجة تتحرق لوعة وأسى ، فرثيت له وبكيت لبكائه ،

وأكبرت فيه تلك العاطفة الشريفة عاطفة الولاء والإخلاص لامرأة قد غدرت به أقبح غدر ، وخانته أفظع خيانة ، وملأت عليه فضاء حياته بؤسًا وشقاء .

إنه لم يفكر في الزواج حتى الساعة ، ولم يفتح باب الطبقة العليا من منزله التي كان أعدها لسكنانا إلا مرة واحدة منذ ليالي ، وكان ذلك من أجلي ، ولا تزال غرفة العرس باقية على عهدها كما هي ، ولقد رأيتها فرأيت الغبار منتشرًا فوق سريرها ومقاعدها وأستارها فشعرت عند النظر إليها بما يشعر به الماثل أمام جدث بال قد ضمه إليه ، وطوى به بين تربه وأحجاره .

لقد خسرت يا سوزان كل شيء ؛ ولم يبق في يدي من جميع أماني وآمالي أمل واحد ، فقد ضاعت الثروة التي بعت سعادتي بها ، وتنغص علي الزواج الذي وضعت فيه جميع آمالي ، وخرج من يدي ذلك الرجل الذي أحببته أكثر من كل إنسان في العالم، والذي لا أستطيع أن أحب إنسانًا سواه ولا أعلم ماذا بقي لي في ضمير الدهر بعد ذلك من مخاوف وأهوال .

إنني أشعر بخوف شديد ترتعد له مفاصلي ، وأظن أن ساعة العقاب قد دنت ، ولقد أذنبت ذنبًا عظيمًا ، فلابد أن يكون عقابي عظيمًا .

88 – من ماجدولين إلى سوزان

قد حلت النكبة الكبرى ، فقد تركني إدوار وسافر إلى جهة لا أعرفها سوى ما يقول بعض الناس من أنه ركب البحر من هامبورج إلى أمريكا ، ولا أعلم أصدقًا ما يقولون أم كذبًا!

وكان استيفن أحسن الله إليه قد أصلح له بعض شأنه بعد نزول تلك النكبة به ، وبذل له من المعونة ما لا يبذله أخ لأخيه ، ولا حميم لحميمه ، ولكنه لم يثل من عثرته هذه حتى عاد إلى سيرته الأولى واندفع في المقامرة اندفاع المجنون فما هي إلا أيام قلائل حتى استدان نيفًا مائة ألف فرنك ولم يبق له بد من السقوط ، فبعت جميع جواهري وحلاي علني أستنقذه من سقطته فلم أصنع شيئًا ، ثم استيقظت صباح يوم من الأيام فذهبت إلى مخدعه فلم أجده ، فسألت عنه الخدم فأخبرني أحدهم أنه لمحه خارجًا في الغلس من باب القصر وبيده حقيبة سفر ، ولا يعلم أين ذهب ، ثم علمت بعد ذلك أنه باع القصر إلى أكبر غرمائه وأخذ بقية ثمنه وهرب وترك سائر الغرماء وشأنهم دون أن يوفيهم ديونهم ، فعرفت أنه ـ وقد فعل هذه الفعلة التي لا يقدم عليها رجل شريف ـ غير عائد من بعدها أبدًا ، ولم أر بدًا من أن أقوم عنه بوفاء بقية ديونه ضنًا بكرامته وإبقاء على شرفه ، فبعت في سبيل ذلك البيت الذي ورثته عن أبي في ولفباخ والمزرعة التي بجانبه ، وقد سألت عنه في كل مكان وسافرت للتفتيش عنه في كل جهة أعلم أن له شأنًا فيها أو صلة بها فلم أقف له على أثر ، ولا يعلم إلا الله كم ذرفت من الدموع وكابدت من الآلام منذ حلت تلك النكبة بي حتى اليوم ، ولقد أرسل إليّ بالأمس مالك القصر الجديد ينذرني بالخروج بعد شهر واحد ، ويلح في ذلك إلحاحًا شديدًا ، ولا أدري ماذا أصنع ولا أين أذهب ؟ فليس لي قريب آوي إليه ، ولا حبيب أرجو معونته ، ولا أملك ما أستعين به على قضاء ما قدر لي أن أقضيه في هذا العالم من أيام حياتي ،

وقد انقطع استيفن عن زيارة كوبلانس فأصبحت لا أراه ، ولا أسمع به ولا أعلم سبب انقطاعه ، ولقد حدثتني نفسي كثيرًا بالانتحار فحال بيني وبين ذلك أنني إن قتلت نفسي قتلت معي هذا الجنين المسكين الذي لا ذنب له ، وكثير على الأم أن تمد يدها لقتل ولدها ، فتعالي إليّ يا سوزان أو ائذني لي أن آتي إليك ، لا ، بل لابد من مجيئك إليّ ، لأنني لا أستطيع أن أحتمل مشقة هذا السفر البعيد وأنا في الشهر الأخير من حملي .

إني أنتظر كتابًا منك بعد أيام قلائل ، فلم يبق لي في العالم مَن أعتمد عليه أو أرجو معونته سواك .

89- من ماجدولين إلى سوزان

كنت أنتظر أن يأتيني منك كتاب بالأمس فلم يأتني ، فليت شعري ماذا حدث؟ أمريضة أنت؟ أم شغلك عني شأن عظيم لا يسمح لك بمراسلتي؟ اكتبي إليّ على كل حال ، فقد بلغت بي الشدة منتهاها ، وانقطع عني الناس جميعًا فلا أرى أحدًا من صواحبي ولا من أصدقاء زوجي .

الحياة مظلمة في عيني ولقد بكيت كثيرًا حتى جفت مدامعي وفكرة الانتحار تعاودني اليوم أكثر من ذي قبل ؛ فانظري في أمري يا سوزان واكتبي إليّ يا سوزان ، اكتبي إليّ أنك قادمة أو ائذني لي بالسفر إليك فإن لم يأتني منك كتاب غدًا ، فلا أعلم ماذا سيكون شأني بعد غد .

90- من فردريك إلى ماجدولين

أكتب إليك كتابي هذا وسوزان في اشد حالات مرضها وقد أمرني الطبيب أن أجنبها كل ما يؤثر في نفسها من سرور أو حزن ، وقد جنبتها كل شيء حتى الاطلاع على الرسائل التي ترد عليها من صواحبها ، وقد سهرت بالأمس ففضضت كتابك الأخير الذي أرسلته إليها عفوًا فألممت بطرف من الشدة التي تكابدينها فأسفت لذلك كثيرًا ، وهممت أن أطلعها على الرسالة أو أكتب إليك على غير علم منها بالحضور إلينا ، ولكنني أشفقت عليها أن يقتلها الحزن لمصابك ، أو الفرح برؤيتك فرجائي إليك أن تنتظري بحضورك بضعة أسابيع حتى أحتال للأمر أو تهدأ عن سوزان علتها ، والسلام عليك من صديقك الذي يرثي لك ويتألم لألمك .

91- الجزاء

قرأت ماجدولين ذلك الكتاب فرابها أمره ووقع في نفسها أن سوزان ليست بمريضة ولا عاجزة عن قراءة رسائلها كما يقول زوجها ، وإنها إنما تريد مدافعتها والتخلص منها ، فهالها الأمر وتعاظمها وظلت ساعة بين الشك واليقين حتى دخلت عليها فتاة من صواحبها وصواحب سوزان كانت تختلف إليها من حين إلى حين فسألتها ماجدولين متى كان آخر عهدهما برسائل سوزان؟ فقالت : قد جاءني منها كتاب بالأمس تهنئني فيه بعيد ميلادي وتقترح عليّ أن أسافر لأقضي عندها في «برلين» فصل الربيع ،

فكتبت إليها شاكرة لها تهنئتها ، وأستعفيها من السفر . فصمتت ماجدولين ولم تقل شيئًا حتى انصرفت الفتاة فقالت بينها وبين نفسها : لا عتب عليها فيما فعلت ، إنما هي الإرادة الإلهية تأبى إلا أن تجازيني غدرًا بغدر وكفرانًا بكفران .

92- الدموع الأخيرة

استيقظ سكان قرية ولفباخ في صباح أحد الأيام فإذا بهم يرون تلك الفتاة التي فارقتهم بالأمس وهي أنضر الفتيات وجهًا وأسعدهن حالاً ، قد عادت إليهم صفراء متضعضعة شاحبة اللون بالية الثوب ، تمشي مشية الذليل المهين ، وتقتلع قدميها في مسيرها اقتلاعًا . فعجبوا لأمرها ورثوا لها ، ولم تزل سائرة في طريقها حتى مرت أمام ذلك البيت الذي قضت فيه أيام طفولتها وصباها وسعدت فيه بالحب الشريف الطاهر أيامًا طوالاً حتى فارقته ففارقها هناء الحياة ورغدها . فخفق قلبها خفقة الألم والحزن ، ووقفت أمامه ساعة تقلب نظرها في جنباته وأنحائه ، فرأت السكون مخيمًا والوحشة سائدة ، فعلمت أنه لا يزال مهجورًا وكان باب الحديقة مفتوحًا فحدثتها نفسها بدخولها ، فدختلها وخطت فيه بضع خطوات ، فلمحت البستاني وزوجته جالسين إلى أصل شجرة من الأشجار العظام يطبخان طعامهما ، فمشت إليهما حتى صارت على كثب منهما ، فأنكراها إذ رأياها ثم عرفاها ، فانتفضا من مكانهما انتفاضًا ، ومشيا إليها فحيياها ،

ونظر الرجل إليها نظرة واجمة مكتئبة وقال لها : ما الذي طرأ عليك يا سيدتي؟ فأفضت إليه بجمل قصتها ، ثم قالت له : أريد أن أستأجر الغرفة العليا من المنزل لأقضي فيها شهرًا أو شهرين ، وربما لا أحتاج إليها أكثر من ذلك فاستأذن لي صاحب البيت في أمرها ، فاستعبر الرجل باكيًا وظل يعجب لتقلبات الأيام وتبدل صورها وألوانها ، ويندب ذلك الزمن الذي قضاه في خدمتها وخدمة أبيها ، وما هي إلا ساعة حتى أعد لها الغرفة التي أرادتها ، فصعدت إليها فوجدتها باقية على عهدها أيام كان استيفن يسكنها وذكرت ذلك اليوم الذي صعدت فيه إليها بعد سفره وأصلحت من شأنها وبللت تربتها بدموعها حزنًا على فراقه ، وظلت تقول في نفسها : قد كنت أبكي قبل اليوم على فراقه ، أما اليوم فقد أصبح ذلك الفراق قطيعة دائمة ولا واصل لها ، فمن لي بدموع تعينني عليها؟ وخلت بنفسها تتذكر أيامها وهمومها وأشجانها ، وتذرف آخر ما أبقى لها الدهر في أجفانها من دموع ومَن هو أولى بالبكاء والهم منها وقد ضربها الدهر بجميع ضرباته وتنكر لها كل وجه من وجوه الحياة ، فهجرها زوجها وخانتها صديقتها ، ونقم عليها الرجل الذي تحبه ، وفقدت الثروة التي بذلت في سبيلها سعادتها ، وأصبحت لا تستطيع أن تطلب الراحة من طريق الموت ، لأنها لا تستطيع أن تقتل ولدها ولا أن تجدها في الحياة لأنها لا تملك ما تستعين به على عيشها ، وما هي إلا أيام قلائل حتى جاءها المخاض

فلم يحضر غير زوجة البستاني وعجوز من جاراتها القديمات فولدت طفلة جميلة لم تبتسم عند رؤيتها إلا لحظة واحدة ، ثم أخذت تبكيها بكاء الثاكل وحيدها ساعة موته ، وما كادت تنهض من نفاسها حتى جاءها الخبر بأن إدوار قد انتحر شنقًا في فندق من فنادق «شيكاغو» كان ينزل فيه منذ سافر إلى أمريكا ، على أثر ليلة قضاها في المقامرة وخسر فيها كل ما كان بيده من المال ، فسقطت عند سماع الخبر مغميًا عليها وهي تقول : «وا يتم ولداه! » .

ثم استفاقت بعد حين فإذا هي تمثال صامت ، جامد ، لا تنطق ولا تبكي ولا تشكو ولا تتألم ، ولا تضم طفلتها إلى صدرها إلا إذا أزعجها بكاؤها ، ولا تطلب الطعام في غداة ولا عشي ، ولا تتناول منه حين يقدم إليها إلا المضغة أو المضغتين ، ثم ترفع يدها عنه ، وتمر بها الساعات الطوال وهي ذاهبة ببصرها في السماء لا يعلم إلا الله أين تذهب ، ولا أين تتغلغل نفسها في ظلمات هذا الوجود ، فإذا ثابت نفسها إليها سألت البستاني هل أتاها كتاب ، أو سأل عنها أحد؟ فيجيبها أن : لا ، فتعود إلى صمتها وذهولها .

93- قلب استيفن

أصبح استيفن بعد انتقاض جرح قلبه عليه في تلك الليلة التي حادث فيها ماجدولين ثائرًا مهتاجًا ، ولا يهدأ ولا يستريح ، ولا يسكن إلى نوم ولا يقظة ، ولا يهنأ باجتماع ولا خلوة فبدا له أن يسافر إلى بعض مقاطعات الشمال ليروح عن نفسه همومها وآلامها ، فسافر سفرة طويلة زار فيها كثيرًا من المدن واجتمع بكثير من علماء الموسيقى والمغنيين

وكتاب الروايات الغنائية الذين سمعوا به ولم يروه ، فاحتفلوا به احتفالاً عظيمًا وأجملوا مودته وعشرته ، ونظم في تلك السفرة بعض القطع الشعرية الجميلة ولحنها ولحن كثيرًا من أغاني الروايات التمثيلية التي لا تزال خالدة حتى اليوم ، فازداد صيته انتشارًا ، وبلغ من العظمة أوجها الأعلى وأجمع الذين سمعوا غناءه أو توقيعه أن سماء ألمانيا لم تطلع فيها منذ مات «بتهوفن» شمس مثل شمسه ، ولا أشرق فيها نجم أسطع من أنجمه ، وظل في حياته هذه بضعة أشهر حتى ورد إليه في أحد الأيام كتاب من أحد أصدقائه في كوبلانس يخبره فيه خبر إدوار ، ويقص عليه قصة سفره وانتحاره ، فحزن عليه وعلى مصيره حزنًا شديدًا وبكاه بكاء الوفي الكريم الذي لا يأبى أن ينسى في موقف الموت كل شأن من شئون الحياة ، ولم يذكر له في تلك الساعة من ماضيه إلا شيئًا واحدًا فقط ، وهو أنه كان صديقه ورفيق طفولته وصباه ، وأنيس وحدته في أيام بؤسه وشقائه لا يزيد على ذلك شيئًا ، ورأى أن لابد له من العودة ليرى ما حل بماجدولين بعد نزول تلك النكبة بها ، وليمد إليها يد معونته في بأسائها التي صارت إليها ، فسافر إلى كوبلانس فقضى فيها ليلة ، ثم ذهب إلى جوتنج وظل يتسقط أخبارها حتى عرف عنها كل شيء ، وعلم أنها تعيش مع طفلتها عيش البؤس والشقاء في الغرفة العليا التي كان يسكنها من بيتها الأول فنسى في تلك الساعة موجدته عليها ، واستحال غضبه ونقمته إلى رحمة وشفقة ، فركب عجلته في الصباح وسافر إلى ولفباخ حتى بلغها ضحوة النهار ، فأخذ في طريقه إلى بيت الشيخ مولر

حتى بلغه ، فسأل البستاني عنها فقص عليه مجمل قصتها ، ووصف له حياتها الغريبة التي تحياها منذ عادت إلى القرية ، وذكر له صمتها وسكونها ، وذهولها واستغراقها ، واستبداد الهم بها استبدادًا يكاد يقتلها ، ويأتي على حياتها فقال له : استأذن لي عليها فإني أحب أن أراها ، قال : إنها تقضي أكثر أوقاتها جالسة على ذلك المقعد الذي كنتما تجلسان عليه معًا في أيامكما الماضية ، وقد تركتها الساعة هناك ، فاذهب إليها إذا شئت ؛ فمشي إليها حتى رآها جالسة على الهيئة التي وصفها الرجل فلم تشعر به حتى صار أمامها فانتفضت إذ رأته انتفاضة تزايلت لها أعضاؤها ، وتساقطت فيها نفسها ، فلم تستطع النهوض من مكانها ، وارتج عليها فلم تنطق بحرف واحد ، فجلس بجانبها وقلبه يذوب حسرة وأسى ، وأخذ يعزيها عن نكبتها ؛ ويتوجع لما حل بها ويعظها بالصبر على مصابها ، فثابت إليها نفسها شيئًا فشيئًا ، ونظرت إليه نظرة منكسرة وقالت له : قد كنت أحتمل هذه النكبات كلها بصبر وجلد لو أنك عفوت عني يا استيفن .

فأطرق مليًا ، ثم رفع رأسه إليها وقال لها : أما العفو فإني لا أستطيعه لأنني لا أستطيع أن أنسى ، فاصفر وجهها اصفرارًا شديدًا ؛ وشعرت أن روحها تتسرب من بين جنبيها قطرة قطرة ونظرت إليه بعينين تترقرق في إنسانيهما الدمع وقالت له : ألا يذكرك يا استيفن هذا المكان الذي نجلس فيه بشيء من ماضينا؟ قال لا يذكرني إلا بشيء واحد ، وهو أني شهدت فيه ذلك المشهد الذي فجعني في جميع أماني وآمالي ، وقتل قلبي قتلة لم أحيا من بعدها حتى اليوم ، قالت إنك تقسو عليّ كثيرًا يا استيفن ، ولو شئت لرحمتني وأشفقت عليّ .

فنظر إليها نظرة شديدة ، وقد تمثلت أمام عينيه جميع آلامه الماضية دفعة واحدة وقال لها : ذلك شأن المرأة في كل زمان ، وفي كل مكان ، تزعم أنها ضعيفة واهنة ، وأن الرجل قوي مقتدر ، فهي تسأله عن كل شيء ، ولا تسأل نفسها عن شيء ، ألم تكوني قاسية عليّ يوم تركتني في هذا المكان وحدي منذ خمسة أعوام أقاسي أعظم ما قاسى امرؤ في حياته من الهموم والآلام ، وأخذت بيد خطيبك على مشهد مني ومرأى وذهبت به إلى غرفتك دون أن تلتفتي إليّ التفاتة واحدة لتري ما حل بي من بعدك ، وهل أنا باق على قيد الحياة أم ذهبت النكبة بما بقي من رمقي؟ ألم تكوني قاسية عليّ أيام أرسلت إليك تلك الرسائل التي ضرعت إليك فيها ضراعة لا تحتملها نفس من نفوس البشر فأغفلتها وأهملتها ، ولم تعبئي بدموعي الغزار التي سكبتها فيها ، ولم تكتبي إليّ إلا كلمة واحدة بعد حين قطعت بها آخر خيط كان في يدي من خيوط الرجاء ؟

إنني لا أزال أذكر حتى الساعة أنك سألتني في تلك الرسالة أن أتناسى ذلك الماضي ؛ وأن تحل الصداقة بيننا محل الحب ، فها أنذا قد جئت إليك باسم الصداقة التي تواثقنا عليها منذ ذلك العهد أتفقدك وأتعهد شأنك وأهيئ لك حياة هنيئة تحيينها مع طفلتك في أي مكان تشائين آمنة غدرات الدهر ونكباته ما مد الله في أجلي ، فاستعبرت باكية ومدت يدها إليه ضارعة وقالت : أهذا كل ما بقي لي في قلبك يا استيفن؟ فهاجت وجده مدامعها ، وابنعثت من مكانها في لحظة واحدة جميع عواطف قلبه المختلفة ، وظلت تتداول نفسه واحدة بعد أخرى ، فذكر حبه إياها وحاجته إليها ،

وأنه لا يستطيع أن يعيش سعيدًا في الحياة بدونها ، ثم ذكر خيانتها وغدرها ، وقسوتها عليه ، وزرايتها به وبآلامه ودموعه ، فمحت عاطفة الغضب من نفسه عاطفة الحب ، ولكنه ما لبث أن رأى دموعها المنهمرة على خديها ، ومنظر بؤسها وشقائها ، ويديها الممدودتين بالضراعة إليه ، حتى عاد إلى عطفه وإشفاقه ، وحدثته نفسه أن يأخذها بين ذراعيه ، ويضمها إلى صدره ، ويقول لها : قد نسيت كل شيء يا ماجدولين فتعالي إليّ فإنني لا أستطيع أن أعيش سعيدًا في الحياة بدونك . ثم مرت بخاطره مرور البرق تلك الساعة التي وقف فيها على باب غرفتها ليلة عرسها وسمعها تلقي بنفسها بي ذراعي زوجها وتقبله وتستقبل قبلاته ، فثارت في نفسه عاطفة العزة والأنفة التي لم تفارقه في يوم واحد من أيام حياته وقال في نفسه : إنني لا أمد يدي إلى فضلات الرجال ، ولا ألبس أكفان الموتى .

وكذلك ظل يتقلب ساعة بين أيدي هذه العواطف المختلفة ، وهو صامت مذهول ، وماجدولين ناظرة إلى شفتيه نظرة المتهم إلى شفتي قاضيه تنتظر تلك الكلمة التي تفصل في أمرها ، فترفعها إلى سماء السعادة التي لا سماء فوقها ، أو تهوي بها في مهواة الشقاء التي لا قرار لها ، ثم مدت يدها إلى يده فأخذتها برفق وضمتها إلى صدرها وأنشأت تقبلها ، وتبللها بدموعها ، فتناسى في تلك الساعة كل شيء ، وحنا عليها وأهوى بفمه إلى فمها ، حتى إذا لم يبق بين تلامس شفتيهما إلا ممر الهواء بينهما إذ سمعها تقول له وهي ترتعد بين يديه «أنت حياتي التي لا حياة لي بدونها» وهي بعينها الكلمة التي سمعها منها منذ خمسة أعوام وهي

تقولها لزوجها ليلة زفافها في غرفة عرسها ، فما رنت في أذنه حتى وثب على قدميه وثبة الهائج المختبل ، وانتزع يده من يدها ، ودفعها عنه دفعًا شديدًا ، فسقطت تحت المقعد ، وقال لها بصوت شديد قارع : لم يبق لك في قلبي شيء أيتها السيدة منذ ذلك اليوم الذي وضع الكاهن فيه يده على رأسك ورأس زوجك وبارككما ودقت على أثر ذلك أجراس الكنيسة مؤذنة بانقضاء كل شيء .

ثم تركها مكانها ومشى خافض الطرف ، مطأطئ الرأس ، حتى وصل إلى باب الحديقة فرأى البستاني واقفًا في مكانه فأخرج من جيبه كتابًا مختومًا وقال له : اعط هذا لماجدولين ، ثم ركب عجلته وذهب في سبيله .

فمشى البستاني إليها فرآها ساقطة تحت المقعد تعالج سكرة كسكرة الموت فما زال حتى رجعت إليها نفسها ، فأعطاها الكتاب فأخذته من يده صامتة ، وصعدت إلى غرفتها وقد لبس وجهها ذلك اللون الذي يغشى وجوه المنذرين بالموت ، فقضت ليلتها ساهرة بجانب مصباحها ، تكتب مرة ، وتذرف دموعها أخرى ، وتضم طفلتها إلى صدرها فيما بين ذلك ، حتى انصدع عمود الصباح .

94- الكارثة

قال فرتز لزوجته والشمس تشرف على الدنيا من وراء خدرها والكون يمسح عن عينيه سنة الكرى : أما أنا فإني باق هنا لأني أريد أن أصطاد لاستيفن نوعًا من السمك قال لي صباح أمس إنه يحب أن يكون على مائدته اليوم ، واذهبي أنت إليه ،

وانتظريه حتى يستيقظ ، ولا تأخذي معك من الأولاد غير طفلك الرضيع ، وأغلب ظني أنه لا يستيقظ من نومه إلا متأخرًا ، فقد عام أمس من تلك السفرة التي سافرها إلى ولفباخ حزينًا مكتئبًا كثير الهم والشجن ، فسألته عن شأنه فلم يخبرني بشيء ، فجلست إليه أحدثه أحاديث مختلفة رجوت أن أسري بها عن نفسه ، فلم يصغ إليّ ، حتى انتصف الليل ، فآذنني بالذهاب إلى منزلي ، فتركته وهو يعالج النوم فلا يجد سبيلاً إليه . قالت : مسكين هذا الرجل ، ما أحسب أن أحدًا شقي في هذه الحياة شقاءه ، أو لاقى فيها ما لاقاه ، والناس يحسبونه سعيدًا مغتبطًا ، ويحسدونه على نعمته وهنائه قال : نعم لقد فتك ذلك الغرام القديم بنفسه فتكة لا أحسب أنه بارئ منها أبد الدهر ، فوارحمتاه له ، ووا أسفاه عليه ، اذهبي إليه يا جوزفين وانتظري يقظته ، واحذري أن يزعجه بكاء طفلك ، وربما لحقت بك بعد قليل ، فذهبت حاملة طفلها على يدها حتى دنت من باب الحديقة فمرت على مقربة منها مرور البرق امرأة مقنعة في أخلاق رثة مشعثة ، تسرع في مشيتها وتتعثر في ذيلها ، فعجبت لأمرها ولكنها لم تحفل بها ودخلت الحديقة فراعها أن رأت بين يديها في دهليز الباب سفطًا صغيرًا كأن فيه شيئًا يضطرب ، فدنت منه فرأت طفلاً رضيعًا ملففًا بثيابه يمتص ثديًا صناعية موضوعة بجانبه ، فذكرت تلك المرأة التي رأتها منذ لحظة تسرع في مشيتها كالخائفة المذعورة ، وقالت في نفسها إنه طفلها ما من ذلك بد قد أثمت فيه وحاولت التخلص من عاره فألقته هنا ، وهتفت بالبستاني وكان يعمل في ناحية أخرى من الحديقة فلباها ، فسألته عن السفط ، فدهش إذ رآه وقال : إنه لم يره إلا الساعة ،

فلم تر أن تصنع شيئًا دون أن ترى رأي استيفن ، فذهبت إلى مخدعه وأشرفت عليه فرأته مستيقظًا في فراشه ، فدعاها حين رآها ، فدخلت إليه وقالت له : قد كنت أظن أنك لا تستيقظ اليوم إلا ضحوة النهار ، قال إني لم أنم حتى الساعة ، فقصت عليه قصة السفط وخبرته خبر المرأة المقنعة التي رأتها ووصفت له حالتها في اضطرابها وتخيلها فداخله ريب عظيم ، ونفض غطاءه عنه نفضًا وخرج مسرعًا في مباذله حتى بلغ مكان السفط فرآه ورأى الطفل في مضجعه منه ، ورأى بجانبه هنة بيضاء فتأملها فإذا كتاب مختوم ، فأخذه وقرأ في عنوانه «من ماجدولين إلى استيفن» ففضه بسرعة وأمرّ نظره عليه إمرارًا فلمح بين سطوره كلمة «الموت» فصرخ في وجه جوزفين : أين ذهبت تلك المرأة التي حدثتني عنها؟ قالت : ذهبت في هذا الطريق ، وأشارت إلى طريق النهر! فصرخ صرخة عظمى وقال : إنها ماجدولين ، وإنها قد ذهبت إلى الموت ، وألقى الكتاب من يده ، وعدا عدوًا شديدًا حتى أشرف على النهر فرأى خلقًا كثيرًا مجتمعين على ضفته وكلهم يشير إلى الماء بأصبعه ، فنظر حيث يشيرون فرأى الغريقة تضطرب في أيدي الأمواج ، وتمد يدها ناحية الضفة كالمستغيثة ، وكانت الزوبعة ثائرة ، والريح تعصف من كل جانب ، ورأى صديقه فرتز يحتث زورقه إليها لإنقاذها ، فأخذ يهتف ويقول : أدركها يا فرتز ، أنقذها يا صديقي ، إنها ماجدولين ، ثم نضا ثوبه عنه وهم بإلقاء نفسه في الماء ، فأشفق عليه الناس أن يصيبه مكروه فاعترضوا سبيله ، فدفعهم عنه دفعًا شديدًا ، واقتحم النهر وظل يسبح وراء الزورق ،

والموج يدنو منه مرة ، وينأى به أخرى حتى بلغه بعد لأي فتشبث به ، وكان الزورق قد دنا من مكان الغريقة والغريقة تطفو وترسب ، ويتموج شعرها على سطح الماء مرة بعد أخرى .

في هذه الساعة ، والقلوب خافقة ، والنفوس ذاهلة ، والناس يهتفون بالدعاء مرة ويصرخون صرخات الفزع أخرى ، ثارت موجة هائلة حول مكان الغريقة كالطود الشامخ ، ولبثت لحظة تعج وتصطخب ، فصاح الناس بصوت واحد : رحمتك اللهم وإحسانك ، ثم انحسرت فإذا سطح الماء أملس منبسط ، وإذا الغريقة لا عين ولا أثر .

وما رأى استيفن هذا المنظر حتى جن جنونه ، وألقى بنفسه في الماء ، وغاص حيث غاصت فاندفع فرتز وراءه ، وهبط مهبطه ، وما زالا يرسبان مرة ، ويطفوان أخرى ، ويصارعان في هبوطهما وصعودهما جبابرة الأمواج صراعًا شديدًا ، ثم انفرج الماء عنهما ، فإذا هما صاعدان يحملان الغريقة فوق أيديهما ، ولا يعلمان أحية هي أم ميتة؟ وما زالا يسبحان حتى بلغا الضفة فطرحوها ، وأكب الناس عليها يتسمعون ضربات قلبها ، ويتلمسون أنفاسها ، واستيفن واقف ناحية يشخص ببصره إليها وينتظر قضاء الله فيها ، ثم انتبه فإذا القوم جاثون من حولها ، وقد رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم ، وأخذوا يهمهمون بصلواتهم فعلم أن الأمر قد انقضى ، فسكن للحادث سكونًا عميقًا لا تتخلله زفرة ولا أنة ، وجثا بجانب الجاثين يصلي بصلاتهم ، ويدعو بدعائهم ، فأبكى منظره الناس جميعًا ،

وهالهم من سكونه وجموده فوق ما كان يهولهم من جزعه وبكائه ، ثم أخذوا ينصرفون واحدًا بعد آخر ، حتى إذا لم يبق منهم أحد نهض استيفن من مكانه ومشى إلى الجثة فاحتملها على يديه وسار بها إلى المنزل ، وفرتز يتبعه صامتًا . فصعد إلى الطبقة العليا ودخل إلى تلك الغرفة الزرقاء فأضجعها على ذلك السرير الذي كان بالأمس سرير عرسها ، فأصبح اليوم لحدها الأخير .

وجثا على درجات السرير جثي العابد على درجات الهيكل ، وظل على حاله تلك بضع ساعات لا يطرف ولا يتحرك ، حتى حلت ساعة الدفن فنهض من مكانه وأكب على الجثة وكشف الغطاء عن وجهها ، وتناول من فمها تلك القبلة التي كانت تحرمها عليها الحياة ، حتى أحلها له الموت ، ثم سقط مغشيًا عليه .

95- من ماجدولين إلى استيفن

ماذا أصنع بالمال من بعدك يا استيفن ، بل ماذا أصنع بالحياة جميعها بعدما فقدتك ، وانقطعت أسباب دنياي من أسباب دنياك .

كنت أرجو أن أعيش لك ، وأن أقدم إليك في مستقبل حياتك هناء أفضل من الهناء الذي كنت ترجوه في ماضيك ، لأكفر بذلك عن سيئتي التي أسلفتها إليك ، فحلت بيني وبين ذلك ، لأنك كنت واجدًا عليّ ، وكنت ترى ألا بد لك من الانتقام لنفسك ، فقضيت بذلك عليّ وعلى نفسك في آن واحد ، لأني أعلم أنك تحبني ، وأنك لا تستطيع أن تهنأ بالحياة من بعدي .

كنت أشعر أن بين جنبي ثروة من الحب تملأ فضاء حياتك هناء ورغدًا ، وكنت أرى أن في استطاعتي أن أمنحك في كل ساعة من ساعات حياتك من السعادة ما لا تستطيع امرأة في العالم أن تمنحه رجلاً في الكثير من الأعوام ، ولم أكن أرجو على ذلك أجرًا سوى أن أراك سعيدًا بين يدي ، وأن أعيش بجانبك عيش النبتة الضعيفة بجانب الدوحة العظيمة يفيء عليها ظلها ، ويترقرق عليها نسيمها .

لِـمَ لم تعف عني يا استيفن؟ ووالله ما أحببت أحدًا في الحياة غيرك ، ولا سكنت نفسي إلى عشرة إنسان سواك ، ولم يستطع الرجل الذي نقمت مني زواجي منه ، وحاسبتني عليه حسابًا شديدًا أن ينتقص ذرة واحدة من ذلك الحب الذي أضمرته لك في قلبي مذ عرفتك ، فلو أنك أغضيت عن هفوتي ، وأذنت لحلمك أن يسع جهلي ، لوجدت بين يديك فتاة عذراء بقلبها وعواطفها لم تمسسها يد ، ولا عبث بفؤادها عابث ، ولا فرق بينها وبين تلك الفتاة القروية الساذجة التي أحببتها في ولفباخ حبًا جمًا ، وعاهدتها على المحبة والولاء .

كانت الكأس مترعة بين أيدينا ، وكان منظرها جميلاً رائقًا تأخذه العين ، ويهفو له القلب ، وكان جديرًا بنا أن نتساقاها قطرة قطرة حتى نأتي على القطرة الأخيرة منها ثم نموت معًا سعيدين بنشوتها كما عشنا سعيدين بتساقيها ، ولكنك كنت شقيًا سيء الحظ فدفعتها عنك بقدمك دفعًا شديدًا فكسرتها ، وأرقت ما فيها ، فأصبحنا لا نجد لذة الحياة إذا عشنا ، ولا نهنأ بضجعة الموت إذا متنا .

لِـمَ لم تعف عني يا استيفن؟ وقد عاقبني الدهر بذنبك عقابًا أليمًا ، وأخذ لك مني فوق ما تستطيع أن تأخذ لنفسك بنفسك ، فسلبني الثروة التي فتنتني عنك ، والزوج الذي مالأته على الغدر بك ، والهناء من الحب التي كانت تلسع في قلبي فتضيء ظلمته إلى نار آكلة تحرقه وتضطرم في أنحائه ، وتتغلغل في أعماقه وأطوائه ، ولم يترك في موضعًا واحدًا يسع عقوبتك وانتقامك .

أتدري يا استيفن من هي تلك المرأة التي جلست إليها بالأمس تقرعها وتؤنبها ، وتعد عليها ذنوبها وآثامها ، وتتلذذ بمنظر ذلها وضراعتها؟

إنها لم تكن إلا شبحًا من الأشباح الضئيلة المتهافتة ، قد ذهب الدهر بجميع قواها ، وضعضع جميع حواسها ومشاعرها ، ولم يترك لها من آثار الحياة إلا عينًا تنظر ولا ترى ، وأذنًا تسمع ولا تعي ، ونفسًا ذاهلة عن كل شيء حتى عن نفسها ، وروحًا تتسرب من بين جنبيها شيئًا فشيئًا ذاهبة في سبيلها .

تلك هي المرأة التي قسوت عليها ، ولم ترحم بؤسها وضعفها فمددت إليها يدك القوية القادرة وطعنتها ، وهي جريحة مثخنة تلك الطعنة النجلاء التي نفذت إلى قلبها ، وقضت عليها القضاء الأخير .

قد غفرت لك كل شيء يا استيفن ، لأني أحبك ، ولأني أعلم أنك ما قسوت عليّ هذه القسوة كلها إلا لأنك تحبني ، فامنحني عفوك ومغفرتك وأنزلني من نفسك المنزلة التي كنت أنزلها من قبل : والتي أبذل اليوم حياتي في سبيلها ، فإن كنت لابدّ آخذًا الموتى بذنوبهم فلا تأخذ بذنبي تلك الطفلة اليتيمة المسكينة التي لا سند لها ولا عضد ، فهي وإن كانت ابنة المرأة التي خانتك ، فهي ابنة المرأة التي أحبتك ، وإني أعيذها بكرمك وفضلك أن تذوق طعم الشقاء على عهدك ، أو أن تحل بها كارثة من كوارث الدهر بين سمعك وبصرك .

أطعمها وتصدق عليها ، فطالما أحسنت إلى أبويها من قبلها ، واجعل لها من صدرك الرحيم ملجأ تجد فيه حنان الأم ، ورعاية الأب ، ولا تكلها إلى نفسها تصارع أهوال الحياة وآلامها فتصرعها وتول بنفسك أمرها في الساعة التي تجتاز فيها تلك العقبة الكبرى من عقبات الحياة حتى لا تسقط سقطة تشقى بها أبد الدهر ، واذكر لها دائمًا أن أمها كانت تحبها حبًا جمًا ، وأنها ما آثرت الموت على الحياة إلا لأنها عجزت عن أن تعيش بجانبها ، ولأنها كانت شقية مرزأة فأشفقت عليها أن يطيش إليها سهم من سهام شقائها .

الوداع يا استيفن ، الوداع يا أحب الناس إليّ . إنني أفارق هذه الحياة وأنت آخر من أفكر فيه ، وكل ما آسف عليه ، فاذكرني ولا تنسني ، وتعهد بالزيارة قبري من حين إلى حين ، إن كان مقدرًا لي أن يكون لي قبر على ظهر الأرض ، واحتفظ بالوديعة التي أودعتك إياها فهي تذكاري الدائم المقيم عندك ، وليهون عليك فقدي أن روحي قد امتزجت بروحك امتزاجًا لا يغيره فناء ولا بلى ، فلئن فرقت بيننا الأقدار في هذه الدار فسنلتقي في الدار الأخرى لقاء لا ينغصه علينا موت ولا فراق .

الوداع يا استيفن ، وآخر كلمة أقولها لك في آخر ساعة من ساعات حياتي :«إنني أحبك ، وإنني أموت من أجلك» .

96- المقبرة

استطاع استيفن أن يستفيق من غشيته في أصيل اليوم الثاني ، ففتح عينيه ودار بهما حوله فرأى فرتز وزوجته وأولاده جلوسًا تحت قدميه يبكونه ويتوجعون له ، فظل شاخصًا ببصره هنيهة ، ثم التفت إلى فرتز وألقى عليه نظرة طويلة وقال له : هل دفنتموها؟ فأطرق فرتز واجمًا وقال بصوت خافت : نعم يا سيدي منذ الأمس ، قال : وأين طفلتها ؟ قال : قد كفلتها جوزفين ، وهي تتولى إرضاعها مع طفلتها . قال : وأين ذلك الكتاب؟ قال : ها هو ذا يا سيدي ، وأعطاه إياه ، فأمره بالانصراف إلى منزله ، فانصرف هو وأسرته ، فلما خلا استيفن بنفسه أخذ يقرأ الكتاب ونفسه تتطاير لوعة وأسى ، حتى فرغ منه ، فبكى ما شاء الله أن يفعل ، ثم أخذته كظمة شديدة فذهل عن نفسه وظل مستغرقًا في ذهوله بضع ساعات حتى انتصف الليل ، فثار من مكانه بغتة ، وكأنه طاف بعقله طائف من الجنون ، وخرج إلى الحديقة فمشى في أنحائها يستمع فلم يشعر بحركة ورأى البستاني نائمًا في غرفته ورأى فأسه على بابها فتناولها وفتح باب الحديقة بهدوء وخرج ، فلما استقبل الفضاء أخذ سمته إلى المقبرة حتى بلغها ، وكان الجو مكفهرًا والريح عاصفة والسحب تحجب وجه القمر ولا تنحسر عنه إلا حينًا بعد حين ، ثم لا تلبث أن تعود إلى تراكمها وتكاثفها ،

وكان يحيط بالمقبرة من جهاتها الثلاث سور متهدم كثير الثغرات والفجوات ، ويمتد مع جهتها الرابعة نهر جوتنج ، وقد قامت على ضفته أشجار عالية غُبْيٌ تعصف الريح بفروعها وأوراقها عصفًا شديدًا فيتألف من حفيفها وخرير ماء النهر الجاري بجانبها صوت غليظ أجش يملأ القلوب روعة ورهبة ، فلم يزل استيفن سائرًا في طريقه حتى لاحت له رؤوس تلك الأشجار ، وسمع حفيف أوراقها ، وخرير المياه المتدفقة من تحتها ؛ فخيل إليه أنها أشباح سود من الجن تتقدم نحوه في جوف الليل راقصة مترنحة ، وتدمدم بأصواتها المخيفة المريعة ، فمشت في جسمه رعدة الخوف إلا أنها لم تمنعه من المضى في وجهه فاستمر في سبيله حتى دخل المقبرة ، وكان القمر يظهر حينًا فيرشده إلى الطريق ، ثم لا يلبث أن يتوارى في في غمار السحب فيقف عن المسير ، فإذا تراءى له رأى على ضوئه نواويس الموتى ، وقد جفت فوق تربتها تلك الأشجار القصيرة التي أغفل غارسوها أمرها بعد أن بلي في قلوبهم حزنهم على موتاهم ، ولم يزل يتصفح أوجه القبور حتى رأى بين يديه قبرًا حديثًا لا تزال تربته مخضلة فأكب عليه يتصفح جوانبه فقرأ على أحدها على شعاع ضعيف بعثه إليه القمر في تلك الساعة اسم ماجدولين ، فجثا على ركبتيه وهمهم بصلاة قصيرة ، ثم نهض قائمًا على قدميه وتناول الفأس التي أتى بها معه وضرب الأرض ضربة شديدة ؛ فلم يسمع لضربته صوتًا لشدة عصف الرياح وزفيفها في تلك اللحظة ، ثم أخذ يحفر حتى ضرب ضربة أخرى رنت رنينًا شديدًا ملأ أرجاء المقبرة . فاقشعر بدنه ، وبرد دمه في عروقه ،

وسقط على ركبتيه ، وسقطت الفأس من يده ، لأن الضربة كانت قد أصابت التابوت الذي يحوي الجثة ، فخيل إليه أنها أصابت جمجمة الميت ، وكان القمر قد برز من وراء غمامته في تلك الساعة وأضاء المقبرة كلها ، فتمثل له أن القبور ، قد تفتحت جميعها ، وأن الموتى قد أخرجوا رؤوسهم منها ، وأخذوا ينظرون إليه بعيون ملتهبة متوقدة ، فطار من رأسه ما بقى فيه من الصواب وترك الفأس مكانها ، وركض ركضًا شديدًا ، وهو يتخيل أن الموتى يتأثرونه ويركضون وراءه حتى وصل إلى المنزل متطرحًا من الكلال ، وهو يصيح « ما كفاني أن قتلتها حتى مثلت بها » وسمع البستاني صيحته فاستيقظ وذهب إليه فرآه على تلك الحالة ، فقال له : ما بك يا سيدي ؟ فهدأ قليلاً عندما رآه ، ونهض من مكانه وقال له : اتبعني ، فتبعه الرجل صامتًا لا يعلم أين يريد ، حتى بلغ المقبرة ، وكان القمر لا يزال مشرقًا في جنباتها فمشى إلى ذلك القبر فانحنى عليه ، فرأى أثر الفأس في التابوت ، ولم ير شيئًا مما كان تخيله ، فسكن وهدأ ، وعلم أنه إنما كان في ثورة من ثورات الجنون ، فأمر الرجل أن يعيد التراب إلى ما كان عليه ، فأعاده ، ثم أمره أن يأخذ فأسه ويعود إلى المنزل ففعل ، وجثا هو بجانب القبر يلثم تربته وأثره ، ويلصق خديه بصفائحه وأحجاره ، ويبكي بكاء شديدًا حتى اشتفت نفسه ، ثم انصرف لسبيله ، وهو يقول : قد كنت أرجو أن أدفن بجانبك يا ماجدولين فلم أوفق إلى ذلك وأحسب أن ذلك مني غير بعيد .

وأصبح منذ ذلك اليوم خائر النفس ، مقبض الصدر ، كئيبًا مستوحشًا ، ينظر إلى الحياة وما فيها نظر الغريب النازل بدار لم يطرقها من قبل ، ولم يأنس بالمقام فيها ، فهو يعد عدته للرحيل عنها ، ثم مازال يلج به الأمر حتى أصبح يستوحش من الناس ، ويتبرم بمرآهم ، ويستنكر سماع أصواتهم ، فانقطع عن الاختلاف إلى ما كان يختلف إليه من أصدقائه ومعارفه ، وأبى أن يقابل أحدًا من زائريه ، وأمسى لا يفارق خياله في نومه ويقظته وذهابه ، وجيئته منظر ماجدولين ، وهي تغرق في النهر ، وغدائرها الذهبية الصفر طافية على وجه الماء ، ويداها تتحركان حركات الاستغاثة فلا تجد مغيثًا ولا معينًا ، فكان يجد في نفسه لتلك الذكرى ألمًا ممضًا يقيمه ويقعده ويذهب براحته وسكونه ، فيصرخ كلما تراءى له ذلك الخيال : نعم أنا الذي قتلتها ، وانتزعت حياتها من بين جنبيها ، وفرقت بينها وبين فلذة كبدها ، فويل لي ، ما أشقاني ! وما أسوأ حظي ! لقد كتب لي أن أقتل بيدي جميع الذين يحبونني على ظهر الأرض ، وأن أبقى من بعدهم شقيًا معذبًا أبكيهم وأنبدهم ، لا أستطيع أن أنساهم ، ولا يقيض لي أن ألحق بهم .

ولقد استيقظ صباح يوم من الأيام ضيق الصدر ، كثير الضجر ، فخرج من المنزل هائمًا على وجهه ومشى في طريق ممهدة بين المزارع لا يدري أين يذهب ، ولا أي غاية يريد ، واستمر به المسير بضع ساعات فإذا هو أمام قرية ولفباخ فهاجت في نفسه تلك الذكرى الماضية ، ومشى إلى بيت الشيخ « مولر » فراعه وأدهشه أنه لم ير أثرًا لذلك البيت ،

ولا لتلك الحديقة ، فلا غرف ولا قيعان ، ولا سقوف ولا جدران ولا أشجار ولا أغراس ، بل رأى أنقاضًا مبعثرة ، وجذوعًا متناثرة ، وأحجارًا ذاهبة ههنا ههنا ، فعلم أن مالك البيت الجديد قد هدمه ، وانتزع أشجار حديقته وأغراسها ، فأحزنه المنظر وآلمه ، ووقف أمامه مطرقًا خاشعًا وقوف العابد أمام محرابه ، وللبلى والدروس جلال في النفس فوق جلال الجدة والعمران ، وظل على ذلك ساعة ، ثم أخذ يدور بعينيه في تلك العرصات الخالية ويتلمس أثرًا من آثار تلك المعالم التي قضى فيها أيام سعادته الأولى ، كما يتلمس الساري في ظلمة الليل نجمة القطب في أطباق السحب فلم يجد شيئًا ، فهتف صارخًا : ماذا صنع الدهر بي وبها ؟ لقد أثكلنيها وأثكلني كل شيء بعدها حتى آثارها ، وظل يناجي تلك الأطلال الدوارس ، ويستنطق نؤيها وأحجارها ويسائلها عن أهلها وساكنيها فلا يجيبه غير الصدى المتردد ، حتى عي بموقفه ، فانصرف ولقلبه وجبات كأنها شقائق برق في السماء لوامع .

97- بيتهوفن

انقطعت أخبار استيفن عن كوبلانس وأنديتها ومجامعها ، وكان غرة جبينها المتلألئة ، وشمس جمالها الساطعة ، فتساءل عنه أصدقاؤه ومعارفه وصنائع أياديه وفواضله ، والمعجبون بذكائه ونبوغه ، حتى عرفوا قصته ، وما كانوا يعرفون شيئًا منها قبل اليوم ، فهالهم الأمر وتعاظمهم ، وأشفقوا أن تختطف يد الدهر من أيديهم تلك الحياة النضرة الزاهرة التي لم يتمتعوا بها إلا قليلاً من الأيام ،

فمشى بعضهم بذلك إلى بعض ، واجتمع منهم جمع عظيم ضم بين حاشيتيه كثيرًا من كبار الموسيقيين ونوابغ الممثلين ورجال الشعر إلى حياته الأولى بينهم ، فكتبوا إليه أنهم وافدون لزيارته غدًا ، ثم ركبوا في أصيل اليوم الثاني عجلاتهم ، واستصحب كثير منهم نساءهم وفتياتهم ، وذهبوا إلى القرية فاستقبلهم استيفن على باب داره باسمًا متطلقًا كأنه لا يضمر بين جنبيه لوعة ، ولا أسى ، وكان قلبه لا يذوب بين أضالعه ذوب السبيكة في بوتقتها ، فطمعوا فيه إذ رأوه .

وخيل إليهم أنه قد بريء مما به أو كاد وأن هذه الصفرة الرقيقة التي لا تزال تلبس وجهه إنما هي أثر من آثار ذلك الماضي سيذهب مع الأيام وكان قد أعد لهم في الحديقة مائدة عظيمة للعشاء ، فجلسوا إليها وكانوا نيفًا وثلاثين رجلاً وامرأة وجلس هو بينهم يحدثهم ويطرفهم بملحه ونوادره ، وتجنب في أحاديثه معهم كل ما يتعلق بكارثته ، فلم يجرؤ أحد منهم أن يفاتحه فيها حتى فرغوا من الطعام فتفرقوا في أنحاء الحديقة زمرًا يرتاضون ويسمرون ، حتى مضت قطعة من الليل فاقترح أحدهم أن يؤتي بالبيانو إلى فضاء الحديقة ليوقع عليه من يشاء منهم ، فأتى به فجلس إليه الموسيقى « فردريك » ووقع عليه لحنًا من ألحان الموسيقار العظيم « بتهوفن » فطرب له السامعون طربًا عظيمًا ، وقال أحدهم : لقد كان بيتهوفن الرسول الإلهي الذي بعثه الله إلى البشر ـ ليخاطبهم بلغته ،

فهو الرجل الذي استطاع وحده من دون الموسيقيين جميعًا أن ينطق بلسان الطبيعة ، ويردد أنغامها وأهازيجها وأن يكون في غنائه هادئًا كالماء ، وصافيًا كالسماء ، وعميقًا كالبحر ، وصادحًا كالطير ، وخافقًا كالنجم ، فقال الموسيقى « مورات » نعم ، ولكنه كان سيء الحظ عاثر الجد ، فقد قضى حياته فقيرًا معدمًا يسعى إلى الكفاف من العيش فلا يجده وخاملاً مغمورًا ، يطلب الشهرة من طريق الفن فلا يظفر بها ، حتى مات شريدًا طريدًا في وطن غير وطنه ، وبين قوم وأسرة غير قومه وأسرته ، فقال الشاعر : « سيدروف » مَن منكم يحفظ تاريخ حياته الأخيرة فيقصه علينا ؟ فقال استيفن : أنا أقصها عليكم ، لأني أعلم الناس به فقد كان أستاذي « هومل » رحمه الله صديقه الذي عاشره في آخر أيام حياته حتى مات وتولى دفنه بيده ، وكان كثيرًا ما يقص على ذلك التاريخ وهو يبكي بكاء شديدًا فأنا أرويه لكم كما كان يحدثني به ثم أقبل عليهم وأنشأ يقول :

لقد قسا الدهر على بيتهوفن قسوة عظمى لم يقسها على أحد من قبله من رجال الفنون والآداب ، فقد وضع للعالم تلك الموسيقى السماوية العالية التي حاكى بها الطبيعة في نغماتها ودناتها ، وصور فيها أدق عواطف القلوب وخوالجها ، فلم يحفل بها الناس كثيرًا ، ولم يأبهوا لها ، وكانوا قد ألفوا قبل ذلك تلك الموسيقى الصناعية المتكلفة التي كان يتأنق الموسيقيون الماضون في تنسيقها وتدبيجها تأنق النحات في صنع الدمية الجميلة التي لا روح فيها ، وافتتنوا بها افتتانًا عظيمًا فلم يستطيعوا أن يفهموا غيرها أو يهشوا لشيء سواها ، ولم يكن مصابه بجهل الناس إياه واحتقارهم له بأقل من مصابه بحسد حساده من أبناء حرفته ،

وأضغانهم عليه ، بل لم يكن له مصاب غير هؤلاء ، فهم الذين وقفوا في وجهه ، واعترضوا سبيله ، واستقبلوه حين وقف عليهم بتلك القيثارة الجميلة الرنانة بابتسامات الهزء والسخرية . وذهبوا كل مذهب في النيل منه ، والولع به ، والغض من شأنه ، وما كانوا يجهلون فضله ومقداره ، وقيمة ما استحدثه في الفن من بدائع المبتكرات وغرائبها ، ولكنهم عجزوا عن الصعود معه إلى ذروته التي صعد إليها فلم يكن لهم بد من أن يثيروا حول كوكبه الساطع المتلألئ في سماء الموسيقى هذه الغبرة السوداء من المثالب والمطاعن ، فلا يرى الناس أشعته ، ولا بمكانها حتى أن « هايدن » نفسه وكان أكثرهم اعتدالاً وأدناهم إلى العدل والإنصاف لم يستطع أن يسمح لنفسه بأن يقول عنه في تقريظه أكثر من أنه « عازف ماهر » فكان مثله في ذلك مثل من يقول عن شاعر مثل شاعرنا « جيتيه » إنه « يحسن الإملاء ! »

ولم يزل هذا شأنهم معه حتى نغصوا عليه حياته ، وذهبوا براحة نفسه وسكونها وملأوا قلبه وساوس وأوهامًا ، فساء ظنه بنفسه وأصبح يرتاب معهم كما يرتابون في اقتداره ونبوغه ، ولولا أن صديقه « هومل » كانت مرآته الصادقة التي يرى فيها نفسه من حين إلى حين لنفض يده من الموسيقى نفض اليائس القانط ، ولحرمت الأمة الألمانية هذه القيثارة البديعة الساحرة التي لم يخلق الله لها شبيهًا في العالم منذ خلقت الدنيا حتى اليوم فويل للأشرار الخبثاء ، ماذا كانوا يريدون أن يصنعوا وماذا كان يكون شأن الموسيقى في العالم لو تم لهم ما أرادوا ؟

ولم يستطع بيتهوفن أن يصبر طويلاً على هذه المظلمة الفادحة التي نالته وضاق ذرعه بتلك النظرات المؤلمة التي أصبح الناس ينظرون بها إليه كلما مشى في طريق أو ظهر في مجتمع ، فلم يطق المقام بينهم ، ولا العيش فيهم . فظل يتنقل في أنحاء البلاد غدوًا ورواحًا ، لا يهبط ببلدة حتى يطير به الضجر إلى غيرها ، ولا تطلع عليه الشمس في مكان حتى تغرب عنه في مكان آخر ، وكان له في مبدأ أمره ثروة صالحة يعود بها على نفسه وذوي قرباه ، ولكنه كان من أصحاب الملكات الشعرية والشعر والحزم لا يجتمعان في رأس واحد ، فلم يزل به إسرافه وتخرقه حتى أضاعها ، فأصبح لا يملك أداة من أدوات الرزق غير قيثارته وقيثارته سلعة كاسدة في سوق الفنون لا يبتاعها منه أحد ، فزهد المجامع والمحافل وعاف المدائن والقرى . وفر بنفسه إلى الغابات والأحراش وقمم الجبال وضفاف الأنهار ، وهنالك في خولاته ومعتزلاته حيث لا يسمع صوتًا غير الطبيعة ولا يرى وجهًا غير وجه الله ، أخذ يبث قيثارته آلامه وأحزانه ويسكب مدامعه الغريزة بين مثانيها ومثالثها ويضع وهو جائع طاو صفر اليد والأحشاء تلك الموسيقى العظيمة التي يعيش الموسيقيون اليوم ببركتها عيش السعداء ، وينعمون في ظلالها بنعمة العيش الرغيد .

وكثيرًا ما كان يستمر به المسير حتى يصل إلى جزر الدانوب فيهيم على ضفاف ذلك النهر أيامًا طوالاً لا يفترش إلا العشب ، ولا يلتحف غير الطل ن ولا يطعم إلا ما يقذف به إليه النهر من أحيائه ، حتى يعبر به صديقه « هومل » فيعود به إلى العمران .

ولم يقنع الدهر منه بذلك حتى رماه في آخر أيامه بالصمم ، فلم يأسف لهذه النكبة كثيرًا ، بل قال في نفسه : إني أحمد الله على ذلك فقد كفاني نصف شرور الناس فلعله يكفيني نصفها الآخر ؛ فلا أرى وجوههم ولا أسمع أصواتهم . ولقد صدق فيما قال ، فقد أخذ الناس يسمونه بعد نزول تلك الكارثة به بالموسيقي المجنون ، فلم يسمع شيئًا مما يقولون .

وأصبح منذ ذلك اليوم هادئًا ساكنًا لا يشكو ولا يتضجر بل لا يشعر ولا يتألم ، وذهب إلى غابة قريبة من مدينة « بادن » فعاش فيها وحيدًا منفردًا لا يسمع إلا صوت قلبه ولا يصغي إلا لتلك النغمات الداخلية التي تتردد بدون انقطاع في أعماق نفسه ولا يرى أحدًا من الناس غير صديقه « هومل » من حين إلى حين ؛ ؟ فإذا جاءه طرح عليه ما وضعه من الألحان فيحمله عنه إلى الناس من حيث لا يشعر وهو باق في مكانه لا يفارقه .

وكان الناس قد أصبحوا يألفون أنغامه بعض الشيء ويصغون إليها لا لأن حساده قد هدأوا عنه ، أو انقطعوا عن مناوأته والغض منه ، بل لأن للطبيعة سلطانًا فوق سلطان الضغائن والأحقاد ولأن السحب المتلبدة في آفاق السماء لا تستطيع أن تطفئ نور الشمس ، بل تحجب ضياءه عن العيون لحظة من الزمان ثم لا تلبث أن تنقشع عنها فإذا هي ملء العيون والأنظار .

ولم يقضِ في عزلته هذه زمنًا طويلاً حتى ورد عليه كتاب من ابن أخت له في « فيينا » كان قد تبناه في صغره وأحبه كثيرًا يقول له فيه : إنني متهم بتهمة عظيمة لا سبيل لي إلى الخلاص منها إلا بحضورك ، فسافر إليه دون أن يقابل صديقه « هومل »

ولم يكن معه من المال ما يقوم بنفقات سفره ، فكان يمشي على قدميه حينًا ويركب عجلات النقل أحيانًا ، حتى نال منه الجهد ، وأصبح عاجزًا عن المسير ، وكان الطريق إلى فيينا » لا يزال بعيدًا فمر ذات ليلة ببيت منفرد في ظاهر إحدى القرى فوقف ببابه وأخذ يقرعه قرعًا خفيفًا فخرج إليه صاحب البيت وسأله : ما شأنه ؟ فقال له : إنني شيخ أصم غريب عن هذه الديار وقد أظلَّني الليل وعجزت عن المسير فلا أستطيع المضي في سبيلي ، فائذن لي بمضجع آوى إليه بقية ليلتي ، وإن شئت فأمر لي بكسرة خبز أسد بها رمقي فأشفق عليه الرجل وأوى له وأحله من بيته أكرم محل وأسماه وكان للرجل ابنتان في سن الشباب فقامتا بين يديه تخدمانه حتى رجعت إليه نفسه فدعوه إلى المائدة فأكل معهم ، ثم مشى إلى مصطلى في أحد أركان القاعة فجلس إليه يصطلي ويجفف ثيابه وكان صاحب البيت من المولعين بالموسيقى والمغرمين بتوقيعها ليلهم ونهارهم ، فما فرغ من الطعام حتى جلس أمام البيانو وأخذ يقلب دفتر الموسيقى الذي بين يديه حتى وقع على ما يريد منه ، فأشار إلى ابنتيه أن تأخذا قيثارتيهما ففعلتا . وأخذوا يعزفون جميعًا بنغمة واحدة فاغتبط بيتهوفن بمنظرهم وإن لم يسمع من غنائهم شيئًا وكل ما استطاع أن يفهمه من شأنهم أن لذلك اللحن الذي يوقعونه سلطانًا عظيمًا على نفوسهم فقد رآهم متأثرين عند توقيعه أثرًا شديدًا ، ورأى صاحبة البيت وخادمتها قد تركتا ما كانتا تشتغلان به من شئون البيت وأعماله ووقفتا للاستماع وقد سكنت أطرافهما وتهلل وجهاهما ، وذهبتا ببصرهما في السماء كأنما تتبعان أثر تلك النغمات في طريقها إلى الملأ الأعلى ، حتى انتهت القطعة فاغرورقت عينا الفتاة الصغرى بالدموع ، وألقت الكبرى نفسها بين ذراعي أمها وبكت بكاء شديدًا .

فنهض بيتهوفن من مكانه ومشى إليهم وقال لهم : إنني لم أستطع أن أسمع شيئًا من ألحانكم أيها الأصدقاء ، ولكني استطعت أن أفهم أنها ألحان جميلة مؤثرة فتأثرت معكم وطربت لطربكم ، ولقد كنت قبل أن تحل بي هذه النكبة التي ترونها أحب الموسيقى حبًا شديدًا ، ولا يلذ لي في الحياة شيء مثل استماعها ، فهل تأذنون لي أن أنظر في دفتر الموسيقى لأقرأ القطعة التي كنت توقعونها ؟ فأومأوا إليه بالإيجاب فأكب على الصحيفة فما وقع نظره على القطعة ورأى اسم صاحبها في رأسها حتى اصفر لونه ، وارتعدت يده وارفض جبينه عرقًا ، ثم أخذ يبكي بكاء شديدًا ، فانتبه القوم إليه ، ونهضوا من مكانهم مذعورين ، وحاطوا به يسألونه ما خطبه ، فأشار بأصبعه إلى عنوان القطعة فلم يفهموا ما يريد فقال لهم : إنها قطعتي أيها الأصدقاء ، وأنا الموسيقي بيتهوفن ، فدهشوا جميعًا ، وظلوا ينظرون إليه باهتين مذهولين ، ثم رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم وجثوا بين يديه خاضعين متخشعين ، وتناولوا يده وأخذوا يقبلونها واحد بعد الآخر ، فكانت هذه الساعة هي الساعة الوحيدة التي ذاق فيها لذة الاحترام في حياته ، وكانت هي بعينها الساعة التي رفرف على رأسه فيها طائر الموت فقد شعر تلك اللحظة بوخزة مؤلمة في جنبه ، فتساقط في مكانه ، فتلقوه على أيديهم ، واحتملوه إلى سريره ، وسهروا بجانبه الليل كله يعللونه ويستشفون له ، فيستفيق مرة ، ويستغرق في غشيته أخرى ، حتى الصباح .

وكان صديقه هومل قد عرف أمر سفره فتبعه في الطريق التي سلكها وظل يسائل عنه في كل مكان حتى عرف القرية التي وصل إليها ، والبيت الذي نزله ، فصعد إليه فرآه في سكرته التي يعالجها ، فجلس بجانبه يبكيه ويتوجع له حتى انتبه له بيتهوفن بعد حين فابتسم له إذ رآه وقال له : هل جئتني بقيثارتي يا هومل ؟ قال : نعم يا سيدي وهاهي ذي فتناولها منه وتناهض متكئًا على إحدى يديه ، تمكن من الجلوس وأنشأ يوقع على مسمع من القوم لحنه المحزن المشهور « ربِ لمَ أشقيتني وما أشقيت أحدًا من عبادك » فما أتمه حتى ارتعدت يداه وجحظت عيناه ثم أغمضهما لاستقبال الموت ، ثم فتح عينيه بعد لحظة فرأى صديقه هومل فأمسك بيده ونظر إليه نظرة طويلة وقال : ألم أكن في حياتي عظيمًا يا هومل ؟ قال : بلي وأكبر من عظيم فتهلل وجهه بالبشر وأسبل عينيه وهو يقول « الآن أموت سعيدًا » ثم قضي !

وفي اليوم الثاني حمل ذلك الرجل العظيم إلى مقبرة تلك القرية الحقيرة فدفن فيها ، ولم يشيع جنازته غير صديقه هومل وأفراد تلك الأسرة التي مات بينها ، وكان هذا كل حظه من الحياة .

98ـ لحن الموت

ما وصل استيفن في حديثه إلي هذا الحد حتى اصفر لونه ، وتغضن جبينه وأطرق برأسه إلى الأرض ، فانتبه إليه القوم فإذا هو واضع يده على قلبه ، وإذا دموعه تنحدر علي خديه متتابعة ، فقال له أحدهم : ما بك يا استيفن ؟ فرفع رأسه بعد هنيهة وقال : إنما أبكي على هذا الرجل المسكين الذي عاش في حياته شقيًا ومات مسكينًا ،

ولم يبتسم له الدهر في يوم من أيام حياته ابتسامة واحدة يكافئه بها على يده التي أسدا إلى هذا المجتمع ، وكأنما قد كتب للعاملين على وجه الأرض جميعًا أن يعيشوا فيها عيش الأشجار العظيمة في الصحاري المحرقة ، تظلل الناس بوارف ظلها ، وهي تصطلي حر الهاجرة وأوارها ، ولو أن القدر أنصفهم ووفاهم أجورهم لما سعد أحد في الحياة سعادتهم ، ولا هنيء فيها هناءهم .

فصمت القوم جميعًا ، وقد شعروا أنه إنما يحدث عن نفسه ويرسل في حديثه بعض الزفرات التي تعتلج في صدره .

وإنهم كذلك إذ نهض من مكانه بغتة ومشى بقدم هادئة مطمئنة حتى وصل إلى كرسي البيانو ، فجلس عليه ثم التفت إلى القوم وقال لهم : هل تأذنون لي أيها الأصدقاء ، وقد قصصت عليكم تاريخ حياة بيتهوفن أن أسمعكم لحنه الأخير الذي وقعه في آخر ساعات حياته؟ فتهللت وجوههم فرحًا ، وقد ظنوا أنه إنما يريد أن يسري عن نفوسهم تلك الكآبة التي غشيتها منذ الساعة ، فقالوا جميعًا : نعم! .

فبدأ يوقع ذلك اللحن «ربِ لمَ أشقيتني وما أشقيت أحدًا من عبادك» ويغنيه بصوت ضعيف خافت ، ثم أخذت عواطفه تشتمل شيئًا فشيئًا ، فعلا صوته وأنشأت نغماته تنتشر في أجواز الفضاء ، فسمع القوم تلك الموسيقى السماوية العالية التي لم يخلق الله لها مثيلاً ، والتي هي غاية ما أنتجه العقل البشري ، فأطرقوا برؤوسهم إجلالاً لهذه العظمة المشرفة عليهم من سمائها ، وخيل إليهم أنهم لا يرون بينهم مغنيًا يوقع على أوتاره ،

بل ثاكلاً متفجعًا يذرف مدامعه ويصعد زفراته ، حتى الموسيقي «مورات» همس في أذن أحد الجالسين بجانبه قائلاً «إن الرجل لا يغني بل يموت وإني أشم من أنفاسه رائحة الكبد المحترقة» وكان كلما استمر في غنائه اشتد تأثره والتهبت عواطفه ، وتلون صوته بلون الأنين المحزن ، حتى فني عن نفسه وعما حوله ، واستولت عليه حالة غريبة من الذهول والاستغراق .

وما أتى على النغمة الأخيرة ، وكانت أعلى النغمات وأطولها وأذهبها في أجواز الفضاء ؛ حتى نهض القوم جميعًا على أقدامهم وأخذوا يصفقون تصفيقًا شديدًا ويهتفون «ليحيا استيفن» .

وإنهم ليصفقون هذا التصفيق الشديد ويدعون له بالحياة الطويلة ، يتدافعون إلى مكانه لتهنئته وتمجيده ، إذا بهم ينظرون إليه فيرونه مائلاً برأسه على ظهر كرسيه ، وقد اقشعر وجهه ، وتغيرت سحنته ، وأمسك بكفه على أحشائه ، فطارت ألبابهم ، وطاشت عقولهم ، ومرت بخواطرهم جميعًا مرور البرق تلك الصورة التي مات عليها بيتهوفن في قصته التي قصها عليهم منذ الساعة ، فتشاءموا وانقبضت نفوسهم ، وأحاط به جماعة منهم فاحتملوه إلى سريره ، وحضر الطبيب ففحصه ثم نظر إليهم نظرة اليأس ، فأطرقوا واجمين مكتئبين واحتاطوا بسريره ينتظرون قضاء الله فيه ، ففتح عينيه بعد ساعة ودار بها حوله ونطق باسم «فرتز» وكان حاضرًا فلباه ، فنظر إليه طويلاً ثم نطق باسم «ماجدولين الصغيرة» فما لبث أن جاءه بها ، فضمها إلى صدره وقبّلها قبلة امتزجت فيها عاطفة الرحمة بعاطفة الذكرى ،

وظل ينظر بعينيه إلى السماء مرة وإلى فرتز أخرى ، كأنما يوصيه بالطفلة ويستشهد الله على ذلك . ثم التفت إلى القوم وقال بصوت ضعيف متهافت : «أشهدكم أيها الأصدقاء أن جميع ما تملك يدي قسمة بين هذين» وأشار إلى فرتز والطفلة ، ثم عاد إلى ذهوله واستغراقه وأخذ يجود بنفسه وظل على ذلك ساعة ، ثم فتح عينيه مرة أخرى ، فرأى القوم يبكون من حوله ويتفجعون له ، فمرت بشفتيه ابتسامة خفيفة ، كأنما اغتبط بمنظر تلك العظمة التي تجلَّت له في دموع هؤلاء العظماء وأخذ يقلب عينيه فيهم فتقدم نحوه الموسيقي فردريك وكان أعظم القوم شأنًا وأكبرهم سنًا . وقال له : هل توصي بشيء يا مولاي؟ فحاول النطق فلم يستطعه ، فظل يعالجه حينًا حتى استقاد له . فأنشأ يقول : أوصيك يا فردريك أن تجمع ألحاني كلها في كتاب واحد ، وأوصيك يا سيدروف أن تكتب تاريخ حياتي كما يعلمه فرتز ثم تنشره في الناس ، وأوصيك يا فرتز أن تدفنني مع ماجدولين في قبرها وأن تتولى شأن هذه الطفلة الصغيرة وتحميها مما تحمي منه أهلك وولدك ، حتى إذا يفعت زوجتها من الزوج الذي تختاره لنفسها .

وأوصيكم جميعًا ألا تحزنوا على موتي ، فإنني وإن قضيت حياتي شقيًا فها أنتم ترون الآن أنني أموت بينكم سعيدًا ، وكان هذا آخر ما نطق به . ثم أسلم روحه .

وكذلك انتهت حياة هذا الرجل العظيم الذي قتل الحب جسده ، ولكنه أحيا نفسه وسجلها في سجل النفوس الخالدات .

٩٩- النهاية

أما أسرة فرتز فقد سعد حالها ، وأصبحت في نعمة واسعة من العيش لا ينغصها عليها إلا ذكرى ذلك المحسن الكريم ، وأما ماجدولين الصغيرة فقد تولى فرتز شأنها ورباها مع ولده «برنار» الذي رضعت معه في صغره ـ تربية قروية ساذجة بعيدة عن مفاسد المدنية وآفاتها حتى شبّا فتحابا حبًا شريفًا طاهرًا فانتهى بهما الأمر إلى الزواج فعاشا أسعد عيشة وأهنأها . وأما المنزل فقد اشترته جمعية الموسيقى الملوكية في برلين وحفظته تذكارًا لاستيفن ، ولا يزال حتى اليوم مزارًا يزوره الناس ويشاهدون فيه آثار ذلك التاريخ الذي دونه الشاعر «سيدروف» ويرون حديقته ، وأزهار البنفسج المنتشرة في أنحائها ، والحوض المقام في وسطها ، والسياج الدائر من حوله والمقعد الذي جلس عليه استيفن وماجدولين ليلة عاتبها وغاضبها والغرفة الزرقاء التي كانت غرفة عرس ماجدولين أولاً ، ولحدها أخيرًا ، ومكتبة استيفن ، وقيثارته ، والبيانو الذي وقع عليه في ساعته الأخيرة «لحن الموت» .

فإذا فرغوا من زيارة المنزل ذهبوا إلى المقبرة فزاروا ذلك القبر الذي دُفن فيه الشقيان البائسان ، فيبلل تربته بالدمع منهم من نكب في حياته بمثل نكبتهما أو عاش فيها شقيًا كعيشهما .

تمت

الفضيلة أو بول وفرجيني

للكاتب الفرنسي الشهير

برنارد دين دي سان بيير

إهداء الرواية

يعجبني من الفتى الشـجاعة والإقدام ، ومن الفتاة الأدب والحياء ، لأن شـجاعة الفتى ملاك أخلاقه كلها ، ولأن حياء الفتاة جمالها الذي لا جمال لها سـواه ، فأنا أهدي هذه الرواية إلى فتيان مصر وفتياتها ، ليستفيد كل من فريقيهما الصفة التي أحب أن أراها فيه ، وليضـعا حياتهما المسـتقبلة على أسـاس الفضيلة كما وضعها : بول وفرجيني .

مصطفى لطفي المنفلوطي

ترجمة المؤلف

بقلم العالم الفاضل والكاتب البارع

الأستاذ محمود خيرت المحامي

في سنة 1852 احتفلت حكومة الجمهورية الفرنسية بإقامة تمثال من البرونز صنعه «دافيد» المثّال الشهير في إحدى ميادين ثغر الهافر لرجل جليل عظيم الهيبة تتألق ملامحه بالبشر والنور وتفيض عيناه بالوداعة واللطف وهو ممسك بإحدى يديه قرطاسًا وبالأخرى قلمًا وعند قدميه صبي وصبية عاريان يتصافحان تحت ظل شجرة من أشجار المناطق الحارة .

من هما ذانك الصبيان المتصافحان؟ وما معنى الشجرة التي ليست من نباتات هذه البلاد؟ وما عسى أن يكون ذلك الرجل الذي كتب له الحظ أن يكون محلاً لعناية «دافيد» واهتمام الجمهورية؟

أرادت فرنسا بأسرها أن تخلد ذكرى رجل من أبنائها قضى حياته محبًا للحرية واستقلال الرأي ، وإن ناله بسببهما الأذى ، منقبًا عن الحكمة وهو يتفانى في تمجيدها ، عاشقًا للطبيعة وهو يتغنى بمحاسنها ، وينسق قلمه القدير كل يوم للأدب إكليلاً يانعًا من أزاهير الجمال ، وتسمو به نفسه الطاهرة الأبية إلى سماء الإنسانية للعمل على تخفيف ويلات البشر وآلامه ، فكان رجلاً ذكيًا عالي الهمة ، حكيمًا كبير النفس يعرف للطبيعة حقها وفضلها كاتبًا فذًا جم الشعور ، ملأت قلبه فيوض الرحمة بالبشر إلى حد يجعله في وصف القديسين . وما كان هذا الرجل بحاجة إلى أثر يخلده ـ وفي رأسه وقلمه ونفسه مثل تلك الآثار الخالدة يحيا بها على تعاقب السنين .

***

ولد برناردين دي سان بيير في التاسع عشر من شهر يناير سنة 1727 بالهافر من أبوين كانا يدعيان اتصالهما بالنبيل أوستاش دي سان بيير حتى أنه ولع من صغره بهذه النسبة فانتحل لنفسه لقب [شفالييه] وأخذ يحلي صدره بأوسمة يصنعها بنفسه تتفق مع شرف هذا اللقب .

ولقد كان في صباه رقيق المشاعر ، عصبي المزاج ، كثير الجري وراء الخيال حتى طمحت نفسه إلى تأسيس جمهورية واسعة من طائفة العاثرين البائسين يكن هو واضع شريعتهم ومنظم حياتهم ليضمن لهم سعادة العيش فكان في هذا الخاطر مثل جان جاك روسو ، إلا أن هذا كان يرى أن يعود الناس إلى فطرتهم الأولى طاهرين من الأرجاس خالصين من الأدران ، فيعيشون عيشة صافية هنية في ظل شريعة الكون التي سنها الخالق ، أما برناردين فكان يرى أن يضع لهم نظامًا جديدًا يحارب به قسوة الحياة الحالية وويلاتها .

ولكنه كان لا يزال طفلاً قليل الحول والحيلة حتى إن أحد أعمامه ـ وكان قبطانًا لسفينة تجارية ـ أخذه معه إلى جزر المارتينيك ولكنه عاد مثقلاً بالهموم وكراهية العيش فسلمه أبوه لجوزويت كاين .

وعند ذلك عادت تلك الفكرة السامية إلى رأسه الصغير لما كان يسمعه من أحاديث المبشرين عن رحلاتهم في البلاد الموحشة حتى تمنى لو أنه يقفو أثرهم فيهدي إلى سبيل السعادة فريقًا من عباد الله الأشقياء الجاهلين .

على أن أباه عجل بنقله إلى مدرسة رووين ثم إلى مدرسة الهندسة ثم التحق بعد ذلك بالجيش ، ولكنه كما ذكرنا كان عنيدًا لا يسمع غير صوت نفسه وإن خرج بعد ذلك عن حدود الواجب حتى أن رئيسه عقد مجلسًا لتأديبه ثم أوقفه .

ولقد أراد بعد ذلك أن يقصد مالطة لتلمس الرزق فيها ولكنها كانت مهددة بالإغارة من جانب الأتراك فعاد أدراجه وأخذ يعيش من بعض دروس في الحساب يعطيها لمريديه .

وهكذا أحدق به الهم وعضه الفقر والتوى عليه سبيل الهناء ولم يجد عند أحد صدرًا يسعه في محنته ، ولا قلبًا يحنو عليه في كربته فاحتقر الحياة وكره الناس وآثر العزلة على البقاء في هذا العالم القاسي : « إن العزلة جبل عال تريني قمته الناس صغارًا » .

على أنه لم يعدم صدرًا آخر يفيض عليه من حنوه الأبدي الخالد ، هو صدر الطبيعة ، فاستنام إليها وأحبها وفنى في عشقها .

لقد حببها إليه أيضًا أنه رأى ذات يوم عودًا هزيلاً من « الفراولة » نبت على حافة نافذته فلما أخذ يتأمله قام في نفسه أن يصفه بكل دقائقه ويصف ما حوله من حشرات صغيرة وذباب ، ولكن ذلك استعصى عليه وقد رأى تلك الحشرات تصغر شيئًا فشيئًا إلى حد أعجزه من متابعتها وعند ذلك أدرك مقام الطبيعة وعظمتها فهام بها .

وإن نفسًا مثل نفس برناردين لا تعرف اليأس فعزم على الهجرة من وطنه إلى غيره من بلاد الله وهو مع ذلك لا يكرهه ولا يحقد عليه لأنَّ « من أحب وطنه تغرب في سبيله » كما قال في ترجمة حياته .

وكانت فكرة إصلاح المجتمع قد اختمرت في رأسه فسافر إلى روسيا لعله يجد عند ملكتها « كاترين » ما يساعده على إخراجها إلى نور الوجود على شواطئ قزوين ، ولكن سهمه طاش فارتحل إلى فنلندا ثم إلى بولونيا فألمانيا فصحاري أمريكا العليا فمدغشقر حتى انتهى به المطاف عند جزيرة « موريس » التي كتب عنها روايته ، ولكنه في كل هذه الأدوار كان سوء الحظ حليفه فاضطر إلى العودة لوطنه ثانيًا وهو ينوء تحت حمل الأحزان والديوان ذاهبًا إلى أن العيب لم يكن على النظم التي تشرع للناس ولكن على نفس القائمين بها .

وكان في أسفاره لا يكاد يرفع طرفه عن الطبيعة التي طالما أحبها وشغف باكتناه أسرار جمالها ولكنه يغلب عليه في تفهمها مزاجه الشعري وهو يعتقد أن خواطره ليست هي التي تتجه إلى الطبيعة ولكنها هي التي توجه إليها آلاف الأشكال المختلفة الرائعة ، وهكذا كان يغرس على طول طريقه بذور خيالاته فيحظى من الطبيعة بكل ثمرة شهية وهو يرى في كل ذرة من ذواتها نفسًا حية ناطقة حتى صهره البحث وانضجته التجربة ولكن شقاء الحظ جرعة آخر ما في كأسه فعاد كما ذكرنا وهو يقول في نفسه : أصبح الناس لا يعرفون قدر الإحسان فكيف رفعتهم الأقدار ، ولكن حسبي أن التجربة أصارتني هرمًا فأصبحت لا أطمع في غير الراحة .

نعم إنه أحس بعزمه قد وهن ، وكأن الشباب الطامح إلى لقاء الحوادث ومجالدتها قد ذاب فيه وفنى وهو مع ذلك لا يتجاوز الثلاثين من عمره أضف إلى ذلك ما آلت إليه حاله من الفاقة والبؤس ففكر في وضع كتاب عن تلك الجزر التي زارها ، وما شاهد فيها ودون في مذكراته عنها .

ولكن كتابه الذي كان يظن أنه وضع به أساس مجده لم يصادف إلاَّ نجاحًا قليلاً لأنه أفسد عليه قلوب الحكام بما ذكره من خلل في إدارة المستعمرات وفساد نظامها .

إلا أن هذا السفر قد أكسبه الاتصال بكتاب عصره وفلاسفته فعرفوه وعرفهم ، ولكنه لم يلبث أن أنكرهم لأنه أدرك أنهم كغيرهم قوم لا يعرفون منى العدل والحق اللذين كانا دعامة خلقه حتى أنه قاطعهم وهجرهم لأن ألم شوكة واحدة ـ كما كان يقول ـ تنسي المرء لذة مائة وردة يشمها ولذلك عمد إلى ما دوَّنه من أبحاثه في الطبيعة فجمعها في كتاب نشره على الناس ما بها من التفكك وعدم الارتباط ، ولكن هذا الكتاب الناقص أو تلك الأطلال الدوارس ـ كما كان يسميها ـ كانت وحدة معنوية حية خيرًا مائة مرة من أية وحدة علمية لأنها تمثل جلال القدرة حاضرة دائمًا في الذهن ماثلة للعين حتى إن نجاحه كان فوق أمله فعرف الناس قدره وأحبوه .

وهكذا أمكنه أن يزحزح عن نفسه شيئًا من أحمال شقائه فابتاع منزلاً صغيرًا اختاره في طريق ضيق يسكنه الفقراء حتى يشعر أنه بين أفراد عائلته الطبيعية ، وعلى مقربة من حديقة الحيوان كي لا يحرم من متابعة أبحاثه .

***

وقد كان من نتائج التجارب الطويلة الشاقة أن برناردين اعتقد أن سعادة الإنسان قائمة على سلوك سبيل الحياة حسبما تتطلبه الطبيعة والفضيلة ، وأن الفضيلة العامة مهما بلغ من اتساعها فإن مكانها الأول في نفس كل فرد ، ولذلك عدل عن فكرة الجمهورية التي حاول إنشاءها واقتصر على وصف حياة بعض الأسر المنزوية في ظلال الوحدة التي تتذوق طعم النعيم في حجر الطبيعة ، وعند بساط الفضيلة .

وهكذا ظهر سفره الخالد (بول وفرجيني) فهز أوتار المشاعر وملك أزمة القلوب ، وكان فجرًا لليل الأدب وتاجًا على رؤوس الأقلام وشعلة صافية باردة فاض بها فؤاده الذي غمرته الفضيلة والصبر والرحمة ، وكان لظهوره تأثير عظيم في جميع أنحاء فرنسا ، فأبكى كل عين وصعد كل زفرة ، ولم تبق أسرة ولد لها إلا سمته « بول » أو ابنة إلاَّ سمتها « فرجيني » .

وكان أكبر ما أثره في نفوس الناس من هذه الرواية أن حوادثها صحيحة ليس فيها من الخيال إلا النسق والترتيب ، فقد قال مؤلفها في مقدمتها « إني لم أتخيل قصة روائية أصور فيها حياة سعيدة تمتعت بها أسرة أوروبية في وسط ذلك الفقر ، بل يمكنني أن أقول إن أشخاص هذه الرواية قد عاشوا حقيقة في تلك الأصقاع وتمتعوا بالسعادة التي وصفتها ، وإن تاريخهم في مجمله صحيح شهد به كثير من سكان تلك الجزيرة ليست بذات بال .

وقد تنبأ بمبلغ تأثير روايته في النفوس قبل ظهورها فقال : « أردت عندما وضعت هذه الراوية أن أعرف مقدار تأثيرها في القراء على اختلاف درجاتهم ، ومراتبهم ومشاربهم وميولهم ، فتلوتها على بعض السيدات الجميلات المتأنقات فبكين ، ثم تلوتها على بعض الشيوخ المحافظين الرزينين ، فبكوا ، فعلمت أني كتبتها للناس جميعًا وأرضاني هذا الحكم الصامت كل الرضا ، على أن هذا السفر إذا كان قد هز عالم البيان إلى هذا الحد فإنه لم يكن ابن يومه ، وإنما كان ثمرة مجهود بطئ طويل حتى خرج للناس من ظلمات الفكر إلى فضاء الحقيقة وعليه ثوب الشباب القشيب فهو كأنه ليس من عمله بل من عمل الطبيعة التي تضع بذورها في السكون وتنضجها في الظل ، فإذا وافى اليوم الذي تظهر ثمرتها فيه أخذت الألباب والأبصار .

وكثيرًا ما كان يسأله الناس كيف وضعه ، وكيف انتهى منه ، فيقول لهم : حسبكم أنه أعجبكم فلا تضعوا بهذه الأسئلة غشاوة على أعينكم تحجب عنها لذة السرور الذي شعرت به ، وإلا كان مثلكم كمثل الطفل يقع نظره على وردة فيذهب خاطره إلى محاولة اهتدائه لكيفية صنعها ، عندذلك ينثرها ورقة ورقة حتى إذا بلغ غايته لا يرى أمامه شيئًا ..

على أن جمال الكتاب يجعل الحيارى من السائلين في حل من موقفهم هذا فهم معذورون إذا تساءلوا عن زهرة هذا السفر القيم كيف نشأت ، وتحت أي مؤثرة من مؤثرات النفس أينعت ففاضت على الأجيال بالأريج والألوان والجمال .

ولكن عناصر مثل هذا العلم الكبير دفينة في نفس حياة الكاتب إذا صح أن كل مؤلف يتمثل في سطوره .

على أن برناردين إذا كان لم يخلق كاتبًا فإن المشاهدة والتجربة والدرس هذبت قلمه وأنضجته ، حتى إذا انقضت حياته هزيلة بائسة طائرة في مهاب الحوادث ، وقد أحاطتها الأيام بإطار من الشيخوخة لم ير بديلاً منها إلا نفثات قلمه بين سطور السفر الفياض ، ولذلك قال عنه بعض قارئيه : « ليست هذه الراوية أثرًا للكاتب ، وإنما هي أثر خالد للغة الفرنسية » .

على أن الرواية ، وإن كانت لم تقم إلا على وصف الطبيعة الجافة الخشنة ، فإن القارئ لا يكاد ينتهي منها حتى شعر بدبيب النشوة في مفاصله لا لترتيب أشخاصها أو غرابة حوادثها ولكن لقدرة برناردين على وصف أخلاق أهل القرى السهلة بعباراته الساحرة الجذابة فهي التي أنطقت الطبيعة الجامدة وجعلت من الكمال تمثالاً حيًا مقدسًا خالدًا حتى أن بعض قرائه صاح ، وقد هزه الطرب « إنني لا أرى هنا غير أكواخ بسيطة وأعواد خشنة ، ولكني أرى حولها وجهًا ضاحكة مستبشرة وقلوبًا تسيل سعادة وهناء » ، وحتى قال شاتوبريان « إن السحر الذي يتشعع من سطور هذا الكتاب ليس غير عظة تتلألأ في ثناياها تحكى تألق القمر فوق عزلة مزدانة بالزهور » .

ولقد كان ختام كفاح برناردين بعدما حاربته الليالي وخاصمه الحظ أن عرف قدره أولئك الذين جهلوه حتى توجهت إليه عناية لويس السادس عشر فقلده حديقة النبات ومتحف التاريخ الطبيعي ، وإذا كانت الثورة قد أفقدته هذا المركز وسلبته تلك النعمة التي أصبح فيها ، فإن نابليون بونابرت شمله برعايته وغمره بإحسانه فأنساه مرارة الأيام الماضية كما أنه قلده وسام الشرف فلم يعد في حاجة إلى الأوسمة الخيالية التي كان يحلم بها في صباه ، وكان إذا قابله قال له : « متى تؤلف لنا يا برناردين راوية ثانية ؟ » .

هذه هي رواية بول وفرجيني ، وهذا هو كاتبها الذي كان يقول في أول أمره « أن إنكار الناس لجميلي والأحزان التي لا تفارقني وضآلة مرتزقي ، وآمالي الضائعة ، كل هذه المصائب تجمعت لتحاربني فأفسدت على صحتي وأزاغت صوابي حتى إن كل ما يقع تحت بصري أراه متحركًا مضاعفًا كأنني « أوديب الملك » أرى شمسين فأصبح يقول : « هكذا بعد أن قاست سفينة حياتي من زعازع الحوادث أخذ تتقدم آمنة مطمئنة إلى بر السعادة » .

محمود خيرت

(1) جزيرة موريس

هي إحدى الجزر الإفريقية الواقعة في المحيط الهندي على مقربة من جزيرة « مدغشقر » وعلى مدى غير بعيد من جزائر « سيشل » وهي جزيرة قفراء بلقع ليس بها إلا قليلاً من السكان السود متفرقين في جبالها وغاباتها يستعبدهم بضعة أفراد من المهاجرين الأوربيين النازلين بينهم ويسخرونهم في حراثة الأرض واستنباتها واستخراج معادنها واستنباط أمواهها وتقليم أشجارها ، كما هو شأن المستعمرين الأوربيين في جميع الأصقاع التي يعيشون فيها .

***

يرى المقبل على هذه الجزيرة شرقي الجبل القائم خلف عاصمتها « بورلويس » واديًا مستطيلاً مسورًا بسور طبيعي من الآكام والصخور قد ترامت في وسطه أطلال كوخين دارسين لم يبق منهما إلا أنصاف جدرانهما ، وبضعة جذوع ناخرة سوداء متناثرة حولهما ، ويرى الأرض المحيطة بهما مختلفة الألوان ما بين سوداء وخضراء وصفراء ، مختلفة السطوح ما بين أنجاد وأغوار ، وأحافير وأخاديد ، ومنعرجات ومستدقات ، إلى كثير من الجداول والغدران القائمة والمتداعية ، كأنما يعيش فيها قبل اليوم قوم يتولون حرثها وزرعها وتقسيمها وتخطيطها ، ثم ضربها الدهر بضرباته فرحل عنها ساكنوها أو رحلوا عن العالم أجمعه .

ولم يكن لذلك الوادي على اتساعه وانفراجه إلا فجوة واحدة من ناحيته الشمالية ، وعلى يساره ذلك الجبل العظيم الذي يسمونه جبل الاستكشاف ، لأنهم كانوا يرقبون من قمته السفن القادمة إلى الجزيرة ، وبسفحه تقع مدينة « بورلويس » قصبة الجزيرة ومقر حاكمها الفرنسي ، وهي مدينة صغيرة نصف متحضرة يتفرع عن يمينها طريق لاحب عريض ينتهي بضاحية « بمبلوس » وهناك الكنيسة المسماة بهذا الاسم قائمة بمماشيها المتدرجة المتصاعدة المحفوفة بأشجار الخيزران وسط أفيح فسيح ، ثم الحرجات والآجام بعد ذلك منبسطة ممتدة إلى ساحل البحر ، حيث يرى هنا خليج « تومبو » أي خليج القبر ، وعلى يمينه رأس تسمى

« كاب ماليرو » أي الرأس اليابس ، ثم الخضم الفسيح بعد ذلك تنتشر على صفحته عدة جزر صغيرة مقفرة كأنها السفن السابحة على سطح الماء ، وأكبر ما فيها جزيرة « كوان دمير » تتهادى بينها كأنها البرج العظيم .

ولا يزال يسمع المقبل على ذلك الوادي حين يدنو منها عصار الرياح الضاربة في بطون الجبال وأحشاء الغابات وذوائب الأشجف ودمدمة الأمواج المتوثبة على صخور الشاطئ وهضباته ، حتى إذا وصل إلى مكان الكوخين انقطع عن سمعه كل شيء فلا يحس إلا صدى ضعيفًا لحفيف سعف النخل ، ولا يسمع إلاَّ وسوسة الأمطار المتساقطة برفق ولين على رؤوس الصخور الملساء فترسم على جوا نبها المكسوة بالطحلب ألوان الطيف

ثم تنحدر عنها متسلسلة إلى حيث تسقي أحواض الأزهار المهملة التي لا تمتد إليها يد ، ولا يقتطفها مقتطف ثم تفضي بعد ذلك إلى الغدران والأقنية فتمدها بالجم الكثير من أمواهها وإلى خمائل الأشجار ولفائف الأعشاب ، فتتسرب في أحشائها تسرب الأفاعي الرقطاء في بطون الرمال ولا يرى بين يديه إلا هضابًا شكماء قد نبتت في سفوحها وعلى قممها وبين فروجها مجاميع الأشجار الباسقة ، التي تعابث أشعة الشمس أوراقها الخضراء المترعة وتكسوها بما شاءت من ضروب الألوان ذهبيها وفضيها وأرجوانيها وناريها ، ولا تنحدر إلى قاع الوادي وتنبسط في أرجائه إلا وقت الظهيرة فإذا أدبر النهار وطفلت الشمس للإياب كان منظر الأصيل أبدع منظر رآه الرائي في جمال ألوانه وانسجام ظلاله ، ورقة أضوائه وتلهب أفقه وذهاب العين بين أرضه وسمائه في أبهى من الحلة السبراء والروضة الغناء ، فإذا انحدرت الشمس إلى مغربها خيم السكون على كل شيء من ماء وهواء ، وكوب ونجم ، واستحال المنظر إلى وحشة مخيفة كوحشة القبور ، لا نأمه فيها ولا حركة ، ولا بارق ، ولا خافق .

■ ■ ■

(2) الشيخ

كان يلذ لي كثيرًا أن أختلف إلى هذا المكان الجميل صباح مساء ، وأن أستريح إلى منظره الهادئ الساكن فإني لجالس ذات يوم على صخرة من صخوره العالية أقلب الطرف بين أرضه وسمائه ، وأفكر في شأن هذين الكوخين الدارسين وفيما تنطق به آياتهما من العظات والعبر وآثارهما من الحديث والسير إذ مر بي شيخ هرم من سكان تلك الجزيرة قد نيّف على السبعين من عمره ، يعتمد على عصا عجراء في يده ويلبس سراويل واسعة وصدارًا ريفيًا بسيطًا ، وقبعة عريضة من الخوص كشأن سكان تلك الأصقاع ، وله شعر أبيض مستطيل مسترسل على كتفيه ، وقد تلألأ وجهه الأبيض النحيف الضارب إلى السمرة بذلك النور الساطع الذي يتلألأ دائمًا في وجوه الريفيين الأتقياء نور البساطة والطهارة ، النبل والشرف ، فأنست به منظره الجميل الأنيق ، وبدأته بالتحية فرفع رأسه إلى متوسمًا وألقى على نظرة هادئة مطمئنة ، ثم رد تحيتي ردًا جميلاً ، وكأنما شعر لي بمثل الذي شعرت به من العطف والود فأقبل نحوي باسمًا متهللاً ، وجلس على صخرة محاذية للصخرة التي أجلس عليها ، وألقى عصاه تحت قدميه ، ووضع قبعته بجانبه ، فأقبلت عليه وقلت له : لعلك تعيش في هذه الجزيرة يا سيدي منذ زمن طويل ؟

قال : نعم طويت فيها رداء شبابي ، وهاأنذا أطوي فيها رداء شيخوختي ، وستبرد عظامي غدًا تحت صخورها وجنادلها ، قلت : هل لك أن تحدثني قليلاً عن شأن هذين الكوخين الدارسين ، وعمن كان يسكنهما قبل أن تعبث بهما يد البلى ، وتعصف بهما عواصف الدهر وأرزاؤه ؟ فوجم قليلاً وظل صامتًا لا يقول شيئًا ، وقد انتشرت على جبينه اللامع المتلألئ غمامة رقية من الهم والاكتئاب ، ثم تنهد تنهيدة طويلة اختلجت لها أعضاؤه وقال : نعم يا بني إن هذا الوادي الذي تراه اليوم خرابًا يبابًا لا يمر به المار إلا ليقف على ربوعه وأطلاله وقفة المتأمل المعتبر ـ كان منذ عشرين عامًا روضة غناء يعيش فيها أقوام سعداء بأخلاقهم وفضائلهم ما كان يخطر ببالهم ، ولا ببال من يراهم أن مصيرهم سيكون هذا المصير الذي تراه اليوم ، وإن قصتهم لقصة غريبة مؤثرة تستثير الأشجان وتستذرف الدموع ، إلا أ، أبطالها ليسوا ملوكًا ، ولا قادة ، ولا من أصحاب القصور والدور ، والحدائق والبساتين ، والمسارح والملاعب ، والوقائع العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، كما هو شأن أبطال الروايات التي تقرؤونها ، بل قوم فقراء مغمورون تقتحمهم العيون وتتخطاهم الأنظار ، ومن كان هذا شأنهم لا يحفل بهم احد من الناس ، ولا يعني بسماع شيء من أخبارهم وتواريخهم ، لأن الناس لا يستطيعون أن يفهموا السعادة من الطريق الذي ألفوه واعتادوه ، فهم لا يصدقون أن قومًا فقراء متقشفين يعيشون في أرض قفراء جرداء ، منقطعة عن العالم بأجمعه قد استطاعوا أن يكونوا سعداء من طريق الفضيلة والبساطة .

فأكبرت الرجل في نفسي وأعظمته وعلمت أنه يحمل بين جنبيه نفسًا كبيرة سامية تختلف صورتها عن صورة الأسمال الحقيرة التي يلبسها ، وقلت له : نعم يا سيدي إنني أعترف لك أننا معشر الأوربيين لا نفهم من معنى السعادة إلا ذلك الذي تقوله ، ولا نعجب بالقصة إلا إذا كان أبطالها أولئك الملوك الظلمة ، والقواد السفاكين ، ولكننا لا نستطيع أن نصغي في بعض الأحايين بلذة وسرور إلى أحاديث الفقراء والبائسين ، ومهما بلغت القسوة بالقلب الإنساني وغمرت الشهوات شعوره ووجدانه ، فلا بد أن تهب عليه من حين إلى حين نفحة من نفحات الفطرة الإلهية تنعشه وتوقظ شعوره فيستطيع أن يعود إلى نفسه قليلاً ، وأن يفهم أن في العالم صنوفًا من السعادة التي يعرفها ويألفها ، وربما أكبرها وأعظمها وتمناها لنفسه وود لو طال استمتاعه بها .

فقص عليّ قصتك يا سيدي ، فما أنا لو علمت إلا رجل بائس مسكين قد أخطأته السعادة حيث طلبها من المدن والحواضر بين الدور والقصور ، فلعله يجدها في الفقر الموحش بين الهضاب والصخور .

فوضع يده على جبينه المغضن كأنما هو يفتش في طياته عن بعض الذكريات القديمة ، أو يشجع ما تفرق من شواردها ، وأنشأ يحدثني ويقول :

■ ■ ■

(3) مدام دي لا تور

في عام 1726 قدم هذه الجزيرة فتى من نورماندي اسمه « مسيو دي لاتور » ليطلب رزقه في هذه الجزيرة المقفرة بعد ما أعياه طلبه في فرنسا وعجز عن أن يجد له فيها معينًا حتى من أهله وذوي رحمه ، وكانت تصحبه زوجته وهي فتاة نبيلة ، جميلة الصورة كريمة الخلق ، طيبة العنصر ، أحبها وأحبته وأراد أن يخطبها إلى قومها فأبوها عليه لأنه كان فقيرًا مقلاً ، ولأنهم كانوا من المدلين بأنفسهم وبوفرهم وثرائهم ومكانتهم في الهيئة الاجتماعية ، فلم يكن مما يهون عليهم أن يصهروا إلى رجل ليس من أكفائهم ولا نظرائهم ، فتزوجها سرًا بدون مهر وهاجر بها إلى هذه الجزيرة عله يجد سبيلاً إلى العيش فيها ، فتركها هنا وسافر إلى جزيرة « مدغشقر » ليبتاع منها طائفة من الزنوج يستعين بهم عند عودته على استصلاح بعض الأراضي المهجورة فيقتات منها هو وزوجته ، فلم يتح له الحظ الذي أراد ، لأنه سافر إلى مدغشقر في الفصل الذي يوبأ فيه مناخها ويمتلئ فيه جوها بالحميات والرياح السامة القاتلة ، فلم يلبث أن اشتكى شكاة ذهبت بحياته ، وكان يحمل معه بعض الأثاث وشيئًا من المال فتناهبته الأيدي هناك كما هو الشأن دائمًا في تراث الغرباء من الأوربيين الذين يموتون بعيدًا عن أوطانهم في تلك الجزر النائية ، فأصبحت امرأته أرملة مسكينة لا سند لها ولا عضد ، ولا من يعينها على أمرها ، إلا جارية زنجية كانت قد ابتاعتها عند حضورها ببعض دريهمات ، ولم تكن تعتمد على ما يعتمد عليه أكثر المهاجرين المقيمين في هذه الجزيرة من عون الحاكم ومساعدته ،

أو الصلة ببعض أصحاب الجاه والنفوذ ، لأنها كانت أجلُّ في نفسها من ذلك ، ولأنها لم يكن يعينها بعد أن فقدت ذلك الزوج الكريم الذي كان موضع آمالها ووجهة حياتها أن تكون لها صلة مع أحد من الناس كائنًا من كان .

أكسبها يأسها هذا قوة وجلدًا وصحت عزيمتها على أن تعتمد في حياتها على نفسها ، وأن تتخذ لها قطعة من الأرض تستصلحها بيدها هي وجاريتها علها تجد فيها قوتها ومرتزقها .

والأرض في هذه الجزيرة على جدبها وإقفارها لا يعدم أن يجد فيها الإنسان بضع قطع خصبة صالحة للنماء والاستثمار ، ولكنها كانت تريد العزلة والانفراد والفرار بنفسها عن أبصار الناس وأسماعهم ، فتركت المواضع الخصبة الميثاء وأوغلت في بعض المجاهل البعيدة تفتش عن قطعة أرض معتزلة في سفح جبل أو بطن غور أو وراء منقطع لا يطرقها طارق ولا يمر بها سابل حتى وصلت إلى هذا المكان الذي نحن فيه ، فأعجبها منظره الهادئ المنفرد ، وسكنت نفسها إليه سكون الطائر الغريب إلى العش المهجور ، وكذلك شأن البائسين المنكوبين يشعرون دائمًا بحاجتهم إلى الفرار بأنفسهم من ضوضاء العالم وجلبته إلى المعتزلات النائية القصية ، والمواطن الخشنة الوعرة كأنما يخيل إليهم أن صخورها وهضابها قلاع حصينة يعتصمون بها من كوارث الدهر وأرزائه أو كأنما يتوهمون أن هدوءها وسكونها يسري إلى قلوبهم وأفئدتهم فيروح عنها بعض ما بها ويملؤها راحة وسكونًا .

إلا أن العناية الإلهية ـ التي تتولى حراسة الإنسان وتمده بلطفها وعنايتها من حيث لا يقدر ولا يحتسب وترى له دائمًا خيرًا مما يرى لنفسه ـ أبت أن تسلمها إلى وحشتها وكآبتها ، فأتاحت لها صديقة كريمة تؤنس وحشتها ، وتعينها على أمرها .

■ ■ ■

(4) مرغريت

كانت تعيش في هذه الأرض قبل عام واحد من حضور « مدام دي لاتور » امرأة صالحة كريمة رقيقة الحال اسمها مرغريت وفدت إليها على أثر نكبة حلت بها في مسقط رأسها « بريتانيا »وخلاصتها أن نبيلاً من النبلاء الاصطلاحيين أي الذين اصطلح الناس على تلقيبهم بهذا اللقب ، نزل بلدتها للاصطياف بها فرآها فأحبها وكانت فتاة غريرة ساذجة تصدق كل ما يقال ، فصدقت ما حدثها به عن الحب والزواج والسعادة والرغد ، كأنما خيل إليها أن العظماء عظماء في أحاديثهم وعهودهم ، كما هم عظماء في مظاهرهم وأزيائهم لا يخلفون إذا وعدوا ، ولا ينكثون إذا عاهدوا ، فاتصلت به اتصال الزوج بزوجها حينما وعدها أن يتزوج منها عند عودته إلى وطنه واستئذان أبويه .

وما هي إلا أيام قلائل حتى ملها واجتواها كما مل الكثيرات من قبلها ، فرحل عنها فجأة أعظم ما كانت غبطة به وأملاً فيه وترك لها تحت وسادتها شيئًا من المال خيل إليه أنه الثمن الذي يقوم لها بوفاء ما بذلت من عرضها وشرفها ، فجن جنونها وهرعت إلى فرضة البحر الذي علمت أنه سيسافر منها فلم تر من سفينته الماخرة على سطح الماء إلا ما يرى الرائي من أعقاب النجم المغرب فبكت إلى ما شاء الله أن تفعل ، ثم عادت إلى منزلها دامية العين قريحة القلب ، ولم تلبث إلا قليلاً حتى شعرت أنها تحمل جنينًا في أحشائها

فأسقط في يدها وعلمت أنه قد استحال عليها البقاء بين أهلها وقومها بعدما فقدت تلك الجوهرة الثمينة التي هي كل ما تملك العذراء في يدها ، وكل ما تستطيع أن تقدمه مهرًا لزوجها ، فأزمعت الرحيل إلى إحدى المستعمرات النائية لتواري في قاعها السحيق سوأتها وعارها ، فوفدت إلى هذه الجزيرة بعد عناء كثير وعقبات عظمى واستطاعت بمعونة بعض المحسنين أن تبتاع لها خادمًا زنجيًا يعينها على أمرها ويساعدها على حراثة الأرض التي أوت إليها واستخراج ثمراتها .

وعاشت هنا عيش الصالحات القانتات لا تعرف أحدًا من الناس ، ولا يعرفها أحد سواي ، وكانت تجلس دائمًا على هذه الصخرة العالية أمام كوخها ترضع ولده وتنسج نسيجها ، فلما وفدت هيلين « مدام دي لاتور » رأتها جالسة في مكانها الذي اعتادت الجلوس فيه ، فعجبت لأمرها وأنست بمرآها أنسًا عظيمًا ، لأنها ما كانت تتصور قبل أن تراها أن في الناس إنسانًا له حال تشبه حالها ، فدنت منها وحيتها ، ثم جلست بجانبها وأخذت تسائلها عن شأنها فقصت عليها مرغريت قصتها كما وقعت ، وكشفت لها بشجاعة وإخلاص عن مكان المصرع التي زلت فيه قدمها ، ولم تكتمها من أمرها شيئًا ، ثم ختمت حديثها بقولها : إن الله لم يظلمني ، ولم يقس على فيما أفعل ، بل عاقبني على جريمتي التي اقترفتها عقابًا عادلاً شريفًا ، فله العتبى معطيًا وسالبًا ، وله الحمد على نعمائه وبأسائه .

رثت لها هيلين « مادم دي لاتور » وأوت إليها وأعجبها منها إخلاصها وصراحتها وقوة يقينها وإيمانها ، فلم تر بدًا من أن تمنحها من بنات قلبها مثل ما منحتها ، فأفضت إليها بسرها وحدثتها حديثها من مبدئه إلى منتهاه فقالت لها مرغريت : أما أنا فقد لاقيت عقوبتي التي أستحقها بما أسرفت على نفسي ، وفرطت في أمري ، فما شأنك أنت وأنت فتاة صالحة شريفة لا ذنب لك ، ولا جريرة ؟

ثم دعتها إلى كوخها الحقير فلبت دعوتها ودخلت معها راضية مغتبطة ، وهي تقول : أحمدك اللهم فقد أودت لي في هذا المغترب النائي أختًا لم أجد مثلها بين أهلي وقومي ، وما أحسب إلا أن آلامي قد انتهت .

كنت أسكن في ذلك الحين وراء هذا الجبل على بعد مرحلة ونصف من كوخ مرغريت ، ولكني كنت على بعد ما بيني وبينها ، واعتراض هذه العقبات دوننا ، متصلاً بها أزورها ، وأتفقد حالها ، وأرعى لها ما يرعى الجار لجاره الملاصق ، وتلك خلة لا توجد إلا في سكان القفار المهجورة ، والمغتربات النائية ، فلا الجبال الشامخة ، ولا الصحارى الشاسعة ، ولا الشقة البعيدة بقادرة على أن تفرق بينهم وتمنع اتصال بعضهم ببعض ، كأنما هم يقطنون محلة واحدة ، أو منزلاً واحدًا ، أما في أوروبا فكثيرًا ما يعيش الرجل بجانب الرجل لا يفصل بينه وبينه إلا جدار قائم أو ممر ضيق ، أو ظلمة دانية ، ثم هو لا يعرفه ، ولا يحييه ، وربما أنكر وجهه وصورته ، وهناك قلما يستطيع القادم الغريب أن ينزل ضيفًا إلاّ عند نفسه في أخصب البلاد وأغناها وأرغدها عيشًا وأصلحها حالاً ،

وهنا يجد ساعة نزوله المنزل الرحب ، والمناخ الكريم في كل دار وكوخ سواء في ذلك فقراء الناس وأغنياؤهم وسوقتهم وأشرافهم ، كأن الناس حين يعودون إلى حياتهم الفطرية الأولى حياة البساطة والسذاجة ، والعيش في الأجواء الحرة المطلقة ، تعود لهم معها أخلاقهم الطبيعية الجميلة التي فطروا عليها من كرم وسماحة ، وجود وإيثار ، وود وإخاء .

وبعد : فلما سمعت أن جارتي قد نزلت بها ضيفة غريبة أتيت إليها أتفقد حالها وأعينها على أمرها ، فإذا أنا بين يدي فتاة جميلة رائعة تحيط بوجهها المشرق المتلألئ هالة وضاءة من الشرف والنبل تغشاها سحابة خفيفة من الهم والكآبة ، ويتراءى في عينيها المنضعضتين الذابلتين الأثر الذي يراه الإنسان دائمًا في عيون الفتيات المنكسرات : الذل والانكسار في ميدان الحياة .

وما هو إلا أن جلست إليها جلسة خفيفة حتى ألممت بشأنها كله ، فأخذت أحدثها وصديقتها عن مستقبل حياتهما في هذه الجزيرة وكيف تستطيعان أن تعيشا فيها سعيدتين هانئتين ، فاقترحت عليهما أن تتخذا هذا الوادي مزرعة لهما تقتسمانها بينهما ويعينهما على استصلاحها واستثمارها خادماهما الزنجيان ، فأعجبهما مقترحي وعهدا إلى بتنفيذ ما أشرت به .

وكانت مساحة الوادي نحو عشرين فدانًا ، فقسمته قسمين : قسمًا أعلى ، وقسمًا أدنى ، أما ألأول فيبتدئ من رؤوس تلك الصخور العالية التي تكسوها السحب أرديتها الشفافة البيضاء وتنبعث من خلالها أمواه نهر « اللاتينية » وينتهي عند هذه الفجوة التي تراها أمامك ، ويسمونها هنا « لامبرازير » لأنها تشبه في شكلها فوهة المدفع ، وتكثر في هذا القسم الصخور والوعور التي يتعذر السير فيها ، إلا أنه كثير الأشجار والنخيل حافل بالينابيع والغدران .

وأما الثاني فيبتدئ من هذا المكان منحدرًا مع النهر الجاري بجانبه إلى نهاية الوادي حيث ينحرف النهر بعد ذلك سائرًا في رملة ميثاء بين جبلين شامخين إلى مصبه في البحر ، وأرض هذا القسم سهلة لينة كثيرة الخضرة والأعشاب ، إلا أن المستنقعات تكثر فيها في فصل الأمطار وتكاد تتحجر تربتها أيام الجفاف فتصبح كأنها أرض صخرية ، فهما في الحقيقة قسمان متعادلان تتكافأ حسناتهما وسيئاتهما .

فلما فرغت من تهيئتهما اقترعت بين السيدتين عليهما ، فكان القسم الأعلى من نصيب هيلين « مدام دي لاتور » والقسم الأدنى من نصيب مرغريت فرضيت كل منهما بنصيبها إلا أنهما أبتا أن تفترقا في مسكنهما وعيشهما فرأيت أن أنشيء لهما كوخين متجاورين تجدان فيهما من السعة والراحة لهما ولولديهما أكثر مما تجدان في الكوخ الواحد ،

وأن أجعل أحدهما في ذيل القسم الأول ، وثانيهما في رأس القسم الثاني ، فتسكن كل منهما في أرضها ، وكأنها تعيش مع صاحبتها في مسكن واحد ، فأعجبتهما تلك الفكرة واغتبطتا بها ، فاستعنت بالزنجيين على قطع الأحجار من الجبال ، واجتلاب الأخشاب من الغابات ، وصنع مواد البناء وأنشأت لهام كوخين فسيحين يدور بهما سياج متين من الأغصان المتشابكة ، وغرست حولهما خميلة من أشجار اللاتينية تظللهما وتقيهما وهج الشمس وغائلة المطر .

وهنا صمت الشيخ وأطرق ، ثم رفع رأسه بعد قليل فإذا دمعة رقراقة تترجح في مقلتيه كلما حاولت أن تسيل أمسكها واستمر في حديثه يقول :

نعم بنيتهما وشيدتهما وأنشأت لهما السقوف والأبواب والكوى والنوافذ وها أنذا أراهما الآن بين يدي ساقطين متهدمين ، فلا أبواب ولا سقوف ولا نوافذ ولا كوى ولا قطان ولا سكان ، وكأن الله تعالى أراد أن يستديم تلك الذكرى في نفسي ، فلا تبرح مخيلتي حتى تذهب معي إلى قبري فأبقى على هذه البقايا الماثلة من جدرانها وأحجارها ليستثير مرآها شجني ويهيج آلامي وأحزاني ، أو كأن طوارق الحدثان التي لا تبالي أن تعصف بقصور الملوك وصروح الجبابرة وتذهب ببقاياها وآثارها إلى الأبد ،

وقفت وقفة الإجلال والإعظام أمام هذه الأكواخ الحقيرة المشعثة فأبت أن تقضي عليها القضاء كله إجلالاً لها واحترامًا لذكرى أصحابها الأوفياء المخلصين .

وبعد فلم أكد أفرغ من بناء الكوخين حتى شكت هيلين وجاءها المخاض فولدت طفلة جميلة كأنها النجم اللامع في سطوعه وإشراقه ، وسألتني أن أكون عرابها وأن أتولى تسميتها كما توليت تسمية ولد صديقتها ، فأشرت على مرغريت أن تفعل ، لأني أردت أن تكون لها أم ثانية فسمتها « فرجيني » وقالت لأمها : سيهيب الله ابنتك نعمة الفضيلة والعفة فتحيا حياة سعيدة هانئة ، فإني ما فقدت السعادة إلا منذ اليوم الذي انحرفت فيه عن طريق الفضيلة .

■ ■ ■

(5) الحياة الطبيعية

نهضت هيلين من نفاسها بارئة نشطة فأخذت هي وصديقتها مرغريت تعملان في أرضهما بمعونة الزنجي (دومينك) وهو رجل كهل قد نيف على الخمسين من عمره إلاّ أنه كان فتي الهمة والعزيمة واع الخبرة في شؤون الزراعة الجليلة وأساليبها ، فكان يغرس في كل أرض ما يناسبها من البذور والأغراس ، لا يفرق بين القسمين ولا يمنح أحدهما من اهتمامه وعنايته أكثر مما يمنح الآخر ، فزرع الذرة في التربة المتوسطة والحنطة في الأرض الجيدة والأرز في التربة السبخة ، والقرع والقثاء وما أشبههما من النبات المتسلق حول الصخور وفوق رؤوس الهضاب ، وزرع البطاطا في التربة الجافة اليابسة ، وشجرات القطن في الربوات العالية ، وقصب السكر في الأرض القوية المتينة ، وغرس على ضفة النهر حول الكوخين أشجار الموز ذات الأوراق العريضة والأفياء الظليلة ، ولم يفته أن يزرع لنفسه بضع شجيرات من التبغ يروح بتدخينها عن نفسه هموم دهره وآلامه .

وكان يذهب ـ فوق ذلك ـ إلى الغابات البعيدة والأحراش النائية لاحتطاب الحطب واجتلاب الوقود ، ويقضي جزءًا عظيمًا من يومه في تمهيد الأرض وتذليلها وتكسير الصخور ورصف الحصى وإنشاء الممرات والمستدقات والجداول والأقنية وكان يقوم بهذا العمل كله وحده راضيًا مغتبطًا لا أعينه عليه إلا بالرأي والإرشاد لأنه كان يحب سيدته حبًا جمًا ، ويخلص لها إخلاصًا عظيمًا ،

وربما كان للغرام يد خفية في ذلك النشاط الغريب المنبعث في أنحاء نفسه كما هو الشأن في أكثر حركات الناس وسكناتهم ، فإنه كان مغتبطًا كل الاغتباط بتلك الصلة التي نشأت بينه وبين الزنجية « ماري » في العمل ، وبوده لو استحالت إلى صلى أخرى غيرها أدنى إلى نفسه ، وألصق بفؤاده ، وقد تم له بعد عام واحد من اتصاله بها ما أراد ، فقد سمحت له سيدتاه بالزواج منها فبنى بها ليلة عيد ميلاد فرجيني وسعد بجوارها سعادة لا تختلف في روحها وجوهرها عن السعادة التي يهنأ بها البيض المتمدينون .

وكانت ماري فتاة نشطة حاذقة ذكية الذهن صناع اليد ، متحلية بكثير من الصفات الفاضلة ، وقد استفادت في مسقط رأسها « مدغشقر » العلم ببعض الصنائع اليدوية التي يزاولها الناس هناك ، فكانت تجيد صنع السلال من لحاء أشجار القصب ونسج المآزر والمطارف من خيوط بعض الأشجار الليفية ، وكانت تحسن القيام على خدمة المنزل ومناظرته وترتيب أثاثه وتربية الطيور الداجنة ورعي الماشية ، ومزوالة الطبخ والغسل ، فإذا فرغت من عملها حملت ما فضل عن حاجة البيت من فاكهة وحبوب ـ ولم تكن بالشيء الكثير ـ إلى سوق المدينة ، فباعته فيها ، ثم عادت ببضعة دريهمات تعطيها لسيدتها .

أي أن المزرعة كان يعيش فيها امرأتان وطفلان وخادمان وكلب للحراسة وعنزتان للبن وبضع دجاجات للبيض ، ولا أكثر من ذلك ولا أقل .

وكان لابد للسيدتين من أن تعملا عملاً يعينهما على عيشهما ويروح عنهما سآمة الوحدة ومللها ، فكانتا تغزلان بياض نهارهما وأحيانًا سواد ليلهما على ضوء القمر فاستطاعتا أن تجدا رزقهما ، ولكن مقترًا مكدودًا ، فأكلتا الدخن والذرة ، وشربتا الماء الرنق ، ولبستا القمص البنغالية الخشنة التي يلبسها الإماء في هذه الجزيرة ، ومشتا على الأرض حافيتين غير منتعلتين إلا في اليوم الذي كانتا تذهبان فيه إلى الكنيسة في حي « بمبلموس » لأداء الصلاة ، وقلما كانتا تذهبان إلى بورلويس عاصمة الجزيرة إلا في الدرجة القصوى من الضرورة حياء من نفسيهما وفرارًا من أعين الساخرين والهازئين فإن فعلتا نالهما من الألم والامتعاض ما ينغض عليهما يومهما ، ويستثير كامن حزنهما وألمهما ولا يزال هذا القلق يساورهما حتى تعودا إلى مزرعتهما فإذا أشرفتا عليها ورأتا على بعد منظر خادميهما المخلصين وهما يهبطان إليهما من قمة الجبل ليساعدهما على صعوده وتسلقه ، وشعرتا بنسيم الحرية العليل يهب عليهما ويمازج أنفاسهما ، نسيتا في هذا المعتزل المنفرد كل ما لحقهما وآلم نفسيهما من خشونة الناس وقسوتهم وفضولهم ، وكبريائهم ، وكأنهما قد نبتتا في هذه البقعة بين نخيلها وأشجارها ، ولم تريا حياتهما بقعة سواها .

ولقد عشت في كل جو وبيئة وخالطت جميع الطبقات والأجناس وعاشرت الناس أخيارًا وأشرارًا ، وأعلياء ، وأدنياء ، وحضرت مواقف الحب بين المتحابين والصداقة بين المتصادقين ، فلم أر في حياتي منظرًا أجمل ولا أبهج ، ولا أحلى في العين ،

ولا أوقع في النفس ، من منظر الحب والصداقة بين هاتين السيدتين الكريميتن ، حتى كان يخيل إلى أحيانًا أن نفسيهما قد استحالتا إلى نفس واحدة يحملها جسدان ، وكنت إذا حدثت إحداهما شعرت كأني أحدث الأخرى معها ، وإذا حدثتهما معًا كنت كأني أحدث نفسًا واحدة ذات صورة واحدة ولون واحد فلقد وجدت بينهما الهموم والآلام ، ومازجت بين نفسيهما الوحدة والعزلة والفكرة والرأي ، والحاجة والمصلحة ، والذكرى المؤلمة ، والبؤس المشترك ، فنطقت كل منهما بما نقطت به الأخرى ، وشعرت بما شعرت به ، وفكرت فيما فكرت فيه ، وكأن الله تعالى إذ ذوي عنهما الأرض الفسيحة ذات الطول والعرض ، وحرمهما فيها نعمة العيش الهنيء ، أبدلها منها بتلك الروضة الغناء من الحب والإخلاص ، لتعيشا فيها ناعمتين هانئتين ، لا تمر بسمائهما غيمة ، ولا ترجف بأرضهما رجفة .

فإذا اضطرمت بين جوانحهما في بعض الأحايين نار أقوى من نار الصداقة وأشد منها لهيبًا واستعارًا لا تلبث أن تهب عليها عاصفة من دينهما وتقواهما فتلوي بهما عن سبيلهما وتطير بهما إلى العالم الثاني كما تتطاير الشعلة الملتهبة في جو السماء إذا فقدت مادتها التي تتغذى بها على وجه الأرض .

وكان أعظم ما يؤنسهما ويروح عنهما ويمازج بين شعورهما وإحساسهما رؤية طفليهما الصغيرين بين أيديهما يمرحان ويلعبان ويعدوان ويطفران ، ويناما في مهد واحد ، ويستحمان في إناء واحد ، ويطير كل منهما شوقًا إلى صاحبه إذا فقد مكانه وغاب عنه وجهة ، كأنهما أخوان شقيقان ، بل توأمان متشابهان .

وكثيرًا ما كانت ترضع إحداهما ولد الأخرى فتمنحه من عطفها وحنانها ما تمنح ولدها ، حتى قالت هيلين مرة لمرغريت : « سيكون لدينا ولدان ولكل من ولدينا أمان » .

وكان اجتماع ذينك الطفلين اليتيمين على ثدي واحد بعد ما فجعهما الزمان بأسرتيهما ، وحرمهما حنان أبويهما وعطفهما ، سببًا في نموهما وترعرعهما ، وسرورهما وغبطتهما ، كالصنوبين الباقيين من شجرتين قد عصفت الريح بهما وبأغصانهما إذا لقح أحدهما بالآخر أوراقًا وأثمرا بأبهى وأجمل مما لو بقى كل منهما في مكانهما .

وكان يلذ لأميهما كثيرًا الحديث عنهما ، وعن مستقبل حياتهما ، وعن اتصالهما بعقدة الزواج متى بلغا أشدهما ، كأنما قد بقيت في زوايا قلبيهما بقية من ذلك الألم الماضي : ألم حرمانهما الهناء الزوجي الذي كانتا تتعللان به في مؤتلف حياتهما فهما تتعللان برؤية ولديهما متمتعين به .

إلا أن حديثهما هذا كان ينتهي أحيانًا ببكائهما ونشيجهما حينما تذكران أنهما قد أساءتا إلى نفسيهما بطموح إحداهما .

إلى منزلة في الحياة فوق منزلتها ، ونزول الأخرى فيها إلى مقام دون مقامها فعاقبتهما الطبيعة على تمردهما وشذوذهما بهذا العقاب المؤلم الشديد الذي تقاسيانه وتذوقان مرارته .

ولكنهما لا تلبثان أن تسمعا صوت طفليهما الصغيرين يبغيان في مهدهما ، ويتناغيان حتى تعودا إلى سكونهما واستقرارهما وتشعران ببرد العزاء يتدفق في صدريهما ، خصوصًا عندما تذكران أن الهناء الذي فاتهما في ماضيهما لن يفوت ولديهما في مستقبل أيامهما ، وكانتا تقولان إنهما سيقضيان حياتهما بعيدين عن مفاسد المدنية وشرورها وتقاليدها العمياء ، وأوهامها الباطلة ، فلا ينالهما من أذاها شيء .

■ ■ ■

(6) حياة الطفولة

ولم أر فيما رأيت من عجائب الأشياء وغرائبها أغرب من تلكم الصلة التي كانت بين هذين الطفلين الساذجين الطاهرين ، ولا أعجب من ذلك الامتزاج الذي مزج بين روحيهما ، فإذا شكا بول شكت فرجيني لشكاته ، وإذا بكا لا يخفض عبرته ، ولا يسري حزنه إلا رؤيتها باسمة بين يديه ، وكثيرًا ما كانت تتألم بينها وبين نفسها لبعض الشؤون فلا يدل على ألمها وحزنها إلا بكاؤه ونشيجه ، فكانت إذا ألم بها ألم طوت عليه ضلوعها ، وكاتمته نفسها ضنًا به أن تراه باكيًا أو متألمًا .

وما جئت هنا مرة في شأن من الشؤون إلا رأيتهما معاً يحبوان ، أو يدرجان أو يتداعبان أو يتماسكان ، أو يستبقان إلى غاية ، أو يتخاطفان لعبة ، فلم يكن شيء من الأشياء بقادر على أن يفرق بينهما حتى ظلام الليل ووحشته ، فقد كان لهما مهد واحد ينامان فيه معًا عاريين كعادة الأطفال في هذه الجزيرة ، وقد تلازما وتآخذا وتوسد كل منهما ذراع صاحبه كأنما يخشيان أن يفرق بينهما حادث من حوادث الدهر .

وكان أول ما نطقا به من الكلمات كلمتا الأخ والأخت ، وهي كلمة جميلة جدًا ما خلق الله في الكلم أجمل ، ولا أحلى ولا أشرف معنى ، ولا أطرب نغمة منها ، ويزيدها جمالاً وحسنًا صدورها من أفواه الأطفال الصغار كأنها عهد يأخذونه على أنفسهم منذ اليوم أن يكون كل منهما لصاحبه غدًا ، أو كأنها راية السلام البيضاء يرفعونها على رؤوسهم ، ويلوحون بها في الآفاق .

ثم أخذت تلك العلاقة الطفلية البسيطة تستحيل مع الأيام إلى صداقة جدية يشعر فيها كل منهما بحاجته إلى الآخر وإلى معونته ومساعدته ؛ فبدأ يشتركان في خدمة المنزل ومناظرة شئونه ، ومعاونة أميهما فيما هما بسبيله من طلب العيش ومعالجة القوت كل فيما هيأته طبيعته له .

فلحقت فرجيني بالزنجية « ماري » تتعلم منها الطبخ والغسل والنسيج وإعداد المائدة وتهيئة الفراش وخياطة الملابس وصنع السلال ، إلا أنها كانت تعني بما يتعلق بأخيها بول قبل كل شيء ، ولحق بول بدومينج يعينه بفأسه الصغيرة التي كانت لا تفارق عاتقة على فلح الأرض وحرثها ، وتخطيطها وتقسيمها وتحويل مياهها ، وقلع حشائشها ، وتسلق رباها ، وتقليم أشجارها ، فإذا عثر في طريقه بزهرة جميلة ، أو فاكهة طيبة ، أو طائر في عشه ، أو حشرة في حفرتها ، أو سمكة ملونة ، أو محارة ظريفة ، احتفظ بها في جيبه ليقدمها هدية لفرجيني حين يعود إليها .

وكانا على اختلاف شأنهما واستقلال كل منهما بعمله عن عمل صاحبه على اتصال دائم ببعضهما ، فحيث وجدت فرجيني فقد وجد بول معها ، أو على مقربة منها ، أو منحدرًا إليها ، أو مشرفًا عليها ، أو هاتفًا بها ، ما من ذلك بد .

وأذكر أني كنت منحدرًا ذات يوم من قمة الجبل ، وكان الجو ماطرًا مكفهرًا ، فرأيت فرجيني مقبلة نحو المنزل من أقصى الحديقة ، وقد رفعت إزارها من خلفها وأسبلته على رأسها لتتقي به المطر المتساقط ، فهرعت إليها لأساعدها على المسير ، ففلما دنوت منها رأيت أن ذلك الإزار الذي يضمها لا يضمها وحدها ، بل يضم معها أخاها بول، فنظرا إلى ضاحكين متهللين كأنهما مغتبطان باهتدائهما إلى تلك الفكرة الجميلة التي استطاعا بها أن يلجآ من ذلك الغيث المنهمل إلى ظلة واحدة فذكرني منظرهما هذا ومنظر رأسيهما الصغيرتين المتلاصقان في ذلك الإزار بمنظر طفلي ليدا وقد حفرا معًا في محارة واحدة .

وكانت حياتهما بسيطة ساذجة لأن ذهنهما كان بسيطًا ساذجًا خاليًا من مشاغل الحياة المركبة وهمومها ، فلا يفكران في شأن غير شأنهما ولا يسبحان في محيط غير محيطهما ، ولا ينتقلان بذهمنا من الحاضر إلى الماضي أو المستقبل ولا تترامى أبصارهما إلى ما وراء الأفق المحيط بهما ، كأنما يظنان أن العالم ينتهي حيث تنتهي جزيرتهما .

ولقد أراحهما من عناء البحث والتفكير جهلهما وأميتهما وبعدهما عن هموم العلم ومشاغله فلم يقدر لهما أن يسهرا ليلهما مكبين على المذاكرة والمدارسة حتى يغلبهما النوم فيناما في مكانهما ن ولم يذرفا الدموع الغزار يومًا من أيامها أمام معضلة من معضلات العلم ، أو مشكلة من مشكلاته ، حتى تتقرح أجفانهما ، ولم يثر غيظهما وحنقهما عجزهما عن التغلب على خصومهما في ميدان المجادلة والمناظرة حتى تنشق مرارتهما غيظًا وحنقًا ،

وما شعرا في ساعة من ساعات حياتهما بحاجتهما أن يعرفا غير ما يعرفان ، لأنهما يعلمان أنهما ما خلقا إلا ليعيشا سعيدين هانئين ، وها هي السعادة تظللهما بأجنحتها البيضاء ، وتتدفق بحرًا زاخرًا تحت أقدامهما ، وإلا ليؤديا واجب الحب والإخلاص لذينك الشخصين الكريمين عليهما ، وها هما يقومان بهذا الواجب بأفضل ما يقوم به عبد لسيده ، بل عابد لمعبوده .

فما بهما من حاجة إلى من يعلمها أن الكذب حرام ، لأنهما يكذبان ، ولا أن السرقة جريمة ، لأن جميع ما يقع تحت متناول يدهما ملك مشترك للجميع ليس أحد أولى به من الآخر ، ولا أن الجشع رزيلة ، لأن ما يشتمل عليه كوخهما بسيط محدود لا يحتمل جشعًا ولا نهمًا ، ولا أن البر بالوالدين واجب ، لأنهما كان يعبدان أميهما عبادة هي فوق البر والإحسان ، ولا أن الصلاة فريضة ، لأنهما وإن لم يذهبا إلى الكنيسة إلاُّ قليلاً ، فقد كانا يصليان في كل أرض وفي كل جو : في البيت والمزرعة ، والقمة والرابية ، والسهل والجبل ، وفي بكور الأيام وأصائلها ، وأوائل الليالي وأواخرها .

***

وكذلك أشرقت حياتهما الأولى إشراق الفجر المنير في صفحة الأفق مبشرًا بيوم صحو جميل ، وأخذت تمر بهما الأيام عذبة صافية جريان الغدير المترقرق على بياض الحصباء سواء ليلها ونهارها ، صبحها ومساؤها .

وكان من شأني فرجيني أن تستيقظ صباح كل يوم مبكرة والطير لم يفارق وكره فتحمل جرتها وتذهب إلى نبع صاف كان على بعد المرحلة من المزرعة فتستقي منه ثم تعود فتجلس لتهيئة طعام الإفطار ، حتى إذا برزت الشمس من خدرها وأخذت تنفض بيديها غبار الظلام عن وجه الأرض ، وتوسح جبين الطبيعة المكتئب بريشة أشعتها الذهبية ، أقبلت مرغريت من كوخها هي وولدها فتبادلوا جميعًا تحية الصباح ثم اصطفوا لأداء الصلاة وبسطوا أيديهم إلى السماء ضارعين إلى الله تعالى أن يكلأهم بعين رعايته ويبسط عليهم جناح رحمته ، وأن يهئ لهم من أمرهم رشدًا ، فإذا انتهوا من صلاتهم خرجوا خارج الكوخ لتناول الطعام على مائدة من العشب الأخضر تحت ظلة دانية من الأغصان المتشابكة تتساقط عليهم قطع النور من فجواتها كأنها النثار الفضي اللامع .

فكان أثر ذلك الغذاء الطبيعي البسيط تحت هذه السماء الصافية وفوق تلك الأرض الندية المخضلة عظيمًا في نمو الولدين وترعرعهما ، ونضرة وجوههما ، وحلاوة ملامحهما ، فلم تبلغ فرجيني الثانية عشرة من عمرها حتى استقام عودها ،

واعتدل قوامها وتهدل شعرها الأصفر اللامع على كتفيها كأنما قد نسج من خيوط الشمس وأضاءت عيناها الزرقوان بنور سماوي غريب كأنه قبس من النور الإلهي فإن ابتسمتا كانت كأنهما ثغران ضاحكان ، وإن قطبت سبحتا وحدهما في جو السماء ، حتى لتلقي رزقتهما بزرقتها .

أما بول فقد كانت قامته أطول قليلاً من قامة فرجيني ، ونظره أحد من نظرها ، وأنفه أكثر شممًا من أنفها ولونه أقرب إلى السمرة من لونها أي أن ملامحه كانت تذهب مذهب الرجولة في تكوينها واستدارتها وكانت تنبعث من عينيه نار من القوة والنشاط تكاد تلتهب التهابًا لولا تلك الأهداب الندية الحافة بهما .

وكان لا يزال ثائرًا مهتاجًا ما يهدأ ولا يسكن حتى تقبل عليه فرجيني وتجلس بجانبه فإذا هو الطفل الصغير بساطة وسذاجة ووداعة ولطفًا .

وكثيرًا ما كانا يجلسان معًا صامتين هادئين ساعات طوالاً على ضفة النهر ، أو حافة ينبوع ، أو ربوة عالية أو قمة مشرقة وقد اضطجع كل منهما بجانب الآخر ومد قدميه العاريتين فكأنهما تمثال رخامي عتيق من تماثيل أولاد « بينلوب » وكأن حياتهما حياة الملائكة الأبرار في عالمها العلوي لا تشعر بحاجتها إلى الحروف والكلمات في التعبير عن شعورها وإحساسها .

ولم يتكلما وقد قامت لهما نظراتهما المتمازجة وابتساماتهما المتماوجة مقام الألسنة في نطقها وإفصاحها ، ولم يكن حبهما حبًا صناعيًا ولا متكلفًا فيحتاجا إلى استدامته واستبقائه وتأريث ناره في قلبيهما بالملق والدهان والتدليل والترفيه وخلابة الألفاظ وسحر البيان ، لا بل لو سئل أحدهما عن الحب وتعريفه وصفاته لما استطاع أن يجيب بشيء لأنه لا يفهم من الحب سوى أنه حاجة إلى بقاء صاحبه بجانبه لا يفارقه ، ولا يغيب عن وجهه ، ولا يزيد على ذلك ولا ينقص شيئًا ، ولقد استقر هذا الشعور في نفسيهما وملك عليهما حواسهما وخوالجهما فلم يفكرا في تشخيصه وتحديده واستعراض صوره وألوانه ، فكان أشبه شيء بالإيمان في قلوب العجائز ، والإلهام في أنفس الحيوان ، والعبقرية في أذهان الخاملين المغمورين ، فهما ينعمان بحب هادئ لطيف لا جلبة فيه ولا ضوضاء ، لا تجاذب ولا تآخذ ، ولا شكوى ولا عتاب ، ولا سهر ولا قلق ولا خوف من الطوارق ، ولا خشية من الفواجئ

إلا أن هيلين وقد رأت فتاتها تنمو وتترعرع ويتلألأ وجهها بتلك المحاسن الباهرة بدأت تفكر في أمرها وأمر مستقبلها ، وتقول في نفسها : ماذا يكون مصير هذه الفتاة المسكينة غدًا إن عدت على عوادي الدهر ، وفرقت المنية بيني وبينها ، وخلفتها وحدها هنا في هذه الجزيرة المجدبة بين هذه الخلائق الغريبة وحيدة منقطعة لا سند لها ولا معين ؟

وكانت لها عمة ثرية ثراء واسعًا إلا أنها كانت امرأة متكبرة تياهة شديدة الذهاب بنفسها ، مدلة بجاهها ونفوذها مشردة في آرائها وأفكارها فنقمت عليها أشد النقمة لاتصالها بذلك الفتى الفقير الذي اختارته زوجًا لها ، واعتبرت حادثتها هذه نكبة من أعظم النكبات ، التي حلت بها وبأسرتها ، فأبت أن تغفر لها زلتها ، وأن تمد لها يد المعونة عندما عزمت على السفر إلى هذه الجزيرة ، واستهانت بدموعها وآلامها ، وضراعتها ومناشدتها ، فسافرت وقد آلت على نفسها أن لا تلجأ إليها في شأن من شؤون حياتها ما تردد لها نفس على وجه الأرض ، أما الآن وقد أصبحت أمًا يعنيها من أمر فتاتها ما يعني الأمهات من أمر فتياتهن ، فلم تر بدًا من أن تحمل نفسها على ذلك المكروه الذي عافته برهة من الزمان ، فكتبت إلى تلك العمة القاسية كتابًا طويلاً أفضت إليها فيه بخواطر نفسها ، ووساوس قلبها ، وما كان من وفاة زوجها على أثر حضورها ، وحياتها الشقية التي كانت تحياها الآن من بعده وحيدة منقطعة لا ناصر لها ولا معين ، وظلت تحدثها حديثًا طويلاً عن ابنتها وما تخشاه عليها في مستقبل حياتها إن نشب بها ظفر جارح من أظفار الدهر وفرقت المنية بينها وبينها ، ثم قالت في ختام كتابها :

« إن كنت ترين أنني لا أزال مذنبة بعد ذلك ، وأن تلك الدموع السخية التي رويت بها ثرى الأرض اثني عشر عامًا لا تكفي لمحو زلتي من صحيفة أعمالي ، فارحمي هذه الفتاة المسكينة من أجلها لا من أجلي فهي حفيدة أخيك وغصن دوحتك والبقية من أسرتك » .

لبثت تتنظر ردًا على كتابها ، فلم يأتها ، فأتبعته بآخر ، ثم بآخر ، وضرعت في ذلك ضراعة لم يكن مثلها مما يهون على مثلها لولا عاطفة الأمومة ورحمتها ، حتى كانت سنة 1738 أي بعد قدومها هنا باثني عشر عامًا وبعد مرور ثلاث سنوات على قدوم مسيو « دي لابور دنيه » حاكمًا على الجزيرة إذ علمت أن ذلك الرجل يسأل عنها ليسلمها كتابًا ورد عليها من عمتها ، فاستطيرت فرحًا وسرورًا ، وعلمت أن أيام شقائها قد انتهت ، وأن الله رحمها ، ورثى لبؤسها وشقائها ، وهرعت إلى « بورلويس » لمقابلته فدخلت عليه في ذلك الثوب البنغالي الخشن الذي اعتادت أن تلبسه في بيتها غير حافلة بشيء إلا تلك السعادة التي ستقدمها عما قليل لابنتها فاستقبلها الرجل استقبالاً جافًا خشنًا ، وهي المرأة الشريفة الطاهرة التي تغضي العيون بين يديها إجلالاً وإكبارًا ، والبائسة المسكينة التي تهابها النفوس مرثاة لها ومرحمة لبؤسها وشقائها ولم يزذ على أن أومأ إليها برأسه إيماءة خفيفة ، ثم تقدم نحوها بعظمة وكبرياء وأعطاها كتابها ، فاختطفته من يده وأنشأت تقرؤه بلهفة وسرور إلاَّ أنها لم تقرأ منه بضعة سطور حتى امتقع لونها ، وارتعشت يدها ، وترنحت في مكانها ترنح الشاب الثمل ، فقد كتبت إليها عمتها تؤنبها وتقرعها تقريعًا مؤلمًا مهينًا ، وتشمت بها وبمصيرها ، وتقول لها : هذا جزاء تمردك وعصيانك وخروجك عن أهلك وقومك وانقيادك إلى شهوتك البهيمية واسترسالك فيها استرسالاً دفع بك إلى أحضان ذلك الفتى الوضيع المهين الذي لا يليق به أن يحل سيور حذائك ،

حتى جلبت على نفسك وعلى أهلك العار الذي لا يمحى ، ولقد أحسنت كل الإحسان بمغادرتك هذه البلاد وفرارك إلى تلك الجزيرة المنقطعة لتدفني فيها نفسك وعارك إلى الأبد ، وما موت زوجك ، وولادة ابنتك وشقاء عيشك والوساوس التي تعتلج في صدرك خوفًا على فتاتك ، وعلى مستقبلها ، إلا عقوبة أنزلها الله بك ليمحص عنك ذنوبك ويمهد لك سبيل غفران سيئاتك فاصبري ولا تجزعي ، حتى يقضي الله قضاءه فيك .

ثم أنشأت تدل عليها بنفسها ، وتفاخرها بعفتها وطهارتها وترفعها وإبائها ، وأنها قضت أيام حياتها عانسًا متبتلة ما تزلق بها شهوتها في هوة من تلك الهوى التي تزلق فيها أقدام النساء الجاهلات ، ولا تسلم قيادتها إلى رجل من الرجال كائنًا من كان ضنًا بحريتها أن تعبث بها أيدي المطامع والأهواء .

وكانت كاذبة فيما تقول فهي امرأة دميمة شوهاء غريبة الأخلاق والأطوار ، ليس لها من المزايا إلا ثروتها الطائلة وجاهها الواسع ، ومكانتها من البلاط الملكي ، وكان كبريائها الكاذب يأبى عليها إلاّ أن تتزوج من رجل من ذوي البيوتات العظيمة والألقاب الضخمة ، وليس من بين هؤلاء جميعًا من يرضى أن يبيعها نفسه بيعًا مهما بلغ من رقة الحال ، وشظف العيش ، ولم يزل هذا شأنها حتى تجاوزت سن الزواج وضاعت بين سخافتها وكبريائها .

ثم ختمت كتابها بقولها « لا بد لك أن تعملي لنفسك ، فقد علمت أنك في جزيرة صالحة للعمل والاستثمار ، وأن جميع المهاجرين الذين يؤمونها يعودون منها بالثروة الطائلة والربح الكثير على أنني قد كتبت إلى مسيو دي لا بوردنيه حاكم الجزيرة أوصيه بك خيرًا فاعتمدي عليه ، وعلى معونته ، ولا تكتبي إلى بعد اليوم .

وكانت صادقة في كلمتها هذه ، فإنها كتبت إلى ذلك الرجل كتابًا توصيه بها فيه إلا أنها ملأته بذمها وثلبها ، والاستطالة عليها في عرضها وشرفها ، كأنها تلتمس لنفسها عذرًا عنده في قسوتها عليها ، وعنفها بها وضنها عليها بالمعونة والمساعدة .

فكان أثر ذلك في نفسه أن ازدراها واحتقرها ، وتجهم لها حين رآها ثم ودعها بمثل ما استقبلها به ، ولم يسألها عن شأن من شؤونها ولم يمنحها غير وعود كاذبة كان ينطق بها بلهجة جافة خشنة مملوءة ضجرًا ومللاً ، فكأنما أوصته بقتلها والقضاء عليها .

■ ■ ■

(7) العزاء

عادت هيلين إلى المزرعة ونفسها تسيل لوعة وأسلا ، فما بلغت كوخها حتى ألقت بالكتاب على المنضدة وتهافتت على سريرها باكية منتحية ، فهرعت إليها صديقتها تسألها ما شأنها فأشارت إلى الكتاب وقالت : هاهي ذي خلاصة حياتي من أولها إلى آخرها ، ولم تكن مرغريت تحسن القراءة فأتت بالكتاب فأنشأت تقرؤه عليها وفؤادها يتمزق لوعة وأسى ، فقاطعتها مرغريت وأقبلت عليها تقول لها : متى تخلى الله عنا يا هيلين فنلجأ إلى الناس في شؤوننا ، ونعتمد عليهم في رزقنا ، ونحن أغنياء عنهم بما هيأه الله لنا من القوت في هذه الجنة الصغيرة التي نعيش فيها ، فما فينا من يشكو جوعًا أو عطشًا ، ولا من يمشي عاريًا أو حافيًا ، ولا من يبيت مغتمًا أو محزونًا فروحي عن نفسك ، فالله أرحم بك من الأقارب والأصدقاء ، ثم عجزت عن امتلاك نفسها ومتابعة حديثها ، فاختنق صوتها بالبكاء فتهافتت هيلين على عنقها وضمتها إلى نفسها وظلت تقول لها آه يا صديقتي ! آه يا صديقتي .

وكانت فيرجيني واقفة بجانبها فأثر في نفسها هذا المنظر المحزن ، فاستعبرت باكية ، وظلت تتناول يد أمها مرة ومرغريت أخرى فتقبلهما وتبللهما بدموعها وتقول لهما أرجو أن لا يكون ذلك من أجلي ، فبكى لبكائها الزنجيان وكانا واقفين عند الباب واشتد نحيبهما ونشيجهما ، أما بول فقد عصفت في رأسه عاصفة الغضب وظل يضرب الأرض بقدميه

ويشير بيديه متهددًا متوعدًا لا يعلم من يهدد ، ولا من يتوعد ، ولا على أي رأس من الرؤوس يرسل صاعقة غضبة لأنه لم يفهم مما كان شيئًا فكان هذا المأتم الغريب في تلك الساعة الرهيبة مظهرًا من مظاهر الإخلاص والولاء بين قوم جمعتهم جامعة البؤس والشقاء ، ووحدت بين قلوبهم الهموم والآلام ، واجتمعت القلوب على شيء هو أجمع لشملها وأوثق لرباطها من اجتماعها حول مواقف الهموم والأحزان ، فسرى عن هيلين قليلاً ، وضمت بول وفرجيني إلى صدرها وقالت لهما : إنكما ، وإن كنتما يا ولدي سبب أحزاني وآلامي ، ولكن الشقاء لم يأتني منكما ، فلم يفهما شيئًا مما تقول ، ولكنهما علما بها قد هدأت وسكنت ، وأنها تبتسم لهما فاعتنقاها وقبلاها .

وما لبثوا جميعًا أن عادوا إلى سرورهم وغبطتهم ولعبهم ومرحهم .

(8) الاستعمار الأوربي

مضت على ذلك أيام والولدان ينموان في جوهما نمو النبات المحيط بهما وينمو معهما طيب أخلاقهما وحسن سجاياهما ؛ فبينا فرجيني جالسة في الكوخ ذات يوم تهئ طعام الإفطار لأسرتها كعادتها والشمس لا تزال في خدرها وأماها قد ذهبتا مع دومينج لأداء صلاة الأحد في كنيسة « بمبلوس » وبول في الحديقة يشذب بعض أشجارها ، وماري وراء الكوخ تشغل ببعض شؤونها إذ دخلت عليه زنجية مسكينة آبقة كأنها الهيكل العظمي نحولاً وهزالاً ليس عليها من الثياب إلا خرقة بالية تدور بحقويها فجثت على ركبتيها بين يديها باكية منتحبة وأنشأت تقول لها : الرحمة يا سيدتي فإني أكاد أموت جوعًا ، وقد مرّ بي يومان ، وأنا أجوب هذه الأحراش والغابات أتوارى مرة وأظهر أخرى ، وأقتات كل ما هو فوق التراب مخافة أن تقع عيون بعض الفضوليين من الصيادين فيعيدوني إلى سيدي ، والموت أهون على من أن أعود إليه ، فهو رجل قاس غليظ لا يزال يجلدني ويمزق لحمي بسوطه كلما بدا له أن يفعل ذلك ، ثم كشفت ثوبها عن جسمها وأشارت إلى مواضع الضرب منه فإذا خطوط حمراء ملتهبة لا يستطيع نظر الناظر أن يثبت أمامها لحظة واحدة ، ثم قالت : ولقد حدثت نفسي كثيرًا بالانتحار فما كان يمنعني منه إلا الخوف والجزع ، ثم سمعت الناس يتحدثون عنكم حديثًا حسنًا ، ويقولون إنكم ،

وإن كنتم من هذا الجنس الأبيض المخيف ولكنكم قوم محسنون راحمون ، فأضرع إليك يا سيدتي أن ترحميني وتعودي على بلقمة أتبلغ بها ، وأن تحولي بيني وبين الشقاء ، وهنا اشتد بكاؤها ونحيبها فأوت لها فرجيني ورقت لها رقة شديدة ونهضت إلى الطعام الذي كانت أعدته لأسرتها فأتتها به فالتهمته في لحظات قليلة وأخذ وجهها ينطلق فرحًا وسرورًا ، فقالت لها فرجيني : أتحبين أن أذهب معك إلى سيدك وأشفع لك عنده عله يعفو عنك ويرحمك ، ويكون لك في مستقبله خيرًا منه في ماضيه ؟ وما أحسبه إلا فاعلاً حين يرى بؤسك وشقائك ومنظر جسمك المعذب المقروح ، فشكرت لها الجارية فضلها ورحمتها ، وقالت لها : سأتبعك يا سيدتي حيث شئت فأنت ينبوع الرحمة والإحسان .

فهتفت فرجيني ببول فحضر فحدثته حديث الجارية والرأي الذي رأته لها ، فوافقها على رأيها واقترح عليها أن يرافقها في رحلتها . ثم سارا معًا والجارية تتقدمهما وتخترق بهما الغابات والأجمات في ممرات مستدقة غامضة تعرفها ، وكانت تعترضهما في مسيرهما بعض هضبات عالية كانا يجدان مشقة عظمى في تسلقها حتى أشرفا وقت الظهيرة على ضفة النهر الأسود حيث مقام الرجل ، فانحدرا إليه ، وهناك شاهدا أبنية عظيمة فخمة تحيط بها حدائق غناء ، وأدواح ملتفة ومزارع منبسطة ، وعبيد كثيرون منتشرون في كل مكان يحرثون ويحصدون ، ويحفرون وينقبون ، ويخوضون الأوحال ويحملون الأثقال ويقطعون الصخور ولمحا صاحب المزرعة يتمشى بينهم مشية الخيلاء و « غليونه » في فمه ينفث منه الدخان وبيده عصا خيزران طويلة ،

وهو رجل طويل القامة ، مهزول الجسم ، غائر العينين مقطب الجبين ، كأنما قد جثمت روحه الشريرة بين عينيه واستعدت للوثوب على كل من يدنو منها ، فارتاعت فرجيني لمنظره المرعب المخيف إلا أنها لم تجد بدًا من التقدم ، فمشت نحوه خائفة مضطربة تعتمد على يد بول والجارية من خلفهما تتبعهما حتى بلغته فجثت بين يديه وأخذت تضرع إليه أن يعفو عن جاريته المسكينة ويرحمها وتناشده الله والكتاب في ذلك ، فلم يكترث في مبدأ أمره لمنظر فتى وفتاة فقيرين زريين في ملبسهما وهيأتهما إلا أنه لما وقع نظره على فرجيني ورأى منظرها البديع الجذاب ، وشعرها الأصفر الذهبي المسترسل على ظهرها ، وتلك العصابة الزرقاء التي تدور بجبينها الأبيض المشرق ، ورأى ماء الحياة يترقرق في وجهها ترقرق الطل في ورقات الورد وسمع صوتها الرخيم المتهدج كأنه ينبعث من آلة موسيقية شجية ، بهت رشده ، وأخرج غليونه من فمه ، وابتسم ابتسامة نكراء ، تقدم نحوها قليلاً وألقى عليها نظرة فاجرة مريبة ، وقال لها : قد عفوت عنها أيتها الفتاة الجميلة لا من أجل الله ، ولا من أجل الكتاب ، بل من أجلك أنت .

فأشارت فرجيني إلى الجارية أن تتقدم لتشكر لسيدها نعمته وفضله . ثم انكفأت راجعة تركض ركض الهارب وبول يتبعها حتى ارتقيا الجبل الصغير الذي هبطا منه وجلسا تحت دوحة من أدواحة يستريحان ، وكان التعب قد نال منهما منالاً عظيمًا ، فقد قطعًا في ذلك اليوم خمسة فراسخ في أرض صخرية وعرة لا يستريحان فيها .

ولا يهدآن ولا يتبلغان بطعام ، ولا شراب ، فقال بول لفرجيني ها قد مال ميزان النهار وبيننا وبين مزرعتنا مفازة منكرة لا أحسب أننا نستطيع قطعها قبل الغروب ، وليس في هذه البطحاء المحيطة بنا شجرة واحدة ذات ممر صالح نطعمه أو ننقع ظمأنا بعصارته ، وأنت ظامئة جائعة لا طاقة لك بالصبر على ذلك أكثر مما صبرت ، فخير لنا أن نعود إلى مزرعة مولى الجارية ، ونطلب إليه أن يمدنا بشيء من الطعام والشراب ، وما أحسبه ضانًا علينا بهما .

فوجمت فرجيني وقالت : لا يا بول . إن هذا الرجل قد ملأ قلبي خوفًا ورعبًا وما أحب أن أرى وجهة مرة أخرى ، واذكر تلك الكلمة التي كانت تقولها لنا أمي دائمًا « إن خبز الأشرار يملأ الفم حصى » فلنمض في سبيلنا وما أحسب أن الله يخذلنا ، أو يتخلى عنا .

قال : وما العمل ؟ والشقة بعيدة ، والمنال وعر ، والأرض قاحلة جدباء لا ماء فيها ولا ثمر ، ولا شيء مما يتبلغ به المتبلغ أن يتعلل به الظامئ ؟

قالت : إن الله الذي يسمع زقزقة العصفور في عشه فيرسل إليه الحبة التي تشبعه ، سيسمع دعاءنا ، ويرد لهفتنا . وما ذلك عليه بعزيز .

ثم سارا في طريقهما فما أبعدا إلا قليلاً حتى سمعا خرير ماء على البعد فانتعشا وصاحا بصوت واحد « إن ههنا ماء » وتبعا الصوت حتى وصلا إلى صخرة عظيمة عالية ينفجر من صدوعها ماء زلال رقراق كأنه ذوب البلور في شفوفه ولمعانه ، فشربا منه حتى ارتويا ووجدا من حوله بعض الأعشاب التافهة فأصابا منها قليلاً ، ثم جلسا في مكانهما .

وإنهما لكذلك إذ لمحا على البعد نخلة ساحقة من نخيل الجوز ، والجوز أنواع كثيرة متعددة ، وهذا النوع منها دقيق مستطيل لا يزيد حجم ساقه عن حجم ساق الإنسان إلا قليلاً ، وربما ذهب في الهواء ستين قدمًا أو أكثر ، وله في سعفاته لفائف ضخمة متراكمة أشبه بلفائف الكرنب تحمل في جوفها طلعًا أبيض ناصعًا ، حلو الطعم جيد الغذاء .

فاتجها بها إذ رأياها ، وهرعا إليها ، وكانا بين أن يصعداها ، وهو مالا سبيل إليه أو يقطعاها ، وهو ماتعيا به قوتهما ، لأن جذعها على رقته ونحافته مؤلف من خيوط ليفية متداخلة متينة النسيج ، سميكة القشرة ، تعيا بها الفؤوس القاطعة ، فلم يبق أمامهما إلا أن يحرقاها فتهوى بين يديهما فيظفرا بثمرها ، ولم يكن لديهما نار ، ولا شيء مما تقتدح به النار ، وليس في تلك المدرة جميعها على كثرة صخورها وأحجارها واختلاف صورها وأشكالها حجر من أحجار الاقتداح ففتقت الحاجة لبول حيلة من أغرب الحيل وأبدعها وقديمًا فتقت الحاجات حيل الرجال ، واستثارت دفائن ذكائهم وفطنتهم ، وما انتفع العالم في جميع شؤونه وأحاوله بمثل ما تفتقه الحاجات والضروريات ، ولانبتت أغراس المعارف والعلوم والمستكشفات والمخترعات إلا في تربة الفقر والإقلال ، فعمد إلى ظر رقيق الأطراف مما يقوم لدى سكان تلك الأصقاع مقام المدى في منفعتها وجداها ، فبرى به طرف غصن يابس متين حتى صيره كالسهم ، ثم عمد إلى غصن آخر من نوع غير نوعه فثقبه ثقبًا دقيقًا بحد ذلك الحجر نفسه ، ثم أدخل طرف الغصن الأول في ثقب الغصن الثاني بعدما شد عليه بقدمه

وظل يديره بكلتا يديه بسرعة عظيمة ، فما هي إلا لحظات حتى التهب الغصنان وانبعث منهما دخان وشرر ، فجمع بضعة أعواد يابسة وأوراق جافة وألقاها على النار فاشتعلت ، فأدناها من ساق النخلة فنشبت بها ، ولم تلبث إلا قليلاً حتى هوت بين يديه هوى الكوكب الناري من سمائه ، فأخذ يفض اللفافات عن طلعها الأبيض النضير ، وجلس هو وفرجيني يشتويان ويأكلان ألذ طعام وأهنأه حتى اكتفيا ومرت بهما ساعة سرور وغبطة نسيا فيها بؤسهما وشقاءهما ، ثم ما لبثا أن جمعا شتات نفسيهما وأخذا يتمثلان حيرتهما وضلالهما ، وبعد الشقة بينهما وبين أرضيهما ، ويذكران قلق أميهما عليهما وجزعهما لغيابهما ، ويقولان في نفسيهما . لابد أن تكون الظنون قد ذهبت بهما مذاهب سيئة في شأنهما حينما عادتا من الكنيسة إلى المزرعة فلم تجداهما ، ولم تعرفا الوجه الذي ذهبا فيه .

ثم نهضا من مكانهما وأخذا يدوران بأنظارهما يمنة ويسرة ليتعرفا الطريق التي أتيا منها فأضلاها فسقط في أيديهما ولم يعرفا كيف يعودان وكان بول أهدأ من فرجيني روعًا وأثبت جأشًا ، فظل يعللها ويهدئ روعها ويقول لها : إن كوخنا يكون دائمًا في مثل هذا الساعة تحت قرص الشمس ، فإذا نحن اتجهنا جهة الشرق لا نحيد عنه يمنة ولا يسرة ، ثم إذا صعدنا هذا الجبل المثلث الرأس الذي نراه أمامنا لا نلبث أن نجد أنفسنا في مزرعتنا .

وأخذا يسيران في الوجهة التي توهماها فمرا بغابات كثيرة ، وأدواح ملتفة وهضاب عالية ، وأنهار جارية ، لم يطأ السائحون لها أرضًا حتى اليوم ، وظلا على ذلك ساعتين حتى اعترض طريقهما نهر واسع يتدفق ماؤه تدفقًا ، فذعرت فرجيني لمنظره ومنظر الصخور السوداء الجاثمة في مجراه واستحال عليها أن تضع قدمها فلم ينشب بول أن حملها على ظهره وخاض بها الماء لا يحفل بتياره المتدفق ، ولا بصخوره المتزلقة وظل يقول لها وهو سائر بها لا تخشى شيئًا يا أختاه فإنني جلد قوي لا يعجزني حمل شيء من الأشياء كيفما كان شأنه ، وأشعر أني أزداد قوة وجلدًا حين أكون معك ، وأستطيع أن أقول لك إن نفسي كانت تحدثني بشر عظيم لذلك الرجل مولى الجارية حينما ظننت أنه احتقرك وازدراك فلم يحفل بك ولا برجائك ولو أنه فعل لبطشت به بطشة لا أبالي بعواقبها .

فاضطربت فرجيني وقالت له : ولكنك لا تفعل يا بول إلا إذا أردت أن تكون غلامًا شريرًا ، دع الأشرار يا صديقي وشانهم ، لا تهجم ، ولا تعترض طريقهم ، عسى أن يموت شرهم في صدروهم حينما لا يجد له مضربًا ولا منتدحًا ، ثم تنهدت ورفعت رأسها إلى السماء وقالت : آه يا رب لم لم تجعل طريق الخير سهلاً لينًا كطريق الشر ؟

ولم يزل سائرًا بها حتى بلغ الضفة الأخرى ، وأراد أن يستمر في سبيله حاملاً إياها على ظهره ويصعد بها الجبل المثلث الرأس اعتزازًا بقوته وبأسه فألحت عليه ألا يفعل فأنزلها .

واستمرا سائرين في أرض وعرة كأداء كاطراد السيف تخفى فيها النعال وتدمي الأقدام ، وكانت فرجيني قد نسيت نعلها في كوخها حينما ورد عليها من أمر تلك الزنجية المسكينة ما أذهلها وطار بلبها ، فأضر بها الجهد ، وأدمى قدميها المسير ، فلم تزل تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى جدول ماء جار فترامت على ضفته وأخذت تنضح قدميها بمائه ، ثم مدت يدها إلى شجرة فرعاء حانية عليها فاقتطعت بعض أعوادها وأوراقها ونسجت منها لنفسها ما يشبه النعل ، فانتعلته ، فهدأ ما بها ؛ وأقبلت على بول تقول له : ها هي ذي الشمس قد أشرفت على المغيب ولا تزال الشقة بيننا وبين المزرعة بعيدة جدًا وقد نال مني التعب ولم يبق لي جلد على المسير ؛ فاتركني وحدي هنا ، واذهب إلى المزرعة لتخبر أهلنا خبرنا فيطمئنوا علينا ، وابعثوا إلى من قبلكم من يحملني إليكم ، فأبى بول مستعظمًا الأمر ، وقال الموت أهون على من أن أتركك وحدك في هذا المكان الموحش المقفر فسأبقى معك ما بقيت فإن أظلنا الليل قطعت لك نخلة من نخيل الجوز فأطعمتك ثمرها كما فعلت الغداة ثم نسجت لك من أعوادها وأغصانها . مهادًا لينًا تنامين عليه وأنا ساهر بجانبك حتى الصباح . فأذعنت لرأيه وكانت قد شعرت بشيء من الراحة بعدما خصفت قدميها بتلك الأعواد المخضلة فقامت تعتمد بيمناها على فرع قطعته من تلك الشجرة ، وبيسراها على كتف بول حتى بلغا غابة كثيفة قد أحاط بها من جميع أقطارها كثير من الأدواح الباسقة الملتفة فدخلاها ، وما أمعنا فيها إلا قليلاً

حتى احتجب عنهما وجه الشمس وراء تلك الهضاب الشامخة ، والأدواح العالية ، وغاب عن عينيهما الجبل المثلث الرأس ، وكان علمهما الذي يهتيدان به ، فإذا هما في مضلة بهماء لا يريان فيها غير الصخور العالية والهضاب المشرقة والأشجار المتشابكة ، والمسالك المتشابهة والأعماق المتغلغلة فذعر بول شديدًا ووقف مكانه حائرًا ذاهلاً لا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع ؟ ثم اندفع يعدو ههنا وههنا هائمًا مخبولاً عله يجد طريقًا أو مسلكًا ، أو دليلاً يهديه الطريق ، فلم يجد فتسلق شجرة عالية ووقف بين فرعين من فروعها وظل يدور بنظره حوله ليرى موضع الجبل المثلث الرأس أو يرى قرص الشمس في منحدرها إلى مغربها فلم ير غير ذوائب الأشجار العالية تتلألأ على أوراقها الخضراء أشعة الشمس الذهبية قبل انحدارها إلى الغروب ، وغير الظلال الممتدة التي يرسلها الليل طلائع لجيوشه الزاحفة المتدفقة ، وكانت الريح قد هدأت وخفت صوتها ساعة الغروب ، وساد السكون على كل شيء فأصبحت الغابة كأنها كوكب من كواكب السماء السابحة في أجواز الفضاء لا يدب فيها حيوان ، ولا يخطر إنسان فملك الخوف قلب بول وجن جنونه وأخذ يصيح بأعلى صوته لا يدري من يحدث ومن ينادي : الغوث ، الغوث ، النجدة ، النجدة ، إلى أيها الناس لتنقذوا فرجيني البائسة المسكينة فلم يجبه غير الصدى المتردد .

ولم يزل يكرر هذا النداء والصدى يردد صوته حتى خيل إليه أن صوته قد أصبح صدى من تلك الأصداء فنزل من مكانه حائرًا متضعضعًا ، ليس وراء ما به من الهم غاية . ثم وقف وأجال نظره في الفضاء فلم ير ماء ولا ثمرًا ولا نخلاً ولا شجرًا ولا كنًا ولا مأوى ولا شيئًا ما يقتات به المقتات ، أو يتعلل به المتعلل فصرخ صرخة عظمى وتهافت على الأرض باكيًا منتحبًا ، فذعرت فرجيني حين رأته على تلك الحال وهرعت إليه وضمته إلى نفسها وظلت تقول له : لا تبك يا بول فإن بكاؤك يقتلني همًا وكمدًا ، واغفر لي جريمتي التي أجرمتها إليك ، فلولاي لما قاسيت هذا البلاء الذي تقاسيه الآن ، ولقد كان خيرًا لي ألا أقدم على عمل من أعمال الخير أو الشر إلا بعد استشارة أمي ، ثم قالت له : دع البكاء وتوجه إلى الله تعالى بالضراعة والابتهال عسى أن يفرج كربتنا ، ويجعل لنا من أمرنا مخرجًا .

وجثيا يصليان صلاة طويلة استغرقت شعورهما ووجدانهما وذهبت نفساهما فيها حيث تذهب نفوس القانتين المتبتلين في مواقف خشوعهم وابتهالهم وكانت الشمس قد انحدرت إلى مغربها ولم يبق في حاشية الأفق إلا كما يبقى على صفحة البحر الهادئ من آثار السفينة الماخرة فلبثا على ذلك هنيهة ثم استفاقا على صوت كلب ينبح نباحًا شديدًا فصاح بول : إنه كلب أحد الصيادين الذين يرصدون الأيائل في أعماق هذه الغابات ليطلقوا عليها كلابهم فتعقرها ، ثم اشتد نباح الكلب وأخذ يدنو منهما شيئًا فشيئًا ، فارتعدت فرجيني وقالت : يخيل إلي يا بول أني أسمع صوت كلبنا « فيديل » لا بل هو بعينه وما ارتبت فيه قط .

وما أتمت كلمتها حتى كان الكلب « فيديل » تحت أقدامهما يتمسح بهما ويجاذبهما أثوابهما ، ويكاد لو استطاع أن يبكي فرحًا بهما ، ثم ما لبثا أن رأيا الزنجي دومينج مقبلاً عليهما ؛ فازداد سرورهما واغتباطهما وما وقع نظر الرجل عليهما حتى هرع إليهما وجثا تحت أقدامهما باكيًا مستعبرًا وظل يقول لهما : لقد مر بأميكما اليوم يا ولدي يوم ما مر بهما مثله منذ نزلا هذه الأرض حتى اليوم ولقد كان جزعهما عظيمًا جدًا حينما عادتا من الكنيسة فلم تجداكما ، ولم تعرفا أي سبيل سلكتما ، ولا أي أرض اشتملت عليكما ، ولم تستطع ماري أن تقول لهما شيئًا لأنها كانت مشتغلة ببعض الشؤون وراء الكوخ في الساعة التي خرجتما فيها فلم تراكما ، وقد فتشنا عنكما كل غاد ورائح فلم نجد من يدلنا عليكما ، فرأيت أن أستعين بالكلب « فيديل » على تتبع آثاركما فأحضرت له بعض أثوابكما وألقيتها بين يديه فاشتمها ، وكأنه علم ما يريد منه فألصق خيشومه بالأرض وانبعث في الطريق التي سرتما فيها فعل الدليل الحاذق فتبعته أخترق الغابات والأجمات وأتسلق الصخور والهضاب . وأجتاز الجداول والأنهار وأشعر بجميع ما شعرتما به من المتاعب والآلام حتى بلغنا ضيعة الرجل الأوروبي على شاطئ النهر الأسود ، وهنالك حدثني بعض الذين عرفتهم من عبيده وأجرائه أنكما حضرتما إليه لتسألاه العفو عن زنجية مسكينة كانت قد أبقت منه وخافت الرجوع إليه فوعدكما بالعفو عنها ، ثم ما لبثتما أن عدتما أدراجكما قبل أن تعلما ما تم في شأنها .

فاضطربت فرجيني وقالت : وماذا تم في شأنها ؟ ألم يعف الرجل عنها ؟ فابتسم دومينج وقال : نعم عفا عن قتلها وإزهاق روحها ، أما دون ذلك فلا ، فإنه ما لبثت على أثر ذهابكما أن أمر بشدها إلى بعض الأشجار عارية ، وظل يجلدها بسوطه حتى تناثر لحمها ، وتدفق دمها ، ثم تركها مكانها تتأوه آهات تستبكي العيون وتذيب الأكباد وقد رأيتها بعيني فلم أستطع البقاء أمامها لحظة واحدة .

وما أتم كلمته حتى صعقت فرجيني وهتفت بكلمتها التي كانت ترددها دائمًا : آه يا رب لم لم تجعل الخير سهلاً ليناً كطريق الشر ! ؟

ثم عاد الزنجي على حديثه يقول :

ثم انكفأ « فيديل » راجعًا فتبعته فسار قليلاً على شاطئ النهر الأسود ثم صعد الجبل الصغير المشرف عليه فصعدت وراءه حتى قادني إلى عين ماء جارية رأيت على مقربة منها نخلة من نخيل الجوز ساقطة محترقة لا يزال ينبعث دخانها وبقايا طلع مشوي متناثر حولها ، فعلمت أنكما جعتما بهذا المكان وأن الجوع قد نال منكما منالاً عظيمًا فتجشمتما في طلب الطعام هذا العناء الكثير ، ثم قادني الكلب بعد ذلك إلى هنا كما تريان ونحن الآن على مقربة من الجبل المثلث الرأس ، وبيننا وبين المزرعة أربعة فراسخ ، وقد أرسلت لكما سيدتاي هذا الطعام فكلاه وخذا لنفسكما راحتها وسكونها ، ثم نرى بعد ذلك كيف نعود ،

وأخرج لها طعامًا كثيرًا وأثمارًا متنوعة وركوة ماء قراح ، وشيئًا من شراب الليمون المحلى بالسكر ، وجلسوا جميعًا يأكلون ويشربون فرحين مغتبطين ، لولا ما كان ينغص على فرجيني أحيانًا من ذكرى تلك الزنجية المسكينة المعذبة حتى فرغوا من الطعام وتهيأوا للمسير فإذا بول وفرجيني ضعيفان متضعضعان لا يستطيعان الانتقال خطوة واحدة لما نالهما من الأين والإعياء .

فوقف دمونيج وقفة الحائر المضطرب لا يدري ماذا يصنع أيحملهما على عاتقه وهو ما لا طاقة له به ، أم يقضي الليل بجانبهما ووراءهما أماهما تنتظرانهما انتظار الظامئ الهيمان علالة الماء البارد ؟ أم يرجع إلى المزرعة وحده ليعود منها بمن يساعده على حملهما ؟ وكيف له بتركهما وحدهما في هذه القفرة الموحشة التي لا يعلم إلا الله ماذا تضم بين أقطارها من مخاوف وأهوال فتنفس تنفسه طويلة وأنشأ يقول : أسفي على تلك الأيام المواضي حين كنت أحملكما فيها يا ولدي على ذراع واحدة ما أشكو ولا أتبرم ، أما اليوم فقد وهن عظمي ، وضعف متني وتقاربت خطاي ولم يبق لي في الحياة إلا هذه الخطوات البطيئات التي أخطوها إلى قبري .

وإنه لكذلك إذ لمح أشباحًا سوداء تنحدر إليه قمة الجبل كأنها قطع الليل فراعه منظرهم ثم تبينها فإذا قوم من الزنوج السود الآبقين من ظلم مواليهم البيض في شعاب الجبال ومخارمها وكانوا قد سمعوا وهم في مكمنهم حديثه مع الوالدين ورأوا حيرته في أمرهما

فجاءوا لمساعدته وقال له زعيمهم : إن هذين الأبيضين الصغيرين من أطيب الناس قلبًا وأشرفهم نفسًا ، وأدناهم رحمة فقد جشما اليوم نفسهما عناء عظيمًا في سبيل مساعدة زنجية مسكينة كان قد بلغ بها الشقاء والبلاء مبلغهما ، فرحماها وأويا إليها وذهبا بها إلى سيدها ليشفعا لها عنده ويسألاه العفو عنها والمرحمة بها ، وقد رأيناهما صباح اليوم وهما سائران معها إلى شاطئ النهر الأسود فشكرنا لهما في أنفسنا فضلهما ونعمتهما وعجبنا كيف استطاع ذلك الإهاب الأبيض الدميم أن يضم بين أقطاره قلبًا غير أسود وقد سمعنا الآن حوارك معهما وعلمنا أنهما في حاجة إلى من يحملهما إلى مزرعتهما ، فجئنا نتولى ذلك بأنفسنا مكافأة لهما على نعمتهما التي أسدياها إلى تلك الطريدة المسكينة .

ثم أشار إلى أصحابه فاقتطعوا في لحظات قليلة بضعة أعواد من الأشجار العاتية وصنعوا منها ما يشبه المحفة فصعد إليها بول وفرجيني وحلمها أربعة منهم على عواتقهم ومشى الباقون أمامهم ينيرون الطريق بمشاعلهم ، ويغنون أغانيهم الخاصة كأنما قد نسوا جميع همومهم وآلامهم التي يعالجونها في أنفسهم حتى وصلوا عند منتصف الليل إلى المرزعة .

وكانت هيلين ومرغريت تنتظران ولديهما منذ غروب الشمس عند سفح الجبل وقد نصبتا حولهما على أبعاد مختلفة بعض المشاعل الكبيرة لتريا على ضوئها وجوه القادمين ، فما لمحتا المحفة على بعد حتى طارتا إليها وضمتا وليدهما إلى صدرهما باكيتين ، منتحبتين ، فبكى الوالدان لبكائهما ، وبكى الجميع لبكائهم والتفتت هيلين إلى ابنتها

فقالت لها العفو يا أماه فقد جاءتني اليوم زنجية مسكينة آبقة من سيدها تتضور جوعًا ، وتسيل نفسها همًا وكمدًا فسألتني أن أطعمها وأسقيها ، وأن أنقذها من بؤسها وبلاءها فقدمت لها ما شاءت من الطعام والشراب ثم حرت في أمرها بعد ذلك فلم أر خيرًا لها من أن أصحبها إلى سيدها وأسأله العفو عنها والمرحمة بها وأبى بول إلا أن يصحبني ، فذهبنا إلى شاطئ النهر الأسود ، فلما فرغنا من شأننا وأردنا الرجوع ضللنا الطريق ، وظللنا حائرين ساعات طوالاً حتى وافانا دومينيج ، وكان التعب قد نال منا منالاً عظيمًا ، فعجزنا عن المسير ، فتقدم هؤلاء الزنوج الطيبون لمساعدتنا وصنعوا لنا هذه المحفة وحملونا عليها رحمة بنا ووفاء بذلك المعروف القليل الذي بذلناه لمواطنتهم المسكينة ، وكذلك يجزي الله المحسنين خير جزاء بما فعلوا .

فضمتها أمها إلى صدرها ، وقالت : قد عفوت عنكما يا ولدي ، ولا حرمكما الله نعمة العطف على البائسين والمنكوبين .

ثم عادوا جميعًا إلى أكواخهم فرحين مغتبطين وقدموا للزنوج كثيرًا من الطعام والشراب فشكروا لهم فضلهم وانصرفوا .

■ ■ ■

(9)السعادة

وهنا تنفس الشيخ الصعداء ثم قال : أستطيع أن أقول لك يا بني إن السعادة ينبوع يتفجر من القلب ، لا غيث يهطل من السماء ، وأن النفس الكريمة الراضية البريئة من أدران الرذائل وأقذارها ، ومطامع الحياة وشهواتها ن سعيدة حيثما حلت ، وأنى وجدت في القصر وفي الكوخ ، وفي المدينة وفي القرية ، في الأنس وفي الوحشة في المجتمع وفي العزلة بين القصور والدور ، وبين الآكام والصخور فمن أراد السعادة فلا يسأل عنها المال والنسب ، وبين الفضة والذهب ، والقصور والبساتين ، والأرواح والرياحين ، بل يسأل عنها نفسه التي بين جنبيه فهي ينبوع سعادته وهنائه إن شاء ومصدر شقائه وبلائه إن أراد ، وما هذه الابتسامات التي نراها تتلألأ في أفواه الفقراء والمساكين ، والمحزونين والمتألمين لأنهم سعداء في عيشهم بل لأنهم سعداء في أنفسهم ؛ وما هذه الزفرات التي نسمعها تتصاعد من صدور الأغنياء والأثرياء وأصحاب العظمة والجاه ، لأنهم أشقياء في عيشهم بل لأنهم أشقياء في أنفسهم ، وما كدر صفاء هذه النفوس وأزعج سكونها وقرارها ، وسلبها راحتها وهناها مثل عاطفة البغض ، ولا أنار صفحتها وجلى ظلمتها مثل عاطفة الحب ، فأشقى الناس جميعًا المبغضون الذين يضمرون الشر للعالم ، فيجزيهم العالم شرًا بشر . وأسعدهم جميعًا المحبون الذين يحبون الناس ويمنحونهم ودهم وصفاءهم ، فيمنحهم الناس من بنات قلوبهم مثل ما منحوهم .

وكذلك استطاعت تلك الأسرة الفقيرة المسكينة أن تكون سعيدة هانئة على فقرها وإقلالها وجعجعة المصائب بها ، فقد كانت تحمل بين جنوبها نفوسًا طاهرة شريفة لا تضمر حقدًا ، ولا تعرف غلاً ، فأحبت القريب والبعيد ، والمحسن والمسيء ، وعطفت على الناس جميعًا ، من تمت إلي بصلة ، ومن لا تمت إليه بشيء .

ولم تحقد على الناس أو تضمر لهم في نفسها شرًا ، وما لها إلى الناس حاجة ولا رأي لها في مطالبتهم بشيء مما في أيديهم من مال أو جاه ، أو قوة أو سلطان ، فقد قنعت من عيشها بما قسم الله لها ، ولم تطلب مزيدًا، ورضيت من حياتها بهذه العلالة القليلة التي تتعلل بها ، فأراحت نفسها من هموم المطامع ومتاعبها .

وكانت أحاديثها التي تجري بينها أحاديث طاهرة بريئة لا تطغى فيها الألسنة والأفكار ، ولا تتناول شيئًا من شؤون الناس خاصها أو عامها والغيبة رسول الشر بين البشر ، بل هي أساس الشرور جميعها قديمها وحديثها ، لأن المرء إذا اعتقد من طريقها الشر في صديقه أو عشيره وملكته فكرة سوء الظن به أبغضه واجتواه وحذره واتقاه وكان لا بد له من إحدى اثنتين : إما أن يصارحه ببغضه إياه ، فتصبح حياته معه حياة نكدية لا نهاية لهمومها وآلامها ؛ أو يماذقه ويداوره ، فيصبح رجلاً منافقًا كاذبًا ؛ وخير له من هذا وذاك ألا يسمع عن الناس خيرًا أو شرًا .

نعم إنها لم تكن تعتمد في حديثها على العلم والتاريخ كما يعتمد الناس في مجتمعاتهم ، ولا كانت محاضراتها حافلة بالشواهد والأمثال والعظات والعبر ، والمقارنات والموازنات ، ولكنها كانت لذيذة شهية رقيقة مستملحة . لأنها كانت تستمد جمالها ورونقها من كتاب الطبيعة المفتوح أمامها ، وكتاب الطبيعة هو الكتاب المشرق المنير الذي لا يقبل تأويلاً ، ولا يحتاج إلى تفسير ؛ والذي يرى فيه قارئه الحياة كما خلقها الله ؛ حاجة به إلى من يدله عليه ، أو يرشده إليه .

وما هي إلا أيام قلائل حتى انتشر لتلك الأسرة الكريمة بين سكان تلك الجزيرة ذكر عطر ؛ فأخذ الناس يتحدثون بأدبها ولطفها ، ومروءتها وكرمها ، وأياديها الظاهرة والخفية ورحمتها الخاصة والعامة وإن لم يعرفوا لها إسمًا ولا لقبًا فإذا سأل السائل من السابلة أو الطارئين من هم؟ كان جواب المجيب : إنهم قوم طيبون وكفى ؛ كشجرات البنفسج المختبئة بين لفائف الأدغال ينشق الناس طيبها ويحمدون عرفها ، وإن لم يعرفوا مكانها .

■ ■ ■

(10) العمل

وكان بول وهو في الثالثة عشرة من عمره كأنه في الخامسة عشرة قوة ونشاطًا وهمة وعزيمة وذكاء وفطنة ، فكان لا يمل العمل نهاره ولا ليله ، ولا يتلهى عنه بما يتلهى به أمثاله من الغلمان في مثل هذه السن . وكأنما كان يشعر في نفسه أنه مسؤول عن هذه القفرة الموحشة أن يحيلها إلى جنة فيحاء من جنان الأرض فلابد له أن يعمل حتى يصل إلى الغاية التي يريدها ، وكان لا يعمل قبل أن يفكر ، ولا يفكر إلا تفكيرًا صحيحًا مستقيمًا وقد وهبه الله قريحة وقادة وذهنًا خصبًا ، وذوقًا سليمًا ، ومخيلة قوية قادرة على جمع شوارد الأشياء والتأليف بين متنافراتها . فرسم في ذهنه صورة بديعة لذلك الوادي الجميل كما يفعل المهندس الماهر ، وأخذ نفسه بالعمل لإبرازها وتحقيقها فلم يخطئ ، ولم يضطر ، ولم يلجأ إلى الاستشارة إلا في القليل النادر مما يستعصي مثله على أمثاله فكان لا يراه الرائي إلا غاديًا أو رائحًا أو مصعدًا أو منحدرًا ، أو متسلقًا شجرة أو مكبًا على قناة ، أو حاملاً غرسًا ، أو خائضًا نهرًا ودومينج وراءه يعينه على ما يعجز عنه من حمل الأثقال وتحويل المياه ونقل الأغراس ، فأنشأ الحظائر المختلفة للحنطة والشعير ، والدخن والذرة والقطن والقصب ، تزخر كل حظيرة بما فيها من ماء وثمر ، وغرس أشجار الليمون والبرتقال والتمر الهندي ونخيل البلح والجوز وألوانًا من الأزهار والأنوار .

تتألق من أغصانها تألقِ الأحجار الكريمة في التيجان المرصعة ، وأجرى المياه حول تلك الأغراس ، وفي خلالها بنظام دقيق كأنما قد خطها بالبركار وزرع الأكمات والروابي المشرفة على الوادي من جميع نواحيه فتراءت لعين الناظر كأنها قباب لطاف أو أهرام صغار مكسوة برقاق الخز والديباج على اختلاف أصباغها وألوانها ، ولم يترك بقعة جدبة ، ولا أرضًا صلبة إلا هز تربتها ، وأحيا مواتها فاستحالت إلى روضة أنف تتدفق ثمارًا وأزهارًا ، وتسيل عيونًا وغدرانًا ، وأعجب ما كان يعجب الناظر في هذه الروضة الزاهرة منظر المياه المتدفقة من أعالي الجبال تنثر الخصب حولها نثرًا ، وتدور بالربا والهضاب قلائد وعقودًا ، والخمائل والأشجار أوشحة ومناطق ، وتتلوى في سيرها وتدفعها تلوي الحياة المذعورة الهائمة على وجهها ، حتى إذا انتهت إلى السفح مشت برفق وهدوء تنبسط في مذاهبها ومناحيها ، ثم تتلاقى أطرافها فتكون بركًا صغيرة مستديرة تحف بها الأعشاب المخضرة كما تحف بالعيون أهدابها . فإذا انعكست على تلك البرك زرقة السماء خيل إليك أنها المرايا الصافيات في أطرها أو أحجار الفيروز في خواتمها ، ولما كانت الأرض في تلك الدائرة متدرجة غير مستوية فقد راعى أن يغرس الأدواح الباسقة في البقاع المنخفضة ، والأشجار المتوسطة في الأماكن المتوسطة والشجيرات القصيرة في المشارف العالية ، فاستوت رؤوس الأشجار في علوها وارتفاعها كأنما قد قرضت ذوائبها بمقراض

أو كأنما غرسها غارسها في بطحاء مستوية ، وكان يعمد إلى الهضاب العالية ذات الجباه البارزة فيغرس بين يديها الأشجار العظيمة المورقة فتتلاقى ذؤابة الشجر بذؤابة النهضة

فتتكون منهما قبة جوفاء تشرف على مجلس رطب ظليل كانوا يفيئون إليه من حر الهاجرة فإذا هم في روضة يانعة من رياض الجنة تزخر أشجارها ، وترن أطيارها وترف ظلالها ، وتتهادى نسائمها ، وأجمل من هذا وذاك أنه غرس صفين متقابلين من الأشجار الوحشية الضخمة يمتدان على مدى بعيد فتتألف منهما دهليز ضيق مستطيل لا تنفذ إليه أشعة الشمس ، ولا تكاد تصل إليه أضواء النهار ، فإذا دخله الداخل خيل إليه أنه يسير في نفق مظلم تحت الأرض وشعر بوحشة غريبة أشبه بتلك الوحشة التي يشعر بها سكان السراديب في سراديبهم ، أو عملة المناجم في أعماق مناجمهم .

في أحضان ذلك الوادي الجميل ، وفي ذمة تلك الجنة الزاهرة وبين أعطاف تلك الدائرة الواسعة المخضرة من الربى والهضاب كان يعيش هؤلاء القوم في أكواخهم البسيطة عيشًا سعيدًا هانئًا متمتعين بما لا يتمتع به الأثرياء في قصورهم وبساتينهم والسعداء في جناتهم وعيونهم ، فإذا انقضى النهار وأوت الشمس إلى خدرها صعدوا إلى صخرة عظيمة تشرف على ذلك الوادي جميعه فيتجلى أمامهم منظره العام بعيونه وغدرانه ، وأعشابه وأشجاره وخمائله وكرومه ومروجة وحرجاته ؛ وظلاله وأضوائه؟

فإذا ألقوا بأنظارهم في جو السماء المائج فوق رؤوسهم بأضوائه وأنواره ، وخيل إليهم أنهم بين سماءين متقابلين : سماء تنبت الكواكب والنجوم ، وأخرى تنبت الأزهار والأنوار ؛ أو روضتين مترانيتين : تتألق في إحداهما الزنابق البيضاء على ديباجة زرقاء ، وفي أخراهما الورود الحمراء على قطيفة خضراء .

(11) التاريخ

وكانوا يسمون هذه الصخرة «اكتشاف الصداقة» لأن بول غرس في قمتها شجرة الأثل ورفع في أعلاها منديلاً أبيض يشبه العلم وناط بخيوط مختلفة تسترسل في أسفل الشجرة ، فإذا لمحني مقبلاً على البعد شد الخيط فانتشر المنديل واضطرب في الهواء ، وكان ذلك إعلانًا للأسرة بقدومي كما يرفع العلم على قمة الجبل إعلانًا بقدوم سفينة إلى الشاطئ .

وكذلك كان شأنهم دائمًا في تسمية الأماكن والبقاع والجذوع والأشجار والأشجار التي يحبونها بأسماء لطيفة يرمون بها إلى غرض ، ويسجلون بها فكرة معينة ، فكان يخيل إلي أنهم يلقون عليها أشعة أرواحهم النورانية السامية فتدب فيها حياة جديدة فوق حياتها الأولى ، فأطلقوا اسم «ميدان الاتفاق» على بساط من العشب الأخضر مسور ببضع شجيرات متسقات من أشجار البرتقال كان بول وفرجيني يرقصان عليها معًا في ضوء القمر ، وأطلقوا اسم «الدموع الممسوحة» على شجرة عتيقة جلست تحتها هيلين ومرغريت لأول عهدهما باللقاء وأخذت كل منهما تقص على صاحبتها وتبثها أحزانها وآلامها فتضمها الأخرى إلى نفسها وتعزيها عن همها وتمسح لها دموعها ، وسموا حقلاً من القمح باسم «نور ماندي» مسقط رأس هيلين وآخر من الأرز باسم «بريتانيا» مسقط رأس مرغريت ، إلى كثير من أمثال تلك الذكريات القديمة ، كأنما أرادوا ، وقد هجروا بلادهم إلى الأبد وحالت الحوائل بينهم وبينها أن يستصحبوها معهم تصورًا وخيالاً ، بعد ما فقدوها سكنًا وموطنًا ليأنسوا بها بعض الأنس ، ويلطفوا من حرارة شوقهم إليها .

وأغرب من ذلك أن الزنجيين «ماري ودومينج» لم يكن قلبهما خاليًا من ذلك الشعور الطيب الشريف ، شعور الوفاء للوطن والحنين إليه فطلقوا اسم «أنغولا» و« فول بودانت» على بعض حقول الدخن ومنابت القرع شغفًا بأوطانهما وعهود صباهما وضنًا بذكراها أن تزول .

وكانت تعجبني من هؤلاء القوم كثيرًا تلك الروح الأثرية الغالبة على شعورهم ووجدانهم لأني أعتقد أنها هي بعينها روح الوفاء والإخلاص ، وأن من لا خير فيه لماضيه فلا خير فيه لحاضره ومستقبله .

ومازلت منذ نشأت لا أوثر منظرًا من مناظر الحياة ، ولا مشهدًا من مشاهد الحسن والجمال على منظر أثر قديم أعثر به في سفرة من أسفاري في بادية منقطعة أو صحراء شاسعة فأقف بين يديه ساعة من نهار وأرى في نؤيه وأحجاره وصخوره المبعثرة وأعمدته المتناثرة ونقوشه المحفورة على بقايا جدرانه صورة أولئك القوم البائدين الذين كانوا يسكنونه ويعمرون عرصاته ومغانيه ، وكأني أسمع في صفير رياحه وعزيف جنه وغيلانه صائحًا يصيح بي : لقد كان يعيش في هذا المكان عالم مثل عالمكم ، يشعرون كما تشعرون ويفكرون كما تفكرون ، ويأملون في الحياة الطيبة الهانئة كما تأملون ، وهم إن ذهبوا بأجسامهم ، وخلا وجه الأرض من سميرهم وأنيسهم فهم باقون بينكم بأرواحهم وآثارهم ، وما أنتم يا أبناءهم وأحفادهم وحملة أسرار حياتهم إلا أرواحهم وآثارهم التي بقيت على الأرض من بعدهم .

هنالك أشعر أنني قد انتقلت من حاضري إلى ماضي ، وأنني أعيش في تلك العصور القديمة بين آبائي وأجدادي ، أحدثهم ويحدثونني ، وأفضي إليهم بذات نفسي ، ويفضون إلي بذوات نفسهم ، فأقضي على ذلك ساعة من الزمان ، ثم أذهب لشأني وقد فاضت نفسي شعورًا بأن النفس الإنسانية خالدة باقية لا تنال منها دعايات الزمان ، ولا تعبث بصورتها الأيام والأعوام .

وكنت لذلك شديد الشغف بحفر الكلمات أو نقشها على كل ما يقع عليه نظري من الجذوع والأشجار ، والصخور والأحجار ، وكل ما أمر به في طريقي مما أحبه وأرضاه ، وأتمنى له الخلود والبقاء كأنني كنت أريد أن أمد الأجيال المقبلة بالذكريات العظيمة ، كما أمدتنا الأجيال الماضية بذكرياتها وعهودها ، فحفرت على ساق شجرة العلم كلمة «هوراس» اللاتيني «وقاك الله شر العاصفة ، ولا عبثت بك إلا أيدي النسائم» وعلى جذع شجرة كان بول يجلس تحتها أحيانًا ليشاهد منظر البحر الهائج قول الآخر «ما أعظم سعادتك لأنك لا تعرف إلهًا غير إله النبات» وعلى باب كوخ هيلين ، وكان هو مجتمع الأسرة ومنتداها هذه الكلمة «وهنا ضمير صالح ونفس لا تعرف الخداع» .

وكانت فرجيني تستثقل هذه الكلمات وتراها غامضة ومتكلفة ، وقالت لي مرة حبذا لو أنك كتبت على شجرة العلم «ثابت دائمًا رغم اضطرابه» بدلاً من كلمتك التي كتبتها ، فأجبتها : ذلك إنما يقال في موقف الحث على الفضيلة ، فاحمر وجهها خجلاً وصمتت .

ذلك كان شأن هذا الوادي فيما مضى ، أما اليوم فقد عفا فيه كل شيء ، ودرس كل أثر ، ولم يبق من تلك الرسوم الماضية إلا كما يبقى من الوشم في ظاهر اليد ، وأصبحت أعيش في هذا المكان كأنني أعيش بين خرائب أثينا أو أطلال منف ، وما مضى على تاريخنا أكثر من عشرين عامًا .

■ ■ ■

(12) مخدع فرجيني

ولم أر فيما رأيت من المناظر الجميلة والمشاهد الفاتنة المؤثرة منظرًا أبدع ، ولا أجمل ، ولا أعلق بالقلوب ، ولا أشهى إلى النفوس من منظر ذلك المكان الذي كانوا يسمونه «مخدع فرجيني» ، وهو كهف صغير منحوت في أصل الصخرة الكبرى كأنه مضجع النائم يتفجر بين يديه نبع غزير صاف تحف به نخلتان من نخيل الجوز كانت مرغريت قد بذرت بذرة إحداهما منذ أربعة عشر عامًا يوم ولادة ولدها بول ، وبذرت هيلين بذرة أخرى منذ ثلاثة عشر عامًا يوم ولادة ابنتها فرجيني ، فنبتتا مع الولدين وسميتا باسميهما ، وما ذهبتا مذهبهما في جو السماء حتى تدانت سعفاتهما واشتبكتا كأنهما تتعانقان ، وكانت نخلة بول أطول قليلاً من نخلة فرجيني لأن بول كان أسن من فرجيني لعام واحد وأطول قامة منها .

وربما كان هذا المكان هو المكان الوحيد الذي تركوه للطبيعة تذهب في شأنه حيث شاءت من مذاهبها دون أن يتناولوه بتهذيب ولا تنسيق فنبتت من حول المياه المنبسطة بضع شجيرات مختلفة الألوان والأشكال والأحجام والأطوال ما بين ضخم الجذوع ودقيقها ومنتشر الفروع ومجتمعها ، وضارب في أعماق الأرض ، وذاهب في جو السماء ، فاختلفت ثمراتها وزهراتها ، وطعومها ومذاقاتها وروائحها ونفحاتها ودب بعضها إلى ظهر تلك الصخرة المشرفة فنشر عليها غلالة رقيقة من أزهاره ورياحينه ، ثم انحدر عنها خيوطًا دقيقة ناعمة ترفرف في الهواء كما ترفرف شعور الحسناء على ضفاف الماء .

ولم يكن شيء من الأشياء أحب إلى فرجيني وأشهى إلى نفسها من أن تأوي في أوقات راحتها وفراغها إلى هذا المكان الجميل لتمتع نظرها بمرأى تلك المياه الثلجية البيضاء المتفجرة من ذلك النبع الغزير ومرآى تينك النخلتين البديعين المتعانقتين على ضفته ، ومنظر تلك المروج الخضراء المنبسطة من حوله ، وكانوا لذلك يسمونه «مخدع فرجيني» .

وكانت تستصحب معها كلما ذهبت إلى هناك غنيماتها وأعنزها فتتركها ترعى بين يديها ، ويعجبها أن ترى واحدة منها قد وثبت إلى ظهر الصخرة ووقفت على مؤخر أطرافها واشرأبت بعنقها لتتناول بفمها بعض الأغصان فتقضمها قضمًا ، فكأنها معلقة في الهواء ، أو كأنها تمثال ماثل في الفضاء .

وربما أخذت معها ملابسها وملابس الأسرة فغسلتها على حافة النبع أو جلست ناحية تحلب ألبان ماشيتها ثم تمخضها .

وكان بول يختلف إلى هذا المكان من حين إلى حين كلما أمكنته الفرصة فيجلس إلى فرجيني جلسة هانئة سعيدة يغتبطان فيها بتلك العزلة الهادئة الساكنة وذلك المنظر الساحر البديع . وكان أعظم ما يروقهما ويستثير سرورهما وغبطتهما منظر الطيور البحرية وهي مقبلة من شاطئ البحر الهندي مع الظلام زمرًا ترسم في صفحة السماء خطوطًا مستقيمة ومتعرجة ودوائر تامة وناقصة وتغرد أغاريدها المختلفة الألحان والنغمات

حتى تنزل بهذا المعتزل الساكن الظليل لتقضي فيه سواد ليلها ، فإذا انقضت دولة الظلام ونشر الفجر رايته البيضاء في آفاق السماء وطارت مع أضوائه وذهبت من مذاهبها حيث تشاء وكأن بول قد عز عليه ألا تتمتع فرجيني بذلك المنظر الرائق في جميع أوقاتها فأخذ ينقل إلي الأشجار المحيطة بهذا المكان من الغابات القريبة فراخ الطير في أعشاشها فتتبعها أمهاتها وما هي إلا أيام قلائل حتى اتخذت لها في الروض الأريض موطنًا جديدًا تروح إليه وتغدو فأنست بها فرجيني أنسًا عظيمًا وعطفت عليها عطف الأم الرؤوم على صغارها ، فكانت تطعمها وتسقيها وتحمل لها في حجرها حبوب القمح والذرة فينثرها بين يديها فإذا رأتها الطيور مقبلة من بعيد تطايرت إليها من أوكارها وأعشاشها صادحة مترنمة وحامت فوق رأسها تلقط الحب من يدها مرة ومن الأرض أخرى فيكون منظرها في اختلاف ألوانها وتمعجها واضطراب حركاتها أشبه شيء بمنظر الملفوف قد عبثت أشعة الشمس بخيوطه الحريرية فماج بعضه في بعض فتظل فرجيني لاهية بهذا المنظر مفتتنة به ، وبول مغتبط باغتباطها راض عن نفسه برضاها حتى يعودا معًا ساعة الغروب إلى كوخهما .

وهنا تنفس الشيخ الصعداء وألقى أمامه نظرة بعيدة جامدة كأنما ينظر إلى شيخ مقبل عليه فألقيت نظري حيث ألقى نظره فإذا هو محدق في تلك البقعة التي سماها «مخدع فرجيني» وأخذ يهمهم كأنما يحدث نفسه ويقول :

أيها الولدان العزيزان ، إن أنسى شيئًا فإنني لا أنسى أيامكما العذبة الجميلة التي ملأتما فيها حياتي سرورًا وغبطة ، وكنتما لي صديقين حميمين ما أنكر منكما ولا تنكران مني شيئًا ولا أنكما كنتما أبر الناس بي وأحدبهم علي حتى أصبحت أشعر أنني أعيش بجانبكما في أسرتي بين أهلي وقومي . وأن أيام صباي قد عادت لي بوجهها الطلق النضير ، فسلام عليكما حيث كنتما ، وسلام على عهدكما البائد الدارس ، عهد الصلاح والبر والفضيلة والشرف والحب والوفاء .

■ ■ ■

(13) ليالي الشتاء

وكان إذا جاء الشتاء وسالت الأجواء بردًا وقرًا . وأوت الطيور إلى أوكارها ، والوحوش إلى أحجارها ، قضوا داخل أكواخهم ليالي سمر جميلة يجتمعون فيها حول منضدتهم العارية على ضوء مصباح ضئيل يلقي أشعته الصفراء الخفاقة على ما نيط بجدران الكوخ من معاول وفؤوس وقواطع ومناشير ، وما كدس في أركانه من حقائب وجوالق وقرب وروايا ، فترى كأنها الأشباح الجاثمة ، أو الوحوش الرابضة ، فيتحدث بول عن حقوله وأغراسه ، وغلاته وثمراته وأحواضه ومستنبتاته ، وما نضج من أزهارها ، وما لم ينضج ، وما نقل منها إلى الظل ، وما أبقى تحت أشعة الشمس وعن الكروم وعناقيدها والقمح وسنابله والذرة وأعوادها وتحدثهم فرجيني عن عصارة القصب ومنقوع الشعير وشراب الليمون وأمثال ذلك من الأشربة التي تعلمت من أمها صنعها واعتادت أن تقدمها لأسرتها صباح كل يوم ومسائه ، وقد تحدثهم أحيانًا عن حديقتها الصغيرة فتظل تصف لهم نبعها المتفجر الثجاج ، ونخلتيها الباسقتين المتعانقتين ، وما نبت حولهما من ألوان الزهر وصنوف العشب ، وما يختلف إلى خمائلها وأشجارها من أسراب الطير وجماعاتها ليلها ونهارها صادحة مترنمة كأنها فرقة موسيقية تتحد نغماتها وتختلف رناتها ، وتقص عليهم مرغريت بعض القصص الغريبة المملوءة هولاً ورعبًا كقصة السائح المسكين الذي ضل به طريقه في إحدى الليالي الداجية المدلهمة في بعض غابات بريتانيا الموحشة

فخرج عليه بعض اللصوص ، من مكمنهم فسلبوه ماله وراحلته ، ثم خافوا جريرتهم فقتلوه وألقوه في أحشاء الغابة أو قصة السفينة التي عصفت بها الريح في بحر الشمال وأحاط بها الموج من كل جانب وأخذت عليها جميع السبل فغرقت وغرق معها ركابها ، ولم يبق من آثارها إلا بضعة ألواح ألقاها الموج على جوانب بعض الصخور الناتئة فيتأثر بول وفرجيني لسماع أمثال هذه القصص تأثرًا شديدًا ويتفجر في قلبيهما ينبوع صاف من الرقة والرحمة بهؤلاء البائسين المنكوبين ، ويتمنيان بكل ما تملك أيديهما أن لو وفقا في يوم من أيام حياتهما إلى هداية سائح ضال عن طريقه ، أو إنقاذ غريق من مخالب الموت .

وكثيرًا ما كانت تقرأ عليهم هيلين شيئًا من قصص «العهد القديم» وبعض آيات من «العهد الجديد» فيسمعها الآخرون ساكنين خاشعين تسيل نفوسهم أسى ، وعيونهم أدمعًا ، إنهم ما كانوا يحفلون كثيرًا بتفهم مضامينها ، واكتناه أسرارها ، كأنما كانوا يشعرون أنفسهم أنهم أغنياء عن هذا كله بما وهبهم الله من إيمان فطري بسيط لا يحتاج إلى تفسير ، ولا توضيح ، ومن يقين راسخ في أعماق قلوبهم يثلج صدورهم ويملأ فضاء نفوسهم راحة وسكينة حتى كان يخيل إليهم أحيانًا أن الفضاء الذي بين أيديهم إنما هو معبد مقدس يصلون لله في أية بقعة من بقاعه شاؤوا ويرون الله في أي مطلع من مطالعه أرادوا وكأن الطبيعة بين أيديهم إنجيل مفتوح تقوم فيه الآيات المنظورة ، مقام الآيات المتلوة والبراهين الحسية مقام البراهين التوفيقية المقروءة ،

وهل للرحمة الإلهية إلا تلك الثمرات التي نبتت لهم في أرض مقفرة مجدبة لا ينبت مثلها غير الجهد والشقاء؟ وهل القدرة الربانية إلا تلك الجنة الأرضية الزاهرة التي اختلفت أوضاعها وأشكالها وطعومها وروائحها ، وقد سيقت بماء واحد ، وأشرقت عليها شمس واحدة؟ وهل العناية الصمدانية إلا ذلك التوفيق الغريب الذي ضم بعضهم إلى بعض على بعد دارهم واختلاف مواطنهم ؟ فتكونت منهم أسرة واحدة متحابة متآلفة يغنيها اجتماعها واتفاقها عن الأهل والوطن والمال والنسب .

وكانت تجري بينهم تلك الأحاديث والطبيعة خارج الكوخ هائجة صاخبة ، تجلجل رعودها ، وتعصف رياحها وتتدفق سيولها ، وتصخب أمواجها ، فيحمدون الله تعالى على أن كفاهم شرورها وويلاتها ، ومنحهم هذا الملجأ الأمين الذي يفزعون إليه من كوارثها وأرزائها ، ثم لا تلبث السنة أن تخالط أجفانهم ، فينسلوا إلى مضاجعهم وينامون نومًا هادئًا ساكنًا لا قلق فيه ولا اضطراب ، ولئن كان صحيحًا ما يقولون من أن لكل امرئ في الحياة يومين : يوم بؤس ويوم نعيم فلقد كان لهؤلاء القوم من دون الناس جميعًا يوم واحد لا يرون فيه غير وجه النعيم ، ولا تطلع عليهم شمسه إلا بما يحبون ويرتضون .

وكان الدهر يأبى عليهم أحيانًا إلا أن يجري حكمه فيهم كما يجريه على الناس جميعًا فيأذن لبعض غيومه القاتمة أن تلم بسمائهم الصافية فتغشى صفحتها ، وتكدر صفاءها ، فإذا نزلت بأحدهم نازلة مرض أو هم رأيت الباقين قد أحاطوا به وبسطوا عليه جناح عطفهم ورحمتهم ، وكأنما قد أصيبوا من دونه بالذي أصيب به ولا يزالون يلاطفونه ويداورونه حتى ينتزعوا الهم من بين جنبيه انتزاعًا ، فإذا هو بارئ سليم كأن لم يشك قبل اليوم همًا ولا ألمًا .

وكانوا يذهبون أيام الآحاد لأداء الصلاة في كنيسة «بملبموس» ذات القبة العالية التي تراها هناك في وسط ذلك السهل الفسيح مشاة على أقدامهم لا يشكون تعبًا ولا نصبًا ، فإذا وصلوا إليها رأوا كثيرًا من الأثرياء وأرباب النعمة مقبلين في هوادجهم المحمولة على أعناق عبيدهم في رونق بديع يملأ العين بهجة ، والقلب روعة ، فلا يحفلون بهم ولا يكترثون ، ولا يحسدونهم على ما آتاهم الله من نعمة ، بل كانوا يتجنبون جهدهم أن يخالطوهم أو أن يجيبوا داعي مودتهم لأنهم كانوا يعتقدون أن القوي لا يمنح الضعيف وده ومحبته إلا ليبتاع منه ماء وجهه وكرامة نفسه ولا يبذل له القليل من بره ومعروفه إلا ليستعبده ويستأثره ويملك عليه زمام حياته ، وهم لا يريدون أن يبذلوا من ذلك شيئًا ، كما أنهم يتجنبون جهدهم مخالطة الهمج والرعاع وأسقاط الناس وأشرارهم ضنًا بنفوسهم أن يسري إليها من طريق المخالطة الساقطة ما يشوه جمالها ويغشي لألاءها فاتهمهم الناس بالضعف مرة وبالكبرياء أخرى

ومضوا معهم على ذلك عهدًا طويلاً حتى عرفوهم حق المعرفة واستشفوا سريرة نفوسهم فعلموا أنهم أشرف من هذا وذلك فإنهم ما كانوا يضنون بأنفسهم أن يقفوا الوقفات الطوال مع من يعترض طريقهم من الناس فيسألهم حاجة من الحاجات ، أو يستعين بهم على كارثة من كوارث الدهر ، أو يدعوهم إلى زيارة مريض أو مساعدة منكوب ، ولا يأبون أن يدخلوا الأكواخ القذرة الوبيئة لزيارة المرضى ومواساتهم ، وتفقد حالة المنكوبين والبائسين .

فإذا دخلوا على مريض جلسوا حوله طويلاً وعللوه كثيرًا وأحاطوه بعطفهم وعنايتهم فتقدم له مرغريت الدواء وفرجيني الابتسامات ، وهيلين التعزية ، وبول النصائح الطبيعية ، فكانوا يعالجون في آن واحد نفسه وجسده ، ثم يعودون وقد خالطت نفوسهم عاطفتان مختلفتان : عاطفة الحزن على أولئك المعذبين المتألمين . وعاطفة الغبطة بما وفقهم الله إليه من تسرية همومهم ، وتهوين آلامهم .

وكان منزلي على مقربة من تلك الكنيسة ليس بينها وبينه إلا طريق حاجتهم من مؤاساة البائس وتعليل المريض وتعزية المنكوب سلكوا تلك الطريق إلى منزلي ليقضوا عندي بقية يومهم ، فكنت أعد لهم الغذاء على شاطئ جدول صغير تحت ظلة دانية من شجر الموز ، وكان غذاؤنا بسيطًا جدًا ، لا يزيد على ما يقذفه إلينا البحر من أسماكه ، وما يسقطه الشجر من أثماره ، وما نظفر به في فضاء الجو من سارح أو بارح ، وربما ضممنا إليه شيئًا من التوابل والأفاويه المركبة من الأعشاب الهندية الحارة ،

فإذا قضينا غداءنا جلسنا للراحة فوق هضبة عظيمة على شاطئ البحر لنمتع أنظارنا برؤية أمواجه ، وهي مقبلة علينا يتلو بعضها بعضًا حتى تنكسر تحت أقدامنا ، ثم تنبسط قليلاً على ذلك الشاطئ الرملي الفسيح ، ثم تتلاشى كأنها لم تكن . وكان بول إذا رآها مقبلة فرّ من بين يديها كأنه طريدها الذي تطلبه . وربما تلكأ في جريه عمدًا حتى تدركه فإذا هو مكفن في كفن صاف من نسيجها الأبيض ، فتصرخ فرجيني حين تراه على هذه الحالة صرخة عظمى كأن الأمر قد بلغ عندها مبلغ الجد أو كأنها ترى من وراء حجب الغيب منظرًا مخيفًا يروعها ويزعجها ، فتظل تقول بينها وبين نفسها : يخيل إلي وأنا أنظر إلى هذا البحر المائج المصطحب أنني أرى بين كل موجتين قبرًا محفورًا ، ثم لا تلبث أن تعود إلى نفسها ، وتثوب إلى رشدها وتستأنف سرورها ومرحها ، فيدعوها بول إلى الرقص معه فيرقصان معًا على بساط الرمل الأصفر تلك الرقصة الزنجية البسيطة التي لا هجر فيها ، ولا يشوبها عار ، ولا إثم ، ثم يغنيان بعض قطع جميلة لا أزال أذكر منها حتى اليوم قطعة «البحر الزاخر» التي يثني فيها قائلها على الحياة الهادئة البسيطة فوق ظهر اليبس ، ويذم الحياة القلقة المضطربة على سطح الماء ، وينعي نعيًا كثيرًا على أولئك الذين يدفعهم شرههم وطمعهم إلى ركوب البحر واحتمال مخاطره وكوارثه طلبًا للثراء الواسع ، والمال الكثير بدلاً من بقائهم في أوطانهم بين أهليهم وعشيرتهم ،

والقناعة بما قسم الله لهم من الرزق ، وكان يخطر لفرجيني أحيانًا أن تمثل بعض الروايات القصيرة التي سمعتها من أمها فتظهر على مسرح الشاطئ الرملي حاملة جرتها على رأسها كأنها ذاهبة إلى بعض الآبار للاستقاء حتى إذا بلغت مكان البئر وقف دومينج وماري ومرغريت في طريقها كأنهم رعاة مدين يحولون بين ابنة شعيب وبين البئر ، فيلمحها بول على البعد فيسرع لنجدتها ويحمل على الرعاة حملة شديدة حتى يمزقهم كل ممزق كما فعل موسى ، ثم يضع لها فوق رأسها طاقة جميلة من الزهر الأحمر ليضع الجرة فوقها فكأنه يكللها بإكليل الزواج فأقوم أنا بتمثيل دور «شعيب» وأزوج ابنتي «صفورة» من الفتي «موسى». وأحيانًا كانت تمثل دور البائسة «راعوث» حينما عادت إلى بلدها بعد غياب طويل فترى نفسها غريبة منقطعة لا أهل لها ولا رحم ، فتظل سائرة في طريقها مطرقة الرأس ساهمة الوجه حتى تلمح جماعة الصيادين ، وكان يمثلهم دومينج وماري ومرغريت يحصدون في مزرعتهم فتتبع خطواتهم وتلتقط بعض السنابل الساقطة لتتبلغ بها فيراها بول ، وهو يمثل دور «بوعز» أحد نبلاء المدينة فتدركه رقة لها فيتقدم نحوها ويسألها عن شأنها فترتعد بين يديه وتجيبه على أسئلته بصوت خافت متهدج فتذرف عيناه الدموع رحمة بها ومرثاة لها ويأخذ بيدها حتى يقف بها أمام شيوخ المدينة في منتداهم ويعلن زواجه منها رغم فقرها وإقلالها .

وهناك تذكر هيلين حياتها الأولى ، وأنها كانت أشبه شيء بحياة تلك الفتاة الإسرائيلية المسكينة ، وأنها لقيت من أهلها وجفائهم وغلظتهم مثل ما لقيت ، وكابدت من آلام الحياة وهمومها مثل ما كابدت ، فتبكي بكاء طويلاً .

ثم لا تلبث أن تصل بخيالها إلى النهاية الطيبة التي ختمت بها تلك الرواية فتهدأ نفسها قليلاً ، وتتفاءل خيرًا لابنتها أن يكون مصيرها هذا المصير السعيد .

وجملة القول أننا كنا نتمتع في ذلك اليوم بجميع ما يتمتع به السعداء في منتدياتهم ومجتمعاتهم ؛ ومعاهد أنسهم ولهوهم من أكل وقصف ، ورقص وتمثيل ولعب ومزاح ، ولا فرق بيننا وبينهم إلا أننا لا نزخرف المسرح الذي ننقل عليه بالصور الكاذبة للبحر والشاطئ والصحراء والسماء والكواكب والنجوم والنبات والعشب وهدير الأمواج ورفيف الرياح ودمدمة الرعود كما يزخرفون ، فكل ذلك حاضر بين أيدينا حقيقة لا خيالاً .

ولا نزل هكذا حتى تدنو ساعة الأصيل ويقف قرص الشمس وقفة الوداع على قمة الجبل متوهجًا كاللهب الأحمر فيظل ينثر ذراته الذهبية في عرض الفضاء وتظل قطع الأنوار تتساقط من بين فجوات الأغصان ، كأنها الدنانير المبعثرة ، وتستحيل أوراق الزهر في سكون ذلك الجو وهدوئه إلى أحجار جامدة من الزمرد والياقوت والماس والفيروزج ويخيل للناظر إلى الجذوع المائلة كأنها بقايا بركان قديم قد غمرها في سالف العهد ، ثم انحسر عنها فإذا هي أعمدة صدئة من البرونز القاتم ، ثم لا يلبث الظلام أن يمتد

وينبسط فإذا الفضاء سكون ووحشة ، وإذا البحر خشية وجلال ، وإذا الطير جاثمة على أوكارها تفر إليها من وحشة الظلام وهوله ، وإذا كل شيء صامت جامد إلا ما كان من جرجرة الأذى تصل إلى آذاننا من حين إلى حين كأنها الزئير المنبعث من حلوق الوحوش الضاربة ، فنجمد أمام هذا المنظر الرهيب ساعة ذاهلين مستغرقين ، وكأننا قد انتقلنا إلى عالم من عوالم الملأ الأعلى حافل بعجائب المنظورات ، وغرائب المشاهدات ثم نعود إلى أنفسنا فيودع بعضنا بعضًا ، ثم نفترق إلى أكواخنا .

■ ■ ■

(14) آدم وحواء

نشأ بول وفرجيني في هذه الجنة الأرضية ، منشأ أبوينا الأولين في جنتهما السماوية ، فكان بول مثال آدم ، له قامة الرجل وشطاطه وبساطه الطفل وسذاجته ، وكانت فرجيني مثال حواء لها جمال الأنوثة وحلاوتها ، ودعة النفس وعذوبتها .

وكانا يعيشان في معتزلهما هذا حرين مطلقين لا يسيطر عيهما مسيطر من تلك القيود التي تسيطر على عقول الناشئين وضمائرهم وفي تلك البلاد التي يسمونها بلاد الحرية والطلاقة ، ولا تسجنهما العلوم والمعارف في سجنها الضيق المظلم الذي يحول بينهما وبين التبسط والاضطراب في فضاء الكون كما يشاءان .

ولم تكن لديهما ساعة لمعرفة أوقات الليل والنهار ، ولا تقويم لمعرفة الفصول والأعوام ، ولم يتلقيا درسًا واحدًا في علم الهيأة ، ونظام الكواكب والنجوم . ولكن الطبيعة استطاعت أن تمنحهما من نفسها ما تمنح العلوم والمعارف أمثالهما فاستعانا بالأشعة والظلام على معرفة الأوقات ، وبنضوج النبات وظهور الأثمار وتلون الأزهار على معرفة الفصول ، وبعدد ما غرسا من الأشجار على عدد ما مر بهما من السنين والأعوام فكانا يقولان «قد حان وقت الغداء» إذا انقبضت ظلال أشجار الموز وتضاءلت تحتها ، و«قرب الليل» إذا التفت أوراق التمر هندي على أثمارها ، وكانا إذا وعدا أحدًا بزيارة جعلاً ميعادها ظهور قصب السكر أو نضوج النارنج ، وإذا سألت فرجيني عن عمرها أجابت :

قد أثمرت الكروم منذ ولدت أربع عشرة مرة وأشجار البرتقال ثمانية وعشرين ، وإذا سئل بول بكم يكبر فرجيني أجاب بمقدار ما بين النخلتين المائلتين على حافة النبع كأن حياتهما متصلة بحياة النبات ، أو كأنهما إلهان من آلهة الحقول التي تعيش بينها وترعاها .

فكانا لا يعرفان تاريخًا غير تاريخها ، ولا يطالعان مصورًا غير مصور جزيرتهما ، ولا يقرآن كتابًا غير كتاب الطبيعة المفتوح أمامها ، ولا يفهمان فلسفة غير أن عمل الخير سعادة ، وعمل الشر شقاء ، ولا يحفظان آية غير آية التفويض إلى الله تعالى في كل ما يأخذان ، وما يدعان .

وكانا إذا خلوا بأنفسهما جرت بينهما أحاديث بسيطة ساذجة لا يتكلفان فيها ولا يتعاملان ، ولا يحاولان أن يضعا حجابًا بين يدور ما في سريرتهما ، وما ينطق به لسانهما .

ولقد سمعتهما مرة يتحدثان من حيث لا يشعران بمكاني ، وكان بول قد عاد من عمله ساعة الغروب ، فرمى بفأسه وحقيبته إلى الأرض وجلس إلى فرجيني يقول لها :

إني لأراك يا فرجيني وأنا متعب مكدود ما أكاد أتماسك ، فأنسى تعبي وشقائي ، وكأنني لم أحمل في يومي فأسًا ، ولم أفلح أرضًا ، وربما وقع نظري عليك وأنا على قمة الجبل وأنت في سفحه فيخيل إلي أنك وردة بين الورود النابتة حولك . إلا أنك أنضر منها حسنًا وأطيب أريجًا . فإذا غبت عن ناظري وراء أكمة من الأكمات أو تحت ظلة من الظلل استطعت أن أعرف المكان الذي أنت فيه ،

لأنني أشعر أن موجة من النور تحبط بك حيثما ذهبت وأني حللت فإذا برق لي شعاعها علمت أين تحلين من بطن الوادي . فلا أحتاج السؤال عنك فإذا رأيتك وأنت عائدة إلى المنزل خيل إلي جمال مشيتك ورشاقة حركاتك كأنك قطاة تتنقل على بساط الخضرة وأنك موشكة أن تسقلي بجناحك في جو السماء .

إنك كل شيء يا فرجيني إنك حياتي التي لا أستطيع أن أعيش بدونها بل لا أستطيع فراقها لحظة واحدة . إن زرقة عينيك أصفى من زرقة السماء ، وإن نضارة وجهك أجمل من نضارة الربيع ، وإن ماء الحسن الذي يجول في أديمك لهو الكوثر الذي يصفه الكتاب المقدس فيما يصف من بدائع الجنان .

أسمع صوتك الذي هو أشبه شيء بصوت الطائر الغرد فيخفق قلبي خفقان أجنحة ذلك الطائر ، وأضع يدي في يدك فتنبعث في جسمي رعشة شديدة كرعشة الخائف المذعور ، وما أنا بخائف ولا مذعور !

أتذكرين يا فرجيني يوم حملتك على ظهري واجتزت بك ذلك النهر المتدفق ونحن عائدان من زيارة ذلك الرجل الشرير؟

لقد كنت في ذلك الوقت تعبًا واهنًا ، ولكنني ما شعرت بملامسة جسمك لجسمي حتى خيل إلي أنني قد استحلت إلى طائر خفاق الجناحين ، ولو أنك اقترحت علي في تلك الساعة أن أطير بك في آفاق السماء لفعلت .

لا أستطيع أن أفهم ما هذا الذي يؤثر علي منك يا فرجيني؟ لا أخافك ولا أخشاك ، بل أحبك وآنس بك ، فلم أضطرب حين أراك ، ولم أرتعد حين يلمس جسمي جسمك؟!

إنك لا تستطيعين أن تحبيني كما تحبي أمي ، أو تعطفي علي عطفها أو تقاسميني همومي وآلامي مقاسمتها ، ولكنني أشعر أن الذي أضمره لك من الحب والعطف فوق الذي أضمره لها ، ولقد عدت الآن من المزرعة وكان أمامي الطريقان : طريقي إلى الكوخ فلم أنتبه إليه ، وطريق إليك فجئتك دون أن أشعر بها أفعل أو أعرف لذلك سببًا .

ما أحسب إلا أن حادثة الجارية الآبقة كانت هي السبب في ذلك فإن أنسى لا أنسى صورة ذلك الألم الشديدة الذي ارتسم على وجهك يوم جئت لك البائسة المسكينة تحت قدميك وقصت عليك قصتها . ولا تلك الدموع الغزار التي ذرفتها رحمة بها وإشفاقًا عليها ، ما خاطرت به بعد ذلك من راحة نفسك وهدوئها في سبيلها .

إنك طيبة القلب يا فرجيني ، إنك تحبين الخير للخير لا تطلبين جزاءًا ولا أجرًا ، إنك تتألمين لمصاب المساكين والبائسين أكثر مما يتألم جميع الناس .

تعالي إلى جانبي وخذي هذا الغصن الأخضر الذي قطعته لك الساعة من شجرة الليمون الكبرى وضيعه حين تنامين تحت سريرك فإنه يملأ لك فضاء الكوخ عطرًا وشذى ، وخذي هذا القرص من العسل فقد عثرت به في جوف صخرة عالية في قمة الجبل ، وسيكون فطورنا في الصباح شهيًا جميلاً .

تعالي إلي يا فرجيني وضعي رأسك على فخذي لأشعر بالراحة من جميع متاعبي وآلامي ، وتحدثي إلي قليلاً فحديثك غذاء نفسي وراحة ضميري .

فتخرج منديلها من جيبها وتمسح له عرق جبينه ثم تضطجع وتضع رأسها على فخذه وتظل تقول له :

أترى يا بول منظر هذه الأشعة الصفراء الساقطة على رؤوس الصخور وذوائب الأشجار ، ومنظر ذلك الشفق الأحمر الممتد على حافة الأفق ، وتلك اللآلئ اللامعة الجميلة المنتشرة على سطح الماء؟!

إنها جميلة جدًا ، ولكنها لا تستطيع أن تبعث السرور إلى نفسي كما يبعثه جلوسي بجانبك ، وامتزاج أنفاسي بأنفاسك .

إنني أحب والدتي حبًا جمًا ، ولكنني أحبها أكثر من كل وقت في الساعة التي أراها تحنو عليك فيها وتضمك إلى نفسها وتدعوك يا ولدي ! وربما غفرت لها إغضاءها عني أحيانًا ولكني لا أستطيع أن أغفر لها إغضاءها عنك .

إنك تتساءل في نفسك : لم تحبني أكثر من كل شيء في العالم؟ أما أنا فإنني أحبك هذا الحب نفسه ، ولكنني لا أسأل نفسي عن سبب ذلك ، لأني أعلم أن الطائرين اللذين ينشآن في منشأ واحد ، وجو واحد ، يتعاطفان ويتآلفان حتى ما يكاد يصبر أحدهما عن صاحبه لحظة واحدة .

انظر إليهما! ها هما يتصايحان ويتهافتان على بعد ما بينهما ، كأن كلاً منهما يقول لصاحبه : تعالى إلى جانبي ولا تفارقني ، فإنني لا أستطيع أن أجد لذة الحياة بعيدًا عنك .

كذلك نحن يا بول نشأنا في منشأ واحد ، ورضعنا ثديًا واحدًا ، ونمنا في مهد واحد ، وابتدرنا في حوض واحد فأصبحنا شخصًا واحدًا ، فإذا افترقنا ساعة ظل كل منا يهتف بصاحبه ويناجيه : أنت بمزمارك على قمة الجبل ، وأنا بأنشودتي في سفحه ، كما يفعل ذلك الطائران المتناجيان على أفنانهما حتى نلتقي .

تقول إنك أحببتني منذ ذلك اليوم الذي رأيتي فيه أعطف على تلك الجارية المسكينة ، وأنا أقول لك إنني أحببتك من ذلك اليوم نفسه ، فإنني لا أستطيع أن أنسى أنك أوشكت أن تخاطر بنفسك في سبيلي حينما عزمت على مقاتلة الرجل الشرير من أجلي ، بل خاطرت بها فعلاً حينما حملتني على ظهرك وأنت تعب مكدود واجتزت بي ذلك النهر الزاخر المتدفق لا تعلم أتصل إلى ضفته أم تسقط دون ذلك .

إنني أجثو كل يوم بين يدي ربي أسأله الرحمة لأمي وأمك وماري ودومينج حتى إذا مر ذكرك على لساني ارتعشت شفتاي وشعرت كأنني أرتشف على الظمأ جرعة باردة ما خلق الله أهنأ ولا أطيب منها .

ثم تتسلق الصخور من أجلي يا بول؟ ولم تجشم نفسك هذا العناء الشديد فوق عنائك الذي تكابده طول يومك؟ إنني لا أفكر في شيء وأنت غائب عني سوى أن تعود إلي سالمًا موفورًا ، فإذا رأيتك كنت أنت الهدية الثمينة التي تقدمها إلي ، وتستحق من أجلها شكري وحمدي

■ ■ ■

(15) الخفقة الأولى

ما لفرجيني حزينة مكتئبة لا تضيء الابتسامات ثغرها كما كانت تضيئه من قبل ؟!

ما لها واجمة صفراء تمشي مطرقة ، وتجلس واهنة ، وكأن همًا من هموم الحياة الثقال يملأ ما بين جانحتيها ولا هم هناك ولا حزن! .. ما لها تلجأ إلى الخلوات والمعتزلات وتتجنب جهدها أن تخالط الناس حتى أسرتها وقومها ، وحتى صديقها الوحيد الذي هو أعز عليها من نفسها التي بين جنبيها ؟!

ما لهذه الخضرة الزاهية البديعة ، ولتلك السماء الصافية المتلألئة ، ولذلك المنظر البديع الجذاب ، منظر الشمس في طلوعها وغروبها والطير في غدوها ورواحها ، ولا يروقها ولا يستثير سرورها وبهجتها ، ولا يسري عنها همومها ، كما كان شأنها قبل اليوم ؟!

ذلك لأن قلبها قد خفق الخفقة الأولى ، والحب إذا خالط قلب الفتاة لأول عهدها به نقلها من حياة السرور والبهجة إلى حياة الهموم والأكدار .

نعم قد تحولت الصداقة في قلب فرجيني إلى حب ، وللحب شأن غير الصداقة وحال غير حالها ، وشعور وإحساس غير شعورها وإحساسها ، وكما أن المرأة الفارغة تشعر بتغير في جميع حالاتها الجسمية إذا بدأت بذرة الجنين تنمو في أحشائها ، كذلك الفتاة الخالية تشعر بتغير في جميع حالاتها النفسية إذا أحست بدبيب الحب في قلبها . وربما كان هذا الشعور هو دليلها الوحيد على أنها قد أحبت قبل أن تعرف ما الحب وما الغرام .

لقد كانت فرجيني تجهل في مبدأ أمرها حقيقة الحال التي طرأت عليها ولا نفهم منها شيئًا سوى أنها قلقة مستوحشة لا تأنس بالناس أنسها الأول ، ولا تجد في الجلوس إلى أسرتها ولا في الذهاب إلى «مخدعها» الراحة التي كانت تجدها من قبل ، فكانت تهيم على وجهها في القفار والغابات وضفاف الأنهار وقمم الجبال ، وما تكاد تستقر في مكان واحد ، فإذا وقع نظرها على بول في بعض غدواتها أو روحاتها طارت إليه فرحًا وسرورًا ، وبسطت إليه يدها لتعانقه ، فإذا انقلبت فجأة من سرور إلى حزن ، ووقفت في مكانها جامدة جمود الدمية في محرابها يتلهب وجهها حمرة ، ويرفضُّ جبينها عرقًا ، فيعجب بول لشأنها ، ويظل يقول لها : إن الخضرة اليوم زاهية جدًا ، وإن الشمس ساطعة متلألئة تضيء كل شيء حتى الأنفاق والأغوار ، وكل ما في الوجود ضاحك مستبشر ما عداك يا فرجيني ، فهل لك أن تحدثيني ما الذي ألم بك؟ وما هذه الغبرة القائمة التي تلبس أديم وجهك؟ ثم ينقض عليها ليضمها إلى صدره كعادته فتلمس من بيد يديه أملاسًا ، وتركض هاربة إلى أمها لتضع رأسها في حجرها ، فيظل بول واقفًا مكانه يعجب لأمرها عجبًا شديدًا ، لا لأن الذي يضمر لها من الحب أقل من الذي تضمر له ولا لأن نفسه خالية من الهم الذي يخالط نفسها ، ولكن المرأة ضعيفة خائرة لا تملك من الصبر والجلد بين أيدي النكبات النفسية التي تنزل بها ما يملك الرجل فإذا أحبت لأول عهدها بالحب ، وكانت شريفة فاضلة خرج بها الحب إلى حالة أشبه بالجنون والخبل ، وما هي بجنون ولا خبل ، ولكنها حيرة النفس وضلالها .

ولم يزل هذا شأنها حتى جاء شهر ديسمبر وهو الشهر الذي تشتد فيه حرارة الشمس في تلك المنطقة اشتدادًا عظيمًا ، وتظل تصب عليها أشعتها ، عمودية كأنها السهام المنبعثة من أقواسها وتنقطع عنها ريح الجنوب التي تعتادها طول العام ، وتهب عليها بدلاً منها أعاصير شديدة تزلزل أرضها زلزالاً ، وتطير بما شاءت من معالمها ومجاملها ، وتشقق ما أرادت من أطرافها وأنحائها ، فيثور الغبار ملتفًا في جو السماء ثم يجمد في مكانه ما يتزحزح ولا يتحلل كأنه العمد المنتصبة ، وتصبح سفوح الجبال وجوانب الهضاب كأنها أتن مشتعلة تنفث أوارها من حولها فتلتهب الأجواء بالتوائها حتى ما يستطيع متنفس أن يتنفس إلا زفيرًا ، ولا مستنشق إلا شواظًا ولهيبًا ، وحتى ما يجد المبترد ضحضاح ماء في غدير من الغدر أو خليج من الخلجان يبترد فيه ، ويزحزح عن عاتقه ذلك القميص الناري اللاصق به ، وتتساقط الماشية في ظلال الأشجار وفي سفوح الجبال واهنة متضعضعة مادة ألسنتها إلى السماء كأنها أيد مبسوطة بالدعاء إلى الله تعالى أن يجود عليها بقطرة تبل غلتها ، وتطفئ لاعجها ، وكأن ثغاءها وعجيجها وصفير الرياح السافيات من حولها وطنين البعوض الحائم عليها مناحة قائمة على هذه الطبيعة الميتة فإذا أقبل الليل عجزت يده الباردة الندية أن تخفف شيئًا من لهيب ذلك الأتون المستعمر ، وظهر القمر في أفق السماء أحمر كامدًا كأنه الوجه المخضب بالدم ثم يمشي في طريقه متثاقلاً متطالعًا كأنما هو يسبح في لجة عميقة من السحب المحيطة به .

في ليلة من تلك الليالي الداجية السوداء عجزت فرجيني عن أن تأخذ لنفسها راحتها في مضجعها وعجز الكرى عن أن يلم بأجفانها فثارت من مكانها متململة وأخذت سمتها إلى مخدعها عساها أن تجد فيه ما يروح عن نفسها ، وكان القمر لا يزال يرسل ذلك النزر القليل من أشعته الكامدة ، فأزعجها أنها لم تجد من جدولها المترع المتدفق إلا خيطًا دقيقًا يلمع في ضوء تلك الأشعة الباهتة كأنه ثعبان ممدود يتقلب على حرة سوداء ن ثم مشت إلى حوضها الصغير التي اعتادت أن تستحم فيه فلم تجد فيه إلا ضحضاحًا من الماء ما يكاد يغمر جسمها ، فخلعت ملابسها ونزلته فاستطاعت أن تجد قليلاً من الراحة ، وكان أول ما مر بخاطرها في تلك الساعة بعد أن عادت إليها نفسها ذكرى تلك الأيام الماضية التي كانت تستحم فيها مع بول وهما طفلان صغيران في هذا الحوض الصغير وذكرت كيف كانا يقضيان الساعات الطوال على ضفافه عاريين يرقصان ويمرحان ، ويعتليان الهضاب والربى ويتسلقان النخيل والأشجار ليقطعا أغصانها أو يجنيا ثمارها ، ثم ألقت رأسها على صدرها فرأت بين ثدييها وفوق ذراعيها العاريين ظل النخلتين المسماتين باسمها واسم بول ، وقد طالت عثاكيلهما ، وانتشرت سعفاتهما ، وكبر جوزهما ولصقت كل منهما بالأخرى لصوقًا شديدًا ، فأثرا ذلك المنظر في نفسها شعورًا غريبًا لم تستطع أن تفهمه ولا أن تفهم ما الذي يقلقها منه ، فلم تطق البقاء في مكانها لحظة واحدة ، فنهضت إلى ثوبها فأسبلته على جسمها ، واندفعت راكضة إلى كوخها ، وأيقظت أمها من منامها

واضطجعت بجانبها ، وأخذت بيدها وظلت تضغط عليها ضغطًا شديدًا ، كأنها تريد أن تبثها ألمها وتفضي إليها بسرها فلا تستطيع ، وتحاول أن تنطق باسم بول فيحتبس لسانها في فمها ، ثم لا يلبث ذلك السعير المتأجج في صدرها أن يستحيل إلى زفير فشهيق فبكاء فتذرف من دموعها ما شاء الله أن تذرف حتى يهدأ ما بها ، وأمها صامتة ساكنة تفهم كل شيء ولا تقول شيئًا سوى أن ترفع نظرها إلى السماء سائلة الله تعالى بنظراتها السابحة في ذلك الفضاء أن يمنح ابنتها الهدوء والسكينة وأن يقيها العثرات والزلات .

ولم يزل الحر آخذًا في اشتداده حتى استثار من مياه البحر أبخرة عظيمة ما زالت تتكاثف وتتجمع حتى انعقدت في سماء الجزيرة ظلة سوداء فاحتجب قرص الشمس وتلفعت الجبال والهضاب والربى والآكام بأردية بيضاء من الضباب ، فما تكاد تقع عين الناظر على منظر مستبين ، ثم ما لبث الرعد أن قصف قصفًا شديدًا دوت به أرجاء الجبال ، وأخذ البرق يرسل شرارته الحمراء في خلال السحب الكثيفة المتراكمة ؛ فأثار بعضًا منها وعجز عن بعض ، ثم انفجرت السماء عن أمطار غزار سالت بها الأودية والقيعان وسبحت فيها الربى والهضاب وما هي إلا لحظات قليلة حتى أصبح ذلك الحوض الواسع بحرًا عجاجًا يعب عبابه وتصطخب أمواجه ، اختفى كل شيء من هواديه وأعلامه وأطمه وذراه ، ولم يبق طافيًا منه على سطح الماء إلا تلك الربوة العالية التي يرفرف فوقها العلم الأبيض علم الاستكشاف

فكان منظرها في وسط ذلك البحر العجاج منظر السفينة المضطربة ، في أيدي الأمواج السائرة ، فصعدت إليها تلك الأسرة المسكينة تنتظر قضاء الله فيها وفي زروعها وضروعها وظلت الحال على ذلك عدة ساعات ثم هدأت العاصفة ورقت السحب واستطاعت الشمس أن ترسل من خلالها بعض الأشعة البيضاء في أنحاء الفضاء وأخذ بول ودومينج يفتحان للمياه المتراكمة شعابًا ممتدة في أطراف الحوض تنحدر منها إلى البحر حتى لم يبق منها بعد ساعة إلا ما ركد في الحفائر والأغوار ، والبطون والوهاد ، فذعر بول وفرجيني لمنظر الأشجار الساقطة ، والجذوع المتهافتة والأغصان المتناثرة والأزهار المبعثرة كأنهم يشهدون أطلالاً بالية قد عصفت بها وبساكينها أيدي الحدثان ، وعوادي الزمان .

وخطر لفرجيني أن تذهب لزيارة حديقتها لترى ما فعلت تلك الحوادث بها ، فعرض عليها بول أن يصحبها فسارا معهًا حتى أشرفا عليها فإذا هي قفر يباب لا شجر ، ولا طيور ، ولا أعشاب ، ولا جداول ، ولا غدران ، إلا ما كان من تلك البلابل الضاوية الواقفة على ذوائب بعض الأشجار ترعد بردًا ، تغرد تغريدًا شجيًا ، هو الأنين والبكاء أشبه منه بالترجيع والغناء .

فأطرقت فرجيني إطراقة طويلة ، ثم رفعت رأسها والتفتت إلى بول ، وقالت له : لقد ضاعت كل آمالي في الأرض يا أخي فلم يبق لي إلا أملي في السماء! لقد غرست تلك الجنة الزاهرة ، وأجريت في خلالها الجداول والغدران ، وأنشأت في أنحائها ما شئت من الحظائر لماشيتي ، والأعشاش لطيوري ، وكانت أنسي وراحتي وملجأ همومي وأحزاني .

وها هي ذي أيدي الحدثان قد عصفت بها وعفت رسومها ومعالمها ومحت سطورها من كتاب الدهر كأن لم تغن بالأمس ، فلم يبق لي ما آنس به في هذا العالم ، ولا ما أسكن إليه ، فلا أطلب لنفسي سعادة غير هذه السعادة في عالم غير هذا العالم لا تعصف به العواصف ، ولا تجتاحه السيول ، ولا تنال منه أيدي الصروف والغير .

فاضطرب بول عند سماع هذه الكلمات وسرت في نفسه رعدة شديدة ملكت ما بين أقطاره فصممت هنيهة ، ثم التفت إليها وقال لها : هوني عليك الأمر يا فرجيني فكلما يعرض الموت على الحياة تعرض الحياة على الموت وأعدك وعدًا صادقًا أن كل شيء سيعود إلى ما كان عليه ، وسترين عما قليل خمائلك وأشجارك ومياهك وظلالك ، وأطيارك وأعشاشك ، عائدة إلى شأنها الأول فيعود لك أنسك واغتباطك وسرورك ، وابتهاجك ، فرفعت طرفها إلى السماء وظلت على ذلك ساعة كأنها تحاول أن تطير بروحها إلى ذلك الملأ الأعلى ، ثم وضعت يدها على عاتقه وقالت له : أتدري ما هو خير من هذا كله يا بول؟ قال : لا ، قالت إن لسميك «بول» الرسول عندي منزلة لا تعدلها منزلة أخرى ،

وقد رأيت له صورة عندك تحتفظ بها في أطواء ثيابك فرجائي إليك أن تهديني إياها ، قال : لا أحب إلي من ذلك وانطلق يعدو إلى كوخه عدو الظليم ليأتي بها ، وهي صورة أثرية قديمة كانت تحملها مرغريت في قلادتها منذ زمن بعيد فلما ولدت ولدها بول ورأت في ملامح وجهه ما يشبه ملامح ذلك القديس العظيم سمته باسمه وناطت تلك القلادة بعنقه كتميمة تحفظه من عاديات الدهر ، وغوائل الأيام ، ولم يزل حاملاً إياها حتى كبر وأينع فاحتفظ بها في صندوقه بين ملابسه كأعز شيء لديه حتى سمع فرجيني تقترح عليه أن يهديها إياها فلم يكن شيء حتى عاد بها طائرًا فرحًا فقدمها إليها فسرت بها سرورًا عظيمًا ، وجرى ماء البشر في وجهها طلقًا غدقًا ، وقالت له : ستبقى هذه الصورة تذكارك الدائم عندي ما حييت ، ولن تفارق عنقي قط حتى الساعة الأخيرة من ساعات حياتي ، ولن أنسى أبد الدهر أنك قد أهديت إلي الشيء الوحيد الذي تملكه ، فحنا عليها ، وهم أن يحتضنها إلى صدره فأفلتت من يده برفق روكضت هاربة إلى حجر أمها كعادتها.

فوقف بول في مكانه حائرًا مكتئبًا مذهوبًا به كل مذهب تعبث بعقله الوساوس والأوهام . ولقد طال هذا الأمر بينهما وأصبحت حياتهما غريبة مضطربة لا عهد لهما بمثلها من قبل ، فخلت مرغريت يومًا من الأيام بهيلين وقالت لها لم لا نزوج بول من فرجيني فقد بدا يشقيان في عيشهما ، وأخاف أن يمتد بهما الأمر إلى ما هو أعظم شرًا من ذلك ، وعندي أنه متى تكلمت الطبيعة وجب الإصغاء إليها والإذعان لها ، وما شقي الناس هذا الشقاء الذي نراهم يعالجونه كل يوم إلا لأنهم تمردوا على الطبيعة وخلعوا طاعتها

وسولت لهم نفوسهم السير في طريق غير طريقها فقالت هيلين : إن الولدين لا يزالان صغيرين وفقيرين ، فماذا يكون شأنهما غدًا إن قسم لهما أن يلدا أولادًا كثارًا في قفرة مثل هذه القفرة لا يعين المرء فيها على العيش غير المال؟ إننا كابدنا أعظم ما يكابد امرؤ في العالم من عناء وشقاء في سبيل تربيتهما وتغذيتهما ، فمن لهما - وهما ضعيفان ساذجان ، وقد رحلنا عنهما إلى عالمنا الآخر الذي ينتظرنا ورحل معنا دومينج وماري - بقوة تعينهما على أمرهما وأمر حياتهما العائلية المستقبلة ، وإن الزمان قد دار دورته ، وقد أصبحت أشعر منذ أعوام بآلام شداد تخالط كل جزء من أجزاء جسمي ، وأرى أنني أسير سيرًا حثيثًا في تلك الطريق التي يسير فيها الذاهبون إلى حفائرهم ، وأن ليس بيني وبينها إلا خطوات قليلة ، وقد أصبح دومنيج شيخًا هرمًا لا يكاد يتحمل عبء نفسه ، وأصبحت ماري مقربة من ذلك فلا يبقى لهما مساعد ، ولا معين .

والرأي الذي أراه أن نباعد بينهما ، فنرسل بول إلى بعض أصقاع الهند ليتجر فيهما بما يتجر به الأوربيون المنتشرون في تلك البلاد ، عله يتلهى عن فرجيني بشواغله وأعماله ، وربما عاد عليه من ذلك ما يعينه على أمرها وأمره غدًا .

ثم اتفقتا على أن تستشيراني في هذا الأمر فأشرت عليهما بها رأتا ، وقلت لهما : إن في هذه الجزيرة وفيما حولها من الجزر كثيرًا من السلع التي تنفق نفاقًا عظيمًا في الأسواق الهندية كالقطن والأبنوس والأضياع وما إليها ، فإذا سافر بول بها فباعها هناك ، ثم عاد ببعض السلع الهندية الغريبة فباعها هنا ، وطال مرانه على ذلك واعتياده رجوت له في مستقبل حياته خيرًا كثيرًا .

فعهدتا إلي أن أفاتحه في هذا الشأن فخلوت به ذات يوم وأنشأت أحدثه حديثًا طويلاً عن التجارة وفضائلها ومزاياها ، وعن الضرب في أفاق الأرض وثمراته وفوائده ، ثم أفضيت إليه بذلك المقترح فأصغى إليه وهو صامت واجم لا يقول شيئًا حتى انتهيت من حديثي ، فرفع رأسه إلي وقال : وهل يوجد عمل أعظم ثمرة وأعود فائدة من علم الفلاح الذي يقوم بزراعة حقل من الحقول لا يعطيه إلا القليل من جهده وأقل من القليل من ماله فيعود عليه منه ضعف ما بذل له خمسين أو ستين مرة! ومتى كانت البحار يا سيدي وطاء لينًا أخاطر فيه بنفسي لأربح شيئًا أستطيع أن أربحه من بيع ما فضل عن حاجتنا من حبوب وأثمار في أسواق هذه الجزيرة ، وما حولها من الجزر . وأية حاجة بنا إلى المال الكثير ؛ ونحن والحمد لله في سعة من العيش لا نشكو جوعًا ، ولا ظمأ . ولا ضيقًا ، ولا ضجرًا ، ولا نطلب لأنفسنا منزلة في الحياة فوق المنزلة التي نحن فيها ؟

ولا أكتمك يا سيدي أنني أخاف المال وأخشاه خشية شديدة ، وأقشعر من ذكره كلما سمعت به ، وأعتقد أننا لا نزال سعداء في هذه الحياة ما دمنا بعيدين عنه ، وعن التفكير فيه ، فإن قدر لنا يومًا أن نشقى فيها ، فإنما شقاؤنا يكون على يده وبشؤم طالعه ، فلنتمتع بالسعادة التي قسم الله لنا ، ولا نجني على أنفسنا بالتكليف ، والمحاولة ، وركوب الطريق الهوجاء التي لا نعرفها ، ولا نعرف غايتها ، ولا منتهاها ، والله أعلم بنا منا ، وأحنى علينا من آبائنا وأمهاتنا .

فوقفت بين يدي هذه الكلمات الحكيمة المملوءة شرفًا وفضيلة موقف الجمود والصمت ، لا أستطيع أن أقول له شيئًا ، ولا أنكر عليه أمرًا ، ولا أفضي إليه بسر ذلك المقترح الذي اقترحته عليه ضنًا به أن يهلك يأسًا وجزعًا .

■ ■ ■

(16) الرسالة

وهنا وصلت سفينة من فرنسا تحمل كتابًا لهيلين من عمتها تقول لها فيه إنها ندمت على ما كان في الماضي من قسوتها عليها ونبوها بها وإطراحها إياها ، وأنها قد بلغت السن التي تحتاج فيها إلى قلب رحيم من قلوب أهلها أو ذوي رحمها يخفق بجانبها لأنها تعيش في بلد لا أهل لها فيه ولا رحم ، فهي تقترح عليها أن تحضر إليها بنفسها ، فإن حال دون ذلك حائل أرسلت إليها ابنتها بدلاً منها لتكون بجانبها في ساعتها الأخيرة ، وقالت لها إنها قد عزمت على أن توصي لفرجيني بجميع ثروتها من بعدها فوقع ذلك الكتاب من نفوسهم جميعًا موقع الدهشة والعجب وكأنما قد نزلت بهم كارثة من أعظم كوارث الدهر ، فقد تمثل لهم أن هيلين ستفارقهم وينقطع أنسها عنهم ، وأن ذلك الوادي سيقفر منها ، ومن فواضلها وأياديها بعد ما عمرته أعوامًا طوالاً فوجمت مرغريت وأطرقت فرجيني . وجمد بول مكانه جمود الصنم ، واستعبر دومينج وماري ، ومرت بهم على ذلك ساعة لم تمر بهم مثلها منذ وطئت أقدامهم هذه الأرض حتى اليوم ثم التفتت هيلين إلى مرغريت باسمة وقالت لها : هدئي روعك يا صديقتي فإنني لن أفارقك قط ، وما أحسبني مستطيعة ذلك لو أردته ، فقد سعدت بك برهة من الزمان لا أستطيع أن أنساها أو أنسى يدك البيضاء فيها ، ثم أقبلت عليهم جميعًا وقالت لهم كونوا مطمئنين يا أولادي ،

فسأبقى معكم حتى أموت بينكم وأدفن في التربة التي تعيشون فيها ، ولقد جرح الدهر قلبي فيما مضى جرحًا داميًا فكنتم أطباءه وأساته ، وما زلتم به تنفون عنه غثاثته وتنضحونه بالبارد العذب من ودكم وإخلاصكم وعطفكم ورحمتكم حتى التأم أو كاد فلن أكفر بنعمتكم قط ، ولن أجازيكم على إحسانكم شر الجزاء ، ولئن كانت قد بقيت في أعماق قلبي بقية من ذلك الشجن القديم ، والذكرى المؤلمة ، فذلك ما لا يد لكم فيه ، ولا حيلة لكم في أمره ، ولا توجد قوة في العالم سواء أعشت في هذا الكوخ الحقير أو في ذلك القصر العظيم تستطيع أن تشفيني من دائي إلا أن يمد الله إلي يد معونته ورحمته .

فما سمعوا منها ذلك حتى استطيروا فرحًا وسرورًا وداروا بها يقبلونها ويعتنقونها ويهنئونها بوفائها وإخلاصها ، الله ما أشرفهم وأكرم نفوسهم ؛ إن الثروة الطائلة التي يقتتل عليها الناس اقتتالاً وينحر بعضهم بعضًا في سبيلها ، تعرض نفسها عليهم عرضًا فيأبونها ويطيرون فرحًا بالخلاص منها .

وأنهم لكذلك إذ سمعوا ضوضاء خارج الكوخ وأصواتًا غريبة فدخل عليهم دومينج وأخبرهم أن سيدًا عظيمًا يركب مركبًا فارهًا ووراءه عبيد كثيرون يقصد هذا الكوخ ، وما أتم كلمته حتى دخل ذلك السيد العظيم ، فإذا هو حاكم الجزيرة المسيو «لابوردينيه» فنهضوا له إجلالاً وإعظامًا وحيوه بتحية الحاكمين وقدمت له مرغريت كرسيًا من القش فجلس عليه ، وقدمت هيلين شراب الأرز في إناء بسيط من القرع فتناوله مغالبًا نفسه على كتمان ما شعر به من التقزز حينما شربه ،

ثم دار بعينيه في أنحاء الكوخ ، فعجب لحقارته ورثاثته ، وبساطة ما يشتمل عليه من الآنية والأثاث ، وبدأ حديثه بمعاتبة هيلين في انقطاعها عن زيارته تلك المدة الطويلة ، وأنها لم تلجأ إليه في ساعات شدتها وبؤسها ليمدها بالمعونة التي تحتاج إليها ، وكان بول واقفًا بجانب الباب يسمع حديثه ويلقي عليه نظرة شزراء وكأنما قد ألهم ما يدور في نفسه ، وما قدم من أجله ، فتقدم نحوه خطوة وقال له : إنك لست بصادق فيما تقول يا سيدي ، لأن أمي ذهبت إليك في بيتك منذ أعوام فازدريتها واحتقرتها ، ولم تأذن لها أن تجلس على كرسي بين يديك ، ولقد أراد الله بها خيرًا إذ كفاها مؤونة حمل منتك أو منة أحد من الناس غيرك؟ فالتفت الحاكم إلى هيلين وقال لها : ألك ولد أيضًا يا سيدتي؟ قالت : لا ، ولكنه ولد صديقتي مرغريت ، وهو يسميني أمه لأنه ربي مع فرجيني في مهد واحد ورضع معها ثديًا واحدًا ، وأحبها حبًا لا يحبه الأخ أخاه ، فنظر إليه الحاكم ، وقال له : ادن مني يا ولدي ، فدنا منه ، فمسح بيده رأسه ، وقال له : إنك لا تزال صغيرًا يا بني ، فإذا بلغت مبلغ الرجال ، وفهمت ضرورات الحياة وأحكامها ، وأدركت مبلغ شقاء هؤلاء القوم الذين تسمونهم حكامًا وعلمت أن أعظم ما يشقون به في حياتهم أنهم ليسوا أحرارًا في إجراء العدالة بين الناس وإراحة الحقوق على أهلها . وتحري الصدق فيما يقولون والفضيلة فيما يفعلون .

فتناول بول يده وهزها هزًا شديدًا ، وقال له : أشكر لك صدقك وصراحتك يا سيدي ، وإن كنت قد أسأت إلينا فيما مضى ، وأظن أني أستطيع أن أتخذك صديقًا لي منذ اليوم ، فابتسم الحاكم ، وقال : ولي الشرف العظيم بذلك يا ولدي .

ثم أشار إلى هيلين أنه يريد محادثتها على انفراد ، فأشارت إليهم جميعًا فانصرفوا ، فأقبل عليها يقول لها : لابد أن تكوني قد قرأت الكتاب الذي أرسلته إليك عمتك اليوم ، وقد جاءني منها كتاب في البريد نفسه تطلب إلي فيه أن أزورك ، وأبذل كل ما أملك من الجهد في حملك على السفر إليها ، أو أرسل ابنتك فرجيني بدلاً منك ، وأرى أن ترسلي إليها ابنتك ، فهي فتاة ناشئة فتية ذات نضرة وجمال ، وليس من الرأي من أن تدفني مثل هذه الحياة الغضة الندية في مثل هذه التربة القاحلة المحرقة ، والحياة السعيدة هنالك تنتظرها وتمد ذراعيها لاستقبالها ، وإني وإن كنت أعلم أني أطلب إليك ما يشق عليك ، ويفت في عضدك ولكنني أعلم أيضًا أنك أرحم بابنتك وأحنى قلبًا عليها من أن تحولي بينها وبين تلك السعادة التي تنتظرها هناك من أجل متعة نفسك برؤيتها جالسة بين يديك ، وأعتقد أنك لا ترين بأسًا من التضحية بشيء من عواطفك النفسية في سبيل راحتها وسعادتها ، وهناءة عيشها طول أيام حياتها ، لقد كتب إلي وزير المستعمرات أن أعني بهذه المسألة عناية كبرى وألا أدعها تفلت من يدي ما وجدت إلى ذلك سبيلا ، ومعنى ذلك عنده أن آخذك بالشدة في هذا الأمر ، وأكرهك منه على ما لا تحبين ، ولكني لم أحفل بكلامه ، ولم أكترث له ، بل جئت إليك بنفسي لأعرض عليك الأمر عرضًا ، لا لألزمك به إلزامًا ، وإني أكل إليك ، وإلى رحمتك وشفقتك ، ولعقلك ورزانتك ؛ مستقبل هذه الفتاة المسكينة ؛

فاختاري لها ما يجب أن تختاره الأم الرؤوم لابنتها ، على أن صلتها بك لن تنقطع في مستقبل الأيام ، وستسمعين غدًا من أحاديث هناءتها ورغدها ورفاهيتها ونعمتها ، ما ينير لك ظلمة الوحشة التي تشعرين بها بعد فراقها ، على أنها ربما عادت إليك بعد قليل من الأيام ، فإن عمتك على ما أعلم في الدور الأخير من أدوار حياتها ، وهي هالكة اليوم أو غدًا .

فقالت له هيلين : إنني ما تمنيت على الله في حياتي شيئًا سوى أن أرى ابنتي سعيدة في حياتها ، هانئة بعيشها ، إلا أنني لا أحب أن أفتئت عليها في أمر من أمورها ، فلابد لي من أخذها بالرفق واللين حتى تذعن لما أريد ، وأرجو أن يعينني الله على ذلك وأظن أني أستطيع أن أفضي إليك بالأمر غدًا أو بعد غد ، قال أرجو أن تعجلي بقدر ما تستطيعين ، فالسفينة موشكة على السفر ، ولا أحسبها باقية عندنا أكثر من ثلاثة أيام ؛ ولا أعلم متى تعود بعد ذلك .

ثم نهض قائمًا وأخرج من جيبه كيسًا كبيرًا مملوءًا بالقطع الذهبية ووضعه على المائدة وقال : هذه هدية عمتك إليك لتستعيني بها على شأنك وشأن فرجيني ، وودعها ومضى .

(17) الوداع

لم يثقل هذا الأمر كثيرًا على نفس هيلين ؛ بل صادف هوى من قلبها ولم تكن كاذبة في قولها للحاكم إنها لا تتمنى على الله في حياتها شيئًا سوى أن ترى ابنتها سعيدة في حياتها ، هانئة بعيشها ؛ إلا أنها لا تحب أن تفتئت عليها في أمرها فإن الحاكم لم يتجاوز عتبة باب الكوخ حتى دعت إليها ابنتها وخلت بها وأنشأت تحدثها حديثًا طويلاً قالت لها فيه إنني أصبحت يا بنيتي امرأة عليلة منهوكة ، لا قوة لي ولا عزيمة ؛ وما مرغريت بأحسن حالاً مني ؛ وقد صار دومينج وماري شيخين ضعيفين والشيخوخة أسرع إلى سكان هذه المناطق الحارة منها إلى سكان المناطق الأخرى ، وبول لا يزال فتى غريرًا عاجزًا عن أن يستقل بنفسه فيما يعالج من شئونه ، فماذا يكون حالكما غدًا لو أنكما أصبحتما تحملان وحدكما عبء هذه الحياة الثقيلة على عاتقكما ؛ وكيف يهون عليكما أن تريا أولادكما الصغار غدًا بائسين أشقياء لا يملكون لأنفسهم ولا تملكون لهم نفعًا ولا ضرًا؟ وقد مثلت لنفسي بين أن تعيشي بجانبي فأراك فقيرة معوزة تشقين ليلك ونهارك في جمع قوتك كما تشقى الأجيرة العاملة ، بين أن تفارقيني بضعة أعوام أسمع في أثنائها على البعد من أنباء سعادتك وهناءتك ونعمتك ورغدك ، ما يثلج صدري ، ويذهب بوحشة نفسي ، فوجدت أني أستطيع احتمال الثانية ، وأعجز عن احتمال الأولى ، فسافري يا بنيتي ؛ وكوني غدًا عكاز شيخوختي وعماد حياتي ، ومعينتي على دهري .

فرفعت فرجيني رأسها إليها فإذا دمعة رقراقة تتلألأ في عينيها ونطقت بتلك الكلمة التي عجزت عن أن تنطق بها قبل اليوم فقالت : «وكيف لي بترك بول يا أماه؟» .

قالت : إنما أطلب إليك السفر من أجل بول ، لا من أجل غيره فهو غلام مسكين يبذل من راحته قوته في سبيل العمل ما أحسب أنه قاتله وذاهب بحياته إن طال عليه أمره فارحميه وأشفقي عليه وأنقذيه من بؤسه وبلائه ، ولقد آثرت أن أفارقك وأحتمل كل مكروه في سبيل ذلك حتى الموت ضنًا بك وبسعادتك فكوني مثلي وفارقيه رحمة به وإبقاء عليه ، وليكن حبك إياه عظيمًا مجيدًا كحبي إياك ، ولن يعظم الحب ولن يمجد إلا إذا بنى على أساس من التضحية والبذل .

قالت : ألم تقولي لي يا أماه قبل اليوم أن للكون إلهًا يتولى شأنه ويرعاه ، وقد رعانا وتولى شأننا بالأمس ، فلم يتخلى عنا غدًا ؟

ألم تقولي لي إننا ما خلقنا إلا للعمل ، وأن العمل هو ينبوع الحياة ومادتها التي لا تفنى ، فلم تطلبين إلي اليوم أن أعتمد في حياتي على غيره وألتمس الرزق من سبيل غير سبيله؟

دعيني أعيش بجانبك يا أماه ، وبجانب بول ومرغريت ودومينج وماري ، وعلى مقربة من شويهاتي وأعنزي ، وطيوري وعصافيري وبين أحضان هذا الوادي الجميل الذي أنست به وأحببته وألفت ليله ونهاره وكواكبه ونجومه ، وظلاله ، فإنني لا أستطيع أن أعيش بين قوم لا أعرفهم ولا أفهمهم ، ولا أحسبني أحمدهم إن عرفتهم وفهمتهم .

دعيني أعيش مما قسم الله لي من الرزق ، ولقد رزقني الجم الكثير الذي لا أطلب فوقه مزيدًا ، ولا أبتغي به بدلاً !

لقد عشت في هذا الوادي خمسة عشر عامًا ما شكوت ولا تألمت ، ولا بت ليلة جائعة أو ظامئة أو ساخطة أو ناقمة ، فلم تطلبين إلي أن أترك ما لا يريبني إلى ما يريبني ، وأن أبيع هذا الحاضر المعروف ، بذلك الغائب المجهول؟ وإن نفسي لتحدثني بشر عظيم في هذه السفرة التي تدعونني إليها ، وما أزعم لنفسي علم ما في الغيب ، ولكني أشعر بخوف شديد لا أعرف له سببًا ، وحسبي أن أعلم أن لا سبيل لي إلى الوصول إلى ذلك العالم الثاني إلا إذا ركبت تلك المطية الوعرة التي يسمونها البحر حتى تسيل نفسي رهبة وجزعًا .

فأطرقت هيلين صامتة ، ولم تستطيع أن تقول شيئًا لأنها وإن كانت من أشهى الأشياء إليها أن ترى ابنتها بعيدة عن بول في تلك الأيام ، وأن تراها آخذة بحظها من تلك السعادة التي تنتظرها هناك ، إلا أنها رحمتها وأشفقت عليها فلم تستطع أن تجادلها فيما تقول .

ثم قالت بعد قليل : إنني لا أحب أن أشق عليك يا بنيتي في شأن من شؤونك الخاصة بك ، فاختاري لنفسك الحياة التي تحبينها وتؤثرينها ، غير أني أضرع إليك في أمر أرجو ألا يثقل عليك قالت : وما هو؟ قالت : أن تكتمي سرك الذي تعالجينه بين جنبيك ، فلا تبوحي به لأحد من الناس كائنًا من كان حتى لبول نفسه ،

وأن تجعلي الفضيلة والطهارة والشرف والعفة رائدك في كل ما تقولين وما تفعلين ، وأن تأخذي نفسك بالأناة والرفق في جميع خطواتك وتصرفاتك اتقاء العثرة والزلة ، وأن تجعلي نصب عينيك دائمًا أن الرجل لا يحترم إلا المرأة التي تضن بنفسها عليه ، ولا يحتقر مثل المرأة التي تبذل نفسها له أي أنه يحب المرأة الفاضلة أكثر مما يحب المرأة الجميلة ، بل لا يعرف للمرأة جمالاً غير جمال الأدب والعفة وإن زعم في نفسه غير ذلك ، قالت : ذلك ما أعرفه يا أماه ، ولا أعرف شيئًا سواه .

وما أتى المساء حتى وفد إلى الكوخ كاهن الجزيرة وهو رجل من أولئك الدعاة الماكرين الذين تستعين بهم الحكومات الاستعمارية على غزو القلوب الضعيفة وحيازتها بلا سفك دم ، ولا إنفاق مال ، والذين يكونون دائمًا في حاشية حكام المستعمرات ليعينوهم على ما هم آخذون بسبيله من الفتح والغزو ، وكان هذا الكاهن يختلف إلى هذه الأسرة من حين إلى حين ليرشدها ويباركها فلما رأوه قادمًا إليهم ظنوه أنه إنما جاء لزيارتهم كعادته التي اعتادها ، فأحسنوا استقباله وتحيته ، ورأت هيلين أن تكاشفه بذلك الأمر الذي كان يشغلها فكاشفته به فلم يلبث أن قضى فيه قضاء مبرمًا ، وأعلن أن الله يأمر هيلين بالبقاء في الجزيرة ويأمر فرجيني بالسفر إلى فرنسا! وأنهما إن لم تفعلا فقد خالفتا إرادة الله وباءتا بسخطه وغضبه ، فذعرت فرجيني ذعرًا شديدًا ، ولم تجد بدًا من الخضوع والإذعان ، فانصرف الكاهن عائدًا إلى قصر الحاكم ليرفع إليه ما تم من الأمر على يده .

وما أصبح الصباح حتى علم سكان الجزيرة أن تلك الأسرة الفقيرة الخاملة التي تسكن ذلك الوادي المقفر الموحش قد أمطرتها السماء فضة وذهبًا ، فوفد إليه الوافدون من كل مكان ما بين مستمنح يطلب حاجة ، ومستعين يطلب معونة ، وتاجر يعرض سلعة ، فأعطت السائل ، وأعانت المسترفد ، وابتاعت من الأنسجة والشفوف وصنوف الديباج والخز وأنواع الأثاث والرياش ما يزيد عن حاجتها ، وما يضيق به كوخها ، وخلع جميع أفرادها أسمالهم القديمة البالية وقمصهم البنغالية الخشنة ، وارتدوا ملابس جديدة بديعة الشكل والهندام ، ولبست فرجيني ثوبًا حريريًا أزرق مطرزًا بالقصب ، واعتصبت بعصابة وردية زاهية ولصق ثوبها بجسمها فمثله تمثيلاً بديعًا ، ووصفه وصفًا دقيقًا . وبول يرى كل هذا ولا يفهم منه شيئًا ، لأن أحدًا منهم لم يجرؤ أن يكاشفه الأمر ، إلا أن يظن ذلك ظنًا ، فعظم حزنه واكتئابه وساورته الوساوس والهموم ، فرحمته أمه مما به ، وكانت تمسك في نفسها شيئًا من العتب على صديقتها هيلين في رضاها بسفر ابنتها وتضحيتها بابنها في سبيلها ، فدعته إليها وخلت به وقالت له : لم تعلل نفسك يا بني بالآمال الكاذبة والأماني الضائعة ، ولم تتطلع إلى ما تقصر عنه يدك ويضيق به ذرعك؟ ولقد آن أن أكشف لك حقيق أمرك الذي كتمته عنك زمنًا طويلاً لتعلم من أنت؟ ولتقدر آمالك على مقدار حقيقتك ، لا على مقدار تصورك فاعلم أن أمك امرأة فلاحة وضيعة لا حسب لها ولا نسب ،

وأن قدرًا من الأقدار الجارية بين الناس قد نزل بها في صباها فحاد بها عن طريق الشرف والاستقامة ، فحملت بك من سفاح ، أي أنك لا أب لك يعرفه الناس ، ولا لقب لك غير لقب أمك فلا تقس نفسك بفرجيني ، فهي فتاة شريفة نبيلة من أسرة كريمة مشهورة ، ولها عمة ثرية كانت قد أغفلت أمرها حقبة من الزمان لأمر ما ، ثم ذكرتها اليوم فأرسلت في طلبها لتعيش معها في باريس متمتعة بثروتها الطائلة ، حتى إذا ذهبت لسبيلها ورثت عنها هذه الثروة من بعدها ، فلا تطمع في أن تتصل بها يومًا من الأيام إلا أن تكون فلتة من فلتات الدهر ، أو أعجوبة من أعاجيب الأيام ، وأرح نفسك من هموم الأماني ومتاعبها ، والله أولى بك وبي من كل مخلوق .

واعلم يا بني أنني لم أقترف هذا الجرم الذي ذكرته لك ، وأنا أعلم أني آثمة أو مذنبة ، ولكنه قضاء الله قد جرى بما لا حيلة لي ، ولا لأحد من الناس في أمره ، فاغفر لي خطيئتي إن كنت ترى أنني مخطئة أو أنني الجالبة لك هذا الشقاء الذي تكابده في حياتك .

ثم أسلمت رأسها على ركبتيها وبكت بكاء طويلا.

فحنى عليها بول وطوق عنقها بيديه وقال لها : لا تبك يا أماه ، فما أنت بائسة ولا شقية مادمت معك ، أما هفوتك التي تتحدثين عنها فما أحسب إلا أن الله سبحانه قد غفرها لك ، نعم سوف يغفرها لك لأنك قد كفرت عنها بدموعك ، وآلامك ، وشقائك الذي كابدته زمنًا طويلاً ، وكوني على ثقة من أنك أجل في عيني

وأكبر في نفسي من أن أعد عليك أمثال هذه الهفوات والعثرات ، وأنني لا يعنيني أكان أبي معلومًا أم مجهولاً ، شريفًا أم وضيعًا لأنني ما فكرت يومًا من الأيام أن أفخر به أو أعتمد في حياتي عليه ، أما تلك التي حدثتني عنها فسأحمل نفسي على نسيانها وسلوتها وأرجو أن يعنيني الله على ذلك ، ولقد شعرت قبل اليوم بانقباضها عني وتجهمها لي ! ولابد أن تكون قد وقفت من بضعة شهور على السر الذي أطلعتني عليه اليوم فازدرتني واحتقرتني ونفضت يدها مني إلى الأبد والأمر لله وحده .

ثم نهض قائمًا ، وقد ظن أنه قد شفي مما به ، فتنفس نفس الراحة ومضى لسبيله .

إلا أنه لم يبعد إلا قليلاً حتى شعر بوخزة في قلبه فلم يبل بها ، ثم تتابعت الوخزات فخيل إليه أن قلبه يرفرف ما بين أضلاعه رفرفة الطائر بأجنحة ، وأنه يحاول أن ينبعث من مكانه ويطير في أجواز الفضاء ، فصرخ صرخة عظمى وظل يهتف : آه فرجيني آه يافرجيني ، حتى وصل إلى صخرة عالية على شاطئ البحر فتهافت عليها وأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهبت به نفسه مذاهب لا يعلمها إلا الله . وظل على حالة ساعة حتى انحدر قرص الشمس إلى مغربه وبدأ كوكب الليل يخطر في جو السماء محفوفًا بحاشية من سحبه وغيومه ، فلا يكاد يلمحه اللامح من خلالها إلا كما يلمح وجه الحسناء من وراء خمارها ، ثم أخذ يرسل أشعته الباهتة الخضراء على ما تحته من صخور وهضاب ورمال وتلال فأضاءتها وأضاءت فيما أضاءته ذلك الشبح الضئيل الجاثم على تلك الصخرة المنفردة .

وإنه لكذلك إذ شعر بيد قد وضعت على عاتقة وبأخرى ترفع رأسه فانتبه فإذا فرجيني واقفة أمامه ودموعها تترقرق في عينيها ، فذعر إذ رآها وظل ينظر إليها نظرًا حائرًا مضطربًا ، فقالت له : ما بقاؤك هنا وحدك في هذا المكان يا بول ؟ فقال لها : لقد حدثوني عنك أنك مسافرة بعد يومين أو ثلاثة ، وأنك ذاهبة لتفتشي لك عن أخ آخر غير يصلح لك وتصلحين له لأنك عرفت أنك فتاة شريفة ثرية لا يجمل بك أن تتصلي بفتى وضيع مسكين مثلي ، فأحزنني ذلك حزنًا عظيمًا ، وكنت أظن أنني أستطيع أن أحمل نفسي على الصبر عنك واليأس منك فعجزت ، فلم أر بدًا من أن أروح عن نفسي ببضع قطرات من الدمع أذرفها في هذا المكان الخالي .

ثم أشار إليها أن تجلس بجانبه وأقبل عليها وظل يقول لها : إلى أين تريدين أن تذهبي يا فرجيني ؟ وأي أرض تلك الأرض التي اخترتها وآثرتها على أرضك التي نشأت فيها ، وألفت ماءها وهواءها ، وظلالها وأفياءها ، وخضراءها وغبراءها ؟ وأي قلب ذلك القلب الذي رأيت أنه يحمل في سويدائه من الحب والعطف أكثر مما يحمل لك قلب أمك فاستبدلته به وسكنت إليه من دونه ؟!

لمن تتركين تلك المرأة المسكينة وأنت أنس وحشتها وسمير وحدتها ، وعماد حياتها ، وكل أملها ورجائها في هذا العالم ؟

وكيف تستطيع أن تهنأ بنومها حيثما تمد يدها في ظلال الليل وسكونه إلى مضجعك فلا تراك بجانبها ، وكيف تستقبل وجه النهار إذا فتحت عينيها في الصباح فلا تقعان على وجهك المشرق الجميل ، أو تجد لذة الطعام والشراب إذا جلست إلى المائدة فلا تراك الجالسين إليها ، أو تصغي إلى أصوات الطبيعة المترنمة وصوتك لا يجلجل بينها ، ولا تنبعث بين رناتها ؟! وكيف لي بتعزيتها ، تعزية أمي عن همومها وأحزانها ، إذا دخلت إليهما فرأيتهما باكيتين منتحبتين تسألان عنك الليل والنهار ، والأصائل والسحار ، والظباء السانحة والطيور البارحة ، فلا تسمعان ملبيًا ولا مجيبًا ولا تقبلان عزاء ولا سلوى !؟ .

وصمت هنية ثم قال وعيناه مخضلتان بالدموع : ماذا أصنع أنا من بعدك أيتها الغادرة القاسية إذا ظللت أفتش عنك في كوخك ومخدعك ، وتحت ظلال الأشجار ، وعلى ضفاف الأنهار ، وفي جميع الأماكن التي أعلم أنك تأوين إليها لأجلس إليك ساعة أتمتع فيها بلذة حديثك وحلاوة سمرك ، فلا أراك في واحد منها ؟ ومن لي بمن يستقبلني حينما أعود من المزرعة تعبًا لاغبًا فيبتسم تلك الابتسامة العذبة الجميلة التي تذهب بجميع أوجاعي وآلامي ، ومن ذا الذي يصحبني في هدوء الليل وسكونه إلى شاطئ البحر وقد بسط القمر أشعته على أمواجه المنبسطة وصبغها لونه الفضي الجميل فيجلس بجانبي على رملة من رمال الميثاء فيسمعني تلك الأناشيد الساحرة الخالبة التي تستغرق شعوري ووجداني ، وتملك على مداركي وعواطفي . ويخيل إلى حين أسمعها أنها هابطة من الملأ الأعلى ، وأنها نغمات الحور الحسان ، في فراديس الجنان ؟! .

إنني لا أستطيع أن أعيش من بعدك يا فرجيني ، ولا أستطيع أن أسألك أن تصحبيني معك في سفرك ، فأنت أجل من ذلك شأنًا وأعظم خطرًا ، ولقد أفضت إلي أمي اليوم بسر حياتك وسر حياتي فعلمت أنك فتاة شريفة جدًا ، وأنني فتى وضيع جدًا ، لا أصلح أن اكون أخًا لك ، بل لا أصلح أن أكون عشيرك وجليسك ، وإنما أسألك أن تأذني لي بركوب السفينة التي تركبينها لأكون ملاحًا في ملاحيها أو خادمًا من خدمها ، فأراك على البعد فأجد في رؤيتك راحتي وسلوتي ، وأعدك وعدًا صادقًا لا أغدر فيه ولا أحنث ، أنني لا أجالسك ، ولا أدنو منك ولا أتصل بك بوجه من الوجوه إلا إذا عرض لك خطر من الأخطار ، فإنني أبذل لك في تلك الساعة جميع ما تملك يدي وما تملك يدي غير حياتي ، فأبذلها لك طيب النفس عنها .

ما الذي طرأ عليك يا فرجيني . وما الذي نال من نفسك هذا المنال كله حتى استحالت حالتك إلى حالة أخرى أكاد أنكرها ولا أعرفها ؟

كنت تخافين البحر أشد الخوف ، وتجزعين لرؤية عواصفه وأنوعه جزع الأطفال الصغار ، وتعجبين كل العجب للذين يخاطرون بأنفسهم في ركوبه ، فإذا أنت مزمعة أن تعبريه ، وأن تلبثي بين أمواجه الثائرة تسعين يومًا كاملة !

كنت تتألمين أشد الألم لفراق أمك يومًا واحدًا ، فها أنت تريدين أن تفارقيها فراقًا طويلاً لا يعلم مداه إلا الله تعالى ، ومالك حيث تذهبين من الأرض أم سواها ! .

كنت تقولين إنني لا أجد لذة الحياة بعيدة فها أنت تجدينها بعيدة عني جدًا بين أقوام لا تعرفينهم ، ولا تمتين إليهم بصلة من الصلات ، أو سبب من الأسباب .

لقد شعرت بهذا الطارئ الجديد الذي طرأ على نفسك منذ رأيتك تلبسين هذا الثوب الضيق اللاصق بجسمك ، وعهدي بك أنك تضيقين ذرعًا بالريح العاصفة إذا مدت يدها إليك ، وحاولت أن تعبث بذيل ردائك ، أو تدور بقميصك حول جسمك ، ولا أدري ماذا يكون شأنك غدًا إذا فارقت هذه القفرة الموحشة إلى ذلك العالم المزدحم الهائل الذي يتدفق حرية واستهتارًا ، ويسيل نعمة ورغدًا ؟

نعم إنك قد مللتيني يا فرجيني ، ومللت الحياة بجانبي ، وأصبحت تشعرين بالحاجة إلى المال الذي لا أستطيع تقديمه لك ، وإلى العيش الرغد الذي تقصر يدي عنه فلا ألومك ولا أعتب عليك ، ولكنني أسألك هل أنت على ثقة من المال أنه السبيل الوحيد إلى السعادة التي تنشدينها ، وأنك تكونين في ذلك الفناء الواسع أسعد منك في هذه الزاوية الضيقة ؟ إنني أخاف أن تكوني مخطئة فيما تظنين .

إنني لا آسي على نفسي يا فرجيني ، فقد عرفت من أنا ، وعرفت من أنت وأصبحت لا أمل لي في أن أعيش في دائرة أوسع من الدائرة التي خلقت لها ولكنني أضن بك على الدهر وأرزائه أن يمتد إليك ظفر من أظفاره الجارحة فأهلك على أثرك همًا وكمدًا .

فإما أن تعدلي عن السفر ـ أو تأذني لي بالسفر معك فإنني لا أستطيع أن أحول بين قلبي وبين القلق عليك ما دمت غائبة عني ، فإن أبيتها فودعيني منذ الساعة الوداع الأخير ، فلا أمل لي في الحياة من بعدك .

فلم تستقبله إلا بدموعها تنحدر على خديها تحدر حبات العقد سلكه فانتثر ، وأنشأت تقول له :

إنني إنما أسافر من أجلك يا بول لا من أجل نفسي ، لأنني أصبحت أشفق عليك الإشفاق كله من هذا الشقاء الذي تكابده في سبيلي وسبيل هذه الأسرة المسكينة وطالما بكيتك بيني وبين نفسي كلما رأيتك صاعدًا شرفًا ، أو عابرًا نهرًا ، أو سالكًا وعرًا ، أو حاملاً ثقلاً ؛ حذرًا عليك أن تزل بك قدمك في هوة من الهوى فتهلك فأهلك على أثرك ، فأنا إن فارقتك فإنما أفارقك بجسمي لا بنفسي لأعود إليك بعد قليل من الأيام بالراحة الطويلة من آلم هذه الحياة ومتاعبها ؛ ولنستطيع أن نتمتع غدًا في هذا المعتزل الساكن الجميل متعة لا يكدرها علينا مكدر حتى الموت .

ورجائي إليك ألا تعود مرة أخرى إلى ذلك الحديث المزعج الذي حدثتنيه الساعة ، فإنما نحن أخوان توأمان ، نشأنا معًا ، وشربنا الحياة من كأس واحدة ، وسلكنا سبيلها من طريق واحدة ، هذا هو نسبنا ، وهذا هو حسبنا ، لا نعرف غيره ولا نفهم شيئًا سواه ، وإني قائلة لك كلمة ما كان يمنعني من أن أقولها لك قبل اليوم إلا الخجل والحياء : لو أن الدنيا عرضت على بحذافيرها على أن أبتاعها بشوكة تشاكها أو لحظة تتألم فيها لأبيتها غير آسفة ولا نادمة .

علي أنني لا ذنب لي فيما كان ، فقد أمرتني أمي بالسفر ولا أستطيع أن أخالف لها أمرًا ، وأبلغني الكاهن أن تلك إرادته ومشيئته ، ولا قبل لي بالخروج عن إرادته ، وبعد : فهأنذا بين يديك فمرني بما تشاء من أمرك أطعك وأذعن إليك ، غير مبالية بشيء بعدك فكل ما في الحياة هين إلا أن أراك جازعًا أو متألمًا .

فصاح بول صيحة الفرح والسرور وقال : سافري يا فرجيني وسأسافر معك لأقيك بنفسي عاديات الدهر ، وطوارق الحدثان ، فإن حيينا حيينا معًا ، وإن هلكنا هلكنا معًا ثم دنا منها وضمها إلى صدره فشعر بالراحة التي يشعر بها الملقى عصاه بعد سفر طويل .

وكنا نفتش عنهما في تلك الساعة أنا وهيلين ومرغريت ولا نعرف لهما مكانًا حتى سمعنا صيحة بول حين صاح فقصدنا إليه ، فما وقع نظره علينا حتى انتفض من مكانه ومشى إلينا ، ثم التفت إلى هيلين وألقى عليها نظرة ما ألقى عليها مثلها قبل اليوم وقال لها بنغمة الهازئ الساخر : نعمت الأم أنت يا سيدتي ، ونعم ما تسدينه إلى ولديك الكريمين عليك من نعمة سابغة ، ويد بيضاء ، إذ تريدين أن تفرقي بينهما وتمزقي شمل حياتهما ، وتعذبي قلبيهما الناشئين الضعيفين بصنوف العذاب ، وألوان الآلام ، وأنت تعلمين أنهما متحابان متآلفان ، لا يستطيع أحدهما أن يصبر على صاحبه لحظة واحدة ، وأن افتراقهما هو القضاء عليهما معًا .

لقد كنت يا سيدتي أزهد الناس في المال وأشدهم نقمة عليه ، وزراية به ، وزهدًا فيه ؛ فما الذي بد لك في شأنه حتى أصبحت تخاطرين بولديك العزيزين عليك في سبيله ؟ بل تخاطرين بكرامتك وعزة نفسك ؟ لأنك تريدين أن ترسلي ابنتك إلى تلك الأرض التي أهانتك واحتقرتك ، وأبت أن تسمح لك بالبقاء فيها ، والعيش تحت سمائها ، وعقابًا لك على هفوة صغيرة ما كان مثلها جديرًا بمثل هذا العقاب المؤلم الشديد !؟

نعم إنها ابنتك وأنت صاحبة الشأن فيها ، ما ينازعك في ذلك منازع ولكنني أنا أيضًا أخوها وصديقها وعشيرها فصلتي بها عظيمة جدًا لا تفترق عن صلتك إلا قليلاً ، ولئن فرق بيني وبينها النسب فلقد جمعنا الحب والإخاء ، والود والوفاء والولادة في مهد واحد ،

والرضاع من ثدي واحد وبكائي عليها أن مسها ألم وبكاؤها على أن نالني وصبو مخاطرة كل منا بنفسه في سبيل صاحبه حتى يستنقذ حياته من يد أجله أو يهلك دون ذلك ، واشتركنا معًا في الخير وللشر ، والنعيم والبؤس والجوع والشبع ، والري والظمأ ، وخوض الأنهار واجتياز القفار ، وتسلق الجبال ومقاساة الأهوال ، فكيف لي بالصبر على فراقها أو لها بالصبر على فراقي ؟

أبعديها عني ما شئت ولكني سأتبعها ، وأترسم آثارها حيثما حلت من الأرض فإن أبيتم إلا أن تقفوا في وجهي ، وتحولوا بيني وبين ركوب السفينة التي تحملها خضت البحر وراءها خوضًا ، لا أبالي بالمخاطر التي تعترضني في طريقي ، فإن قدرت لي النجاة فذاك ، أو لا ، فحسبي منها أنها تلقي على في الساعة الأخيرة من ساعات حياتي نظرة من نظراتها ، وأن تذرف في سبيلي دمعة من مدامعها ، فيكون شخصها آخر ما أرى من الأشياء وصوتها آخر ما أسمع من الأصوات .

فاستعبرت هيلين وقالت : وماذا يكون حالنا من بعدك يا بول ؟

قال : وهل تظنون أنني أبقي من بعدها إنسانًا تستطيعون أن تنتفعوا بي من شأن من شؤونكم ؟ أو أن تبقى لي من الفهم والإدراك ما يعينني على مأرب من مآرب هذه الحياة ؟ إنها فكري وعقلي ، وتصوري وإدراكي ، وقوتي وعزيمتي وحياتي من مبدئها إلى منتهاها ، فإن أردتم أن تفقدوني إلى الأبد ، فأبعدوها عني وودعوني الوداع الأخير قبل أن تودعوها .

اختنق صوته بالبكاء وحاول أن يذرف دمعة واحدة يروح بها عن نفسه فلم يستطع ، فارتعد جسمه ، واستحال لونه ، وشاعت نظراته ، ولمعت عيناه ، ولبس وجهه أغرب صورة لبسها في حياته وظل يهذي ويقول :

أيتها المرأة القاسية ! لامتعك الله برؤية ابنتك بعد اليوم ولا أعادها البحر إليك إلا جثة باردة طافية على أمواجه ، ولا وقعت عيناك عليها إلى محمولة على الأيدي إلى مقرها الأخير ، ولتكن ذكراها مبعث ألم دائم لك لا يفارقك حتى الموت .

ثم دار على نفسه دورة سريعة وسقط مغشيًا عليه : فبكت هيلين ومرغريت وبكيت أنا أيضًا على جفاف دمعتي ونضوب مادة حياتي لأنني أصبحت والدًا لهذا الولد المسكين ؛ وأي والد يستطيع أن يملك نفسه ومدامعه أمام دموع ولده المنهلة بين يديه ، وظللت أقول في نفسي : ويل لك أيتها القارة المشؤومة لا خلاص منك ولا نجاة من يدك أبد الدهر ، فقد فرت منك تلك الأسرة المسكينة ،

ولجأت إلى أقصى مكان يمكن أن تناله يد في العالم فما زلت بها ترسلين وراءها عقاربك واحدة بعد أخرى حتى أزعجتها من مستقرها ، واستطعت بحفنة واحدة من الدنانير أن تفسدي عليها حياتها وتبددي ما اجتمع من أمرها ، وأن تعيديها إلى حبائلك المنصوبة التي ظنت أنها قد أفلتت منها أبد الدهر ، فواشقاءك وواشقاء العالم بك !

وهناك تقدمت فرجيني تمشي بخطوات خفيفة مختلسة حتى جلست إلى جانبه ، وقد تلألأ وجهها بنور سماوي غريب لا يشبه نور القمر ولا نور الشمس ؛ ولا نور أي كوكب من كواكب الأرض والسماء بل هو مبعث ذاته ، ومنبع نفسه ، وأكبت على أذنه تقول له : سواء بقيت هنا يا بول أو رحلت فإني أقسم لك بدموعي ودموعك ، وآلامي وآلامك ويما قدر لنا أن نلقاه في حياتنا من شقاء ولوعة ؛ أنني أكون لك ما حييت ولا أكون لأحد غيرك ، أقسم لك على ذلك بين يدي أمي وأمك ، وبين يدي هذا الشيخ الجليل ، فهم شهودي على ما أقول ، والله من ورائهم محيط .

فكأنما صبت على جسمه سجلاً من الزلال البارد ، فانتفض ورأرأ بمقلتيه واستوى جالسًا ، وظل يدور بنظره حوله ثم أسبلت عيناه الدموع في هدوء وسكون فاحتضنته أمه إلى صدرها وبكت حتى امتزجت دموعه بدموعها ، فهمست هيلين في أذني : إن الموقف مؤلم جدًا ولا صبر لي على مشاهدته ، فتقدمت نحو بول وجذبت يده وقلت له : هيا بنا يا ولدي إلى المنزل ، وقد انتصف الليل ، فمشى معي صامتًا لا يقول شيئًا

ولا يلوي على شيء مما وراءه ، حتى بلغنا الطريقين طريقي إلى كوخي ، وطريقه إلى كوخه ، فقلت له : هل لك أن تترك أهلك الليلة يستريحون من آلامهم ومتاعبهم ؛ وتذهب معي إلى كوخي لتبيت عندي ثم تعود في الصباح؟ وكن على ثقة أن فرجيني لا تسافر بعد اليوم فقد عزمت غدًا أن أكلم الحاكم في أمرها ، والحاكم لا يرد لي رجاء وما أحسب إلا أن الأمر سينتهي على ما تحب وترضى ، فأسلم لي يده فقدته كما تقاد السائمة البلهاء حتى وصلنا إلى المنزل ، فقضى ليلته قلقًا مروعًا لا يذوق النوم إلا لمامًا حتى أصبح الصباح .

■ ■ ■

(18) السفر

وهنا صمت الشيخ وأطرق برأسه فدنوت منه وقلت له : ما بك يا سيدي؟ قال : بي أن هذه الذكرى تهيني ، وتبعث شجوني وأحزاني ولا أرى لك يا ولدي فائدة من ذكرها ، فالحياة كما تعلم ذات لونين أبيض وأسود ، وأنتم معشر المتمدينين لا تحبون منها إلا لونها الأبيض ، فلا أريد أن أنحرف بك إلى ما لا تحب من لونيها ، قلت قل يا سيدي فنحن أبناء الدموع والآلام وسلائل البؤس والشقاء؟ وما لنا أن نبرأ من أصولنا وأعراقنا ، أو نذهب في حياتنا مذهبًا غير مذهب آبائنا وأجدادنا ، وهل يطهر معدن النفس من أخلاطه وشوائبه وينقيه من أدرانه وأكداره ، غير تلك الألسن النارية التي تنبعث من صدور المتألمين ، وقلوب المحزونين؟ على أننا لابد أن نفهم الحياة كما خلقت خيرها وشرها سعودها ونحوسها ، ولابد لنا حين ننظر إلى نصف الكرة الذي يقابل وجه الشمس أن نعلم أن نصفها الآخر مظلم قاتم ، وأننا ونحن في ضوء النهار سيدور الفلك دورته فنصبح في ظلمة الليل البهيم ، فرفع رأسه واستمر في حديثه يقول :

جاء الصباح فنهض بول من مضجعه القلق المضطرب ، ومشى في طريقه إلى كوخه ، ومشيت وراءه أرقبه على البعد من حيث لا يشعر بمكاني ، فلم يزل سائرًا حتى لمح الخادم «ماري» واقفة على رأس هضبة عالية تنظر جهة البحر ، فذعر إذ رآها وناداها : أين فرجيني يا ماري؟ فأطرقت برأسها وبكت ، فجن جنونه ، وعلم بما كان ،

وهرع إلى شاطئ البحر يعدو عدو الظليم ؛ فلم ير أمامه على سطح الماء شيئًا ، وحدثه الناس هناك أن السفينة قد أقلعت قبيل الفجر ، وأنها تجاوزت مدى البصر فلا سبيل إلى رؤيتها ، فكر راجعًا حتى وصل إلى ذلك الجبل العظيم الذي يسمونه جبل الاستكشاف ، فارتقاه بأسرع من لمح البصر على وعورته وتشعب مسالكه حتى بلغ قمته العليا وضرب الفضاء بنظره ، فلم ير في عرض البحر إلا نقطة سوداء صغيرة تتلاشى شيئًا فشيئًا ، فعلم أنها السفينة التي تحمل فرجيني ، فاستمر نظره عالقًا بها لا يفارقها حتى غابت عن عينيه ، فظل واقفًا حيث هو ، ينظر حيث ينظر ، كأنما يظن أنها لا تزال باقية في مكانها ، وظل على ذلك ساعة حتى نشأت أمام عينيه سحابة سوداء حجبت عنه كل شيء فلوى رأسه وانفجر منه باكيًا ، وأنشأ يعج عجيجًا محزنًا يرن في أجواف الغابات والأدغال وتردد صداه أكناف الجبال ، فصعدت درجات من الجبل حتى كنت منه بحيث يسمع صوتي ، وظللت أناديه وأضرع إليه أن ينزل فلم يفعل إلا بعد لأي ، فتناولت يده وذهبت به إلى كوخه ، فبكت أماه إذ رأتاه . وكانت صورته قد استحالت إلى أغرب صورة لبسها في حياته ، وكأن بؤس الحياة جميعه قد تجمع واتخذ له مكانًا بين حاجبيه ، فظل ساعة صامتًا لا يقول شيئًا سوى أن يدور بطرفه ههنا وههنا كالذاهل المختبل ، ثم أخذ يتكلم كأنما يحدث نفسه ويقول : ولم لم ينبئوني بالساعة التي تسافر فيها لأقضي حق وداعها قبل أن تفارقني؟

إنهم لو فعلوا لما زدت شيئًا على أن أدنو منها وأقبلها قبلة الوداع ، ثم أقول لها : إن كنت تذكرين يا فرجيني أني أسأت إليك يومًا من الأيام أو بدرت مني بادرة آلمتك وجرحت نفسك ، فاغفري لي ذنبي قبل أن تفارقيني ، وإن كنت عزمت على أن تجعلي فراقك هذا الفراق الأخير الذي لا لقاء بعده ، وأن تتخذي لك في المكان الذي تذهبين إليه آخر غيري ، تمنحينه من عطفك وودك مثل ما كنت تمنحينني فأنت في حل من ذلك وهنيئًا لك ما تختارين . وما تؤثرين ، فلا تكن ذكراي سببًا في تنغيص عيشك المقبل ، وتكدير حياتك الجديدة ، ثم أنصرف بعد ذلك لشأني ، وقد هدأت نفسي وبرد غليلي ، ولكنهم لم يشفقوا علي ، ولم يرحموني ، لأنني ولد مسكين لا شأن لي في الحياة ، بل لا مكان لي بين الأمكنة التي يجلس فيها ذو الأصول والأنساب .

فدنت منه هيلين ، وما بين القلوب قلب أكثر من قلبها لوعة وأسى وتناولت يده ، وقالت له : كن رجلاً كما كنت طول أيام حياتك ، واعلم أننا ما كنا نعرف الساعة التي تسافر فيها فرجيني ، فقد طرق بابنا بعد عودتنا إلى الكوخ ، وفي هدوء الليل وسكونه حاكم الجزيرة ووراءه أعوانه وجنوده وقال لنا : إن الريح قد اعتدلت والسفينة على وشك السفر ، فلتستعد الفتاة ، فأبت فرجيني أن تسافر قبل أن تراك ؛ وظلت تهتف باسمك وتناديك وتبكي بكاء مرًا ، فلم يجد الحاكم بدًا من أن يأمر رجاله بحملها فاحتملوها إلى هودج كانوا قد أعدوه لها وساروا بها إلى شاطئ البحر ، وهي لا تنفك عن ذكرك والبكاء عليك حتى أقلعت السفينة .

فرفع بول إليها نظره وظل يردده بينها وبين أمه ، ثم قال لهما : فتشا لكما الآن عن ولد غيري يدعوكما بأمه ، ويحمل عنكما همومكما وآلامكما ، فقد فقدتماني إلى الأبد ، ثم انفتل من مكانه مسرعًا وخرج هائمًا على وجهه يمر بكل مكان كانت تجلس فيه فرجيني فيجلس فيه ، وبكل شجرة كانت تستظل مكانها وأخذ يخاطب الماشية التي يجدها في طريقه كأنها تعقل منه ما يقول فيقول لها : مسكينة أنت أيتها السائمة الضعيفة ، من ذا الذي يرحمك ويعطف عليك بعد صاحبتك؟ ويقول للطيور التي تغرد في أعشاشها : لا تنتظري بعد اليوم من يحمل إليك الطعام في حجره ، والماء في يده فقد سافرت فرجيني ، ورأى الكلب «فيديل» سائرًا في طريقه يسوف التراب ويشتمه كأنما يفتش عن شيء ضاع منه ؛ فقال له : فتش ما شئت فإنك لن تراها بعد اليوم ، ورأى عنزة تتبعه حيث سار فالتفت إليها وقال لها : أنا سائر وحدي ، وليست فرجيني معي ، فانصرفي لشأنك .

ولم يزل هذا شأنه حتى بلغ الصخرة التي جلس عليها معها ليلة الأمس فارتقاها ورمى بنظره في الفضاء حتى استقر في المكان الذي شاهد فيه تلك النقطة السوداء من البحر في الصباح فلم يزل نظره عالقًا به كأنما يظن أن السفينة لا تزال باقية فيه ، وظل على ذلك ساعات طوالاً .

وكنا نتبعه على البعد من حيث لا يشعر بمكاننا ؛ ونترقب مذاهبه ومراميه ونرثي له مما به ؛ وقد أصبحنا ، ولا شأن لنا غير رعايته وملاطفته وتهوين خطبه عليه ، وتسرية همومه وأحزانه ، ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً ، حتى استطعنا بعد لأي أن نعود به إلى الكوخ ، واستطاع هو بعد مرور يومين كاملين لم يذق فيهما طعامًا ولا شرابًا يصيب شيئًا من الطعام ، فكان إذا جلس على المائدة خيل إليه أن فرجيني لا تزال بجانبه ، فيظل يحادثها ويلاطفها كما كان يفعل من قبل ويضع بين يديها أصناف الطعام التي يعلم أنها حبها ، ثم لا يلبث أن ينتبه لنفسه فيطرق برأسه خجلاً وحياء ، وتظل عيناه تنهملان بالدموع ، ثم ينهض من مكانه وينصرف لشأنه .

وكان لا يعجبه من الأحاديث مثل الحديث عنها ، ولا يطربه خطاب مثل خطاب هيلين حين تناديه : يا زوج ابنتي أو يا صهري العزيز ، فاستطاع الهدوء أن يجد شيئًا فشيئًا إلى نفسه سبيلاً ، فأخذ يجمع آثار فرجيني من جميع أماكنها ومظانها ، فجمع طاقة من الزهر كان قد أهداها إليها قبل سفرها بيوم واحد ، وعصابة حمراء كانت تعتصب بها في أيام الأعياد ، وكأس الشاي التي كانت تشرب بها ، وزجاجة العطر التي كانت تحفظها في صندوقها ، ومشط الأبنوس الذي كانت تمشط به غدائرها ، وأمثال ذلك من الأدوات والآنية ووضعها في مكان واحد سماه «متحف فرجيني» فكان يختلف إليها من حين إلى حين ليلثمها ويقبلها ويضمها إلى صدره كأنما هو يضم صاحبتها .

وما هي إلا أيام قلائل حتى عادت إليه تلك الروح العظيمة الشريفة التي كانت تملأ ما بين جنبيه : روح الرجولة والهمة ، والعزة والأنفة ، فعز عليه أن يرى أميه ، وهما ضعيفتان منهوكتان تختلفان إلى المزرعة لمناظرتها والقيام عليها ، فأخذ يحمل عنهما ذلك العبء شيئًا فشيئًا حتى استقل به فعاد له جده ونشاطه وأصبح العمل ملهاته الوحيدة التي يلجأ إليها من همومه وأحزانه ويعتصم بها من وساوسه وبلابله . وكان يأنس بي في ذلك الحين أنسًا عظيمًا ويقضي معي جميع اوقات فراغه لأنني كنت أعزيه وأهون عليه همومه وآلامه ، لا بالدموع والبكاء ، كما كانت تفعل أماه ، بل بالحديث والسمر ، وسرد القصص ، وضرب الأمثال ، واستخراج العبر والعظات من مشاهد الكون ومناظره ، فاقترح علي يومًا من الأيام أن أعلمه الكتابة والقراءة ، ولعله كان يضمر في نفسه أن يعرف السبيل إلى مراسلة فرجيني ، فأعجبني مقترحه هذا وأخذت أعلمه ما أراد ، وأقسم لك يا ولدي أنني ما رأيت في حياتي ذهنًا أحد ولا أمضى ، ولا فطرة أقوم ولا أسلم من ذهن هذا الغلام وفطرته .

فقد استطاع بعد بضعة شهور لا تزيد على تسعة أو عشرة أن يقرأ فصلاً طويلاً من كتاب أدبي بسيط ، وأن يكتب مسودة رسالة فرجيني .

وما هو إلا عام وبعض عام حتى طلب إلي أن أعلمه فن الفلاحة ولعله أراد أن يصل من طريقه إلى الثروة الواسعة إرضاء لفرجيني ، وعلم تقويم البلدان ليعرف النقطة التي تحلها فرجيني من سطح الأرض ، وعلم التاريخ ليعرف شيئًا من شؤون أولئك القوم الذين تعاشرهم فرجيني ، فعلمته من ذلك ما يستطيع أن يقوم به مثلي ، ولم يلبث إلا قليلاً حتى استطاع أن يستقل بنفسه في دراسة تلك العلوم وغيرها مما بدا له أن يعرفه ويزاوله ، فأصبح يشعر بلذة عظمى ما كان يشعر بمثلها من قبل ، وسمت نفسه إلى درجة عالية من الفهم والإدراك لم يسمح الدهر بمثلها لفتى في مثل سنه ، وفي مثل الزمن الذي قضاه في الدراسة ؛ وأصبح ينظر إلى الحياة وشؤونها نظرة الفيلسوف الحكيم ، ففهمها على حقيقتها ، واستشف الكثير من بواطنها وخفاياها ، وعرف الفروق الدقيقة بين الخير والشر والصلاح والإساءة والإحسان ، فلم يشتبه عليه مسلك من المسالك ، ولا سبيل من السبل ، وكان السبب في ذلك أنه تعلم العلم لا ليتخذه آلة يتوصل بها إلى غرض من أغراض الحياة ، أو مطمع من مطامعها ، ولا ليتجمل به بين الناس كما يفعل أولئك الفاخرون المغرورون الذين يعتبرون العلم حلية من الحلي يفاخرون بها كما يفاخرون بأثوابهم القشيبة ، وجواهرهم الثمينة ، وقصورهم الشامخة ، ومراكبهم الفارهة ، بل ليفهم الحياة على حقيقتها ويراها كما خلقها الله لا كما عبثت بها يد الإنسان ، فكان له ما أراد .

وكذلك استطاع الحب أن يخلق من هذا الغلام الهمجي المتوحش إنسانًا كاملاً مستنير الذهن مستوي العقل فياض الشعور والإحساس واستطاعت شمسه المشرقة أن ترسل أشعتها الوضاءة إلى أعماق ذلك القلب المظلم القاتم ، فتنير جوانبه ، وتبدد ظلماءه ، واستطاعت شعلته الملتهبة ، أن تطهر بنارها تلك النفس الصدئة المتبلدة وتستخلصها من أخلاطها وشوائبها ، فإذا هي سبيكة صافية من الذهب تتوهج توهجًا وتلتمع التماعًا ، إلا أنه لم يمض على ذلك زمن طويل حتى بدأ يمل التاريخ لكثرة ما يشتمل عليه من وصف المجازر البشرية والمصارع الإنسانية ، الآخذ بعضها بأعناق بعض ، ومن تلك الجداول المستطيلة الحافلة برذائل الملوك والأمراء وفظائع الأشراف والنبلاء ، وما سودوا به صحائف حياتهم وحياة العالم أجمع من عار وشنار ، كما مل تقويم البلدان لكثرة ما يحتويه من أسماء الأمكنة والبقاع ، والجبال والتلال والأنهار والنهيرات التي لا نهاية لها ، ولا فائدة منها ، وشغف الشغف كله بالأدب شعرًا ونثرًا ، قصصًا وروايات ، وأمالي ومحاضرات ؛ لأنه خلاصة العقل البشري وزبدته الأخيرة التي تمخض عنها ، لأنه المرآة الصافية التي تتراءى فيها صورة الحياة على حقيقتها ومشاعر النفوس بكل ما تشتمل عليه من حب وبغض ، وسرور وألم ، وطمع ويأس وارتياح وانقباض ، وكان خير ما يعجبه من الشعر شعر «هومير»

ومن النثر قصة «تليماك» لأنها تصور حياة الفطرة والبساطة ، وتمثل المشاعر النفسية بدقائقها وأجزائها وترسم مزالق الشهوات التي تزل فيها أقدام البشر من فجر التاريخ حتى اليوم ، فإذا جلس لقراءتها ووصل في رقتها وعذوبتها فتهيج أشجانه ، وتسيل عبراته ، فيلقي كتابه جانبًا ويسبح في فضاء الخيال سبحًا طويلاً .

وكان من أبغض الأشياء إليه مطالعة تلك الروايات الغرامية التي وضعها واضعوها لا ليهذبوا بها الطباع البشرية ، ولا ليصوروا فيها الحياة الاجتماعية على حقيقتها ، بل ليستثيروا بها شهوات الناس وفضول أطماعهم ويلهبوا بنارها ما برد من عواطفهم . وهدأ من لواعجهم ، ولينزلوا بالحب من سمائه الرفيعة المقدسة إلى تلك الحمأة القذرة من الرذائل والمثالب ، وكان يقول في نفسه كلما قرأ شيئًا منها : ليت شعري هل تستطيع فرجيني أن تنجو بنفسها من شرور ذلك المجتمع الخبيث الذي تتحدث عنه هذه الروايات؟! إنني أخاف عليها خوفًا شديدًا .

■ ■ ■

(19) أوروبا

مرت ثلاثة أعوام ، ولم يرد علي هيلين كتاب من ابنتها ولا من عمتها ، فقلقت لذلك أشد القلق لأنها لم تعرف عن ابنتها شيئًا منذ سافرت حتى اليوم ، سوى ما كانت تسمعه من حين إلي حين من أفواه بعض الطارئين علي الجزيرة أنها وصلت سالمة إلى بيت عمتها ، وأنها تعيش في ذلك البيت عيشًا سعيدًا يحسدها الحاسدون ، ثم ورد عليها بعد حين ذلك الخطاب ، ولا أزال أحفظ صورته حتى اليوم :

والدتي :

كتبت إليك قبل اليوم كتبًا كثيرة ، ثم علمت من عهد قريب أنها لم تصلك فأرسلت إليك هذا الكتاب من طريق آخر غير الطريق الذي كنت أرسل إليك منه .

لا أحدثك كثيرًا عن سفري وأدواره سوى أن أقول لك إن فراقك كان له تأثير على نفسي عظيم ما كنت أقدره من قبل ، فقد بكيت كثيرًا وتألمت كثيرًا ، حتى رحمني من كان معي ، وكان يخيل إلي والسفينة تمخر بي في عباب البحر أنني إنما أفارقك فراقًا لا رجعة لي منه أبد الدهر ، ولقد شعرت بوحشة عظمى في الساعة التي دخلت فيها قصر عمتي ، فقد خيل لي أنه على جماله ورونقه ، وحسن نظامه وبديع هندامه . وكثرة الذاهبين والآتين في أبهائه وحجراته ، مقبرة موحشة لا نأمة فيها ، ولا حركة ،

ولقد سألتني عمتي حين وقفت بين يديها بصوت خشن جاف لا تجول في أديمه قطرة واحدة من الرحمة : ماذا تعلمت في صغري؟ فلما عرفت أنني لم أتعلم شيئًا حتى القراءة والكتابة قالت : إنك لا تزيدين في شأنك على شأن هؤلاء الخدم الوقوف بين يدي ، ولم تنشئي منشأ خيرًا من منشئهم ، ثم أمرت بإرسالي إلى دير في ضواحي باريس أتعلم فيه أنواع العلوم فعلموني القراءة والكتابة ، فسرني منهما أني أستطيع مراسلتك وقراءة رسائلك ، ثم أخذوا يعلمونني التاريخ وتقويم البلدان والحساب والهندسة والرسم والعلوم الدينية وبعض الألعاب الرياضية ، فلم أحفل بشيء من هذا كله ، لأني شعرت ببغضه والنفور منه ، واعتقدت أن لا فائدة لي فيه فوصفني أستاذي ورفيقاتي بالبلادة وعسر الفهم ، فلم أبال بذلك ، لأني ما دخلت الدير لأرضيهم ، ولا لأنال الحظوة في عيونهم ، على أن عمتي تعنى بي عناية كبرى ، وتبذل في سبيل راحتي ورفاهيتي وتيسير جميع مرافقي وحاجاتي مالاً كثيرًا ، وقد خصصت لخدمتي فتاتين متأنقتين ، من وصائفها لا عمل لهما نهارهما وليلهما إلا القيام على زينتهما وحليتهما وقضاء ما يتبقى من أوقات فراغهما في أحاديث تافهة مرذولة لا لب لها ولا ثمرة ، كأنما تمثلان على مسرح أو تلعبان في ملعب ، ويخيل إلي أن عمتي قد أوعزت إليهما ألا تدعواني بلقبي الذي أحبه وأوثره ، فهما تسميانني دائمًا «الكونتة فرجيني» بدلاً من «فرجيني دي لاتور» أي أنها تأبى علي أن أحمل اسم والدي الذي أحبه وأعطف عليه وأفخر به كل الفخر ، ولا أستطيع أن أنسى ما كابده في حياته من شقاء وألم في سبيلك

وسبيل سعادتك حتى سقط في مصرعه المحزن المؤلم في صحاري مدغشقر غريبًا وحديًا لا يعطف عليه عاطف ، ولا يبكي عليه باك ، ويخيل إلي فوق ذلك أنها أمرتها ألا تسمحا لي بالتحدث عنك ، عن حياتي الماضية معك ، فإذا ذكرتك أو ذكرت شيئًا عن تلك الجزيرة التي قضيت فيها زهرة حياتي نظرتا إلى نظرات الهزء والسخرية ، وقالتا لي : إنك باريسية يا سيدتي فلا يجمل بك أن تتحدثي أمثال هذه الأحاديث عن تلك الأصقاع المتوحشة ، وأغرب من هذا أنها على جودها وسخائها وبسطة يدها وإحاطتها إياي بجميع صنوف الرعاية والإكرام لا تسمح ببقاء درهم واحد في يدي ، كأنها تخشى أن أبعث إليك بشيء من المال ، ولا أدري ماذا يعنيها من ذلك ، على أنني أعترف لها بأنها قد صدقت في فراستها ، فإنني ما كنت أتأخر عن أن أبعث إليك بجميع ما يصل إلى يدي ، لو وصل إلى يدي شيء ولكن ماذا أصنع ، وأنا فقيرة معوزة لا أملك شيئًا ، بل أنا الآن أفقر مني في كل عهد مضى لأنني عاجزة عن أن أمد يدي بالمعونة إلى من تهمني معونته ، ولقد سألتها مرة لم لا ترسل إليك شيئًا من المال تستعينين به على عيشك في تلك البلاد المقفرة؟ فكان جوابها : إن الحياة في تلك البلاد لا تحتاج إلى كثير من المال ، وأن المال يفسدها ويربكها ، ويحولها من حياة بسيطة هادئة ، إلى حياة مركبة مزعجة ، مملوءة بالمتاعب والشواغل فلم أستطع أن أفهم شيئًا مما تقول ، ولكنني فهمت أنها لا تكترث بك ، ولا تحفل بشأنك ،

وما كنت أريد أن أقص عليك شيئًا من هذا لولا أنك أوصيتني أن أصدقك الحديث عن كل ما أراه وأشعر به من خير أو شر . فليتك تحضرين إلي يا والدتي لتعيشي بجانبي وتحملي عني بعض ما أكابده من الوحشة والكآبة في هذه البلاد ، فإن حياتي على رغدها ورخائها وتوفر أسباب النعمة فيها ، شقية جدًا ، ولا أجد فيها أنسًا ، ولا اغتباطًا ، فلا الرياض الزاهرة ، ولا القصور الشامخة ، ولا الأثواب الجميلة ، ولا الجواهر الثمينة ، ولا المراكب الفارهة ، بقادرة على أن تذهب بشيء من وحشتي وضجري لأنني لا أجد حولي تلك القلوب الطيبة الرحيمة التي ألفتها وأحببتها ، وامتزج شعوري بشعورها ، فأنا أعيش من بعدها في ظلمة حالكة لا يلمع فيها نجم ، ولايضيء كوكب ، ولولا أني أعلم أن بقائي هنا إنما هو تنفيذ لإرادتك ، ونزول على حكمك ما أطقت البقاء ساعة واحدة .

ولقد كنت أجهل في مبدأ أمري أخلاق سكان هذه البلاد وطبائع نفوسهم ، وأعتقد أن ظواهرهم مرآة بواطنهم ، وأن الله قد منحهم من الفضائل النفسية بمقدار ما منحهم من جمال الصورة ونضرة الأجسام حتى تكشف لي أمرهم ، فرأيت أني أعيش بين قوم ممثلين ، لا علاقة بين قلوبهم وألسنتهم ، ولا صلة بين خواطر نفوسهم ، وحركات أجسامهم فهم يكذبون ليلهم ونهارهم ، في جميع أقوالهم وأفعالهم ، لا يرون في ذلك بأسًا كأن الكذب هو الأساس الأول لحياتهم الاجتماعية ، وكأن الصدق عرض من أعراضها الطارئة عليها ، وكأن لهم نظامًا خاصًا بهم يختلف عن نظام البشر جميعًا في كل مكان وزمان .

ولقد لبثت زمنًا طويلاً أكتب إليك الكتاب بعد الكتاب ، ثم أنتظر رده فلا يرد إلي شيء ، وكنت أعجب لذلك كل العجب . وأذهب في تأويله مذاهب مختلفة ، حتى علمت منذ أيام قلائل أن الوصيفة التي كنت أعتمد عليها في حمل كتبي إلى البريد كانت تحملها إلى عمتي فتقرؤها وتمزقها ، فأحزنني ذلك حزنًا عظيمًا ، ثم أفضيت بالأمر إلى صديقة لي من طالبات المدرسة كنت أثق بها كثيرًا فأخذت على نفسها أن تتولى إرسال ما أريده من الكتب إليك ، وها هو ذا عنوانها مرسل مع هذا فابعثي إلي برسائلك من طريقها .

وبعد : فليس في هذه الحياة التي أحياها هنا ما يروقني ويعجبني فإنني لا أزال حتى الساعة أعيش في قفرة موحشة لا يؤنسني فيها غير أولئك الوصيفات السخيفات اللواتي لا أطيق رؤيتهن ، ولا سماع أحاديثهن ، وغير شيخ هرم من أصدقاء عمتي يزعم أنه يحبني ويعطف علي وأحسب أنه كاذب فيما يقول ، لأني لا أشعر بحبه ، ولا العطف عليه . فأنا أقضي جميع أوقاتي مكبة على منسجي ، أروح عن نفسي بالنسيج والتطريز ، وستجدين في الحقيبة المرسلة إليك مجموعة من الجوارب والمناديل والعصائب والأحمرة هي قسمة بينك وبين أمي مرغريت وقلنسوة لدومينج وثوبًا لماري ، وكنت أود أن أرسل إليها كثيرًا من أثوابي الخليعة لولا أن الوصائف هنا لا يسمحن لي بذلك ، لأنهن يتقاسمن ملابسي ويقررن مصيرها قبل أن أخلعها .

تحيتي إلى أمي مرغريت ، ووالدي دومينج ، ومربيتي ماري ، وأستاذي الشيخ الجليل ، وكلبي الأمين «فيديل» وإلى جميع شويهاتي وأعنزتي وطيوري وعصافيري ، وأعلمي يا والدتي أنني في أشد الحاجة إلى بقائي بجانبك ، وإلى الرجوع إلى تلك الحياة الطيبة السعيدة التي فقدتها ولا أزال أبكي عليها ، وأنني أعيش كما تعيش النبتة الغريبة في أرض غير أرضها ومناخ غير مناخها فهي صائرة إلى الذبول والاضمحلال ، وأرجو أن أراكم جميعًا عندي قريبًا أو أراني عندكم والسلام ، «فرجيني دي لاتور» .

وكانوا جميعًا يصغون إلى الكتاب عند تلاوته ويذرفون الدموع مدرارًا حتى فرغت هيلين من قراءته ، فعجب بول أنها لم تذكر اسمه في كتابها ، ولم ترسل إليه تحيتها كما أرسلتها لكل من في الجزيرة حتى لطيورها وعصافيرها ، ولم يعلم أن الفتاة تؤجل دائمًا الحديث عن أهم الأشياء لديها وأجلها شأنًا عندها إلى آخر كتابها ، فقد لمحت هيلين بعد ذلك حاشية منفردة في زاوية الكتاب فقرأتها فإذا هي تقول :

«بلغي أخي بول تحيتي وشوقي ، وقولي له إنني قد أرسلت باسمه حقيبة صغيرة تشتمل على بضعة أنواع من البذور الأوروبية التي يغرسونها هنا ويحتفلون بها احتفالاً كثيرًا معنونة بأسمائنا ، فإنني أرغب إليه أن يعني عناية خاصة بزهرة البنفسج فيغرسها تحت نخلتي الجوز المسماتين باسمي واسمه ، وأن يحبها كما أحببتها ، لأنها على جمالها ورقتها حيية خجولة ، لا تألف إلا المخابئ والمكامن ، ولا تحب أن تقع عليها عيون الناس

إلا أن رائحتها تنم عليها أكثر مما تنم أية رائحة على زهرتها ، وأوصيه أيضًا أن يغرس الزهرة السوداء التي يسمونها «زهرة الحداد» في ظل الصخرة التي جلسنا عليها معًا «ليلة الوداع» وقد سموها بهذا الاسم لأنها تشتمل على نقطة صفراء فاقعة تدور بها دائرة سوداء كما يدور الخمار الأسود بوجه الفتاة الحزينة في موقف الثكل ، وأن ينقش على تلك الصخرة كلمة «صخرة الوداع» ويحييها عني كما يحيي جميع الأمكنة والبقاع التي يعلم أني أحبها ، وبلغيه أيضًا أني لا أزال أذكره وأنني لن أنسى قط أياديه البيضاء التي أسداها إلي فيما مضى من أيام حياتي ، وإنني دائمًا عند ظنه بي » .

فاستطير بول فرحًا وسرورًا ، وتناول الكيس الصغير الذي أرسلته إليه فوجد على نسيجه الرقيق الأبيض الحرفين الأولين من اسمه واسمها مطرزين بالقصب على شكل زهرتين متعانقتين فسر بذلك سرورًا عظيمًا وكان اغتباطه بالكيس أكثر من اغتباطه بما اشتمل عليه .

وقد كتبت هيلين إلى ابنتها كتابًا . قالت لها فيه : إنها وجميع أفراد الأسرة أصبحوا بعد فرقتها في وحشة مخيفة لا يهونها عليهم شيء منقطعين عن رؤيتها ، وإنها لا ترى بأسًا من رجوعها إلى الجزيرة متى أرادت ذلك .

وكتب إليها بول يشكر لها هديتها ، ويقول لها : إنه قد أصبح الآن عالمًا من علماء الفلاحة ، وإنه سيقوم بغرس تلك البذور في أماكنها المناسبة لها حسب القواعد التي يرسمها ذلك الفن ، وإنها ستراها حين عودتها زاهرة نامية ، تحييها بابتساماتها اللطيفة التي قاساها من بعدها ، ويشكو لها شكاة لم تترك دمعة في محاجرها عندما قرأتها إلا استذرفتها .

ثم أخذ بعد ذلك يهيئ الأحواض لغرس تلك البذور ويعد لها عدتها من ظل وماء فانفق في ذلك وقت طويل ثم غرسها ، فلم تلبث إلا قليلاً حتى ذبلت وتضاءلت ، إما لأنها ميتة لا حياة فيها ، أو لأن التربة غير صالحة لنمائها ، أو لأن الشرق شرق ، والغرب غرب ، فمحال أن يمتزجا ويختلطا ، ويشتركا في نظام واحد وحياة واحدة ، فتطير بذلك وتشاءم وزاده حزنًا وألمًا ما أصبح .

يسمعه من أفواه بعض المهاجرين الطارئين على الجزيرة من الروايات الغريبة التي ما تفترق ثم تتفق على أن فرجيني موشكة أن تتزوج فلم يحفل بذلك في مبدأ الأمر ، ثم حفل واهتم ، لأن أخبار السوء لا يمكن أن تمر دون أن تترك أثرها على النفس وبدأ يصدق ما يسمعه ، لا لأنه يعتقد صدق القائلين بل لأنه وقع في الخطأ الذي يقع فيه الناس دائمًا ، وهو اعتقاد أن الدخان لا يمكن أن ينبعث من غير نار ، وفاتهم أن تلك النار التي يتحدثون عنها قد تكونا نار الحقد والبغض المشتعلة في الصدور فيكون الدخان الذي ينبعث عنها إنما هو دخان المختلقات والمفتريات ،

وكان يقرأ فيما يقرأ من الروايات أحاديث الغدر والخيانة التي يرويها الراوون عن النساء فيقول في نفسه ربما أفسد ذلك المجتمع الخبيث نفسها وحول حياتها الطيبة الطاهرة إلى طريق غير طريقها فنسيت أقسامها وعهودها ، وأيمانها المحرجة التي أقسمتها بين يدي ألا تستبدل بي أخًا سواي ، والنفس الإنسانية كما يقول «روسو» مرآة تتراءى فيه مختلفات الصور والألوان ، والمرء كما يقول «موبسان» ابن البيئة التي يعيش فيها .

فكأن استنارة ذهنه ، وسعة دائرة معارفه ، واضطلاعه بشؤون العالم وأحواله ، كان شقاء عليه وويلاً له ، ولعله لو بقي جاهلاً كما كان لا يجول نظره في أفق أوسع من الأفق الذي يعيش فيه ، كان من أبعد الأشياء عن ذهنه أن يتصور أن فرجيني غادرة خائنة .

وكان إذا حزبه الأمر ، ولجّت به الوساوس والهموم ، فزع إلي وألقى بين يدي أثقاله وأعباءه ، فأحدثه أحاديث كثيرة عن الدهر وتقلباته ، والأيام وصروفها ، وما يتداوله الناس في دنياهم من نعيم وبؤس وجد وفقر وراحة وتعب وصحة ومرض ، ورجاء يشرق في ليل اليأس حتى يحيله نهارًا ساطعًا ويأس يغشى نهار الرجاء حتى يبدله ظلامًا قاتمًا ، وخير لا يزال يطارد الشر حتى يطرده ويأخذ مكانه ، وشر لا يزال يغالب الخير حتى يغلبه ويفلح عليه ، فيجد في أحاديثي هذه ملهاة يتلهى بها حينًا عن شواغله .

■ ■ ■

(20) الطبيعة

وهنا قلت للشيخ : هل لك يا سيدي أن تحدثني قليلاً عن نفسك! فإنني أشعر منذ جلست إليك أني أجلس إلى رجل من عظماء الرجال ليست مثل هذه الأرض مما تنبت مثله في وفور عقله! وسعة مداركه واكتمال أهبته ، وكثرة تجاربه واختباراته ، ولابد أن حادثًا من حوادث الدهر العظام قد قذف به إلى هذه الجزيرة النائية فعاش فيها كما أرادت المقادير أن يكون .

فرفع رأسه إلي وقال : سأحدثك عن نفسي قليلاً يا بني ، فلا أحب للمرء من أن يجد إلى جانبه جليسًا يستطيع أن يسكب نفسه في نفسه ، ويفضي إليه بسريرة قلبه ، ثم اعتدل في جلسته وأنشأ يقول :

إني أسكن يا بني على بعد فرسخ ونصف من هذا المكان على ضفة جدول صغير ممتد بجانب ذلك الجبل الذي يسمونه «الجبل الطويل» وهنا أقضي أيام حياتي وحيدًا منفردًا ، لا زوج لي ولا ولد ولا أنيس ولا عشير ، وعندي أن سعادة المرء لا تعدو إحدى حالتين : أن يوفق إلى زوج صالحة تحبه ويحبها وتخلص إليه ويخلص إليها ، فإن أعوزه ذلك فسعادته أن يهجر العالم كله إلى معتزل ناء كهذا المعتزل يتمتع فيه بجوار نفسه وعشيرتها ، وقد قضى الله أن أحرم الأولى فلم يبق لي بد من اختيار الثانية .

والعزلة هي المرفأ الأمين الذي تلجأ إليه سفينة الحياة حين تتقاذفها الأمواج وتصطلح عليها هوج الرياح ، وهي الواحة الخصبة التي يفيء إليها السفر بين الأين والكلال ، فيجدون في ظلها الظليل ، راحتهم من سموم الصحراء ولوافح الرمضاء ، وهي المنزلة الأولى التي ينزلها المرء في طريقه من الدنيا إلى الآخرة ، ليستجم ذهنه ، ويجمع أمره ، ويعد عدته للقاء الله تعالى ، لذلك كانت العزلة دائمًا في الشعوب الشقية المضطهدة التي لا إرادة لها أمام إرادة حاكيمها الظالمين ، وملوكها المستبدين كما كان شأن الهنود والصينيين والإيطاليين والشعوب الشرقية اليوم .

وقد يكون ذلك أحيانًا في الأمم المتمدينة المتحضرة ، فإن للمدنية شقاء كشقاء الهمجية لا يختلف عنه إلا في لونه وصبغته . فإن وقوف الإنسان في وسط ذلك المزدحم الهائل بين الجواذب المختلفة ، والدوافع المتعددة ، وحيرة عقله بين مختلف المذاهب والشيع والآراء والأفكار يحاول كل منها أن يجذبه إليه ويسيطر عليه ، ويستأثر به ، وهو فيما بينها كالريشة الطائرة في مهاب الرياح لا تستقر في قرار ، ولا تهبط في مهبط ، متعبة عقلية لا قبل له باحتمالها ، ولو أنه كان أسيرًا في قوم متوحشين ، وقد شده آسروه إلى جذع من جذوع النخل ، وأخذ كل منهم بعضو من أعضائه يجذبه جذبًا شديدًا ليمزقوه إربًا إربًا . لكان ذلك أهون عليه من هذه الحالة التي لا يستطيع أن يتمتع فيها بهدوئه النفسي وسكونه الفكري كما تتمتع السائمة على وجهها في مسارحها ومرابعها ،

فلا يجد له بدًا من الفرار بنفسه إلا حيث يجد نفسه ، ويظفر بكيانه ، ولا سبيل له إلى وجدان نفسه والعثور بها إلا في مثل هذه الصخرة النائية المنقطعة التي يستطيع أن يجمع في ظلالها ما تفرق من أمره ، وتبعثر من قوته ، ويصغي في وسط ذلك السكون والهدوء إلى صوت قلبه حين يحدثه أصدق الأحاديث وأجملها عن الخالق والمخلوق ، والحياة والموت ، والبقاء والفناء وطبيعة الكون وأسرار الخليقة ، فيشعر بالراحة بعد ذلك العناء الكثير والكد الطويل كالسيل المتحدر من أعالي الجبال ، لا يزال يحمل في طريقه الأقذاء والأكدار ، فإذا بلغ الحضيض استحال إلى بركة هادئة ساكنة يتلألأ في صفحتها الصقيلة اللامعة جمال السماء وبهجة الملأ الأعلى .

ولقد كنت أحد أولئك الفارين بأنفسهم من لجب المدنية وضوضائها ، وضلالها وحيرتها ، وقنعت منها بذلك الكوخ البسيط الذي بنيته بيدي على ضفة ذلك الجدول الصغير ، ولقد رزقني الله أرضًا خصبة جيدة التربة ، أقضي جميع أوقاتي في حرثها وفلحها ، وتصريف مياهها ، وتشذيب أشجارها لا معين لي إلا قوتي ، ولا أنيس لي غير وحدتي ، فإن شعرت بشيء من الملل رجعت إلى تلك الأسفار القليلة التي اخترتها لصحبتي حين نفضت يدي من جميع الأصدقاء والأصحاب لأحادث على صفحاتها أولئك الرجال العظام أصحاب المبادئ القويمة ، والعقائد الثابتة ، والآراء الناضجة الذين لم يكتبوا ما كتبوا ليوفوا رغبة الناس في أهوائهم ومطامعهم ولا ليعجبوهم من ذكائهم وفطنتهم وغرابة ابتداعهم ،

بل ليكشفوا الغطاء برفق وهدوء عن وجه الحقيقة فيراها الناس كما هي غير مشوهة ولا مزخرفة ، لا يبتغون على ذلك أجرًا سوى أن يروا الإنسانية المعذبة ناهضة من حضيض بؤسها وشقائها ، إلى ذروة سعادتها وهناءتها .

فإذا جلست لقراءتها رأيت في مرآتها ذلك العالم الذي فارقته واحتويته ، ورأيت شقاءه الذي يكابده ، وآلامه التي يعالجها دون أن يحس أنه يشقى أن يتألم فأشعر بما يشعر به ذلك الذي نجا من سفينة موشكة على الغرق إلى صخرة عالية في وسط البحر ، فأشرف منها على بقايا تلك السفينة المحطمة مبعثرة على سطح الماء ، فشعر ببرد الراحة وطيب الحياة .

ولقد أصبحت بعد أن فارقت الناس وصرت بمنجاة منهم ، أحنو عليهم ، وأرثي لبؤسهم وشقائهم ، وأضمر لهم من العطف والحب ما لم أكن أضمره لهم من قبل ، وأتمنى لهم النجاة من شقائهم الذي يعالجونه وبؤسهم الذي يكابدونه على كثرة ما قاسيت منهم في مقامي بينهم من الهموم والآلام ، والمهانات ، ولم يكن بيني وبينهم سوى أنني كنت أدعوهم إلى الحياة الطيبة السعيدة ، حياة الطبيعة والفطرة ، وأنعي عليهم ذلك التكلف والتعمل في مطاعمهم ومشاربهم ، وملابسهم ومساكنهم وعقائدهم ومذاهبهم وآرائهم وأفكارهم وصلاتهم وعلائقهم وأقول لهم : أيها الناس عودوا إلى أحضان أمكم الطبيعة ، فهي أحنى عليكم ، وأرأف بكم من كل شيء في هذا العالم ، واعلموا أن جميع ما تكابدون من الآلام والأسقام في حياتكم ،

إنما هو عقوبة لكم على عقوقكم لها ، وتمردكم عليها وكفركم بسننها وشرائعها فاشربوا قراح الماء إن شربتم ، وكلوا بسيط المآكل إن أكلتم واقنعوا حين تلبسون بما يستر عورتكم وحين تسكنون بما يجمع شملكم ووحدوا نظركم إلى الأشياء والشؤون بقدر ما تستطيعون تتحدوا فيما بينكم ، وتهدأ عنكم نار تلك البغضاء التي تتقلبون فيها ليلكم ونهاركم ، واعلموا أن الحياة أبسط من أن تحتاج إلى كل هذه الجلبة والضوضاء فخذوها من أقرب وجوهها ، وألين جوانبها واقنعوا منها بالكفاف الذي يمسك الحوباء ويعين على المسير ، فإنما أنتم مارون لا مقيمون ومجتازون لا قاطنون ، ولا يوجد بؤس في العالم أعظم من بؤس رجل مسافر نزل على عين ماء ليطفئ ببردها غلته ، ويجد في ظلالها راحته ، ساعة من نهار ، ثم يمضي لسبيله ، فصدف عنها وظل يشتغل بحفر عين أخرى بجانبها ، فلم يكد يبلغ قاعها حتى كان قد نال منه الجهد فهلك دون مرامه ظمأ وعيا ، ولا يقذفن في روعكم أني أريد أن أذهب بكم إلى بغض الحياة ومقتها ولا إلى تعذيب أنفسكم بالحرمان من أطايبها ولذائذها ، فالزهد عندي سخافة كالجشع كلاهما تكلف وتعمل لا حاجة إليه ، وكلاهما خروج عن القصد وضلال عن السبيل ، وإنما أريد أن تترفقوا في الطلب ، ولا تمعنوا فيه إمعانًا فالإمعان فيه والاستهتار به حرب شعواء يقيمها القوي على الضعيف ،

والجشع المتكالب على القنوع المعتدل ، بسلبه ما بيده ويحرمه القليل التافه الذي يتبلغ به باسم جهاد الحياة ، وتنازع البقاء فكان جزائي عندهم على هدايتهم وإرشادهم ومحاولة استنقاذهم من يد الشقاء الذي يعالجونه أن سخروا بي واحتقروني ، وسموني مجنونًا ، ولم يقنعوا في أمري بتركي وشأني كما يترك المجانين وشأنهم ، بل اتخذوني عدوًا لهم يحاربونني كما يحاربون الله والطبيعة ، ولا ذنب لي عندهم إلا أنني أسمي المال شقاء ، ويسمونه سعادة ، وأسمي الجاه مؤونة ويسمونه متعة ، وأسمي اللجاج في الطلب والتهالك فيه جنونًا وخبلاً ، ويسمونه حكمة وحزمًا ، ثم لا يلبثون إلا قليلاً حتى يروا بأعينهم كذب ظنونهم وخيبة آمالهم ، ويسقطونا في الهوة التي كنت أقدر لهم السقوط فيها ، فلا يكون أثر ذلك في نفوسهم أن يؤمنوا بسنة الله والطبيعة ، ويذعنوا لأحكامه وأحكامها ، ويعودوا باللائمة على أنفسهم فيما كان بينهم ، كما يتوقع المتوقع أن يكون ، بل ينقمون على الأرض والسماء ، والخالق والمخلوق والدنيا والآخرة ، ويثيرون الثائرة على الشرائع الأرضية والسماوية والنظم الطبيعية والوضعية ، وعلى أنا أيضًا ، لأنني لم أهو معهم في الهوة التي هووا فيها كأنني أنا الذي أشقيتهم وابتليتهم ، وأوردتهم هذا المورد الوبيل ، وما أشقاهم إلا الطمع : لو كانوا يعلمون .

وأما الآن فقد نجوت في هذا كله والحمد لله ، وأرحت نفسي إلى الأبد من رؤية تلك المناظر المؤلمة الممضة : مناظر المتهافتين ليلهم ونهارهم في تلك الحفائر الجوفاء التي حفرتها في طريقهم أيدي المطامع والشهوات ، وانقطع عن أذني ذلك الدوي الهائل الذي كان يزعجني ويقلقني ، وأصبحت في وحدتي هذه أتمتع بالهواء طلقًا غير مكدر ، والنور ساطعًا غير منغص ، والجمال خالصًا غير مشوه أتبسط في أنحاء نفسي حيث أشاء ومتى أشاء وأناجي الله والطبيعة وجهًا لوجه لا يحول بيني وبينهما حائل ، وأفكر على الطريقة التي أريدها لا التي يريدها الناس ، وأنسج ثوبي على مقدار جسمي ، لا على مقادر جسوم الآخرين وأشرف من قمة وحدتي وعزلتي على ذلك العالم الذي فارقته واجتويته فأعجب لتلك الهموم والآلآم التي يعالجها لغير علة ولا سبب ولتلك المعركة الهائلة التي يشنها بعض أفراده على بعض على غير طائل ، سوى أن يهلك أحدهم في سبيل الآخر ، ثم يهلك الآخر في سبيل آخر ، وهكذا تمتد سلسلة الهلاك فيهم إلى ما لا نهاية لها ، كقطع الأمواج التي تتواثب على الصخور المعترضة في مجراها فتتكسر عليها واحدة بعد أخرى ثم تتلاشى كأن لم تكن ، فأحمد الله على نجاتي منهم وخلاصي من أيديهم ، وعلى أنني استطعت أن أعيش على حساب نفسي ، لا على حساب الضعفاء والمساكين ، وأن أتناول لقمتي مغموسة بدمي لا بدماء الضحايا والهلكى ، وأن أعود بما فضل عن حاجتي على البائسين والمساكين ، والساقطين في هوى اليأس ، المنقطعين عن قافلة الحياة ولو أن جميع لذائذ الدنيا مأكلاً ومشربًا ، وملبسًا ومسكنًا ، وضعت لي في كفة ، ثم وضعت لي في الكفة الأخرى لذتي في هداية تائه ضل به طريقه ، أو معونة يائس انقطع به أمله لرجحت عليها .

وهكذا أقضي حياتي في تلك الجنة الصغيرة ، على ضفة ذلك النهر الصغير ، وبين يدي ذلك الخضم العظيم ، متمعًا بما شئت من جمال الدنيا وبهجتها ورغد العيش ونعيمه ، ومناظر الطبيعة ومشاهدها ، فالسماء فوقي تتلألأ بنجومها وكواكبها ، والبحر أمامي يعج بأمواجه وأثباجه والأرض بين يدي تختال في أثوابها وأبرادها ، والأصوات ، المنبعثة من البحر الزاخر ، والجدول المتسلسل ، والشلال المتدفق ، والريح العاصفة والأشجار المترنحة ، والطيور الصادحة ، فرقة موسيقية مختلفة الآلات والنغمات ، تسمعني ما لم أسمعه يومًا من أيام حياتي في أكبر معهد غنائي ، من أكبر فرقة موسيقية .

فإذا جلست أمام كوخي على تلك الصخرة العالية التي اعتدت أن أجلس عليها رأيت النخل الباسق مصطفًا بعضه وراء بعض كأنه السطور في الكتاب ، رؤوسه العالية المتشابكة كأنها غابة ممتدة بين السماء والأرض ، ورأيت الجدول المتسلسل وهو يجري في خلال الخمائل الملتفة ، جريان القمر الساري في أعماق السحب المتكاثفة فلا يرى منه الرائي إلا بوارق خاطفة تلمع من حين إلى حين ، وألقي نظري تارة على الروض الجميل الذي غرسته بيدي فأرى صنوف أشجاره وألوان أزهاره ، وأنواع كرومه وأعنابه فأراه في سكون الريح وهدوئها معبدًا قد لبس الجلال والوقار ، وانتثرت في جنباته أشخاص الراكعين والساجدين وفي هبوبها وانبعاثها مرقصًا تترنح فيه القدود وتعتنق القامات . وتقابل الحركات والسكنات ، ثم أنظر إلى السيل المتدفق من أعالي الجبال

فأرى تلك المعركة الهائلة التي تجري بينه وبين الصخور الناتئة في طريقه ، يهاجمها فتدفعه ، ويثب عليها فتمزقه فتتطاير أجزاؤه في جو السماء كأنها شظايا ألواح البلور ، فيشتد غيظه وحنقه ، وإرغاؤه وإزباده ويحاول أن يثأر لنفسه منها ، فلا ينال آخرًا أكثر مما نال أولاً ، وهي جامدة في مكانها ، لا تحرك ساكنًا ، ولا تمد يدًا ، فلا يجد له بدًا من الفرار من وجهها ، شأن الطيش والنزق بين يدي الرزانة والحلم ، فينحدر عنها إلى السهل متغلغلاً في أعماق الخمائل والأدغال كأنما يتوارى حياء وخجلاً ، ثم لا يلبث أن يستحل بعد ذلك إلى مرآة صافية تتراءى فيها صور النخيل والأشجار وظلال القمم والهضاب كأنما قد خطها رسام ماهر بريشة رقيقة في صحيفة ناصعة . وأعظم ما أعجب له من تلك المناظر مناظر الطيور الغريبة حين تفد في أواخر فصل الصيف أسرابًا من أقاصي البلاد مجتازة ذلك الخضم العظيم إلى حيث تتلمس رزقها الذي أعوزها في أرضها ، فتقع على ذوائب الأشجار ، وضفاف الأنهار ، وتحلق فوق الجداول والغدر ، شادية مترنمة ، مرفرفة بأجنحتها الجميلة ذات الألوان اللامعة المتلألئة ، وكأنما قد خلعت من نفسها على الجزيرة بردًا مفوقًا ترف حواشيه وأهدابه ، وترجف متونه وأثناؤه ، وتموج خيوطه بهجة وحبورًا ، إلا أنها لا تمكث أكثر من شهر أو شهرين ثم تعود أدراجها ، فأجد من الوحشة لفراقها ما يجد العشير لفراق عشيره .

وقد أجلس أحيانًا على شاطئ البحيرة لأتفكه بمنظر القرود السوداء ، وهي تثب من شجرة إلى شجرة ، ومن غصن إلى غصن ، وقد احتضنت أولادها إلى صدورها ، أو تركتها معلقة بأذنابها ، وقد يكون بين الشجرة والشجرة ، والنخلة والنخلة جدول واسع ، أو نهر متدفق ، فيكون لها في غدوها ورواحها ، ووثبها وقفزها وضحكها مرة وغضبها أخرى ، وترفقها الغريب في طلب عيشها وتحصيل رزقها ، منظر بديع رائق ، لا تكدره حبائل منظومة ، ولا تزعجه قذائف منطلقة ، وأستطيع أن أقول لك يا بني أنني وقد عاشرت الوحوش الضارية ، والذئاب المفترسة . والنمور الكاسرة ، والقردة الشرسة ، وخبرت أخلاقها وطباعها ومنازعها ومشاربها ، ورأيت أنها لا تفترس إلا إذا جاعت ، ولا تشرس إلا إذا أهيجت ولا تطمع في أكثر من كفاف عيشها ، وعلالة حياتها ، أصبحت أعتقد أن الإنسان أضرى منها وأشرس وأنه مخدوع أو خادع في تفضيل نفسه عليها .

ولم يزل هذا شأني حتى نزلت بالجزيرة تلك الأسرة الصالحة الكريمة ، فكانت أيامي معها غرة أيام حياتي وكوكب سمائها الساطع ، فوا أسفي عليها ، ووا فجيعتي بالحياة من بعدها !

■ ■ ■

(21) الحديث

وحسبك الآن يا بني ما عرفت من شأني ، فلأعد بك إلي شأن ذلك الولد المسكين ، فقد حدثتك عنه أنه كان يختلف إلى كثيرًا بعد سفر فرجيني ليطلب عندي عزاؤه وسلواه وراحة نفسه من بلابلها ووساوستها .

فوفد إلي ذات يوم ، وكنت جالسًا تحت شجرة قصيرة كانت قد غرستها فرجيني فيما غرست من الأشجار الكثيرة التي كانت تحمل معها بذورها حيثما ذهبت وأينما حلت ، قائلة : لعل الله يمنحها النماء والنضرة فيهتى بها ضال ، أو يفيء إليها حائر أو يتعلل بها ظامىء ، فجلس بجانبي وأطرق إطراقة طويلة ثم رفع رأسه وقال :

أنت حزين جدًا يا والدي ، ويخيل إلي أن فرجيني قد نسيتني وأن يدي قد أصبحت صفرًا منها إلى الأبد ، فلقد مر على سفرها ثلاثة أعوام لم ترسل إلي فيها إلا كتابًا واحدًا منذ ثمانية شهور ، ثم انقطعت رسائلها بعد ذلك ، ولا أعلم ماذا دهاها ، وماذا دهاني عندها ، ولقد حدثتني نفسي اليوم أن أسافر إلى فرنسا أسعى إلى مقابلة ملكها لأتولى خدمته وأتوصل من طريقه إلى جمع ثروة طائلة أستطيع أن أتقدم بها إلى جدة فرجيني فلا ترى مانعًا ـ وقد جمعت في يدي بين حاشيتي المجد والشرف ـ أن تزوجني من حفيدتها .

قلت : ألم تحدثني يا والدي قبل اليوم أنك لا تتصل بنسب شريف أو أنك لا تعرف لك أبًا؟

قال : وأية علاقة للأبوة والبنوة بما نحن فيه ؟ إنني لا أريد أن أتقدم إلى الملك بحسبي ونسبي ، بل بكفايتي وجدارتي ، وخدمتي التي أقدمها لوطني ، وهل يوجد في الناس من يأخذني بذنب لست صاحبه ولا صاحب الرأي فيه بل لم أكن حاضره ولا شاهده لأنه وقع قبل وجودي في هذا العالم ؟ على أنني لا أعد ما كان ذنبًا ، لأن والدتي أطهر وأشرف من أن تقترف الجرائم والذنوب .

قلت : إنك تحدثني بلسان الحقيقة ؛ أما لسان الاصطلاح فهو أن من كان مثلك مغمور النسب أو مقطوعه فلا سبيل له إلى أن يلمس بأطراف قدمه أدنى درجة من درجات المجد ، بل لا سبيل له أن يأخذ لنفسه مكانًا مطمئنًا بين الطبقات العالية الرفيعة التي يسمونها طبقات الأشراف والنبلاء .

قال : إنك قد قلت لي قبل اليوم كما قرأت في كثير من الكتب ، أن عظمة فرنسا إنما حملت على عواتق أولئك الرجال المغمورين الذين لا يمتون إلى الناس بحسب أو نسب ، ولا شأن لهم في حياتهم سوى أنهم قد أدوا لوطنهم خدمات جليلة كانت هي وسيلتهم الوحيدة إلى بلوغ ذروة المجد التي بلغوها ، فهل كنت تخدعني فيما قلت لي وكان يخدعني أولئك الكاتبون؟

قلت : لم أخدعك يا بني ولا خدعوك ، وإنما كنت أحدثك عن الماضي ، أما اليوم فالملوك متكبرون متغطرسون لا يؤثرون مزية من المزايا على مزية الحسب والنسب ولا يعرفون مفخرة يفخرون بها سوى أنهم من سلالة أولئك الملوك الماجدين ، فهم لا يقربون ولا يدنون إلا من أمسك بطرف سلسلة يمسك بطرفها الآخر أمير من الأمراء أو قائد من القواد أو نبيل من النبلاء ، وهؤلاء هم أعوانهم وأنصارهم ووزراؤهم ، وقوادهم ، وولاتهم وعمالهم وجلساؤهم وسمارهم ومواضع ثقتهم ، وأمناء أسرارهم وأحاطوا بهم إحاطة السحب الكثيفة بالكواكب النيرة ، فلا يأذنون لشعاع من أشعتهم أن يصل أحدًا من الناس سواهم ، فكانت نتيجة ذلك أن ماتت المواهب والمزايا وقبرت العزائم والهمم ، وأصبح كتاب الأمة وشعراؤها وحكماؤها وعلماؤها ، ورجال الفنون فيها ، أضعف الناس ، وأهونهم خطرًا ، وأدناهم منزلة في ترتيب درجات الإنسانية ، لأنهم قد حرموا الاتصال بتلك الشمس المشرقة التي تمدهم بالقوة والحياة ، وتبعث فيهم روح النشاط والعمل .

قال : وماذا علي إن اتصلت بنبيل من أولئك النبلاء ، وعشت تحت كنفه لأصل من طريقه إلى الغاية التي أريدها؟

قلت : إنك لا تستطيع أن تنال الحظوة عنده إلا إذا نزلت على حكم أهوائه وشهواته ، أي أن تجعل نفسك جسرًا يمشي عليه إليها ، وذلك ما تأباه عليك عزة نفسك وأنفتها .

قال : يخيل إلي أني إن قمت بواجبي لأمتي ووطني وأديت للإنسانية العامة خدمة عظمى يرن صداها في جميع الآفاق ، لا أعدم أن أجد بين الأشراف المحسنين من يتولاني بحمايته ورعايته ، ويأخذ بيدي إلى المنزلة التي أستحقها .

قلت : استمع مني كلمة أقولها لك يا بني : لقد كان اليونان والرومان والمصريون حتى في أدوار سقوطهم وانحطاطهم يبجلون الفضيلة ويعظمون شأنها ، ويقدسون المواهب والمزايا أعظم تقديس ويعرفون لأصحابها أقدارهم ومنازلهم ، ويبسطون عليها جناح مودتهم ورحمتهم ، ولعلك قرأت من ذلك شيئًا في كتب التاريخ ، أما اليوم فقد انقضى ذلك كله ، وأصبح الشرف محصورًا بين الجاه والمال فلا يظفر به إلا ذو منصب عال أو مال كثير ، وقد يعطف بعض أولئك الذين يسمونهم النبلاء على بعض أصحاب المواهب والمزايا ، كالشعراء والكتاب الموسيقيين والمصورين ، لا لأنهم يحترمونهم ويجلونهم ، أو يمجدون ذكاءهم ونبوغهم ، بل ليزينوا بهم مجالسهم كما يزينونها بالتحف والذخائر وليمتعوا أنفسهم بمنظر ذلتهم وخضوعهم بين أيديهم كما يمتعونها بمنظر مضحكيهم ومجانهم . وما أحسب أنك ترضى لنفسك بهذه المنزلة أو أن يكون منتهى آمالك في حياتك أن تصبح خليعًا ماجنًا .

قال : إن فاتني أن أعيش في كنف رجل شريف فلن يفوتني أن أعيش في كنف حزب من الأحزاب أو جماعة من جماعات أخدمها أو أخلص لها فأنال الحظوة عندها .

قلت : إنك تستطيع أن تفعل ذلك ولكن على أن تضرب بينك وبين ضميرك سدًا إلى الأبد ، فالهيئات كالأفراد لا يعنيها إلا مصلحتها وفائدتها ، وكثيرًا ما تكون مصلحتها في جانب ، والحق في جانب آخر ، بل ذلك هو الأعم الأغلب في أمرها ، فأما جاريتها فهلكت أو نابذتها فاستهدفت لغضبها ومقتها .

قال : الموت أهون علي أن أخطو خطوة واحدة لا يرضى بها ضميري .

قلت : إذن ودع جميع آمالك وأمانيك وداعًا دائمًا لا لقاء بينكما من بعده .

قال : وا شقاءاه ، لقد أخذت علي جميع السبل! وسدت جميع المسالك ، ويخيل إلي أنني سأقضي بقية أيام حياتي في ظلمة داجية لا ينفذ إليها شعاع من أشعة الرحمة ، ولا يلمع فيها بارق من بوارق الإحسان ، وأن قد حيل بيني وبين فرجيني إلى الأبد .

قلت : إنك واهم يا بني فما أنت بشقي كما تظن ، وما الشقاء إلا تلك العظمة التي تتطلبها وتسعى إليها ، إنك تعيش من حريتك واستقلالك ، وهدوئك وسكونك ، وطهارة ضميرك وصفاء سريرتك في سعادة لا يتمتع بها متمتع على ظهر الأرض ، فما حاجتك إلى تلك العظمة التي لا سبيل لك إلى بلوغها إلا إذا مشيت إليها على جسر من الكذب والرياء ، والملق والدهان ، والمواربة والمداجاة والظلم والإثم؟

ونصبت نفسك ليلك ونهارك لمحاربة الدسائس والدنايا بالدنايا ، والأكاذيب بالأكاذيب ، وملأت فراغ قلبك حقدًا وموجدة على الذين يسيئون إليك ، أو يجترئون عليك ، وكنت في آن واحد أذل الناس لمن هم فوقك ، وأقساهم على من هم دونك ، ثم لا تحصل بعد ذلك كله على طائل سوى أن تطعم لقمة يطعمها جميع الناس ، وتستر سوأة لا يوجد في الناس من لا يسترها ، وما أحسب فرجيني ترضى لك ولا لنفسها ، أن تكون وسيلتك إليها هذه الوسيلة الدنيئة الحقيرة ، وهي الفتاة الشريفة الفاضلة التي لها طهارة الملك في سمائه وصفاء الكوكب في أفقه . واعلم يا بني أن الفقير يعيش من دنياه في أرض شائكة قد ألفها واعتادها فهو لا يتألم لوخزاتها ولذعاتها ، ولكنه إذا وجد يومًا من الأيام بين هذه الأشواك وردة ناضرة طار بها فرحًا وسرورًا وأن الغني يعيش منها في روضة مملوءة بالورود والأزهار قد سئمها وبرم بها ، فهو لا يشعر بجمالها ، ولا يتلذذ بطيب رائحتها ، ولكنه إذا عثر في طريقه بشوكة تألم بها ألمًا شديدًا لا يشعر بمثله سواه ، وخير للمرء أن يعيش فقيرًا مؤملاً كل شيء من أن يعيش غنيًا خائفًا من كل شيء .

قال : إنما أريد المجد الأدبي لا المجد المالي .

قلت : نعم إن المجد الأدبي مجد عظيم وشريف ، ولكنه لا يصل بك إلى الغاية التي تريدها . إن الأدباء الحكماء ، والمصلحين والمفكرين هم عظماء هذا العالم وساداته ، وهم الكواكب النيرة التي تطلع في سمائه الداجية المدلهمة فتنير أرجاءها ، وتبدد ظلماتها ، وهم الأشعة الباهرة التي تنفذ إلى أعماق القلوب المظلمة القاتمة فتذيب جهالاتها وضلالاتها ،

وتطير بأوهامها وأحلامها ، وهم المنائر العالية التي يهتدي بها الحائر ، ويستنير بها الضال ، ويعرف بها المدلج الساري أي شعب من الشعاب يسلك ، وأية غاية من الغايات يريد؟ وهم الأطباء الماهرون ، الذين يتولون القلوب الكسيرة اليائسة فيعالجون همومها وآلامها ويملأون فضاءها رجاء وأملاً ، إلا أن سبيلهم إلى ذلك من أوعر السبل وأخشنها ، لأنهم أنصار الخير ، وللشر أنصار أشد منهم قوة وأكثر عدة وعددًا وهم دائمًا هدف لغضب الملوك لأنهم يثيرون ثائرة الشعوب عليهم ، وغضب النبلاء ، لأنهم يحتقرون نبلهم ويزدرون مجدهم وعظمتهم ، وغضب الكهنة لأنهم ينعون عليهم رياءهم وكذبهم وغضب العامة لأنهم يطاردون أهوائهم وشهواتهم ، أي أن العالم كله حرب عليهم من أدناه إلى أقصاه ، وقلما تنتهي حياتهم إلا بما انتهت به حياة سقراط الحكيم ، وهومير الشاعر ، وأفلاطون الفيلسوف ، وفيثاغورس الرحيم ، من قتل أو صلب أو إلقاء في السجن ، أو تشريد في الأرض ، ولا ذنب لهم إلا أن أحبوا البشر وعطفوا عليه ، وتألموا لألمه ، وبكوا لبكائه ، فنقم البشر منهم هذه العاطفة الطيبة الكريمة ، وانتقم لنفسه منهم بإزهاق أرواحهم ، أو تعذيب أجسامهم ، أو تقطيع أوصالهم ، ولم يقنع في أمرهم بذلك حتى شوه وجه تاريخهم وسود صفحاته بما شاء من الوصمات والعيوب ، ولم تستطيع شمس الحقيقة أن تبدد تلك الظلمات المحيطة بهم وبتاريخ حياتهم إلا بعد عدة قرون وأجيال .

قال : لولا فرجيني ما أسفت على شيء في الحياة ، ولا بكيت على فائت منها .

قلت : إن فرجيني باقية على عهدها لم تتغير ، فاحذر أن تخسرها من حيث تريد أن تكسبها ، واعلم أنها ما قطعت رسائلها عنك إلا لأنها عازمة على الرجوع في عهد قريب ، فانتظر رجوعها بعد قليل من الأيام ، وأعد نفسك لحياة مستقبلة سعيدة يستغفر له الدهر فيها عن جميع سيئاته ليك ، فأضاءت حول ثغره ابتسامة لم تضئه من عهد بعيد . وقال : أأنت على ثقة مما تقول؟ قلت : نعم ، فكأنما قد نزل عليه بهذه الكلمة وحي السماء ، فما أصبح الصباح حتى رأيته مشمرًا عن ساعديه يجول في أكناف «حديقة فرجيني» يشذب أشجارها ويشق أنهارها ، ويحول مياهها ، ويسقي ما ذبل من أغراسها ، وقد لبس بردًا قشيبًا من الجد والنشاط لا عهد له بمثله منذ أعوام ثلاثة .

■ ■ ■

(22) السفينة

وفي عصر يوم 24 ديسكبر سنة 1744 رأى بول العلم الأبيض يخفق على قمة جبل الاستكشاف ، فعلم أن سفينة قادمة إلى الجزيرة ن فطمع أن تكون السفينة التي تحمل فرجيني ، فانحدر إلى شاطئ البحر فيمن انحدر إليه من سكان الجزيرة ليتعرف شأنها ، فعرف أن دليل المرفأ قد ركب زورقه إليها منذ ساعات ، وأنه لم يعد حتى الساعة ، فجلس في انتظاره حتى عاد وحده فأخبر أن السفينة اسمها «سان جيران» وربانها اسمه المسيو «أوبن» وأن الريح لا تساعدها على دخول المرفأ الليلة ، ولا يمكنها الوصول إليه إلا الغد ، وكان يحمل في يده عدة رسائل لبعض سكان الجزيرة ، بعضها آت من فرنسا وبعضها مرسل من ركاب السفينة أنفسهم ، فسمع بول فيما سمع من الأسماء مدام دي لاتور «هيلين» فاختطف الرسالة من يد الرجل اختطافًا ، وقرأ عنوانها فإذا هو بخط فرجيني ، فطار بها فرحًا وسرورًا ، وأخذ يعدو إلى المزرعة عدو الظليم ، فرأى على البعد أفراد الأسرة واقفين على رأس هضبة عالية ينتظرونه ، فرفع يده بالرسالة وصار يلوح بها في الجو كأنما يحمل راية بيضاء ، حتى بلغ مكانهم ، فقدم الرسالة إلى هيلين ففضت غلافها وأمرت عليها نظرها فعلمت أن ابنتها قادمة على هذه السفينة نفسها ، وأن السبب في عودتها من فرنسا أن عمتها حاولت كثيرًا أن تغير من طباعها وأخلاقها ، وتذهب بها في حياتها غير مذهبها الأول فعجزت عن ذلك ، وأنها عرضت عليها أن تزوجها من عظيم من عظماء البلاد فرفضت ، فنقمت عليها نقمة عظمى وأصبحت تحتقرها وتزدريها ،

وتنظر إليها بالعين التي تنظر بها إلى فتاة مخبولة العقل ، فاسدة الذهن ، أسيرة الأوهام والأحلام ، ثم ما لبثت أن حرمتها من ميراثها ، وسلبتها كل ما كانت تسبغه عليها من النعم ، ولم يبق إلا أن تطردها من منزلها طردًا ، فلم تجد بدًا من الرجوع ، فركبت أول سفينة علمت أنها ذاهبة إلى أفريقيا ، ثم ختمت رسالتها بقولها : إنني أكتب لك هذه الرسالة وأنا على ظهر السفينة «سان جيران» وبيننا وبين الشاطئ أربعة فراسخ ، ولا نستطيع الدخول إلى المرفأ إلا في الغد كما أخبرنا بذلك الدليل ، وفي الغد نلتقي إن شاء الله تعالى .

وما انتهوا من قراءة الرسالة حتى استطيروا فرحًا وسرورًا وأخذ الزنجيان يرقصان ويقفزان ويهتفان بصوت عال «قد عادت فرجيني! لقد عادت فرجيني!» وكان أول ما مر بخاطر بول في هذه الساعة أن يذهب إلى كوخي ، ويبشرني برجوع فرجيني ، ويشكر لي نبوءتي التي تنبأت له بها في أمرها ، وكانت قد مضت هدأة من الليل ، فاستأذن أمه في ذلك فأذنته ، فمشى ومشى أمامه دومينج يحمل مشعلاً كبيرًا حتى وصل إليَ بعد ساعتين ، وكنت قد أويت إلى مضجعي فأيقظني من نومي وألقى إليَّ ببشراه ، فلم يكن سروري بها أقل من سروره ، وقال هيا بنا نذهب إلى الشاطئ لننتظر فرجيني فإن السفينة تصل في الصباح .

فقمت إلى ثيابي فأسبلتها عليَّ وذهبت معه ، وكانت الليلة حالكة مدلهمة قد احتجبت كواكبها وراء قطع الغمام الكثيفة الآخذ بعضها بأعناق بعض كأنها القافلة السائرة في الصحراء ، فمشينا لا نهتدي بشيء سوى غريزتنا التي تقود خطواتنا دائمًا في مفاوز الأرض ومجاهلها وكنا نسمع من حين إلى حين فرقعة هائلة من ناحية البحر تشبه دمدمة الرعد وليست بها فلا نفهم منها شيئًا .

فإنا لسائرون إذ لمحنا زنجيًا ضخم الجثة يمر بجانبنا ، فاستوقفته وسألته من أين أقبل ، فقال : إني مرسل من شاطئ جزيرة الذهب إلى الحاكم لأبلغه أن سفينة قد ألقى بها التيار إلى ما وراء جزيرة العنبر تطلق مدافعها من حين إلى حين ، أي أنها في خطر ، وأنها في حاجة إلى المعونة ، فسألته : هل يعرف اسمها؟ فأجاب أن لا ، وانطلق لسبيله ، فالتفت إلي بول وقلت له : أخاف أن تكون سفينة «سان جيران» وخير لنا أن ننحدر إلى الشاطئ ، وكانت الطلقات قد انقطعت على الحقيقة ، فمشي معي صامتًا لا يقول شيئًا حتى أشرفنا بعد قطع ثلاث مراحل على ذلك الشاطئ ، وكانت الطلقات قد انقطعت فراعني سكوتها أكثر مما راعني دويها ، ثم ظهر القمر في كبد السماء محاطًا بثلاث دوائر سوداء كأنه متمنطق بنطاق الحداد فرأينا على نوره الضعيف الباهت منظر البحر وهو ثائر مهتاج ظلماته بعضها في بعض ، وترتطم أمواجه بصخور الشاطئ أو هضابه فينبعث لها صوت أجش كأنه أنين الثكلى ، أو حشرجة المحتضر ، وقد يتطاير منها أحيانًا شرر لامع كذلك الشرر الذي يتطاير من أجنحة الحباحب ، ورأينا الصيادين مكبين على زوارقهم ينقلونها من الماء إلى اليابس ويطرحونها فوق الرمال خوفًا عليها من الهلاك ، ولمحنا على مقربة منا جماعة من الناس مجتمعين حول نار عظيمة يستدفئون بها فقصدنا إليهم ، وجلسنا على مقربة منهم ، وسمعناهم يتحدثون أن السفينة قد حاد بها التيار عن طريقها ، ودفعها إلى شاطئ جزيرة العنبر حيث الخطر عظيم لا حيلة فيه ، وإنها إن لم تبادر بدخول المضيق الذي بين جزيرة العنبر وجزيرة «سان لوي» فمصيرها الهلاك ما من ذلك بد ، وكان بول يسمع هذا كله ، وهو صامت مطرق الرأس كأنه لا يفهم منه شيئًا .

ولم يزل هذا شأننا حتى بدأت حاشية الظلام ترق عن بياض الفجر فتلمع بعض أشعته من خلالها كما يلمع الماء من خلال الطحالب ، فحاولنا أن نرى سطح البحر فلم نستطع ، لأن الضباب كان كثيفًا جدًا ، وكأنما قد بنى دون السماء سماء أخرى لا يرى الرائي من خلالها غير بعض القمم العالية تطفو وترسب كما يطفو الغريق ويرسب في عباب الماء ثم استطعنا بعد حين أن نرى على سطح البحر شيئًا أشبه بالغمامة كثيفة ، فتأملناه ، فإذا هو جزيرة العنبر التي زعموا أن السفينة محتبسة بشاطئها ، إلا أننا لم نر السفينة بحال من الأحوال .

وهنا حضر المسيو لابوردنيه حاكم الجزيرة راكبًا جواده ووراءه فصيلة من الجند تحمل بنادقها على عواتقها ، فأمرها أن تصطف صفًا واحدًا ، ففعلت ، فأمرها أن تطلق بنادقها فأطلقتها ، فلم نلبث أن لا رأينا نورًا لمع على سطح البحر ، وأعقبه دوي مدفع ، فعلمنا أن السفينة غير بعيدة عنا ، فتقدمنا جميعًا نحو الشاطئ لنتحقق من رؤيتها ، فاستطعنا بعد لأي أن نرى شبحها الغارق في عباب الضباب ، وأن نرى سواريها الذاهبة في كبد السماء ، وأن نسمع رغم جرة الآذي وزمجرة صوت ربانها وهو يصرخ صرخته العظمى التي يستنهض بها همم رجاله ، فأمر الحاكم بإعداد زورق لنجدتها ، وإشعال النار على طول الشاطئ لترى على ضوئها الزورق المعد لإنقاذها ، فما رأت النار حتى أخذت تطلق مدافعها عاليًا ، واستمر التخاطب بهذه اللغة النارية بينها وبين الشاطئ مدة طويلة .

وإذ نحن لكذلك إذ دلف إلى الحاكم شيخ زنجي يدب على عصاه ، وقال له : إننا نسمع يا سيدي هذه الليلة زمجرة هائلة تنحدر إلينا من قمة الجبل ، ونرى أوراق الأشجار تهتز وتضطرب دون أن تهب علينا ريح ، ونرى طيور البحر هاربة إلى البر أسرابًا دون أن يزعجها مزعج ، أو يطاردها مطارد ، فهي العاصفة ما في ذلك ريب ولا شك ، أنقذوا السفينة قبل هبوبها ، فإن لم تفعلوا فانفضوا أيديكم منها إلى الأبد .

فاصفر وجه الحاكم ، وشعر برعدة شديدة في جسمه ، إلا أنه تجلد واستمسك ، وصاح : سأنقذها ، ولو كان في ذلك حياتي .

ولقد صدق الزنجي فيما قال : فقد لبس الجو حلة غريبة لا عهد له بمثلها من قبل ، وكأنما انبعث في جميع أوصاله رعشة شديدة كتلك الرعشة التي تنبعث في جسم المحموم ، وأقبلت طيور البحر من كل صوب هاربة إلى البر كأنما يطاردها ويشتد على أثرها ، وتراءت قطع السحاب سوداء قاتمة تلمع في خلالها نقط نارية حمراء كما يلمع بصيص النار من خلال الرماد ، وامتلأ الجو بفحيح الأفاعي ، وطنين البعوض ، وزمجرة الوحوش .

■ ■ ■

(23) العاصفة

في نحو الساعة السابعة سمعنا قعقعة عظمى ، قد انبعثت من جميع جهات البحر في آن واحد ، فاهتزت الأرض والسماء ودارت الأرض والفضاء ، وانقلب عالي كل شيء سافله وصاح الجميع : «العاصفة» .

هنا رأينا منظرًا هائلاً مخيفًا جمدت له دماؤنا في عروقنا ، ومشت له قلوبنا في صدورنا وما أحسب إلا أنه ستمر بنا أيام الأيام والليالي ولا نستطيع أن ننساه حتى تبرد عظامنا في ثراها .

رأينا الضباب الذي كان يحول بينا وبين رؤية السفينة قد انحسر دفعة واحدة فإذا السفينة ذرة هائمة في ذلك الفضاء الواسع ، تقبل بها الريح وتدبر ، وتعلو بها الأمواج وتسفل ، إن حاولت الدنو من الشاطئ وقفت في وجهها الصخور الناتئة المحددة الأطراف كأنها رماح مصوبة إلى صدرها ، أو أرادت النكوص على عقبها والانسياب في طريق أخرى غير هذه الطريق عجزت عن مقاومة التيار لأنها أصبحت مجردة من جميع قواها وأسلحتها ، فقلوعها ممزقة ، وألواحها متناثرة وحبالها متطايرة وسواريها منكسة ، وأعلامها ساقطة ، ورجالها متهافتون على سطحها لما نالهم من الأين والإعياء ، وقد بدأ مؤخرها يهبط ، ومقدمها يرتفع ، أي أن الهلاك قاب قوسين منها أو أدنى .

وكانت العاصفة في تلك اللحظة قد بلغت أشدها فرأينا الموج يرتفع ارتفاع الجبال حتى يصطك بمنكبه منكب السماء .

ثم يندفع إلى الشاطئ هوي العقاب إلى وكره فينسف رماله وحصاه ، ويطير بشظياته في جو السماء ، ثم لا يلبث أن يتراجع مجرجرًا في تراجعه ، جرجرته في تدافعه ، كالسهم الأليم في حالتي وقعه ونزعه ، ويترك وراءه بقعة واسعة من الرمل كصفحة المرآة في لمعانها واستوائها ، ورأينا المضيق الواقع بين شاطئ الجزيرتين يرغي ويزبد كأنما يشتعل من أتون متقد ، ويرمي بالزبد من حفافيه كما يتناثر العهن المنفوش عن المندف ، أما السماء فقد اصبحت ميدانًا تتسابق فيه قطع الغيوم الطائرة إلى غاياتها ، فلا تفرغ حلبة حتى تنشأ حلبة أخرى ، فأصبح البر والبحر ، والسماء والأرض ، والماء واليابس ، والسهل والجبل ، قيامة كبرى يموج فيها كل شيء ويضطرب كل شيء ، فلم نعد نعلم أنحن وقوف في أماكننا ، أم طائرون في جو السماء؟ وهل طغى الماء على اليبس فأحاله ماء ، أم لا يزال الماء ماء واليبس يبسًا؟

■ ■ ■

(24) الكارثة

وبينما نحن ذاهلون على أنفسنا ، وعن كل ما يدور حولنا ، إذ طرق آذاننا صوت عظيم فاستفقنا ، فإذا السفينة قد اصطدمت بإحدى الصخور العظيمة ، وإذا آخر جرير من أجرتها قد انقطع ، فانبعث في تلك اللحظة صيحة ألم من جميع القلوب ، وإذا بول يهجم على البحر ليلقي بنفسه فيه فاعترضت طريقه أنا ودومينج وحاولنا أن نمنعه فلم نستطع وظل يصيح : دعوني أنجي فرجيني ، فلم يكن لنا بد من أن نتركه وشأنه ، غير أننا عقدنا في وسطه حبلاً طويلاً وأبقينا طرفه في أيدينا خوفًا عليه من الهلاك ، فاقتحم الماء وكان منظره في تلك اللحظة مخيفًا مرعبًا كأنما هو منتفض من كفن ، وكأنما صورته قد استحالت إلى صورة وحش ضار لا يقوم له شيء إلا أتى عليه ، فظل يعوم مرة ، ويتسلق الصخور مرة أخرى ، ويعاني في سبيل ذلك ما لا يستطيع أن يحتمله بشر ، حتى دنا من السفينة أو أوشك أن يدنو ، فلطمه تبار قوي لطمة شديدة أعادته إلى الشاطئ كما كان ، مجروح الساق ، مهشم الأعضاء ، فلم يضعف ولم يهن ، ولم يبق إلا بمقدار ما تنفس الراحة ثم عاد إلى شأنه الأول .

وكان الموج يهدأ حينًا عن السفينة ، فيخيل إلينا أنها واقفة على اليبس فنرى أشرعتها الممزقة ، وألواحها المتناثرة ، ورجالها المتهافتين على سطحها من الإعياء والتعب ، وربانها الواقف في مقدمتها وقفة الليث الهصور يصرخ صرخاته العظمى التي تدوي بها أجواز السماء ، ثم يطغى عليها حينًا فيضرب فوقها قبة جوفاء تغمرها كما يغمر القبر دفينه .

وما هي إلا لحظات حتى بدأ سطح السفينة يتشقق ، وبدأ الماء يتسرب إلى أحشائها ، وعلم ركابها أنهم هالكون إن بقوا فيها فأخذوا يلقون ما على سطحها من ألواح ومجاذيف وصناديق وأقفاص ثم يلقون بأنفسهم وراءها .

وهنا ظهر منظر هائل عظيم هلعت له القلوب ، وزاغت له الأبصار ، وفاضت له الشئون من آماقها لهفة وجزعًا .

ظهر في مؤخرة السفينة فتاة رائعة الجمال ، غضة الشباب ، نبيلة المنظر ، واقفة على قدميها العاريتين ، وقد ضمت بإحدى يديها قميصها إلى صدرها ، ومدت يدها الأخرى إلى ذلك البائس المسكين الذي يخاطر بحياته ويكابد أعظم الشدائد والأهوال في سبيل الوصول إليها ، فلم نعلم أهي تستغيث به لينقذها ، أم تشير إليه أن يعود إلى مكانه رحمة به وإشفاقًا عليه؟ فكان منظرها في تلك الساعة منظر صورة بديعة مرسومة في صفحة السماء .

من هي هذه الفتاة؟ إنها فرجيني! إنها الفتاة الطاهرة الشريفة التي تجثو الفضيلة خاشعة بين يديها ، إنها الفتاة الكريمة المحبوبة التي نبتت من كل قلب ، فهي حبيبة إلى كل قلب ، إنها الرحمة الإلهية التي طالما أحسنت إلى البائسين ، وفرجت كربة المكروبين ، وبكت رحمة بالمنكوبين والمرزوئين ، إنها النور السماوي الذي طالما أشرق في القلوب اليائسة الحزينة فأنار حلكتها وبدد ظلمتها وملأها رجاء وأملاً ، لذلك لم تبق عين من العيون إلا فاضت مدامعها ، ولا نفس من النفوس إلا سالت من بين أضالعها ، ولا يد من الأيادي إلا ارتفعت إلى السماء ضارعة إلى الله تعالى أن ينقذها من بلائها .

علم الملاحون أن السفينة قد بدأت تهوي إلى مستقرها ، وأن ظلمة الموت قد أخذت تخيم فوقها ، فنفضوا أيديهم منها نفض المودع يده من تراب الميت ، وأخذوا يقذفون بأنفسهم إلى الماء لا يعلمون أين ذاهبون إلى الحياة أم إلى الموت؟ وسفينة النجاة واقفة في مكانها من الشاطئ لا تستطيع أن تتقدم خطوة واحدة خوفًا على نفسها من الهلاك .

وأخذت همة بول تفتر وتضعف ، لأنه كان قد استنفد جميع قواه فلم يبق له منها ما يمسك به رمقه .

وما هي إلا لحظات حتى خلا سطح السفينة من كل شيء إلا من فرجيني واقفة في مؤخرتها تنتظر قضاء الله فيها ، ورجل بحار واقف في مقدمتها قد خلع ملابسه ثم لمح فرجيني واقفة موقفها هذا فأبى له كرمه ووفاءه إلا أن يمد لها يد المعون لينقذها ، فمشى إليها وطلب منها أن تخلع ثوبها ليحملها على ظهره ويسبح بها .

أتدري ماذا كان بعد ذلك ؟

كان أن غلب الحياء على الفتاة حينما رأت رجلاً عاريًا بين يديها يريد أن يضمها عارية إلى جسمه فأشاحت بوجهها عنه ، وأشارت برأسها أن لا ، فصاح الناس من كل جانب : أنقذها! أنقذها! فوثب الرجل قائمًا على قدميه ومد يده إلى ثوبها ليجردها منه .

وهنا وا أسفاه أقبلت موجة عظيمة كالجبل الأشم تندفع نحو السفينة اندفاع القضاء النازل ، وتزمجر في اندفاعها زمجرة الليث الهصور ، فذعر البحار إذ رآها وطاش عقله ، وما لبث أن قفز من مكانه وألقى بنفسه في الماء .

أما فرجيني فلم تخف ولم تطش بل لبثت في مكانها كما هي وقد علمت أن الساعة آتية لا ريب فيها ، فضمت قميصها إلى جسمها بيد ، ووضعت يدها الأخرى على قلبها ، وسبحت بنظرها في الفضاء فأصبح منظرها منظر ملك كريم يطير بجناحيه في جو السماء .

وما هو إلا أن أغمض الواقفون عيونهم جزءًا من هذا المنظر الهائل المخيف ثم فتحوها فإذا البحر قد ابتلع كل شيء وإذا كل شيء قد انقضى .

***

وهنا صمت الشيخ وأسلم رأسه إلى ركبته وأخذ يضطرب اضطرابًا شديدًا كأنما يعالج غصة تعتلج في صدره ، ثم لم يلبث أن انفجر باكيًا ينشج نشيج الأطفال فهاجني بكاؤه فبكيت حتى ذهلت ، ولم أستطع الرجوع في نفسي إلا بعد حين ، فرأيته لا يزال في ذهوله واستغراقه ، فنبهته فانتبه ، وعاد إلى حديثه يقول :

يا له من يوم عظيم هائل! يا لها من ذكرى مؤلمة مريرة ، يا لها من حسرة لا انقضاء لها حتى الموت! لقد مر على تلك الحادثة عشرون عامًا ولا تزال تلك الفتاة ماثلة أمامي كأنني لا أزال أراها ، إن فرجيني كانت عزيزة علي جدًا بل كانت أعز مخلوق عندي ،

ولو كان عندي ابن لما نزل من نفسي تلك المنزلة التي نزلتها ، وكان كل أملي في حياتي أن أعيش في ظل عطفها ورحمتها ، وحنانها وشفقتها ، حتى تتولى إغماض عيني بيدها في ساعتي الأخيرة فلم يقدر لي ما أريد ، لقد هجرت العالم كله ولجأت إلى هذا المعتزل البعيد النائي هربًا من الشقاء فتبعني الشقاء حيث ذهبت ، وما أحسبه تاركي بعد ذلك حتى ينزل معي إلى قبري .

ثم تنفس الصعداء وقال : ولكن الذين يهون وجدي عليها أنها الآن سعيدة في سمائها مغتبطة في عيشها ، متمتعة برحمة ربها ورضوانه ، وأن تلك المرارة التي ذاقتها ساعة موتها قد زالت من فمها إلى الأبد .

نعم إن يومها كان يومًا هائلاً جدًا ، فلقد بكاها كل من رآها حتى الزنوج الذين ألفوا البؤس والشقاء ، فلم يبق في عيونهم موضع للبكاء وكان أكثرهم بكاء عليها ذلك البحار المسكين الذي حاول إنقاذها فحال القضاء بينه وبينها ، فقد كان يخيل إليه أنه أجرم إجرامًا عظيمًا بالفرار منها وتركها وشأنها ، فجلس على الرمل بعد خروجه يلطم وجهه وينتف شعره ويقول : اللهم اغفر ذنبي ، فقد كنت أرجو أن أنال السعادة بافتدائها بحياتي ولكن الله أراد شقائي .

أما بول المسكين ، فقد جذبناه قبل ذلك إلى الشاطئ فجثا على ركبتيه يشاهد ذلك المنظر المؤلم وهو يرتعد ويضطرب اضطراب الغصن في مهاب الريح حتى انقضى ، فسقط مغشيًا عليه يتدفق الدم من فمه وأذنيه وأنفه فظللنا نعالجه ساعة طويلة حتى استفاق بعد لأي ، ودار بنظره حوله كالذاهل المخبول ثم انتفض انتفاضة شديدة وعاد إلى ذهوله واستغراقه ، فأمر الحاكم أن ينقل إلى خيمته الخاصة ، وأمر طبيبه بالقيام عليه والعناية به وظل هو ملازمًا له لا يفارقه .

فتركته حيث هو ، وذهبت أنا ودومنيج إلى الساحل لنفتش عن جثة فرجيني ، وكانت الزوابع قد هدأت قليلاً فقضينا في البحث عنها زمنًا طويلاً فلم نعثر بها ، فاشتد حزننا ، واستولى اليأس على نفوسنا ، وبدأ الرعب يدب في قلوب الكثيرين منا ، فصاح بعض الناس وقد أدركه مثل الجنون :

ألا يوجد لهذا الكون إله يدبره ويرعاه؟ ألا يوجد بين هؤلاء الناس من يستحق هذه الميتة التي ماتتها هذه الفتاة سواها؟ والنفس الضعيفة تعجز دائمًا عن احتمال صدمات القضاء فلا تجد بدًا حين تصدمها من أن تروح عن نفسها بالسخط والغضب ، وقد تخرج في سخطها أحيانًا عن صوابها وهداها ، فليرحمها الله ، فإنها ما أتيت إلا من ناحية الإيمان بالله والثقة لعدله ورحمته .

وهنا مر بعض الناس وأخبرنا أن التيار قد ألقى ببقايا السفينة على شاطئ الخليج المسمى خليج «وتمبو» أي خليج القبر فذهبنا إليه نرجو أن نعثر بالجثة هناك ، فوجدناها غارقة في الرمل إلا جزأها الأعلى فتشنا عنها فإذا هي على الصورة التي رأيناها عليها في ساعتها الأخيرة . وكأنها حية باقية لم تمت ، وكأن ماء الحياة لا يزال يجول في وجهها ، لولا اصفرار قليل في خديها ، وإذا هي لا تزال ضامة ثوبها إلى جسمها وواضعة يدها الأخرى على قلبها ، وكأن أناملها تقبض على شيء ، ففتحتها فرأيتها قابضة على صورة الرسول بول التي كان بول قد أهداها إليها قبل سفرها فوعدته أن تحتفظ بها إلى آخر رمق من حياتها ، فكأنها تودع صديقها الحميم الوداع الأخير في صورة ذلك القديس العظيم ، فأكبرت هذا الإخلاص كل الإكبار ، وأيقنت أن النفس الطاهرة كالذهب الخالص ، لا يغيرها شأن من شئون الحياة أو الموت .

ثم حملناها إلى كوخ قريب لبعض الصيادين وعهدت إلى بعض النساء أن يتولين شأنها حتى نعود ، وصعدت إلى الوادي لأبلغ تلك المرأتين المسكينتين ذلك الخبر الهائل ، وما أحسبني وقفت في حياتي موقفًا أشد من هذا الموقف ، فدخلت عليهما في الكوخ فرأيتهما جاثيتين تصليان وتدعوان الله تعالى بسلامة ابنتهما من شر هذه العاصفة ، وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله على الكائنات ويضرب عليها سرادقًا من وحشته وكآبته ، فما وقع نظرهما علي حتى ذعرتا وارتاعتا وصاحتا : أين فرجيني؟

فلم أستطع أن أنطق بشيء سوى أنني أطرقت برأسي ، فدنت مني هيلين وقد استحالت إلى شبح من أشباح الموتى وقالت لي بصوت خافت متهافت : هل ماتت؟ فاستمررت في إطراقي ، ففهمت كل شيء وما هي إلا صيحة واحدة صاحتها من أعماق قلبها ثم سقطت في مكانها لا يختلج في جسمها عرق واحد ، ودارت مرغريت بنظرها فلم تر ولدها أمامها فسألتني وأين بول؟ فتلطفت في قص قصته عليها ، وحلفت لها بالله أنني أرجو له حسن العاقبة ، فلم تعبأ بما أقول ، ولم يكن جزعها على ولدها ، بأقل من جزع صاحبتها على ابنتها .

ولا أستطيع أن أصف لك يا بني هول تلك الليلة في ذلك الكوخ فلم تكن ليلة بكاء وعويل وولولة وصياح ، كما تكون ليالي الثكل في بيوت الثاكلين ، بل ليلة حزن صامت عميق يحبس الدموع عن الانطلاق ، والزفرات عن التصعيد ، وما أنسى لو أنسى منظر تلك المرأة المسكينة وهي ساقطة تحت أنقاض البيت الساقط ، وتقلب وجهها في السماء تسألها دمعة واحدة تروح بها عن نفسها فلا تعطاها ، وقد تغمغم أحيانًا بكلمات مبهمة لا يستمع منها السامع غير قولها : ابنتي! حبيبتي! مسكينة أنت! الرحمة يارب! المغفرة يا إلهي! ومرغريت تجلس بجانبها تارة لتعزيها وتهون عليها مصابها ، وتخرج خارج الكوخ تارة أخرى لتبكي ولدها ما شاء الله أن تفعل ، فكان منظر إخلاصها في تلك الساعة أعجب منظر رأيته في حياتي ، أمام دومينج وماري

فقد ظلا يدوران ليلهما حول الكوخ ، يلطمان خدودهما ويخمشان وجوههما وينتفان شعورهما ، ويرسلان صرخاتهما المحزنة الأليمة في جو السماء حتى تلفا أو كادا .

ولم يزل هذا شأننا جميعًا حتى انبثق نور الفجر ، فانسللت في صمت وسكون من حيث لا يشعر بي أحد ، وانحدرت إلى الشاطئ فرأيت الحاكم قد أعد كل شيء لتشييع جنازة فرجيني ، فكسو نعشها بصنوف الزهر وأنواع الريحان وحمله ثمان من عذارى «سان لوي» لابسات حللاً بيضاء مشرقة وتبعه نحو مائتي طفلة من أطفال الدير يمشين صفوفًا متتالية ، ويحملن في أيديهن سعف النخل وطاقات الزهر ويرتلن الأناشيد الدينية بنغمة شجية محزنة ، ومشى في المقدمة حاكم الجزيرة ووراءه ضباطه وجنوده منكسي أسلحتهم ، مطرقي رؤوسهم ، والناس فيما وراء ذلك بحر يعج بالبكاء والعويل ، والأنات والزفرات ، وكانت مدافع الحصون ترسل طلقاتها من حين إلى حين ، فتردد صداها مدافع السفن الراسية على الشاطئ .

ولم نزل سائرين في طريقنا حتى وصلنا إلى كنيسة «بامبلموس» وهناك حي الزنوج المساكين الذي كانت تزوره فرجيني في أيام الآحاد بعد أداء الصلاة في الكنيسة ، فتعول فقراءه وتطعم جائعيه وتعود مرضاه وتعطف على أيتامه وأرامله ، فخرج رجاله ونساؤه وفتيانه ، باكين صارخين ، فبكينا جميعًا لبكائهم

وكانت مناحة عامة جاد فيها من لم يجد ، وبكى فيها من لا عهد له بالبكاء ، ولقد رأيت بعيني أولئك الأطبال الأنجاد الذين يأنفون أن يذرفوا دمعة واحدة من مدامعهم والرماح تنوشهم والسيوف تأخذهم من كل جانب يتهافتون على الجذوع والأحجار باكين منتحبين انتحاب الأبطال الصغار ، ورأيت جماعة من نساء مدغشقر وموزمبيق آتيات يملن على عواتقهن أقفاص الفاكهة حتى وضعنها حول القبر وعلقن على أغصان الأشجار المحيطة به خرقًا بيضاء ناصعة ، كعادتهن التي اعتدنها في موتاهن الأعزاء ، ورأيت جماعة أخرى من نساء الهند والبنغال يحملن أقفاص الطير على عواتقهن ليرسلنا فوق القبر ساعة الدفن ، ولعلهن يردن من ذلك تمثيل صعود الروح إلى سمائها ، فما أجمل الفضيلة ، وما أعظم شأنها ، إنها الشريعة العامة التي يدين بها الناس جميعًا عالمهم وجاهلهم ، مؤمنهم وملحدهم ، حاضرهم وباديهم ، والمعبد المشترك الذي يقف فيه الجميع صفًا واحدًا ، أمام هيكل واحد ، يرتلون آية واحدة ، بنغمة واحدة .

وكانوا قد حفروا للميتة قبرًا تحت شجرة خيزران مورقة في الجانب الغربي من كنيسة «بامبلموس» كانت تجلس تحتها دائمًا هي وبول حينما كانا يأتيان لزيارة الكنيسة وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ، فلما حلت ساعة الدفن اشتد البكاء والنحيب

وهرعت الفتيات إلى النعش يلمسنه بأيديهن ، ويشرن إليه بمناديلهن وخرقهن ، ثم يمسحن وجوههم تبركًا كما يفعلن أمام تمثال العذراء ،

وجأرت الأمهات بالدعاء إلى الله تعالى أن يمنح بناتهن الفضيلة التي منحها هذه القديسة المباركة ليحين حياتها ، ويمتن موتتها ، وما هي إلا لحظات حتى انحدر إلى مغربه ذلك الكوكب الفخم الذي خفق في سماء العالم لحظة ، ثم اختفى .

■ ■ ■

(25) أحزان بول

نقلنا بول في محفة إلى كوخه بعد ما أبل قليلاً ، وكنت خائفًا عليه وعلى أمه أشد الخوف من تلك الساعة التي يتلاقون فيها ، ولكن الله تعالى جعل خيرًا ما كنت أحسبه شرًا ، فلم يقع نظرهما عليه حتى نهضتا إليه وضمتاه إلى صدرهما وانفجرتا بالبكاء ، فنفس الدمع عن تلك الحرقة الكامنة التي ظلت تعتلج في صدورهما يومين كاملين ، وكان شعاعًا لامعًا قد انبعث من عينيه اللامعتين إلى قلبيهما فأضاءهما بنور السلوى والعزاء ، فطفقتا تقبلانه وتلثمانه ، وتمزجان دمعهما بدموعه ، وقد أنزل الله عليهم جميعًا السكينة والصبر ، فاستحالت تلك العاصفة التي كانت تعصف بقلوبهم ليلها ونهارها إلى سكن يشبه سكون الموت ، فلا نواح ، ولا عويل ، ولا تذمر ، ولا شكوى ، إلا ما كان من تلك العبرات التي تنحدر من آماقهم في صمت وسكون .

وبعد هنيهة حضر الحاكم ليعزي هيلين عن نكبتها فعزاها وحدثها طويلاً عن عمتها ، وعن ذلك المسلك الوحشي الذي سلكته مع ابنتها ، فكان جوابها على ذلك كله أن سألت الله لها العفو والمغفرة ، ثم اقترب من فراش بول وتناول يده وقال له : يجب أن تسافر يا بني إلى فرنسا وسأعطيك كتاب وصاة تستعين به على عمل ينفعك وينفع أهلك ، وسأتولى عنك رعاية أميك وكفالتهما في غيبتك ، فألقى عليه بول نظرة طويلة لا يعلم إلا الله ماذا يريد منها ، ثم جذب يده منه وأدار وجهه لحائط فاكتأب الرجل قليلاً ، ثم نهض وقال له : سأعود مرة أخرى يا بني ، وانصرف .

ولم يكن لي بد في هذه الأيام من أن ألزمهم لأقوم بخدمتهم وقضاء حاجاتهم ، ولأتولى بنفسي تمريض هذا الولد المسكين ، فلزمت فراشه ليلي ونهاري ما أكاد أفارقه ، حتى استطاع بعد ثلاثة أسابيع أن ينشط من علته ، إلا أنه استحال إلى شخص آخر غير ذلك الشخص الأول ، وكأنما انطفأ في قلبه ذلك المصباح المنير الذي كان يمد حواسه ومشاعره بالنور والإشراق فأصبح ذاهلاً مذهوبًا به ، تحدثه فلا يكاد يفهم الحديث ، ولا يكاد يرد عليه إن فهمه ، وكانت تدنو منه هيلين أحيانًا فتقول له : إنني كلما رأيتك يا ولدي يخيل إلي أن ابنتي لا تزال حية باقية أراها وأحادثها ، تريد بذلك تسرية همه وإزالة وحشة نفسه ، فلا يكاد يسمع اسم فرجيني حتى ينتفض انتفاضًا شديدًا ويخرج من الكوخ هائمًا على وجهه ، فلا يعود إليه حتى يعود به من يراه ، وكثيرًا ما كان يذهب وحده إلى مخدع فرجيني فيجلس هناك تحت النخلتين المسماتين باسمه واسمها شاخصًا ببصره إلى البركة التي كانا يستحمان فيها أيام طفولتهما ، ويظل على ذلك عدة ساعات حتى أذهب إليه وأعود به إلى الكوخ .

وخرج ذات يوم فتبعته أنا ودومينج ، وكنت أتبعه دائمًا حيث سار ، فصعد جبل «المورن» ثم انحدر إلى سفحه الآخر ومشى في الطريق الموصل إلى كنيسة بامبلموس ، فاستطير قلبي خوفًا وهلعًا وخفت أن ينتهي به المسير إلى قبر فرجيني ، وكنت لا أستطيع منعه أو الوقوف في وجهه ، لأن الطبيب أمرني ألا أحاوله في أمر يريده ،

وأن أترك له الحرية في جميع ما يأخذ ، وما يدع ، وقال لي : إن هذا هو علاجه الوحيد الذي لا علاج له سواه من وحشة نفسه وكآبتها فظل سائرًا لا يلتفت يمنة ولا يسرة حتى بلغ مكان القبر لا يخطئه ، فجثا فوق تربته تحت ظلال شجرة الخيزران يصلي ويبتهل ، فعجبت لذلك أشد العجب لأنني كنت على ثقة من أنه لا يعلم حتى الساعة هل أخرجت جثة فرجيني من البحر أم ذهبت طعامًا للسمك؟ فلم أجد بدًا أنا ودومينج من أن نجثو جثيه وندعو دعاءه فالتفت فرآنا ، فسألته لم يصلي في هذا المكان؟ فقال إنه المكان الذي كنا نجلس فيه معًا حينما نأتي أيام الآحاد لزيارة الكنيسة وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ، ويخيل لي أن هذه البقعة أحب بقعة إلي على وجه الأرض وأدناها إلى نفسي ، فعلمت أنه قد ألهم ، وأن طيب تراب القبر دل على القبر .

ثم نهض قائمًا على قدميه وذهب ببصره في السماء وظل على ذلك ساعة ، فخيل إلي أنه قد طار بنفسه إلى ذلك العالم الآخر ليفتش عن تلك النفس الحبيبة إليه التي فارقته فراق الأبد ، فأصبح لا يهنأ له العيش من بعدها ، ثم ما لبث أن انتفض انتفاضة شديدة ، وانحدر إلى شاطئ البحر ، فذعرت وارتعت ، ولم أجد بدًا من أن أقف في وجهه ، وقلت له : عد بنا إلى الكوخ يا بول وكن عند حسن ظني بك ، فلم يعبأ بما أقول ، واستمر سائرًا في طريقه حتى أشرف على البحر وشخص ببصره إلى النقطة التي غرقت فيها السفينة ،

فخفت أن يكون قد حدث نفسه بذلك الأمر العظيم ، فدنوت منه وقلت له : إن المنتحر يا بول لا يصعد إلى ملكوت السماء ، فلم يزد على أن صاح : آه يا فرجيني! آه يا فرجيني ، وسقط مغشيًا عليه فحملناه إلى الغابة ولم نزل به حتى استفاق ، فحاول أن يتقدم نحو الشاطئ مرة أخرى ، فضرعت إليه ألا يفعل ، فأمسك على مضض ، بعد لأي ما استطعنا أن نعود به إلى الكوخ .

وأصبح بعد ذلك لا شأن له إلا طروق الأماكن التي عاش فيها مع فرجيني أو اتفق لهما فيه شأن من الشؤون ، فزار الملعب الذي كانا يلعبان فيه معًا وهما طفلان صغيران ويحفران في رمله الحفر العميقة الواسعة ويملآنها بالماء وصغار السمكة ويجلسان على ضفافهما يصطادان ، واجتاز الطريق التي مشيا فيها تحت وابل المطر وقد أسبلت إزارها على رأسه لتقيه مما تقي منه نفسها ، فكان منظرهما منظر الدمية في المحراب ، ومشى في الطريق التي مشيا فيها يوم ذهبا إلى ضفة النهر الأسود ليشفعا للزنجية الآبقة عند سيدها ، ومر بالمكان الذي قطعا فيه نخلة الجوز وأحرقاها ليأكلا طلعها الأبيض حين أزمت بهما أزمة الجوع ، ودخل الغابة التي أضلا فيها الطريق حتى أظلهما الليل وهما تائهان مشردان ، وجثا عند الشجرة التي جثيا عندها يصليان ويدعوان الله تعالى أن يبعث إليهما من يهديهما السبيل ، وجلس بجانب الهضبة التي كانت تنتظره عندها حتى يعود من المزرعة تعبًا مكدودًا فتمسح عرق جبينه بمنديلها ، وتبتسم له تلك الابتسامة العذبة الجميلة التي تنسيه آلامه ومتاعبه ،

ومر بالشاطئ الرملي الذي كانا يرقصان فيه تلك الرقصة الزنجية الساذجة ويمثلان على مسرحه بعض قصص الكتاب المقدس ، وجلس طويلاً على الصخرة التي جلسا عليها ليلة الوداع يتعاتبان ويتشاكيان ، وكان هذا آخر عهده بها حتى قضى الله قضاءه فيها .

ولم يدع هضبة ولا صخرة ، ولا شجرة ولا نخلة ، ولا ظلة ولا كرمة كانا يجلسان إليها ، أو يفيئان إلى ظلها ، إلا زارها وبكى عندها طويلاً ، كأنما كان يشعر في نفسه أنه مفارقها ، ولابد له من وداعها فهو يودعها وداع الآسف الحزين .

وكذلك قضى أيامه الأخيرة وحيدًا شريدًا هائمًا مستوحشًا ، يأكل حيث يجد طعامًا ، ويشرب حيث يجد شرابًا ، ويأوي إلى كل ظل ، وينام تحت كل كوكب ، حتى تخونه السقم ، وأضواه الهم ، فغارت عيناه ، وانكفأ لونه ، وذوت نضرته ، وأصبح مثل الخلال رقة وذبولاً ، فأزعجني أمره ، ورثيت له ولأميه البائستين المسكينتين اللتين تبكيانه ليلهما ونهارهما على ضعفهما وسقمهما وإدبار أمرهما ، ولم أكن فاتحته حتى اليوم بكلمة واحدة في شأن نكبته التي نكب بها رحمةً به وإبقاء على حشاشته القريحة أن يؤلمها المس ويهيجها البعث ، فلما استحالت حاله إلى ما أرى رأيت أن أذهب في معالجته غير المذهب الأول فجلست إليه ذات يوم وقلت له : أتعلم يا بول أن فرجيني قد أخلصت إليك إلى آخر رمق في حياتها إخلاصًا لم ير مثله راء ، ولا يتحدث بمثله متحدث؟ فانتفض قليلاً ورفع رأسه إلي وراح ينتظر ما أقول .

فأخرجت له صورة الرسول بول وأريته إياها فاختطفها من يدي بيديه الضعيفتين المرتعشتين وقال : وأين وجدتها؟ قلت : عل صدر فرجيني حينما وجدنا جثتها على شاطئ البحر ، وقد وضعت يدها عليها كأنما تضمك فيها إلى نفسها وتودعك الوداع الأخير ، قال : وهل وجدتم جثتها؟ قلت : نعم وجدناها على ضفة الخليج عشية اليوم الذي غرقت فيه تحت طبقة من الرمل قد سترت منها الجزء الذي تحب أن تستره من جسمها ، قال : وأين دفنتموها؟ قلت : في الجانب الغربي من كنيسة «بامبلموس» تحت شجرة الخيزران الكبرى حيث ذهبت وجثوت وصليت من حيث لا تدري ، فتنفس تنفسة طويلة كادت تنقطع لها حيازيمه ، وأكب على الصورة يغمرها بدموعه وقبلاته فافترصت هذه الفرصة وأنشأت أقول له :

■ ■ ■

(26) الموت

ما هذه الدموع التي تذرفها يا بني ليلك نهارك ما تهدأ ولا تفتر ، وما هذا الحزن الذي تحمله بين أحناء ضلوعك لا ينفرج عنك بوجه من الوجوه ، ولا حيلة من الحيل؟ ومتى كان الموت نكبة من النكبات العظام التي يهلك المرء في سبيلها جزعًا ، وتتساقط من دونها الحسرات ؟ وهل هو إلا الانتقال من منزل إلى منزل ، والتحول من موطن إلى موطن ؟ وربما كان الذي تنتقل إليه خيرًا من الذي تنتقل منه ، من أين لك أن الله تعالى لم يرد لصاحبتك خيرًا حين استأثر بها واختار لها ما عنده ، وأنه ما نقلها من هذه الدار إلى تلك الدار إلا لينقذها من شقاء علم أنها ستكابده فيها وستلاقي منه آلامًا جسامًا ؟ وهل يمكن أن يكون لها مصير إن قدر لها البقاء في هذه الحياة غير هذا المصير بعدما تجهم لها الدهر ، وحارت بها السبل وانتهى أمرها مع عمتها بما انتهى إليه من سوء الحال وخيبة الأمل ، وبعدما قضى عليها أن تقضي بقية أيام حياتها في هذه الفقرة المجدبة المحرقة التي لا ماء فيها ولا ثمر ، وهل كنت تؤثر أن تراها شقية معذبة بين يديك تفلح الأرض ، وتكسر الصخر ، وتخوض الوحل ، وتتسلق الأشجار ، وتعبر الأنهار ، لتعينك وتعين أطفالك المستقبلين على العيش بعد ما ألفت النعمة والرغد والعيش الهنئ في قصر عمتها عدة أعوام لا ترى فيها صخرًا ولا حجرًا ؟ ولا زملاً ، ولا مدرًا ، ولم لا يهنئك ويفرحك ،

ويملأ قلبك غبطة وسرورًا ، أن تعلم أنها الآن سعيدة في عيشها ، هانئة بمصيرها مغتبطة بما وفقت إليه من قدومها على ربها طاهرة نقية لم تلوث صحيفتها برشاشة واحدة من ذلك الرشاش الكثير الذي تلوث به صحائف الفتيات ، مجزية أحسن الجزاء على موقفها العظيم ، موقف العزة والأنفة ، والصبر والاحتمال الذي وقفته في ساعتها الأخيرة ؟ ومن هو الأولى منك وأنت صديقها وحبيبها وألصق الناس بها بالسرور لسرورها ، والغبطة لغبطتها ، والابتهاج بمصيرها السعيد الذي صارت إليه ؟ وأنا أجلك كل الإجلال عن أن يكون حبك إياها حبًا ماديًا يزعجه افتراق الأجسام ويكدر صفوه اختلاف الموطن والمقام ؟ ولو أنك عدت إلى نفسك قليلاً لعلمت أنها لم تفارقك ، ولم تنأ عنك ، وأنها جالسة إليك تحدثك وتسمع حديثك ، ولا شك عندي في أنها عاتبة عليك أشد العتب في هذه العجاجة السوداء من الحزن التي تثيرها على أثرها كأنها ذاهبة إلى الجحيم تستقبل أنواع العذاب وألوان الآلام ، أو كأن كل الذي كان يعنيك منها شهواتك ولذائذك ، فلما فاتتك بكيتها كما يبكي الطفل لعبته النافقة ، وكأنني أسمعها تهتف بك قائلة : « لا تبك يا بول فإنني سعيدة ناعمة متمتعة برحمة ربي ورضوانه ، متقلبة في أعطاف نعمته التي أسبغها على مكافأة لي على صبري واحتمالي ، وما استقبلت به هموم حياتي وآلامها من سكينة وجلد ،

فاصبر كما صبرت واحتمل من آلام الحياة ما احتملت ، يحسن الله جزاءك ، ويجزل أجرك ويرفعك إلى المنزلة التي رفعني إليها ، فنعيش معًا في سعادة دائمة ليست سعادة الدنيا بالإضافة إليها وهمًا من الأوهام ، أو حلمًا من الأحلام » .

فلم يزد أن رفع رأسه إلي وقال ما دامت الحياة شقاء وعذابًا وما دام الموت سعادة وهناءة ، وما دامت فرجيني تنظرني في علياء السماء لأعيش بجانبها العيش الذي أرجوه وآمله ، ولا أؤثر عليه عيشًا سواه ، فلا خير في الحياة من بعدها وما أشوقني إلى الذي يدنيني منها !

وهنا علمت ألا حيلة لي فيما قضى الله وقدره ، وأن الفتى قد نفض يده من هذه الحياة إلى الأبد ، ولا يد في العالم تستطيع أن تديره إلى وجهة غير الوجهة التي يسير فيها غير يد الله ، فقمت وقام ، ولا أسف في الدنيا أعظم من أسفي عليه ، ولا فجيعة أكبر من فجيعتي فيه .

■ ■ ■

(27) الإيمان

جزى الله الإيمان عنا خيرًا ، فلولاه لثقلت على عواتقنا هذه الهموم التي نعالجها ، ولولاه لعجزنا عن أن نتنفس نفس الراحة الذي يعيننا على المسير في صحراء هذه الحياة القاحلة ، فهو النجم الخافق الذي يلمع من حين إلى حين في سماء الليلة المظلمة المدلهمة فينير أرجاءها ، وهو الدوحة الفينانة التي يلجأ إليها المسافر من حرور الصحراء وسمومها ، فيجد في ظلالها راحته وسكونه ، وهو الجرعة الباردة التي يظفر بها الظامئ الهيمان فيقفع بها غلته ، ويفثأ لوعته ، وهو المطرة الشاملة التي تنزل بالأرض القاحلة فتهتز تربتها وتحيي في هذه الدار التي لانفلت فيها من هم إلا إلى هم ، ولا نفزع من رزء إلا إلى رزء ، ولولا يقننا أن هذه الطريق الشائكة التي نسير فيها إنما هي سبيلنا الوحيد الذي يفضي بنا إلى النعيم الذي أعده الله في جواره للصابرين من عباده ؟ وهل كان في استطاعة مريضنا الذي يئس من الشفاة ، وفقيرنا الذي عجز عن القوت ، وثاكلتنا الذي فقدت واحدها من حيث لا ترجو سواه ، أن يحتفظوا ، بعقولهم سليمة ، ومداركهم صحيحة ، وعزائمهم متماسكة لولا أنهم يعلمون أن حياتهم لا تنقضي بقضاء أنفاسهم على ظهر الأرض ، وأن هناك حياة أخرى في عالم غير هذا العالم ، لا سقم فيها ولا مرض ، ولا بؤس ولا شقاء ؟

لذلك استطاعت هيلين ومرغريت في أواخر أيامهما أن تحتفظا بسكونهما وهدوئهما أمام هذه الحوادث المؤلمة التي تقض أصلاد الصفا وتذيب لفائف القلوب ، فكنت ، إذا دخلت عليهما رأيتهما في فرش مرضهما صابرتين محتملتين كأنهما لا تعالجان في أعماق قلوبهما أشد الآلام النفسية وأهولها ، فإذا نظرتا نظرتا إلى السماء ، وإذا نطقتا نطقتا باسم الله وسألتاه العفو عنهما ، والرحمة بهما ، ثم لا تلبث أعينهما أن تتلألأ بنور الأمل والرجاء ، كأنما قد وقع في نفسهما أن الله قد استجاب دعاءهما وتقبل قربانهما ، ووعدهما المثوبة العظمى في دار نعمته وجزائه .

ولقد دخلت صباح يوم على مرغريت في اللحظة التي استيقظت فيها من نومها فقصت على أنها رأت فرجيني في منامها تسبح في غمرة من النور وقد لبست قميصًا أبيض فضفاضًا كأنما قد نسج من خيوط الشمس ، ولم تزل تهبط من أوجها رويدًا رويدًا حتى أصبحت في حرم الأرض ، فمدت يدها إلى بول فأخذت به من ضبعيه وطارت في جو السماء فتشبثت بردائه فطرت وراءه ، ولا أعلم كيف طرت ؟ ثم نظرت تحتي فإذا هيلين طائرة ورائي ، وإذا ماري ودومينج طائران وراءها ، ثم دخلت على هيلين في كوخها في الساعة نفسها فقصت على هذه الرؤيا بعينها فعجبت لذلك أشد العجب ، وأيقنت أن الله قد اصطفى هؤلاء القوم لنفسه ، وأنزلهم منازل الأبرار الصالحين ، وأنهم وإن كانوا لا يزالون على قيد الحياة فقد لحقوا بالعالم الآخر وأصبحوا ملائكة بين الملائكة المقربين .

ولقد صدقت هذه الرؤيا كما هي ، أما بول فقد مات بعد ذلك بثمانية أيام ، وكان قد خرج في بعض خرجاته التي اعتادها دون أن أراه ، فافتقدته عدة ساعات فلم أجده فانحدرت إلى حي بامبلوس فوجدته جاثيًا على قبر فرجيني وقد ضم إلى صدره صورة بول الرسول التي خلفتها له ، فحركته فإذا هو ميت ، فحفرنا له ودفناه معها في قبرها ، وأما مرغريت ، فقد لحقت بولدها بعد ثلاثة أيام من وفاته قضتها صابرة متجلدة لا تذرف لها دمعة ، ولا تصعد لها أنة ، وكان وداعها لصديقتها وداعًا هادئًا ساكنًا لم تزد فيه على أن قالت لها « سنلتقي هناك » كأنما تفترقان على ميعاد ، ثم أسلمت روحها ، وأما هيلين فقد ماتت بعد شهر من ذلك التاريخ على ذلك الفراش الحقير ، وفي ذلك الكوخ البسيط ، لا يحيط بها غيري وغير ماري ودومينج ، بعد ذلك الملك الكبير ، والجنة والحرير والنعمة السابغة والمتعة الواسطة أما أنا .. وهنا سكت سكتة طويلة كانت أوصاله ترتعد فيها ارتعادًا شديدًا ثم قال بصوت خافت متهدج « فقد بقيت وحدي » وانفجر باكيًا بكاء ثاكل فجعها الدهر في أفلاذ كبدها جميعًا في ساعة واحدة ؛ فلا صبر لها ولا عزاء ، وبعد لأي ما استطاع أن يعود إلى حديثه .

فقال :

وهنا لم أجد بدًا من أن أنقل ماري ودومينج إلى كوخي ، فلم يعيشا بعد مواليهم بضعة شهور ثم لحقا بهم ، فخلت الأرض منهم جميعًا ، حتى من كلبهم ، وماشيتهم وطيورهم وعصافيرهم ، وأصبحوا تحت التراب أجسادًا هامدة وعظامًا نخرة ، تسفى عليهم السوافي ، وتدور عليهم الدوائر ، ويتحدث عنهم المتحدثون كما يتحدثون عن الشعوب الغابرة ، والأمم الخالية ، ولم يبق من آثارهم غير تلك الجدران المتهدمة التي تراها ، وقد خلد أهل الجزيرة ذكرهم في كثير من الأماكن التي عاشوا فيها . فسموا الرأس الذي عجزت السفينة عن اجتيازه فكان في ذلك هلاكها « الرأس البائس » والخليج الذي وجدت جثة فرجيني على شاطئه دفينة في الرمل « خليج القبر » والمضيق الذي غرقت فيه السفينة « مضيق سان جيران » وسموا مخدع فرجيني التي كانت تخلو فيه بنفسها « كهف فتاة » وشجرة الخيزران التي ظللت قبرهم جميعًا « الشجرة المقدسة » والوادي الذي عاشوا فيه « الوادي السعيد » ثم لم تلبث الأيام أن تذهب بهذه الذكرى كما ذهبت بأصحابها ، لأن الناس أصبحوا ينطقون بهذه الأسماء ولا يفهمون معناها ، فوارحمتاه لهم ، لقد ضن الدهر عليهم بكل شيء حتى بالذكرى !

وقد علمت بعد مرور بضع سنوات على هذه الحادثة أن تلك العمة القاسية التي ضنت بمالها على ابنة أخيها وتركتها تموت بؤسًا وجوعًا في هذه الجزيرة المنقطعة ، ثم حرمت منه حفيدتها وتركتها تهلك يأسًا وهمًا في أعماق المحيط لقيت جزاء غلظتها وقسوتها ، فلم تسمع بخبر غرق فرجيني وموت أمها حتى أصابها مثل الجنون وملأت رأسها الوساوس والهواجس ، فكانت تندبهما تارة وتبكي مصيرها حتى تشرف على التلف ، وتهون على نفسها أمرهما تارة أخرى قائلة إنها لم تفعل شيئًا سوى أنها أبعدت العار عنها وعن أسرتها ، فكان ما قدر الله أن يكون ، وكانت تنقم أشد النقمة على الفقراء والمساكين كلما رأتهم في طريقها فتصيح : أما كان خيرًا لهؤلاء الأشقياء أن يذهبوا إلى المستعمرات الإفريقية فيموتوا فيها ويريحونا من شرورهم وويلاتهم ؟ ثم لا تلبث أن تشعر بالعطف عليهم والرثاء لهم فتذهب إلى الكنيسة بمال كثير تضعه في صندوقها باسمهم ، كأنما تظن أن الله تعالى يغفر لها جرائمها وآثامها بهذه الرشوة التي تقدمها إليه ، وكانت لا تزال ترى يقظتها ومنامها وقومتها وقعدتها وذهوبها وجيئتها ، أشباحًا مخيفة تلوح لها في وجهها ، وتهددها أفظع تهديد وأهوله فترفض هاربة منها ، فتراها أمامها حيثما ذهبت ، وأينما حلت ، فتفزع إلى الكاهن ، تسأله أن يشفيها من دائها ، وما داؤها إلا ذنوبها وآثامها التي أسلفتها ! فما حيلة الكاهن فيها ؟

وكانت كلما مر بخاطرها أن أقرباءها البعيدين الذين لا تحبهم ولا يحبونها سيرثونها من بعدها ، اشتد ذلك عليها كثيرًا ، فتخرج إلى الطريق حاملة بدرة من الذهب في يدها فتنثرها نثرًا ، فرفع هؤلاء القوم أمرها إلى القضاء واتهموها بالجنون ، ولم يزالوا بها حتى أرسلوها إلى المارستان وسكنوا قصرها من بعدها ووضعوا أيديهم على مالها وكان الله قد أراد أن يسقيها الكأس حتى ثمالتها فأبقى لها من الفهم والإدراك ما تستطيع به أن تعلم أن مالها الذي تعبت كثيرًا في جمعه وتدبيره ، واقترفت كثيرًا من الذنوب والآثام في سبيل الاحتفاظ به والحرص عليه يتمتع به في حياتها خصومها وأعداؤها ، فنال ذلك منها منالاً عظيمًا ، ولم تلبث أن ماتت حاملة معها حسرتها إلى قبرها .

وكذلك ينتقم الله من الأشحاء الذين يضنون بمالهم على أصحاب الحق ينقله إلى الأيدي التي لا تستحقه : سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير ، وصمت هنيهة ثم ألقى نظرة عامة على ما يدور حوله وأنشأ يقول :

سلام عليكم أيها القوم الأبرار ، والملائكة الأطهار ، لقد عشتم ما عشتم في هذه الدار وأنتم غرباء منها ، لا تعرفكم ولا تعرفونها ، ولا تأنس بكم ولا تأنسوا بها ، لأنكم من عنصر غير عنصرها وجوهر غير جوهرها ، ثم رحلتم عنها كما جئتم إليها ، لم يشعر بكم شاعر ، ولم يحفل بأمركم حافل ، فكنتم كحلم لذيذ ألم بالعيون الهاجعة ثم مضى لسبيله .

هذه آثاركم عافية ، ودياركم خالية ومساكنكم لا يأوي إليها غير الضب واليربوع ، ولا يسمع فيها غير الزئير والعواء ، فلا نور . ولا نار ، ولا أرض ولا ماء ، ولا مرتع ، ولا حديث ولا سمر ، ولا عين ولا أثر ، كأن وجودكم الدنيا بجمالها ولألائها ، وكأن ذهابكم القيامة التي تزلزل كل شيء وتأتي على كل شيء .

سلام عليكم يا بني ، لقد كنتم أنسى وحياتي وسلوتي وعزائي ، ومتعة نفسي وراحة ضميري ، والروضة الأنف التي أقطف ما أشاء من أزهارها ، ورياحينها وألجأ إلى ما أحب من ظلالها وأفيائها أما اليوم فقد سمج وجه الدنيا في نظري وأصبح عبء الحياة ثقيلاً عن عاتقي ، لا أستطيع احتماله ، ولا الاستقلال به .

سلام عليك أيها الولد الطيب الكريم الذي نشأ في تربة ساذجة بسيطة ، فنشأ ساذجًا بسيطًا لا ينال الناس بشر ولا يعتقد في الناس شرًا ، ولا يضمر في نفسه إلا الوفاء والإخلاص حتى لكلبه وشاته ، والكوخ الذي يؤويه ! والظل الذي يفيء عليه .

سلام عليك أيتها الفتاة الشريفة الطاهرة التي صيغ قلبها من الرحمة والشفقة ، فبكت البائس والفقير ، واليتيم الذي لا عائل له ، والأرملة التي لا معين لها ، بكاء صادقًا لا تسمعه ، إلا أذن الليل ، ولا ترعاه إلا عيون الكواكب ، ولم يكن صدقها في أدبها وحيائها بأقل من صدقها في رحمتها وإحسانها ، ففرت من قارة إلى أخرى حياء من نفسها ، ثم فرت من العالم بأجمعه ضنًا بجسمها أن تلمسه يد منقذها .

سلام عليكما أيتها المرأتان الصابرتان اللتان علمتا ولديهما الفضيلة وغذتاها بلبانها ، فكانتا خير الأمهات لخير الأبناء ، واللتان لم تسخطا في حياتهما يومًا واحدًا ، ولم تنقما ، ولم تشكو لأحد غير خالقهما ، على كثرة ما ألم بهما من المصائب ونالهما من الأرزاء ، ثقة برحمة ربهما وإحسانه ، وسكونًا لقضائه وقدره حتى خرجتا من دنياهما خروج السبيكة من البودقة طهارة وصفاء .

سلام عليكما أيها الزنجيان المخلصان اللذان حفظًا الصنيعة من حيث لا يحفظها أحد ، وشكراها من حيث لا يشكرها شاكر ، ولم يحل سواد جلدهما وخشونة منبتهما ووحشة نفسهما . من أن يحملا بين جوانحهما عواطف الود والإخاء التي لا يزال البيض في أوروبا ينشدونها في كل مكان على ألسنة كتابهم وشعرائهم وخطبائهم ووعاظهم رجاء الوصول إليها ، فلا يجدون إليها سبيلاً .

سلام عليكم يا بني والدكم الحزين الباكي الذي بليت عظامكم في قبرها ، ولم يبل ذكركم في قلبه ، والذي ظل يختلف إلى واديكم عشرين عامًا ، يندبكم ويبكيكم ، ويسأل الله أن يلحقه بكم ، فلا يستتب له ما يريد .

ثم تناول عصاه واعتمد عليها ونهض قائمًا كأنه يقتلع نفسه من الأرض اقتلاعًا وكأنما قد خطا نحو القبر عشر سنوات كاملة في تلك الساعات القليلة التي قضاها معي ، فأصبح حمامة اليوم أو غد ، وكأن الشمس قد أذنت بالمغيب ، ولم يبق منها في دائرة الأفق إلا كما يبقى في جنبات الكأس من فضل الشراب ، فألقى عليها نظرة هادئة مطمئنة ، ثم مشى طريقه بخطوات بطيئة ، وأوصال مرتعدة ودموعه تنحدر على خديه انحدار المزنة الهاطلة ، فلبثت في مكاني أنظر إليه وقلبي يذوب رحمة به وإشفاقًا عليه ، حتى انحدر في بعض البطون وغاب عن نظري .

(28) النهاية

عدت إلى منزلي الذي أنزله وحاولت أن آوي إلى مضجعي فنبا بي ، وأن أستزير الغمض فامتنع على ، وأن أهدأ في مكاني ساعة واحدة فلم أستطع ، وكان أكبر ما يشغلني وينفر النوم من عيني حالة ذلك المسكين فقد هاجت تلك القصة التي قصها على ألمًا دفينًا في نفسه وشجنًا كامنًا ، فاستحال في بضع ساعات إلى هيكل من العظم تتردد أنفاسه في صدره تردد الريح في جوانب الهيكل الخرب ، وانصرف عني يمشي مشية الطائر المذبوح يجر شلوه جرًا ، وتمثل لي أنه الآن طريح فراشه في زاوية من زوايا كوخه يكابد آلام المرض أو آلام النزاع من حيث لا يعينه معين » ولا يرحمه راحم ، فاشتد ذلك على كثيرًا وشعرت بشعبة من شعب قلبي قد سقطت .

وما أصبح الصباح حتى عقدت العزم على زيارته في واديه على بعد الشقة بيني وبينه لأتفقد شأنه ، واقضي حق صحبته ، فسلكت الطريق التي وصفها لي مرارًا في حديثه ، ولم أزل أصعدى النجاد ، وأهبط الوهاد ، وأضل مرة وأهتدي أخري ، حتى أشرفت منزلق الشمس عن كبد السماء على كوخه المنفرد في ذلك الوادي الموحش ، فانحدرت إليه وكنت أرجو أن أراه واقفًا على بابه ، أو جالسًا على مقربة منه ، فلم يقع نظري على شيء وكان السكون سائدًا عميقًا لا يسمع فيه السامع نأمة ولا حركة ، كأنه سكون المقابر ، اللهم إلا عصفورًا صغيرًا يغرد من حين إلى آخر تغريدة شجية مؤثرة ،

كأنما هو يوقع لحنًا من الألحان المحزنة على نغم واحد ، وميزان مطرد ، فرفعت نظري إليه فإذا هو واقع على شجرة قصيرة منفردة أمام باب الكوخ ذكرت عند رؤيتها أنها الشجر الوحيدة التي حدثني عنها أن فرجيني غرستها أمام كوخة منذ عهد بعيد ، وأنه يحبها كثيرًا ويأنس بها من أجلها ، فدنوت منها فراعني أن رأيت تحتها شبحًا معفرُا بالتراب ، فتبينته فإذا هو الشيخ ، فحركته فإذا هو ميت ، فهالني الأمر وتعاظمني ، وشعرت بقلبي يتمزق لوعة وأسى ، وبنفسي تسيل رحمة وإشفاقًا ، وقلت : يا له من رجل مسكين ! لقد مات ، ولا صديق يوسد رأسه أو يسبل أجفانه ، ولا عين تبكي عليه غير ذلك العصفور الصغير الذي ينوح فوق رأس .

***

ولم ينقض اليوم حتى دفناه تحت تلك الشجرة التي مات تحتها والتي كان يحبها ويأنس بها ، ثم انصرفنا .

ولا عين إلا وهي عين من البكا   ولا خد إلا الدموع . خد .

انتهت

بول وفرجيني

يا بني القفر سلام عاطر من بني الدنيا عليكم وثناء
وسقى العارض من أكواخكم معهد الصدق ومهد الأتقياء
كنتم خير بني الدنيا ومن سعداوا فيها وماتوا سعداء
عشتم من فقركم في غبطة ومن القلة في عيش رخاء
لا خصام ، لا مراء بينكم لا خداع ، لا نفاق ، لا رياء
خلق بر وقلب طاهر مثل كأس الحر معنى وصفاء
ووفاء ثبت الحب به وثبات الحب في الناس الوفاء
أصبحت قصتكم معتبر في البرايا وعزاء البؤساء
يجتلي الناظر فيها حكمة لم يسطرها يراع الحكماء
وكتاب الكون في صحف يقرأ الحكمة فيها العقلاء

***

إن عيش المرء في وحدته خير عيش كافل خير هناء
فالورى شر وهم دائم وشقاء ليس يحكيه شقاء
وفقير لغني حاسد وغني يستذل الفقراء
وقوي لضعيف ظالم وضعيف من قوي في عناء
في فضاء الأرض منأى عنهم ونجاء منهم أي نجاء
إن عيش المرء فيهم ذلة وحياة الذل والموت سواء

***

لبث (فرجيني) أطاعت (بولسًا) وأنالته مناه في البقاء
ورثت للأدمع اللاتي جرت من عيون ما درت كيف البكاء
لم يكن من رأيها فرقته ساعة لكنه رأي القضاء
فارقته لم تكن عالمة أن يوم الملتقى يوم اللقاء
ما (لفرجيني) و(باريس) أما كان في القفر عن الدنيا غناء ؟
إن هذا المال كأس مزجت قطرة الصهباء فيه بدماء
لا ينال المرء منه جرعة لم يكن في طيها داء عياء
عرضوا المجد عليها باهرًا يدهش الألباب حسنًا ورواء
وأروها زخرف الدنيا وما راق فيها من نعيم وثراء
فأبته وأبى الحب لها نقض ما أبرمه عهد الإخاء
ودعاها الشوق للقفر وما ضم من خير إليه وهناء
فغدت أهواؤها طائرة بجناح الشوق يزجيها الرجاء
يأمل الإنسان ما يأمله وقضاء الله في الكون وراء

***

ما لهذا الجو أمسى قاتمًا ينذر الناس بويل وبلاء
ما لهذا البحر أضحى مائجًا كبناء شامخ فوق بناء
وكأن الفلك في أمواجه ريشة تحملها كف الهواء
و(لفرجيني) يد مبسوطة بدعاء حين لا يجدي دعاء

***

لهفي والماء يطفو فوقه هيكل الحسن وتمثال الضياء

زهرة في الروض كانت غضة تملأ الدنيا جمالاً وبهاء

من يراها لا يراها خلقت مثل خلق الناس من طين وماء

ظنت البحر سماء فهوت لتباري فيه أملاك السماء

وهذا منتهى كل حي ما ، وهذا منتهى كل حي ما

في

سبيل التاج

وهي خلاصة رواية تمثيلة بهذا الاسم

للكاتب الفرنسي الشهير

فرانسوا كوبيه

مع بعض تصرف

إلى البطل المصري العظيم

سعد زغلول

« تشرح هذه الرواية سيرة بطل من أبطال الوطنية العالية » .

« قد جمع الله له من صفات الشجاعة والثبات والعزيمة والغيرة » .

« والإخلاص والتضحية ما جمع لك منها ، فأذن لي أن أهدي ».

« روايته إليك ، وان أقدم البطل البلقاني ، إلى البطل المصري » .

« لتأنس روح كل منكما بروح صاحبه ، وإن باعد بينكما ».

« الزمن ، واختلفت بكما الدار ، فإن تفضلت بقبول هديتي » .

« وما أحسبك ضانًا بذلك عليّ ، فلتكن جائزتي عندك عليها أن » .

« تشهد لي بينك وبين نفسك أنني قد وضعت لبنة صغيرة في ذلك ».

«البناء الضخم الذي شدْته لأمتك ووطنك وحسبي ذلك وكفي » .

مصطفي لطفي المنفلوطي

أول يونيه سنة 1920

مقدمة الكاتب

لحضرة الكاتب الشهير : حسن الشريف

انصرفت عقول الكتّاب والمفكرين في هذه الأيام ، وفي جميع البلاد إلى الاشتغال بالمسائل السياسية والمشاكل الاجتماعية التي أوجدتها الحرب الأخيرة وانصرفت الأقلام وراء العقول تحاول إنارة السبيل لقادة الشعوب علهم يستطيعون إقالة هذا العالم من عثرته .

ولقد كان من جزاء ذلك أن أهمل الأدب إهمالاً نزل به إلى مرتبة دون التي كان يشغلها في نفوس القرّاء والمؤلفين ، فانحطّ التأليف الأدبي انحطاطًا قد يستمر ما استمرت حالة العالم على ما هي عليه .

ولم يكن تأثير هذه الأزمة الأدبية في مصر بأقل منه في غيرها ، إذ انصرف معظم الأدباء عن فنهم ، وعلى الأخص في السنة الأخيرة إلى الاشتغال بقضيتنا السياسية الكبرى ، فانقطع ظهور الكتب الأدبية ، أو كاد ، وأوشكت مسارح التمثيل أن تغلق أبوابها لقلة ما يقدّم إليها من الروايات ، ورأت صحف الأدب أن لا بقاء لها إلا إذا ولّت وجهها شطر السياسة فوقفت جلّ أعمدتها على شرح وتأويل ما يحمله إلينا البرق من الأخبار . وبذلك وقفت نهضتنا الأدبية ، منتظرة أن تمر العاصفة وتصفو السماء فتستأنف سيرها ويعود إليها عزها ونشاطها ، بيد أن العناية الساهرة على الفنون قد أبت أن تذبل شجرة الأدب في مصر ولما تينع أزهارها ، فلم تدع السياسة تستأثر بأقلام جميع الكتّاب ،

بل أبقت للأدب أئمته وأنصاره ، فلم يؤيسهم شغف الجمهور بسياسة العالم وانصرافه عن كل ما عداها ، وظلوا رافعين لواء فنهم في وسط الزوابع والأعاصير عالمين أن الأدب أفيد غذاء لروح الأمة وعقلها ، وأكبر مهذب لإحساسها وشعورها .

وفي طليعة هذا النفر من أئمة الفن وخدامه ، لا أتردد في ذكر اسم السيد « مصطفى لطفي المنفلوطي » الذي لم يبخل على قرائه العديدين بأويقيات فراغه فوقفها على الكتابة والتأليف ، ولم تحل أعمال وظيفته الحكومية بينه وبين أن يخرج للناس بضعة مؤلفات قيمة آخرها هذه الراوية الشيقة الممتعة « في سبيل التاج » التي نقدمها اليوم إلى جمهور القارئين .

فرانسوا كوبيه مؤلف « في سبيل التاج » شاعر عرك صروف الزمان وجس بإصبعه مصائب الإنسان ، فلم تزد قلبه مناظر البؤس والفاقة إلا لينًا وحنانًا ، حتى إن القارئ لا يرى في شعره إلا عبرة حارة أرسلتها عيناه إشفاقًا وحنوًا على الذين تخطتهم السعادة وغضبت عليهم الحياة ، حتى لقبه عارفوه بحق « معزي المنكودين والبائسين وشاعر الضعفاء والمحزونين » .

ولد كوبيه سنة 1842 ، ولم تمكنه بنيته السقيمة من تتميم دراسته فانقطع عن تلقّي الدروس في معاهد العلم ، وانصرف على قراءة الكتب والإطلاع على أوضاع الأقدمين ، وكان يشعر بميل شديد غريزي إلى الشعر ، فنظم منه بضع قصائد لم تصادف إعجابًا من الذين أسمعهم إياها ، فرأى أن النار أحق بها من المطبعة فأحرقها ، وطلق الشعر

وهجر الأدب ، وسعى حتى حصل على وظيفة في الحكومة استولى عليها ظنًا منه أنه لم يخلق لصناعة القلم وأن رغبته في الشعر ما هي إلا نزعة مفتون تصبو نفسه إلا ما لا قبل له به ولا طاقة له عليه .

بيد أن الفطرة ما لبثت حتى غلبت اليأس في نفس الشاب ، فعاد إلى القصائد ينظم منها اليوم ما يمزقه الغد ، حتى وفق لكتابة « صندوق البغايا المقدسة » (Le Reliquaire) ونشره بين الناس فصادف رواجًا وإقبالاً شجعاه على الاستمرار والمثابرة ، وزاده تشجيعًا أن صارت بعض منظوماته تتلى على المسارح وفي الحفلات ، وما زالت شهرته تنمو حتى اهتمت بشأنه إحدى الممثلات الشهيرات « مدام أجار » ورأت فيه قابلية للتأليف التمثيلي ، فنصحت إليه بكتابة شيء للمسرح ، فعمل بنصيحتها وكتب « عابر السبيل » (Le Passant) وهي رواية ذات فصل واحد ، ما كات تظهر حتى تخاطفتها المسارح ومثلتها « سارا برنار » فطار صيت المؤلف الشاب وذاعت شهرته وأقبل عليه مديرو المسارح يلتمسون منه المزيد .

ومن سنة 1868 نشر كتبًا شعرية متتابعة أهمها « المودات » (Intimités) و « اعتصاب الحدادين » و « المتواضعون » وبعض قصص نثرية منها « المجرم » (jeunesse) و « شيونيه » (Toute) وكثير من الروايات التمثيلية ، ونخص بالذكر منها « عواد كريمون » (Le Luthier de Crémone) و « مدام ده مانتنون » و « سيفير ونوريلي » و « في سبيل التاج » .

وفي عام 1884 انتخب عضوًا بمجمع علماء فرنسا ، ثم انكب على السياسة وسار فيها شوطًا بعيدًا كاد ينسيه الشعر والأدب ، وتوفي سنة 1908 وهو رئيس فخري لجمعية الوطن الفرنسوية .

هذا ملخص حياة ذلك الشاعر النابغة الذي امتاز على أقرانه بأنه لم يقلد أحدًا من الأوائل ولا المعاصرين « والتقليد يكاد لا ينجو منه شاعر من الشعراء » وبأن معظم المواضيع التي طرقها كانت إلى عهده جيدة لم يتقدم إليها قبله أحد من المؤلفين ، ولقد قال عنه أناتول فرانس ما معناه :

« إن نفثات قلم هذا الشاعر قد أثرت في جميع القلوب وتمكنت منها ، لأن أساسها الطبيعة ، وأحسن ما يبرع في الكتابة عنه ويصل إلى أعلى طبقات البلاغة ما كان له إلا لأصحاب الأذواق السليمة والذكاء المتوقد الخارق ، وهو يحتاج إلى مهارة فائقة وبراعة زائدة ، فإن أقل خطأ فيه لا يلبث أن يبدو للعيان مجسمًا ، وإنه وإن كان في استطاعة كل إنسان مهما كانت منزلته من العلم أن يفهم هذا الشاعر ويتأثر بأغراضه ومراميه ، ولكن لا يستطيع أن يسبر كنهه ويتذوق طعم أدبه إلا من رزق حظًا وافرًا من العلم والذوق السليم وبالجملة فقرّاء هذا الشاعر العظيم كثيرون جدًا ومن جميع الطبقات ، ولكن قراءه الحقيقيون قليلون » .

***

أما رواية « في سبيل التاج » التي نحن بصددها فمأساة شعرية تمثيلية وصفها المؤلف في سنة 1895 وأراد أن يجاري بها عميدي الشعر التمثيلي في القرن السابع عشر «كورني وراسين» وهي رواية أخلاقية بطلها فتى تعارضت في نفسه عاطفتان قويتان حب الأسرة وحب الوطن فضحّى الأولى فداء للثانية ، ثم ضحّى حياته فداء لشرف الأسرة ، ولقد تجلت في هذه المأساة عبقرية الشاعر ومواهبه الكبيرة فالأسلوب سهل ممتع ، والأفكار متسلسلة متماسكة ، والوقائع جلية واضحة ، وأخلاق أشخاص الراوية تفسرها أقوالهم وحركاتهم فلا غموض فيها ولا إبهام .

ولقد ذهب النقاد في تقدير هذه المأساة مذاهب شتى حتى قال بعضهم أنها خير ما أخرج للناس من عهد راسين إلى يوم ظهورها .

قال الأستاذ « إميل فاجيه » العضو بالمجمع العلمي الفرنساوي عن هذه الرواية في الجزء الثالث من كتابه « آراء في التمثيل » ما معناه :

إذا نظرنا إلى ما في الفصول الثلاثة الأولى من القوة والمتانة والوضوح مع البيان والبلاغة وحسن التصوير ، أمكننا أن نحكم بأن هذه الرواية ستمثّل إلى ما شاء الله بدون أن يملها الجمهور أو يشعر بسأم من سماعها وأن « فرانسوا كوبيه » بكتابته للفصل الثالث منها على الأخص قد ضمن لذكراه الخلود في ذاكرة الأجيال المقبلة وهو الفصل المعنْون في التعريب بعنوان « الجريمة » .

وقال الأستاذ « جول لومتر » العضو بالمجمع العلمي الفرنساوي في الجزء التاسع من كتابه « خواطر في التمثيل » بعد أن أطنب في وصف شاعرية كوبيه وفي تقدير مواهبه : إن رواية « في سبيل التاج » لهي من صنع فتى قدير وشاعر عظيم ورجل ذي ضمير حي وقلب كبير ، وإذا كان فيها بعض النقص فهذا النقص لم يخل منه كورني ولا فيكتور هوجو ولا غيرهما من كبار الفنيين .

وقال في موضع آخر من نفس الكتاب : إن المشاهد لتمثيل رواية « في سبيل التاج » ليشعر منذ الهنيهة الأولى براحة واطمئنان ثم لا يلبث حتى يتأكد أنه سيشاهد عملاً متقنًا وفنًا نظيفًا ولقد يكون أحسن ما في القطعة تنسيق الأفكار وتحليل العواطف وترتيب الحوادث وتصوير النفوس والأشخاص .

هذا رأى كبيرين من زعماء الحركة الأدبية في فرنسا نورده هنا ليعلم القراء منزلة هذه الرواية من نفوس الأدباء في الغرب ومبلغ تقديرهم لمؤلفها .

ولقد تناول السيد مصطفى لطفي المنفلوطي هذه المأساة ونقل موضوعها إلى اللغة العربية في قالب روائي جميل بعد أن أضاف إليها أشياء وحذف منها أخرى وأخرجها لقرائه قصة يستهوي أسلوبها القلوب وتسترعي وقائعها الألباب بقلم عذب وعبارة رقيقة وديباجة بديعة لا نطيل الكلام في وصفها لأن قراء العربية يعرفونها لهذا الكاتب العظيم ويعترفون له بها ، ولم يفته أن ينقل إلى العربية قطعًا كاملة من الرواية يستطيع القارئ أن يتبين منها قوة المؤلف ،

ومع أن الراوية ملخصة تلخيصًا فقد استطاع الكاتب بمهارة فائقة أن يصوّر الروح الأصلية للمؤلف تصويرًا مؤثرًا وأن يملك من نفوس قراء العربية ما ملكه فرانسوا كوبيه من نفوس قراء الفرنسية .

ولا يفوتنا هنا أن نقول أن الكاتب قد اشتغل بتلخيص هذه الراوية في إبان الحركة الوطنية الأخيرة ، ولقد أوحت إليه الحوادث السياسية التي لا تزال ماثلة في الأذهان صفحات تفيض وطنية وغيرة حتى لكأنه قد أفضى إلى أمته في هذا الكتاب بكثير مما لا يستطيع كتابته في الصحف السياسية ، والحق أقول إننا كثيرًا ما كنا نعتب عليه في سكوته عن الاشتراك بقلمه مع العاملين في هذا الحركة حتى قرأنا هذه الراوية فإذا روحه الوطنية الشريفة تسيل فوق صفحاتها سيلاً وإذا الرواية الحركة الحاضرة بجميع ظروفها ومتعلقاتها .

وبالجملة فرواية « في سبيل التاج » كتاب الوطنية الخالدة في ثوب قصة خيالية تملك لب القارئ بجمالها تتولى تهذيب نفسه بآدابها وفضائلها وما أحوجنا أن تجري الأقلام الأدبية في هذا العصر بمثل ما جرى به قلم السيد المنفلوطي هذه المأساة المؤثرة ليتلقى النشء الحديث دروس وطنيته من طريق العواطف والوجدان ، وقلما تصل الوطنية إلى أعماق القلوب وتتغلغل في شغافها إلا من هذا الطريق .

أول يونيه سنة 1920

حسن الشريف

مقدمة

لا يزال التاريخ يحفظ في صفحاته حتى اليوم تلك الوقائع الحربية الهائلة التي وقعت في القرن الرابع عشر بين الدولة العثمانية والشعوب البلقانية أيام أغارت الأولى على الثانية تريد افتتاحها والاستيلاء عليها . فدافعت الثانية عن نفسها دفاعًا مجيدًا استمر زمنًا طويًلا حتى غلبت على أمرها فسقطت في يد القوة القاهرة ودخل الترك البلقان وحولوا كنائسها إلى مساجد وفرضوا على أهلها الإتاوات الثقيلة وعزلوا ملكها الذي كان يحاربهم ويناوئهم وملّكوا عليه ملكًا من أهلها اسمه « ميلوش » فلبثت في حكم الأتراك عهدًا طويًلا عانت فيه من ضروب الذل والهوان ما يعانيه كل شعب مغلوب على أمره ، حتى قيض الله لها رجًلا من رجال الدين المخلصين اسمه الأسقف « أتين » عزّ عليه ضياع بلاده وسقوطها في يد أعدائها وأن تتحول فيها الكنائس إلى مساجد وتجار في أرجائها أصوات المؤذنين بدلاً من أصوات النواقيس وألا يجد المسيحيون في عقر ديارهم مكانًا يؤدون فيه صلواتهم غير الصحاري والفلوات فأخذ ينتقل في أرجاء البلاد ويمشي بين شعوبها وقبائلها يدعو باسم الدين مرة والوطنية أخرى ، ويستنهض همم الرجال للدفاع عن وطنهم وتحرير بلادهم من يد ذلك القاهر المغتصب حتى جمع كلمة الأمة كلها من حوله على اختلاف عناصرها ومذاهبها وكذلك تتفق كلمة الأمة أمام الخطر الداهم والقضاء الشامل .

ثم أشار على ملكه أن يخلع طاعة الترك ويطرد رعاياهم من بلاده ويمتنع عن دفع الجزية والإتاوة وينادي بحرية البلقان واستقلاله ، فجبن الملك عن ذلك في أول الأمر ، ثم أسلس له وأذعن لرأيه ، ففعل ما أشار به عليه ؛ فأحقد ذلك الترك وآسفهم واستثار حقدهم وضغينتهم، فوجهوا إلى البلاد البلقانية جيشًا عظيمًا وافر العدة والعدد بقيادة أحد أبطالهم العظام أرطغول باشا ؛ فثار البلقانيون جميعًا رجالاً ونساء للدفاع عن أنفسهم والذود عن وطنهم ، واختاروا لقيادة جيشهم القائد البلغاري العظيم الأمير ميشيل برانكومير ، فظل يحارب الأتراك عدة أعوام يدال له عليهم فيها ويدال عليه ولكنهم لا يستطيعون اجتياز حدود بلاده واقتحام جبالها ، حتى عيّ القائد التركي بأمره ورأى أن لا حيلة له فيه إلا من طريق الدسيسة والكيد ، وكذلك فعل .

الجاسوس

اجتمع جنود الفرقة البلقانية ذات ليلة في معسكرهم يشربون ويطربون ويرقصون على نغم قيثار الموسيقار البوهيمي المسكين «بانكو» الذي كان يفد إلى معسكرهم كل ليلة يغنّيهم قطعًا حماسية مؤثرة يذكرهم فيها بمجد وطنهم وتاريخه العظيم فيرقصون على غنائه ويطربون ويحسنون إليه بما فضل من زادهم وشرابهم ، ثم جلسوا بعد فراغهم يتحدثون في شأن ذلك الحادث العظيم الذي حدث في بلادهم منذ أيام ، وهو موت الملك ميلوش وعزم الجمعية الوطنية على الاجتماع للنظر فيمن يخلفه على العرش من بعده

فانقسموا في رأيهم قسمين : فريق يرى اختيار الأسقف أتين ، وفريق يرى اختيار القائد برانكومير ، فقال الجندي الروماني ، ولكن من الذي مهّد له النصر وأعد له عدته قبل أن يعقد له اللواء على الجيش ؟ أليس الأسقف أتين؟

من الذي ينكر أن ذلك الرجل التقي الصالح هو الذي طاف البلاد من أقصاها إلى أقصاها عشرة أعوام كاملة يستنهض الهمم ويستثير حفائظ النفوس ، ويستحيي ميت العزائم ، ويهيج عاطفة الثأر والانتقام في نفوس الرجال والنساء والفتيان والفتيات ، ويلقي على تلاميذ المدارس في مدارسهم ، أناشيد الحرية والوطنية فيستظهرونها مع دروسهم ويتغنون بها في مسارحهم وملاعبهم ومغداهم ومراحهم؟

من الذي ينكر أنه هو الذي علم الشعب البلقاني دروس الوطنية الشريفة العالية ، وغرس في قلوبهم أن الحياة الذليلة خير منها الموت الزؤام ، وأن الحرية حياة الأمم وروحها ، والرق موتها وفناؤها ، وأن الأمة التي ترضى بضياع حريتها واستقلالها وتقبل أن تضع يدها في يد غاصبها إنما هي أحط الأمم وأدناها وأحقها بالزوال والفناء ؟

ولم يزل يفيض على نفوسهم من نفسه تلك الروح الوطنية العالية ، ويملي عليهم أمثال هذه الآيات الذهبية الشريفة ، حتى صفت ضمائرهم من أدران الذل والمهانة ، وأدركوا من معنى الحياة ما لم يكن يدركه آباؤهم من قبل ، فأصبحوا كما تراهم اليوم حماة الوطن وذادته ، يبذلون في سبيله من ذات أيديهم وذات نفوسهم ما لا يبذل مثله إلا الأمم الراقية الشريفة في سبيل الذود عن مجدها والدفاع عن حريتها واستقلالها ،

ويقدمون إلى الموت زرافات ووحدانا فرحين متهللين كأنهم ذاهبون إلى مراقص «فيدين» وملاعبها ؛ لأنهم يعلمون أن قطرات الدماء التي يبذلونها في سبيل حريتهم واستقلالهم إنما هي المداد الأحمر الذي تسجل لهم به في صفحات تاريخهم آيات المجد والفخار . وأن الأشلاء التي ينثرونها في تربة وطنهم ثم يسقونها من دمائهم إنما هي البذور الطيبة التي تنبت لبلادهم المستقبل الحر الشريف .

من منا يجهل أنه هو الذي استطاع وحده من بين أبناء البلقان جميعًا أن يقف أمام ملكه وقفة الأسد الهصور ويصيح في وجهه قائلاً له : حتى متى أيها الملك الضعيف ، المهين ، تبيع وطنك وأبنائه لأعدائك وأعدائه بيع السلع المعروضة في حوانيت التجار بأبخس الأثمان وأدناها ، وإلام تضع هذه السلاسل والأغلال ، في أعناق أبناء أمتك لتقودهم بها إلى حيث يمرغون أجباههم الشريفة تحت مواطئ أقدام ذلك العدو المغتصب صاغرين ضارعين ، ثم تزعم بعد ذلك أنك ملك عظيم جالس على عرش شريف ، ولو حققت أمرك لعلمت أنك نخاس دنيء يبيع الرقيق في سوق النخاسة ، بل أدنى من نخاس ، لأن النخاس لا يتجر في أبناء أمته ولا أفراد أسرته! فاهتز الملك لكلمته هذه اهتزاز القصبة الجوفاء بين مهاب الرياح ، وطأطأ لها رأسه إجلالاً وإعظامًا ، ولم يلبث أن عزم عزمته الشريفة التي ترونها اليوم ، والتي أنقذت الوطن من العار ورفعته إلى ذروة المجد والفخار .

وهنا ضج القوم جميعًا ضجة السرور والاستسحان وصاحوا : أحسنت يا أورش ، أحسنت إحسانًا عظيمًا ؛ إلا نفرًا قليلاً من أشياع القائد وصنائعه ، فإنهم امتعضوا لهذه الكلمة وغصوا بها ، وقام أحدهم واسمه لازار ، وكان الحارس الخاص لقصر القائد وأمينه وموضع ثقته وثقة زوجته الأميرة بازيليد وطلب الإذن في الكلام فأذنوا له . فقال : « إني أريد أن أعترض على صديقي أورش في كلمته التي قالها في فضل أسقفنا العظيم وأثره الجليل في خدمة الدين والوطن ، ولكن الذي أراه وأستصوبه أن لرجال الدين شؤونا خاصة بهم لا يجمل بكرامتهم أن يتعدوها إلى غيرها من أعمال الحياة ، وإني أضن بأسقفنا العظيم أن تشغله مشاغل الملك وملاهيه عن شؤون الدين التي تصبو لها نفسه طول حياته ، والرأي الذي أراه أن يعقد الملك إلى القائد ميشيل برانكومير ليقود الأمة جميعها بتلك السياسة الحكيمة الرشيدة التي قاد بها الجيش ورفعه إلى مناط السماك الأعلى ، فاعترضه جندي كان جالسًا على مقربة منه وقال له : « لِمَ لا تضن بالقائد ميشيل أن تشغله مشاغل الملك وملاهيه عما هو بسبيله من قيادة الجيش وتدبير شؤونه ؟ » فأجاب : إن قيادة الجيش وزعامة الملك أمران متشابهان ، لأنهما يتعلقان بشؤون الحياة وأعمالها ، وأما الشؤون الدينية فلا علاقة لها بالشؤون الدنيوية بحال من الأحوال ، فدعوا الكاهن مستريحًا في معبده ، مستغربًا في صلواته وعبادته ، واختاروا للككم الصاخبين والصائحين ، والمستحسنين والمستهجنين ، وذهب كل في صيحته المذهب الذي يراه ويتشيع له .

وإنهم لكذلك إذا بصوت صارخ في وسط هذه الضوضاء يقول : « استمعوا مني أيها القوم كلمة واحدة وهي فصل الخطاب في قضيتكم هذه ولا أطلب إليكم أن تستمعوا مني سواها ، فالتفت الجمع فإذا الضابط « ألبير » وهو جندي شيخ عرف القائد برانكومير صغيرًا وخدمه كبيرًا وعاش معه في منزله في عهد زوجته الأولى كأنه أحد أفراد أسرته . ولم يفارقه إلا منذ عامين اثنين ، أي بعد وفاة زوجته بأيام قلائل ؛ فأنصتوا إليه فإذا هو يقول : « أنتم تعلمون جميعًا صلتي بالقائد برانكومير ومكانتي عنده ، وإني أعرف من شؤونه الخاصة والعامة مالا يعرفه أحد غيري . ولقد عرفت فيما عرفت من خلائقه وسجاياه في خدمته ، أنه أبعد الناس جميعًا عن مطامع الحياة ومظاهرها وأرغبهم عن سفاسف الأمور ودناياها ، وأنه جندي صميم معتز بجنديته وشظفها وخشونة العيش فيها لا يؤثر عليها أي مظهر من مظاهر الحياة مهما علا شأنه وعلت قيمته ؛ وإن كان للأسقف « أتين » مزاحم على الملك بين أشراف البلقان وسادته فهو غير القائد « برانكومير » ؛ فهدأت الأصوات وسكنت الضوضاء عند سماع هذه الكلمة الهادئة الرزينة التي ينطق بها جندي شريف صادق ، وكادت تكون فصل الخطاب في القضية لولا أن « أورش » ـ وهو ذلك الجندي المتشيع للأسقف والداعي له ـ قد نهض من مكانه مرة أخرى ونظر إلى الجندي « ألبير » مبتسمًا ابتسامة الهزء والسخرية ، وقال له : « نعم يا سيدي إنك صادق فيما تقول لم تزد حرفًا على ما تعرف ولم تنقص ،

ولكن ائذن لي أن أقول لك إنك إنما تحدّثت في كلامك عن الماضي القديم الذي حضرته وشاهدته ، أما الحاضر فلا تعرف منه شيئًا ، فإن أذنت لي حدثتك عنه وقلت لك : إن الأمير برانكومير اليوم غيره بالأمس ، وإن تلك النفس العالية المرتفعة التي كنت تعرف بالأمس مكانها من بين جنبيه قد استحالت اليوم إلى نفس تواقة متطلعة تصبو إلى المعالي وتفتتن بالعروش ، وأنه هو الذي يدعو بنفسه إلى نفسه ويرسل الدعاة في كل مكان لتأييده ومساعدته على نيل الملك » . فاستطير ألبير غضبًا وقال : «أتريد أن تقول إن أخلاق قائدنا قد تغيرت وإنه قد أصبح رجًلا صغير النفس مبتذًلا ؟» قال : لا ، ما إلى هذا ذهبت ، ولكني أريد أن أقول : إنه قد أصبح منقادًا في شؤون حياته لرأي غيره لا لرأي نفسه ، وربما لو ترك وشأنه لكانت حياته خطة غير هذه الخطة التي ينتهجها اليوم ؛ فانتفض القوم واضطربوا ونظر بعضهم في وجوه بعض ومشت الهمسات بين الأفواه والآذان ، وسمع الخطيب اسم قسطنطين يتردّد مرارًا في أفواه الهامسين ، فصاح في القوم : « أنتم مخطئون جميعًا فيما تذهبون إليه ؛ فإن ابن قائدنا وزهرة شبيبتنا وضابط فرقتنا أعلى همة مما تظنون فصرخ لازار : قل من هو الشخص لذي تريد ؟ فجلس أورش ولم يقل شيئًا ، إلا أنه همس في أذن جندي كان بجانبه : « الزوجة الجديدة » فسَرت هذه الكلمة بين الجموع سريان الكهرباء في أسلاكها حتّى بلغت مسمع الموسيقار بانكو ، فبرقت لها عيناه بريق الفرح والسرور ،

لأنه لم يكن موسيقارًا بوهيميًا كما زعم ، ولم يكن اسمه بانكو كما يسمّونه ، بل هو الضابط المشهور إبراهيم بك أحد أركان حرب القائد التركي العظيم أرطغول باشا وقد وجد في هذه الكلمة التي سمعها ما كان يريد أن يكون ، وعثر بالثلمة التي ينحدر منها إلى أغراضه ومآربه .

وما أوى القوم إلى مضاجعهم ، وأخذ النوم بمعاقد أجفانهم ، حتى دبّ ذلك الجاسوس المتنكر على يديه وبلغ مضجع الجندي لازار حارس قصر القائد وموضع ثقته وأكبر أشياع زوجته وأنصارها فاضطجع بجانبه وظل يهمس في أذنه ساعة طويلة كان يتردد فيها اسم الأميرة بازيليد زوجة القائد الجديدة ، حتى تم لهما الاتفاق على ما يريان . ثم أسلما عيونهما إلى الكرى فناما .

■ ■ ■

قسطنطين

توفيت زوجة الأمير برانكومير منذ عامين ، وكانت امرأة من النساء الصالحات القانتات ذوات النفوس العالية والهمم الكبرى . فورث ابنها قسطنطين عنها هذه الأخلاق الكريمة ، كما ورث عن أبيه صفات الشجاعة والعزيمة والصبر واحتمال المكاره في سبيل خدمة الوطن والأمة ، فكان خير ابن لخير أب وأم ، وكان يد أبيه اليمنى ودرعه الواقية الأمينة في جميع وقائعه ومشاهده ، حتى ذاع صيته في جميع أنحاء المملكة وأحبه الشعب والجند حبًا كاد يرفعه إلى ما فوق منزلة أبيه ، لولا حرمة الأبوّة وجلال الشيخوخة ومكان التاريخ . فلما ماتت أمه تزوج أبوه من بعدها فتاة يونانية اسمها « بازيليد » يقال إنها من سلالة قياصر بيزنطة «القسطنطينية» وهي فتاة جميلة ساحرة تستهوي القلوب وتجتلب الألباب ، ذات نظرات غريبة لامعة يقضي المتفرّس فيها حين يراها أنها نظرات مريبة ألفت الاختلاب والافتتان من عهد بعيد ؛ فنزلت من قلب القائد الشيخ منزلة لم ينزلها منه أحد من قبلها ولا من بعدها ، حتى زوجته الصالحة وولده النجيب ، فأصبح مستهامًا بها ، مستسلمًا إليها ، لا يصدع إلا بأمرها ولا يصدر إلا عن رأيها ، ولا يرى حلو العيش وجماله إلا بجانبها ولا يستروح رائحة السعادة والهناء إلا إذا هبت عليه من ناحيتها ، وكانت امرأة طموحًا متطلعة لا يعنيها من شؤون حياتها إلا مظاهر السؤدد والعظمة ، ولا غلب على مشاعرها وعواطفها إلا ذكرى تاريخ آبائها وأجدادها ومصارع قومها في « بيزنطية » بيد الأتراك الفاتحين

وكانت لا تزال تتحدث في مجالسها العامة والخاصة بنبوءة قديمة تنبأ لها بعض المتنبئين ، ومجملها أن كاهنًا عرّافًا دخل منزل أبيها وهي طفلة لعوب لا تزال تحوم حول مهدها ، فنظر إليها طويلاً ثم قال لأمها : إن ابنتك هذه ستكون ملكة عظيمة الشأن في مستقبل أيامها ، وربما كان اهتمامها بهذه النبوّة واحتفالها بها وتصديقها إياها هو السبب في قبولها الزواج من شيخ هرم مدبر قلّما يعني بمثله مثلها ، على أمل أن تحقق لها الأيام على يديه آمالها وأمانيها . فظلت تغرس في نفسه هذه الأمنية الجميلة المحبوبة مدة من الزمان وتسقيها بماء حسنها وجمالها ، حتى ملأت بها فضاء قلبه ، وشغلته بها عن كل شاغل سواها .

ولم يزل هذا شأنها معه حتى مات الملك ميلوش ، وجاءت الساعة التي تنتظرها ، فهتفت به : ها قد حانت الفرصة التي كنا نرقبها ، وها قد بدأت تتحقق نبوءة ذلك العراف الخبير التي تنبأ لي بها وما هو بالكاذب ولا المتخرص ؛ ثم زجّت به في طريق مزاحمة الأسقف أتين على الملك ؛ فانقاد لها ومشى في الطريق التي رسمتها له ، وأخذ يدعو الناس لنفسه ، ويستكثر من سواد أشياعه وأنصاره ، ويداخل أعضاء الجمعية الوطنية ويداهنهم ويتوسل إليهم أن يساعدوه على نيل أمنيته التي يرجوها ، مدلاً بمكانته من خدمة الأمة والوطن ، وأياديه في الذود عنهما ، وبما بذل من صحته وشبابه في مقاتلة الأعداء ومدافعتهم تلك السنين الطوال حتى اشتعل رأسه شيبًا ولمست قدماه رأس المنحدر المؤدي إلى القبر .

هذا ما كان يشغل القائد وزوجته في ذلك التاريخ ، أما ابنه قسطنطين فكان بمعزل عن هذا كله ، فإن وفاة أمه التي كان يحبها حبًا شديدًا تركت في نفسه أثرًا من الحزن لا يبلى ، وملأت فضاء حياته همًا ونكدًا ، وكان يجد بعض العزاء عن ذلك الهم الذي نزل به في حنان أبيه عليه وعنايته به ، حتى تزوج من تلك المرأة اليونانية وأسلم إليها نفسه وقلبه ، ففقد بفقد عطف أبيه عليه وحنان أمه كل أمل له في الحياة ، وأصبح يشعر في نفسه بذلة اليتم التي يشعر بها أولئك المساكين المنقطعون الذين لا يجدون بين أيديهم قلوبًا راحمة ولا أفئدة عاطفة !

فكان يخاطر بنفسه في المعارك التي يحضرها مخاطرة اليائس المستقتل راجيًا أن يريحه الموت من هموم نفسه وآلامها ، فزج بنفسه ذات يوم في معركة كبرى استبسل فيها استبسالاً عظيمًا ، واستقتل معه جنده يطلبون الموت حيث يطلبه ، فلم يبلغ أمنيته التي يتمناها ولكنه انتصر في تلك المعركة انتصارًا باهرًا ، وأنقذ من يد الترك شعب « تراجان » وكان الملجأ العظيم لهم والمركز الأكبر لحركاتهم وأعمالهم .

وإنه ليتأثر الجيش المنهزم ويشتد في أعقابه إذ لمح على البعد فارسًا تركيًا قابضًا بيده على شعر فتاة مسكينة ، يريد اقتسارها وإكراهها على الركوب معه وهي تمتنع وتتأبى وتحاول الإفلات من يده فيضربها بسطوه ضربًا مؤلمًا وجيعًا ؛ فأزعجه هذا المنظر وآلمه فركض جواده حتى أدرك ذلك الفارس فضربه على هامتة بسيفه ضربة قضت عليه ،

فركعت الفتاة بين يديه ضارعة تسأله أن ينقذها من شقائها ويقودها معه إلى حيث يشاء ، فرثى لحالها وأحزنه منظرها دون أن يعلم من أمرها شيئًا ، فأردفها خلفه وركض بها حتى بلغ موضع الخيام ، فتركها بين الأسرى وعاد من تلك الموقعة ظافرًا منصورًا ، يهنئه الشعب ويهتف له في كل مكان يمر به ، حتى وصل إلى القلعة الكبرى ، فدخل على أبيه وألقى بين يديه الأعلام التي غنمها في المعركة ، فأمر برانكومير بقتل الأسرى ، وكان ذلك شأنه فيهم كلما قدموا إليه ، حتى جاء دور الفتاة . فجثت بين يديه ومدت إليه يدها مستغيثة تطلب العفو وتقول له : إنها فتاة نورية مسكينة لا شأن لها في الحرب ولا علاقة لها بأهله ، وأن أمها باعتها منذ عامين إلى جندي تركي أساء عشرتها وعذبها عذابًا أليمًا حتى قيض الله لها هذا الفتى الكريم فاستنقذها من يده ، وأشارت إلى قسطنطين .

فركع قسطنطين بجانبها وسأل أباه العفو عنها وقال له : إنني قد أنقذت حياتها بالأمس فأنقذ أنت حياتها اليوم واجعلها حصتي الوحيدة من الغنيمة ، وأعدك أني لا أطلب غنيمة سواها ، فأحفظ ذلك قلب الأميرة بازيليد زوج أبيه ، وكانت حاضرة تسمع حديثه فنظرت إليه نظرة الازدراء والاحتقار ـ وكان هذا شأنها معه كلما التقت به ـ وأنشأت تنعي عليه اهتمامه بشأن فتاة نورية راقصة طريدة غابات وفلوات وربيبة حانات ومعسكرات ،

وقالت له : لقد كان جديرًا بك وأنت ذلك الجندي الشريف سليل ذلك القائد العظيم والأمير الجليل أن تلقي بمثلها إلى حارس من حراس بابك أو جندي من جنودك يتلهى بها كما يتلهى الكلب بالعظمة المطروحة تحت أرجله ، بدلاً من أن تصل حياتك الشريفة الطاهرة بحياتها الدنيئة الساقطة .

فثارت ثورة الغضب في نفسه وأضغنه عليها هذا الرياء الكاذب والشرف المتكلف ، وكان يعلم من شؤون نفسها وخبايا قلبها ما لا تظن أنه يعرف شيئًا منه ، فنظر إليها نظرة شزراء ملتهبة ، وقال لها وهو يعلم أن ما سيقوله سيغضبها ، ويؤلمها ويملأ صدرها غصة وحنقًا : «إن الله لم يخلق الضعفاء والمساكين ليكونوا ترابًا لنا تدوسه أقدامنا وتطؤه نعالنا كلما وجدنا إلى ذلك سبيلاً ولم يمنحنا القوة والعزة لنتخذ منها أسواط عذاب نمزق بها أجسامهم ، ونستنزف بها دماءهم ، وكل ذنوبهم عندنا أنهم أذلاء مستضعفون لا يملكون من القوة والعزة مثل ما نملك ولا يذودون عن أنفسهم بمثل ما نذود .

وأحسب أنهم لو كانوا أقوياء أو أعزاء مثلنا أو أغر وأقوى منا لخفناهم واتقينا جانبهم ونظرنا إليهم بعين غير العين التي ننظر بها إليهم اليوم ، لأن القوي الذي يتنمر على الضعفاء لابد أن يكون جبانًا ذليلاً أمام الأقوياء .

إننا الآن في حرب مع عدو قاهر جبار ننقم منه جوره وظلمه واستضعافه إيانا واستطالته علينا بقوته وكثرته ، فجدير بنا ألا نفعل ما ننقمه منه ونأخذه به ، عسى أن يرحمنا الله وينظر إلينا بعين عدله وإحسانه ، وينتصف لضعفنا من قوته ، وقلتنا من كثرته !

إننا لا نحمل هذه السيوف على عواتقنا لنقتل بها النساء والأطفال والضعفاء والعزل الذين لا سلاح لهم ولا قوة في أيديهم ، بل لنقارع بها الأبطال والأكفاء في ميادين الحروب ومواقف النزال .

إني لا أعرف شرفًا غير شرف النفس ، ولا نسبًا غير نسب الفضيلة وإن هذه البائسة المسكينة التي تحتقرونها وتزدرونها لم تصنع ذنبها بيدها ، ولا سعت إليه بقدمها ، بل هكذا قدر لها أن تنبت في هذا المنبت القذر الوبيء ، فوبئت وقذرت ، وليس في استطاعتها أن تعود إلى العدم مرة أخرى لتخلق نفسها خلقًا جديدًا في جو غير هذا الجو وتربة غير هذه التربة ، فما هو ذنبها وما هي جريمتها ، وأي حيلة لها في هذا المصير الذي ساقها القدر إليه؟

إنما الإثم على الذين يقترفون الذنوب وهم يعلمون مكانها من الرذيلة ومكان أنفسهم من اقترافها ، ويحوّلون زمام حياتهم بأيديهم من طريق الخير إلى طريق الشر ، إيثارًا لها وافتتانًا بها ؛ أولئك هم الآثمون المذنبون الذين يجدر بنا أن نقسو عليهم ونشتد في مؤاخذتهم ، أما الضعفاء والمساكين الذين لا حول لهم في شأن أنفسهم ولا حيلة ، فهم برحمتنا وعطفنا أحق منهم بعتبنا ولومنا ، فإن وجدنا السبيل إلى معاونتهم ومساعدتهم

واستنقاذهم من وهدة الشقاء التي هووا فيها فذاك ، أو لا ، فلندعهم وشأنهم تذهب بهم المقادير حيث شاءت من مذاهبها ، ولا نزدهم بكبريائنا واستطالتنا بؤسًا على بؤسهم ، وشقاء على شقائهم .

إننا ما أصبنا بما أصبنا به من هذه النكبة الشعواء والداهية الدهياء التي نزلت بنا منذ عشرة أعوام ما تفارقنا ولا تهدأ عنا ، إلا من ناحية كبريائنا وخيلائنا واعتدادنا بأنفسنا في جميع شؤوننا وأعمالنا ، واحتقار غنينا لفقيرنا ، وقوينا لضعيفنا ، وسيدنا لمسودنا ، فسلط الله علينا ذلك العدو القاهر الذي لا يعتمد في جميع شؤونه ومواقعه إلا على قوته وأيده ، لأننا لم نعتمد في يوم من أيام حياتنا في جميع صلاتنا وعلائقنا إلا على قوتنا وأيدنا ، والجزاء من جنس العمل

فاصفر وجه بازيليد واربدت شفتاها ، وكأنما خيل إليها أنه يلمزها ويريبها ويشير في حديثه إلى ماضيها القديم وحوادث صباها السالفة ، فصمتت ولم تقل شيئًا ، إلا أنها انتحت ناحية وأخذت تبكي وتنتحب ـ والدموع هي السلاح الوحيد الذي تعتمد عليه المرأة في جميع شؤونها وعلائقها ـ فعظم الأمر على برانكومير ، وأكبر أن يخاطب ولده زوجته المحبوبة هذا الخطاب الجافي الغليظ ؛ فأنحى عليه باللائمة الشديدة

وقال له : إنك لم تسيء إلى نفسك في تنزلك إلى حماية هذه النورية الساقطة واهتمامك بشأنها ، بقدر ما أسأت إلى أبيك في مجابهة زوجته ومغايظتها وسوء الرد عليها بهذه اللهجة الشديدة القاسية ولولا هذه الرايات الحمر التي ألقيتها اليوم تحت قدميّ بأهلتها البيضاء لما اغتفرت لك هذه الجريمة التي اجترمتها ؛ فاذهب لشأنك ولا تعد إلى مثلها .

كذلك تم لقسطنطين ما كان يريده من إنقاذ تلك الفتاة المسكينة من يد الموت بعدما أنقذها من يد الشقاء ، فذهب بها إلى الجناح الذي يسكنه من القلعة ، وجلس إليها يحادثها في شأنها وشأن ماضيها ، ويسائلها عن دينها ومذهبها ووطنها وقومها ، فلم يرَ بين يديه إلا فتاة ساذجة جاهلة لا تعرف لها وطنًا ولا بيئة ولا تدين بدين من الأديان ولا مذهب من المذاهب ، ولا تفهم من شؤون حياتها إلا أنها فرد مبهم من أفراد هذا المجتمع المائج المضطرب ، تمتد بامتداده وتنحسر بانحساره لا تعرف الآمال ، ولا تفكر في المستقبل ، ولا تحفل بالماضي ، ولا يتسع عقلها لأكثر من الساعة التي تعيش فيها ، ولا تتألم إلا كما يتألم الأطفال ، ولا تفرح إلا كما يفرح المجانين ، قد صفت نفسها من كل شائبة من شوائب النفوس البشرية ، فلا تحقد ولا تغضب ولا تكره ولا تحسد ولا تطمع ولا تتطلع ، ولا تشغل ذهنها بترتيب الصور والأفكار واستنتاج النتائج من المقدمات ، فأصبح ينظر إليها نظر الأب الرحيم إلى طفله اللاعب بين يديه ، وأصبحت تجلس تحت قدميه جلسة الكلب المخلص تحت قدمي سيده ،

ولا تحدثه حتى يحدثها ولا ترفع نظرها إليه حتى يناديها ، وكان يقول في نفسه كلما نظر إليها وإلى سذاجتها وطهارتها وبلاهة عقلها وغفلته : أهكذا قضى على الإنسان في هذه الحياة ألا تخلص نفسه من شوائب الرذيلة والشر حتى يسلب عقله وإدراكه قبل ذلك ، وألا يمنح مقدارًا من الصدق والشرف حتى يحرم في مقابله مقدارًا من الفطنة والذكاء ، فليت شعري هل عجزت الطبيعة عن أن تجمع للمرء بين هاتين المزيتين : مزية العقل الذي يعيش به والخلق الذي يتحلى بحليته ، أو أن الله في ذلك حكمة لا نعلمها ولا ندرك كنهها؟

وكأنما كان يشعر في نفسه باقتداره على أن يجمع لتلك الفتاة المسكينة بين هاتين الفضيلتين ، وأن يصوغ من نفسها ذلك المثال الغريب الذي عجزت يد الطبيعة عن صياغته ، فبدأ يهتم بشأنها اهتمامًا عظيمًا ، ويتبسط معها في الحديث تبسط النظير مع نظيره ذاهبًا معها في كل واد من أوديته ، معنيًا كل العناية بتثقيفها وتعليمها وإنارة ما أظلم من بصيرتها ، ولكن بأسلوب غير الأسلوب الذي كان يعمله به معلمه في المدرسة ، فأرشدها إلى وجود الله لا من طريق البراهين الجدلية والقضايا الكلامية بل من طريق الآثار ، والمصنوعات الناطقة بجمالها ولطف تكوينها عن قدرة صانعها وإبداع خالقها ، وأرشدها إلى الفضيلة من طريق الفضيلة نفسها لا من طريق الترغيب في الثواب والتخويف من العقاب ليكون أدبها أدب نفس لا أدب درس ، ولتمتزج الفضيلة بنفسها امتزاجًا لا تزعزعه عواطف اليأس ولا عوامل الرجاء ،

فكانت تعجب لحديثه ومراميه عجبًا شديدًا ، وتجد فيه من اللذة والغبطة ما لا تذكر أنها شعرت بمثله في حياتها في حديث أي متحدث يتحدث إليها ، وتعجب أكثر من كل شيء لتنزل مثل هذا الأمير الجليل والسيد الشريف إلى مجالستها ومثافنتها والنزول عن حكمها فيما يغضبها ويرضيها ، فقالت له مرة وهي تحاوره : إنك تحدثني يا مولاي كأنك لا تعرف من أنا ، قال : إني أعرفك كما تعرفين نفسك ، وأعرف أنك أختي في الإنسانية وهي الأم الرؤوم التي لا يستطيع أحد من بنيها أن يمت إليها بأكثر مما يمت به إخوته ، وما للأخت ملجًا تلجأ إليه في شدتها غير عطف أخيها وحنانه عليها ، قالت : ولكنك تعلم أني فتاة مذنبة ساقطة . قال : كل الناس مذنبون آثمون ، وإنما تختلف صور الذنوب وأشكالها وأساليب اقترافها . قالت : لم أرَ في حياتي منذ نشأت حتى اليوم عفيفًا قط ابتسم في وجهي! قال : ذلك لأن الناس مراؤون مخادعون يزعمون لأنفسهم من الفضائل والمزايا ما تنكره نفوسهم عليهم ، فهم يحتقرون المذنب ويزدرونه ، لا لأنهم أطهار أبرياء كما يزعمون ، بل ليوهموا الناس أنهم غير مذنبين ، ولو أنهم تكاشفوا وتصارحوا وصدق كل منهم صاحبه الحديث عن نفسه لتتاركوا وتهادنوا ولما أخذ أحد منهم أحدًا بذنب ولا جريرة!

وكذلك أصبحت « ميلتزا » العزاء الوحيد لقسطنطين عن همومه وآلامه فقد وجد بين جنبيها تلك النفس الطاهرة البريئة التي طالما نشدها قبل اليوم فأضلها وتطلبها فأعياه طلابها ، ووجد في صدرها ذلك القلب المحب المخلص الذي بكاه وندبه ندبًا شديدًا يوم ماتت أمه ، ويوم تولى عنه حنان أبيه ؛ وكان يتحدث معها في كل شيء من شؤون الحياة دقيقها وجليلها ، ويفضي إليها بكل خبيئة من خبايا نفسه ، إلا ذلك الهم العظيم الذي كان يعالجه في أطواء نفسه وأعماقها ، ويكابد منه ما يقلق مضجعه ويصل ليله بنهاره ، وهو استحالة حال أبيه وانتقاض قلبه عليه ، وانقياده ذلك الانقياد الأعمى إلى تلك الفتاة اليونانية الدخلية التي لا يعنيها من شأنه سوى أن تتخذ من عاتقه سلمًا تصعد عليه إلى سماء المجد ، ثم لا تبالي بعد ذلك أن تدفعه بقدمها بعد بلوغ غايتها فيسقط في الهوة التي قدر له أن يهوي فيها ، إلا أن ميلتزا الذكية بفطرتها ، المتفانية في حبها وإخلاصها ، لم يكن يفوتها أن ترى بعين فطرتها وذكائها في تلك الزاوية المظلمة من زوايا قلبه ، ذلك الهم الخفي المتكن ، وكان يساعدها علي فهمه واستكناهه تلك الأحاديث التي كانت تسمعها تدور من حين إلى حين بين القائد وزوجته عندما كان يمران بها أو يقفان على مقربة منها وهي جالسة تحت بعض الجدران أو في ظلال بعض الأشجار لا يحفلان بها ولا يلقيان بها بالاً ، فقد سمعته مرة يقول لها : إنني أحبك يا بازيليد حب المرء نفسه التي بين جنبيه ،

ولقد عشت حياتي كلها قانعًا من العيش بتلك اللذة الوحشية الدموية ، القتل والأسر وسفك الدماء وتقطيع الأوصال حتى رأيتك تتطلعين إلى تاج الملك وتشتهين أن تضيعيه فوق رأسك فأحببته من أجلك ، وأصبحت لا أقترح علي الدهر أمرًا سوى أن أرى تلك الجبهة اللامعة المضيئة يتلألأ فوقها ذلك التاج المرصع البديع فلا تيأسي منه ولا تقنطي ، واعلمي أني سآتيك به وإن كان كوكبًا نائيًا في آفاق السماء ، أو درة راسبة في أعماق البحار ، وسمعتها مرة تقول له : ما أجمل وجهك يا برانكومير ، وما أبدع ضياءه ولألاءه ، وما أنصع هذه الشعور البيضاء التي تدور به دورة الهالة بالقمر! وما أجمل تاج الملك يوم وضع على رأسك فتتحد الأضواء الثلاثة جميعها ويموج بعضها في بعض فتتراءى في أجمل شكل وأبدع منظر ؟! إنك ستكون ملكًا يا مولاي! وستكون أعظم ملوك العالم شأنًا وأرفعهم مقامًا ، وستجتمع فوق عرشك الرفيع الأمجاد الثلاثة : مجد النسب ، ومجد الحروب ، ومجد الملك ، وقد ألقى الكاهن في نفسي كلمته التي تنبأ لي بها ، وما هو بالكاذب ولا المجنون ، فكن على ثقة من صدقه وحكمته ، واعلم أنه ليس بينك وبين التاج إلا خطوة واحدة ، فأخصها بهمة وعزيمة تبلغ الغاية التي تريد . وسمعتها مرة تقول له : إنني لا أخاف على أملنا أحدًا من الناس سوى ولدك قسطنطين ، فقد علمت أمس من بعض أصدقائه أنه ينكر عليك كل الإنكار هذا المسعى الذي تسعاه اليوم ، كما سمعت أنه يثبط الناس عنك ويزحزحهم من حولك ويلقي في قلوبهم اليأس من نجاحك ، ولقد حدثني عنه بعض الناس أن ذاكرًا ذكر له مرة ولاية العهد مهنئًا إياه بها ،

فغضب واحتد وتغيظ عليه تغيظًا شديدًا وقال له : إنني جندي ولدت في ساحة القتال وسأموت فيها ، وإن كلمة كهذه الكلمة المؤثرة يقولها أمير مطاع في الجيش وللشعب كولدك ، لابد أن تترك أثرًا سيئًا في نفوس الناس جميعًا وتفت في عضد أنصارك وأعوانك ، وربما كانت سببًا في القضاء على آمالك وأمانيك . ولا أعلم لخطته هذه سببًا سوى تلك البغض الشديد الذي لا يزال يضمره لي في أعماق قلبه مذ دخلت بيتكم حتى اليوم ، وما أذنبت إليه ذنبًا ولا أسلفت عنده جريرة ، فهو يؤثر أن يحرم نفسه وبيته ذلك الشرف العظيم الخالد على أن يراني جالسة على العرش بجانبك أستظل بظل نعمتك وأشاركك في التمتع بمجدك وسلطانك . فقاطعها الأمير وقال لها : لا تصدقي يا بازيليد شيئًا مما يقولون ، فقسطنطين أبر بي وأعظم حبًا وإخلاصًا من أن يعترض سبيل رغبة يعلم أني أرغبها وأصبو إليها ، ولا أعلم أن يبغضك أو يضمر لك في نفسه شيئًا من الشر الذي تذكرين ، بل هو يحترمك ويجلك إجلاله إياي ، ويحب لك من الخير ما يحب لي ولنفسه ولا يؤثر على مرضاتنا شيئًا . وكذلك ظلت ميلتزا تسمع أمثال هذه الأحاديث فتعلم منها ما يدور بنفسي هذين الشخصين الطامعين . وتعلم أن هذا الذي يدور بنفسيهما إنما هو علة ذلك الهم الذي يعالجه قسطنطين في أعماق قلبه ويكابده ؛ ولكن لم يخطر ببالها مرة أن تنقل إليه شيئًا مما سمعته ، إعظامًا له وإجلالاً ، وضنًا بنفسها وبأدبها أن تفاتحه في أمر لم يشأ هو أن يفاتحها فيه .

التاج

جاء اليوم المعين لاجتماع الجمعية الوطنية للنظر في انتخاب الملك الجديد فنظرت في المسألة نظرًا خالصًا مجردًا عن الميل والهوى فرأت أن العدو لا يزال على الأبواب ، وأنه لا يزال قوي الشكيمة صعب المراس ، وأن الوطن يحتاج إلى الأمير برانكومير قائدًا أكثر مما يحتاج إليه ملكًا! وأن الأسقف «أتين» أعظم رجال المملكة عقلاً وأسماهم إدراكًا وأقواهم سلطانًا على نفوس الجيش والشعب ؛ فقررت تقليده ملك البلقان ، وأعلنت قرارها في جميع أنحاء المملكة فقابله الشعب بالرضا والتسليم ، ولم يختلف عليه إلا العدد القليل من أشياع القائد وأنصاره .

ثم أقيمت حفلة التتويج بعد أيام ، فحضرها جميع وجوه المملكة وعيونها ، ورجال السياسة والجيش ، ما عدا القائد برانكومير ، فلم يأخذه الملك بهذه الهنة ، بل أعتبه وأعطاه من نفسه الرضا ، ولم يقنع في أمره بذلك حتى أعلن عزمه على السفر إلى الحدود لزيارته في قلعته ، وما لبث أن سافر في جمع من حاشيته وجنده ، وكانت رسله قد تقدمته لإنباء القائد بمقدمه ، فامتعض لذلك وتمرمر ، وكانت تحدثه نفسه أن يسافر إلى بعض الجهات حتى لا يستقبله عند قدومه ، لولا أن أشارت عليه بازيليد بغير هذا الرأي ، فأذعن لها راغمًا ، ونزل لانتظاره أمام باب القلعة حتى حضر ، فحيّاه الملك حين رآه تحية الإجلال والإعظام وعانقه عناقًا طويلاً ، وقال له : أما الملك الجالس على عرش البلقان وصاحب الأمر والنهي فيه فهو أنت يا برانكومير ،

أما أنا فإني خادمك الأمين المخلص القائم بتنفيذ أوامرك وتجييش الجيوش لك وإمدادك بما تحتاج إليه من العدة والمؤونة ، واعلم أن الأمة لم تضن عليك بالعرش والتاج ولا رأت أن أحدًا أجدر بهما منك ، ولكنها ضنت بك أنت ـ وأنت حصنها المنيع ودرعها الواقية وبطلها الذي لا يغني غناءه في موقعه أحد ـ أن يشغلك شاغل الملك عن شأنك الذي أنت فيه والذي نصبت له نفسك طوال حياتك ، فآثرت بقاءك في هذه القلعة تحميها وتحمي الملكة بحمايتها ، فإن لم تكن الملك الجالس على عرش «فيدين» فأنت الملك المتبوئ عرش الأفئدة والقلوب ، واعلم أنني ما قدمت إليك مقدمي هذا لأعتذر عندك من ذنب أذنبته إليك ، أو لأتوجع لك من كارثة نزلت بك ؛ لأني أعلم أنك أجل وأرفع من أن تعتبر عبء الملك وهمه نعمة تأسف على فقدها ، بل جئت لأباركك وأمسحك وأدعو لك الله أن يمدك بروح من عنده حتى يتم لنا على يدك النصر الذي نرجوه لأنفسنا فيأمن البلقان أبد الدهر أن تخفق على ربوعه بعد اليوم راية غير راية المسيح ، أو يرن في أجوائه صوت غير صوت الله .

ثم تقدم نحوه ووضع يده على رأسه يباركه ويصلي له ، وبرانكومير يتميز غيظًا وحنقًا ، ولكنه يتجلد ويستمسك ، حتى فرغ الأسقف من شأنه فلم يرَ بدًا من أن يستقبل حفاوته بمثلها ، فمد إليه يده وهنأه بالملك واعتذر إليه من تقصيره في حضور حفلة التتويج ، فقبل عذره وقضى بقية يومه عنده هانئًا مغتبطًا لا يرى إلا أنه قد أرضاه ومحا أثر ذلك العتب من نفسه .

ثم عاد بموكبه راضيًا مسرورًا ، فشيعه القائد إلى ضاحية المدينة ولبث واقفًا مكانه ساعة ينظر إلى ذلك الموكب الفخم العظيم ، ويسمع موسيقاه الشجية الجميلة ، حتى غاب عن بصره ، فانقلب إلى قصره ثائرًا مهتاجًا يصيح ويجأر ويهذي هذيان المحموم ، حتى بلغ غرفته الخاصة فوقف بجانب نافذة عالية مشرفة على الجماهير الغادية والرائحة في طرقها ومذاهبها ؛ وأنشأ يحدث نفسه ويقول :

تبًا لك أيها الشعب الخائن الغادر ، لقد جازيتني شر الجزاء على عملي ، وكفرت بنعمتي التي أسديتها إليك ، ويدي التي اتخذتها عندك ، وأيام كنت أسهر لتنام ، وأشقى لتسعد ، وأقضي ليالي الطوال سجينًا في قلعتي لا أبرحها ولا أنتقل منها لأدبر لك أمر الحماية التي تحميك وتصون أرضك وديارك ، وأنت لاه ولاعب ، هانئ مغتبط ، يمرح عامتك في منازعهم ومسارحهم ليلهم ونهارهم ، ويقيم خاصتك حفلات الرقص والغناء في قصورهم وأنديتهم ، فكان جزائي عندك أن ضننت عليّ بالعرش الذي أنا عماده وملاكه وحامل قوائمه وعمده ، وآثرت به كاهنًا مأفونًا لا شأن له في حياته سوى أن يمسح رؤوس الأطفال ويهمهم حول أسرة الموتى ، فبئس ما جررت على نفسك من الويل في فعلتك التي فعلت ، وبئست الساعة التي رأيت فيها هذا الرأي الفائل الخطل

لقد فللت بيدك سيفك الذي كان يحميك ويصونك وأطفأت جذورة الحماسة في صدر قائدك الذي كان يذود عنك وعن عرضك ، ويحمي أرضك وديارك ؛ فابتغ لك بعد اليوم قائدًا يتولى حمايتك وصيانتك ، أو فاطلب إلى أسقفك التقي الصالح الذي توجته بيدك واخترته بنفسك لنفسك أن يستنزل لك بدعواته النصر من آفاق السماء!

وإنه ليردد في موقفه أمثال هذه الكلمات وينفث سموم الحقد والشر على العالم بأجمعه ، إذ دخلت عليه الأميرة باسمة متطلقة تختال في حللها وحلاها ، فأخذت بيده وقالت له : أرفق بنفسك يا برانكومير ، واعلم أن نبوءة الكاهن لا تكذب ولا تخيب ، أبشّرك أنك ستكون بعد شهر واحد ملكًا على البلقان ولا تسألني كيف يكون ذلك! فدهش لأمرها وحاول أن يسألها عن معنى كلمتها ومأتاها فلم تمكنه من ذلك ، لأنها تهافتت عليه واعتنقته ووضعت على فمه قبلة شهية أطفأت بها جذوة حدته وغضبه ثم أفلتت من يده وعادت أدراجها .

■ ■ ■

المؤامرة

اضطجعت بازيليد في سريرها وجلست خادمتها صوفيا تحت قدميها تروح لها بمروحتها وتحدثها حديث تلك الآمال الحسان التي لا تزال تتراءى لها في يقظتها وتحلم بها في منامها ، وإنهما لكذلك إذ قرع الباب قرعًا خفيفًا فعرفت صوفيا من القارع وفتحت له ، فإذا «بانكو» الجاسوس التركي متنكرًا في زي الموسيقار المسكين ، فدخل وحيّا الأميرة تحية الإجلال والإعظام ، ثم أخذ مقعده الذي كان يقتعده في الغرفة كل ليلة ، وأنشأ يضرب على قيثارته قطعة رومانية جميلة من تلك القطع التي كان أعدها منذ عهد طويل ليخلب بها لب تلك المرأة ويستهويها حتى أتمها ، فطربت لها طربًا شديدًا ، ثم دعت خادمتها فأرسلتها في بعض الشؤون . فلما خلا بها المكان ألقى الموسيقي قيثارته جانبًا وخلع عنه رداء التنكر ، ثم مشى إلى سريرها فجلس بجانبها وقال لها : ماذا تم في المسألة يا بازيليد؟ فقد طال مقامي في هذا البلد وأخشى أن يرتاب بي أحد ، وليس في استطاعتي أن أبقى هنا أكثر من ثلاثة أيام ثم أنصرف لشأني .

فاعتدلت في جلستها وقالت له : لقد فاتحت الأمير ليلة أمس في المسألة وعرضت عليه مقترحك الذي اقترحته ، فأصغى إلى حديثي في مبدأ الأمر ثم لم يلبث أن اكفهر وجهه واكتأب وأبى أن يقبل مني كلمة واحدة في هذا الشأن وظل يقاطعني ويعارضني معارضة شديدة ؛ فلم أشأ أن ألح عليه مخافة أن يرتاد بي وبمقصدي ،

وسأستأنف معه الحديث الليلة بعد رجوعه من المعسكر ، وأرجو أن ينتهي بإذعانه وتسليمه ، ولا يفُتك يا سيدي أن من أصعب الأمور على رجل شريف عظيم مثل برانكومير أن يتحول في ساعة واحدة عن أخلاقه وطبيعته ، وأن ينقلب فجأة من رجل وطني مخلص يبذل دمه وحياته في سبيل الدفاع عن وطنه والذود عنه ، إلى خائن سافل يبيع ذلك الوطن العزيز عليه من أعدائه بعرض تافه من أعراض الحياة ، فلابد من مهادنته ومؤاتاته وأخذه بالروية والتؤدة .

قال : ليس في الأمر خيانة ولا دناءة ، ولا بيع وطن ولا أمة فإنا لا نريد أن ندخل بلادكم مستعبدين أو مسترقين ، بل أصدقاء مخلصين ، وما خطر ببالنا قط حينما فكرنا في افتتاح بلادكم والنزول بها أن نصادركم في حريتكم الدينية والاجتماعية ، أو نسلب أموالكم وننتهك أعراضكم ، أو نغلق أبواب كنائسكم ومعابدكم ، أو نخرس أصوات نواقيسكم وأجراسكم ، بل لنكون أعوانكم على ترقية شؤونكم الاجتماعية والاقتصادية ، والسير بكم في طريق المدنية الأدبية والسياسية ، حتى تبلغوا الذروة العليا منهما ، ولنحميكم فوق ذلك من أعدائكم المجريين الذين يطمعون في امتلاك بلادكم واغتيالها ، وندفع عنكم شرورهم ومطامعهم ، فنحن أصدقائكم المخلصون الأوفياء من حيث تظنون أننا أعداؤكم وخصومكم .

فابتسمت بازيليد ابتسامة الهزء والسخرية ، ونظرت إليه نظرة عتب وتأنيب وقالت له : إن برانكومير يا صديقي ليس موجودًا معنا لنخدعه بأمثال هذه الأساليب الكاذبة ، أما أنا فإني لا أنخدع بها ولا أغتر ، لأني أعلم كما تعلم أنت وكما يعلم الساسة الكاذبون جميعًا أن الفاتحين من عهد آدم إلى اليوم وإلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، لا يفتحون البلاد للبلاد بل لأنفسهم ولا يمتلكونها لرفع شأنها وإصلاح حالها والأخذ بيدها في طريق الرقي والكمال كما تقول ، بل لامتصاص دمها وأكل لحمها وعرق عظمها وقتل جميع موارد الحياة فيها ، والأمة إن لم تتول إصلاح شأنها بنفسها لا تصلحها أمة أخرى ، مهما حسنت نيتها ونبل مقصدها ؛ والصلاح إن لم ينبت في تربة الأمة نفسها ويزهر في جوها ويأتلف مع مزاج أفرادها وطبيعتهم لا ينفعها ولا يجدي عليها ، ويكون مثله مثل الزهرة التي تنقل من مغرسها إلى مغرس آخر ، فهي تزهر فيه أيامًا قلائل ثم لا تلبث أن تذبل وتذوي .

فإن وجد بين أولئك الطامعين من يذهب في سياسته الاستعمارية مذهب الإصلاح والتشييد ، فكما يسمن صاحب الشاة شاته ليذبحها ويأكلها ، وكما يتعهد صاحب المزرعة مزرعته بالري والتسميد ليستكثر غلتها وثمراتها .

أما الحرية الدينية التي تريدون أن تمنوا بها علينا فما أهونها عليكم ما دامت لا تعطل لكم غرضًا ، ولا تقف لكم في سبيل مطمع ، وقديمًا كان الفاتحون يخدعون الشعوب الجاهلة بإرضائها في شؤون دينها ليسلبوا شؤون دنياها ويوجهون نظرها إلى الشؤون الروحية الخالصة ، ليقطعوا عليها طريق النظر في الشؤون المادية الحيوية ، فكان مثلهم في ذلك مثل اللص الذي يدس لمن يريد سرقته مادة مخدرة في طعامه لا تكلفه إلا ثمنًا يسيرًا ليستولي على الجم الكثير من دنانيره ودراهمه ، على أن القوة الدينية في الأمة أثر من آثار القوة السياسية فإذا ضعف أمر الأمة في سياستها ضعف أمرها مع الأيام في دينها ، ولا بقاء لدين من الأديان يعيش تحت سلطان دين آخر ويستظل برايته ، إلا كما يبقى الثلج تحت أشعة الشمس وحرارتها ، ومن ظن غير ذلك فعلى عقله العفاء !

أما حمايتكم إيانا من أعدائنا فليس لنا على وجه الأرض عدو سواكم فاحمونا من أنفسكم قبل أن تحمونا من غيركم ، وهب أن المجرمين أعداؤنا كما تقولون ، فهل يطمعون في شيء أكثر مما تطمعون فيه أنتم؟ وهل يحاولون منا غير هذا الفتح الذي تحاولونه اليوم؟ وهل من الرأي أن يهب الإنسان متاعه رجلاً مخافة أن يغلبه عليه رجل آخر؟ أو أن يذبح نفسه بيده فرارًا من ذابح يريد أن يذبحه؟

إنكم ما جئتم هنا لتحمونا من أعدائنا ، بل لتحتموا بنا من أعدائكم لأنكم إنما أردتم بامتلاك هذه البلاد واستعمارها أن تتخذوا من حصونها وقلاعها وجبالها وأسوارها ودماء أبنائنا وأرواحهم وقاية لكم تتقون بها زحف المجرمين عليكم وعدوانهم على أرضكم .

هذه هي الحقيقة التي لا ريب فيها فإن كنت تريد بما قلته أن تعلمني ما ألقنه لذلك الرجل الذي اتفقنا على خداعه وختله ، فإنني أحفظ كثيرًا من أمثال هذه الرقى والتعاويذ ، فلا حاجة بي إلى سماعها منك ، فلنعمل في المسألة معًا متكاشفين متصارحين . ولتعلم أن الذي أسعى لإعطائك إياه وتسليمك زمانه إنما هو الوطن بأجمعه : أرضه وسماؤه ، وبره وبحره وخيراته وثمراته ، وحرية أهله وسعادتهم ، وأن الثمن الذي أتقاضاه في سبيل ذلك ثمن بخس ضئيل لا يزيد عن كرسي من الخشب مموه بالذهب يسميه الجهلاء عرشًا وهو في البلد المغلوب على أمره المسلوب حريته واستقلاله سجن ضيق ، لولا خدع الحياة وأكاذيبها لما استطاع الجالس عليه أن يهدأ ساعة واحدة ، فأنا أبيعك هذا الوطن الثمين وآخذ منك ذلك الكرسي الحقير ، وأنا عالمة قيمة ما أعطي وقيمة ما آخذ ، فلا تحسب أنك تخدعني أو تداهنني في هذه الصفقة ، وأقسم لك بشرفي وشرف «بيزنطة» لو كان هذا الوطن وطني وكانت تربته مدفن آبائي وأجدادي لما بعتك ذرة واحدة من ترابه بجميع عروش الأرض وتيجانها .

فاصفر الجاسوس واربد وجهه وقال : إننا ما اجتمعنا هنا لتفسير معنى الفتوح والاستعمار ، بل لأعرض على زوجك هذا العهد السلطاني بتقليده ملك البلقان وإلباسه تاجه إن هو تمكن من إخلاء التخوم من حراسها وسهل لجيشنا اجتيازها ، فإن قبل فذاك أو لا عدت بعد ثلاثة أيام إلى مركز الجيش ورفعت الأمر إلى سلطاني وقائدي وعادت الحرب إلى شأنها الأول أو أشد ، ولا يعلم إلا الله متى تنتهي وماذا تكون عاقبتها؟

فتناولت منه العهد وقالت له : سنلتقي بعد ليلتين أو ثلاث وسأخبرك بما تم عليه الاتفاق .

فقام إلى مكانه الأول وأخذ يضرب على قيثارته بعض الأناشيد الدينية ، وما هي إلا لحظة حتى عادت الوصيفة ، وكان الليل قد انتصف فاستأذن للانصراف وانصرف .

■ ■ ■

الأمل

الحب شقاء كله ، وأشقى المحبين جميعًا أولئك الذين يحبون بلا أمل ولا رجاء !

إنهم يذرفون دموعهم وهم عالمون أنهم يسكبونها في أرض قاحلة جدباء لا تنبت لهم راحة ولا سعادة ويسهرون لياليهم وهم يعتقدون أن ظلمتها لا تنحسر عن فجر منير أو صبح سعيد، ويطرقون برؤوسهم في خلواتهم لا ليفكروا متى تنتهي أيام شقائهم أو تبتدئ أيام سعادتهم فحياتهم كلها شقاء لا فرق بين أمسها وغدها وحاضرها ومستقبلها ، بل ليفروا متى يرحلون عن هذه الدار ليستريحوا من آلامها وهمومها فإن كان لابد لنا من أن نذرف قطرة من دموعنا على شقي في هذه الأرض ، فلنذرفها على والد ثكل ولده في ريعان شبابه أحب ما كان إليه ، وألصق ما كان بقلبه ، من حيث لا أمل له في رجعته ولا رجاء في لقائه ، أو عاشق علم في ساعة ما كان يتوقعها أن حبيبته قد تزوجت من غيره وأنها ستسافر اليوم أو غدًا إلى وطن ناء لا رجعة لها منه أبد الدهر فوقف أمامها يودعها وداعًا لا يقول لها فيه : إلى الغد أو إلى الملتقي ، ولا يأخذ عليها فيه عهدًا أو ميثاقًا ؛ بل يصمت صمتًا تذوب في كبده القريحة ذوبًا ، حتى إذا غابت عن بصره وانقطع آخر آثارها رجع أدراجه وهو يعلم أن لا نصيب له في العيش بعد اليوم ،

وأن هذا آخر عهده بالحياة ـ أو فتاة بائسة مسكينة كتب لها شقاؤها أن يعلق قلبها بعظيم من عظماء الحياة المدللين بأنفسهم ومكانتهم ، فلا تستطيع الصعود إليه في سمائه ، وليس من شأن مثله أن يهبط إليها في أرضها ، فهي تبكيه ولا يشعر ببكائها وهتف باسمه ليلها ونهارها ولا يسمع نداءها ، ولا يزال هذا شأنها حتى يوافيها أجلها فيريحها .

كذلك كان شأن ميلتزا ، فإنها أحبت سيدها حب العابد إلهه المعبود ، وافتتنت به افتتانًا كانت تحسبه في مبدأ أمرها عاطفة ولاء وإخلاص ، فإذا هو لوعة الحب وحرقة الغرام ، ولكن أنى لها وهي الفتاة النورية الساقطة المسكينة أن يمتد بها مطمعها إلى ذلك الكوكب النائي في سمائه أو أن تمت إليه بسبب من تلك الأسباب التي يمت بها الناس بعضهم إلى بعض ، فكانت وهي أقرب الناس إليه أبعد عنه وأنآهم من مكانه ، لا تستطيع أن تتجاوز في موقفها معه منزلة الخادم من المخدوم والسيد من المسود والصنيعة من صاحب النعمة .

وكان يقلقها أشد القلق ويكاد يذيبها حياء وخجلاً خوفها أن يطلع منها على سريرة نفسها ، أو أن يعثر يومًا من الأيام بتلك اللوعة المتأججة في صدرها ، فيتهمها في عقلها ويسخر بينه وبين نفسه بتصوراتها وآمالها ، فكانت تفر من نظراته كلما وقعت عليها حتى لا يرى في عينيها أثر الدمع ولا حمرة السهر . وتهرب من الخلوة به جهدها حتى لا يرتاب في اصفرار وجهها واضطراب أوصالها وذهول عقلها ولجلجة لسانها أي أنها كانت محرومة كل شيء حتى اللذة الضئيلة التي يتمتع بها أقل المحبين حظًا وأخيبهم في الحب سهمًا وهي الإفضاء بمكنون صدرها إلى ذلك الذي تحبه وتعبده ،

وكان كل ما يعرف قسطنطين من شأنها أنها فتاة مخلصة وفية تحبه حب العبد الشكور لسيده المنعم ، وكان يجد من بلاهتها وسذاجتها وطهارة قلبها ونقائه وصدق لسانها وإخلاص قلبها ملهاة يتلهى بها عن همومه وأحزانه ، ومتكأ يتكئ عليه في ساعات إعيائه ونصبه ، لا يزيد على ذلك شيئًا ، فكانت إذا جن الليل وأخذت الجنوب مضاجعها جلست في فراشها تساهر الكوكب وتطالعه وتزفر زفرات حرى موجعة ، وهي لا تعلم ماذا تشكو ، ولِمَ تبكي ! لأنها لا تعرف لها غرضًا ولا غاية .

ولو استطاعت أن تفهم من شؤون نفسها ، ما يفهم الناس من شؤون نفوسهم لعرفت أنها إنما تبكي على أن ليس لها في الحياة ، كما للناس ، أمل ولا رجاء .

هذا هو الحب الطاهر البرئ الذي لا تشوبه الأغراض والغايات ؛ ولا تحيط به الريب والشكوك . والذي طالما نشده الناس في كل مكان فأضلوه ، وذابت قلوبهم حسرة عليه فلم يجدوه ، وأي سعادة في الدنيا أعظم من سعادة نفس تجد بين يديها نفسًا طاهرة مخلصة تحبها وتعبدها ، وتمتزج بها امتزاج الماء بالخمر ، والأريج بالزهر ؟ ولقد ظفر قسطنطين من تلك الفتاة بهذه النفس المخلصة المتعبدة التي تحزن لحزنه وتفرح لفرحه ، وتغضب لغضبه ، وترضى لرضاه ، ولا تعرف لها وجودًا منفصلاً عن وجوده ،

ولا حياة مستقلة عن حياته ، فكانت منه بمنزلة المرآة من الوجه : تقطب إذا قطب ، وتبتسم إذا ابتسم ، وتطير فرحًا وسرورًا بانتصاراته ، وتذهب كمدًا وحزنًا لآلامه وأحزانه ، تحب أباه حبه إياه ، وتنفر من زوج أبيه نفوره منها وهو إن لم يكن يفاتحها في شأن من شؤونه الخاصة ، ولا يفضى إليها بسر من أسرار بيته وعلائق بعض أفراده ببعض ، إلا أنها كانت تشعر أن تلك المرأة اليونانية الدخيلة خطر عظيم على الوالد والولد ، بل على الأمة بأسرها . وكان شعورها هذا يقودها إلى مراقبتها وملاحقتها في كل مكان وترصد حركاتها وسكناتها علها تهجم منها على ذلك السر الهائل تتوهمه توهمًا ، ولا تعرفه ، فتكشفه وتمزق عنه الستار ، حتى واتاها القدر يومًا من الأيام فعثرت به .

■ ■ ■

السر

رجع قسطنطين من بعض غزواته ، فدخل على ميلتزا فرآها مطرقة واجمة ، فلم يلق لها بالاً وخلع رداءه ، ثم جلس على كرسيه جلسة الراحة والسكون ، وإنه لكذلك إذ طرق مسمعه صوت تلك القيثارة البديعة التي كان يسمعها من حين إلى حين تصدح في قصر أبيه ، فطرب لها طربًا شديدًا ، وافتر ثغره بعد عبوسه ، ثم نظر إلى ميلتزا ، وهي جالسة تحت قدميه ، فرآها مصفرة مغبرة الوجه ذاهلة ، كأنه نكبة من النكبات العظام قد نزلت بها . فعجب لأمرها ، وقال لها : ألا تطربين معي يا ميلتزا لهذه النغمات الشجية البديعة ؟! فرفعت رأسها إليه ، وكأن دمعة لامعة تترقرق في عينيها ، وقالت له : لا يا مولاي! فدهش لقولها وقال : ولِمَ؟ قالت : لأني لا أحبها! قال : ولِمَ لا تحبينها؟ قالت : لأني لا أحب صاحبها ، قال : وهل تعرفينه؟ أليس هو ذلك الرجل البائس المسكين الذي يختلف إلى الأميرة من حين إلى حين ليسمعها أناشيد قومها وأغانيهم فتعود عليه ببعض نوالها؟ قالت : إنه ليس بسائل يا سيدي ولا مسكين ، بل هو الضابط العظيم إبراهيم بك أحد قواد الجيش التركي ، فانتفض قسطنطين مذعورًا واستوى في مكانه جالسًا وقال : ماذا تقولين؟ قالت : إني كنت مخدوعة به قبل اليوم ، حتى رأيته ليلة أمس واقفًا تحت شجرة وارفة من أشجار الحديقة يصلي صلاة المسلمين مطرقًا خاشعًا مستقبلاً قبلتهم ، فارتبت في أمره ، ثم دنوت منه

وأمعنت النظر في وجهه من حيث لا يشعر بمكاني ، فعرفته وذكرت أنه ذلك البطل العظيم الذي كنت أراه في معسكر الجيش التركي لا يزال مرافقًا للقائد الكبير يسير في ركابه حيث سار وينتقل معه في غدواته وروحاته ؛ وإن غابت عني معرفته فلن تغيب عني معرفة تلك الشجة الهلالية الواضحة في جبينه ، وذلك الخال الأسود المرتسم تحت عينه اليسرى ، بل أعرفه من تلك النغمات الشجية التي يغنيها الآن .

وهنا توقفت عن الكلام ، واضطربت ، وكأن كلمة حائرة تختلج بين شفتيها ، فعجب قسطنطين لأمرها وسألها ما بالها؟ فأطرقت هنيهة ، ثم رفعت رأسها فإذا دمعة تنحدر على خدها ، واستمرت في حديثها تقول : نعم ، إنني أعرفه من تلك النغمات التي كان يدعوني إلى الرقص عليها في خيمته في المعسكر ، وهو جالس بين صحبه وخلانه من قواد الجيش ورؤسائه ، يغنيهم ويطربهم ، فأرقص أمامهم رقص الطائر المذبوح وفؤادي يتمزق لوعة وأسى ، لا أهن ولا أفتر ولا أستعفي ولا أعتذر ، مخافة أن يرى سيدي الجندي ذلك مني فيعاقبني ، فقد كان يحاسبني على الضعف والعجز والحياء والخجل والتلوم والاحتشام ، محاسبة القاضي المجرمين على الذنوب والآثام ، فاعذرني يا سيدي إن بكيت لحظة بين يديك ، فإنني وإن كنت ولدت في مهد الشقاء ، ونشأت في حجر البؤس والآلام ، فقد كانت تلك الأيام التي قضيتها في ذلك المعسكر أو في بؤرة السقوط والعار ، أشقى أيامي وأعظمها شدّة وبؤسًا ، لا أذكرها إلا بكيت لذكراها وأسبلت ردائي على وجهي حياء منها وخجلاً .

على أنني أحمد الله إليك ، فقد بسطت إليّ يد رحمتك وإحسانك ، واستنقذني من مخالب ذلك الشقاء أيأس ما كنت من الخلاص منه ، أحسن الله إليك وهون عليك همومك وآلامك .

وكانت تتكلم وقسطنطين لاه عنها بقصة ذلك الجاسوس ، لا يكاد يشعر بشيء مما حوله ، ثم التفت وقال لها : إذن هو جاسوس متنكر! قالت : ذلك ما أعتقده يا مولاي ولا أرتاب فيه . فظل يدور في الغرفة دورة الهائم المختبل لا يهدأ ولا يتريث ، وظل على ذلك ساعة ثم انقض بغتة على ردائه فاختطفه وخرج من الغرفة مسرعًا ، فأدركته ميلتزا وتعلقت بأطراف ثوبه وقالت له : أين تريد يا مولاي؟ قال : أريد أن أقبض على ذلك الجاسوس المجرم وأرفع أمره إلى الأمير ليرى رأيه فيه ، قالت : إن القيثارة قد انقطع صوتها ، ولابد أن يكون قد ذهب لسبيله ، فدعه وشأنه ، قال : لابد لي من أن أكشف أمره على كل حال حتى لا يعود إلى هذا المكان مرة أخرى ، قالت : أضرع إليك يا سيدي أن تملك نفسك وأن تهدأ لحظة واحدة حتى أتمم لك بقية حديثي . فجمد في مكانه وقال لها : ماذا عندك بعد ذلك؟ قالت : إن كنت تريد أن ترفع أمر الرجل إلى أبيك ليعرف حقيقته فاعلم أنه يعرفه حق المعرفة ، بل هو أعلم به مني ومنك! فثار ثائره وصرخ في وجهها قائلاً : ماذا تقولين أيتها الفتاة؟ وجرد سيفه من غمده وأهوى به عليها ، فاستخذت له ومدت إليه عنقها وقالت : اضرب يا مولاي . فدمي حلال لك ، وإن شئت فاستمع مني كلمة واحدة قبل أن تفعل ،

فإن شرفك وشرف بيتك رهن بما أقول! فجمد السيف في يده وظل شاخصًا إليها ينتظر كلمتها ، فقالت : نعم ، قد تم الاتفاق بين أبيك وزوجته وذلك الجاسوس التركي على أن يخلي أبوك تخوم المملكة من حراسها هذه الليلة ؛ لتتمكن الجيوش التركية من اجتيازها ، فإن فعل أصبح في الغد سيد البلقان ومليكها ، قال : ومن أين لك علم ذلك؟ قالت : قد سمعت الحديث الذي دار بينهم في هذا الشأن ، ورأيت ورقة منشورة بين أيديهم يقرأونها ويتداولونها وما أحسبها إلا وثيقة العهد الذي تعاهدوا عليه ؛ فإن كنت لا تزال في ريب من ذلك فدونك الغرفة المجاورة لغرفة الأميرة فادخلها برفق وهدوء ودع أذنك على خصاص الباب المغلق بينها ، كما صنعت أنا منذ ساعة ، تسمع ما يتحدثون به ولك حكمك بعد ذلك .

فشعر قسطنطين أن الأرض والفضاء تدور به ، وأن الشمس قد لبست قناعها الأسود فما يرى شعاعًا من أشعتها ، وأن فرائصه ترتعد وتصطك فما تكاد تحمله فتراجع إلى جدار قائم وراءه فأسند ظهره إليه حتى هدأ قليلاً ، ثم مشى يتحامل على نفسه حتى دخل الغرفة التي وصفتها ميلتزا ، ومشى إلى الباب الموصد بين الغرفتين ووقف بجانبه يتسمع فلم يسمع شيئًا ، حتى ظن أن الغرفة خالية ، ثم سمع صوت أبيه فانتبه وتجمع للإصغاء ، فإذا هو يقول لزوجته بصوت خافت متهدج : هل سافر الرجل؟

قالت : نعم يا سيدي! وما أحسب إلا أنه تجاوز أطراف التخوم الساعة ، فإن جواده أفره الجياد وأسرعها ، فصمت ولم يقل شيئًا ن فدنت منه وقالت له بنغمة حلوة ساحرة : ما هذا الاصفرار الذي يكسو وجهك يا ميشيل؟ وما هذه الكآبة السوداء التي تتدجى في عينيك؟ فهل أنت نادم على ما كان؟ قال : لا ، ولكنني أخشى الفشل قالت : لا أعرف للفشل بابًا يمكنه أن يدخل عليك منه ، فأنت قائد الجيش وصاحب الأمر والنهي فيه ، فإن كان كل ما يعنيك من الأمر ألا تظهر يدك في هذا العمل فقم الساعة والبس ثياب أحد الحراس واذهب إلى مكان الحارس الأول القائم على حراسة الرابية الأولى وارقبه حتى تأتي ساعة انصرافه واستبداله فأظهر له كأنك الحارس الذي يخلفه في مكانه واهتف له بكلمة السر التي بثثتها بين جنودك وحراس المداولة كثيرون لا يكاد يعرف بعضهم بعضًا ـ فإذا انصرف لشأنه أخذت مكانه من حيث لا يعلم من أمرك شيئًا ، حتى إذا رأيت الجيش التركي مقبلاً في منتصف الليل ، وعلمت أنه قد أشرف على التخوم وملك رأس الطريق إلى «فيدين» عدت أدراجك إلى القصر متنكرًا كما ذهبت لم يشعر بك أحد في ذهابك أو إيابك ، وكأننا قد فوجئنا بهذه النازلة مفاجأة لا نملك معها للأمر دفعًا ولا ردًا .

فطارت نفس قسطنطين شعاعًا عند سماع هذه الكلمات ، وكاد يصرخ صرخة عظمى يرتج بها القصر وأرجاؤه ، لولا أنه طمع في أن يسمع من أبيه كلمة شرف وإباء تهدم صرح تلك الخيانة الذي تبنيه يد زوجته ، فأرهف أذنيه ليسمع جوابه ، فسمعه يقول بنغمة الفارح المغتبط ، بعد كلام كثير لم يفهمه : نعم ، هذا هو الرأي السديد ، ولقد أمنت الآن كل شيء ، ستأتيني بلباس الحارس ، فقد عزمت ولا مرد لعزمي ، فتهافتت على عنقه وقبلته قبلة طويلة رن صوتها في أرجاء الغرفة ، ثم ذهبت لشأنها .

فلما سمع قسطنطين هذه الكلمة حتى أظلمت عيناه ، واكفر وجهه ، وتداركت ضربات قلبه ، وحاول أن يصيح فخانه صوته ، فسقط مغشيًا عليه ، ولكن بين ذراعي ميلتزا ، لأنها كانت واقفة وراءه ترصده من حيث لا يشعر بمكانها ، حتى إذا هوى تلقته بين ذراعيها وقادته إلى غرفتها .

■ ■ ■

الجريمة

جثم الليل في مجثمه ونشر أجنحته السوداء على الكون بأجمعه فهجع تحت ظلالها الأحياء جميعًا من بشر وحيوان ، ولم يبق ساهرًا وسط هذا السكون المخيم إلا عينا القائد برانكومير في شعب تراجان يديرهما ها هنا وههنا ، فينظر بهما تارة أمامه وأخرى وراءه ، ليرى هل يرصده أحد أو يتأثر حركاته وأعماله؟ ويقلبهما أحيانًا في صفحة السماء فيرى عيون النجوم محدقة فيه ، فيخيل إليه أنها عيون الله ناظرة إليه نظرات الوعيد والتهديد ، وكأن صائحًا يصيح به من جوانب الملأ الأعلى : اصنع ما تشاء أيها الرجل الخائن ، واكتم عملك عن عيون الناس جميعًا ، فإني ناظر إليك ومسجل عليك هذه الجناية العظمى التي تجنيها على وطنك وقومك ، فيتضاءل ويتصاغر ويمر بخاطره قول أمه له في عهد طفولته فيما كانت تمليه عليه من آداب الحكماء وأقوالهم : «إن كواكب السماء ونجومها تشهد بين يدي الله على جميع جرائم البشر التي ليس لها شهود!» ثم لا يلبث أن يسري عن نفسه ويذهب به خياله إلى الملك وعرشه وتاجه وصولجانه ، وعزه ومجده ، ثم يلقي نظرة عامة على الجبال المحيطة به والسهول المنبسطة من حوله ، والأنهار المائجة بأشعة النجوم ولألأتها فيقول : غدًا تصبح هذه الجزيرة كلها جزيرتي ، وأهلها خدمي وحشمي . يأتمرون بأمري ، ويذعنون لقوتي وسلطاني وغدًا يتلألأ التاج على جبين بازيليد ، فتصبح أسعد نساء العالم أجمع ، وأصبح بسعادتها أسعد رجاله ، ثم يخيل إليه كأنه يرى بازيليد ماثلة بين يديه تنظر إليه نظراتها الساحرة الفاتنة ، فيمد ذراعيه لاستقبالها ويناجيها قائلاً :

إنني لا أزال على العهد الذي عاهدتك عليه مذ فارقتك حتى الساعة ، لم أندم ، ولم أتردد ، ولا مرّ بخاطري أن أحفل بشيء في العالم سوى أن أنيلك البغية التي تبتغينها .

إن القبلة التي وضعتها على شفتي منذ ساعة قد أثلجت صدري وأسكنت جميع مخاوفي ووساوسي ، فأنا أقدم على الجريمة إقدام الهادئ المطمئن ، لا أشعر بثقلها ، ولا أفكر في نتائجها ، بل لا أشعر أنها جريمة يخفق لها قلبي خفقة الأسف والندم .

لقد أقسمت لك على الوفاء بالعهد ، ولا بد لي من أن أبرر بقسمي ، ولو كنت أقسمت لك على حرمان نفسي منك ـ وأنت الحياة التي لا حياة لي بدونها ـ لاستحييتك أن أحنث في قسمي أو أن أخيس بعهدي .

أقسمت لك أن أخون وطني وها أنذا أخونه كما أردت راضيًا مستسلمًا لا أندبه ، ولا أرثى له فرضاك هو الوطن كله ، بل هو الدنيا بأجمعها ، فليذهب الوطن كله وليفن العالم بأسره فأنت لي كل شيء فيهما .

وكان يحدث نفسه بهذا الحديث ، وهو جالس على رابية مرتفعة في شعب «تراجان» تحت القوس الروماني بجانب هضبة عالية من الحطب أعدت للإحراق إنذارًا للجيش بالعدو عند زحفه وكانت الهضاب المحيطة بتلك الرابية المبعثرة من حولها سوداء قاتمة تتراءى في ظلمة الليل ووحشته في صور وحوش مخيفة هائلة فاغرة أفواهها أو مقعية على أذنابها أو متوثبة للهجوم فلا يقع نظره عليها حتى يطير قلبه شعاعًا ، فيسرع إلى الاغتماض فلا يفارقه خيالها إلا بعد حين .

وما كان الرجل جبانًا ولا رعديدًا ، فهو بطل البلقان وحاميه وسيد من أنجبت به ميادين قتاله وساحات نزاله ... ولكنها الجريمة تنتزع قلب المجرم من جنبيه ، وتغشى على عينيه البصيرتين فيصبح بلا قلب وبلا نظر ، يرى ما لا يرى الناس ويخشى ما لا يخشونه ، فهو لا يخاف الوحوش والهوام والجن والشياطين والصخور والأحجار ، بل يخاف جرائمه وآثامه! وإنه لكذلك إذ خيل إليه أن إحداها تتحرك من مكانها وتتحلحل تحلحل الليث المتوثب فاستطير قلبه فرقًا ورعبًا ، وحاول أن يتهم نظره ويستريب به ، فلم يستطع لأنه ما لبث أن رأى في ذروة تلك الهضبة رأسًا يتحرك وينظر إليه بعينين متقدتين ، فصرخ صرخة الكلب الجبان الذي ينبح للشبح المقبل نحوه ، لا جرأة وإقدامًا ، بل جبنًا وفرقًا ، وقال : من هناك؟ فانحدر الشبح إليه من أعلى الهضبة ، وقال له بصوت خشن أجش : لا ترتع يا أبت ؛ فأنا ولدك قسطنطين ، فوثب من مكانه وثبة الملسوع ، وقال له بصوت متهدج مختنق : ما الذي جاء بك إلى هنا؟ ومن أنبأك أني في هذا المكان؟ قال له : وأنت ما الذي جاء بك إلى هنا يا أبت وماذا تريد أن تفعل؟ إنني أسألك عن مثل ما تسألني عنه! فأسقط في يده وطار طائر عقله ، وأحس بالخطر المقبل ، إلا أنه تجلد واستمسك وقال بلهجة الآمر المسيطر : وما سؤالك عن مثل هذا أيها الفتى الجريء؟ وما شأنك بي ، وبما أفعل؟

وكيف فارقت حصنك في هذه الساعة من الليل؟ ومن أذنك بذلك؟ قال : لم أستأذن في ذلك أحدًا غير واجبي إنني أعلم كل شيء يا أبت ، وأعلم أنك ما جئت إلى هذا المكان إلا لترتكب أفظع جريمة يرتكبها إنسان في العالم! فصاح برانكومير ، وهو يتميز غيظًا وحنقًا : كذبت أيها الغلام الوقح واجترأت على ما لم يجترئ عليه أحد من قبلك؟ عد الآن إلى حصنك ، ولا تبقى بعد صدور أمري إليك لحظة واحدة ، فإن حاولتني في ذلك فأنت أعلم بما يكون ؛ إنك لا تفهم شيئًا من أسراري وخويصات نفسي .

وليس لك أن تسألني عنها لأنك جندي والجندي لا يسأل قائده ، بل يأتمر بأمره ولو كان الموت الزؤام ، عد إلى مخفرك وتولى حراستك بنفسك ، ولا تأذن لجفنك بالغمض لحظة واحدة ، وسأحدثك غدًا في هذا الشأن حديثًا طويلاً تعلم منه كل شيء .

فتضعضع قسطنطين أمام هذه اللهجة الرزينة الهادئة ، وجثا على ركبتيه بين يديه وقال له : عفوًا يا أبت ، لقد أخطأت في سوء ظني بك ، فأنت أشرف من أن تضع نفسك حيث أرادوا أن يضعوك ، وما أحسب كلمتك التي قلتها للأميرة منذ حين في تلك الخلوة الرهيبة ، إلا كلمة مزح ودعابة أردت بها مداراتها وملاينتها ، أو الهزء والسخرية بها ، حتى إذا فصلت عنك وخلا بك مكانك محوت بظهر يدك عن فمك تلك القبلة الأثيمة التي ختمت بها ذلك العهد الأثيم ، ثم قلت لها في نفسك : إنني قد عاهدت الله أيتها المرأة البلهاء قبل أن أعاهدك أن أكون أمينًا لوطني وفيًا له ، فلا أحفل بعهد غير هذا العهد ، ولا بيمين غير تلك اليمين .

ثم خفت أن تكون قد استرابت بك أو مرت بخاطرك خلجة شك في أمرك فأخذت للأمر حيطتها من طريقك ، فجئت بنفسك لتتولى حراسة التخوم وحمايتها ، حتى إذا شعرت بسواد الجيش التركي مقبلاً أشعلت النيران إنذارًا لجيشك بالخطر الداهم وخيبت آمال أعدائك فيما يكيدون لك ولقومك .

أليس كذلك يا أبت؟ نعم . إنه كذلك بلا شك ولا ريب ، فأشعل النار الآن ودعها تسطع في هذا الفضاء الواسع ، وتبدد بلألأتها هذه الظلمات المتكاثفة ، فإني أشعر بسواد مقبل من بعيد يتقدم شيئًا فشيئًا ، وما أحسبه إلا فيالق العدو وجيوشه ، انظر يا أبت واخترق بنظرك هذا الفضاء الشاسع ، ألا ترى تحت خط الأفق أشباحًا تتحرك وتتقدم؟ إنه ليخيل إليّ أنها أعلام الجيوش التركية تخفق في أجوائها ، وربما لا تمضي ساعة أو بعض ساعة حتى تكون قد وصلت إلى هنا!

أسرع بإشعال النار أو عد أنت إلى قصرك وخذ لنفسك راحتها فيه ودعني أتولى عنك إشعالها ، فالخطر موشك أن يقع! ما من ذلك بد !!

ما لي أراك جامدًا يا أبت ؟ وما هذا الذهول الذي يتولاك ؟ أشعل النار أو تنح عن طريقي لأشعلها . أشعلها فالوقت ضيق من التأمل والتفكير !

فرفع برانكومير رأسه ونظر إلى ولده نظرة جامدة وقال له : إذن أنت تتهمني يا قسطنطين وترتاب بي ! ما أشقاني وأسوأ حظي ! ولدي وفلذة كبدي ووارث اسمي ولقبي يتهمني ويتجسّس عليّ ويقف وراء الأبواب ينظر من خصائصها ليسمع ما يدور بيني وبين زوجي في خلوتي ! فيا للعار ويا للشقاء ! أيها الولد العاق المسكين ! اذهب لشأنك فإني أريد أن أبقى هنا الليلة وحدي ! ولا تجازف بمخالفة أمر قائد تعود أن يأمر فيطاع ، وليس من شأن مثله أن يصبر لحظة واحدة على مخالفة أمره ، إنني سأبقى هنا وحدي وسأشعل النار بنفسي عندما أريد إشعالها ، فلا حاجة بي إلى مشورتك ومعونتك ، عد أدراجك إلى حصنك ولا تضف إلى جريمة التجسس على أبيك جريمة معاندته ومخالفة أمره ، واعلم أنك الآن جندي أمام قائده ، لا ولد بين يدي أبيه .

فأن قسطنطين وتأوه آهة طويلة وقال : وارحمتاه لي ولك يا أبت ؛ الأمر صحيح لا ريب فيه ، والجريمة على وشك الوقوع .

ثم صمت صمتًا لا تطرف له فيه عين ؛ ولا تنبعث له جارحة ثم انتفض فجأة وصاح بلهجة شديدة صارمة : أبي ، إنني سأبقى هنا .

فدهش ميشيل لعناده وصلابته وقال له : ما أراني إلا أمام عدو لدود لا ولد بار مطيع . قال: لا يا أبت ؛ بل أمام ولد بار مطيع ولولا ذلك ما جشمت نفسي مشقة المجيء إليك في هذه الساعة من الليل ، ولا وقفت أمامك هذا الموقف الخطر المميت ، إنني لم أفعل ذلك من أجل نفسي ، بل من أجلك ومن أجل شرفك .

إنني أحبك كما أحب وطني وما على وجه الأرض شيء أحب إليّ منكما ، وكما أتمنى له أن يعيش حرًا مستقلاً ، أتمنى لك أن تعيش شريفًا عظيمًا ، فإذا ضاع وطني وكان ضياعه على يدك أنت فقدت في ساعة واحدة جميع ما أحب في هذه الحياة ، فارحم ولدك المسكين الذي لا يزال يضمر لك في قلبه حتى الساعة ذلك الحب القديم الذي تعرفه ، واستبق له تلك السعادة التي لم يبق له في الحياة سعادة غيرها ، تنح قليلاً عن طريقي وأذن لي أن أصل إلى هذه الرابية لأشعل نارها فيراها حراس الروابي جميعًا فيشعلوا نيرانهم فينهض الجيش للدفاع عن الوطن ، فقد أزفت الساعة ولم يبق سبيلٌ للأناة والتفكير .

ثم اندفع إلى مكان الرابية مسرعًا ؛ فاعترضه أبوه ووقف في وجهه وقفة الصخرة العاتية في وجه الريح العاصف ، وقال له : لا آذن لك بالتقدم خطوة واحدة ، ودون ما تريد الموت الزؤام !

فطاش عقل قسطنطين وجن جنونه وقال له : احذر يا أبت ! فإن في هذه السماء المشرقة علينا بنجومها وكواكبها إلهًا ينتقم من الظالمين ، ويجازي الخائنين بخيانتهم شر الجزاء ، وما أنت بناج من عقابه ، ولا مفلت من جزائه ، لقد حدثتني نفسي في تلك الساعة الهائلة التي سمعتك فيها تؤامر على وطنك وأمتك ، بأفظع ما تحدث به نفس صاحبها ، وكنت على وشك أن أرفع أمرك إلى الملك أنت وزوجك ،

وأكشف له دخيلة أمركما . فلم أفعل ، لأني ضننت بك على الموت الدنيء الذي يموته الخائنون المجرمون أمثالك . وأشفقت على ذلك الشرف العظيم الذي بلغ في علوه مناط السماك الأعلى أن يصبح مهانًا مذالاً تدوسه الأقدام وتطؤه النعال ، وكرهت أن يمر السابلة من رعاع الناس وغوغائهم على قبرك بعد موتك فيبصقوا عليه كأنما يبصقون على قبر الشيطان وربما نبشوا عن جثتك ، تشفيًا منك وانتقامًا ، فأخرجوها من قبرها ، وأسلموها إلى جوارح الطير وكواسر الوحش تمزق أشلاءها وتبعثر عظامها .

أشفقت عليك من كل هذا ، وأشفقت على نفسي أن يراني الناس في طريقي فيشيروا إلىّ بأصابعهم ويقولوا : هذا هو الولد السافل الذي وشى بأبيه وأورده مورد التهلكة فبئس الولد ولبئس الوالد . ولا يلد الخونة المجرمون غير الأدنياء الساقطين ! فنهنهت نفسي وملكت عليها زمامها وقلبي يذوب حزنًا ولوعة ، وقلت : لعلني أستطيع أن أتدارك الأمر من طريق غير تلك الطريق وان أتمكن في آن واحد من إنقاذ أبي وإنقاذ وطني من حيث لا أخسر أحدًا منهما في سبيل الآخر ، فجئت وقلبي ممتلئ أملاً ورجاء .

أما الآن وقد يئست من كل شيء فإني أكاد أشعر بالندم على ضياع تلك الفرصة التي ملكتها ساعة من الزمان فسرحتها ولم أنتفع بها ، وكأن صوتًا خفيًا يهتف بي من أعماق قلبي : إنك قد أشفقت على نفسك مرة وعلى أبيك أخرى ولم يخطر ببالك لحظة واحدة أن تشفق على وطنك وقومك .

فأسألك مرة أخرى يا سيدي ، وربما كانت هى المرة الأخيرة ، أن تتنحى عن طريقي ، فإنني قد عزمت عزمًا لا مرد له أن أقتحم هذه الرابية لأضرم نارها رضيت أم أبيت ، سقطت السماء على الأرض أم بقيت في مكانها !

فأطرق برانكومير لحظة ذهبت به فيها الهموم والأفكار كل مذهب ، ثم رفع رأسه فإذا دمعة كبيرة تترقرق في عينيه ، ونظر إلى ولده نظرة عتب وتأنيب ، وقال له : نعم يا بني !إنك أخطأت خطأ عظيمًا إذ أضعت الفرصة العظيمة التي لاحت لك ، وقد كان جديرًا بك أن تفترصها ولا تسرحها وان تلقي في عنك أبيك في تلك الساعة التي رابك فيه من أمره ما رابك ، غلا ثقيلاً تقوده به إلى حضرة الملك متهمًا إياه بجريمة الخيانة الكبرى ليأمر بقتله فتمتع نظرك برؤيته مصلوبًا على باب المدينة والجماهير من حوله يبصقون على وجهه ويصفعون قذاله ويرجمونه بالحجارة على مرأى من ضباطه وجنوده وأسرته وأصدقائه وربما اشترك هؤلاء جميعًا معهم في عملهم .

نعم إنها فرصة ثمينة جدًا قد أضعتها بترددك وتحيرك ، وقد كان جديرًا بك أن تقدم إقدام العازم المصمم كما كان يفعل أبوك لو كان في مكانك ، فقد عودت نفسي أنني إذا عزمت على أمر لا أتردد فيه ، ولا أتريث ، وقد عزمت الآن على ألا أشعل هذه النار فلا أشعلها ولا آذن لك بإشعالها ، بل لا آذن لك بالتحرك من مكانك خطوة واحدة !

فوقف قسطنطين حائرًا ملتاعًا يترجح بين اللهف على وطنه الضائع والإشفاق على أبيه المسكين ، لا يستطيع أن يخون وطنه الذي نبت في تربته وعاش بين أرضه وسمائه ، ولا أن يعق أباه الذي أبرزه إلى الوجود ووهبه نعمة الحياة التي ينعم بها فأسند رأسه إلى صخرة كانت بجانبه حائرًا مضعضعًا تتوارد في رأسه الخواطر والأفكار يصارع بعضها بعضًا ويشتد بعضها في أثر البعض ، حتى بلغ منه الإعياء مبلغه فنظر إلى أبيه نظرة منكسرة حائرة تفيض حزنًا ويأسًا وقال :

أيرضيك يا ميشيل برانكومير يا بطل البلقان وحاميها وأشرف من أنجبت به أصلاب رجالها وأرحام نسائها ، أن يملك العدو علينا هذه البلاد العزيزة الكريمة فيقتل أبناءها ويستحل حرماتها ، وينكس صلبانها ، ويهدم صوامعها ومعابدها ، ويخرس فيها كل صوت غير صوت الأذان على ذرى المنائر ؟ قال : نعم يرضيني ذلك لأنني أحسنت إليها فكفرت بنعمتي وجازتني شر الجزاء على صنيعي ! قال : إن لم تفعل ذلك لأجلها فافعله من أجل ربك ، قال : أي رب تريد ؟ إنني لا أفعل شيئًا من أجله ، فهو ممالئ مداج لا يحب إلا قساوسته وكهانه ، ولا يرى رؤوسًا تصلح للتيجان غير رؤوسهم الصغيرة الصلعاء ولكنني سأنتزع بالرغم من ذلك التاج من ذلك الرأس الذي توجه به وأضعه على رأسي ، قال : ولكنك تعلم يا أبت أن التاج الذي يتناوله متناوله من يد عدوه ليس بتاج شريف ،

قال : ولكنه تاج على كل حال ! قال : ألا تخاف أن يثقل يومًا على رأسك فيهبط إلى عنقك ويستحيل إلى طوق حديدي يخنقك ويفضي عليك ؟ قال : إنك تهينني يا قسطنطين وتهددني ؛ ولقد بلغت بوقاحتك الغاية التي لا غاية وراءها ، فتجمل قليلاً ولا تنس أنك إنما تخاطب أباك ! قال : عفوًا يا أبت وغفرانًا فلقد بلغ بي اليأس مبلغه حتى أصبحت لا أفقه ما أقول !

ثم دنا منه وأمسك بيده وأنشأ يخاطبه بصوت ضعيف متهافت ويقول :

عد إلى نفسك لحظة واحدة يا أبت ، وراجع فهرس تاريخك الشريف واذكر تلك الأيام المجيدة التي أبليت فيها في الدفاع عن وطنك وقومك بلاء سجله لك التاريخ في صفحاته البيضاء بأقلامه الذهبية وتلك الوقائع الحربية الهائلة التي كنت تستقبل فيها الموت استقبال العريس ابتسامات عروسه الحسناء ليلة زفافها ، وتضحك للهول فيها ضحك الزهر لقطرات الندى ، والنبت ـ لأشعة الشمس ، ثم تعود منها منصورًا مظفرًا يستقبلك نساء القرى وفتيانها في كل طريق مررت به بدفوفهن وعيدانهن ويرقصن بين يديك ؛ ويرتشفن قطرات الدماء من كؤوس جراحاتك وينثرن الأزهار تحت قدميك وينادينك باسم المخلص العظيم ، وخليفة المسيح في الأرض .

أذكر تلك الأعلام الوطنية التي تخفق على أبواب المدينة وأسوارها وترنحها طربًا وسرورًا عند رؤيتك ، وتراميها على قدميك كلما مررت بها كأنها تحاول تقبيلهما ولثمهما ؛ واخش إن مررت بها بعد اليوم أن تشيح بوجهها عنك احتقارًا وازدراء وتضم أطرافها إلى نفسها ترفعًا وإباء حتى لا تلمس جسمك ولا تخفق فوق رأسك .

لا تبع أمتك يا أبت بعرض تافه من أعراض الحياة ، فالتاج الذي يتناوله صاحبه من يد عوده ليس بتاج الملك ؛ إنما هو قلنسوة الإعدام .

كيف يهنؤك ذلك الملك وأنت ترى أمتك المسكينة راسفة في قيود الذل والاستعباد تبكي وتستصرخ ولا منجد لها ولا معين ، وتئن في يد عدوها القاهر أنين المحتضر المشرف ولا من يسمع أنينها ، أو يصغي إلى شكاتها .

كيف يهنؤك ذلك العيش وأنت ترى أبناء وطنك أسارى أذلاء في قبضة أعدائهم يسوقونهم بين أيديهم سوق الجزار ماشيته إلى الذبح فإن خفق قلبك خفقة الرحمة بهم أو العطف عليهم لا تستطيع أن تمد يدك لمعونتهم وإنقاذهم ، لأنك قد بعتهم ونفضت يدك منهم فلا سبيل لك إليهم بعد ذلك .

أذكر يا أبت تلك الأيام التي لقى فيها هذا الشعب المسكين على يد هؤلاء القوم الظالمين ما لم يلق شعب في الأرض على يد فاتح أو مغتصب ، أيام كنا غرباء في أوطاننا أذلاء في ديارنا ، نمشي فيها مشية الخائف المذعور ، وننتفض انتفاضة الهارب المتنكر لا نعلم أيسقط الشقاء علينا من علياء السماء ، أم ينبعث إلينا من أعماق الأرض ؟ وهل يخرج الخارج منا من منزله ليعود إليه ، أو ليرد المورد الذي لا رجعة له منه أبد الدهر .

أذكر أيام كانوا يملكون علينا كل شأن من شؤون حياتنا حتى زروعنا وضروعنا ومياه أنهارنا ، وأشعة شموسنا ، فصبحنا ولا شأن لنا في وطننا إلا كما يكون لعمال المزرعة ونواطيرها من الشأن فيها ويحصون علينا كل حركة من حركاتنا وكل سكنة من سكناتنا ، حتى نبضات قلوبنا وخواطر أفكارنا ، وفلتات ألسنتنا ، وأحاديث آمالنا ، ويحاسبوننا على النظرة واللفتة ، والأنة والزفرة والقومة والقعدة ثم يقضون فينا بما يشاؤوا من أقضيتهم فلا ينحسر ظلام ليلة من الليالي إلا عن مصلوب تهفو به الرياح السافيات ، أو طريح مرتهن في أعماق السجون !

أذكر أيام كانت كلمة الوطن جريمة يعاقب عليها قائلها بحرمانه من ذلك الذي يهتف باسمه ، وكلمة الدين إثمًا عظيمًا يذهب بصاحبه إلى أحد القبرين ، إما المنشور ، وإما المحفور .

أذكر الدموع التي كانت تذرفها الأمهات على أطفالهن المذبوحين فوق حجورهن ، والصيحات التي كانت تصيحها الزوجات والأخوات الواقفات بأبواب السجون على أزواجهن وإخوتهن ، والزفرات التي كان يصعدها اليتامى الثاكلون على حافات القبور حنينًا إلى آبائهم وأمهاتهم الهالكين !

أذكر ذلك كله ولا تنسه ، لا بل أنت تذكره وتعرفه كما تعرف نفسك ، لأنك أنت الذي خصصته علينا ومثلته لأعيننا وقلوبنا ، وأريتنا من ويلاته ومصائبه ما لم نره ، ولطالما كنت تبكي عند ذكراه بكاء الطفل الثاكل أمه ، فنبكي لبكائك وننشج لنشيجك .

ألا تسمع هذه الأصوات المخيفة التي تحملها إلينا الريا من ذلك الجانب الغربي ؟ إنها أصوات الموتى من جنودك وأبطالك يضجون في قبروهم صائحين : واويلتاه ، ها هي السماء توشك أن تنقض على الأرض ! وها هي أقدام العدو تدنو من تخوم البلقان وبطاحه ، وتوشك أن تطأ بنعالها قبورنا وتزعجنا من مراقدنا ، وها هو قائدنا المحبوب برانكومير العظيم الذي سفكنا دمائنا وبذلنا أرواحنا في سبيل ظفره وانتصاره ، يساوم عدونا في وطننا ، ويحاول أن يبيعه نساءنا وأولادنا الذين تركناهم أمانة في يده ؛ ففي سبيل الله ما سفكنا وفي ذمة القدر ما بذلنا !

ألا تسمع هذه الهمهمة الهابطة علينا من آفاق السماء ؟ إنها أصوات الملائكة الأبرار يصيحون ويصخبون وهم وقوف بين يدي ربهم يقولون له : حتى متى يسع حلمك وأناتك هذا الخائن الغادر الذي يبيع أمة من أمم المسيح إلى أعدائها وأعداء دينها ، ويسلم إليهم أرواحها وأعراضها ، فاقض اللهم فيه قضاءك العادل ، واضربه الضربة التي تجعله عبرة للخائنين ، ومثلاً في الغادرين .

إليّ أيتها الذكريات القيمة والانتصارات العظيمة والأيام الغر المحجلة المكتوبة بمداد الذهب في صفحات التاريخ ، مدى إليّ يد مساعدتك ؛ وأعينيني على ذلك الرجل البائس المسكين ، وتمثلي أمام عينيه لتذكريه بنفسه وتاريخك عله يحمر خجلاً عند رؤيتك ، ويقشعر بدنه رهبة من خيال الجريمة التي يريد ارتكابها .

إليّ أيتها الفضائل الإنسانية والكلمات العالية ، من شرف وعزة وترفع وإباء ، وأمانة وإخلاص ؛ تعالين إليّ جميعًا واجثين معي بين يديه . واضرعن إليه أن ينصفكن ، ويعدل في أمركن ، ولا يقضي للرذيلة عليكن وقلن له : إنك إن خذلتنا ، ونفضت يدك منا ، فلن نجد لنا من بعدك ناصرًا ولا معينًا .

يا أطفال البلقان وصغارها النائشين من فتية وفتيات أقبلوا إليه جميعًا واجتمعوا من حوله وتعلقوا بأهداب ثوبه ، واسكبوا ما تستطيعون أن تسكبوا من دموعكم وشئونكم تحت قدميه، وقولوا له : رحمة بنا أيها الأب الرحيم والسيد الكريم وحنانًا علينا ، لا تكلنا إلى أعدائنا وأعداء وطننا ، لا تجعل مستقبلنا ومستقبل بلادنا في أيديهم يسوموننا الخسف ويذيقوننا ألوان العذاب فإن أبيت إلا أن تفعل فجرد سيفك من غمده واقطع به أعناقنا فذلك خير لنا من هذا العيش المؤلم المرير .

وكان يتكلم ودموعه تنهمر على خديه دائبة ما تهدا ولا ترقأ وأبوه يضطرب بين يديه اضطراب الدوحة المائلة في مهاب الرياح ويزفر زفرات محرقة ملتهبة ، وقد قامت في نفسه تلك المعركة الهائلة التي تقوم في كل نفس شريفة بين الواجب والشهوة ، يتمثل له الأول في وجه قسطنطين العبوس المكتئب فيرتعد ويضطرب ، وتتراءى له الثانية في وجه بازيليد الضاحك المشرق فيخوز ويتضعضع ، لا يستطيع أن يعرض عن نداء وطنه ، لأنه نداء يصل إلى أعماق قلبه ويبلغ صميمه ، ولا أن يفلت من سلطان شهوته ، لأنه سلطان قاهر جبار لا يفلت منه قوي ولا ضعيف ،

فوضع إحدى يديه على عينيه ، ومد الأخرى أمامه كأنما يطارد أشباحًا مخيفة هائلة تتقدم نحوه ، وظل يصيح بأعلى صوته : اصمت يا قسطنطين ! اصمت يا ولدي ، لا أستطيع أن أحتمل أكثر مما احتملت ، آه من القدر وأحكامه والدهر وتصرفاته ، وويلي من الشقاء المكتوب والبلاء الحتم ، من لي بيد قوية تنقذني من هذا الشقاء المحيط بي ، فقد أصبحت وما على وجه الأرض أحد أجدر بالحرمة والشفقة مني ، العنوني جميعًا يا أولادي وأبناء وطني ، وانتقموا مني بأفظع أنواع الانتقام ، فإنني خائن لئيم لا أستحق رحمتكم ولا مغفرتكم ؛ ثم صمت صمتًا عميقًا لا ينبس فيه ولا يتحرك ، وظل على ذلك هنيهة ثم نظر أمامه نظرة الدهشة والذهول ، فخيل إليه أنه يرى شبحًا يتقدم نحوه فمد يده إليه وأخذ يناجيه ويقول : بازيليد ! ألا تستطيعين أن تحليني من ذلك القسم الذي أقسمته لك ، فقد ضعف كاهلي عن احتماله واحتمال أثقاله ، ولا أريد ملكًا ولا تاجًا ولا صولجانًا بل لا أريد أن أبقى على ظهر الأرض يومًا واحدًا ، الموت! من لي به في هذه الساعة فأنجو من همومي وآلامي .

فتهلل وجه قسطنطين غبطة وسرورًا ، ووقع في نفسه أن الرجل قد تلوم واستخذى وبدأ يستفظع ذنبه ويستهوله ، فترامى على عنقه واحتضنه إليه وظل يقول بنغمة الفارح المغتبط : أحمدك اللهم قد أنقذت لي أبي ! فحنا أبوه عليه وظلا متعانقين ساعة لا يسمع فيها إلا تردد أنفاسهما ونشيج بكائهما ثم افترقا بغتة واشرأبّا بأعناقهما حينما سمعا في لحظة واحدة حسيس جيش العدو وهو مقبل من ناحية الشمال ، وكان ما سمعاه في هذه المرة حقيقة لا وهمًا فارتجلا في وقت واحد حركتين مختلفتين ،

إذ وثب قسطنطين إلى الرابية وثبة عظمى ليضرم نارها ، ووثب أبوه وثبة أعظم منها فاعترض سبيله وصرخ في وجهه : قف مكانك لا تتقدم خطوة واحدة ! فأصاب قسطنطين مثل الجنون وقال له : تنح عن طريقي أيها المجرم الأثيم ، فقد فرغ صبري قال : إنك لا تستطيع أن تمر إلا على جثتي . فارتعد قسطنطين وبرقت عيناه وذهبت به الأفكار مذاهبها وقال له : أي كلمة هائلة نطقت بها أيها الرجل الشقي ، أي قضاء قضيت به على نفسك ! تنح عن طريقي فإن نفسي تحدثني بأفظع ما تحدث به نفس صاحبها في هذا العالم ، قال : إنك لا تستطيع أن تقتل أباك ، قال : أستطيع أن أفعل كل شيء في سبيل وطني ، إنني وقفت سيفي طول حياتي على خدمتك وحمايتك والذود عنك أيام كنت لوطنك وقومك ، أما الآن فإني أغمد ذلك السيف نفسه في صدرك طيب النفس مثلوج الفؤاد لأني أعتقد أني لا أغمده في صدر أبي بل في صدر خائن وطني ، قال : لا تنس أن لي يدًا أقوى من يدك وسيفًا أمضى من سيفك . قال : إني لا أجهل ذلك ولكنك تقاتل في سبيل الدناءة والخيانة وأقاتل في سبيل الواجب والشرف ، والله مطلع علينا من علياء سمائه ، وهو الحكم العدل بيننا . فجرد برانكومير سيفه وهجم على ولده هجمه قوية ، فجرد الآخر سيفه وتلقى ضرباته بأشد وأنكى منها ، وما هي إلا جولة أو جولتان حتى حكم القاضي العادل حكمه فسقط الظالم ونجا المظلوم !

فنظر قسطنطين إلى جثة أبيه الساقطة تحت قدميه نظرة جامدة صامته لا يعلم ما وراءها ، ثم أغمد سيفه وصاح بأعلى صوته : رحمتك اللهم فإني لا أستطيع أن أفعل غير ما فعلت ، ثم هجم على الرابية فأشعل نارها فضاءت بها أرض البلقان وسماؤها .

وفي اليوم الثاني نشر الملك أتين على الأمة هذا البلاغ :

« حاول العدو ليلة أمس تبييت جيوشنا وأخذها على غرة وكاد يظفر بذلك لولا أن انتبهت الفرقة الأولى من الجيش ونهضت للدفاع بقيادة ضابطها العظيم قسطنطين برانكومير فأبلت في المعركة بلاء عظيمًا ووقفت العدو في مكانه ساعة كاملة ، حتى نهضت بقية الفرق لمساعدتها ، فدارت معركة هائلة بين الجيشين انتهت بانتصارانا وانهزام العدو إلى مواقعه الأولى ولكن المصاب العظيم الذي عم الجيش وشمل الأمة بأسرها هو موت قائدنا العظيم « ميشيل برانكومير » فقد وجد في أثناء المعركة قتيلاً بضربة سيف في خاصرته بين صخور تراجان تحت القوس الروماني ، وسيحتفل بتشييع جنازته غدًا احتفالاً عسكريًا جليلاً يليق بمقام شهيد الوطن وبطله العظيم !

أما الذي خلفه في قيادة الجيش فهو ولده الضابط الشجاع منقذ الأمة والوطن « قسطنطين برانكومير » .

■ ■ ■

الضمير

مضى الليل إلا قليلاً وقسطنطين ساهر في فراشه لا يغمض له جفن ولا يطمئن له جنب ، لأن مصرع أبيه في شعب تراجان لا يزال ماثلاً أمام عينيه ما يفارقه لحظة واحدة وكان كأنه يرى الجثة بين يديه تتلوى وتتمرمر وتنظر إليه نظرات حادة ملتهمة ، وكأن جرحها الدامي بين أضلاعها لا يزال يتدفق منه الدم فثار من مكانه هائجًا مذعورًا وحاول أن يطرد هذا الخيال عن نظره فلم يستطع ، فمد يده إلى ذلك الجرح الموهوم الماثل أمامه يريد أن يعترض سبيل الدم المتدفق منه فغلبه على أمره وازداد في تدفقه وانبثاقه حتى ملأ أرض الغرفة جميعها ، وصبغ بلونه الأحمر القاني جميع ما فيها من فرش وأثاث وآنية وثياب ، فاشتد فزعه وارتياعه ولم يستطع أن يحتمل أكثر مما احتمل ، فوقع مغشيًا عليه .

وظل على ذلك ساعة حتى انفثأت حرارة دمه فاستفاق من غشيته وجلس إلى نفسه يناجيها ويقول :

إنني على ثقة من نفسي ، لم أفعل إلا ما يجب على كل رجل شريف أن يفعله ، فما هذا الخوف الذي يساورني ! وما هذه الصور المخيفة التي تتراءى لي في يقظتي وأحلامي؟ كان يجب عليّ أن أضرب ـ لأنه ما من ذلك بد ـ ففعلت ، فلم أرتاب في عملي ،

ولم أرتعد ارتعاد المجرمين الآثمين إن الرجل لا يخاف إلا ذنبه ، وأنا لم أذنب إلى أحد ، لأن الرجل الذي قتلته كان يريد أن يقتل أمة بأسرها فأنقذتها بقتله ، بل أنقذت عشرين أمة من أمم المسيح في أوروبا ، ألا يجوز للإنسان أن يقتل الأفعى دفعًا لأذاها ، والوحش كسرًا لشرته واللص اتقاء لضرره؟! إنني لم أفعل غير ذلك فمالي أرى وجه السماء أحمر قانئًا ليله ونهاره ، ومالي أجد مذاق الدم في كل كأس أشربها من ماء أو خمر ؛ ومالي لا أستطيع النظر إلى يدي خوفًا ورعبًا ، إنني لم أقتل أبي ، ولكنني أحييته لأنه إن كان يحيا اليوم في قلوب الناس حياة العظمة والمجد ، وكان تمثاله إلهًا معبودًا يطيف به الشعب ويقبل أركانه ويتبرك بلمسه واستلامه ، وكان اسمه طغراء الأسماء الشريفة المسجلة في التاريخ ـ فإنما ذلك بفضل الضربة التي ضربته إياها ، ولولا ذلك لعاش بقية أيام حياته عيش الأدنياء الساقطين أو مات موت الخونة المجرمين .

وهنا انتفض واصفر وارفض جبينه عرقًا ، وقال بصوت ضعيف مختنق : نعم! إن ذلك كله صحيح لا ريب فيه ، ولكنني قتلت أبي !

ثم لم يلبث أن عادت إليه مخاوفه ووساوسه ، فرأى الجثة والمصرع ، والطعنة النجلاء ، والدم المتدفق ، وسمع تلك الأصوات التي تهتف به في كل مكان : «يا قاتل أبيه! يا أكبر المجرمين! يا عار البشرية وشنارها» فجن جنونه ، وثار ثائره ، وعادت له سيرته الأولى .

ولم يزل هكذا ليله كله ، يهدأ حينًا ويثور أحيانًا ، حتى نشر الفجر رايته البيضاء في آفاق السماء ، فاستروح رائحة الأنس وشعر ببرد الراحة فأوى إلى مضجعه .

كذلك كان شأن قسطنطين دائمًا ، وكذلك كانت أكثر لياليه مذ حدث ذلك الحادث العظيم

■ ■ ■

الأزهار

دخلت ميلتزا غرفة قسطنطين صباح ليلة من تلك الليالي الطويلة الليلاء وبيدها باقة من الزهر تريد أن تقدمها إليه ، فرأته مضطجعًا على كرسيه مستغرقًا في نومه ، وآثار الدمع ظاهرة بين أهداب عينيه ، وفي صفحتي خديه ، فرثت لحاله وجلست تحت قدميه ترقب يقظته رقبى المجوسي طلعة الشمس من مشرقها ، فحمل النسيم إلى رأسه نفحات تلك الأزهار ، فانتعش وتحرك في مكانه وفتح عينيه فرآها تبتسم وتهلل ، وقال : ميلتزا! قالت : نعم يا سيدي ، نعمت صباحًا ونعمت أيامك بكورها وأصائلها ؛ ثم مدت يدها إليه بالباقة وقالت له : فقد اقتطفت لك صباح اليوم هذه الأزهار الجميلة التي تحبها أكثر من سواها لتستروحها فتروح عن نفسك برياها همومها وأحزانها ، فتناول الباقة منها واستنشقها وتنفس تنفسة طويلة ، ثم نظر إليها نظرة حلوة عذبة ، وقال لها :

أتعلمين يا ميلتزا أنني أستنشق في هذه الأزهار التي تهدينها إليّ أنفاسك الأريجة العطرة ، وأن الذي ينعشني ويحييني ويرفه عني همومي وآلامي في هذه الباقة إنما هو أريجك لا أريج الأزهار؟ فارتعدت ميلتزا لأول كلمة حب سمعتها من فمه ، وظل قلبها يخفق خفقانًا شديدًا ، وملك الدهش عليها عقلها ولسانها فلم تستطع أن تنطق بحرف واحد ، وظلت شاخصة إليه ببصرها ، فاستمر في حديثه يقول : لقد كنت أكلب الموت قبل دخولك وأتمناه تمنيًا شديدًا حتى رأيتك ورأيت هذا الجمال المتلألىء في عينيك

وشممت أنفاسك العطرة المنبعثة من أوراق أزهارك ؛ فأحببت الحياة من أجلك ، وأصبحت أتمنى أن أعيش لأراك وأقضي بقية أيام حياتي بجانبك ، فشكرًا لك يا صديقتي ، فأنت النجمة الوحيدة الباقية في سماء حياتي بعدما غربت جميع نجومها وكواكبها ، والشعاع المضيء الذي ينبعث إلى أعماق سجني المظلم الحالك فيبدد ظلمته وينير جوانبها ، ويملأ قلبي أملًا ورجاء ، والراحة المخصبة الخضراء التي ألجأ إليها كلما قطعت مرحلة في صحراء هذه الحياة المحروقة فأنام تحت نخيلها وأبترد ببرد مياهها ، قالت : ليتني أستطيع أن أكون عند ظنك يا سيدي ، بل ليتني أستطيع أن أقاسمك هذه الهموم والأحزان التي تعالجها ، أو أحتملها عنك جميعًا حتى لا أراك بين يدي إلا باسمًا متطلقًا في جميع آناتك وساعاتك ، إنني أمتك الوضيعة المسكينة يا سيدي ، وليس لفتاة مثلي أن تسألك عن سبب همومك وأحزانك ، ولكنني أستطيع أن أضرع إليك أن تسريها عن نفسك وتهونها عليك ، فأنت رجل فاضل شريف ، وقد قلت لي قبل اليوم : إن الرجل الفاضل الشريف يعيش من شرفه وفضيلته في سعادة لا يهنأ بمثلها الملوك في قصورهم ، قال : ومن أين لك أنني رجل فاضل يا ميلتزا! قالت : نعم يا سيدي ، أكثر من كل شيء في العالم ، ولولا كرامة أمك عليك وجلال ذكراها في قلبك لقلت لك إنها ما كانت تحبك في حياتها أكثر مما أحبك اليوم! فأطرق قسطنطين رأسه لتلك الذكرى المؤلمة ، ومرت بجبينه سحابة سوداء قاتمة ،

فرفع رأسه وقال لها : حسبك يا مليتزا لا تذكريني بأمي ، فما أحسبها الآن إلا ناقمة عليّ في قبرها ، تلعنني وتستعدي ربها عليّ ، وتسأل الله صباحها ومساءها أن يعاقبني وينتصف لها مني ، واخجلتاه من نفسي يوم ألقاها في تلك الدار ويجمع الموقف العظيم بيني وبينها! فارتاعت ميلتزا عند سماع هذه الكلمة ، وذهبت بها الظنون كل مذهب ، وظلت تنظر إليه نظرًا غريبًا حائرًا ، وقد بدأت تفهم السر الهائل الذي أعياها أمره زمنًا طويلًا وتدرك السبب في حزن قسطنطين هذا الحزن الشديد الذي يقيمه ويقعده ويساور نفسه ويقلقها منذ قتل أبوه حتى اليوم ، وكأنه قد ألم بها دار في نفسها وتردد في خواطرها ، فظل ناظرًا إليها بلهف وشوق ينتظر أول كلمة تنطق بها بعد هذا الصمت الطويل انتظار المتهم أول كلمة ينطق بها قاضيه بعد سماع دفاعه حتى رآها تبتسم وتتهلل وتقول له : هوّن عليك الأمر يا سيدي ، ولا ترتب في نفسك ولا في ضميرك فما أنت بمجرم ولا قاتل ، ولكنك رجل شريف ولولا أنك كذلك لما أحببتك ، فمد يده إليها فتناول يدها وقال لها : أتعدينني يا ميلتزا أن تكتمي في صدرك كل شيء؟ قالت : نعم أعدك وعدًا لا أخيس به ، قال : وشيء آخر يا ميلتزا ، قالت : وما هو يا سيدي؟ فأدناها منه وضمها ضمة خفيفة إلى نفسه ، وقال لها : أتقسمين لي على الحب حتى الموت؟ قالت : نعم يا سيدي أقسم لك ، قال : بم تقسمين؟ قالت : بكل ما تسكن به نفسك ، قال : ضعي يدك على الخنجر وأقسمي به

قالت : أفعل على شرط واحد ، قال: وما هو؟ قالت : أن تهديني إياه بعد ذلك ، قال : وماذا تصنعين به؟ قالت : أقتل به نفسي يوم يحل بك مكروه! فناولها إياه ، وهو يقول في نفسه : ربما حل بي عما قريب ذلك المكروه الذي تتوقعين! فوضعت يدها على الخنجر وأقسمت به أن تحافظ على حبه والإخلاص له حتى الموت ؛ فتهلل قسطنطين فرحًا وسرورًا ، ونزعه عن خاصرته وعلقه في منطقتها ، ثم ضمها إلى صدره ضمة شديدة وقبلها في ثغرها قبلة كانت عزاءها الوحيد عن كل ما مر بها في حياتها .

حديث

جرح الجندي « أورش » في إحدى المعارك فلزم بيته وتولت ابنته « أنا » معالجته ، وكان يزوره بعض أصدقائه من الجنود في الفينة بعد الفينة ، فزاره في أحد الأيام الجندي « لازار » ، وكان لا يزال حارسًا لقصر القائد « برانكومير » ، والخادم الأمين لأرملته بازيليد وثقتها المؤتمن على جميع أسرارها ودخائلها ، فقال له « أورش » حين رآه ؛ هل من جديد اليوم يا لازار؟ قال : نعم قد فشل جيشنا في الواقعة الأخيرة كما فشل في الواقعة الماضية والوقائع التي تقدمتها ، ولا أعلم متى تنتهي هذه الانكسارت ،

فقد تمت عدتها حتى الأمس عشرًا ، ولا أعلم ما يأتي به الغد ؛ أما القتلى والجرحى فهم كثيرون لا يحصى لهم عدد ، وما بيتك بالبيت الوحيد الذي تترقرق فيه الدماء والدموع ، ففي كل بيت من بيوت المدينة شاكون ومتألمون .

فقال أروش : لا ريب أن قسطنطين غير أبيه ، ولقد فقدنا بفقد ذلك الرجل العظيم قائدًا كان خير القواد وأبرعهم وأوسعهم علمًا وتجربة وأعلمهم بموارد الأمور ومصادرها ، لم يفلت النصر من يده في جميع معاركه أكثر من مرة أو اثنين ، حتى مات في الواقعة الأخيرة وسيفه مصلت في يده ميتة البطل الشريف فمات بموته الظفر والانتصار ، وأدار الزمان وجهه عنا ، ولا يعلم إلا الله متى يقبل بعد إدباره .

فقالت له ابنته « أنا » وكانت جالسة تحت قدميه تضمد له جراحه : لقد قلت لي يا أبت قبل اليوم ، إن قسطنطين قائد عظيم لا يشق له غبار ، فما الرأي الذي تراه فيه الآن؟ قال : نعم ، كان قائدًا عظيمًا في حياة أبيه وتحت لوائه ، أما اليوم وقد استقل بالرأي وحده وانقطع عن ذلك الوحي الذي كان يرشده ويهديه فقد انتقض عليه أمره ، وأصبح حائرًا مضطربًا لا يدري ماذا يفعل ولا كيف يصرف وقائعه وموقفه؟ فقالت : إن جيشنا لم ينكسر قط في واقعة من تلك الوقائع التي يذكرونها كما تتوهمون لأنه لم يتخل عن مركزه ولم يسلم شعبًا واحدًا من تلك الشعاب التي يحرسها ؛ أما القتلى والجرحى وكثرتهم فهم في جيوش أعدائنا أكثر منهم في جيوشنا أضعافًا مضاعفة ، وحسبنا ذلك فوزًا وانتصارًا .

فقال لازار : لقد كانت خطة القائد ميشيل خطة دفاع محض لا يحول عنها ولا يتزحزح ، والجبال بين يديه تحميه وتحفظ مواقفه ، أما قسطنطين فقد أخذ نفسه بالهجوم على العدو في حصونه ومواقعه ، وترك الجبال التي تحميه من ورائه فكثر القتلى والجرحى في جيشنا ، وهي خطة مخاطرة ومغامرة لا يركبها إلا القائد اليائس أو المجنون ، ولا أعلم أي الرجلين هو؟ قال أورش : أحسبه يائسًا قانطًا ، فإني أشعر كما يشعر كثير من الناس أن سحنته قد تغيرت منذ موت أبيه تغيرًا عظيمًا ، وأصبح حزينًا منقبضًا لا تفارق الكآبة عينيه وجبينه ، ولم أرَ في حياتي ثاكلًا حزن على فقيده حزن هذا المسكين على فقد أبيه ، قال لازار : ولقد حدثني بعض خدم القصر وحراسه أنه يستيقظ من نومه في بعض لياليه صارخًا متفزعًا يستغيث ويستنجد كأنما هو يندم على جريمة ارتكبها ، أو يخاف شبحًا هائلًا مقبلًا عليه .

فقالت « أنا » : « إنكم تظلمون قائدنا ظلمًا عظيمًا ؛ فقسطنطين أفضل القواد وأشرفهم ، وما هو بجان ولا مجنون ، فنظر إليها لازار شزرًا ، وقال : بل هو جان أو على وشك ارتكاب جريمة هائلة ، فقد رابني منه مذ ولي قيادة الجيش عفوه عن الأسرى الذين يقدمون إليه ، وإنزاله إياهم منزلة الإكرام والإعزاز واهتمامه بشأنهم كأنهم ضيوف وافدون لا أعداء محاربون ؛ كما رابني منه أكثر من ذلك اعتزاله الناس وانقطاعه عنهم جميعًا حتى عن زوج أبيه التي تحبه حب الأم لولدها وفلذة كبدها ، فإنه منذ هجر قصرها وعاش في بيته الجديد الذي يسكنه اليوم لم يزرها مرة واحدة ولا دعاها إلى زيارته حتى الساعة .

فقالت « أنا » : أكل أفعال قسطنطين قد أصبحت مريبة عندكم لا تحمل على محمل حسن ، إكرامه للأسرى المساكين وإشفاقه على ذلهم وضعفهم؟ قال : ليس هذا رأيي وحدي بل رأي أكثر الجنود ، فقد أصبحوا يعتقدون أن قائدهم يقودهم إلى الموت الزؤام عمدًا لسر خفي يضمره في نفسه ، وما أحسبهم قادرين على احتمال هذه الحالة زمنًا طويلًا ، فاحتدمت « أنا » غيظًا وقالت : إن قسطنطين أشرف مما تظنون ، وهل ترون محالًا أو غريبًا أن يحزن المرء على أبيه بعد فقده؟ ثم التفتت إلى أبيها وقالت له بسذاجة ورقة : أقسم لك يا أبت لو أن مكروهًا أصابك من هذا الجرح الذي في فخذك – لا أذن الله بذلك وقدر – لحزنت عليك حزنًا يصغر بجانبه حزن قسطنطين على أبيه! فابتسم أبوها وضمها إلى صدره وقال لها : إننا لا نذهب في أمره يا بنية حيث ظننت ، ولا نتهمه بخيانة ولا ممالأة ، ولكنا نخاف عليه أن يكون قد نفذ اليأس إلى قلبه فضعضعه ، وأن تكون نفسه قد حدثته بمسالمة أعدائه ومؤاتاتهم ، فأعد لذلك العدة التي رآها واليأس هو الخديعة الكبرى التي يدسها الشيطان دائمًا في نفوس الأمم الضعيفة التي يريد قتلها والقضاء عليها .

وهنا دخل بعض الجنود لعيادة أورش ، وتلاهم آخرون من بعدهم ، واشتركوا جميعًا في الحديث ، وأنشأ لازار ينفث سموم سعايته ، ووشايته في صدورهم حتى أجمعوا رأيهم على أن قسطنطين يخون أمته ويمالىء أعداءها عليها ، وأن الرأي الصواب أن يرفعوا أمره إلى الملك ليأمر بعزله عن القيادة ويعهد بها إلى غيره ثم انصرفوا .

■ ■ ■

الدسيسة

بينما كان قسطنطين جالسًا صبيحة يوم في غرفته ، إذ دخل عليه حارس بابه يستأذنه لبازيليد أرملة أبيه ، فانقبض صدره ، واشمأزت نفسه ، لأنه لم يكن رآها ولا أذن لها بمقابلته مذ مات أبوه حتى اليوم ، فأذن لها بعد لأي فدخلت عليه وحيته وجلست بجانبه ، وأنشأت تعاتبه في انقباضه عنها ووحشة منها وسوء رأيه فيها ، وتقسم له بحرمة ذلك الدفين الكريم الذي كان يحبه ويحبها أنها لا تضمر له في نفسها موجدة ولا حقدًا ، ولا تحمل له بين جنبيها غير الحب الخالص والود المتين ؛ ثم قالت له : إنني برغم آلامي وأحزاني التي أعالجها مذ نزلت بي تلك النازلة العظمى حتى اليوم ، لم أرَ بدًا من أن آتي إليك هذه الساعة الشديدة عليك راجية أن أعينك عليها وأهون عليك أمرها ، وربما وجدت السبيل إلى خلاصك منها ، فالتفت إليها مندهشًا وقال : أي ساعة تريدين ؟ وما هي الشدة التي أنا فيها ؟ قالت : كأنك لا تعلم أن الخطر الذي يحيط بك عظيم جدًا لا قبل لك باحتماله وأن جنودك قد أصبحوا ينقمون عليك نقمة عظمى ويبغضونك بغضًا لا حد له ولا تحدثهم نفوسهم بشيء سوى نفس الطريق إلى الوصول إليك ليقتلوك ، فاصفر وجهه وقال : وماذا ينقمون مني؟ قالت : ينقمون منك مخاطرتك بهم في تلك المعارك الهائلة التي تكاد تفنيهم وتقضي عليهم ، وفشلك في جميع الوقائع التي قمت بها مذ وليت قيادة الجيش حتى اليوم ، وقد امتد بهم الحقد عليك إلى الظن بك فأصبحوا يعتقدون أنك خائن ممالئ للعدو ،

وأنك ما سلكت هذه الخطة المعوجة في حروبك إلا لتمكن الأعداء من اجتياز الحدود واقتحام البلاد فانتفض انتفاضة شديدة ؛ واربد وجهه ، ونزت في رأسه سورة الغضب وقال : من الذي يتهمني بالخيانة ؟ قالت : جنودك ورجالك ، قال : إنهم كاذبون فيما يقولون ما في ذلك ريب إن كنت صادقة فيما تقولين ، قالت : ما كذبت عليك قبل اليوم ولا غششتك في النصيحة ، ولقد زادهم حقدًا عليك وموجدة أن العدو قد اجتاز الجبال ليلة أمس ، وربما لا يمر يومان أو ثلاثة حتى يكون قد وصل إلى أبواب العاصمة ، وسيصل بريدك الساعة فينقل إليك هذا الخبر المحزن الأليم .

فصرخ صرخة عظمى دوت بها أرجاء الغرفة ، ووثب من مكانه وهو يقول : آه يا وطني العزيز! وابتدر الباب يريد الخروج منه ؛ فأمسكت بيده واجتذبته إليها وقالت له : مهلًا ، أين تريد؟ قال : أدعو جنودي وأجمع من تفرق منهم في الثكنات والقلاع وأذهب بهم إلى الحدود للدفاع عن القلعة الكبرى ، فالوطن في خطر عظيم ؛ قالت : لا تفعل فقد خرج الأمر من يدك ، واعلم أن جميع جنودك المقيمين في ثكنات المدينة وأرباضها قد أصبحوا متمردين عليك لا يطيعونك ولا يأتمرون بأمرك! فلم يحفل بكلامها وأسرع إلى النافذة وأشرف منها على الساحة العامة وظل يصيح : أيها الجنود! النفير النفير! الأهبة الأهبة! فما سمع الجند صوته ورأوا وجهه حتى هاجوا واضطربوا

وأخذوا يصيحون داخل القصر وخارجه ؛ ليسقط الخائن ليسقط المجرم! فظل يشير إليهم بيده يحاول إسكاتهم واسترعاء أسماعهم وهم مستمرون في ضجيجهم وصياحهم لا يهدأون ولا يفترون ، فعاد إلى مكانه يائسًا متضعضعًا ليس وراء ما به من الهم غاية .

فدنت بازيليد منه وقالت له : قد علمت الآن أنني لم أكذبك القول ولم أخدعك وأنني لم أقدم إليك مقدمي هذا في هذه الساعة العصيبة إلا لتخليصك وإنقاذك وإنقاذ الوطن وأبنائه ، فرفع نظره إليها مندهشًا وقال : أنت؟ قالت : نعم أنا ، في الوقت الذي لا أجد فيه بجانبك من يأخذ بيدك أو يعينك على أمرك ، فأصغ لما أقول : إن الملك سيزور قصرك الساعة ليستنجد بك على دفع هذا الخطر الداهم وإن شئت فقل ليستعين بك على الاحتفاظ بتاجه الذي يضن به ضنه بحياته ولا يحفل بشيء سواه ، وقد علم الجند ساعة حضوره فهم ينتظرونه في هذه الساحة ، حتى إذا طلع عليهم في موكبه هرعوا إليه ضاجين صارخين يتقدمهم جرحاهم وزمناهم ، ورموك بين يديه بتلك التهمة العظيمة التي يرددونها الآن ويصيحون بها في كل مكان ، فإما أن يصدقهم فقد هلكت هلاكًا لا نجاة لك من بعده ، أو يرتاب بهم فلا يرى بدًا من أن يسلك سبيل الحكمة في مداراتهم ومدافعتهم ، فيأمر بعزلك عن القيادة والعهد بها إلى غيرك إرضاء لهم ، وتسكينًا لثائرهم،فإن فعل فقد انتشرت لك في الأمة قالة سوء لا تستطيع أن تمحو عارها عنك أبد الدهر .

فظل يرتعد ويضطرب ويردد بينه وبين نفسه : رب ماذا أصنع ، فالخطب أعظم مما أحتمل! فاقتربت منه ووضعت يدها على كتفه وحنت عليه حنو الأم على رضيعها ، وقالت له بتلك النغمة العذبة الجميلة التي قتلت بها أباه من قبل : نعم يا بني إن الخطب أعظم مما تحتمل ، ولم يبق بين يديك إلا أن تسلك تلك الطريق التي شرع أبوك في سلوكها قبل موته وعجز عن الاستمرار فيها إلى نهايتها فخسرها وخسر حياته على أثرها ، فنظر إليها مندهشًا وقال : ماذا تريدين؟ فصمتت لحظة ثم استنجدت قوتها وشجاعتها وقالت له : أتدري يا قسطنطين لِمَ ذهب أبوك إلى شعب تراجان وجلس تحت القوس الروماني في الليلة التي مات فيها؟ فرجعت إلى ذهنه تلك الذكرى المؤلمة وقد بدأ يفهم ما ترمي إليه في حديثها ، فراعه الأمر وهاله ، أنه تماسك وتجلد وظل ناظرًا إليها نظرات جامدة ساكنة أشبه بنظرات الموتى في النزع الأخير ؛ فاستمرت في حديثها تقول : إنه ذهب إلى ذلك المكان ليستقبل الجيش التركي عند قدومه ويأذن له باجتياز الحدود والوصول إلى فيدين ، ولو فعل لنجى الوطن من خطر عظيم ، ولأطفأ نار هذه الحرب التي تلتهم البلاد التهامًا يكاد يقضي عليها ، ولكان اليوم ملكًا جالسًا على عرش البلقان لا تمثالًا أجوف منتصبًا في الميدان ، ولكنه عجز في الساعة الأخيرة عن الاحتفاظ بقوته وعزيمته ، فما رأى سواد الجيش التركي مقبلًا نحوه حتى نسي عهوده ومواثيقه ، وابتدر الرابية الأولى فأشعل نارها وأيقظ الجيش من رقدته واستثاره للأهبة والدفاع ، وما كفاه ذلك حتى جرد سيفه للقتال ، وخاض المعركة بنفسه ، وظل يقاتل حتى هلك .

فعجب قسطنطين لتلك الجرأة الغريبة التي لا يشتمل على مثلها صدر امرأة في العالم ولا رجل ؛ ثم قال لها بهدوء وسكون لا يعلم إلا الله ما يكمن وراءهما : وبعد فماذا تريدين؟ فأطمعها فيه سكونه وهدوءه وخيل إليها أنه قد استخذي للأمر واستسلم ، فقالت : إن العهد السلطاني لأبيك بملك البلقان لا يزال باقيًا بيدي حتى الساعة ، وهو مذيل بتوقيع السلطان ومختوم بختم آل « برانكومير » فلسنا في حاجة إلى تغيير حرف منه أو كتابة عهد جديد ، وقد قابلت رسول القائد التركي ليلة أمس ؛ واتفقت معه على كل شيء ، فكن أعقل من أبيك وأبعد منه نظرًا ، واعلم أن الترك لابد مقتحمو هذه البلاد وآخذوها ، أبطأوا أم أسرعوا ، فقد اجتازوا عقبة الجبال اليوم ، وسيجتازون بقية العقبات غدًا أو بعد غد ، ما من ذلك بد ، فخير لك أن تهادنهم وتسالمهم وتتخذ عندهم يدًا تنفعك لديهم غدًا ، وأن تفتح لهم بيدك ما استغلق عليهم من أبواب البلاد بدلًا من أن يغلبوك عليها ، لتحتفظ لنفسك بذلك العرش الذي هو عرشك وعرش أبيك من قبلك لولا طمع ذلك المختلس وفضوله!

إن الجنود يضجون ويضجون ويوشك الملك أن يحضر فيرفعوا إليه أمرك ويهتفوا بين يديه بسقوطك وخيانتك ، فيأمر بالقبض عليك وسجنك ، فاغضب لنفسك وافعل ما أشرت به عليك لتستطيع أن تأمر أنت بالقبض عليه وسجنه بعد بضع ساعات ، ويدين لك البلقان ، من البوسفور إلى الأدرياتيك .

أما أنا فإني لا أطلب جزاء عندك عن نصحي لك وإخلاصي إليك سوى أن تمنحني لديك منزلة الأم الحنون ، وتأذن لي أن أجلس على أدنى درجة من درجات عرشك ، أخدمك وأمدك برأيي ومشورتي وأستظل بظلال مجدك وشرفك حتى الموت ، ثم أخرجت من حقيبتها العهد السلطاني وأرته إياه ، فأخذ يقرؤه في يدها حتى أتمه ، فقالت له : قم الساعة وسافر إلى الحدود وقد جيشك بنفسك وتقهقر به كأنك تفعل ذلك مضطرًا ، وأنقذ نفسك من هذا الخطر العظيم .

ها هي طبول الملك تقترب منا شيئًا فشيئًا ، واعلم أن قلم القدرة معلق الآن بين إصبعي الله ليكتب به في صفحات الغيب أحد الحكمين : إما لك بالصعود إلى العرش ، أو عليك بالهبوط إلى أعماق السجون ، فأحسن الاختيار لنفسك ولا تكن عدوها الأحمق المأفون .

فرفع رأسه ونظر إليها نظرة نارية ملتهبة ، لو رسمتها ريشة المصور الماهر لأحرقت القرطاس الذي رسمت فيه! ثم قال لها بهدوء وسكون : قد قلت لي يا سيدتي منذ هنيهة إن أبي قد ذهب إلى شعب تراجان ووقف تحت القوس الروماني ليستقبل الجيش التركي عند قدومه ويأذن له بالمرور ، فخانه عزمه ونسي ميثاقه فلم يفعل ، وأنا أقول لك : إنك مخطئة في سوء ظنك به ، فإنه لم يزل متمسكًا برأيه في تلك الليلة محافظًا على عهده حتى حالت الحوائل بينه وبين الوفاء .

قالت : وما الذي طرأ عليه؟ قال : طرأ عليه الموت ، فحال بينه وبين ما يريد ، قالت : وهل تعلم كيف مات؟ قال : نعم أنا أعلم الناس بذلك ، لأنه لم يكن حاضرًا معه في تلك الساعة وفي ذلك الموقف سواى ، فارتعدت ونظرت إليه مندهشة وقالت له : ألم يمت قتيلًا بيد أعدائه؟ قال : لا ، بل بيد أصدق أصدقائه بل بيد أقرب الأقرباء إليه وأمسهم بهم رحمًا ؛ فطاش عقلها وجن جنونها وصاحت : ماذا تريد أن تقول؟ قال : أريد أن أقول إنني أنا الذي قتلته بيدي جزاء له على خيانته لوطنه! قالت : أنت يا ولده وفلذة كبده؟ قال : نعم ، وأنت التي وضعت في يميني ذلك السيف الذي قتلته به لأنك أفسدت نفسه وقتلت شعوره وأغريته بخيانة وطنه ، وسلبته جوهرة الشرف الثمينة التي كانت تضيء ما بين جنبيه ، وكانت أكرم الجواهر وأغلاها ، فلم أرَ بدًا من أن أقتله لأستنقذ الوطن من يده ، فتألمي ما شئت أيتها المرأة الشريرة وتعذبي ، وتجرعي كؤوس الحسرة والندامة على ما أفلت من يدك من أمانيك وآمالك ، وحسبي انتقامًا منك على جريمتك التي أجرمتها إليّ وإلى أبي وإلى الطبيعة أن تعلمي أنني أنا الذي خيبت آمالك وهدمت بيدي ذلك الصرح العظيم الذي أنفقت في تشييده أيام حياتك؟

نعم أنا الذي قتلته بيدي واقترفت أعظم جريمة يقترفها إنسان في العالم ، ولولاك لما أقدمت على ذلك ، ولا خطر ببالي أن إنسانًا في الوجود يقدم عليه ، ولو كان في استطاعتي أن أكشف أمرك وأهتك الستر عن جريمتك لفعلت ، ولكنني لا أستطيع أن أفعل ، إشفاقًا على سمعة ذلك الرجل المسكين الذي قضى عليه سوء حظه أن يكون شريكًا لك في حياتك ، وفي جرائمك ، فعيشي معذبة مثلي فريسةلآلامك وأحزانك ، واستنفذي ماء شئونك حزنًا على الذي فاتك والزوج الذي رحل عنك ؛ واسهري لياليك الطوال خائفة مرتعبة من شبح الجريمة التي اجترمتها ، وخيال الدماء التي سفكتها ، وليطر قلبك خوفًا وهلعًا كلما ذكرت أنك قد وضعت في يد الولد سيفًا ليقتل به الوالد ، فمات الوالد قتيلًا وعاش الولد معذبًا ، ولتطل حياتك على ظهر الأرض لتطول آلامك وأحزانك ، حتى إذا نزل بك الموت نزل بهيكل يابس من العظم ، قد أحرقته اللوعات وأضوته الحسرات ، وافترسته الهموم والأحزان .

وهنا سمعت ضجة عظيمة في الساحة ، وهاتفون يهتفون : الملك! الملك! فاكتأب قسطنطين وتقبض وجهه ، وتهللت بازيليد وتطلقت وطوت وثيقة العهد برفق ووضعتها في جيبها ، ثم قالت له : نعم ، إنني سأعيش يا قسطنطين حزينة باكية كما قلت ما من ذلك بد ؛ ولكني لا آذن لك أن تعيش يومًا واحدًا بعد اليوم على ظهر الأرض

حتى لا ترى بعينيك مصائبي وآلامي ، وتشمت بهمومي وأحزاني ، فقد دسست له الدسيسة في الجيش حتى ثار عليك ووضع في عنقك ذلك الغل الثقيل ، غل الخيانة الذي لا خلاص لك منه ، وسترى الآن بقية ثأري وانتقامي!

وهنا دخل الملك والجنود من حوله يتقدمهم لازار ، وهو يصيح وهم يصيحون من خلفه : إنه خائن يا مولاي ، قد مالأ الأعداء علينا ، إنه أفنى رجالنا ، ورمل نساءنا ، ويتم أطفالنا ، فأعدنا عليه وانتقم منه وللوطن! والملك يقول : دعوني وشأني ، لا أصدق شيئًا مما تقولون ، ثم التفت إلى قسطنطين ، وقال له : أيها البطل العظيم ؛ إن الوطن في خطر ، وقد جئت أستنجد بك على دفع هذه النازلة التي نزلت بنا ، وسأكون في المعركة المقبلة جنديًا من جنودك ، أقاتل بجانبك ، وأبارك خطواتك ، ولا تبتئس بما يقول هؤلاء القوم ، فإنهم لا يعلمون من أمرك شيئًا ؛ إنا لا نعرف اليوم تحت سماء البلقان بطلًا غيرك ، وما كنا نعرف قبل اليوم بطلًا غير أبيك ، ولا نضمر لكما في قلوبنا غير الإجلال والإعظام لمكانكما من خدمة الوطن وحمايته والذود عنه ، أما الحظ الذي فارقك في تلك الوقائع الماضية فأبشرك أن عهد فراقه لا يطول ، وأنه سيعود إليك بعد أيام قلائل بالوجه الطلق الجميل ، وستمحو بانتصاراتك المقبلة جميع آثار تلك الهزائم السالفة ، ثم التفت إلى الجنود ، وقال لهم : يا أبطال البلقان وحماته ، لا تخذلوا قائدكم ، ولا تخفروا ذمته فهو سيدكم اليوم ، وابن سيدكم بالأمس ، واعلموا أنني لا أصغي إلى تهمة لا أعرف لها برهانًا ، ولا دليلًا .

فصمت القوم صمتًا عميقًا ، وساد بينهم السكوت هنيهة ، وقد بدأت مراجل غيظهم وموجدتهم تفتر وتتقاصر ، وهنا انفرج الجمع ، وإذا ببازيليد تتقدم رويدًا كما ينساب من مكمنه الأرقم نحو موقف الملك حتى مثلت بين يديه ، وقالت له بصوت عال سمعه جميع الجنود : أنا التي أقدم لك على تهمته الدليل والبرهان! فدهش الملك عند رؤيتها ، وقال : الأميرة؟ قالت : نعم يا مولاي ، أرملة القائد ميشيل برانكومير ، إنني أتهم هذا الرجل بخيانة قومه وممالأة أعدائهم عليهم ، وأقول لك إنه كتب بينه وبينهم عهدًا على أن يفتح لهم أبواب البلاد في الساعة التي يريدونها ، فيمنحوه في مقابل ذلك عرش البلقان وتاجه ، وقد دعاني الساعة ليشركني معه في هذه الجريمة التي يريد اقترافها ، ويسألني أن أساعده عليها ، فلم أرَ بدًا من أن أرفع أمره إليك ؛ أما البرهان الذي تريده فها هو ذا ؛ ومدت يدها إليه بتلك الوثيقة فتناولها الملك ذاهلًا وأخذ يقرؤها ، وهو يرتعد ويرتجف ، ويقول في نفسه : ماذا أرى؟ إخلاء الحدود! اجتياز الجبال! العرش! ختم برانكومير يا للهول ويا للفظاعة! ثم نظر إلى قسطنطين ، فإذا هو تمثال جامد لا يتحرك ، ولا يطرف ، فتقدم نحوه خطوة ، وقال : ما هي كلمتك يا قسطنطين؟ فصمت ، ولم يقل شيئًا فالتفتت بازيليد ، وقالت له : أتستطيع أن تنكر شيئًا مما أقول؟ فأوثقته وثاقًا لا يستطع معه قبضًا ولا بسطًا ، إلا أنه رفع رأسه ونظر إليها نظرة غريبة مبهمة لم يعلم غيرها ماذا يريد بها ، ثم عاد إلى صمته وإطراقه ، فهاج الجند وأخذوا يصيحون : القتل القتل ! الانتقام الانتقام !

وظل الملك يشير إليهم يدعوهم إلى السكون والهدوء حتى هدأوا ، فتقدم نحو قسطنطين خطوة ثانية ووضع يده على كتفه وسأله مرة أخرى : ماذا تقول يا قسطنطين؟ دافع عن نفسك ، فإن سكوتك حجة عليك ، لا تصمت ، ولا تطرق ، وقل كلمة واحدة فإني أصدقك في كل ما تقول ، فاستمر في صمته وإطراقه ، وهو يقول في نفسه : كيف أدافع عن نفسي وأي سبيل أسلكه إلى ذلك ، والسبل جميعها وعرة شائكة ، لا تقوى قدمي على اجتيازها إنني لا أستطيع أن أبرئ نفسي إلا إذا اتهمت أبي ، وقد قتلته مرة فلا أقتله مرة أخرى! ثم ابتسم ابتسامة الممتعض ، وقال في نفسه : قد كنت أطلب الموت بكل سبيل حتى جاءني يسعى إليّ بقدميه ، فلم أخشاه وأرتاع منه؟ فليكن ما أراد الله أن يكون ، ثم رفع رأسه إلى الملك وقال له : ليس عندي ما أقوله لك يا سيدي فاصنع بي ما تشاء .

فصاح الجمهور : ليسقط الخائن! ليقتل المجرم! وهجموا عليه ليفتكوا به ، فاعترض الملك طريقهم وقال لهم : دعوه وشأنه ، فإن أمره موكول إلى مجلس القضاء ، أما نحن فليس بين أيدينا إلا أن نفكر الآن في الطريق إلى الدفاع عن وطننا وحمايته ، ودفع هذه النازلة الملمة بنا ، فسيروا بنا أيها الجنود الأبطال إلى ساحة الحرب ، وأنا قائدكم .

ثم التفت إلى الحرس وأمرهم بالقبض على قسطنطين والذهاب به إلى السجن حتى يفصل القضاء في أمره .

فهتف به قسطنطين وقال : لي كلمة واحدة أحب أن أقولها لك يا مولاي ، فذهب بازيليد ، وارتعد لازار ، واشرأب القوم بأعناقهم ، والتفت إليه الملك وقال : ماذا تريد أن تقول؟ قال : أنت تعلم يا مولاي أنني جندي قديم ولدت في ساحة الحرب ، وقضيت حياتي في ميادينها ، ولا أمنية لي في الحياة غير أن أموت فيها ؛ وأنت الآن قائد الجيش وصاحب الأمر والنهي فيه ، فأذن لي أن أسير في ركابك جنديًا صغيرًا ، لا قائدًا ولا أميرًا ، لأقاتل معكم حيث تقاتلون ، ولك عليّ عهد الله وميثاقه ألا أعود من تلك المعركة إلا منتصرًا أو محمولًا على الأعواد إلى حيث آوي إلى منزلي الأخير الذي لا رجعة لي منه ، علني أكفر بذلك عن زلتي التي زللتها ، وأنتقم من نفسي بنفسي ؛ فعجب الملك لأمره وظل يردد نظره في وجهه هنيهة وكأن نفسه كانت تحدثه ببراءته وطهارته ، إلا أنه لم يلبث إلا قليلًا حتى زوى وجهه عنه وقال له : لا أستطيع أن أذن لك بشيء ، فالموت في ساحة الحرب منزلة لا ينالها إلا الأمناء المخلصون!

فتنفس الجميع الصعداء وخرج الملك تحيط به جنوده وحراسه وهو يردد بينه وبين نفسه : وا رحمتاه لك أيها الفتى المسكين ! المسكين!

فتقدم الحراس إلى قسطنطين فقيدوه ، وجاءت بازيليد فوقفت بجانبه وقال بصوت خافت لا يسمعه سواه : نعم ، إنني سأقضي ما بقي من أيام حياتي حزينة باكية متألمة كما قلت ، ولكنني قد انتقمت لنفسي بنفسي وحسبي ذلك وكفى ، فلم يرفع نظره إليها احتقارًا وازدراء ، بل رفع رأسه إلى السماء وقال : قد كنت أسألك الموت يا رب في كل حين ، وأضرع إليك فيه ليلي ونهاري ، فبعثت به إليّ في أفظع صورة وأهولها ، فامدد إلي يد معونتك ورحمتك ، لأستطيع أن أشرب الكأس حتى ثمالتها وخذ بيدي في شدتي فقد تخلى الناس جميعًا عني ، وأصبحت أحتمل ما أحتمل من الآلام وحدي ، وليس بجانبي من يخفف لوعتي ، أو يمسح بيده دمعة من دموعي .

فخرجت ميلتزا من وراء ستار كانت مختبئة في طياته ، وتقدمت نحوه وجثت تحت قدميه الموثقتين وقالت له : لست وحدك يا مولاي فهأنذا! فتهلل وجهه بعد عبوسه وقال : أحمدك اللهم حمدًا كثيرًا .

ثم خرج مع الجنود يرسف في قيوده حتى وصلوا به إلى السجن فأودعوه وأوصدوا الباب من دونه ، فربضت ميلتزا على عتبة الباب ربوض الكلب الأمين على قبر سيده الدفين ، وأنشأت تندبه وتبكيه بكاء تهتز له جوانب الأرض وتتداعى له أركان السماء!

■ ■ ■

التمثال

انتصر الملك في الواقعة التي حضرها وقاد فيها الجيوش بنفسه انتصارًا عظيمًا كان الفضل الأكبر فيه لتلك الروح الدينية التي كان يبثها في نفوس جنده أثناء المعركة ، فقد كان يمشي بين الصفوف بطيلسانه الأسود ، والصليب في يده ، يهتف باسم المسيح والمسيحية ، وينادي : دافعوا يا أبناء يسوع عن دينكم وكنيستكم ، واعلموا أنكم إن غلبتم اليوم على أمركم فلن تقوم للصليب قائمة الدهر ، وهم يستبسلون ويستقبلون ويصبرون للموت صبر الكرام ، حتى برقت لهم بارقة النصر ، فأطبقوا على جيوش العدو من كل جانب ، وتقهقرت أمامهم إلى ما وراء الحدود وتخلت عن جميع المعابر والجبال التي اجتازتها بالأمس ، فاحتفل الشعب بهذا النصر احتفالًا عظيمًا دام عدة أيام ، ولم يكن للناس حديث فيه سوى حديث قسطنطين وجريمته التي اجترمها والجزاء الذي سيلقاه في سبيلها وكلهم يتمنى بجدع أنفه أن يشاهد مصرعه ، ويرى دماءه تتدفق من بين لحييه .

ولم يزل هذا شأنهم حتى دنا اليوم الذي يجتمع فيه مجلس القضاء للنظر في تلك القضية ، فذهب الملك ليلة المحاكمة إلى السجين في سجنه ، وخلا به ساعة يسأله عن جريمته وشركائه فيها وأعوانه عليها ، وحاول في ذلك محاولة كثيرة ،

فلم ينطق بشيء ولا دافع عن نفسه بحرف واحد ، حتى عي الملك بأمره فأمر بإخراجه من السجن إلى الساحة العامة المقام فيها تمثال أبيه ، وأمر أن يشد بأغلال إلى قاعدة التمثال نكاية به وتمثيلًا ، ثم قال له : أنظر أيها الخائن ماذا بنى أبوك لنفسه من المجد ، وماذا صنعت يدك بذلك البناء الذي ابتناه! وتركه وانصرف .

فلما انفرد بنفسه أطرق ساعة يفكر في شأنه وفي مصيره الذي صار إليه ، ثم رفع رأسه إلى التمثال ، وكان الليل قد هدأ وسكن ونامت كل عين فيه حتى عيون العسس والحراس ، فأنشأ يناجيه ويقول

هنيئًا لك أيها الرجل مجدك وعظمتك وتمثالك الشامخ الرفيع الذاهب يعلوه في آفاق السماء! هنيئًا لك الصيت البعيد والشهرة الذائعة والشرف الخالد المسجل لك في صفحات التاريخ ؛ وأن الناس لا يمرون بتمثالك حتى يجثوا تحت قاعدته جثيهم تحت قدمي الإله المعبود! أترى بعد ذلك أنك مظلوم أو مغبون ، أو أن الضربة التي أصابتك من يدي قد حرمتك شيئًا في هذه الحياة تندبه وتأسف عليه؟

لقد كنت في الساعة الأخيرة من أيام حياتك ، ولم يكن بينك وبين الانحدار إلى قبرك إلا بضع خطوات قصار ، فكل ما كان مني لك أنني أنقذتك من تلك الميتة الدنيئة السافلة التي كنت تريدها لنفسك ، وقدمت لك بدلًا منها ميتة شريفة مقدسة ترمقها العيون وتنقطع من دونها الأعناق ، وألبستك تاجًا أشرف من ذلك التاج الذي كنت تطلبه وتسعى إليه وأجلستك على عرش أرفع من جميع عروش الأرض ، وهو عرش التاريخ!

لا تستبق في نفسك شيئًا من الضغن عليّ ، ولا تضمر لي في قلبك وأنت في عالم الحقيقة المجردة الذي لا يخالطه كذب ولا رياء ، غير ما يجب على المريض المبل أن يضمره لطبيبه الذي شفاه من دائه ، وأنقذه من شقائه ، فإن كان لابد لك أن ترى أنني أجرمت إليك ووترتك فهأنذا أكفر عن جريمتي بأعظم ما كفر به مجرم عن جريمته!

انظر يا أبت ماذا صنعت فعلتك التي فعلت بولدك ، ها هو الغل يحيط بعنقه حتى كان يخنقه وها هي القيوم تعض قدميه وتدميها وها هو السيف مجرد فوق هامته لا تطلع الشمس من مشرقها حتى يسقط عليها فيفصلها عن جثتها ، وها هم الناس جميعًا رجالًا ونساء ، كبارًا وصغارًا ، يلعنونه بألسنتهم وقلوبهم في كل مكان ، ويضمرون له من الحقد والبغضاء ما لو امتد إلى جسمه لأحرقه وأحاله رمادًا باردًا!

أنت المجرم وأنا المعاقب ، أنت الخائن وأنا المأخوذ بخيانتك ، أنت الممتع بنعمة الشرف العظيم الذي لا تستحقه ، وأنا المتسربل بسربال الخيانة الدائمة التي لا أستحقها؟ لقد أخطأ القدر في أمرنا مرتين فرفعك من حيث تستحق الوضع ، ووضعني من حيث أستحق الرفع ولو أنه أنصف في حكمه بيننا لأخذ كل منا مكان صاحبه ، فأصبح التمثال لي ، وأصبح السجن لك!

هنيئًا لك مجدك وشرفك وصيتك وسمعتك ، أهنئك لا تهنئة الهازئ الساخر ، بل تهنئة الفارح المغتبط لأنك أبي ورئيس أسرتي ، وسيد قومي وحبيب إليّ جدًا يعيش أبي عظيمًا في حياته وبعد مماته!

إن آلامي يا أبت عظيمة جدًا لا تستطيع أن تحتملها نفس بشرية في العالم ولكن يهونها عليّ أني أموت من أجلك وفي سبيل مجدك وشرفك وأنني لم أخرج من الدنيا حتى رأيت تمثالك العظيم مشرفًا من علياء سمائه على جبال البلقان وهضابها كما تشرف الشمس من أبراجها على ما تحتها .

ما أنا بنادم على ما كان ولا خائف مما يكون ، فليأت الموت إليّ في الساعة التي يريدها ، فقد قمت بواجبي لك ولبلادي ؛ وحسبي ذلك وكفى .

كان لابد لي أن أقتلك ففعلت ، ولكنني قتلتك فيجب أن أقتل بك ، كلانا أجرم وكلانا لقي جزاء إجرامه .

أجرمت إلى الوطن فانتقمت له منك وأجرمت إلى الطبيعة فمن العدل أن تنتقم لنفسها مني ، فما ظلم أحد منا صاحبه ولا اعتدى عليه .

ارفع رأسك أيها الرجل تيهًا وعجبًا ، وزاحم بمنكبيك أجرام السماء وكواكبها ، فقد غسل ابنك بدمه جرمك وعارك ، فإن لم تكن شريفًا بنفسك فحسبك شرفًا أنك والد الولد الشريف .

ولم يزل في مناجاته هذه حتى مضت هدأة من الليل ، فالتفت بردائه ووضع رأس على قاعدة التمثال وأسلم نفسه إلى نوم طويل .

■ ■ ■

النهاية

ازدحم الناس يوم المحاكمة في الساحة الكبرى ازدحامًا عظيمًا ينتظرون عودة الملك من مجلس القضاء ليعلن حكمه أمام المتهم ، والمتهم هادئ ساكن تحت قاعدة التمثال لا ينتظر شيئًا ، لأنه يعلم أن الموت جزاؤه الحتم ، وقد وطن نفسه عليه فلم يعد يحفل به .

وإنهم لكذلك إذ أقبل الملك تحيط به حاشيته ، فاشرأبت إليه الأعناق لسماع كلمته ، ولم يزل سائرًا بين الصفوف حتى وقف أمام المتهم فنظر إليه نظرة طويلة ، ثم صاح بأعلى صوته : يا قسطنطين برانكومير إن الجريمة التي اقترفتها عظيمة جدًا لا يفي بها قتلك وسفك دمك لذلك رأى مجلس القضاء أن يحكم عليك بالحياة بدلًا من الموت .

فقاطعته الجماهير : الموت الموت! لابد من قتله! لا يمكن أن يعيش! فأشار إليهم بالهدوء والسكون حتى يسمعوا بقية كلامه ، فهدأوا ، فاستمر يقول : وأن تظل طول أيام حياتك مقرونًا بأغلالك هذه إلى قاعدة تمثال أبيك ، ليتردد وجهه في وجهك ليلك ونهارك ، فتموت في مكانك حياء منه وخجلًا ، وأن يؤذن لكل مار بك من علية الناس وغوغائهم أن يبصق على وجهك ويصفعك على قذالك ، وينال منك ما يشاء إلا أن يسلبك حياتك .

فصاحت الجماهير : يعيش الملك يحيا العدل! يسقط الخائن ، وظلوا يرددون هذه الكلمات وأمثالها وقتًا طويلاً .

هنا ذرفت عينا الرجل العظيم الذي لم يبك في يوم من أيام حياته لضربة سيف ، أو طعنة رمح ، أو رشقة سهم ، وعلا صوت نحيبه ونشيجه كما تفعل النساء الضعيفات في مواقف حزنهن وثكلهن ، وما كان مثله من يبكي أو يذرف دمعة واحدة من دموعه لو أن الذي كتب له في صحيفة الغيب من الشقاء كان الوقوف بين السيف والنطع ، أو السقوط بين آلات العذاب تنال من جسمه وأطرافه ما تشاء ؛ ولكنه الشرف ، شديدًا جدًا على صاحبه أن تنزل به نازلة مذلة ، أو يتصل به ظفر جارح من أظفار الهوان فإذا شعر بشيء من ذلك هاله الأمر وراعه ، وخارت عزيمته ؛ ووهنت قوته ، فبكى بكاء الضعفاء ، وأعول إعوال النساء ، ولقد رضي قسطنطين من حظه من الحياة بالموت فرارًا من العار الذي لحقه ؛ وهربًا من نظرات الناظرين إليه ، وموجدة الواجدين عليه ، أما وقد علم أنه سيعيش والعار معًا رفيقين متلازمين لا يفترقان ولا ينفصلان ، فلم يبق بين يديه سبيل غير البكاء ، فبكى ما شاء الله أن يفعل ، وأخذ يردد بينه وبين نفسه : يا للبؤس! ويا للشقاء! لقد استحال عليّ كل شيء حتى الموت!

ثم رفع طرفه إلى السماء ، وقال بصوت خافت متقطع : رحمتك اللهم وإحسانك ، فقد أصبحت عاجزًا ضعيفًا لا أملك من شئون نفسي شيئًا فامدد إليّ يد عنايتك ولطفك لأستطيع أن أتمم واجبي إلى النهاية!

وهنا وقف لازار فوق هضبة مرتفعة – وكان لا يزال رأس الفتنة وشعلتها – وأخذ يصرخ بصوت عال قائلًا : إن رأى مولانا الملك أن يأذن لنا بتنفيذ أمره الساعة ، فقد أوشكت صدورنا أن تنفجر ؛ فصاح الجمهور من ورائه صيحته ، ودعوا بمثل دعوته! فاصفر وجه الملك وارتجفت أطرافه ارتجافًا خفيفًا ، ثم قال بصوت خافت متهافت لكم ما تشاءون! وتحول من مكانه يريد الانصراف .

وهنا برزت ميلتزا من بين الجماهير ، واندفعت نحو قسطنطين تسبق المندفعين إليه ، وهي تقول: فليبق لك أيها المسكين على الأقل قلب واحد يرحمك ويعطف عليك! وضمته إلى صدرها كأنما تريد أن تقيه بنفسها ، فسمع الملك صوتها فالتفت فرآها ، ولم يكن يعرف من شأنها شيئًا ، فعجب لأمرها وأشار إلى الجماهير بالسكوت حتى يعلم ما خطبها ، ثم مشي نحوها وقال لها : أتعلمين أيتها الفتاة من هذا الذي تحمين ، وما جريمته التي اقترفها! فرفعت رأسها إليه وألقت عليه نظرة الليث في عرينه ، وقالت له : لا أعلم من أمره شيئًا سوى أنني أحبه ، ولا آذن لأحد أن يناله بمكروه وفيّ بقية رمق من الحياة! قال : إنه ارتكب جريمة الخيانة الكبرى للأمة والوطن ، وقد حكم عليه مجلس القضاء بالتعذيب ، ولابد من إنفاذ حكمه ، قالت : إن الحب فوق العدل وفوق القانون وفوق كل شيء في العالم فمزقوني إربًا إربًا لتستطيعوا أن تصلوا إليه .

فلمعت في ثغر قسطنطين ابتسامة في وسط هذه الدجنة الحالكة من الهموم والأحزان ، وضمها إلى نفسه وقال لها : شكرًا لك يا ميلتزا .

فقد أحييت نفسي الميتة ، وسريت عني همومي وآلامي ، ذودي عني يا صديقتي وصوني وجهي من العار الذي يريدون أن يلصقوه به فلم يبق لي في العالم من يرحمني ويعطف عليّ سواك!

وأخذت الجماهير تصيح : اقتلوهما معًا ، مزقوا جسميهما بالسيوف وانثروا أشلاءهما في الفضاء .

ثم تدافعوا نحوهما تدافع الصخور الهائلة من أعالي الجبال ، فصاحت ميلتزا : أيها الوحوش الضارية ، والخلائق الساقطة ، مهما كثر عددكم ، وعظمت قوتكم ، فإنكم لن تستطيعوا أن تصلوا إليه أو تلحقوا به إهانة من الإهانات التي تضمرونها في نفوسكم ، فإن أبيتم إلا أن تفعلوا فاعلموا أنني أنا الفتاة الضعيفة المسكينة قادرة على أن أخلصه من أيديكم! فلم يحفلوا بكلامها ، ولم يفهموا غرضها ، واستمروا في اندفاعهم وتدفقهم .

وهنا حدث ذلك الحادث الهائل الذي شخصت له الأبصار وذهلت له العقول وجمدت لمنظره الدماء في العروق ، فقد علمت ميلتزا أن القضاء واقع لا مفر منه ، وأن القوم لابد بالغون من قسطنطين ما يريدون ، وأن لا طاقة لها بحمايته والذود عنه ،

وهالها هولًا عظيمًا وكبر في نفسها أن ذلك الوجه الشريف المتلألئ بنور الفضيلة والكرم والطهارة والبراءة يصبح هدفًا دنيئًا لهؤلاء الغوغاء الثائرين ، يلطمه من يلطم ويبصق عليه من يبصق ، فلما أصبحوا على مقربة منها ، ولم يبق بينهم وبينهما إلا بضع وثبات ، حنت عليه وهمست في أذنه قائلة : في استطاعتك يا سيدي أن تنجي نفسك بكلمة واحدة تعترف فيها بكل شيء ! فرفع طرفه إلى السماء ، ثم ألقاه على تمثال أبيه ، ثم نظر إليها نظرة دامعة حزينة وقال : « لا أستطيع »!

فجردت من منطقتها خنجرها الذي كانت قد استهدته إياه فيما مضى ، ورفعته في الهواء ثم طعنته به في صدره طعنة نجلاء ، وهي تقول : مت شريفًا أيها الرجل العظيم كما عشت شريفًا ، وسأتبعك إلى سمائك التي تصعد إليها ؛ فسقط مدرجًا بدمائه ، وهو يقول بصوت ضعيف متقطع : شكرًا لك يا ميلتزا .

وكان القوم قد بلغوا موقفهما ، فرفعت الخنجر مرة أخرى وطعنت نفسها فترنحت قليلًا ثم سقطت على مقربة منه ، وكان لا يزال يعالج السكرة الأخيرة ، ففتح عينيه فرآها ، فأخذ يسحب نفسه سحبًا حتى بلغ مصرعها ، فألقى يده عليها وظل يجذبها نحوه كأنما يحاول أن يضمها إلى نفسه فلم يستطع ، فسقط رأسه على صدرها فشعرت به فضاءت ما بين شفتيها ابتسامة ضئيلة لم تلبث أن انطفأت وتغلغلت في ظلمات الموت ، وظلا على هذه الحالة حتى فاضت نفساهما .

فأثر هذا المنظر الرهيب في نفوس الجماهير ، وسكنوا في مواقفهم سكونًا عميقًا لا تتخلله نأمة ولا حركة ، وظلوا على ذلك ساعة حتى نطق الملك بصوت خشن أجش تخالطه رنة الحزن والأسف قائلًا : أيها المسيحيون صلوا جميعًا لهذين البائسين الشقيين ، واسألوا الله لهما الرحمة والغفران .

ثم رفع قلنسوته وجثا على ركبتيه ، فرفع القوم قبعاتهم وجثوا حول الجثتين وأخذوا يتلون صلواتهم بنغمة حزينة مؤثرة ، كأنما هم يبكون عزيزًا عليهم ، أو شهيدًا من شهدائهم ، وما فعلوا غير ذلك لو كانوا يعلمون .

***

ظلت هذه الحقيقة مجهولة لا يعلمها أحد من الناس خمسة وثلاثين عامًا ، حتى حضر « بازيليد » الموت ، فظلت تهذي بها في مرضها وترددها في يقظتها وأحلامها ، وتتألم لذكراها ألمًا شديدًا على مسمع من كاهنها وعوادها ، حتى فاضت روحها ؛ فعلم الناس ولكن بعد عهد طويل ، وبعد أن تبدلت شئون البلقان غير شؤونه – أن « قسطنطين برانكومير » أشرف الناس وأفضلهم ، وأعظمهم وطنية وإخلاصًا ، لأنه ضحى أباه في سبيل إنقاذ وطنه ، ثم ضحى نفسه في سبيل إنقاذ شرف أبيه ، فبلغ في وطنيته وشرف نفسه الغاية التي لا غاية وراءها .

« تمت »

مختارات المنفلوطي

ترجمة المنفلوطي

نشأته وحياته :

ولد السيد مصطفى لطفي بمنفلوط من أعمال محافظة أسيوط سنة (1293هـ - 1876م) ونشأ في بيت كريم بالدين جليل بالفقه توارث أهله قضاء الشريعة ونقابة الصوفية قرابة مائتي سنة ، ونهج المنفلوطي سبيل آبائه في الثقافة فحفظ القرآن في المكتب ، وتلقى العلم بالأزهر ، ولكنه كان على الرغم من ورع قلبه ورعاية أبيه لا يلقي باله كثيرًا لغير علوم اللسان وفنون الأدب ، فهو يحفظ الأشعار ويتصيد الشوارد ويصوغ القريض وينشئ الرسائل ، وتسير له شهرة في الأزهر بذكاء القريحة وروعة الأسلوب فيقربه الأستاذ محمد عبده ، ويرسم له الطريقة المثلى إلى الغاية من الأدب والحياة ، ثم يستفيد المنفلوطي من قربه إلى الإمام صلته بسعد باشا زغلول ، ومن زلفاه لدى هذين العظيمين نُفُوقَه لدى صاحب « المؤيد » ، وهؤلاء الثلاثة كانوا أقوى العناصر في تكوين المنفلوطي الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد والده ، وفي أثناء طلبه العلم في الأزهر نسب إليه أنه هجا الخديوي عباس حلمي الثاني بقصيدة نشرها في إحدى الصحف الأسبوعية فحكم عليه من أجلها بالحبس وقضى في السجن مدة العقوبة .

ولما قبض الله الإمام إلى رحمته جزع المنفلوطي فيه على رجائه وسنده ، وارتد مقطوع الرجاء إلى بلد ثم نعش الله عاثر أمله بعد فترة من الزمن ، فهب يبتغي في جريدة « المؤيد » الوسيلة والنجاح ، ثم صارت إلى سعد باشا وزارة المعارف فعينه محررًا عربيًا لها ، ولما تحول إلى وزارة الحقانية « العدل » حوله معه وولاه مثل هذا المنصب ، ثم انتقل الحكم إلى غير حزبه فنقل من عمله ، حتى إذا قام البرلمان عيّنه سعد باشا في وظيفة كتابية بمجلس النواب ظل فيها حتى توفاه الله وهو في العقد الخامس من عمره .

أخلاقه :

كان المنفلوطي قطعة موسيقية في ظاهره وباطنه ؛ فهو مؤتلف الخلق ، متلائم الذوق ، متناسق الفكر ، متسق الأسلوب ، منسجم الزي ، لا تلمح في قوله ولا في فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز الفدامة ، كان صحيح الفهم في بطء ، سليم الفكر في جهد ، دقيق الحس في سكون ، هيوب اللسان في تحفظ ، وهذه الخلال تظهر صاحبها للناس في مظهر الغبي الجاهل ، فهو لذلك كان يتقي المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة ؛ ثم هو إلى ذلك رقيق القلب عف الضمير سليم الصدر صحيح العقيدة نفاح اليد موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته ووطنيته وإنسانيته .

أسلوبه وأدبه :

كان المنفلوطي أديبًا موهوبًا ، حظ الطبع في أدبه أكثر من حظ الصنعة ، لأن الصنعة لا تخلق أدبًا مبتكرًا ولا أديبًا ممتازًا ولا طريقة مستقلة ؛ وكان النثر الفني على عهده لونًا حائلًا من أدب القاضي الفاضل ، أو أثرًا مائلًا لفن ابن خلدون ؛ ولكنك لا تستطيع أن تقول إن أسلوبه كان مضروبًا على أحد القالبين ، إنما كان أسلوب المنفلوطي في عصره كأسلوب ابن خلدون في عصره ، بديعًا أنشأه الطبع القوي على غير مثال .

عالج المنفلوطي الأقصوصة أول الناس وبلغ في إجادتها شأوًا ما كان ينتظر ممن نشأه كنشأته في جيل كجيله ، وسر الذيوع في أدب المنفلوطي أنه ظهر على فترة من الأدب اللباب ، وفاجأ الناس بهذا القصص الرائع الذي يصف الألم ويمثل العيوب في أسلوب طلي وبيان عذب وسياق مطر ولفظ مختار ، أما صفة الخلود فيه فيمنع من تحقيقها أمران : ضعف الأداة وضيق الثقافة ، أما ضعف الأداة فلأن المنفلوطي لم يكن واسع العلم بلغته ولا قوي البصر بأدبها ، لذلك نجد في تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ في غير موضعه ، وأما ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق ، ولم يتصل اتصالًا مباشرًا بعلوم الغرب ، لذلك تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة .

وجملة القول أن المنفلوطي في النثر كان كالبارودي في الشعر : كلاهما أحيا وجدد ، ونهج وعبّد ، ونقل الأسلوب من حال إلى حال .

مؤلفاته ومترجماته :

له كتاب « النظرات » في ثلاثة أجزاء جمع فيه ما نشره في المؤيد من الفصول في النقد والاجتماع والوصف والقصص ، وكتاب « العبرات » وهو مجموع من الأقاصيص المنقولة والموضوعة ، ثم « مختارات المنفلوطي » من أشعار المتقدمين ومقالاتهم ، وقد ترجم له بعض أصدقائه عن الفرنسية : تحت ظلال الزيزفون « مجدولين » لألفوني كار ، وبول وفرجيني « الفضيلة » لبرنار دي سان بيير ، وسيرانو دي برجراك « الشاعر » لإدمون رستان ، فصاغها بأسلوبه البليغ الرصين صياغة حرة لم يتقيد فيها بالأصل ، فأضافت إلى ثراء الأدب العربي ثروة ، وكانت للفن القصصي الحديث قوة وقدرة .

■ ■ ■

آثار أقلامه

الهاوية

ما أكثر أيام الحياة وما أقلها!

لم أعش من تلك الأعوام الطوال التي عشتها في هذا العالم إلا عامًا واحدًا مر بي كما يمر النجم الدهري في سماء الدنيا ليلة واحدة ثم لا يراه الناس بعد ذلك .

قضيت الشطر الأول من حياتي أفتش عن صديق ينظر إلى أصدقائه بعين غير العين التي ينظر بها التاجر إلى سلعته ، والزارع إلى ماشيته ، فأعوزني ذلك حتى عرفت فلانًا منذ ثمانية عشر عامًا فعرفت أمرًا ما شئت أن أرى خلة من خلال الخير والمعروف في ثياب رجل إلا وجدتها فيه ولا تخيلت صورة من صور الكمال الإنساني في وجه إنسان إلا أضاءت لي في وجهه فجلت مكانته عندي ونزل من نفسي منزلة لم ينزلها أحد من قبله وصفت كأس الود بيني وبينه لا يكدرها علينا مكدر حتى عرض إلي من حوادث الدهر ما أزعجني عن مستقري فهجرت القاهرة إلى مسقط رأسي غير آسف على شيء فيها إلا على فراق ذلك الصديق الكريم فتراسلنا حقبة من الزمن ثم فترت عني كتبه ثم انقطعت فحزنت لذلك حزنًا شديدًا وذهبت بي الظنون في شأنه كل مذهب إلا مذهبًا واحدًا

وهو الشك في صدقه ووفائه ، وكنت كلما هممت بالمسير إليه لتعرف حاله قعد بي عن ذلك هم كان يقعدني عن كل شأن حتى شأن نفسي فلم أعد إلى القاهرة إلا بعد سبعة أعوام فكان أول همي يوم هبطت أرضها أن أراه فذهبت إلى منزله في الساعة الأولى من الليل فرأيت ما لا تزال حسرته متصلة بقلبي حتى اليوم .

تركت هذا المنزل فردوسًا صغيرًا من فراديس الجنان تتراءى فيه السعادة في ألوانها المختلفة وتترقرق وجوه ساكنيه بشرًا وسرورًا ثم زرته اليوم فخيل إليّ أنني أمام مقبرة مظلمة ساكنة لا يهتف فيها صوت ولا يتراءى في جوانبها شخص ولا يلمع في أرجائها مصباح فظننت أني أخطأت المنزل الذي أريده أو أنني بين يدي منزل مهجور حتى سمعت بكاء طفل صغير ولمحت في بعض النوافذ نورًا ضعيفًا فمشيت إلى الباب فطرقته فلم يجبني أحد فطرقته أخرى فلمحت من خصاصه نورًا متحركًا ثم لم يلبث أن انفرج لي عن وجه غلام صغير في أسمال بالية يحمل في يده مصباحًا ضئيلًا فتأملته على ضوء المصباح فرأيت وجهه صورة أبيه فعرفت أنه ذلك الطفل الجميل المدلل الذي كان بالأمس زهرة هذا المنزل وبدر سمائه ، فسألته عن أبيه فأشار إليّ بالدخول ومشي أمامي بمصباحه حتى وصل بي إلى قاعة مغبرة شعثاء بالية المقاعد والأستار لولا نقوش أعرفها من قبل لاحت لي في بعض جدرانها كباقي الوشم في ظاهر اليد ما عرفت أنها قاعة التي قضينا فيها ليالي السعادة والهناء اثنى عشر هلالًا ، ثم جرى بيني وبينه حديث قصير عرف فيه من أنا وعرفت منه أن أباه لم يعد إلى المنزل حتى الساعة

وأنه عائد عما قليل ، ثم تركني ومضى وما لبث إلا قليلًا حتى عاد يقول لي : إن والدته تريد أن تحدثني حديثًا يتعلق بوالده ، فخفق قلبي خفقة الرعب والخوف وأحسست بشر لا أعرف مأتاه ثم التفت فإذا امرأة ملتفة برداء أسود واقفة على الباب فحييتها فحيتني ثم قالت لي : هل علمت ما صنع الدهر بفلان من بعدك قلت لا فهذا أول يوم هبطت فيه هذا البلد بعد ما فارقته سبعة أعوام قالت ليتك لم تفارقه فقد كنت عصمة للرجل فيه وحمى له من كل سوء فما هو إلا أن فارقته حتى أحاطت به زمرة من زمر الشيطان وكان فتى كما تعلمه غريرًا فما زالت تغريه بالشر وتزخرفه له حتى سقط فيه فسقطنا جميعًا في هذا الشقاء الذي تراه ، قلت وأي شر تريدين يا سيدتي ومن هم الذين أحاطوا به فأسقطوه؟ قالت : سأقص عليك كل شيء فاستمع لما أقول .

ما زال الرجل بخير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه وعلقت حباله بحباله وأصبح من خاصته الذين لا يفارقون مجلسه حيث كان ولا تزال نعالهم خافقة وراءه في غدواته وروحاته فقد استحال من ذلك اليوم أمره وتنكرت صورة أخلاقه وأصبح منقطعًا عن أهله وأولاده لا يراهم إلا في الفينة وعن منزله لا يزوره إلا في أخريات الليالي ، ولقد اغتبطت في مبدأ الأمر بتلك الحظوة التي نالها ذلك الرئيس والمنزلة التي نزلها من نفسه أرجو له من ورائها خيرًا كثيرًا مغتفرة في سبيل ذلك

ما كنت أشعر به من الوحشة والألم لانقطاعه عني وإغفاله النظر في شأن بيته وشؤون أولاده حتى عاد في ليلة من الليالي شاكيًا متألمًا يكابد غصصًا شديدة وآلامًا جسامًا فدنوت منه فشممت من فمه رائحة الخمر فعلمت كل شيء .

علمت أن ذلك الرئيس العظيم الذي هو قدوة مرؤوسيه في الخير إن سلك طريق الخير وفي الشر إن سلك طريق الشر قد قاد زوجي الفتى الضعيف المسكين إلى شر الطريقتين ، وسلك به أسوأ السبيلين ، وأنه ما كان يتخذه صديقًا كما كنت أظن بل كان يتخذه نديمًا ، فتوسلت إليه بكل عزيز عليه وسكبت بين يديه من الدموع كل ما تستطيع أن تسكبه عين رجاء أن يعود إلى حياته الأولى التي كان يحياها سعيًا بين أهله وأولاده فما أجديت عليه شيئًا ، ثم علمت بعد ذلك أن اليد التي ساقته إلى الشراب قد ساقته إلى اللعب فلم أعجب لذلك لأني أعلم أن طريق الشر واحدة فمن وقف برأسها لابد له من أن ينحدر فيها حتى يصل إلى نهايتها ، فأصبح ذلك الفتى النبيل الشريف الذي كان يعف بالأمس عن شرب الدواء إذا اشتم فيه رائحة الشراب ، ويستحي أن يجلس في مجتمع يجلس فيه قوم شاربون سكيرًا مقامرًا مستهترًا في حالتيه لا يتجمل ولا يتستر ولا يتقي عارًا ولا مأثمًا ، وأصبح ذلك الأب الرحيم والزوج الكريم الذي كان يضن بأولاده أن يعلق بهم الذرّ ، وبزوجته أن يتجهم لها وجه السماء ، أبًا قاسيًا وزوجًا سليطًا يضرب أولاده

كلما دنوا منه ويشتم زوجته وينتهرها كلما رآها ، وأصبح في جمع من عشرات الأشرار ، فيصعد بهم إلى الطبقة التي أنام فيها أنا وأولادي فيجلسون في بعض غرفها ولا يزالون يشربون ويقصفون حتى يذهب بعقولهم الشراب فيهتاجون ويرقصون ويملأون الجو صراخًا وهتافًا ثم يتعادون بعضهم وراء بعض في الأبهاء والحجرات حتى يلجوا على باب غرفتي وربما حاول بعضهم العبث بي أو نزع ردائي عن وجهي على مرأى منه ومسمع فلا يقول شيئًا ، ولا يستنكر أمرًا ، فأفر من بين أيديهم من مكان إلى مكان وربما فررت من المنزل جميعه وخرجت بلا أزار ولا خمار غير أزار الظلام وخماره حتى أصل إلى بيت امرأة من جاراتي فأقضي عندها بقية الليل .

وهنا تغيرت نغمة صوتها فأمسكت عن الحديث هنيهة وأطرقت برأسها فعلمت أنها تبكي فبكيت بيني وبين نفسي لبكائها ثم رفعت رأسها وعادت إلى حديثها تقول :

وما هي إلا أعوام قلائل حتى أنفق جميع ما كان في يده من المال فكان لابد له أن يستدين ففعل فأثقله الدين فرهن فعجز عن الوفاء فباع جميع ما يملك حتى هذا البيت الذي نسكنه ولم يبق في يده غير راتبه الشهري الصغير ، بل لم يبق في يده شيء حتى راتبه لأنه لا يملكه إلا ساعة من نهار ثم هو بعد ذلك ملك الدائنين ، أو غنيمة المقامرين .

هذا ما صنعت بد الدهر به أما ما صنعت بي وبأولادي فقد مر على آخر حلية بعتها من حلاي عام كامل وها هي حوانيت المرابين والمستنهرين ملأى بملابسي وأدوات بيتي وأثاثه ولولا رجل من ذوي قرباي رقيق الحال يعود علي من حين إلى حين بالنزر القليل مما يستله من أشداق عياله لهلكت وهلك أولادي جوعًا ، فلعلك تستطيع يا سيدي أن تكون عونًا لي على هذا الرجل المسكين فتنقذه من شقائه وبلائه بما ترى له في ذلك من الرأي الصالح وأحسب أنك تقدر منه للمنزلة التي تنزلها من نفسه على ما عجز عنه الناس جميعًا فإنك إن فعلت أحسنت إليه وإلينا إحسانًا لا ننسى يدك فيه حتى الموت .

ثم حيتني ومضت لسبيلها فسألت الغلام عن الساعة التي أستطيع أن أرى أباه فيها في المنزل فقال إنك تراه في الصباح قبل ذهابه إلى الديوان فانصرفت لشأني وقد أضمرت بين جنبي لوعة ما زالت تقيمني وتقعدني وتذود عن عيني سنة الكرى حتى انقضى الليل وما كاد ينقضي ثم عدت في صباح اليوم الثاني لأرى ذلك الصديق القديم الذي كنت بالأمس أسعد الناس به ولا أعلم ما مصير أمري غدًا وفي نفسي من القلق والاضطراب ما يكون في نفس الذاهب إلى ميدان سباق قد راهن فيه بجميع ما يملك فهو لا يعلم أيكون بعد ساعة واحدة أسعد الناس أم أشقاهم .

***

الآن عرفت أن الوجوه مرايا النفوس تضيء بضيائها وتظلم بظلامها ، فقد فارقت الرجل منذ سبع سنين فأنستني الأيام صورته ولم يبق في ذاكرتي منها إلا ذلك الضياء اللامع ضياء الفضيلة والشرف الذي كان يتلألأ فيها تلألؤ نور الشمس فوق صفحتها فلما رأيته الآن ولم أر أمام عيني تلك الغلالة البيضاء من الضياء خيل إلي أني أرى صورة غير الصورة الماضية ورجلًا غير الذي أعرفه من قبل .

لم أر أمامي ذلك الفتى الجميل الوضاح الذي كان كل منبت شعرة في وجهه فمًا ضاحكًا تموج فيه ابتسامة لامعة بل رأيت مكانه رجلًا شقيًا منكوبًا قد لبس الهرم قبل أوانه وأوفى على الستين قبل أن يسلخ الثلاثين فاسترخى حاجباه وثقلت أجفانه وجمدت نظراته وتهدل عارضاه وتجعد جبينه واستشرف عاتقاه وهوى رأسه بينهما هوية بين عاتقي الأحدب فكانت أول كلمة قلتها له : لقد تغيرت فيك كل شيء يا صديقي حتى صورتك ، وكأنما ألم بما في نفسي وعلم أني قد علمت من أمره كل شيء فأطرق برأسه إطراق من يرى أن باطن الأرض خير له من ظاهرها ولم يقل شيئًا ، فدنوت منه حتى وضعت يدي على عاتقه وقلت له .

والله ما أدري ماذا أقول لك! أأعظك وقد كنت واعظي بالأمس ونجم هداي الذي أستنير به في ظلمات حياتي ، أم أدلك على ما أوجب الله عليك في نفسك وفي أهلك ولا أعرف شيئًا أنت تجهله ولا تصل يدي إلى شاردة تقصر يدك عن نيلها ، أم أسترحمك لأطفالك الضعفاء وزوجتك المسكينة التي لا عضد لها في الحياة ولا معين سواك وأنت صاحب القلب الرحيم الذي طالما خفق رحمة بالبعداء ، فأحرى أن يخفق رحمة بالأقرباء .

إن هذه الحياة التي نحياها يا سيدي إنما يلجأ إليها الهمل العاطلون الذي لا يصلحون لعمل من الأعمال ليتواروا فيها عن أعين الناس حياء وخجلًا حتى يأتيهم الموت فيخلصهم من عارهم وشقائهم وما أنت بواحد منهم .

إنك تمشي يا سيدي في طريق القبر وما أنت بناقم على الدنيا ولا متبرم بها فما رغبتك في الخروج منها خروج البائس المنتحر؟

عذرتك لو أن ما ربحت في حياتك الثانية يقوم لديك مقام ما خسرت من حياتك الأولى ، ولكنك تعلم أنك كنت غنيًا فأصبحت فقيرًا ، وصحيحًا فأصبحت سقيمًا ، وشريفًا فأصبحت وضيعًا ، فإن كنت ترى بعد ذلك أنك سعيد فقد خلت رقعة الأرض من الأشقياء .

إن كل ما يعنيك من حياتك هذه أن تطلب فيها الموت فاطلبه في جرعة سم تشربها دفعة واحدة فذلك خير لك من هذا الموت المتقطع الذي يكثر فيها عذابك وألمك ، وتعظم فيه آثامك وجرائمك؟ وما يعاقبك الله على الأخرى بأكثر مما يعاقبك على الأولى .

حسبنا يا صديقي من الشقاء في هذه الحياة ما يأتينا به القدر فلا نضم إليه شقاء جديدًا نجلبه بأنفسنا فهات يدك وعاهدني على أن تكون لي منذ اليوم كما كنت لي بالأمس فقد كنا سعداء قبل أن تفترق ثم افترقنا فشقينا ، وها نحن قد التقينا فلنعش في ظلال الفضيلة والشرف سعداء كما كنا .

ثم مددت يدي إليه فراعني أنه لم يحرك يده فقلت له : مالك لا تمد يدك إلي؟ فاستعبر باكيًا وقال : لأني لا أحب أن أكون كاذبًا ولا حانثًا قلت : وما يمنعك من الوفاء؟ قال : يمنعني منه أني رجل شقي لا حظ لي في سعادة السعداء ، قلت : قد استطعت بالأمس أن تكون شقيًا فلم لا تستطيع اليوم أن تكون سعيدًا؟ قال : لأن السعادة سماء والشقاء أرض والهبوط إلى أرض أسهل من الصعود إلى السماء ، وقد زلت قدمي عن حافة الهوة فلا حيلة لي في الاستمساك حتى أبلغ قرارتها ، وشربت أول جرعة من جرعات كأس الحياة المريرة فلابد لي أن أشربها حتى ثمالتها ، ولا شيء يقف في سبيلي إلا شيء واحد فقط ، وهو أن لا أكون قد شربت الكأس الأولى قبل اليوم ، قلت ليس بينك وبين النزوع إلا عزمة صادقة تعزمها فإذا أنت من الناجحين ، قال : إن العزيمة أثر من آثار الإرادة وقد أصبحت رجلًا مغلوبًا على أمري لا إرادة لي ولا اختيار ، فدعني يا صديقي والقضاء يصنع بي ما شاء وابك على صديقك القديم منذ اليوم إن كنت لا ترى بأسًا في البكاء على الساقطين المذنبين .

ثم انفجر باكيًا بصوت عال وتركني في مكاني دون أن يجبني بكلمة واحدة وخرج هائمًا على وجهه لا أعلم أين ذهب ، فانصرفت لشأني وبين جنبي من الهم والكمد ما الله به عليم .

***

لم يستطع رئيس الديوان أن يجامل نديمه بالأمس زمنًا طويلًا فأقصاه عن مجلسه استثقالًا له ، ثم عزله من وظيفته استنكارًا لعمله ؛ ولم تذرف عينه دمعة واحدة على منظر صريعه الساقط بين يديه ، ولم يستطع مالك البيت الجديد أن يمهل فيه مالكه القديم أكثر من بضعة شهور ثم طرده منه فلجأ هو وزوجته ووالده إلى غرفة حقيرة في بيت قديم في زقاق مهجور فأصبحت لا أراه بعد ذلك إلا ذاهبًا إلى الحانة أو عائدًا منها ، فإن رأيته ذاهبًا توارى عن عيني حياءً وخجلًا وإن رأيته عائدًا دنوت منه فمسحت عن وجهه ما لصق به من التراب أو عن جبينه ما سال منه من الدم ثم قدته إلى بيته .

وهكذا ما زالت الأيام والأعوام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله حتى أصبح من يراه يرى ظلًا من الظلال المتنقلة ، وحلمًا من الأحلام السارية يمشي في طريقه مشية الذاهل المشدوة لا يكاد يشعر بشيء مما حوله ولا يتقي ما يعترض سبيله حتى يدانيه ، ويقف حينًا بعد حين فيدور بعينيه كأنما يفتش عن شيء أضاعه وليس في يده شيء يضيع ، أو يقلب نظره في أثوابه وما في أثوابه غير الخروق والرقاع ، وينظر إلى كل وجه يقابله نظرة شزراء كأنما يستقبل عدوًا بغيضًا وليس له عدو ولا صديق ، وربما تعلق بعض الصبيان بعاتقه فدفعهم دفعًا لينًا غير آبه ولا محتفل كما يدفع النائم المستغرق عن عاتقه يد موقظه ، حتى إذا خلا جوفه من الخمر وهدأت سورتها في رأسه انحدر إلى الحانة فلا يزال يشرب ويتزيد حتى يعود إلى ما كان عليه .

ولم يزل هذا شأنه حتى حدثت منذ بضعة شهور الحادثة الآتية .

***

عجزت تلك الزوجة المسكينة أن تجد سبيلًا إلى القوت وأبكاها أن ترى ولدها وابنتها باكيين بين يديها تنطق دموعهما بما يصمت عنه لسانهما فلم تر لها بدًا من أن تركب تلك السبل التي يركبها كل مضطر عديم فأرسلتهما خادمين في بعض البيوت يقتاتان فيها ويقيتانها فكانت لا تراهما بعد ذلك إلا قليلًا ولا ترى زوجها إلا في الليلة التي تغفل عنه فيها عيون الشرطة وقلما تغفل عنه ، فأصبحت وحيدة في غرفتها لا مؤنس لها ولا معين إلا جارة عجوز تختلف إليها من حين إلى حين فإذا فارقتها جارتها وخلت بنفسها ذكرت تلك الأيام السعيدة التي كان تتقلب فيها في أعطاف العيش الناعم والنعمة السابقة بين زوج محب كريم وأولاد كالكواكب الزهر حسنًا وضياء ثم تذكر كيف أصبح السيد مسودًا والمخدوم خادمًا والعزيز الكريم ذليلًا مهانًا وكيف انتثر ذلك العقد اللؤلئي المنظوم الذي كان حلية بديعة في جيد الدهر ثم استحال بعد انتثاره إلى حصيات ملقيات على سطح الغبراء تطؤها النعال وتدوسها الحوافر والأقدام فتبكي بكاء الواله في أثر قدم طاعنين حتى تتلف نفسها أو تكاد ، على أنها ما أضمرت قط في قلبها حقدًا لذلك الإنسان الذي كان سببًا في شقائه وشقاء ولديها ولا حدثتها نفسها يومًا من الأيام بمغاضبته أو مفارقته لأنها امرأة شريفة والمرأة الشريفة لا تغدر بزوجها المنكوب ، بل كانت تنظر إليه نظر الأم الحنون إلى طفلها الصغير فترحمه ، وتعطف عليه وتسهر بجانبه إن كان مريضًا وتأسو جراحه إن كان جريحًا ، وربما طرده الخمار في بعض لياليه من حانته إن لم يجد معه ثمن الشراب فيعود إلى بيته هائجًا ثائرًا يطلب الشراب طلبًا شديدًا فلا تجد لها بدًا من أن تعطيه نفقة طعامها أو تبتاع له من الخمر ما تسكن به نفسه رحمة وإبقاء على تلك البقية من عقله .

وكأن الدهر لم كيفه ما وضع على عاتقها من الأثقال حتى أضاف إليها ثقلًا جديدًا فقد شعرت في يوم من أيامها بنسمة تتحرك في أحشائها فعلمت أنها حامل وأنها ستأتي إلى دار الشقاء بشقي جديد فهتفت صارخة : رحماك اللهم فقد امتلأت الكأس حتى ما تسع قطرة واحدة ، وما زالت تكابد من آلام الحمل ما يجب أن تكابد امرأة مريضة منكوبة حتى جاءت ساعة وضعها فلم يحضرها أحد إلا جارتها العجوز فأعانها الله على أمرها فوضعت ثم مرضت بعد ذلك بحمى النفاس مرضًا شديدًا فلم تجد طبيبًا يتصدق عليها بعلاجها لأن البلد الذي لا تستحي أطباؤه أن يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم القاتل لا يمكن أن يوجد فيها طبيب محسن ولا متصدق ، فما زال الموت يدنو منها رويدًا رويدًا حتى أدركتها رحمة الله فوافاها أجلها في ساعة لا يوجد فيها بجانبها غير طفلتها الصغيرة عالقة بثديها .

في هذه الساعة دخل الرجل ثائرًا مهتاجًا يطلب الشراب ويفتش عن زوجته لتأتي له منه بما يريد فدار بعينيه في أنحاء الغرفة حتى رآها ممدة على حصيرها ورأى ابنتها تبكي بجانبها فظنها نائمة فدنا منها ودفع الطفلة بعيدًا عنها وأخذ يحركها تحريكًا شديدًا فلم يشعر بحركة فرابه الأمر وأحس برعدة تتمشى في أعضائه حتى تملأ قلبه وبدأ صوابه يعود إليه شيئًا فشيئًا فأكب عليها بعينيها الشاخصتين الجامدتين فتراجع خوفًا وذعرًا فوطئ في تراجعه صدر ابنته فأنت أنة مؤلمة لم تتحرك بعدها حركة واحدة ،

فصرخ صرخة شديدة وقال : واشقاءاه وخرج هائمًا على وجهه يعدو في الطريق ويضرب رأسه بالعمد والجدران ويدفع كل ما يجد في طريقه من إنسان أو حيوان ويصيح ابنتي! زوجتي! هلموا إلي! أدركوني! حتى أعيا فسقط على الأرض وأخذ يفحص التراب برجليه ويئن أنين الذبيح والناس من حوله يبكونه لا لأنهم يعرفونه بل لأنهم يرون في وجهه آية شقائه وكذلك كانت تلك اللحظة القصيرة التي استفاق فيها من ذهوله الطويل سببًا في ضياع ما بقي من عقله .

وما هي إلا ساعة أو ساعتان حتى أصبح مقيدًا مغلولًا في قاعة من قاعات البيمارستان ، فوا رحمتاه له ولزوجته الشهيدة ولطفلته الصريعة ولأولاده المتشردين البؤساء ، وا أسفاه عليه وعليهم جميعًا حتى الموت .

■ ■ ■

البعث اليوم الأول :

نبا بي مضجعي ليلة ، لهم نزل بي والهم رسول من رسل الشر ينزل بأهداب العيون فلا يزال يسعى سعيه حتى يوقظ الفتنة بين أشياعها ، فظللت أساهر الكوكب حتى ملني ومللته وضاق كل منا بصاحبه ذرعًا .

فلما تقضي الليل إلا أقله ولم يبق إلا أن تنفرج لمة الظلام عن جبين الصباح سمعت طارقًا يدق الباب دقًا ضعيفًا ما كدت أتبينه لولا هدوء الليل وسكونه ، فقلت : من الطارق؟ قال : غريب حائر ضل به سبيله في هذه الرقعة السوداء وأعوزه المأوى يطلب كريمًا يعتمد عليه ، ومضجعًا يأوي إليه ، وقد أعد لمن يسدي إليه تلك النعمة وخيرة صالحة من شكر لا يبلى ودعاء لا يخيب فأعجبت بعابر سبيل يمر بعفو لسانه من فصيح القول وصحيحه ما يعي على جهد المتكلفين وتزويق المزورين ، وقلت في نفسي : ما لهذا الرجل بد من شأن وفتحت الباب فإذا شيخ كنتي من حملة أعباء الدهر قصير القامة ناحل الجسم زري الهيئة قد نيف على الثمانين من عمره فخيل لي أن أظهره المحدودب قوس وأن عصاه التي يعتمد عليها وترقد شد إلى تلك القوس وأنه قد أعد من هذه وتلك سلاحًا يذود به عن نفسه عادية المنون فلما شعر بمكاني رفع رأسه إلي ورماني بنظرة خلت أنها نفذت إلى موضع الأسرار من قلبي وأحاطت بما بين قمة رأسي وأخمص قدمي فرأيت وجهًا أسمر اللون قد انتثرت في أكنافه حفائر الجدري وأسارير تنطوي تارة على عبر القرون وحوادث الدهر

وتنفرج أخرى عن أنوار الصلاح والتقوى ، ولحية بيضاء إلا أنها شعثاء وعينين كبيرتين مستديرتين ينبعث منهما نور ساطع خفاق لا يراه الرائي حتى يطرق له إجلالًا وإعظامًا ، وسحنة غريبة لا عهد لي بمثلها في حمراء الأمم وسودائها وأحسب أن لو كان بين يدي مثال من صور الناس في القرون الغابرة لنسبتها فمشيت إليه مشية الهائب الوجل وقلت على الرحب والسعة يا سيدي قد حللت بمنزل أنت صاحبه وولي الأمر فيه .

ثم قدمت إليه يدي فمشي معي يتوكأ ويتحامل ويهمس بهذه الكلمات :

ما أوسع الموت يستريح به الجسـ ـم المعنى ويخفت القلب

حتى وصلنا إلى غرفة الأضياف فأعاد النظر إلي وقال : اذهب لشأنك فأنا في حاجة إلى الانفراد بنفسي ، فتركته وذهبت إلى غرفة منامي وقد أخذ منظر الرجل مكانًا من قلبي وشغلني من أمره ما كاد ينسيني هموم نفسي فلم أزل أقلب النظر في حاله وأذهب المذاهب في استبطان سره حتى أخذ عيني نوم ثقيل لم أستيقظ منه إلا في صفرة الأصيل .

سألت الخادم عن الضيف فعلمت أنه أخذ حظه من المطعم والمشرب والمضطجع والمستحم وأنه لا يزال في مصلاه فهبطت إليه في خلوته أهيب ما أكون له فرأيته جالسًا في قبلته يقلب وجهه في السماء ، ويكرر هذا الدعاء .

« اللهم لا راد لقضائك ، ولا سخط على بلائك ، أمرت فأطعنا ، وابتليت فرضينا فأمطرنا غيث إحسانك ، وأذقنا برد رحمتك وألهمنا جميل صبرك ، وثبت قلوبنا على طاعتك ، فلا عون إلا بك ولا ملجأ إلا إليك ، إنك أرحم الراحمين وأعدل الحاكمين » .

ثم أطرق بعد ذلك إطراقًا طويلًا خلت أنه وصل فيه إلى مقام التجريد وأن الذي أراه بين يدي جسد هامد قد أسرى بوحه إلى الملأ الأعلى فجعلت أختلس الخطى إليه حتى صاقبته ، فرفع رأسه إلى ذاهلًا ، قال أنت هنا ، قلت : نعم ، قال : في أي سنة نحن من تاريخ الهجرة ، فعجبت لسؤاله وقلت : في السنة التاسعة والعشرين بعد الثلاثمائة والألف .

قال : اسم هذا العصر الذي تعمرونه ، قلت : القاهرة المعزية ، قال : أفي الأمة كثير مثلك ، قلت : لم أفهم ما تريد يا سيدي ، لقد استفتحت هذه الأبواب التي تليك فلم أجد من دونها إلا ضعيفًا لا يلبث أن يراني حتى يرعد مني فرقًا فيوصد بابه في وجهي ، أو ضنينًا يرى بؤسي وشكاتي فيزوي ما بين حاجبيه ثم ينصرف عني ، أو أعجميًا لا يفهم ما أقول ولا أفهم ما يقول قلت : ما في هذه الحلة التي تراها أعجمي ، قال : إنهم خاطبوني بلحن لا أعرفه وإن شئت أعدته عليك كما سمعته ، ثم أخذ يسرد على الكلمات العامية التي سمعها من الناس سردًا متواصلًا كما تسرد الببغاء كلماتها فقلت : إنك قد أعدت يا سيدي بذكائك هذا عهد أبي العلاء المعري فإنهم يحدثون عنه أنه كان إذا سمع أعجميًا يتكلم حفظ كلامه بدون أن يفهم معناه فما سمع كلمتي هذه حتى اضطراب جسمه وانكفأ لونه ورأرأ بمقلتيه ، وزحف إلي حتى اصطكت ركبتانا فعجبت لأمره وما رأيت من استحالة حاله .

ثم قال لي : من هو هذا المعري الذي حدثوك عنه ؟ قلت : رجل من علماء الأمة العربية وشعرائها عاش في القرن الرابع والخامس من الهجرة نقرأ سيرته في كتب التاريخ والأدب ونعجب بفهمه وعلمه وذكائه كل الإعجاب ، قال : وما ظنكم به ؟ قلت : إن الناس في أمره مختلفون . ومن يرفضه أكثر ممن يتشيع له ، قال : ومن أيهم أنت؟ قلت : ممن يتشيع له فقد قرأت كتبه قراءة مستثبت مستبصر فما شككت في مذهبه ودينه قال : أكنت تؤثر أن تكون في عصره أو أن يكون في عصرك حتى تراه ، قلت : ما أعدل بهذه الأمنية غيرها قال : قد بلغك الله طلبك ، قلت : لم أفهم يا سيدي شيئًا مما تقول : قال أكاتم أنت على سري ، قلت : نعم ، قال : أتقسم ، قلت : للوفاء عندي حرمة مثل حرمة القسم ولو كنت متهم نفسي لأقسمت ، قال : الآن عرفتك ، أنا أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري .

فما قرعت هذه الكلمة مسمعي حتى أسقط في يدي وعلمت أني قد هلكت وكان أول ما كان مني أن التفت ناحية الباب لأرى هل أجد السبيل إلى الهرب أن عرض لي من هذا المجنون عارض سوء ، وكأنه ألم بها في نفسي فقال : لا ألومك على ما ظننت فقد قدرت قبل أن ألقي كلمتي هذه أنها بالغة منك ما بلغت فهل تؤمن بالله! قلت : نعم ، قال وتؤمن بالبعث؟ قلت : نعم ، قال : وما يريبك من رجل أماته الله ثم بعثه بعد موته ، قلت : ذلك يوم يبعثون قال : هبها قصة إبراهيم إذ قال له ربه :

﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ ﴾ وبعد فوالله يا بني ما كفرت مذ آمنت ولا كذبت مذ عرفت أن الصدق منجاة من النار ولا استرد الله مني نعمة العقل بعدما منحني إياها ولو كذبت الناس جميعًا ما كذبتك فقد أسلفت إلي من أياديك ما لا أحتاج بعده إلى كذبة أتفق بها عليك ، وإني قاص عليك قصتي فاجنح لها ولك بعد ذلك حكمك ، فسرى عني قليلًا ما كان ألم بنفسي من القلق فأقبلت عليه بوجهي فأنشأ يقول :

لا أزال يا بني حتى الساعة أشعر بمرارة الحساب في فمي فقد حوسبت حسابًا غير يسير على الكبير والصغير والدقيق والجليل والقومة والقعدة والخطوة واللمحة وكل ما وجدته حاضرًا بين يدي في صحائفي فكادت حسناتي تكافئ في الميزان سيئاتي لولا تلك الكلمات التي كنت أرددها في حياتي الأولى في تزهيد الناس بل في النسل والزواج فقد دخلت بها في زمرة المفسدين الذين تنكروا لإرادة الله وأغفلوا حكمته في خلق النوع البشري وطال حسابي عليها فيها وكان لابد من العقبات ففزعت إلى الروح الشريفة المحمدية مستشفعًا بها لا أريد رد القضاء ولكن أريد اللطف فيه ، فتعلق محمد × بقوائم العرش الإلهي وقال : اللهم إنك تعلم أن عبدك هذا عاش في تلك الدار كارهًا لها متبرمًا بها متسخطًا عليها حابسًا نفسه في كسر بيته فرارًا من أهلها يترقب فراقها في جميع آنائه وفيناته حتى لو رأى الشمس لتمنى ألا يرى مغربها ولو رآها غاربة لتمنى ألا يرى مشرقها ، وقد قضى قضاؤك الذي لا مرد له ولا محيص عنه أن تعاقبه على ما اجترح من السيئات في دار العمل

فأسألك بعلمك النوراني الذي تمحو به لوحك ما تشاء وتثبت أن تقي جسمه الذي طهره في الحياة الدنيا بالزهد في شهواتها ولذائذها والصبر على آلامها وأهوالها من عذاب النار وأن تجعل عذاب قلبه فداء عذاب جسمه فعاقبه بإرجاعه إلى تلك الدار التي كانت جحيمه ومستقر عذابه وحسبه من العقاب أن يلقي فيها آخرًا ما لقي فيها أولًا أنك بعبادك لطيف خبير » .

فقبل الله شفاعة نبيه وقضي أن أعود إلى الدار الأولى لأقضي فيها أيامًا لا أعلم عدتها وقد علم الله سبحانه وتعالى أني في العهد الأول أحمده على العمى كما تحمده غيري على البصر فرد إلي بصري لتنفذ مشيئته في عقابي وتعذيبي فله الحمد على سرائه وضرائه .

هذه قصتي قصصتها عليك وهذا أول يوم من الأيام التي سأقضيها في داركم هذه فأكتم عليَّ حتى ينقضي أجلي وكن لي خير معين على هموم الحياة وبأسائها فقد اغتبطت بك مذ رأيت وعلمت أن الله ما قيضك لي إلا وهو يريد أن يخفف عني العذاب مرة أخرى .

فما أكتم قصته حتى ابتدرت يديه لثمًا وتقبيلًا وعلمت أني قد أحرزت في بيتي كنزًا لا أعدل به كنوز الأرض ظاهرها وباطنها وشعرت بما أضاء بين جوانحي من سرور ما كان يكدره علي إلا خوف انقضائه .

ثم ما زلنا نتحدث حتى كادت تحترق فحمة الليل فوضعت يدي في يده وعاهدته على كتمان سره ثم ودعته وتركته في خلوته على أن نلتقي غدًا .

اليوم الثاني

ما كنت أجهل قبل اليوم رأي الشيخ في الطعام وما يحب منه وما يكره ولكنني ظننت أنه بعث بطبيعة غير طبيعته ورأي غير رأيه فقدمت إليه في طعام العشاء دجاجات ربلات كنت أعددتهن

للضيفان من قبل .

فلما أخذ بصره المائدة صار ينظر إليها مرة وإلي أخرى ثم قال : ما اسم هذا الطعام الذي تقدمه إلي ، قلت : إنهن دجاجات لم يكن للخادم الصغرى عندي شأن غير رعايتهن والقيام عليهن والحدب بهن ، فكانت تؤثرهن بأفضل ما تؤثرها به من طعام وشراب وتنزلهن من نفسها منزلة الواحد من أمه حتى امتلأن واكتنزن واستدرن للذبح وكنت أبقي عليهن كلما طرقني طارق إبقاء على الفتاة أن ينفجر صدرها حزنًا على أترابها الصغيرات : أما اليوم فلم أر من ذلك بدًا فذبحتهن إكرامًا لك فسال من دموع الفتاة عليهن أكثر مما سال من دمائهن .

فوجم الشيخ ثم أطرق إطراقًا طويلًا سمعته يهينم فيه بهذه الكلمات :

وارحمتاه ألا تزال هذه المدى موكلة بهذه الأعناق ، ألا يزال الحيوان الناطق ينكر على الحيوان الصامت حتى حسه ووجدانه ويأبى إلا أن ينظمه في سلك الجمادات الصم لأنه صامت لا ينطق وأخرس لا يبين

ربما كان زقاء الديك وقوقأة الدجاجة وصرصرة البازي وهديل الحمام وزقزقة العصفور وثغاء الشاة ومواء الهرة وخوار الثور وحنين النيب بكاء بغير دموع وشكوى بغير لسان ، وربما كان يكتم ذلك الذبيح في نفسه من الوجد والبرجاء ما لو استطاع أن يبين عنه لا بكى العيون دماء وفجر الصخر عيونًا .

ثم رفع رأسه إلي وقال : أما سمعت الدجاجات يقلن لك شيئًا عندما أردت ذبحهن ، قلت : لا يا مولاي ومتى قلن للناس شيئًا فيقلن لي فنظر إلي نظرة شزراء لا أنسى سهمها الواقع في قلبي ما حييت ثم قال أما لو أن الله منح ذابح الدجاجة من نور البصيرة ما منحه من نور البصر لسمعتها تقول له :

مهلًا رويدًا أيها القاتل السفاك لا تدن مني ولا تمد يدك إلي فلا شأن لك معي ولا ترة لك عندي .

أنا صاحبة الحق المطلق في حياتي وأنا لا أريد أن أموت ولا رغبة لي في فراق الحياة لأن ورائي أفراخًا صغارًا هن حياتي أحوج منك إلى مماتي وليس من الرأي أن أكل أمرهن إليك من بعدي لأنك شره طماع لا يشبع بطنك ولا تهدأ مديتك .

أنت لا تملك أن تعطيني الحياة فلا تملك أن تسلبني إياها .

كل ما تستطيع أن تمن به علي أنك كنت تطعمني وتسقيني فهل تعلم أنك ما كنت تطعمني إلا فتات مائدتك ولا تسقيني إلا غسالة يديك وأنك ما كنت تصنع ذلك رحمة بي ولا إحسانًا إلي بل لتهيء لنفسك ما يسد شهواتها ويطفئ لوعتها وهل تعلم أنك أنت الذي سجنتني في أقفاصك وحلت بيني وبين رزق الله أطعمه أنى ذهبت وأين حللت من حيث لا يساومني فيه مساوم ولا يحاسبني عليه محاسب .

أمن أجل تلك الخشارة القذرة والجرعة الكدرة تسلبني حياتي وتفجع بي أفراخي ولا ذنب لي ولا لهن عندك إلا أنا كنا زينة بيتك ولعبة أطفالك وحماة آلك من بنات الأرض وهوامها ورسل الفجر المنير إليك .

لا تظلم السبع بعد اليوم ولا تنتقم منه وحشيته وافتراسه فكلاكما وحش وكلاكما مفترس لا فرق بينك وبينه إلا أنه لا يحسن الذبح والطبخ كما تحسن فهو يبقر البطون بأظافره وأنت تفري الأوداج بمداك لا بل أن جريمتك أكبر من جريمته وعذرك أضعف من عذرة لأنه يفترس ليشبع بطنه وأنت تفترس لترفه نفسك ولأنه يعجز عن الاحتيال لقوته وأنت على ذلك من القادرين .

استضعفتني فبرزت إلي فهلا برزت لشبل الأسد أو ديسم الدب أو فرعل الضبع أو حرش الحية وهيثم النشر أو ناهض العقاب؟

ما أخبثك أيها الإنسان عاجزًا وما أظلمك قادرًا وما أشقاك بنفسك وأشقى العالمين بشقائك .

ذلك ما كان يسمعه الذابح من ذبيحته لو أن الله وهبه أذنًا كالآذان وبصيرة كالبصائر ولكن الناس لا يعلمون .

هبه يا صاحب الدجاجات حدثني عنك ألم يكن لك في جميع ما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها منادح لإكرامي والقيام بحقي وأنت تعلم أنني رجل سلخت في دنياكم هذه من حياتي الأولى نيفًا وأربعين سنة لم أذق فيها لحم الحيوان ولا ثماره ولا نتاجه فحميت نفسي حتى عسل النحل وبيض الدجاج وألبان ذوات الأثداء وأقنعتها بالبلسن طعامًا والبلس حلوى لأني كنت أعلم أن النبات طعامي الذي لا يلائمني غيره ولا يشبهني سواه وأن لحم الحيوان إنما خلق للشفاه الغليظة والأنياب العريضة والأظفار الحادة والجلود للزأبرة والأعضاء المتوثبة والهامات الضخمة ، وكنت أرى أن أكلة اللحم إنما يخادعون أنفسهم فيها ويجترونها إلى طبائعهم اجترارًا لأنهم لا يأكلون إلا إذا عالجوها بالطبخ والصف والتقديد والشي والقلي ومزجوها بالخضر والتوابل والأبازير والأقزاح مزجًا يكاد يخرج بها عن جوهرها إلى جوهر النبات حتى إذا نزل بهم عارض مرض نزعوا عنها وبرئوا إلى الله منها وفزعوا إلى النبات في طعامهم وشرابهم وعقاقيرهم كأنما يطلبون شفاءهم في الرجوع إلى غذائهم الطبيعي الذي خلقوا له .

وأعجب ما كنت أعجب له من أمرهم أنهم كانوا ينكرون علي رأيي في ترك ذلك الطعام ويمعنون في مساءلتي عنه وحجاجي فيه وحملي عليه ويلحون في ذلك إلحاحًا شديدًا حتى ظننت أنهم قاتلي من دونه كأنما يزعمون في ضوضائهم هذه أنهم إنما يأكلون لحم الحيوان باسم الشريعة الدينية لا باسم القرم والجعم أو أن الله تعالى أنزل عليهم قرآنًا إلا يقيم لهم يوم القيامة وزنًا ولا يقبل منهم صرفًا ولا عدلًا إلا إذا قدموا عليه ببطون بجر مكتظة بلحوم الحيوان تتقدم بين أيديهم في منصرفهم من الحساب لتفتح لهم أبواب الجنان ، وكأنهم فرغوا من أداء ما افترض الله عليهم أن يؤدوه وترك ما أمرهم أن يتركوه فلم يبق بين أيديهم من أبواب العبادة إلا باب التورع عن أكل اللحم مخافة أن ينقلب المباح بأعراضهم عنه حرامًا كما ترك النبي × صلاة التراويح بعد أدائها مخافة أن تنقلب سنتها باستمراره عليها فريضة .

وأحسب أن لو كنت فيهم من أكلة السحت أو الميتة والدم ولحم الخنزير أو أموال الناس بالباطل لا وسعوا لي في صدورهم من العذر ما لم يوسعوا في ترك مباح ما تركته نقمة على الشريعة أو تبرمًا بها أو تمردًا عليها ولكنني كنت امرأ جزوعًا يزعجني منظر الشرائح الحيوانية على مائدتي لأنه يذكرني بمنظر الذبيحة وارتياعها وولهها بين حبل الذابح وسكينه وكنت فقيرًا بائسًا لا أملك في عام من الرزق إلا نيفًا وعشرين دينارًا لا يتسع مثلها لمثل ما يتسع له عيش الناعمين المترفين وما كنت أجد السبيل إلى غيرها

إلا من طريق الكدية والتكفف أي بقبول صلات الأمراء وصدقات المحسنين ، وقد علم الله من شأني أنني رجل لو علمت أني إن أذلت ما صان الله من ماء وجهي على عتبة أمير أو قدم وزير أمطرت السماء علي ذهبًا واستحالت الحصباء تحت قدمي درًا ما فعلت ضنًا بنفسي على هذا الموقف المستوبل وإيثارًا للرضاء بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده .

فلم أر خيرًا من ترك طعام لو اشتهيته لما قدرت عليه ولو قدرت عليه لما اشتهيته من حيث لا يكون للتحريم والتحليل ولا للإيمان والزندقة في ذلك مدخل .

وما زال المتورعون من السلف الصالح يتركون ما هو لهم حلال مطلق من لذائذ هذه الحياة وشهواتها ويجزعون من ملامسته والدنو منه جزعهم من اجتراح السيئات ، وانتهاك الحرمات .

فقد كان النبي × يجيع نفسه من غير عوز وكانت عائشة رضي الله عنها تقول إن رسول الله لم يمتلئ قط شبعًا وربما بكيت رحمة مما أرى به من الجوع فأمسح بطنه بيدي وأقول نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ، فيقول : « يا عائشة إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم » ، وكان يقول : « أشرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة » ، وعلا عمر ﷺ ولده عبد الله بن عمر بالدرة إذ دخل عليه فرآه يجمع في طعامه بين الثريد والشواء ،

وكان بعض الصالحين يعد الجمع بين الخبز والملح شهوة فيتجنبها ، وكان بعضهم يعجن دقيقه ويخفقه في الشمس ثم يأكله قائلًا : كسرة وملح حتى يتهيأ في الآخرة الشواء ، ومنهم من لم يأتدم قط في حياته لا بالجواذب والكباب ولا بالخل والزيت .

فهل كان واحد من هؤلاء بطرًا بنعمة الله أو محرمًا ما حلل الله؟ لا فما كل من أبغض حلالًا حرمه ولا كل من أحب حرامًا حلله فقد اعتقد صاحب أبي حنيفة بحل النبيذ فلما أريد عليه قال : لو قطعت إربًا إربًا ما حرمته ، ولو قطعت إربًا إربًا ما شربته ، وعلم النبي × بحل الطلاق ثم قال : « أبغض الحلال إلي الطلاق » ، بل لو تبينت لعلمت أن قاعدة التحريم والتحليل في الشرائع الدينية مصادرة النفوس في ميولها وشهواتها والنفوس لا تنفرق إلا عما حل لها ولا تشتهي إلا ما حرم عليها .

فويل لي من هؤلاء الناس شركتهم في دنياهم فقالوا شره طماع وصدفت لهم عنها فقالوا : زنديق ملحد فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى بلغ منه الجهد أو كاد فتفصد جبينه عرقًا واستسر حديثه حتى ما كاد يبين فرثيت له مما به وأمرت برفع المائدة من بين يديه وقدمت له مقترحه من الطعام فلبثنا نأكل صامتين حتى فرغنا فأردت أن أرفه عليه ما ألم به من الهم

فقلت له يا مولاي إن للحيوان اليوم شأنًا غير ذلك الشأن الذي تعرفه له من قبل فقد ذهب كثيرًا من الناس مذهب الرفق به والإحسان إليه واجتمع في كل مدينة من مدن العالم قوم من الراحمين المحسنين يأخذون أنفسهم بمناظرة المدارج والسبل والأسواق العامة فإذا وجدوا من تحمل على دابته فوق ما تحمل أو يسوطها سوطًا عنيفًا رفعوا إلى الحاكم أمره أو رأوا حيوانًا هزيلًا أو مهيضًا حملوه إلى مكان خاص بمعالجة أمراض الحيوان فعالجوه إن وجدوا إلى الرجاء فيه سبيلًا وإلا قتلوه رحمة به وإشفاقًا عليه .

قال لقد أحسنوا في الأولى وأساءوا في الأخرى ومن لهم بعلم ما استتر وراء حجب الغيب من كوامن الأقدار في تحديد الآجال ، وها نحن نرى في كل يوم مريضًا يئل بعد إشرافه وبكاء الباكيات حوله وصحيحًا يخترم في اجتماع قوته واستكمال فتوته وغليان ماء الشباب في وجهه كما تخترم الثمرة الغضة من غصنها الناظر فهلا وكلوه إلى منيته تأتيه هادئة مطمئنة حيث يسوقها القدر إليه .

ما أحسب هؤلاء الراحمين الذين تحدثني عنهم إلا مرائين مصانعين ولا هذه الرحمة التي ينتحلونها لأنفسهم إلا حبالة من الحبائل نصبوها لاصطياد العقول واختتال النفوس ولا أنهم أرادوا بما فعلوا إلا أن يقول الناس عنهم أنهم رحموا الحيوان فأحرى أن يرحموا الإنسان ، فمثلهم كمثل المرائين في الدين الذين يتورعون عن الثمرة حلالًا تذرعًا إلى البدرة حرامًا .

يا بني آدم دعوا النوق في مراحها والشاء في زوربها والوحش في كناسه والضب في جحره والذئب في وجاره والقط في أفاحيصه ولا تزعجوا العصافير في أعشاشها ولا الحمام عن محاضنها ولا اليعاسيب عن خلاياها ولا الأسماك عن مسارحها وجنبوها فخاخكم وشباككم وقتركم وزباكم ومداكم وشفاركم فإن لها نفوسًا كنفوسكم ووجدانًا كوجدانكم ورجاء في الحياة كرجائكم واعلموا أن الله تعالى ما أغرى بعضكم ببعض ولا سلط قويكم على ضعيفكم ولا أجرى هذه الينابيع من الدماء بين أحيائكم إلا بعد أن ضريتم بهذه اللحوم ضراء السباع بفرائسها وقطعتم إلى المتعة بها مما شئتم من الحلاقيم والغلاصم والأوداج والأباهر فارحموها ترحموا أنفسكم واعصموا دماءها يعصم الله دماءكم ، إنكم إلى الرحمة محتاجون ، وإلى الله راغبون .

ثم سكت بعد ذلك سكوت المجهد المتعب وكان الظلام قد أظلنا بجناحيه فشعرت أن سنة من النوم قد رنقت في عينيه فانسللت من بين يديه وتركته في مضجعه على أن ألقاه غدًا .

اليوم الثالث :

أصبحت في اليوم الثالث فإذا الشيخ قد فارق خلوته إلى حديقة المنزل فافترش ترابها ، وتوسد أعشابها ، وأنشأ يردد النظر بين أزهارها وأنوارها ، ويبسم للعصافير تتنقل بين أنجمها وأشجارها ، ويصغي إلى سرار الحديث بين حصبائها ومائها ، فعرفت المدخل إلى قلبه والوسيلة إلى سروره وغبطته فاقترحت عليه البروز إلى ضاحية البلد ليرفه عن نفسه ما ألم بها من الحزن والألم من الحزن فخرجنا يتوكأ على يدي مرة وعلى عصاه أخرى حتى وصلنا إلى واد أفيح بصنوف الأشجار ، وأفانين الأزهار ويتراءى في ألوان من النبات ، مشتبهات وغير مشبهات ، من هائج وعميم ، وبارض وجميم وكروم وأعناب ، وسنابل وأعشاب ، وتفيض أرجاؤه بالجداول والغدران ، والقنى والخلجان ، مطردات ومنعطفات ، ومجتمعات ومفترقات ، يفضي أولاها إلى أخراها ، ويتصل أقصاها بأدناها ، ويعطف كبيرها على صغيرها ، وقويها على ضعيفها ، فكأنها صلال رقشاء قد فرت من حر الظهيرة إلى هذا الروض الأريض تبترد بين روابيه وأكماته ، ومصاعده ومنحدراته ، فهي تنقبض وتنبسط ، وتنساب وتتمعج ، وتقبل وتدبر ، وتقوم وتقعد ، وتتواثب وتتراجع ، وتتواصل ثم تتقاطع ، وكان حفيف أوراقه وخرير مائه وتغريد أطياره وضجيج نواعيره وعجيج سائمته أنغام مختلفات يتألف من مجموعها لحن بديع يسمعه السامع فيخيل إليه أنه هابط من أبواب السماء ، أو أن سكان الألمب فوق عروشهم يغنون ، وسكان الأرض بين أيديهم يستمعون .

هنالك وقف الشيخ أمام هذا المشهد المؤثر وقفة الحائر المشدوه ، وقد ملكت عليه مشاعره وحيل بينه وبين نفسه فجمد في مكانه كأنه نصب من الأنصاب ووقفت وراءه أعجب لجموده وسكوته حتى فنيت كما فني في مشهده الذي بين يديه فلم أرجع إلى نفسي حتى سمعته يقول :

للمليك المذكرات عبيد وكذلك المؤنثات اماء

فالهلال المنيف والبدر والفر قد والصبح والثرى والماء

والثريا والشمس والنار والنثرة والأرض والضحى والسماء

هذه كلها لربك ما عا بك في قول ذلك الحكماء

ثم التفت إلي وقال ، كل الناس يطلبون الحقيقة وكلهم عاجزون عنها لأنهم يطلبونها من صحائف التاريخ والمؤرخون يصانعون ويدهشون ، أو من أفواه الفقهاء والفقهاء تجار يرتزقون ، لا هداة يرشدون ، أو من خطرات عقولهم وقد أفسدها عليهم القائلون والكاتبون والحقيقة موجودة ولكنهم لا يعرفونها لأنهم لا يعرفون الطريق إليها ، قلت وأين تجدها ، قال في هذه الأودية الفيحاء ، تحت تلك القبة الزرقاء بين ذلك الطل والماء .

هنا يرى الإنسان ربه في الغريسة يلقي بها غارسها في التربة فإذا هي نبتة زاهرة مستوية على سوقها تعجب الزراع ، ويراه في الحبة الدقيقة في السرة المستديرة في النواة الصغيرة التي لا تلبث أن تأخذ مكانها من مغرسها حتى تصير نخلة سحوقًا تملأ الأرض خيرًا بجذوعها وسعفها وجريدها وقنوانها وعثاكيلها وطلعها وبلحها وبسرها ، ويراه في الكواكب الماثلة في السماء ، والأسماك السابحة في الماء ، والأجواء المملوءة بالهواء ، والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، فيمتلئ قلبه يقينًا صافيًا رائقًا لا تعبث به المناظرات ، ولا تشوه جماله المجادلات ، ولا يحتاج بعده إلى متكلم يعلمه النظر ، ولا فقيه يلقنه الجدل ، فلا دليل على الله غيره ، ولا هادي إليه سواه .

هنا يرى الإنسان السائمة تأكل العشب والعشب يأكل التراب والتراب يأكل السائمة فيستحيل الجماد نباتًا والنبات حيوانًا والحيوان جمادًا فيعلم أن المواليد الثلاثة مادة واحدة تتلون ذراتها وتتشكل جواهرها وتعلم أن هذا الإنسان الفاخر بنفسه والمدل بعظمته أو اقتداره ربما كان بالأمس صفيحة ملقاة على جانب قبر ، وربما يكون في الغد جلدة بالية في ذؤابة نعل .

هنا يرى الإنسان الأرض الصلفاء يمر بها الماء وتلقى فيها البذور فلا تلبث الشمس أن تجفف ماءها والريح أن تعصف بذورها فيعلم أن الحقائق الدينية لا يمكن أن تستقر في قلوب الأشرار إلى أن تبلغ شغافها وأن الناس ما اختلفوا إلا لأنهم جاحدون ، ولا اقتتلوا إلا لأنهم ملحدون .

هنا يرى الإنسان الشمس طالعة من مشرقها مصفرة اللون متقاربة الخطوات مخافة أن يطير إليها رشاشة سوداء من مآثم هذا العالم ومخازيه ثم لا تلبث أن تأخذ مكانها من كبد السماء حتى تنحدر إلى مغربها هاربة فتنغمس في ماء البحر قبل غروبها لتغسل عن جرمها الأبيض المشرق ما ألم به من تلك الأدران والأوحال ، ويرى الليل مقبلًا يقطب وجهه ويزوي ما بين حاجبيه ويزيد شيئًا فشيئًا حتى يسود غضبًا على هذا المجتمع البشري فيما يقترفه تحت ستاره من المفاسد والشرور ، ولا يزال مادًا يديه بالدعاء إلى الله تعالى أن جعل أوبته إلى مستقره حتى يستجيب له ويداول بينه وبين النهار ، ويرى الكواكب قد كمنت وراء ستر الظلام ثم أطلت بعيونها على هذا العالم الأرضي مرغمة لتنفس عن رفيقها الليل بعض ما خالط قلبه من الهم والكمد فلا تلبث أجفانها أن تطرف انغلاقًا وانفتاحًا مخافة أن يصيبها سهم نافذ من سهام الشرار التي تتطاير يمنة ويسرة وصعودًا وهبوطًا فلا يقوم لها شيء إلا أتت عليه .

هنا يرى الإنسان الحقيقة في هذا العالم عارية الجسم ويسمع صوتها واضح النبرات من حيث لا يحجب بصره تكلف المتكلفين ، ولا خداع الخادعين ، ولا يصمد سمعه قرع النواقيس ولا صياح المؤذنين .

فقلت حسبك يا مولاي فقد نال منك أجيج هذه الرمضاء وإني أرى في رأس هذا الوادي رجلًا أحسبه فلاح هذه الأرض فامض بنا إليه عله ييسر لنا ظلة نفيء إليها وجرعة باردة نفثأ بها هذه الصارة ، فمشينا إليه حتى بلغناه فرأيناه مكبًا على تربته يفلحها ويقلب عاليها سافلها وقد شرست يده وشئنت قدماه وزأبر صدره ، وأفرغ قرص الشمس في رأسه جعبة سهامه فتصبب عرقًا حتى سالت منه على قدميه قطرات كقطرات البخار تسيل على جوانب القدر المضطرم فحييناه بتحية حيا بأحسن منها وأفضينا إليه بطلبتنا فأشار بيده إلى كوخه وكان منه على كثب فإذا عريش من عيدان القصب مسجج قد ارتفع فوقه سقف من جذع الأشجار واعتمد على أسيطينة من اللبن الأسود وامتدت أمامه صفة مستطيلة واستدار به نؤي يمنع عنه مسيل الماء فدخلناه فلم نر فيه إلا رثة من المتاع لا تكاد تزيد على جوالق للخبز اليبيس وخلقان من القمص والأبراد وقدر وأثفية وجرة مملوءة ماء وحشية بالية مفككة تضطرب في جوفها حشوة من الليف اضطراب الجنين في جوف الحامل ، فشربنا حتى ارتوينا وأخذنا من تلك الحشية مضجعنا وما زلنا على حالنا تلك سكوتًا لا نتكلم حتى جاء الرجل وقد مال ميزان النهار يقزل في مشيته ويحمل فأسه على عاتقه ويجر وراءه ولدين صغيرين له بين الثامنة والعاشرة فجلس والده بين يديه وأنشأ يلقي إلينا معاذيره ويتوجع لعجزه عن إكرامنا وإسعافنا بما نحب فعذرناه ثم جرى بينه وبين الشيخ الحديث الآتي ، وكنت أترجم بينهما لأنهما لا يكادان يتفاهمان .

الشيخ : من يملك هذه الأرض؟

الفلاح : هي لسيدي ومولاي أطال الله بقاءه وأتم عليه نعمته صاحب هذا القصر الذي تراه ، وأشار إلى قصر فخم يرفرف بأجنحته في هذه البقعة الخضراء ، رفرفة الحمامة البيضاء ، في القبة الزرقاء .

الشيخ : أراك تدعو له وتتمنى له الخير والسعادة فلعلك سعيد بجواره مغتبط بمكانك منه ولعله يمدك ببره وإحسانه ويغدق عليك من نعمته ما يطلق لسانك بحمده والثناء عليه .

الفلاح : حسبي من سيدي أن أرى وجهه مرة في كل يوم أو يومين ممتطيًا فرسه الدهماء في ركب من أصحابه وحاشيته مارًا بهذه الأجمات الملتفة يتنزه ويتروح يطارد الثعالب والذئاب مطردة الشجاع المستقتل ثم يعود إلى قصره مسرورًا مغتبطًا بمصبحه وممساه .

الشيخ : إنما أسألك عن أياديه عندك وصنائعه لديك لا عن منازهه وطرائده وملذاته وشهواته .

الفلاح : وهل يوجد في باب النعم جليلها ودقيقها نعمة أجل قدرًا وأسنى قيمة من أن أكون عبدًا مملوكًا لسيد كهذا السيد رفيع الجاه جليل القدر واسع النعمة تطاطئ بين يديه رؤوس العظماء ويختلف إلى حضرته كبار الأمراء .

الشيخ : أيها الرجل ما عن هذا أسألك إنما أسألك هل يسلم عليك سيدك هذا إذا مر ببابك أو يخلو بك أحيانًا ليتغير همك وما تهتف به نفسك عن رغباتك وحاجاتك .

الفلاح : الحق أقول يا سيدي أني ما سمعت في حياتي بأعجب من سؤالك هذا ، ومتى كان السيد يخاطب عبده إلا بالأمر والنهي أو يرفع إليه طرفه إلا بالنظر الشزر أو يلامس بيده جسمه إلا للتأدب والتهذيب ، ولقد تمر بي وبعيالي الليالي ذوات العدد لا نكاد نجد من الخبز المخشوشب ما يملأ بطوننا فلا أجد في نفسي من الحزن والألم ما أجد من نسيان سيدي إياي بضعة أيام وإغفاله أمري ونهي وزجري وتأديبي ، وقد أعد لي حفظه الله وأمتعني بدوام رعايته وعنايته عصيًا غلاظًا يتعهدني بها من حين إلى حين كلما نسيت أمرًا من أوامره أو قصرت في رعاية غرض من أغراضه فاغتبط بذلك الاغتباط كله لأني أعلم أني منه على ذكر وأني قد نزلت من نفسه منزلة من لا يهون عليه أغفاله وإطراحه وإلقاء حبله على غاربه .

الشيخ : وأين أم هذين الولدين؟

الفلاح : ماتت رحمها الله في سبيل سيدها فقد كنا يومًا نمتح على حافة بئر فزلت أقدامنا وأنبت بنا الحبل فسقطنا ، أما هي فاستأثر الله بها وأما أنا فانكسرت رجلي وقدر الله لي الحياة فما أسفت على شيء أسفي على أن لم أكن قد لحقت بها فأكون قد هلكت في سبيل خدمة سيدي كما هلكت ليترحم علي كما ترحم عليها ويأمر بدفني في مقبرة أجداده كما أمر بدفنها .

الشيخ : ربما كنت قانعًا من إحسان سيدك إليك وعطفه عليك بما تعود به على نفسك وعيالك من غلة هذه الأرض وثمراتها .

الفلاح : لا والله يا مولاي ما أعلمني نازعت سيدي نعمته وسعادته في قفيزِبُر ، أو حفنة تمر ؛ إلا أن تسقط بين يدي تمرة أعلم أنه لا يأبه لها فتكون قسمة بيني وبين ولدي أو أحتطب من أطراف هذا الوادي بضعة أعواد من الحطب أشعلها تحت قدري وأستغفر الله مما سهوت عنه أو أخطأت فيه .

وهنا رأيت أبا العلاء كأنه يحاول أن يكاتمني دمعة تترجح في مقلتيه فأشرت إليه بالقيام فقمنا ومشينا صامتين لا ينطق ولا أنطق حتى بلغنا المنزل وقد ستر الظلام فقلت أرجو يا مولاي أن أكون قد بلغت ما أردت لك في مخرجك هذا من السرور والغبطة ، قال : ما نغص علي يومي إلا منظر ذلك الرجل الأبله المسكين في صغر نفسه وسقوط همته وذلة جانبه ، وما أحسب أن الظلم قد ألح على نفسه حتى قتلها وسلبها حسها ووجدانها فأصبح لا يعرف لنفسه حياة ذلة آتية مستقرة عن حياة ذلك الإنسان الذي يسميه سيده فهو لا يفرح إلا لفرحه ولا يغتبط إلا باغتباطه ويرضيه منه كل شيء حتى سوء مجازاته إياه على إخلاصه إليه وتعبده له بضربه وتعذيبه وتقتير الرزق عليه وكذلك يفعل الظلم في نفوس المستضعفين .

ثم تركني وانحدر إلى مخدعه وهو يهتف بهذه الكلمات :

يحسن مرأى لبني آدم وكلهم في الذوق لا يعذب
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

الرسائل

كتاب في التقاضي

أنا إن سألتك حاجتي أعزك الله وبسطت إليك يد رجائي فقد طرقت باب المكارم ، واستمطرت غيث المراحم ، ورجوت واحد الدهر همة وحزمًا ، ونادرة الوجود كرمًا وفضلًا ، فإن أنجزتها فليست أولى الهمم ، ولا واحد النعم ، فلكم سبقت إليّ منك أياد تخرس دونها ألسنة الشكر ، وتضيق بها جرائد الحصر ، ولقد مثلت أيدك الله بين أن أستشفع إليك بذري الجاه عندك ، والزلفى لديك ، وبين أن أكل ذلك إلى كرمك وفضلك ، وما طبعت عليه نفسك الشريفة من خلال الخير ، وسجايا البر ، فرأيت أن الثانية بك أحرى ، وبفضلك أجدر ، والسلام .

كتاب المقاطعة

أتاني كتابك وقد أبللت من مرض حبك وصحوت من رقدة طال علي الغياب فيها حتى خفت أن تتصل برقدة الموت ، فلم ترعني روائعك ، ولا أجدي عندي اعتذارك ، ولا أخذ حديثك من قلبي مأخذه من قبل ، ولم أر بين سطور ذلك النور الذي كان يملأ عيني روعة ، وقلبي هيبة ، فالحمد لله الذي أدلني منك ، وأعتقني من رقك ، وكشف لي من مكنونك ما كشف غشاء الهوى عن بصري فجفت الدموع التي طالما أذللتها بين يديك ، وقرت العين التي كنت أساهر بها الكوكب شوقًا إليك ، ولم يبق في خاطري من ذكرك

إلا كما بقي في قلوب الناس من الوفاء ، والحب شجرة يغرسها الأمل في القلب ثم يغذوها بمائه وهوائه ، فلا تزال تشتجر أغصانها ، وترف ظلالها وترن أطيارها ، حتى يعصف بها عاصف من اليأس فتموت ، ولقد عالجت هذا القلب الشموس في الرجوع إلى سالف عهدك ، وسابق ودك ، فجمح جموح المهر الأرن ، وركب رأسه إلى حيث لا مطمع في أوبته ، وله العتبى فيما فعل ، فقد ملكني قياده برهة من الزمان فأسأت عشرته ، وخفرت ذمته ، وأرغمت معطسه ، وركبت به في سبيلك أخشن مركب ، وأنهلته من جفائك وكبريائك شر منهل ، فما هو إلا أن أمكنته الغرة فانطلق انطلاق السجين من سجنه ، والطائر من قفصه ، فلا أوبة حتى يؤوب القارظان ، ويبلي الجديدان .

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تقبل
كتاب تهكم

علمت أن ساسانيا طرق بابك بالأمس ، وما زال يكيد لك ويماحلك ، ويتغلغل في مواضع الضعف من قلبك ، حتى خدعك عن نفسك ، واقتطف زهرة من روضة مالك؟ وراح يفتر عن ثغر باسم ، ورحت تقرع سن نادم؟ فما هذا الخلق الغريب الذي تخلقته ، وما هذا المذهب الجديد الذي اعتنقته ، ومتى أقامك آدم وصيًا على أولاده من بعده ، تكسو عاريهم ، وتشبع جائعهم ، على أن الفقراء في الدنيا كثير قد ضاقت بهم خزائن الأرض والسماء فكيف تسعهم خزائنك ، وهل بين الدرهم الذي أعطيت ، والدراهم التي أبقيت ،

إلا حرف واحد ، فليت شعري من أين دهيت ، ومن أي باب نفذ هذا الشيطان إلى قلبك وإن أخوف ما أخاف عليك أن تكون أتيت من باب تلك الخدعة الشيطانية التي يسمونها الرحمة ، فإن كانت هي فالخطب عظيم ، والبلاء جسيم ، فإنك حيثما ذهبت ، وأنى حللت ، لا تقع عينك إلا على يد شلاء ، ورجل بتراء ، وعين عمياء ، وصورة شوهاء وثوب مخزق ، وشلو ممزق ، وطريح على التراب سقيم ، وجسم أعرى من أديم ، فإن لم تفارق الرحمة قلبك ، فارق المال جيبك ، فطفت مع الطائفين ، وتسولت مع المتسولين ، ثم لا تجد لك راحمًا ولا معينًا ، فارحم نفسك قبل أن ترحم سواك ، ولا تنس أن تردد في صباحك ومسائك ، وفي مستأنف خطواتك ، وفي أعقاب صلواتك كلمة ابن الزيات : « الرحمة خور في الطبيعة » .

وعلمت أنك دعيت إلى وليمة فلان فتحلب لها فوك ، ورقصت لها أشداقك ، فطرت إليها ، ثم وقعت على خبزها وشوائها ، وفاكهتها وحلوائها ، مثلج الصدر ، ثابت القدم ، ساكن القلب ، طيب النفس ، كأنك لا تعلم أنها لذة الساعة ومرارة العمر ، وشبع اليوم وجوع الأبد ، وأنك إنما طعمت ما في الحبالة من الحب ، تأكله اليوم ليأكلك غدًا فمن لك بالنجاة من مضيفك إذا جاءك يومًا يتقاضاك دينه وقد حفت به كوكبة من خلانه وصحبه ، فطار لمرآه لبك ، وتمشى له قلبك في صدرك ، وخيرك بين لحم شاتك ولحمك ،

فالفقر إن منحت ، والعار إن منعت ، وأعجب من ذلك أنك ما برحت الوليمة حتى أخذ المغني مجلسه فسمعت وطربت ، ومن طرب شرب ، ومن شرب وهب ، ومن وهب خرب ، ولقد كان ذلك في انزوائك واعتزالك ، واكتفائك بقرصك ، وزيتك ، وخلواتك بصندوقك ، في كسر بيتك ، من حيث لا تزور ولا تزار منادح عن هذه اللقمة التي أسهرت ليلك ، وأقضيت مضجعك وأقعدتك على مثل روق الظبي خفية وجذارًا ، فإياك والعود إلى مثلها يطل غمك ، ويسود عيشك ، والسلام .

كتاب يأس

كتابي إلى سيدي ومولاي والنفس بين جنة من الأمل تغن أشجارها وترن أطيارها ، وتشتجر أغصانها ، وتعتنق غدرانها وهاجرة من اليأس تتلظى نارها ، ويعتلج أوارها ، وتحول بين الجفون واغتماضها ، والجنوب ومضاجعها ، والقلب يهبط به الخوف فيتمشى بين الأضالع مشية الطائر الحذر ، ثم يدركه الأمن فيقر في مستقره ، قرار الماء في نهاية منحدره وحالي كحال هذه الدنيا تضطرب ما بين فرح وهم ، وسرور وحزن وقبض وبسط ، ومد وجزر ، أذكر الله ورحمته وإحسانه ، ورأفته وحنانه فيشرق لي من خلال ذكراه وجه الحياة الناضرة ، وثغرها البارق ، وجمالها الساطع ، وبشرها الضاحك ، ثم أذكر الدهر وصروفه ، والعيش وحتوفه ، والأيام

وما أعدت في طياتها لبنيها من عثرات في الخطوات ونكبات . في الغدوات والروحات ، وما أخذته من العهد على نفسها من الوقوف بين النفوس وآمالها ، والقلوب وأمانيها ، فألمس صدري بيدي لأعلم أين مكان قلبي من أضالعي ، ثم انثني على كبدي من خشية أن تصدعا ، فليت الله يصنع لي فيمطر على قطرة واحدة من غيوث رحمته وإحساسه أبل بها غلتي ، وأطفئ بها لوعتي ، أو ليت القدر ينشب أظافره بين سحري ونحري نشوبًا لا يستبقي بعده عرقًا نابضًا ، ولا نفسًا مترددًا فيستخلصني من موقف أنا فيه كالمريض المشرف لا هو حي فيرجى ، ولا ميت فيبكى .

يقولون ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل ، وأقول ما عذب الله عباده بنازلة القضاء وصاعقة العذاب ، وطاغية الطوفان ، والزلزال الأكبر ، والموت الأحمر ، والخوف من الجوع والنقص من الأموال والأنفس والثمرات ، بمثل ما عذبهم بالأمل الباطل ، وما ليلة نابغية ضرير نجمها ، حالك ظلامها ، يبيت منها صاحبها على مثل روق الظبي خيفة وحذارًا ، فوق أرض تعزف جنانها ، وتحوم عقبانها ، وتزأر سباعها ، وتعوي ذئابها ، وتحت سماء تتهاوى نجومها ، وتتوالى رجومها ، وتتراكم غيومها ، بأسوأ في نفسه أثرًا من رجاء كاذب يتردد بين جنبيه ، تردد الغصة بين لحييه ، لا هي نازلة فيطعمها ، ولا صاعدة فيقذفها .

وقد أصبحت أحسد الوحوش الهائمة على وجوهها في بطون الأودية وفتن الجبال أن أراها سارية في مساربها ، سارحة في مسارحها ، تتناول رزقها رغدًا من بوارق المصادفات ، ومفاجآت المقادير ، لا يعنيها الأسف على فائت من العيش ، ولا يقلقها الطمع في آتٍ من الرزق ، قد قنعت من الماء بالكدر ، ومن العيش بالجشب ، فتساوى لديها شحمها ولحمها ، وشيحها وقيصومها ، وسعدها ونحسها ، ونعيمها وبؤسها فما تحفل بنوازل القضاء ، ولا رجوع السماء ، ولا تبالي أسقطت على الموت أم سقط الموت عليها .

فمن لي بهذا العيش من عيش مثلي فيه كمثل رجل عثرت به قدمه فسقط في جوف بئر بعيد غورها ، ناء مكانها ، فما زال يتخبط ويضطرب ويهب ويثب ، حتى عثر بمرقاة علقت رجله بها ثم تلمس أخرى غيرها فما وجدها حتى بلغ منه الجهد أو كاد ، فلم يصبر على الثانية صبره على الأولى فسقط فخاف الغرق فعاد إلى تلمسه ، فعاد إلى سقوطه ، فلا هو بالغ رأس البئر لينجو من الموت ، ولا بالغ قرارة الماء فينجو من الشقاء .

ارم بطرفك حيث شئت من الناس هل تبصر إلا صريعًا صرعه أمله ، أو قتيلًا قتله رجاؤه أو صديقًا يشكو غدر صديق كان يعده لنوائب الدهر فأصبح عون النوائب عليه ، أو باكيًا يبكي وليدًا كان يرجوه لمستقبل دهره ففجعته الأيام فيه ، أو ساعيًا دائبًا وراء غاية يطلبها من الدهر فلا يقرب منها حتى يبتعد عنها ، ولا يمسك بها

حتى تفلت من يديه ، أو ساهرًا متململًا لو لا أن تنيله الأيام ما يشتهيه من هواه ما بات ليله شاكيًا باكيًا داعيًا مناجيًا ، لا تراه إلا عين السماء ، ولا تسعه إلا أذن الجوزاء .

هذه حالتي وذلك همي ، وهذا ما وسوس لي أن أعتزل الناس جميعًا وأفارق عشيرتي وصحبتي ويراعي ومحبرتي ، علني أجد في البعد عن منارات الأماني ومباعث الآمال راحة اليأس ، فاليأس خير دواء لأمراض الرجاء .

فها أنذا قابع في كسر بيتي لا مؤنس إلا وحشتي ، ولا أنيس إلا وحدتي ، أتخيل البيت قبرًا ، والثوب كفنًا والوحشة وحشة المقبورين في مقابرهم ، لأعالج نفسي على إنسان الحياة ، وأمانيها الباطلة ، ومطامعها الكاذبة ، حتى يبلغ الكتاب أجله وهذا آخر عهدي بك وبغيرك والسلام .

نفس الشاعر

للشاعر ثلاث مميزات لا أستطيع أن أتصور أن الله وهبه ملكة الشعر وأفاض عليه روحه إذا تجرد من واحدة منها :

« عزة النفس ، و« طهارة القلب » ، و«سماحة اليد » .

واجتماع هذه الصفات فيه هو السبب في بؤسه وشقائه وعدمه واقتاره ، لأن صاحب النفس العزيزة لا يحتمل منه لأحد ، وصاحب القلب الطاهر لا يعرف كيف يتلمس وجوه الحيل لعيشه والكريم لا يبقي على شيء مما في يده .

ولقد صور الروائي العظيم « ادمون روستان » عزة نفس الشاعر وإباءه وهي الصفة الأولى من تلك الصفات أحسن تصوير في قطعة بديعة من رواية « سيرانو دي برجراك » أقدمها للقارئ لتكون مثالًا صالحًا للشعراء يحتذونه في حياتهم الأدبية وميزانًا يزن به الناس قيمة الشعراء ومنزلتهم من الشعر والأدب .

***

أعجب الكونت دي جيش أحد قواد الجيش الفرنسي وصهر الكاردينال ريشلييه وزير فرنسا الشهير بالشاعر العظيم « سيرانو دي برجراك » يرتجل على مسمع منه قصيدة من أعلى طبقات الشعر وأرقاها فقال في نفسه أن اصطناع شاعر مجيد كهذا الشاعر حلية جميلة لا ينبغي أن يفوتنا التحلي بها ، ثم أسندناه إليه وكان جالسًا على كرسيه العالي جلسة العظمة والكبرياء وقال له : أتحب أن تكون لي يا سيرانو؟ فامتعض الشاعر امتعاضًا شديدًا ونظر إليه نظرة جامدة قاسية وقال له : لا يا سيدي ولا لأي إنسان ، قال : إن صهري الكاردينال يعجب بك جدًا ، وكثيرًا ما سمعته يثني عليك وعلى أدبك ، وقد علمت أنك نظمت منذ عهد قريب رواية تمثيلية جميلة اسمها « اجريبين » لم توفق إلى تمثيلها حتى اليوم فلو أنك ذهبت بها إليه وقدمتها له لعرف لك فضلك فيها ، وأحسن جزاءك عليها وربما نوه بشأنها وشاد بذكرها فاهتمت الملاعب بتمثيلها وتم لك ما ترجوه لنفسك من المجد والفخار ، والرجل كما تعلم شاعر جليل راسخ القدم في النقد الأدبي ، وينظر في روايتك هذه نظر الناقد البصير ولا أحسبه يضن عليك بتهذيب ما يحتاج إلى التهذيب من أبياتها فتأتي آية الآيات في حسنها وجمالها .

فاكفهر وجه سيرانوا وتغضن جبينه وقال له : ذلك مستحيل يا سيدي وإن دمي ليجمد في عروقي عندما أتخيل أن إنسانًا في العالم يحدث نفسه بتغيير حرف واحد في قصيدة من قصائدي ، فعجب الكونت لأمره وقال له : ولكنك تعلم من شأنه أنه حين يعجب ببيت من الشعر يدفع ثمنه غاليًا ، قال : ربما كان ذلك صحيحًا ، ولكنه لا يستطيع أن يبذل فيه من الثمن مثل ما أبذل ، لأنني أسكب في شعري دم قلبي حارًا ، ودم القلب أغلى ثمنًا من الفضة والذهب ، فقال : يظهر لي أنك أبي النفس يا سيرانو ، قال : نعم يا سيدي ما في ذلك شك وإني أحمد الله على أنك قد شعرت بذلك ، فاستشاط الكونت غضبًا وقام من مجلسه ساخطًا ، وهو يعجب أشد العجب لكبرياء هذا الرجل الذي يرفض قبول نعمة تسيل على مثلها نفوس الشعراء والروائيين جميعًا .

وكان لبريه صديق سيرانو جالسًا بجانبه فأخذ يعنفه بعد انصراف الكونت ويلومه على حمقه ورعونته وينعي عليه خشونته وغلظته ويقول له : إنك قد أضعت فرصة كان جديرًا بك أن تفترضها حين لاحت لك ، فقد كنت في أشد الحاجة إلى من يرفع لك شأن روايتك وينوه بذكرها ويمسح عن رأسها غبار الخمول والضعة ، ويأخذ بيدك في طريق المجد الذي تحبه وتعشقه ، فماذا أنت صانع بعد ذلك؟ فانتفض سيرانو غيظًا واستوى في مكانه جالسًا وألقى على صديقه نظرة طويلة هادئة وأنشأ يقول له بصوت قوي رنان .

ماذا تريد مني يا لبريه؟ أتريد أن أعتمد في حياتي على غيري وأن أضع زمام نفسي في يد عظيم من العظماء أو نبيل من النبلاء يصطنعني ويجتبيني ويكفيني مؤونة عيشي ويحمل عني هموم الحياة وأثقالها مثلي في الناس كمثل شجرة « اللبلاب » في النبات تلتف بأحد الجزوع تلعق قشرته وتمتص مادته بدلًا من أن تعتمد في حياتها على نفسها .

أتريد أن أحمل نفسي على عاتقي كما يحمل الدلال سلعته وأدور بها في أسواق المساومة مناديًا عليها : من منكم أيها الأغنياء والأثرياء والوزراء والعظماء وأصحاب الدولة والجاه يبتاع نفسًا بذمتها وضميرها وعواطفها ومشاعرها بلقمة عيش وجرعة ماء؟

أتريد أن أنصب نفسي سخرية في الأندية الخاصة والمجتمعات العامة ، ألعب كما يلعب القرد وأنطق كما ينطق الببغاء ، وأتلون كما تتلون الحرباء ، رجاء أن أجد التفاتة من عيني أمير أو أرى ابتسامة على شفتي وزير؟

أتريد أن تستحيل قامتي المعتدلة إلى قوس من كثرة الانحناء وأن تنهدل أجفاني من كثرة الإطراق والإغضاء وأن تتكون فوق ركبتي طبقة سميكة من كثرة الركوع والسجود بين يدي العظماء!

أتريد أن يكون لي لسانان؟ لسان كاذب أمدح به ذلك الذي اصطنعني واجتباني ولسان صادق أعدد به عيوبه وسيئاته ، وأن يكون لي وجهان؟ وجه راض عنه لأنه يحسن إلي ويحميني ووجه ساخط عليه لأنه يستعبدني ويسترقني؟

أتريد أن أقضي حياتي كلها واقفًا في مكاني أرثب فيه وأطفر وأتطاول بعنقي ليتوهم الناس أني طويل وما أنا بطويل؟ أو أن أتخذ لي بوقًا ضخمًا أنفخ فيه ليتوهم السامعون أني جهوري الصوت وما أنا لا نافخ في بوقه؟

أتريد أن أسيّر سفينة شعري في العالم كما يفعل جماعة الشعراء والروائيين بأذرع العظماء والكبراء بدلًا من المجازيف التي أنحتها بفاسي وبشعور الدوقات العجائز البيضاء بدلًا من الأشرعة التي أنسجها بيدي ، وبتنهدات الأميرات العاشقات بدلًا من الرياح الجارية التي يسخرها الله لي؟

أتريد أن أجعل حياتي الأدبية تحت رحمة المقرظين والناقدين والراضين والساخطين؟ فإن شاءوا رفعوني وإن شاءوا هووا بي إلى أعماق الجحيم؟

ذلك ما لا يكون والموت أهون علي من ذلك .

أريد أن أعيش حرًا مستقلًا لا أخشى أحدًا ولا أهاب شيئًا لا يعنيني تهديد الجرائد التجارية الساقطة ، ولا يفرحني أن تنشر الصحف الكبيرة اسمي بالأحرف الضخمة في أكبر أنهارها ، ولا أبالي أتداول الناس قصائدي وتدارسوها ورنت نغماتها في أرجاء المسارح أم بقيت في جرار خزانتي أقرأها بنفسي لنفسي وأتغنى بها في ساعات وحدتي وخلوتي .

أريد أن أعيش حرًا مطلقًا أضحك كما أشاء ، وأبكي كما أريد وأحتفظ بنظري سليمًا ، وصوتي رنانًا ، وخطوتي منتظمة ، ورأسي مرتفعًا ، وقولي صريحًا ، أنظم الشعر في الساعة التي أختارها وفي الشأن الذي أريده فإن أعجبني ما ورد علي منه فذلك؟

وإلا تركته غير آسف عليه وأخذت في نظم غيره بدلًا من أن أتوسل إلى الطابعين أن ينشروه والأدباء أن يقرظوه ، والممثلين أن يمثلوه ، والعظماء أن ينوهوا به ويرفعوا من شأنه .

أحب أن لا أنظم من الشعر إلا ما يجود به خاطري ولا أنظم إلا بالطريقة التي أريدها لنفسي لا التي يريدها الناس لي ، أي أنني آنف أن أمتع نظري إلا بمنظر الأزهار التي أغرسها بيدي في حديقتي كما أحب وأشتهي فإن قدر الله لي منزلة في الحياة فلن أكون مدينًا بها لأحد غيري ، ولن يكون فخرها عائدًا إلا علي وحدي ، ولا أسمع لأحد من الناس كائنًا من كان أن يرفعني بل لابد لي من أن أرفع نفسي بنفسي .

أريد أن أعيش حرًا طليقًا أناضل من أشاء وأجادل من أشاء وانتقد من أشاء ، وأن أقول كلمتي الخير والشر للأخيار والأشرار في وجوههم لا متملقًا أولئك ولا متقيًا هؤلاء .

إن العبد المقيد بقيود الإحسان والنعم لا يمكن أن يكون حرًا طليقًا ، فليعفني الناس من أنعمهم وصنائعهم ، لأني لا أحب أن أكون عبدًا لهم ولا أسيرًا في أيديهم .

وآخر ما أقول لك أني أفضل أن أعيش ممقوتًا مرذولًا عند الناس على أن أعيش ذليلًا مستعبدًا لهم ، ولا أحب أن أرتفع ارتفاع الزيزفون والسرو إذا كانت اليد التي ترفعني غير يدي ، وحسبي من الرفعة والشرف أن أنال منهما نصيبي في العالم على قدر ما تسمح به قوتي ومواهبي لا أزيد على ذلك شيئًا .

فقال له لبريه : عش بنفسك وحيدًا كما شئت ولكن لا تكن عدوًا للجميع .

قال : ربما أكون مغاليًا في ذلك ولكن ما دعاني إلى المغالاة في المعاداة إلا مغالاتكم معشر المتكلفين والمتحذلفين في المصادقة والمولاة وتصنعكم في استجلاب الخلان والأصدقاء وما بغض إلى التودد والتحابب إلا بغضي لتلك الابتسامات الباردة الثقيلة التي تنفرج عنها شفاهكم كلما قابلتم صديقًا أو عدوًا شريفًا أو وضيعًا كريمًا أو لئيمًا حتى أصبحت لا أحب شيئًا في العالم حبي لبغض الناس إياي ولا أكره شيئًا كرهي لحبهم وتوددهم إلي .

هذا هو عيبي الوحيد الذي لا أعرف لنفسي عيبًا سواه ولكنه عيب يعجبني جدًا ويلذ لي كثيرًا ، وإنك لا تستطيع أن تدرك مقدار ما أجده من اللذة في نفسي عندما أسير في طريقي فأراه مملوءًا بنظرات الغضب ملتهبًا بنيران الحقد وأرى نفسي محوطًا بنطاق محكم من قلوب الساخطين والناقمين .

أما المثالب التي أسمعها والعتاب الذي يصوب إلى فهمي أشبه الأشياء عندي بذلك البرد المتساقط الذي يتناثر على ردائي من الجو ثم ينزلق عنه إلى الأرض فأدوسه بقدمي .

إن الصداقة الباردة المتفككة التي يسعى وراءها الناس أشبه شيء « بالياقات » الإيطالية اللينة التي تتموج حول الأعناق فتتموج الأعناق بتموجها ، فهي وإن كانت لينة مرنة إلا أنها لا قوام لها ولا جمال .

أما العداوة فهي الدرع الحديدية الصلبة التي تدور بالجسم فتحفظ كيانه وقوته وتمنعه عن أن يضعف أو أن يخور ، وكل عدو جديد هو حلقة جديدة في تلك الدرع القوية المتينة ، أو هي «الياقة» الأسبانية من جميع وجوهها ، يعدها الناس غلًا حديديًا وهي في الحقيقة هالة منيرة . ا.هـ .

***

هذا هو المثل الذي ضربه « ادمون روستان » للشعراء والأدباء ليكون عبرة لهم وميدانًا لأقدارهم ومنازلهم ، ولقد قضى بقية أيامه بعد ذلك محافظًا على مبدئه لا يحتمل منة لأحد ، ولا يمد يده بالسؤال لأحد ولا يعطي هوادة في حق من الحقوق أو مبدأ من المبادئ ينتقد رجال الدين الذين يتجرون بدينهم والأشراف الذين يملؤون الظلمة على ظلمهم وجورهم ، فعاش فقيرًا معدمًا مضطهدًا حتى مات موت المساكين المعوزين ولكنه عاش بعد ذلك في صفحات التاريخ عيش العظماء النابهين .

■ ■ ■

تأبين فولتير 1778 – 1878 – 1908

فولتير هوجو المنفلوطي

في (3) مايو (1878) احتفلت فرنسا بتذكار مرور مائة سنة على وفاة فولتير ودعي فكتور هوجو فألقى في الحفلة في باريس خطبة التأبين .

في مثل هذا اليوم – منذ مائة سنة – مات الرجل العظيم ، مات الرجل الخالد ، مات فولتير بعد أن احدودب ظهره تحت أثقال السنين الطوال ، وأثقال جلائل الأعمال ، وأثقال الأمانة العظيمة التي عرضت على السموات والأرض فأبين أن يحملنها فحملها وحده ، وهي تهذيب السريرة الإنسانية فهذبت فاستنارت فاستقام أمرها .

مات فولتير مرذولًا محبوبًا في آن واحد يبغضه الماضي لأنه يجهله ويحبه المستقبل لأنه عرفه .

أيها القوم إن في هاتين العاطفتين – البغض والحب – سرًا عظيمًا من أسرار المجد العظيم لذلك الرجل العظيم .

***

كان وهو على سرير الموت محاطًا بعاطفتين مختلفتين شكلًا متفقتين جوهرًا وحقيقة ، لأنهما جميعًا في سبيل مجده وفخاره ، كان ينظر أمامه فيسره منظر التبجيل والتعظيم من حاضره ومستقبله ويلتفت وراءه فيطرب به مشهد البغض والازدراء والحقد الذي يكنه الماضي في صدره لأولئك الرجال البواسل الذين قاتلوه فانتصروا عليه .

كان فولتير رجلًا وأكبر من رجل ، كان وحده أمة كاملة ، إنه عاهد نفسه على إنجاز عمل فأنجزه ولم يخلف وعده ، وكأن الإرادة الإلهية المتجلية في الشرائع تجليها في الطبائع نثرت كنانة هذا المجتمع الإنساني وعجمت عيدانه فوجدت فولتير أصلبها عودًا فانتدبته للقيام بالعمل الذي قام به فأتمه .

سلخ هذا الرجل أربعة وثمانين حولًا كانت ملأ الفضاء الكائن بين مغرب الشمس ومشرقها بين غروب الملكية وشروق الثورة ، ولد في عهد لويس الرابع عشر ومات بعد انقضاء ملك لويس السادس عشر أشرق على مهده الشعاع الأخير من أشعة العرش العظيم وعلى نعشه الشعاع الأول من أشعة الهاوية العظيمة .

كيف تكون للهاوية أشعة ، أجل إن في الكون هوىً طيبة مباركة وهي التي تجذب الشر إليها وتطويه في جوفها .

***

الآن أمضي في بياني فقد شرحت الكلمة الغامضة ، وما كنت لأمضي قبل أن أشرحها لأننا ما اجتمعنا هنا إلا لننطق بالصواب من القول والرائع من الحكمة .

إنا أتينا هنا لفصل الخطاب في المسألة الاجتماعية ، جئنا لنرفع شأن المدينة ونكرم الفلسفة إكرامًا ينفعها ويفيدها ، جئنا لنتلو على القرن الثامن عشر رأي القرن التاسع عشر فيه جئنا لنكرم المجاهدين والعاملين المخلصين ، اجتمعنا لنمهد الطريق للوحدة الإنسانية التي يسعى إليها العلماء والعاملون ، والصناع المجدون ، وجملة القول أنا ما اجتمعنا هنا إلا لنمجد العاطفة الشريفة السامية عاطفة السلام العام .

إنا نمجد السلام حبًا في المدينة وحرصًا على رونقها ورواءها فإن السلام فضيلة المدنية والحرب رذيلتها .

***

نحن في هذه اللمحة الكبيرة في هذا الموقف المهيب نجثو على الركب ونعفر جباهنا بين يدي الشريعة الأدبية ونقول للعالم الذي ينصب لسماع صوت فرنسا : لا قوة إلا قوة الضمير ولا مجد إلا مجد الذكاء ، ذلك في سبيل العدل وهذا في سبيل الحق .

أيها القوم لقد كان شأن المجتمع الإنساني قبل الثورة على هذا المثال الشعب في المنزلة الدنيا وفوق الشعب الدين والقضاء ، هذا يمثله القضاء وذلك يمثله الإكليروس .

أتدرون كيف كان الشعب وكيف كان الدين والقضاء في ذلك العهد؟ كان الشعب جهلًا والدين رياء والقضاء ظلمًا .

إن كنتم في شك مما أقول فإني أقص عليكم حادثتين من حوادث ذلك التاريخ أرى فيهما غناء ومقنعًا للحائر المتردد .

في (13) أكتوبر سنة (1761) وجد شاب مشنوقًا في الطبقة الأرضية من بيت في مدينة طولوز فهاج الشعب ولغط الإكليروس وبحث القضاة فكانت النتيجة أن كان الشاب منتحرًا فسمي قتيلًا ووالده بريئًا فسمي قاتلًا .

هكذا أراد الدين وأرادت مصلحته أن يهلك والد الفتى لأنه كان بروتستانيًا ، وكان يمانع فتاه أن يتمذهب بالكثلكة ، إنها لجناية فظيعة جدًا ينكرها الدين ويحيلها العقل ولكن هان عليهم أمرها ولم يحفلوا بالشريعتين فحكموا الشيخ الكبير قتل ولده الصغير هكذا قضى القضاء وهكذا كانت النتيجة فاستمعوها .

***

في شهر مارس سنة (1762) سبق إلى الميدان العام شيخ أبيض الشعر هو جان كالاس ثم جرد من ثيابه وطرح على دولاب العذاب وشدت به أكرافه وتركوا رأسه متدليًا .

ثلاثة رجال تلوثت أيديهم بدم القتل ، كاهن يحمل الصليب وجلاد يحمل القضيب ، وقاض اسمه داود يحمل في صدره عهد القوم إليه بالتنكيل والتعذيب .

لم يكن الشيخ المسكين وقد شق الخوف مرارته وتمشى قلبه في صدره لينظر إلى الصليب في يد الكاهن بل إلى القضيب في يد الجلاد .

***

رفع الجلاد القضيب وضرب ذراع الشيخ ضربة كاسرة صاح على أثرها صيحة مؤلمة ثم أغمي عليه فتقدم القاضي الرحيم وأمر له بالمنبهات فانتعش وأفاق فضربه الجلاد الأخرى فوق الذراع الأخرى فعاد إلى صرخته وإغمائه وعادوا إلى تنبيهه وإنعاشه حتى تم لكل ذراع من ذراعيه ضربتان وكسران فكأنما قتلوه قبل موته ثماني مرات .

في الإغماء الثامن بعد مرور ساعتين من العذاب تقدم الكاهن ومد إليه الصليب ليقبله فحول وجهه عنه فأقبل الجلاد وسدد إلى صدره الطرف الغليظ من القضيب الحديد وضربه ضربة ألصقت صدره بظهره فكانت القاضية . على هذه الصورة مات جان كلاس .

وما هي أيام قلائل حتى عرف الناس أن الفتى مات منتحرًا لا مقتولًا فحكموا ببراءة الشيخ بعد قتله .

لم يجن الشيخ على الفتى وجنى على الشيخ القضاء .

أما الحادثة الأخرى فهي عبرة الشباب كما كانت الأولى موعظة الشيخوخة .

بعد مضي ثلاث سنين من تاريخ الحادثة الأولى وجدوا في أبفيل صليبًا عتيقًا أكل السوس أحشاءه حتى عاف البقاء فيه – مطرحًا فوق الجسر بعد أن عاش فوق السور ثلاثة قرون وكان ذلك في ليلة عاصفة .

من ألقى به من أعلى السور؟ من أهانه؟ من ذا الذي دنس هذا الأثر المقدس؟ من ذا الذي أجرم هذا الجرم العظيم؟ ربما عصفت به ريح أو عبث به عابر طريق أو هوى به ضعف الشيخوخة وإعياء لهرم ، وعلى كل حال لم يعرف المجرم ، ولكن أبى الدين إلا أن يوجد مجرمًا هنالك أعلن مطران أميان براءة من غفران الله ورحمته لكل من علم أو ظن أنه علم شيئًا عن هذه الحادثة فكتمه .

***

إن الحرمان جريمة فظيعة قاتلة متى أوحى به التعصب الذميم إلى الجهل العظيم .

كان هذا الحرمان سببًا في أن القضاء عرف أو ظن أنه عرف أن ضابطين اسم أحدهما لابار والآخر ديتالون مرا على جسر أبفيل في تلك الليلة المشؤومة يترنحان سكرًا وينشدان نشيدًا عسكريًا ، مرا بالجسر وأنشدا النشيد فهما المجرمان ، وكانت المحكمة مقدس أبفيل ولم تكن بأقل عدلًا وإنصافًا من مجلس الكانيتول في طولوز فأمرت بالقبض على الرجلين فاختفى ديتالون وقبض على لابار وأسلم إلى القضاء فاعترف بالنشيد وأنكر المرور على الجسر فحكمت عليه محكمة أبفيل بالإعدام وأيد حكمها برلمان باريس فدنت الساعة المخيفة الهائلة .

***

لقد تفننوا في تعذيب الشيفاليه دي لابار وإرهاقه ليكشفوا عن سر فعلته وعن شركائه في جريمته – أي جريمة المرور على الجسر وإنشاد النشيد .

لقد عذبوه عذابًا أليمًا حتى أن الكاهن الذي جيء به ليسمع اعترافه أغمي عليه حينما سمع قرقعة عظام ركبتيه .

مضى هذا اليوم وجاء اليوم الثاني وهو يوم (5) يونيو سنة (1766) وجيء بالشاب المظلوم إلى ساحة أبفيل الكبرى حيث تشتعل نار العذاب وتضطرم اضطرامًا فأسمعوه نص الحكم ثم بتروا يده ثم استلوا لسانه بقابض من الحديد فاستأصلوه ولكنهم رحموه بعد ذلك فقطعوا رأسه وألقوا بها في النار .

***

على هذه الصورة مات الشيفاليه دي لابار كما مات من قبله جان لاكاس .

أحزنك هذا المنظر يا فولتير وآلم نفسك وملك عليك شعورك ووجدانك فصحت صيحة الرعب والجزع فكانت تلك الصيحة الحجر الأول في بناء مجدك العظيم الخالد .

هنالك انبعثت نفسك إلى النزول في ميدان المجتمع الإنساني لتكف عادية الظالمين وتقلم أظفار الوحوش الضارية ، وجلست في منصة القضاء لتحاكم الماضي على جرائمه وتنتصف منه للمستقبل فانتصفت وانتصرت وكنت من المحسنين .

***

أيها الرجل العظيم طبت حيًا وميتًا .

حدثت تلك الحوادث التي ذكرتها على مشهد من المجتمع المهذب الراقي ومن حياة حافلة بالسعادة مغتبطة بالهناء يغدو إليها الإنسان لاهيًا وبروح ساهية لا يرفع رأسه فيعلم ما فوقه ولا يخفضها فيدري ما تحته .

حدث ذلك وأيام البلاد أعياد وفرسايل تتلألأ حسنًا وبهاء ، ورونقًا وماء ، وظرفاء الشعراء مثل سان أولاير وبوفلير وجنتيل برنار لاهون بالغزل الرقيق والوصف الجميل .

***

حدث ذلك وباريس تتجاهل ما يجري حولها فاستطاع القضاء الظالم بمساعدة القسوة الدينية أن يمثل بالشيخ ذلك التمثيل الفظيع بذلك القضيب الحديد ، وأن يستل لسان الفتى لأنه أنشد الأناشيد .

***

كان المجتمع في ذلك التاريخ مؤلفًا من قوى عظيمة هائلة ، قوة البلاط ، وقوة الأشراف ، وقوة المال ، وقوة الشعب المائج المندفع وقوة الحكومة التي كانت أسدًا على الرعية نعامة بين يدي الملك تجثو أمامه خاضعة صاغرة إلا أن جثيها كان على جثة الشعب وقوة الأكليروس المؤلف من الرياء الكاذب والتعصب الأعمى .

تقدم فولتير وحده وأثار حربًا عوانًا على هذا العالم القوي المخيف ولم يره أكبر من أن ينخذل ولم يرَ نفسه أصغر من أن ينتصر .

أتدري ما كان سلاحه؟ ما كان له سلاح غير تلك الأداة التي تجاري العاصفة في هبوبها وتسبق الصاعقة في انقضاضها ، ما كان له سلاح غير القلم ، فبالقلم حارب وبالقلم انتصر .

***

انتصر فولتير ، فولتير وقف وحده تلك المواقف المشهودة فولتير أدار وحده رحى تلك الحروب الهائلة ، حرب العلم والجهل ، العدل والظلم ، العقل والهوى ، الصلاح والفساد فتم على يديه للخير على الشر وفاز فوزًا مبينًا .

كان فولتير قلبًا وعقلًا ، كان له رقة الفتاة في غلالتها وشدة البطل في شكته .

فولتير محا الخرافات الدينية والعادات الفاسدة وأرغم أنف الكبرياء وأذل عزَّ الرؤساء ، ورفع السوقي إلى حيث لا يصل إليه ظلم القاضي الغوثي وتنطع الكاهن الروماني وغار ليفرن ومونتبالي كما غار لكلاس ولابار .

وعلم ومدن وهذب ولقي في سبيل ذلك من الشدائد والمحن والنفي والقهر ما يكسر سورة النفس فلم تنكسر سورته ، ولم تفتر عزيمته ، بل كان يلقى الاستبداد بالسخرية والغضب بالاستخفاف والقوة القاهرة بالابتسامة المؤثرة .

أقف هنا قليلًا إجلالًا لابتسامة فولتير .

***

فولتير هو الابتسامة والابتسامة هي فولتير ، أفضل مزايا الرجل الحكيم أن يملك نفسه عند الغضب وكذلك كان فولتير ، كان عقله ميزان أعماله فما غلبه حتى الغضب للحق وكنت تراه عابسًا مقطبًا فما هي إلا كرة الطرف أن ترى فولتير الضاحك المبتسم ، في مكان فولتير العابس المقطب ، يكاد يكون ابتسامه ضحكًا لولا حزن الحكيم وهم العاقل ، كان ابتسامه كبارقة السيف يرتاع لها الأعداء ويرتاح لها الأولياء كان يبسم للقوي فيخجله بنهمه واستخفافه ، وللضعيف فيسره بتحننه وانعطافه ، فلنمجد ذلك الابتسام الذي كانت أشعته كأشعة الفجر تمحو الظلام وتبعث الأضواء .

نعم الابتسام ابتسام أنار الطريق للعدل والحق والصلاح وكشف عن ظلمات التقليد .

***

إن ابتسامة فولتير أنشأت هذه الهيئة الاجتماعية الجديدة وزينتها بالإخاء والمودة والحرية والمساواة فنال العقل منزلته من الإجلال والإعظام سواء سكن القصر الكبير أو الكوخ الحقير ولبس المعلم تاج الملك فتصرف في العقائد الباطلة والعادات الفاسدة والخرافات الدينية تصرف الحاكم القدير ونشر السلاح أجنحته البيضاء على المجتمع الإنساني فقرت السيوف في الأغماد وهدأت الدماء في العروق والأرواح في الأجسام .

كل ذلك ابتسامة فولتير ، ولسوف يأتي ذلك اليوم العظيم يوم الرحمة بالضعفاء والعفو عن الخاطئين فيبسم فولتير في السماء ابتسامة تتلألأ بين لألاء النجوم .

فلنمجد ابتسامة فولتير كل التمجيد ولنكبرها كل الإكبار .

أيها القوم إن بين المصلح الأول والمصلح الثاني سرًا خفيًا واتصالًا عجيبًا وإن كان بين عصريهما ثمانية عشر قرنًا .

***

إن قتال الفرنسيين ورفع الستار عن الدسائس وإرغام أنف الظلم والكذب وهدم الهيكل لتجديد بنائه – أي إصلاح الفاسد – والانقضاض على القضاء المستبد والكهنوت السفاح وطرد الصرافين من بيت المقدس بالسياط وإعادة الميراث للمحرومين منه والرفق بالضعيف والعاجز وتعزية اليائس والمحزون ومساعدة المظلوم والمقهور – كل ذلك كان جهاد المسيح بالأمس وهو أشبه شيء بجهاد فولتير اليوم .

إن الفلسفة ساعدت الإنجيل ، إن اللطف أتم ما بدأت به الرأفة ، « وتبسم فولتير ومن تلك الدموع وذلك الابتسام تألف جمال المدنية الحديثة .

هل كان فولتير يحلم دائمًا فلا يستخف حلمه الغضب؟ كلا ، بل كان يغضب أحيانًا في سبيل الحق .

***

أنا لا أنكر أن التوسط وحفظ الموازنة بيم الأخلاق هو القانون العقلي للإنسان حتى لا تهبط به كفة وتعلو به أخرى وحتى لا يهلك بين عاطفتي الحب والبغض ، ولا أنكر أن الفلسفة هي الاعتدال وإظهار الحقائق واضحة بين مؤلفات الأعمال والأقوال ولكن أرى أن حب الحق يجب أن يكون في مرتبة الغلو حتى تهب عاطفته هبوب العاصفة فتذهب بالأقذاء والأقذار .

***

يعيش المرء بين سعادتين من حاضره ومستقبله ، أما الأولى فيكفلها العدل ، وأما الثانية فيحرسها الرجاء والأمل ، لذلك يحب الناس القاضي العادل والكاهن الصالح لأن الأول صورة العدل والثاني مثال الرجاء .

فإذا انقلب العدل ظلمًا والأمل يأسًا عافهما الإنسان ولوى وجهه عنهما وقال للقاضي : « لا أحب قانونك » وللكاهن : « لا أعتقد بدعتك » .

وهناك يهب الفيلسوف الغيور غاضبًا فيحاكم القضاء أمام العدل والكهنوت أمام الله ، كذلك فعل فولتير فكان من المحسنين .

***

أيها القوم صورت لكم فولتير كما هو والآن أصور لكم عصر فولتير إن الرجل العظيم لا يظهر في المجتمع وحيدًا إلا قليلًا وكلما كثر العظماء حوله ارتفع شأنه وعلا ذكره .

فهو كالشجرة تكون في نظر الناظر أطول في الغابة الشجراء معها في التربة الجرداء لأنها تكون في منبتها ومستقرها وكان فولتير في غابة من العقول الكبيرة ، روسو وديدرو أولًا ثم بوفون وبومارشه ومونتسكيو أولئك القوم المفكرون علموا الناس النظر في حقائق الأشياء والتفكر الموصل إلى إتقان الأعمال وعلموهم أن صلاح القلب أثر من آثار صلاح العقل فأجادوا وأفادوا .

وضع بوفون أساس العلم بطبائع الكائنات واكتشف نوعًا من الكوميديا الاجتماعية كان لم يزل مجهولًا بعض الجهل إلى ذلك التاريخ واهتدى مونتسيكو إلى أسرار الشرائع فأحيا بإحيائها الحق الدفين .

***

أما روسو وديدرو فلهما الشأن الأعلى والمقام الأسمى .

كان ديدرو شعلة متوقدة من الذكاء كان كثير التعمق والغوص والتغلغل في حقائق الأشياء كان رقيق القلب محبًا للعدل متعطشًا إليه فبدا له أن يصل إلى المبادئ السامية الصحيحة من طريق الخيال فوضع الأنسكلوبيديا .

أما روسو فإنه خدم المرأة خدمة جليلة وأجمل آثاره فيها أنه وحد الأم والمرضع وأنزلهما من مهد الطفل منزلًا واحدًا أن روسو كاتب بليغ شاعر في كتابته مؤثر على الوجدانات يعرف كيف يلمسها فيهيجها طار بأجنحة الخيال في جو السياسة حتى لمس بيده حقائقها ، له فضل السبق على كل من هتف باسم الوطن ، كان قلب روسو يخفق للأمة وقلب فولتير يخفق للنوع البشري ، ويمكننا أن نقول إن روسو كان أضيق ميدانًا من فولتير فميدان الأول فرنسا وميدان الثاني رفعة الأرض .

مات أولئك القوم العظام وهوت من أفقها كواكبهم ، كانوا جسدًا وروحًا أما الجسد فقد طواه القبر وأما الروح فهي الثورة التي تركوها من بعدهم .

أجل ، إن الثورة روحهم والمظهر الساطع المتلألئ بحكمتهم ومبادئهم هم في الحقيقة أبطال الثورة المقدسة التي هي خاتمة الماضي وفاتحة المستقبل ، أنك تراهم بعين بصيرتك في كل مواقفها ووقائعها ، إذا اخترقت أشعة العقل حجاب المسببات ونفذت إلى الأسباب نرى في نور الثورة الساطع أن ديدرو كان واقفًا وراء دانتون وروسو وراء روبسبيير وفولتير وراء ميرابو ونجد أن أبطال الثورة صنعية أبطال الفلسفة .

أيها القوم إن تسمية العصر باسم رجله العظيم عمل جليل وفكرة سامية بدأت بها ثلاثة شعوب اليونان وإيطاليا وفرنسا ، فقيل عصر باروكليس وعصر أغسطس وعصر لاون العاشر وعصر لويس السابع عشر وعصر فولتير .

إنها فكرة سامية تستمل على سر عظيم من أسرار المدنية وتدل على أن الأمة تدرك مقدار ما تمتد إليه عظمة الرجل العظيم ، كان ينقصها قبل عهد فولتير أنها كانت خاصة بالملوك ورؤساء الحكومات ، ولما كان فولتير أجل من ملك وأكبر من رئيس بطل هذا الاختصاص وقيل عصر فولتير .

***

أجل إن فولتير ملك المبادئ ورئيس الإصلاح والعزيز القادر الذي أمكنه أن ينشئ عالمًا جديدًا على أطلال العالم القديم وأن يسلب القوة الحاكمة سلطتها ويمنحها للفكر وأن يكسر الصولجان والسيف ليقيم مقامها العدل والرحمة ، وأن يمنح المجتمع حريته حتى لا سلطة على الشعب إلا سلطة القانون ولا زاجر للفرد إلا زاجر الضمير .

***

كان الفرق بين الأنانية والوطنية غامضًا مبهمًا فظهر ظهورًا واضحًا جليًا وعرف الإنسان كيف يحفظ حقه ليكون رجلًا ويقوم بواجب الوطن ليكون وطنيًا ، هذه المعرفة هي معنى قولنا عصر فولتير وهي معنى تلك الحادثة الجلية حادثة الثورة الفرنساوية .

***

ولا أنكر أن القرنين السادس عشر والسابع عشر مهدا كثيرًا من العقبات الاجتماعية للقرن الثامن عشر ، فقد أنذر رابيلاس الملكية في غراغنتوا وموليير الكنيسة في ترنوف لأن حب العدل وبغض القوة كان ظاهرًا في هاتين النفسين الكريمتين .

إذًا فالعهد بسلطان القوة بعيد ، فمن قال إن الحق مع القوة فقد تقمص صورة من صور الأجيال الوسطى وخاطب أقوامًا بادوا قبل ثلاثة قرون .

إن القرن التاسع عشر يجل القرن الثامن عشر ويحترمه احترام المتعلم للمعلم ، إن الأول دعا فلبى الثاني دعاءه وأمر فأتمر بأمره .

***

أيها القوم إن الكلمة الأخيرة التي أنطق بها في هذا الموقف هي دعاء المجتمع البشري إلى التقدم بهدوء وسكون وثبات ووقار ، قد وجد ضالته التي كان ينشدها وهي الإخاء الإنساني والتعارف النفسي فمن العبث أن تشغل القوة بعد ذلك مكانًا من هذا المجتمع ، فإن فعلت كان أليق الأسماء بها الاستبداد .

***

إن المجتمع الإنساني أنكر على القوة حقها المزعوم وضاق صدره بجرائمها وآثامها فقاضاها بين يدي التمدن ووضع بين يديه جريدة المتهمين من الرؤساء والزعماء وأتى بالتاريخ شاهدًا على دعواه فقضى التمدن له عليها وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا .

شف ثوب الرياء عما تحته وظهرت الحقيقة بيضاء ناصعة لا غبار عليها فأصبح الأبطال المجرمون في نظر الإنسان سواء .

هدم التمدن تلك القاعدة الفاسدة وهي أن الجرم العظيم أصغر من الجرم الصغير ، فأدرك الإنسان أن قتل الشعوب أكبر إثمًا وأعظم جريرة من قتل الأفراد واستكبر أن يعتبر الحرب مجدًا وهو يعتبر السرقة عارًا .

وبالجملة عرف أن الجريمة حيث حلت وفي أي مظهر ظهرت وأن القاتل لا يغني عنه من الله شيئًا أن يسمي القيصر أو يدعى الإمبراطور .

ولا يخفى على الله من أمره شيء سواء لبس تاج الملك أو قلنسوة الإعدام .

فلنصرح بالحقيقة المقررة الواضحة ، ولنحتقر الحرب أشد الاحتقار أن الحرب المباركة لا أثر لها في الوجود ، إن منظر الدماء والأشلاء أفظع منظر لا يعقل أن يكون الشر طريق الخير وأن يكون الموت وظيفة الحياة .

أيتها الأمهات الجالسات حولي خفن من أحزانكن فقد أوشكت يد الحرب أن تكف عن اختلاس أفلاذ أكبادكن .

محال أن يستمر الحال على هذا المنوال ، أتشقى المرأة فتلد ويغرس الزراع فيكسو الأرض بساطها الأخضر ويجهد العامل فيملأ الخزائن ذهبًا وفضة ويأتي الصانع بعجائب المصنوعات وغرائب المدهشات حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وفاخرت السماء بنجومها وكواكبها وذهبنا لرؤية معرضها العام وجدناه ساحة القتال؟

إنما ساحة القتال الشريف في هذا المجتمع الذي جمع بين جدرانه ما تفرق من أعمال الإنسان الجليلة (وكان إلقاء هذا الخطاب أثناء افتتاح معرض باريس العام سنة 1878) والانتصار الشريف هو أن تعرض باريس هذا المجمع على بني الإنسان .

غير أني أقول مع الأسف أنا لا نستطيع أن نخدع أنفسنا وننكر أن الساعة التي نحن فيها تشتمل على بضع دقائق محزنة تكدر صفوها وتنقض من سرورها ، لا تزال في مرآة السماء الصافية سحابة سوداء إن الشعب لم يقض كل أربه من السعادة لأن الحرب لم تزل باقية ، وأعجب ما في أمرها أنها ترفع رأسها بكل جرأة وسماحة في مثل هذا العيد الجليل عيد السلام العام .

***

إن الملوك في السنتين الماضيتين أساء بعضهم ظنًا ببعض فاختلفوا وسيحل اختلافهم عقدة اتفاقنا فلنلجأ بشؤمهم إلى التقلب والاضطراب .

***

فلنذكر عند ملوك الحرب فولتير وجان جاك وديدرو ورويتسكيو ملوك السلام ولنوجه وجهتنا إلى تلك الروح العالية إلى تلك الحياة العظيمة ، إلى ذلك الدفين المقدس ولنخضع أمام قبره عسى أن يمدنا بروح منه ويهدينا إلى نصرة السلام فإنه بعد مرور قرن على حياته لم يزل في الأحياء الخالدين .

***

ولنقف في طريق الدماء المتدفقة لنقول للسافكين بصوت عال : كفى كفى ، إنها همجية ، إنها تشوه وجه المدنية ويستنصر القرن التاسع عشر عليهم بالقرن الثامن عشر .

إن أسلافنا من الفلاسفة هم رسل الحق إلى البشر فلنضرع إليهم في تذكارهم هذا أن يتداركوا المقتلة قبل وقوعها وينادوا أن الحياة ملك للإنسان وعظيم عليه أن تسلب منه .

وأن التمتع بالحرية حق من حقوق العقول والأفكار .

إن النور لا أثر له بين أضواء القصور ، فلنطلبه بين ظلمات القبور . اهـ .

■ ■ ■

جوستاف لوبون وفتحي زغلول

إن لكتاب روح الاجتماع عندي يدًا لا أنساها لمؤلفه الدكتور جوستاف لوبون ومترجمه العالم الفاضل سعادة : « أحمد فتحي زغلول باشا » فقد وجدني ضالًا فهداني ، وحائرًا فرفع لي منارًا أحمر حتى عرفت السبيل .

كنت أنقم من هذا المجتمع المصري شؤونًا ما كنت أنقم مثلها من غيره من المجتمعات البشرية ، وقد كنت أكاد أعتقد أنه مجتمع شاذ غريب في أطواره وصفاته ، حتى قرأت ذلك الكتاب الذي شرح طبيعة المجتمعات عامة شرقيها وغربيها وقرر لها حكمًا واحدًا لا يختلف ولا يتخلف ، فعرفت أن لا فرق بين الشعب المصري وغيره من الشعوب الأخرى إلا كما يكون بين الشيء والشبيه به من الاتفاق في الجوهر والكيفية والاختلاف في العرض والكمية .

كنت أعجب للجماعة المؤلفة من أتباع الحزب الوطني أن أراها مائلة إلى تصديق زعماء ذلك الحزب في دعواهم القدرة على إزعاج الاحتلال الإنكليزي من مكانه ومقاومة قوته القاهرة بمقالات يسطرونها ، أو خطب ينمقونها ، وعلى انتزاع الدستور من يد صاحب الأمر فيه بصراخ الشوارع ، وهتاف المجامع ، بل إلى تصديق كل قائم بينها سواء أكان هنديًا أو جركسيًا أو بربريًا أو نوريًا أو فرنسيًا أو إنكليزيًا زاعمًا أنه يخدم الوطنية المصرية بصدق وإخلاص

كما صدقت بالأمس المستر بلانت الإنكليزي في دعواه أنه قد نزل من حب الوطن المصري منزلة من يهدي النصائح والعظات إلى الخديوي السابق أكبر أصحاب الشأن في القضية المصرية ويعلمه كيف يكون وطنيًا ، وكما صدقت اليوم المسيو ديروجا الفرنسي والمسيو دراجيلا الإسباني في دعواهما الغيرة عليها ، والاهتمام بشأنها فما لأنهما على أميرها أبي الوطنية ، ومطلع كوكبها الساري وظهرت في توديعهما إلى منفاهما بمظهر تتصبب له الجباه عرقًا ، وتندى له الوجوه الكريمة حياءً وخجلًا ، فلما قرأت في روح الاجتماع له « ولما كانت الجماعة على الدوام محلقة في حدود اللاشعور تتأثر بالسهولة من جميع المؤثرات وذات إحساس قوي كإحساس الأشخاص الذين لا يمكنهم الاستعانة بالعقل ومجردة من ملكة النقد والتمييز كان من شأنها أن تكون سريعة التصديق سهلة الاعتقاد ، عرفت أن تلك طبيعة الجماعات وأن ليس الذنب المجتمع المصري خاصة بل على المجتمعات الإنسانية عامة .

وكنت أعجب للرجل الذي لا بأس بلبه ، ولا ظنه في فهمه وإدراكه من محامٍ بارع أو طبيب حاذق ، أو عالم محقق أو باحث مدقق ، أن أراه على جلاله وعظمه منتصبًا وسط أتباع الحزب الوطني يضج ضجيجهم ، ويصرخ صراخهم ، ويقول بما يقولون ، ويفهم كما يفهمون ويتقلب في أكفهم تقلب الكرة في أكف اللاعبين ،

ويشاركهم في تصور ما لا يتصور ، وتصديق ما لا يكون ، حتى قرأت في روح الاجتماع قوله أثناء الكلام على قابلية الجماعة للتصديق بالخيالات الباطلة « ولا ينبغي في رد ما تقدم الاحتجاج بمن كان بين تلك الجماعات من أهل العقل والذكاء الوافر لأنه لا تأثير لتلك الصفة في موضوعنا إذ العالم والجاهل وسواء في عدم القدرة على التمييز ما داموا في الجماعة » .

وقوله في موضع آخر : « وأشد الناس افتراقًا من حيث مداركهم يتشابهون في الوجدانيات والشهوات والمشاعر ، وأعظم الرجال لا يتفاوتون عن العامة في الأمور التي مرجعها الشعور كالدين والآداب والميل والنفور وهكذا إلا نادرًا فقد يكون بين الرياضي الكبير وبين صانع حذائه بعد ما بين السماء والأرض من حيث العقل والذكاء ولكن الفرق بينهما في الطباع معدوم في الغالب أو هو ضعيف للغاية » .

وقوله في موضع آخر : « يهبط بمجرد انضمامه إلى الجماعة عدة درجات من سلم المدنية ولعله في نفسه كان رجلًا مثقف العقل ، مهذب الأخلاق ، ولكنه في الجماعة ساذج تابع للغريزة ، ففيه اندفاع الرجل الفطري وشدته ، وفيه عنف وفيه حماسته وشجاعته ، وفيه من سهولة التأثر بالألفاظ والصور مما لم يكن يتأثر به وهو خارج الجماعة ، ثم فيه الانقياد بذلك إلى فعل ما يخالف منافعه البديهية ويناقض الرياح ما هبت » .

هنالك هدأ خاطري ، وثلج صدري ، وأمكنني أن أقول إن أذكياءنا ليسوا بأغبياء وعلمائنا ليسوا بجهلاء ، ولكنهم انضموا إلى الجماعة فنزلوا منها منزلة أمثالهم من أمثالها في كل زمان ومكان .

وكنت أعجب لخضوع أتباع الحزب الوطني لرؤسائهم الذين يؤذونهم ويمثلون بها ويستلبون أموالهم إن كانوا أغنياء ، وقواهم إن كانوا أقوياء ، ومستقبلهم إن كانوا متعلمين ، وحاضرهم إن كانوا موظفين ، وعقولهم إن لم يكونوا شيئًا من هذا وذاك ، كما كنت أعجب لانصرافهم عمن يأخذهم باللين ويرفق بهم ، ويحنو عليهم ، ويضع يده في أيديهم في مزالق الحوادث مخافة أن تزل بهم أقدامهم ، فما زال عجبي حتى قرأت في روح الاجتماع قوله في حديثه عن الجماعة : « وهي تحترم القوة وتخنع لها ولا تتأثر بالحسنى إلا قليلًا ، لأنها في نظرها صورة من صور الضعف ليس إلا ، لذلك لم تمل إلى رؤسائها الذين عرفوا باللين والرفق بل إلى الطغاة المستبدين الذين سحقوها .

وكنت أعجب لاهتمامهم بمطالعة المقالات السياسية التي تنشرها جرائد حزبهم وتأثرهم بها على ما تشتمل عليه من الأدلة الفاسدة ، والمعاني السقيمة ، والأساليب الباردة والبراهين الملفقة التي يأنف عقل العاقل أن يمنحها حتى النظرة الأولى ، وكنت أظن أن ذلك راجع إلى فساد ذاتي في أذواقهم ،

أو ضعف غريزي في مداركهم حتى وقفت على الحقيقة عند الإطلاع على قول صاحب روح الاجتماع « أن رابطة الأفكار التي تقارنها الجماعات ببعضها من حيث المشابهة أو التلازم ظاهرية لا حقيقية ، فهي تتسلسل عندها كما تتسلسل الأدلة في ذهن الرجل الإسيكماوي الذي عرف بالتجربة أن الثلج وهو جسم شفاف يذوب في الفم ، فاستنتج من ذلك أن الزجاج وهو شفاف أيضًا يجب أن يذوب في الفم ، وكالمتوحش الذي يتصور أن أكل قلب العدو الشجاع ينقل شجاعته إلى الآكل ، والحاصل أن تعقل الجماعات عبارة عن الجمع بين أشياء متخالفة لا رابطة بينها إلا في الظاهر والانتقال الفجائي من الجزئي إلى الكلي ومن التخصيص إلى التعميم بلا ترو؟ والأدلة التي يقدمها إليها أولئك الذين عرفوا كيف يقودونها كلها من هذا الطراز لأنها هي الأدلة التي تؤثر فيها بخلاف سلسلة من الأدلة المنطقية فإنها لا تدركها بحال فالخطيب الخبير بأحوال جماعته يعرف طريقة استحضار الصور التي تجذبها ، فإذا نجح فذلك ما أراد ، ولو ألقيت خطب في عشرين مجلدًا بعد ذلك ما كان لها من التأثير ما أحدثته تلك الكليات التي دخلت في الرؤوس المراد إقناعها .

وكنت أعجب لأغراض المتعلمين منهم عن الحقائق التاريخية والسياسية والاجتماعية المتعلقة بذلك فالمسألة المصرية وعلاقة الدول الأجنبية بها عامة والدول المحتلة خاصة وتقدير الفرق بين قوة الدولة الغاصبة وقوة الأمة المغصوبة ،

وتنظيم حلقات الوسائل الموصلة إلى سعادة مصر واستقلالها وطيرانهم وراء الذين يقولون لهم : « الجلاء على الأبواب » ، و« الدستور قاب قوسين أو أدنى » ، و« قطعنا شوطًا بعيدًا » ، و« لم يبق إلا القليل » ، و« الدولة العثمانية بدأت تهتم بشأننا » ، و« الحكومة الألمانية تساعدنا » ، و« الحكومة الإنكليزية ترتعد فرائصها منها » ، و« أوروبا جميعها تحسب لنهضتنا ألف حساب » وأمثال ذلك مما هو أشبه يعبثون بخيالات الأطباء الذين يحولون تعزية المرضى والمشرفين وخرافات المنجمين الذين بعقول عجزة الشيوخ وجهلة النساء ، حتى قرأت في روح الاجتماع قوله : « سارت الفلسفة إلى الأمام شوطًا بعيدًا ولكنها مع تقدمنا لم تهيئ للجماعات خيالًا يلذها ، والجماعات لا غنى لها عن الأوهام ، لذلك اندفعت وراء غريزتها وذهبت إلى تجار البلاغة الذين يبيعونها تجارة حاضرة مثلها كمثل الحشرة التي تدرب حين يكون الضياء .... فما كانت الجماعات في ظمأ إلى الحقيقة طول حياتها .

وإذا تبدت أمامها وكانت تغضبها أعرضت ونأت وراحت تعبد الأوهام التي ترضي الأمرة عليها لمن أضلها ، والويل منها لمن هداها » ، فعلمت أن تلك الجماعة ليست جاهلة ولا قاصرة ولكنها جماعة ، ومن الضروري أن تكون كذلك .

وكنت أعجب لتشيعهم للدستور واحتفالهم به ، وإلحاحهم في طلبه إلحاح الفاهم المدرك ، وأنا أعلم أن أكثرهم لا يفهمون منه إلا أنه القوة فلو عرفوه حق معرفته لوجدوا في أنفسهم أن عدمه خير لهم من وجوده التي يقتدر بها الشعب على أن يأكل بعضه بعضًا بلا رقبة ولا حذر ، لأنه عدل ورحمة ، ولأنه يمنع ظلمة الآكلين أن يجدوا ما يأكلون .

فلم أقف على سر تشيعهم له وهو في الحقيقة أبغض الأشياء إليهم ، حتى قرأت في ذلك الكتاب قوله : « وكم من جماعة تقدمت إلى الموت في سبيل معتقدات وأفكار وكلمات كانت تكاد لا تفقه شيئًا من معانيها ... لأن المصلحة الذاتية قلما تكون سببًا قويًا لحركات الجموع » .

وكنت أراهم غالين في مشاعرهم ، متطرفين في ميولهم ، وأرى أنهم إما أن يحبوا فيعبدوا ، وإما أن يبغضوا فيقتلوا ، وأن الرجل عندهم أما أن يكون إلهًا أو شيطانًا ولا ثالث لهما ، وإن رضاهم عن رؤساء حزبهم لا يقل عن رضاهم عن رسلهم وأنبيائهم الذين هددهم الصراط المستقيم ، فأكاد أخصهم بصفات الغفلة والبله لولا أن كشف لي روح الاجتماع سر المسألة في قوله : « غلو مشاعر الجماعة وبساطتها يجعلانها لا تعرف الشك ولا التردد ، فهي كالنساء تذهب فورًا إلى الحد الأقصى ، فالشبهة متى بدت تنقلب إلى بديهي لا يقبل البحث ، والرجل منفردًا قد لا يقر على أمر أو ينفر منه نفورًا لا يتعدى مجرد الرغبة عنه وأما الرجل في الجماعة فإنه متى نفر انقلب نفوره حقدًا شديدًا » .

وقوله في موضع آخر : « كثيرًا ما سمعنا عن ملهى كان يكثر من تمثيل الروايات المحزنة فكان الحرس يحيط دائمًا بممثل الخائن الأثيم عند خروجه خوفًا عليه من هياج المتفرجين الذين ثارت نفوسهم للانتقام منه لأنه ارتكب تلك الجرائم الوهمية ، وهذا فيما أرى من أكبر الأدلة على حالة الجماعات العقلية وبالأخص على سهولة التأثير فيها ، فللوهمي عليها من ذلك ما للحقيقي تقريبًا ، وهي ميالة ميلًا ظاهرًا إلى عدم التمييز بينهما » .

وكنت أعتقد أن لا شيء يؤثر في نفوس الجماعات غير إخلاص الدعاة ، ثم استحال علي التوفيق بين ما أعتقد وبين ما أعلم من أطوار زعماء الحزب الوطني ودخائل نفوسهم أنهم لا يطلبون مما يعملون في هذه الحياة غير ما يطلب كل عامل فيها من لقمة سائغة .

وجرعة صافية ، ومركب فاره ، ومتكأ وثير ، حتى اهتديت إلى حل هذه العقدة في قول صاحب روح الاجتماع : « وجد القواد في الأمم على الدوام ، غير أنهم ليسوا جميعًا من أهل الاعتقاد الصادق الذي يصير به المرء رسولًا في قومه ، بل هم في الغالب سوفسطائيون لا يسعون إلا وراء منافعهم الذاتية فيتملقون ذوي المشاعر السافلة ليكتسبوا رضاهم ، وقد يكون النفوذ الذي ينالونه بهذه الوسائل كبيرًا جدًا إلا أنه سريع الزوال » .

وكنت أعتقد أن أقدر الناس على قيادة الجماعات أذكاهم قلبًا ، وأوسعهم عقلًا ، وأفصحهم لسانًا ، وأجرأهم قلمًا ، فلما رأيت أن قواد الحزب الوطني ليس فيهم من يمتاز عن أفراد الطبقة التي نشأ فيها بميزة خاصة من طلاقة لسان أو بلاغة قلم أو علم واسع ، أو خلق مؤثر ، وقفت أمام هذه المعضلة المستعصية وقفة الحائر المضطرب حتى قرأت في روح الاجتماع قوله : « ليس القواد غالبًا من أهل الرأي والحصافة بل هم من أهل العمل والإقدام ، وهم قليلو التبصر ، على أنه ليس في استطاعتهم أن يكونوا بصراء ، لأن التأمل يؤدي غالبًا إلى الشك

ثم السكون ، وهم يخرجون عادة من بين ذوي الأعصاب المريضة المتهوسين الذين اضطربت قواهم العقلية إلى النصف وأمسوا على شفا جرف الجنون ، لا ينفع الدليل على فساد ما اعتقدوا كيفما كان معتقدهم باطلًا ، ولا تثنيهم حجة عن طلب ما قصدوا بالغًا منها الخطل ما بلغ ، ولا يؤثر فيهم الاحتقار ولا الاضطهاد ، بل ذلك يزيدهم تهوسًا وعنادًا ، وقوله في موضع آخر وكان أكبر القواد من الأمم خصوصًا قواد الثورة الفرنساوية من قصار العقول جدًا ، وكان أكبرهم تأثيرًا أشدهم قصرًا في العقل ، فإن الإنسان ليدهش مما يراه من التخبط عند مطالعة رسائل أعظمهم قدرًا وهو روسبيير .

ومن لم يقرأ غيرها من ترجمة حياته لا يجد ما يعلل به قوة ذلك المسيطر الجبار ، صيغ كلية جارية كل لسان ، وشقشقة في الفصاحة محفوظة من كتب التربية والتعليم على الطريقة اللاتينية اجتمعتا في نفس خلوها أكثر من انحطاطها ، نفس تكاد لا تعرف من وسائل الهجوم أو الدفاع إلا ما تعوده التلاميذ من قول الواحد منهم لزميله : هل من مبار ، وليس هناك رأي ولا تدبير ولا شاردة ، عنف ممل وشدة مسئمة ، فإذا فرغ القارئ من تلك المطالعة المملة شعر بالحاجة إلى قول أف كما كان يفعل الرجل الظريف كأميل ديمولان .

وكنت أعجب لبعض أتباع الحزب الوطني وبعض كتاب جرائده كيف استحالوا إلى جناة مجرمين بعد أن كانوا أشرفاء أنقياء ، وكيف هان عليهم أن يجاملوا نفوسهم بالإغضاء عما تقترفه من سب الأبرياء وهتك أعراض الأشراف والعب في الدماء البشرية بصورة وحشية بعد أن كانوا يترفعون عن لمم الذنوب وصغائر الدنايا ، كما كنت أعجب هذا البائس المسكين الذي كان أندى الناس وجهًا ، وأكثرهم حياءً وأدبًا ، كيف حسن في نظره منظر جريمة القتل التي ارتكبها ثم هلك في سبيلها فضرب بجريمته الوطن الذي يحسب أنه يخدمه ضربة هيهات أن يئل من بعدها ثم عرفت أن ذلك لازم من لوزام الجماعات عندما قرأت قول صاحب روح الاجتماع : « أن الفرد يكتسب من وجوه وسط الجمع قوة كبيرة تشجعه على الاسترسال في أمياله مما كان يحجم عنه منفردًا بالضرورة ، ثم هو لا يكبح جماح نفسه لأنه الجماعة لا تسأل عن أفعالها لشيوعها بين جميع الأفراد ، فلا يشعر الواحد منهم بما قد يجره العمل عليه من التبعة ، وهذا الشعور هو الزاجر للنفوس عما لا ينبغي » .

وقوله في موضع آخر : « تصدر الجرائم عن الجماعات غالبًا بسبب تحريض قوي ، ويعتقد الذين ارتكبوها من أفرادها أنهم قاموا بواجب كان مفروضًا عليهم ، وهذا ليس شأن الجناة في الأحوال الاعتيادية وهنا يمكنني أن أستخلص مما تقدم الحقائق الآتية :

(1) ليس إجماع واحد أو عشرة آلاف أو مائة ألف متأثرين بشعور واحد مستمدين قوة واحدة على رأي من الآراء دليلًا على صحة ذلك الرأي لأنه رأي فرد واحد تأثر به الباقي تقليد أو عدوى ، ورأى الواحد مترجح بين الخطأ والصواب .

(2) ليس انضمام جماعة من أذكياء الناس وعقلائهم في حزب من الأحزاب أو جمعية من الجمعيات دليلًا على فضل ذلك الحزب أو شرف مقاصده أو صحة مبادئه لأنهم لا يجتازون عتبته إلا بعد أن يخلعوا عقولهم ومواهبهم مع أرديتهم وعصيهم خارج بابه .

(3) لا يشترط في قيادة الجموع أن يكون القائد ذكيًا أو عاقلًا أو داهية أو مفكرًا أو فصيحًا بل يكفيه من ذلك كله شيء من العلم بأذواق أتباعه وسبل الوصول إلى قلوبهم لا يزيد عن علم التاجر بأذواق زبائنه ورغباتهم .

(4) ليس حب الجماعة لبعض الناس وبعضهم الآخر دليلًا على رفعة من يحبون ، وضعة من يبغضون ، ليس جرائمهم التي يقترفونها باسم الشعور الذي يشتركون فيه دليلًا على أن من يقتلون يستحق القتل ، أو يشتمون يستحق الشتم أو يحتقرون يستحق الاحتقار بل كثيرًا ما تكون الحقيقة على العكس من ذلك عندما يكون قائد تلك الجماعة من أشرار الناس وأدنيائهم .

(5) لا يكون مقتدرًا تمام الاقتدار على قيادة الجماعات واستوائها أو مقاومتها ومصارعتها من يذهب في كتاباته أو خطاباته مذهب القياس الصحيح والبرهان العقلي ، ومن يكون كثير الاحتراس من الكذب والتلفيق والسفسطة والتضليل أو طاهر اللسان والقلم من السفاهة والشتم .

(6) لا سبيل للإنسان إلى الخلاص من خطل الجماعات وضلالها مهما كان ذكيًا أو مفكرًا إلا إذا حبس نفسه عن الانضمام إليها أو كان له من عزيمة الرأي وصلابة النفس ما يمكنه من تربية نفسه على التجرد حتى يصير طبيعة له ، فيحضرها شاهدًا كغائب ومجتمعًا كمنفرد .

(7) لا يجوز للتلميذ في أثناء الدراسة أن يضم إلى حزب من الأحزاب أو جمعية من الجمعيات بالفعل أو القوة إلا بعد أن يستمد من العلم قوة تساعده على اكتساب ملكة التجرد التي لابد له من معالجة اكتسابها للخلاص من جنون الجماعات وتهوسها أن اضطر في مستقبل أمره إلى الانضمام إليها .

(8) جميع القوى التي يتوسل بها قائد الحزب أو الجماعات إلى التأثير على أتباعه أو تكثير عددهم ضعيفة بجانب القوة التي يستمدها من مقاومة الحكومة التي يعيش فيها له بالتهديد أو السجن أو التعذيب فإنه يستفيد من ذلك عطف أتبعه عليه ، وتشبثهم به ويؤنس بأحاديث نكبته ونوادر رزيئته قلوبهم كلما ألم بها الملل منه ومن وعوده الكاذبة وأقواله المرددة ، فإن كان لتلك الحكومة أرب في القضاء عليه وعلى أتباعه وكانت قادرة على قطع الصلة بينه وبينهم بقفل جريدته إن كان صحافيًا أو قطع خطابته إن كان خطيبًا فلتفعل ، وإلا فلتتركه وشأنه حتى يعي بأمرهم ، وتنفذ بقية القوى التي يتوسل بها إليهم .

(9) ليست تلك الطبيعة المقررة للجماعات المؤلفة من البساطة والبله وسرعة الصدق والاندفاع والغلو شرًا دائمًا بل قد تكون خيرًا مخلصًا إذا رزق الله تلك الجماعات قوادًا دهاة مقتدرين على الخداع الشريف يسوقونها إلى سعادة أممهم وهنائها ، وحريتها واستقلالها .

(10) ليس وجود التهوس والتحمس والغضب والتهور في حزب من الأحزاب المصرية دليلًا على تأخر الأمة وانحطاطها كثيرًا لأنها صفات عامة في كل الجموع الشرقية الغربية وإن كان خطرها علينا أكثر من خطرها على غيرنا .

■ ■ ■

لص في أثواب جائع

قرأت في بعض الروايات أن فتى قضى حقبة من دهره مولعًا بحب فتاة خيالية لم يرها إلا مرة واحدة في حياته وإنما تخيل في ذهنه صورة ألفها من شتى المحاسن ومتفرقاتها في صور البشر ، فلما استقرت في مخيلته تجسمت في عينيه فرآها فأحبها حبًا ملك عليه قلبه وحال بينه وبين نفسه وذهب به كل مذهب ، فأنشأ يفتش عنها بين سمع الأرض وبصرها أعوامًا طوالًا حتى وجدها .

لا أستطيع أن أكذب هذه القصة لأني أنا ذلك الفتى لا فرق بيني وبينه إلا أنه يسمي ضالته الفتاة وأسميها الفضيلة وأنه فتش عنها فوجدها وفتشت عنها حتى عيت بأمرها فما وجدت إليها سبيلًا .

فتشت عن الفضيلة في حوانيت التجار فرأيت التاجر لصًا في أثواب بائع ، وجدته يبيعني بدينارين ما ثمنه دينار واحد فعلمت أنه سارق الدينار الثاني ولو وكل إلي أمر القضاء ما هان علي أن أعاقب لصوص الدراهم وأغفل لصوص الدنانير ما دام كل منهما يسلبني مالي ويتغفلني عنه .

أنا لا أنكر على التاجر ربحه ولكن أنكر عليه أن يتناول منه فوق جزائه على جهد نفسه في جلب السلعة وبذل راحته في صونها وإحرازها ، وكل ما أعرف من الفرق بين حلال المال وحرامه أن الأول بذل الجد والعمل ، والثاني بذل الغش والكذب .

فتشت عن الفضيلة في مجالس القضاء فرأيت أن أعدل القضاة من يحرص الحرص كله على أن لا يهفو في تطبيق القانون الذي بين يديه هفوة يحاسبه عليها من منحه هذا الكرسي الذي يجلس عليه مخافة أن يسلبه إياه أما إنصاف المظلوم والضرب على يد الظالم وإراحة الحقوق على أهلها وإنزال العقوبات منازلها من الذنوب فهي عنده ذيول وأذناب لا يأبه لها ولا يحتفل بشأنها إلا إذا أشرق عليها الكوكب بسعده فمشت مع القانون في طريق واحد مصادفة واتفاقًا ، فإذا اختلف طريقهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد ونطق بغير ما يعلم وأدان البري وبرأ الجاني ، فإذا عتب عليه في ذلك عاتب كانت معذرته إليه حكم القانون عليه كأنما يريد أن يجعل العقل أسير القانون وما القانون إلا حسنة من حسنات العقل ومن صنائعه .

هذا شأن أعدل القضاة وأهداهم إلى الحق وأقومهم سبيلًا ، أما الآخرون فيطبقون أحكامهم على قانون الربح وينزلون من الدينار منزلة اللازم من الملزوم فيدورون معه وجودًا وعدمًا .

فتشت عن الفضيلة في قصور الأغنياء فرأيت الغني أما شحيحًا أو متلافًا أما الأول فلو كان جارًا لبيت فاطمة رضي الله عنها وسمع في جوف الليل أنينها وأنين ولديها من الجوع ما مد أصبعيه إلى أذنيه ثقة منه أن قلبه المتحجر لا تنفذه نسمات الرحمة ولا تمر بين أثنائه نسمات الإحسان وأما الثاني فماله بين ثغر الحسناء ، وثغر الصهباء فعلى يد أي رجل من هذين الرجلين تدخل الفضيلة قصور الأغنياء .

فتشت عنها في مجامع السياسة فرأيت أن المعاهدة والاتفاق والقاعدة والشرط ألفاظ مترادفة معناها الكذب .

ورأيت أن الملك في كرسي مملكته كالحوذي في كرسي عربته ، لا فرق بينهما إلا أن هذا ينقض « تعريفته » ، وذاك ينقض معاهدته ورأيت أن أعدي عدو للإنسان الإنسان وأن كل أمة قد أعدت في مخازنها ومستودعاتها وفي بطون قلاعها وعلى ظهور سفنها ما شاء الله أن تعده لأختها من عدد الموت وأفانين العذاب ، حتى إذا وقع بينهما الخلف على حد من الحدود أو لقب من الألقاب لبس الإنسان فروة السبع واتخذ من تلك العدد الوحشية أظفارًا كأظفاره وأنيابًا كأنيابه فشحذ الأولى وكشر عن الأخرى ثم هجم على ولد أبيه وابن أمه هجمة لا يعود منها إلا به أو بنفسه التي بين جنبيه ، وإنك لو سألت الجنديين المتقاتلين ما خطبكما وما شأنكما وعلام تقتتلان وما هذه الموجدة التي تحملانها بين جنبيكما ومتى ابتدأت الخصومة بينكما وعهدي بكما أنكما ما تعرفتما إلا في الساعة التي اقتتلتما فيها لعرفت أنهما مخدوعان عن نفسيهما وأنهما ما خرجا من ديارهما لا ليضعا درة في تاج الملك أ « نيشانًا » في صدر القائد .

فتشت عنها بين رجال الدين ورجال الصحف فرأيت أنهما يتجران بالعقول في أسواق الجهل ورأيت كلًا منهما قد ثغر له في رأس من رؤوس البشر ثغرة ينحدر منها إلى العقول فيفسدها وإلى القلوب فيقتلها ليتوسل بذلك إلى الذخائر فيسرقها والخزائن فيسلبها ، هذا باسم الوطنية وذاك باسم الدين .

فتشت عنها في كل مكان أعلم أنه تربتها وموطنها فلم أعثر بها فليت شعري هل أجدها في الحانات والمواخير أو في مغارات اللصوص أو بين جدران السجون .

سيقول كثير من الناس قد غلا الكاتب في كلمة وجاوز الحد في تقديره فالفضيلة لا تزال تجد في صدور الناس صدرًا رحبًا ، وموردًا عذبًا ، وإني قائل لهم قبل أن يقولوا كلمتهم أني لا أنكر وجود الفضيلة ولكنني أجهل مكانها فقد عقد رياء الناس أمام عيني سحابة سوداء أظلم لها بصري حتى ما أجد في صفحة السماء نجمًا لامعًا ولا كوكبًا ساطعًا .

كل الناس يدعي الفضيلة وينتحلها وكلهم يلبس لباسها ويرتدي رداءها ويعد لها عدتها من منظر يستهوي الأذكياء والأغنياء ومظهر يخدع أسوأ الناس بالناس ظنًا ، ومن لي بالوصول إليها في هذا الظلام الحالك والليل الأليل .

إن كان صحيحًا ما يتحدث به الناس من سعادة الحياة وطيبها وغبطتها ونعيمها فسعادتي فيها أن أعثر في طريقي في يوم من أيام حياتي بصديق يصدقني الود وأصدقه فيقنعه مني ودي وإخلاصي دون أن يتجاوز ذلك إلى ما وراءه وأن يكون شريف النفس فلا يطمع في غير مطمع شريف القلب فلا يحمل حقدًا ولا يحفظ وترًا ولا يحدث نفسه في خلوته بغير ما يحدث به خلطاءه في محضره شريف اللسان فلا يكذب ولا ينم ولا يلم بعرض ولا ينطق بهجر شريف الحب فلا يحب غير الفضيلة ولا يبغض غير الرذيلة . هذه هي السعادة التي أتمناها ولا أراها .

إني لأرى الرياض الغناء تهفو أشجارها ، وترن أطيارها وأرى جداول الماء تنساب بين أنوارها وأزهارها انسياب الأفاعي الرقطاء ، في الرمال البيضاء وأرى أنامل النسائم تعبث بمنثورات الأوراق ، عبث الهوى بألباب العشاق ، وأسمع ما بين صفير البلابل ، وخرير الجداول نغمات شجية تبلغ من نفس الإنسان ما لا تبلغ أوتار العيدان فلا يسرني منظر ولا يطربني مسمع لأني لا أرى بين هذه المشاهد التي أراها ضالتي التي أنشدها .

لقد سمج وجه الرذيلة في عيني ونقل حديثها في مسمعي حتى أصبحت أتمنى أن أعيش بلا قلب فلا أشعر بخيرها وشرها وسرورها وحزنها .

ولولا بنيات صغار يفقدن بفقدي طيب العيش ونعيمه لفررت من هذا العالم الناطق إلى ذلك العالم الصامت فأجد من الأنس به والسكون إليه ما وجده الذي يقول :

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطير

■ ■ ■

الحزين

إن كنت تعلم أنك قد أخذت على الدهر عهدًا أن يكون لك كما تريد في جميع شؤونك وأطوارك وإلا يعطيك ولا يمنعك إلا كما تحب وتشتهي فجدير بك أن تطلق لنفسك في سبيل الحزن عنانها كلما فاتك مأرب ، أو تعذر عليك مطلب وإن كنت تعلم أخلاق الأيام لي أخذها وردها ، وعطاءها ومنعها ، وأنها لا تنام على منحة تمنحها حتى تكر عليها راجعة فتستردها وإن هذه سنتها وتلك خلتها في جميع أبناء آدم سواء في ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ ومن يطأ بنصاله هام الجوزاء ، ومن ينام على بساط الغبراء ، فخفض من حزنك ، وكفكف من دمعك ، فما أنت بأول عرض أصابه سهم الزمان ، وما مصابك بدعة خارقة في جريدة المصائب والأحزان .

أمن حزين لأن نجمًا زاهرًا من الأمل كان يتراءى لك في سماء حياتك فيملأ عينيك نورًا وقلبك سرورًا ، وما هي إلا كرة الطرف أن افتدقته فما وجدته ، ولو أنك أجملت في أملك ، لما غلوت في حزنك ، ولو أنعمت نظرك فيما تراءى لك لرأيت برقًا خاطفًا ، ما تظنه نجمًا زاهرًا ، وهنالك لا يبهرك طلوعه ، فلا يفجعك أفوله .

أسعد الناس في هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكر لها ونظر إليها نظر المستريب بها وترقب في كل ساعة زوالها وفناءها فإن بقيت في يده فذاك وإلا فقد أعد لفراقها عدته من قبل .

لولا السرور في ساعة الميلاد ما كان البكاء ساعة الموت ، ولولا الوثوق بدوام الغنى ما كان الجزع من الفقر ، ولولا فرحة التلاق ، ما كانت ترحة الفراق .

■ ■ ■

المرأة الجاهلة

مسكين ذلك الفتى الذي رأيته أمس في إحدى زوايا الأندية العامة وقد ظللت جبينه الوضاح سحابة سوداء من الحزن وانحنى على نفسه كأنه شعر بأن قلبه يتمشى في صدره وأنه يحاول الفرار منه فهو يعطف عليه ليمسكه بين جوانحه ، ولو أنه أراد بنفسه خيرًا لتركه يمضي في سبيله حيث شاء ، فبعدًا لقلب لا يسكن عن الخفقان ، ولا يفيق من الهموم والأحزان .

سألته ما بالك أيها الصديق؟ قال : لا شيء ، قلت : أنت تكتمني ما في نفسك ولو عرفتني ما كتمتني ، قال : ما جهلتك مذ عرفتك ولكنني أعطيت الله عهدًا ألا أشكو إلا من أرجو عنده البرء ، وما أنا براج عندك ولا عند أحد من الناس برًا من دائي ، وقلت هبني طبيبًا والطبيب كما تعلم وإن كان يشفي نادرًا فإنه يسكن غالبًا ويعزي دائمًا ، فأنا إن عجزت من معالجتك ، فلا أعجز عن تعزيتك على أن الماء إذا اشتد غليانه احتاج إلى التنفس وإلا طار بالقدر طيران الهم بالصدر .

فأنشأ يحدثني حديثًا تمازحه العبرات ، وتقطعه الزفرات ، ويقول زوجني أبي منذ سنين زوجة جاهلة غبية لا تفهم معنى الزواج إلا أن فيه قضاء لبانتها ، وترفيه عيشها ، وإرضاء نفسها ، وهو يحسب أنه قد أحسن إلي بسليلة المجد وربيبة النعمة ومالكة الدور ، وساكنة القصور ،

أجل إنها ذات مال وفير ، وخير كثير ، ولكن ذهب غفر الله أني ما كنت أريد أن أكون تاجرًا أكسب مالًا بل زوجًا أجد بجانبي نفسًا يؤنسني محضرها ويوحشني مغيبها ، ومرآة صافية نقية أتراءى فيها فتريني نفسي كما هي لا تكذبني في خير ولا شر ، أن أريد أن أجد الزوجة التي أتزوجها صديقًا في المرتبة العليا من مراتب الصداقة ومن لي به في امرأة تجهل حتى إرضاع طفلها ولبس ثوبها ، على أن ثروتها ما كانت تقوم بحاجتها فقد كانت لها خادم لملابسها وأخرى لشعرها وأخرى لسريرها .

وطابخة وغاسلة ومرضع وقهرمانة وخياطة خاصة بها وطبيب لا يغب زيارتها ومؤنسات لا يفارقن مجلسها ولم تكن ممن أنعم الله عليهن بنعمة الجمال فكانت تنفق ما يزيد على نصف دخلها في الحسن المجلوب ، والجمال المكذوب وليتها كانت تغفل أمري وتتركني وشأني فأستطيع أن أتناساها وأعد نفسي من العذاب تخيلًا وتقديرًا بل كانت تقيم من نفسها ومن هذا الجحفل اللجب المحيط بها حراسًا كحراس الليل وجواسيس كجواسيس الأستانة ، يراقبن مواقع نظري ومواطئ قدمي لتعلم أي مذهب قلبي ووجهة نفسي فتغار من الكوكب إذا رأتني أنظر إليه وتكاد تمزق الثوب الذي أتعشق لبسه وتحسبها آهة الوجد أو دمعة الحب إذا رأتني أتأوه من آلام عشرتها أو أبكي لعظم مصيبتي فيها .

وما هي بغيرة الحب ولكنها الأثرة قبحها الله وقبح كل ما تأتي به ، وأكثر ما كان يغيظني منها أنها ما كانت تفتح علي باب الحساب على اللفتات والخطوات إلا في الساعة التي أخلو فيها بنفسي أو بكتابي فما أكاد أنتفع بواحد منهما ، فإن سكت أغضبها سكوتي وإن نطقت أغضبها حديثي ، وإن قرأت في كتابي ظنت أن المؤلفين ما ألفوا الكتب إلا نكاية بالنساء لكي يتخذها الرجال ملجأ يعتصمون به من محادثتهم ومسامرتهم ، فكان الكتاب أعدى أعدائها عندها وأبغض خصومها إليها ، وجملة القول إنها ما كانت تستطيع أن تتصور إلا أن الله خلقها لتكون طفلة لاهية لاعبة في جميع أطوار حياتها وأنه ما خلقني إلا لأكون زينة مجلسها ودمية قصرها ، وأداة لهوها ولعبها .

فلا أقرأ ولا أكتب ولا أعطي نفسي حقًا من حقها ولا أبكر لمزاولة أعمالي ولا أسأم أحاديثها الطويلة المملة التي لا تشتمل إلا على نقد الأزياء ، واغتياب النساء ، فإن وافيت رغبتها فذاك وإلا استحالت في لحظة واحدة من إنسان ناطق إلى وحش مفترس ، فلا تعرف كلمة مؤلمة لا تسمعينها ولا تترك وسيلة من وسائل التنغيص إلا تهجم بها علي فكنت بين ألم رضاها وعذاب غضبها في شقاء حبب إلي الموت وبغض إلي وجه الحياة ، وبعد فقد رأيت أن العيش معها مستحيل فلم أر بدًا من فراقها ففارقتها وما على وجه الأرض أبغض إلي من المجد ولا أسمج في نظري من المال .

نفضت يدي من الزوجة الجاهلة ورحت أفتش عن الزوجة المتعلمة وقلت ليكونن لي من الشأن في الزواج الثاني ما لم يكن لي في الزواج الأول بعدما صار إلي الخيار ، وبعد تلك التجربة وذاك الاختبار فهيأ لي الحظ جارًا ملاصقًا ما زلت أسمع مذ حل في جواري أن في بيته فتاة ما زال معنيًا بأمرها حتى خرجها وأدبها فأصبحت نابغة مدرستها وسيدة أترابها علمًا وفضلًا وتهذيبًا وأدبًا فما قنعت بالخبر حتى خالطت أباها ثم خالطتها فإذا المرأة الجديدة من جميع وجوهها فوقعت من نفسي أحسن موقع وحلت مكانًا لم يكن حل من قبل .

خطبت الفتاة إلى أبيها فما لبث أن أخطبني فامتلأ قلبي فرحًا وسرورًا وخيل إلي أنني أرى في سماء الآمال نجمًا لامعًا يدنو قليلًا قليلًا وسجلت أن الدهر أنشأ يفكر بحسناته ، ما أسلف من سيئاته ، فإني لكذلك وقد أعددت للبناء بها عدته ولم يبق بيني وبينه إلا يوم واحد وإذا بحامل البريد قد جاءني بهذا الكتاب فهاكه فأقراه فإن فيه بقية قصتي وشر نكبتي ، ثم ألقي إلي بغلاف معنون باسمه يشتمل الكتاب على رسم فتى حسن الصورة والهندام يخاصر فتاة جميلة وقد ألقت برأسها على كتفه فقرأت في الكتاب ما يأتي :

« علمت أنك خطبت فلانة إلى أبيها وأنك عما قليل ستكون زوجها ولعمري لقد كذبك نظرك وخدعك من قال لك إنك ستكون سعيدًا بها فإنها لن تكون بعد أن صارت لغيرك ولا يخلص حبك إلى قلبها بعد أن امتلأ بحب عاشقها ، فاعدل عن رأيك فيها وانفض يدك منها وأن تعرف من هو ذلك العاشق وتتحقق صدق خبري وإخلاصي إليك في نصيحتي فانظر إلى الصورة المرسلة مع هذا الكتاب » التوقيع .

فما نظرت الصورة وقرأت الكتاب حتى عرفت كل شيء فأحسست برعدة تتمشى في أعضائي وشعرت بسحابة سوداء قد غشت علي نظري لهول ما سمعت ، وسوء ما رأيت إلا أنني تماسكت قليلًا فأعدت إليه كتابه وقلت له وهو كل ما استطعت أن أقول : ماذا يعنيك من أمر فتاة فاجرة عاهر بعدما انكشف لك سرها وظهرت لك حقيقتها ، ولو كنت في مكانك لعدلت عن الحزن عن فوتها إلى الاستغفار من حبها وحمد الله على ما ألهم من صواب الرأي فيها ، أما إن سألتني عن رأيي في زواجك بعد ذلك فإني لا أرى لك بعد اليوم إلا أن تترهب وتتعزب وأن تقول ما قاله « هملت » وقد زهد في الزواج بعدما عرف حقيقة المرأة وإدراك خبيئة نفسها « إلى الدير » .

■ ■ ■

الهرة السجينة

استيقظت في فجر هذا اليوم على صوت هرة تموء بجانب الفراش وتتمسح بي وتلح في ذلك إلحاحًا غريبًا فرابني أمرها وأهمني همها وقلت : لعلها جائعة فنهضت وأحضرت لها طعامًا فعافته وانصرفت عنه فقلت : لعلها عطشة فأرشدتها إلى الماء فلم تحتفل به وأنشأت تنظر إلي بنظرات تنطق بما تشتمل عليه نفسها من الآلام والأحزان فأثر في نفسي منظرها هذا تأثيرًا شديدًا حتى تمنيت لو كنت سليمان أفهم لغة الحيوان ، لأعرف حاجتها؟ وأفرج كربتها ، وكان باب الغرفة مقفلًا فرأيت أنها تطيل النظر إليه وتلصق بي إذا رأتني أتجه إليه فأدركت غرضها وعرفت أنها تريد أن أفتح لها الباب ، فأسرعت بفتحه فما وقع نظرها على الفضاء ، ورأت وجه السماء ، حتى استحالت حالتها من حزن وهم إلى غبطة وسرور ، وانطلقت تعدو في سبيلها فعدت إلى فراشي وأسندت رأسي إلى يدي وأنشأت أفكر في أمر هذه الهرة وأعجب لشأنها وأقول : ليت شعري هل تفهم الهرة معنى الحرية ، وما كان حزنها لفقدانها وتفرح بلقياها ، أجل إنها تفهم معنى الحرية ورجاؤها وتمسحها وإلحاحها إلا سعيًا وراء بلوغها .

وهنا ذكرت أن كثيرًا من أسرى الاستبداد من بني الإنسان لا يشعرون بما تشعر به الهرة المحبوسة في الغرفة والوحش المعتقل في القفص ، والطير المقصص الجناح من ألم الأسر وشقائه ، بل ربما كان بينهم من لا يفكر في وجه الخلاص أو يلتمس السبيل إلى النجاة مما هو فيه ، بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء في هذا السجن يأنس به ويتلذذ بالأمة وأسقامه .

من أصعب المسائل التي يحار العقل البشري في حلها أن يكون الحيوان الأعجم أوسع في الحرية ميدانًا من الحيوان الناطق فهل كان نطقه شؤمًا عليه وعلى سعادته ، وهل يجمل أن يتمنى الخرس والبله ليكون سعيدًا بحريته كما كان قبل أن يصبح زكيًا ناطقًا .

يحلق الطير في الجو ويسبح السمك في البحر ويهيم الوحش ما شاء في الأودية والجبال ويعيش الإنسان رهين المحبسين محبس نفسه ومحبس حكومته من المهد إلى اللحد .

صنع الإنسان القوي للإنسان الضعيف سلاسل وأغلالًا وسماها تارة ناموسًا وأخرى قانونًا ليظلمه باسم العدل ويسلب جوهر حريته باسم الناموس والنظام .

صنع له هذه الآلات المخيفة وتركه قلقًا حذرًا مروع القلب مرتعد الفرائص يقيم من نفسه على نفسه حراسًا تراقب حركات يديه وخطوات رجليه وفلتات لسانه وخطرات وهمه وخياله لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من تعذيبه فويل له ما أكثر جهله وويح له ما أشد حمقه .

وهل يوجد في الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذي يعالجه أو سجن أضيق من السجن الذي هو فيه .

ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته بل جنايته الكبرى عليه أنه أفسد عليه وجدانه فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية ولا يذرف دمعة واحدة عليها .

لو عرف الإنسان قيمة حريته المسلوبة منه وأدرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من السلاسل والقيود لانتحر كما ينتحر البلبل إذا حبسه الصياد في القفص وكان ذلك خيرًا له من حياة لا يرى فيها شعاعًا من أشعة الحرية ولا تخلص إليه نسمة من نسماتها .

كان في مبدأ خلقه يمشي عريانًا أو يلبس لباسًا واسعًا يشبه أن يكون ظله تقية لفتحة الرمضاء ، أو هبة النكباء فوضعوه في القماط كما يضعون الطفل وكفنوه كما يكفنون الموتى وقالوا له هكذا نظام الأزياء .

كان يأكل ويشرب كل ما تشتهيه نفسه وما يلتئم مع طبيعته فحالوا بينه وبين ذلك وملأوا قلبه خوفًا من المرض أو الموت وأبوا أن يأكل أو يشرب إلا كما يريد الطبيب وأن يتكلم أو يكتب إلا كما يريد الرئيس الديني أو الحاكم السياسي وأن يقوم أو يقعد أو يمشي أو يقف أو يتحرك أو يسكن إلا كما تقضي به قوانين العادات .

لا سبيل إلى السعادة في هذه الحياة إلا إذا عاش الإنسان فيها حرًا لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره إلا أدب النفس .

الحرية شمس يجب أن تشرق في كل نفس ، فمن عاش محرومًا منها عاش في ظلمة حالكة يتصل أولها بظلمة الرحم وآخرها بظلمة القبر .

الحرية هي الحياة ولولاها لكانت حياة الإنسان أشبه شيء بحياة التماثيل المتحركة في أيدي الأطفال بحركة صناعية .

ليست الحرية في تاريخ الإنسان حادثًا جديدًا ، أو طارئًا غريبًا وإنما هي فطرته التي فطر عليها مذ كان وحشًا يتسلق الصخور ، ويتعلق بأغصان الأشجار .

إن الإنسان الذي يمد يده يطلب الحرية ليس بمتسول ولا مستجد وإنما هو يطلب حقًا من حقوقه التي سلبته إياها المطامع البشرية ، فإن ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه ولا يد لأحد عنده .

■ ■ ■

الدعوة

ما من قائم يقوم في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية داعياً إلى ترك ضلالة من الضلالات ، إلا وقد آذن نفسه بحرب لا تخمد نارها ، ولا يخبو أوارها حتى تهلك تلك الضلالة ، أو يهلك دونها .

ليس موقف الجندي في معترك الحرب بأحرج من موقف المرشد في معترك الدعوة ، وليس سلب الأجسام أرواحها بأقرب منالاً من سلب النفوس غرائزها وميولها .

ولا يَضَنُّ الإنسان بشيء مما تملك يمينه ضَنَّه بما تنطوي عليه جوانحه من المعتقدات ، وأنه ليبذل دمه صيانة لعقيدته ، ولا يبذل عقيدته صيانة لدمه ، وما سالت الدماء ولا تمزقت الأشلاء في موقف الحروب البشرية من عهد آدم إلى اليوم إلا حماية للمبادئ وذوداً عن العقائد .

لذلك كان الدعاة في الأمم أعداءها وخصومها ؛ لأنهم يحاولون أن يرزؤوها في ذخائر نفوسها ، ويفجعوها في أعلاق قلوبها .

« الدعاة الصادقون لا يبالون أن يسميهم الناس خونة ، أو جهلة ، أو ملحدين، أو ضالين ، أو كافرين ؛ لأن ذلك ما لا بدَّ أن يكون » .

الدعاة الصادقون يعلمون أن محمداً × عاش بين أعدائه ساحراً كذاباً ، فلما مات سيد المرسلين ، وأن الغزالي عاش متهمًا بالكفر والإلحاد ومات حجة الإسلام ، وأن ابن رشد عاش ذليلاً مهاناً حتى كان الناس يبصقون عليه إذا رأوه ، ومات فيلسوف الشرق ؛ فهم يحبون أن يكونوا أمثال هؤلاء العظماء أحياءً وأمواتاً .

سيقول كثير من الناس : وما يغني الداعي دعاؤه في أمة لا تحسن به ظناً ، ولا تسمع له قولاً ؛ أنه يضر نفسه من حيث لا ينفع أمته ، فيكون أجهل الناس وأحمق الناس .

هذا ما يوسوس به الشيطان للعاجزين الجاهلين ، وهذا هو الداء الذي ألمَّ بنفوس كثير من العلماء ؛ فأسكت ألسنتهم عن قول الحق ، وحبس نفوسهم عن الانطلاق في سبيل الهداية والإرشاد ، فأصبحوا لا عمل لهم إلا أن يكرروا للناس ما يعلمون ، ويعيدوا عليهم ما يحفظون ، فجمدت الأذهان ، وسكنت المدارك ، وأصبحت العقول في سجن مظلم لا تطلع عليه الشمس ، ولا ينفذ إليه الهواء .

الجهل غشاء سميك يَغْشى العقول ، والعلم نار متأججة تلامس ذلك الغشاء فتحرقه رويداً رويداً ؛ فلا يزال العقل يتألم لحرارتها ما دام الغشاء بينه وبينها ، حتى إذا أتت عليه انكشف له الغطاء ؛ فرأى النار نوراً ، والألم لذة وسروراً .

لا يستطيع الباطل أن يصرع الحق في ميدان ؛ لأن الحق وجود ، والباطل عدم ، إنما يصرعه جهل العلماء بقوته ، ويأسهم من غلبته ، وإغفالهم النداء به ، والدعاء إليه .

محال أن يهدم بناء الباطل فرد واحد في عصر واحد ، وإنما يهدمه أفراد متعددون ؛ في عصور متعددة ، فيهز الأول هزة تباعد ما بين أحجاره ، ثم ينقض الثاني حجراً ، والثالث آخر ، وهكذا حتى لا يبقى منه حجراً على حجر .

الجهلاء مرضى ، والعلماء أطباء ، ولا يجمل بالطبيب أن يحجم عن العمل الجراحي فراراً من إزعاج المريض ، أو خوفاً من صياحه وعويله ، أو اتقاء لسبه وشتمه ؛ فإنه سيكون غداً أصدق أصدقائه ، وأحب الناس إليه .

وبعد : فقليل أن يكون الداعي في الأمة حبيباً إليها ، إلا إذا كان خائنًا في دعوته ، سالكًا سبيل الرياء والدهاء في هدايته ، وقليل أن ينال حظه من إكرامها وإجلالها إلا بعد أن تتجرع مرارة دوائه ، وتشعر بحلاوة الشفاء بعد مرارة ذلك الدواء .

الدعاة في هذه الأمة كثيرون ملء الفضاء ، وكظة الأرض والسماء ، ولكن لا يكاد يوجد بينهم داعٍ واحد؛ لأنه لا يوجد بينهم شجاع .

أصحاب الصحف ، وكتاب الرسائل ، والمؤلفون ، وخطباء المجامع ، وخطباء المنابر كلهم يدعون إلى الحق، وكلهم يعظون وينصحون ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولكن لا يوجد بينهم من يستطيع أن يحمل في سبيل الدعوة ضراً ، أو يلاقي في طريقها شراً .

■ ■ ■

الاتحاد

ألمت بي في تلك الفترة الماضية كربة من تلك الكرب التي لا تزال تتعهدني كما تتعهد المحموم نوباته حينًا بعد حين كربة ما كفاها أنها أمسكت قلمي عن الكتابة وفكري عن الحركة حتى حالت بيني وبين مطالعة الصحف وإشراف على الأمة من نوافذها برهة من الزمان ثم أدركتني رحمة الله فاستفقت فإذا صخب ولجب ، وغوغاء وضوضاء ، وأصوات ملء الفضاء ، وكظة الأرض والسماء ، فما هو إلا سؤال السائل وإجابة المجيب حتى عرفت كل شيء .

عرفت أن الأمة الشرقية في موقف من أحرج مواقفها ، ومسلك من أضل مسالكها ، وأنها بين ماضغي الأسد وفوق ورق الظبي ، وأن حوادث الدهر وعاديات الأيام قد ملكت عليها سبيلها والتفت حولها التفاف الحية بالعنق وأحاطت بها إحاطة الجامعة باليد والقيد بالرجل ، فمثلها كمثل رجل أحاطت النار بيته من كل جانب وعلقت بسقوفه وجدرانه ونوافذه وأبوابه فما هو بناج إن أراد نجاء ، ولا بباق إن أراد بقاء ، بل مثلها كمثل آخر ضل به سبيله واشتبهت عليه مسالكه في ليلة داجية مدلهمة قد غابت كواكبها واستترت نجومها فوقف وقفة الحائر يسمع العواء والزئير ، والضجيج والصفير ، فلا يعلم فيزداد ضلالًا ، أم يحجم فلا يجد مجالًا ، أم يقف فيصبح فريسة المفترس ولقمة المزدرد .

عرفت أن الأمة الشرقية أصبحت لا تدري ما تريد ولا ما يراد بها ولا تجد من يرد إليها رشدها ولا من يمد يده إليها ليأخذ بيدها في الظلام الحالك والليل المدلهم .

كثر رؤساء ، وتعددت قادتها ، وتنوعت مذاهبهم ، واختلفت طرقهم ، واستحكمت حلقات البأس بينهم فلم يتفقوا في شأن من شؤون هذه الأمة على شيء إلا على وضع حبل متين في عنقها قد أخذ كل منهم بطرف من طرفه يجذبه إليه جذبة المستقتل المستميت حتى بح صوتها وضاق صدرها ، وتعلقت أنفاسها ، وجحظت مقلتاها ، وجف ريقها وتحجر لسانها ، وهم ينظرون إليها نظرة الداعب اللاعب ولا أحسب أنهم تاركوها حتى يفرقوا بين الرأس والجسد فراقًا لا لقاء من بعده إلى يوم يبعثون .

لو بعث أرسطو واضع علم المنطق من قبره وأراد أن يضع لهذه الأمة حدًا تامًا جامعًا مانعًا لما استطاع إلا أن يضع لها في هذا الحد : « الأمة الشرقية هي التي تصدق كل ما يقال » ، ولقد عرف كل أولئك اللاعبين بها والعابثين بميولها وأهوائها منها هذا الخلق وتلك الطبيعة وكانوا قساة القلوب غلاظ الأكباد فنفذوا من تلك الآذان اللينة إلى تلك القلوب الطيبة فما بلغوها حتى أخذوا يلعبون بها لعب الصبي بكرته ويتلقفونها واحدًا بعد واحد فهي لا ترتفع حتى تتناولها الصوالجة ولا تستقر حتى تدفعها الأقدام ، كل يزعم أنه صديقها وكل يزعم أنه يدلها على عدوها والله يعلم أنهم أعداؤها قبل الأعداء ، وخصومها قبل أكثر من الخصماء ، وأن السماء بصواعقها ورجومها ، والأرض بزلازلها وبراكينها أعجز من أن تبلغ منها ما بلغوه ، أو تجني عليها ما جنوه .

فيا أيها الرؤساء والزعماء :

أي خير تطلبون لهذه الأمة بعد أن فرقتموها شيعًا ، وصيرتموها أحزابًا وقسمتوها على أنفسها ، وقطعتم أوصالها ووشائجها ، وألقيتم العداوة والبغضاء بين الرجل وولده ، والرجل وأخيه والجار وجاره ، والصديق وصديقه ، حتى ركب كل فرد من أفرادها رأسه ومضى لسبيله ، وحتى تناكرت الوجوه واستوحشت النفوس ، وأصبحت ساحة البلد كساحة الحرب ، لا ترى فيها إلا نابًا يقرع نابًا ، وعينًا تنظر شذرًا ، وصدرًا يغلي حقدًا ، وقلبًا يخفق خوفًا وحذرًا .

كل غرض تزعمون أنكم تسعون إليه لإبلاغ هذه الأمة أمنيتها من السعادة والهناء لا قيمة له بعدما أضعتم عليها من أغراضها إلا إذا كان الاتحاد قائدها إليه ودليلها عليه .

ليس هذا التنافر بين أفراد الأمة والتفرق بين جمعياتها حالة من الحالات الطبيعية التي لابد منها ولا مناص عنها أو حادثة من الحوادث السماوية التي تحتملها النفوس وتسكن إليها القلوب وتغضي عليها العيون إجلالًا للسماء ، ورضاء بالقضاء ، وإنما هي صنعة أيديكم ، وجناية أقلامكم ، ولو أنكم تركتم هذه الأمة وشأنها وخليتم بينها وبين فطرتها ما كان يخطر لها ببال أن تتعادى وأن تتباغض ولا كان يوجد بين أفرادها من تحدثه نفسه بمقاطعة أخيه في سبيل صحيفة من الصحف أو حزب من الأحزاب .

عجز الاختلاف الديني بين عنصري الأمة الشرقية أن تفرق بين أوصالها وبين جامعتها وعجز الاختلاف الجنسي أن يؤثر في جامعتها تأثير أمثاله من الجوامع الأخرى فكيف لا يعجز الاختلاف الديني والجنسي لولا أنكم كبرتم ما صغر من هذا الاختلاف وعظمتم منه ما حقر وألححتم إلحاحًا شديدًا حتى حولتموه إلى فتنة شنعاء ، وغارة شعواء .

أنا لا أطلب منكم رحمة بهذه الأمة ولا شفقة عليها فإن قلوبًا مثل قلوبكم التي تنطوي عليها جوانحكم أقسى على أن ينفذ فيها سيف الضارب ، فضلًا عن قلم الكاتب وإنما أريد أن أحدث الأمة الشرقية بكلمة لا أريد منها أن تأخذها مني عفوًا ولا أن تسلم بها قبل إنعام نظرها فيها وعرضها على عقلها ، فذلك ما لا أحبه لها بل ذلك ما أنقمه عليها .

أيها الشرقيون :

إني لا أكتب إليكم كلمتي هذه وليس على وجه الأرض ولا تحت أديم السماء أمة أحب إلي منكم وحسبكم ذلك الحب أني أسمع بالكارثة تحل بكم والنازلة تنال منكم فيشغلني من أمركم ما لا يشغلني من أمر نفسي وتجود عيني في سبيلكم على ما بها من جفاء وغلظة بما لا تجود بمثله في أحرج مواقفها وأصعب مواطنها .

بهذا القلم يستمد مداده من هذا القلب المخلص لكم أدعوكم إلى الاتحاد والائتلاف وأن تتبايعوا بين يدي الله والوطن على الحب والود والصفاء والإخلاص بينكم ولا تجعلوا لهؤلاء المفسدين منفذًا ينفذون منه إلى قلوبكم ، فإن طاف بكم طائف من شياطينهم فأعرضوا عنه وامضوا في سبيلكم واحذروا أن تكونوا تبعة لرئيس أو لعبة في يد زعيم ولكن كل منكم زعيم نفسه ، ومسترشد قلبه ، فنفوسكم أرحم بكم ، وقلوبكم ، أصدق في نصيحتكم ، فإن فعلتم ذلك نجوتم من ذل الانقياد ، وسلكتم سبيل الرشاد وأصبحتم وإذا أنتم أمة واحدة ترى رأيًا واحدًا بإحساس واحد .

واعلموا أن ما بينكم اليوم من الاختلاف في الرأي والاضطراب في المذهب إنما هو وهم من الأوهام الكاذبة ، وخيال من الخيالات الباطلة ، ولو رجعتم إلى أنفسكم وأصغيتم إلى أصوات قلوبكم لتبين لكم أنه لا يوجد فرد من أفرادكم إلا وهو أحرص من أخيه على حب الوطن وإرادة الخير له .

سدد الله طريقكم ، وأنار لكم سبيلكم ، وأفاض عليكم من رحمته وإحسانه ما يفرج كربتكم ، ويكشف غمتكم ، والسلام .

الحجاب

ذهب فلان أوروبا وما ننكر من أمره شيئًا فلبث فيها بضع سنين ثم عاد وما بقي مما كنا نعرفه منه شيء .

ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها وعاد بوجه كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة ، وذهب بقلب نقي طاهر يأنس بالعفو ويستريح إلى العذر وعاد بقلب ملفف مدخول لا يفارقه السخط على الأرض وساكنها ، والنقمة على السماء وخالقها ، وذهب بنفس غضة خاشعة ترى كل نفس فوقها وعاد بنفس ذهابة نزاعة لا ترى شيئًا فوقها ، ولا تلقي نظرة واحدة على ما تحتها ، وذهب برأس كرأس التمثال المثقوب لا يملؤه إلا الهواء المتردد ، وذهب وما على وجه الأرض أحب إليه من دينه ووطنه وعاد وما على وجهها أصغر في عينه منهما .

وكنت أرى أن هذه الصورة الغريبة التي يتراءى فيها هؤلاء الضعفاء من الفتيان العائدين من تلك الديار إلى أوطانهم هي أصباغ مفرغة على أجسامهم إفراغًا لا تلبث أن تطلع عليه شمس المشرق فتمحوها كأن لم تكن ، وأن مكان المدينة الغربية من نفوسهم مكان الوجه من المرآة إذا انحرف عنها ، زال خياله منها ، فلم أشأ أن أفارقه ولبسته على علاتة وفاء بعهده السابق ورجاء لغده المنتظر محتملًا في سبيل ذلك من حمقه ووسواسه وفساده وتصوراته ، وغرابة أطواره ، ما لا طاقة لمثلي باحتمال مثله حتى جاءني ذات ليلة بداهية الدواهي ومصيبة المصايب ، فكانت آخر عهدي به .

دخلت عليه فرأيته واجمًا مكتئبًا فحييته فأومأ إلي بالتحية إيماء فسألته ما باله؟ فقال : ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة في عناء لا أعرف السبيل إلى الخلاص منه ، ولا أدري مصير أمري فيه ، قلت وأي امرأة تريد؟ قال : تلك التي يسميها الناس زوجتي ، واسميها الصخرة العاتية القائمة في طريق مطالبي وآمالي قلت : إنك كثير الآمال يا سيدي فعن أي آمالك تحدث . قال : ليس في الحياة إلا أمل واحد ، وهو أن أغمض عيني ثم أفتحها فلا أرى برقعًا على وجه امرأة في هذه الأمة ، قلت ذلك ما لا تملكه ولا رأي لك فيه ، قال إن كثير من الناس يرون في الحجاب رأيي ، ويتمنون في أمره ما أتمنى ، ولا يحول بينهم وبين تمزيقه عن وجوه نسائهم وإبرازهن إلى الرجال يجالسونهم كما يجلس بعضهم إلى بعض إلا العجز والضعف والهيبة التي لا تزال تلم بنفسي الشرقي كلما حاول الإقدام على أمر جديد فرأيت أن أكون أول هادم لهذا البناء العادي القديم الذي وقف سدًا دون سعادة الأمة وارتقائها دهرًا طويلًا وأن يتم على يدي من ذلك ما لم يتم على يد أحد غيري من دعاة الحرية وأشياعها فعرضت الأمر على زوجتي فأكبرته وأعظمته وخيل إليها أنني جئتها بنكبة من نكبات الدهر أو رزيئة من رزاياه وزعمت أنها إن برزت للرجال فإنها لا تستطيع والذل الذي ضربه الله على هؤلاء النساء في هذا البلد أن يعشش في قبور من خدورهن وخمرهن حتى يأتيهن الموت فينتقلن من مقبرة الدنيا إلى مقبرة الأخرى ، فلابد لي أن أبلغ أمنيتي ، وأن أعالج هذا الرأس القاسي المتحجر علاجًا ينتهي بإحدى الحسنيين إما بشفائه أو بكسره .

فورد علي من حديثه ما ملأ نفسي همًا وحزنًا ونظرت إليه نظرة الراحم الرائي وقلت له أعالم أنت أيها الصديق ما تقول ؟ قال : نعم أقول الحقيقة التي أعتقدها وأدين نفسي بها واقعة من نفسك ونفوس الناس جميعًا حيث وقعت ، قلت هل تأذني لي أن أقول لك أنك عشت برهة من الزمان في ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسائهم فهل تذكر أن نفسك حدثتك يومًا من الأيام وأنت فيهم بالطمع في شيء مما لا تملك يمينك فنلت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكه؟ قال : ربما وقع لي شيء من ذلك فماذا تريد؟ قلت : أريد أن أقول لك أني أخاف على عرضك أن يلم به من الرجال ما ألم بأعراض الرجال منك ، قال : إن المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال من شرفها في حصن حصين لا تمتد إليه الأعناق ، فتداخلني ما لم أملك نفسي معه وقلت تلك هي الخدعة التي يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء والثلمة التي يعثر بها في رؤوسكم فينحدر منها إلى قولكم ومداركم فيفسدها عليكم ، فالشرف كلمة لا وجود لها إلا في قواميس اللغة ومعاجمها فإن أردنا أن نفتش عنها في قلوب الناس وأفئدتهم فإنا لا نجدها ، والنفس الإنسانية كالغدير الراكد لا يزال صافيًا رائقًا حتى يسقط فيه حجر فإذا هو مستنقع كدر ، والعفة لون من ألوان النفس لا جوهر من جواهرها ، وقلما تثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة ، قال : أتنكر وجود العفة بين الناس ، قلت : لا أنكرها لأني أعلم أنها موجودة بين البله والضعفاء والمتعلمين ولكني أنكر وجودها عند الرجل القادر المختلب والمرأة الحاذقة المترفقة إذا سقط من بينها الحجاب وخلا وجه كل منهما لصاحبه .

في أي جو من أجواء هذا البلد تريدون أن تبرز نساؤكم لرجالكم أيها القوم .

أفي جو المتعلمين وفيهم من إذا سئل لم لم يتزوج؟ أجاب نساء الأمة جميعًا نسائي .

أم في جو الطلبة وفيهم من إذا عاد من أوروبا يحمل في محفظته أقل من عشر صور لصديقاته ومائة كتاب غرام منهن يتوارى عن أعين أصدقائه حياءً وخجلًا .

أم في جو الرعاع والغوغاء وكثير منهم يدخل البيت خادمًا ذليلًا ويخرج منه صهرًا كريمًا .

وبعد فما هذا الولع بقصة المرأة ، والتمطق بحديثها والقيام والقعود بأمرها ، وأمر حجابها وسفورها ، وحريتها وأسرها ، كأنما قد قمتم بكل حق واجب للأمة عليكم في أنفسكم فلم يبق إلا أن تفيضوا من تلك النعم على غيركم .

هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم فإن عجزتم عن الرجال فأنتم عن النساء أعجز .

أبواب الفخر أمامكم كثيرة فأطرقوا أيها شئتم ودعوا هذا الباب موصدًا فلكم إن فتحتموه على أنفسكم ويلًا عظيمًا ، وشقاء طويلًا .

أروني رجلًا واحدً منكم يستطيع أن يزعم في نفسه أنه يمتلك هواه بين يدي امرأة يرضاها فأصدق أن امرأة تستطيع أن تمتلك هواها بين يدي رجل ترضاه .

إنكم تكلفون المرأة ما تعلمون أنكم تعجزون عنه ، وتطلبون عندها ما لا تجدونه عند أنفسكم فأنتم تخاطرون بها في معركة الحياة مخطرة لا تعلمون أتربحونها من بعدها أم تخسرونها ، وما أحسبكم إن فعلتم رابحين .

ما شكت المرأة إليكم ظلمًا ، ولا تقدمت إليكم طالبة أن تحلوا قيدها وتطلقوها من أسرها ، فما دخولكم بينها وبين نفسها؟ وما تمضغكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها؟

إنها لا تشكوا إلا فضولكم وإسفافكم ، ولصوقكم بها ، ووقوفكم في وجهها حيثما سارت! وأينما حلت ، حتى ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلًا إلا أن تسجن نفسها بنفسها في بيتها فوق ما سجنها أهلها ، فأوصدت من دونها بابها ، وأسلبت أستارها تبرمًا بكم وفرارًا من فضولكم ، فوا عجبًا تسجنونها بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها وتندبون شقاءها .

إنكم لا ترثون لها بل ترثون لأنفسكم ، ولا تبكون عليها بل على أيام قضيتموها في ديار يسيل جوها تبرجًا وسفورًا ، ويتدفق حرية واستهتارًا وتودون بجدع الأنف لو ظفرتم هنا بهذا العيش الذي خلفتموه هناك .

لقد كنا وكانت العفة في سقاء من الحجاب موكوء فما زلتم به تثقبون في جوانبه كل يوم ثقبًا ، والعفة تتسلل منه قطرة قطرة ، حتى تقبض وتضاءل ، ثم لم يكفيكم ذلك منه حتى جئتم اليوم تريدون أن تحلوا وكاءه حتى لا تبقى فيه قطرة واحدة .

عاشت المرأة المصرية حقبة دهرها هادئة مطمئنة في بيتها راضية عن نفسها وعن عيشتها ، ترى السعادة كل السعادة في واجب تؤديه لنفسها أو وقفة تقفها بين يدي ربها ، أو عطفة تعطفها على ولدها ، أو جلسة تجلسها إلى جارتها فثبتها ذات نفسها ،

وتثبتها سريرة قلبها ، وترى الشرف كل الشرف في خضوعها لأبيها ، وائتمارها بأمر زوجها ونزولها عند رضاهما ، وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام فتحب زوجها لأنه زوجها كما تحب ولدها لأنه ولدها ، فإن رأى النساء أن الحب أساس الزواج رأت أن الزواج أساس الحب ، فقلتم لها أن هؤلاء الذين يستبدون بأمرك من أهلك ليسوا بأكبر منك عقلًا : ولا أفضل رأيًا ، ولا أقدر على النظر لك من نظرك لنفسك ، فلا حق لهم في هذا السلطان الذي يزعمونه لأنفسهم عليك ، فازدرت أباها ، وتمردت على زوجها ، وأصبح البيت الذي كان بالأمس عرسًا من الأعراس الضاحكة مناحة قائمة لا تهدأ نارها ، ولا يخبو أوارها .

وقلتم لها لابد لك أن تختاري زوجك بنفسك حتى لا يخدعك أهلك عن سعادة مستقبلك فاختارت لنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها فلم يزد عمر سعادتها على يوم وليلة ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والعذاب الأليم .

وقلتم لها أن الحب أساس الزواج فما زالت تقلب عينيها في وجوه الرجال صاعدة منحدرة حتى شغلها الحب عن الزواج .

وقلتم لها أن سعادة المرأة في حياتها أن يكون زوجها عشيقها وما كانت تعرف إلا أن الزوج غير العشيق فأصبحت تطلب في كل يوم زوجًا جديدًا يحيي من لوعة الحب ما أمات القديم فلا قديمًا استبقت ولا جديدًا أفادت وقلتم لها لابد لك أن تتعلمي لتحسني تربية ولدك والقيام على شؤون بيتك ، فتعلمت كل شيء إلا تربية ولدها والقيام على شؤون بيتها .

وقلتم لها أنا لا نتزوج من النساء إلا من نحبها ونرضاها ويلائم ذوقها ذوقنا ، وشعورنا فكان لابد لها أن تعرف مواقع أهوائكم ، ومسارح أنظاركم لتتجمل لكم بما تحبون ، فراجعت فهرس أعمالكم في حياتكم صفحة صفحة فلم تر فيه غير أسماء الخليعات المستهترات والضاحكات اللاعبات والإعجاب بهن والثناء على ذكائهن وفطنتهن ، فتخلعت واستهترت لتبلغ رضاكم ، وتنزل عن محبتكم ، ثم تقدمت إليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليكم عرضًا كما يعرض النخاس أمته في سوق الرقيق فأعرضتم عنها ، ونبوتم بها وقلتم لها أنا لا نتزوج النساء العاهرات كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعًا ساقطات إذا سلمت لكم نساءكم ، فرجعت أدراجها خائبة منكسرة ، وقد أباها الخليع ، وترفع عنها المحتشم ، فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت .

وهكذا انتشرت الريبة في نفوس الأمة جميعها وتمشت الظنون بين رجالها ونسائها ، فتحاجز الفريقان ، وأظلم الفضاء بينهما وأصبحت البيوت كالأديرة لا يرى فيها الرائي إلا رجالًا مترهبين ونساء عانسات ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحمون ، وهذا رثاؤكم لها وعطفكم عليها نحن نعلم كما تعلمون أن المرأة في حاجة إلى العلم فليذهبها أبوها أو أخوها فالتهذيب أنفع لها من العلم ، وإلى اختيار الزوج العادل الرحيم فليحسن الآباء الاختيار لبناتهم وليجمل الأزواج عشرة نسائهم ، وإلى النور والهواء تبرز إليهما

وتتمتع فيهما بنعمة الحياة فليأذن لها أولياؤها بذلك وليرافقها رفيق منهم في غدواتها وروحاتها كما يرافق الشاة راعيها خوفًا عليها من الذئاب ، فإن عجزنا عن أن نأخذ الآباء والأخوة والأزواج بذلك فلننفض أيدينا من الأمة جميعها نسائها ورجالها فليست المرأة بأقدر على إصلاح نفسها من الرجل على إصلاحها .

أعجيب ما أعجب له من شؤونكم أنكم تعلمتم كل شيء إلا شيئًا واحدًا هو أدنى إلى مداركلكم أن تعلموه قبل كل شيء وهو أن لكل تربة نباتًا ينبت فيها ولكل نبات زمنًا ينمو فيه .

رأيتم العلماء في أوروبا يشتغلون بكماليات معلوم بين أمم قد فرغت من ضرورياتها فاشتغلتم بها مثلهم في أمة لا يزال سوادها الأعظم في حاجة إلى حروف الهجاء .

رأيتم الفلاسفة ينشرون فلسفة الكفر بين الشعوب ملحدة لها من عقولها وآدابها ما يغنيها عن إيمانها فاشتغلتم بنشرها بين أمة ضعيفة ساذجة لا يغنيها عن إيمانها شيء .

ورأيتم الرجل الأوروبي حرًا مطلقًا يفعل ما يشاء ويعيش كما يريد لأنه يستطع أن يملك نفسه وخطراته في الساعة التي يعلم فيها أنه قد وصل إلى حدود الحرية التي رسمها لنفسه فلا يتخطاها فأردتم أن تمنحوا هذه الحرية نفسها رجلًا ضعيف الإرادة والعزيمة يعيش من حياته الأدبية على رأس منحدر زلق فإن زلت به قدمه مرة انحدر من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى يبلغ الهوة ويتردى في قراراتها .

رأيتم الزوج الأوروبي الذي أنضجت القرون رأسه وأزالت خشونة نفسه وحرشتها يستطيع أن يرى زوجة تخاصر من تشاء من الرجال ، وترافق من تشاء ، وتخلو بمن تشاء فيقف أمام ذلك المشهد موقف الجامد المتبلد فأردتم من الرجل الشرقي الغيور الملتهب أن يقف موقفه ، ويستمسك استمساكه .

ورأيتم المرأة الأوروبية الجريئة المتفتية تستطيع في بعض مواقفها بين الرجال أن تحتفظ بعصمتها فأردتم من المرأة المصرية الساذجة أن تبرز للرجال بروزها ، وتحتفظ بنفسها احتفاظها .

وكل نبات يزرع في أرض غير أرضه ، أو ساعة غير ساعته ، إما أن تأباه الأرض فتلفظه ، وأما أن ينشب فيها فيفسدها .

إنا نضرع إليكم باسم الشرف الوطني والحرمة الدينية أن تتركوا تلك البقية من نساء الأمة آمنات مطمئنات في بيوتهن ولا تزعجوهن بأحلامكم وآمالكم كما أزعجتم من قبلهن فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا جرح الشرف فلا دواء له فإن أبيتم إلا أن تفعلوا فانتظروا بأنفسكم قليلًا ريثما تنتزعوا من صدور هذه الغيرة التي ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم لتستطيعوا أن تعيشوا في حياتكم الجديدة سعداء آمنين .

***

فما زاد الفتى أن ابتسم في وجهي ابتسامة الهزء والسخرية وقال : تلك حماقات ما جئنا إلا لمعالجتها فنصطبر عليها حتى يقضي الله بيننا وبينها ، فقلت له لك أمرك في نفسك وفي أهلك فاصنع بهما ما تشاء وائذن لي أن أقول لك أني لا أستطيع أن أختلف إليك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى نفسي لأني أعلم أن الساعة التي ينفرج لي فيها جانب ستر من أستار بيتك عن وجه امرأة من أهلك في حضرتك تقتلني حياءً وخجلًا ، ثم انصرفت وكان هذا آخر ما بيني وبينه .

وما هي إلا أيام قلائل حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلانًا هتك الستر في منزله بين نسائه وأصدقائه ، وأنه قد أصبح مغشيًا لا تزال النعال خافتة ببابه ، فذرفت عيني دمعة لا أعلم هل هي دمعة الغيرة على العرض المذال ، أو الحزن على الصديق المفقود .

***

مرت على تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزوره فيها ولا يزورني ولا ألقاه في طريقه إلا قليلًا فأحييه تحية الغريب للغريب من حيث لا يجري لما كان بيننا من ذكر ثم أنطلق في سبيلي .

فإني لعائد إلى منزلي ليلة أمس وقد مضى الشطر الأول من الليل إذ رأيته خارجًا من منزل يمشي مشية المضطرب الحائر وبجانبه جندي من جنود الشرطة كأنما هو يحرسه أو يقتاده فأهمني أمره ودنوت منه فسألته عن شأنه فقال لا أعلم لمثل هذه الدعوة في مثل هذه الساعة سببًا وما أنا بالرجل المذنب ولا المريب ، فهل أستطيع أن أرجوك صديقي القديم بعد الذي كان بيني وبينك أن تصحبني الليلة في وجهي هذا علني أحتاج إلى معونتك فيما قد يعرض هناك من الشؤون؟ قلت لا أحب إلي من ذلك ومشيت معه صامتًا لا أحدثه ولا يقول لي شيئًا ثم شعرت كأنه يزور في نفسه كلامًا يريد أن يفضي به إلي فيمنعه الخجل والحياء ففاتحته الحديث وقلت له : ألم تستطع أن تتذكر لهذه الدعوة سببًا؟ فنظر إلي نظرة حائرة وقال إن أخوف ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتي الليلة حادث مؤلم فقد رابني من أمرها .

أنها لم تعد إلى منزلها حتى الساعة وما كان ذلك شأنها من قبل ، قلت أما كان يصحبها أحد؟ قال : لا ، قلت : ألا تعلم المكان الذي ذهبت إليه؟ قال : لا ، قلت : ومما تخاف عليها؟

قال : لا أخاف شيئًا سوى أني أعلم أنها امرأة غيورة حمقاء فلعل بعض الناس حاول العبث بها في طريقها فشرست عليه فوقعت بينهما واقعة انتهى حديثها إلى رجال الشرطة ، وكنا قد وصلنا إلى المفخر فاقتادنا الجندي إلى قاعة المأمور حتى صرنا بين يديه فأشار إلى جندي أمامه إشارة لم نفهمها ثم استدنى الفتى إليه وقال له يسوءني يا سيدي أن أقول إن رجال الشرطة قد عثروا الليلة في مكان من أمكنة الريبة على رجل وامرأة في حال غير صالحة فاقتادوهما إلى المفخر فزعمت المرأة أن لها بك صلة فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة في أمرها وأمر صاحبها فإن كانت صادقة أذنا لها بالانصراف معك إكرامًا لك ، وإبقاء على شرفك ، وإلا فهي امرأة فاجرة لا نجاة لها من عقاب الفاجرات ، وها هما وراءك فانظرهما وكان الجندي قد جاء بهما من غرفة السجن فنظر فإذا المرأة زوجته ، وإذا الرجل أحد أصدقائه ، فصرخ صرخة رجفت لها جوانب المفخر وملأت نوافذه وأبوابه عيونًا وآذانًا ثم سقط في مكانه مغشيًا عليه .

فأشارت على المأمور أن يرسل المرأة إلى منزل أبيها ففعل وأمر بصاحبها إلى السجن ثم حملنا الفتى في مركبة إلى منزله ودعونا الطبيب فقرر أنه مصاب بحمى دماغية شديدة ولبث ساهرًا بجانبه بقية الليل يعالجه حتى دنا الصبح فانصرف الطبيب على أن يعود متى دعوناه وعهد إلي بأمره فلبثت بجانبه أرثي لحاله وأنتظر قضاء الله فيه حتى رأيته يتحرك في مضجعه ثم فتح عينيه فرآني فلبث شاخصًا إلى هنيهة كأنما يحاول أن يقول لي شيئًا فلا يستطيع فدنوت منه وقلت هل من حاجة يا سيدي؟

فأجاب بصوت ضعيف خافت : حاجتي أن لا يدخل علي من الناس أحد ، قلت : لن يدخل عليك إلا من تريد ، فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه فإذا عيناه مبتلتان بالدموع فقلت : ما بكاؤك يا سيدي؟ قال : أتعلم أين زوجتي الآن؟ قلت : وماذا تريد منها؟ قال : لا شيء سوى أن أقول لها أني عفوت عنها ، قلت : إنها في بيت أبيها ، وارحمتاه لها ولأبيها ولجميع قومها فلقد كانوا قبل أن يتصلوا بي شرفاء أمجادًا فألبستهم منذ عرفوني ثوبًا من العار لا تبلوه الأيام .

من لي بمن يبلغهم عني جميعًا أنني رجل مريض مشرف وأنني أخشى لقاء الله إن لقيته بدمائهم وأنني أضرع إليهم أن يصفحوا عني ويغتفروا ذنبي ، قبل أن يسبق إلي أجلي .

لقد كنت أقسمت لأبيها يوم اهتديتها أن أصون عرضها صيانتي لحياتي ، وأن أمنعها مما أمنع منه نفسي ، فحنثت في يميني فهل يغفر لي ذنبي فيغفر لي الله بغفرانه .

إنها قتلتني ولكني أنا الذي وضعت في يدها الخنجر الذي أغمدته في صدري فلا يسألها أحد عن ذنبي .

البيت بيتي والزوجة زوجتي والصديق صديقي وأنا الذي فتحت باب بيتي لصديقي إلى زوجتي فلم يذنب لي أحد سواي .

ثم أمسك عن الكلام برهة فنظرت إليه فإذا سحابة سوداء تنتشر فوق جبينه شيئًا فشيئًا حتى لبست وجهه فزفر زفرة خلت أنها خرقت حجاب قلبه ثم أنشأ يقول :

آه ما أشد الظلام أمام عيني وما أضيق الدنيا في وجهي في هذه الغرفة على هذا المقعد تحت هذا السقف كنت أراهما جالسان يتحدثان فتمتلأ نفسي غبطة وسرورًا وأحمد الله على أن رزقني بصديق وفي يؤنس زوجتي في وحدتها ، وزوجة سمحة كريمة تكرم صديقي في غيبتي ، فقولوا للناس جميعًا أن ذلك الرجل كان يفخر بالأمس بذكائه وفطنته ويزعم أنه أكيس الناس وأحزمهم قد أصبح يعترف اليوم أنه أبله إلى الغاية من البلاهة ، وغبي إلى الغاية التي لا غاية وراءها .

والهفًا على أم لم تلدني وأب عاقر لا نصيب له في البنين!

لعل الناس كانوا يعلمون من أمري ما كنت أجهل ، ولعلهم كانوا إذا مررت بهم يتناظرون ويتغامزون ويبتسم بعضهم إلى بعض أو يحدقون إلي ويطيلون النظر في وجهي ليروا كيف تتمثل البلاهة في وجوه البله والغباوة في وجوه الأغبياء ، ولعل الذين كانوا يطيفون بي ويتوددون إلي من أصدقائي إنما كانوا يفعلون ذلك من أجلها لا من أجلي ، ولعلهم كانوا يسمونني فيما بينهم وبين أنفسهم قوادًا ، ويسمون زوجتي مومسًا وبيتي ماخورًا .

فوا رحمتاه لي أن بقيت على ظهر الأرض بعد اليوم ساعة واحدة ، وواهفًا على زاوية من زوايا قبر عميق يطويني ويطوي عاري معي .

ثم أغمض عينيه وعاد إلى ذهوله واستغراقه .

وهنا دخلت الحجرة مرضع ولده تحمله على يدها حتى دنت به من فراشه فتركته وانصرفت ، فما زال الطفل يدب على يده حتى علا صدر أبيه فأحس به ففتح عينيه فرآه فابتسم لمرآه وضمه إليه ضمة الرفق والحنان وأدنى فمه من وجهه كأنما يريد أن يقبله ثم انتفض فجأة واستسر بشره ودفعه عنه بيده دفعًا شديدًا فانكفأ على وجهه يبكي ويصيح وقال أبعدوه عني ، لا أعرفه ، ليس لي أولاد ولا نساء ، سلوا أمه عن أبيه أين مكانه واذهبوا به إليه ، لا ألبس العار في حياتي وأتركه أثرًا خالدًا ورائي بعد مماتي ، وكانت المرضع قد سمعت صياح الطفل فعادت إليه وحملته وذهبت به فسمع صوته وهو يبتعد عنه شيئًا فشيئًا فأنصت إليه واستعبر باكيًا وصاح أرجعوه إلي فعادت به المرضع فتناوله من يدها وأنشأ يقلب نظره في وجهه ويقول :

في سبيل الله يا بني ما خلف لك أبوك من اليتم وما خلفت لك أمك من العار فاغفر لهما ذنبهما إليك فقد كانت أمك امرأة ضعيفة فعجزت عن احتمال صدمة القضاء فسقطت ، وكان أبوك حسن النية في جريمته التي اجترمها فأساء من حيث أراد الإحسان .

سواء أكنت ولدي يا بني أو ولد الجريمة فإني قد سعدت بك برهة من الدهر فلا أنسى يدك عندي حيًا أو ميتًا .

ثم احتضنه إليه وقبله في جبينه قبلة لا أعلم هل هي قبلة الأب الرحيم أو الرجل الكريم .

وكان قد بلغ منه الجهد فعاودته الحمى وغلت نارها في رأسه وما زال يثقل شيئًا فشيئًا حتى خفت عليه التلف فأرسلت وراء الطبيب وألقى عليه نظرة طويلة ثم استردها مملوءة يأسًا وحزنًا .

ثم بدأ ينزع نزعًا شديدًا ويئن أنينًا مؤلمًا فلم تبق عين من العيون المحيطة به إلا أرفضت كل ما تستطيع أن تجود به من مدامعها .

فأنا لجلوس حوله وقد بدا الموت يسبل أستاره السوداء حول سريره وإذا امرأة متزرة بإزار أسود قد دخلت الحجرة وتقدمت نحوه ببطء حتى ركعت بجانبه ثم أكبت على يده الممتدة فوق صدره فقبلها وأخذت تقول له :

لا تخرج من الدنيا وأنت مرتاب في ولدك فإن أمه تعترف بين يديك وأنت ذاهب إلى ربك تسأله عن قولها أنها وإن كانت دنت من الجريمة فإنها لم ترتكبها ، أعني يا والد ولدي وأسأل الله عندما تقف بين يديه أن يلحقني بك فلا خير لي في الحياة من بعدك .

ثم انفجرت باكية ففتح عينيه وألقى على وجهها نظرة باسمة كانت هي آخر عهده بالحياة وقضى .

■ ■ ■

إيفون الصغيرة

إيفون هذه فتاة صغيرة عثر بها في طفولتها على باب إحدى الكنائس ناظر مدرسة قروية وكان شيخًا كبيرًا مات أولاده وأحفاده جميعًا وبقي هو من بعدهم وحيدًا متوحشًا فأنس بها حين وجدها أنسًا عظيمًا وسماها « إيفون الصغيرة » لأنه لم يكن يعلم من أمرها شيئًا فأصبحت سلوته الوحيدة في شيخوخته وعني بتربيتها وتهذيبها حتى بلغت السابعة من عمرها فأصابها مرض لم يلبث أن قضى عليها فرثاها الكاتب بهذه القطعة البليغة .

ماتت وكأنها لم تمت ، ليس على وجهها أثر واحد من آثار الآلام التي قاستها في مرضها ، يحسبها الرائي نائمة نومًا هادئًا لذيذًا ويخيل إليه أنه يسمع صوت أنفاسها المتردد ويرى هبوط صدرها وارتفاعه .

أين صفرة الموت ونحوله؟ وأين آلام النزاع ومضاضته؟ وأين الغضون التي تخلقها الأوجاع فوق الجبين ، وأين الدوائر الزرقاء التي رسمتها يد الموت حول الجفون؟

لقد مات كل ذلك بموتها فعاد لها رونقها وبهاؤها وأصبحت كأنما خلقت الساعة ولما تنبعث الروح من جسدها .

بهذا الوجه الجميل المشرق كانت جالسة منذ أيام قلائل أمام المدفأة باسمة مطمئنة تلاعب هرتها ، وبهذا الفم الأرجواني القاني كانت تغني أمام قفص عصفورها أنشودة السعادة والهناء ، وبهاتين اليدين البيضاويتين اللينتين كانت تقطف أزهار الربيع وتقدمها هدية إلى أبيها العجوز .

أما اليوم قد انقضى ذلك كله لأن حياتها قد انقضت .

آخر كلمة نطقت بها قبل موتها : « سأموت الساعة فآتوني بعصفوري أودعه » ، فأتوها بقفص عصفورها وعلقوه بإحدى قوائم سريرها فظلت تنظر إليه باسمة متعطلة وظل العصفور يلعب ويغرد تغريدًا شجيًا وهو لا يعلم أنه ينشد فوق رأسها نشيد الموت .

وهنا وقف الشيخ العجوز بجانب فراشها واجمًا حزينًا مشرد اللب ذاهل العقل ومد يده إلى يدها الضعيفة الواهنة التي كانت بالأمس عكاز شيخوخته وسند حياته فأخذها ووضعها على صدره وظل على ذلك هنيهة كأنما يريد أن يمد سراج حياتها الناضب بتلك الثمالة القليلة من الزيت الباقية في سراج حياته ليفتديها بنفسه ويفتدي نفسه من أن يراها تموت بين يديه – ثم التفت فجأة إلى أصدقائه الجالسين حوله وقال لهم ها هي الحرارة قد بدأت تدب في جسمها وها هي الحياة قد عادت إليها ، فنظروا إليه آسفين محزونين ثم نكسوا أبصارهم وأسبلوا مدامعه فأخذ يقلب في وجوههم عينًا حائرة مشردة ويدور بنظراته ههنا وههنا كأنما يسألهم المعونة على أمره ومن ذايعين على القدر ويعتدي على المنايا ويعترض سهم القضاء بعد خروجه من قوسه .

ومت هي إلا لحظة حتى شعر أن يدها تجذب يده فانتفض وحنا عليها فطوقته بذراعيها الضعيفتين وضمته ضمة كانت فيها نفسها .

إنا لله وإنا إليه راجعون ماتت إيفون الصغيرة – ماتت الطفلة الوديعة الجميلة – ماتت الفتاة الرزينة الصابرة ، في سبيل الله نجم يتلألأ في سماء الحياة لحظة ثم هوى ، وغصن أزهر في روض المنى ساعة ثم ذوى ، وقدح من البلور لم تكد تلمسه الشفاة حتى انكسر .

وعقد من اللؤلؤ لم ينتظر في سمطه حتى انتثر .

هذه الغرف التي طالما أنارتها بابتسامتها حتى في السنة التي تختفي فيها جميع الابتسامات ، والحديقة التي كانت تقضي فيها بضع ساعات من ليلها ونهارها تلاعب أطيارها وتقطف أزهارها وتتعهد أشجارها والماشي التي كانت تخطر على حصبائها فيصير شعاع خديها ياقوتًا ومرجانًا فدخلت جميعها منها وهيهات أن يسعدها الحظ برؤيتها بعد اليوم .

كانت إيفون جميلة الخلق طيبة النفس نقية الضمير تحب الأحياء جميعهم ناطقهم وصامتهم ، فلا تبذل من ودها لهرتها المريضة أقل مما تبذل منها لأبيها الشيخ العجوز ، ولا تتودد إلى الشيوخ الكبار أصدقاء أبيها وجلسائه أكثر مما تتودد إلى وافد غريب يهبط قرينها للمرة الأولى في حياته ، ومما علموه قد اختلفت مع فتى أو فتاة من مدرستها لأنها كانت تستهوي الطيب منهم بلطفها وأدبها ، والخبيث بعفوها وصفحها ، ولم تكن تعلم أنها لقيطة ولكن من كان ينظر في عينيها ويرى ذبولهما وانكسارهما ولمعانهما الذي يشبه لمعان الدمع الرقراق يخيل إليه أنها قد ألهمت ما كتمه الناس عنها ،

وأنها كانت تعلم أنها لا تعيش في بيت أبيها الميت تحت وصاية جدها كما كانوا يقولون لها بل في بيت محسن كريم لا يعرف من تاريخها ولا من أمر ميلادها شيئًا ، وكانت لا تزال تتراءى بين شفتيها التي ترديها ، ولم تكن ابتسامتها ابتسامة التصنع والتكلف التي يرثها أكثر الفتيات عن أمهاتهن بل ابتسامة الحب والإخلاص والعطف .

لذلك عجل الموت إليها لأن سكان السماء لا يستطيعون أن يعيشوا على ظهر الأرض زمنًا طويلًا .

دقت أجراس الكنيسة تنعيها فلم تسمعها ولو سمعتها لاهتزت لها في سريرها شوقًا ولهفة كما كان شأنها في حياتها ، ثم جاءت ساعة الدفن فحملوها على أيديهم ومشوا بها حتى وصلوا إلى الكنيسة فوضعوا نعشها في ركن من أركانها ثم اجتمعوا يودعونها الوداع الأخير ، فبكاها الشيوخ الذين كانوا يحبونها ويأنسون بها ، والفتيان والفتيات من تلاميذ مدرستها والنساء اللواتي كن يحببنها من أجل حبها أبنائهن وبناتهن وبكاها أكثر من هؤلاء جميعًا ذلك الشيخ العجوز المسكين لأنها كانت كل دنياه فخسرها في ساعة واحدة ، وظل كثير من الوقوف يرددون كرهًا فيقول أحدهم ، طالما رأيتها في هذا الركن نفسه جالسة وبيدها الكتاب المقدس تتلو آياته ، ويقول الآخر : لقد دخلت الكنيسة ليلة فرأيتها هائمة وحدها في الظلام الحالك تحت هذه الأقبية فعجبت لصلاحها وتقواها .

وتقول امرأة : لقد عثرت ابنتي يومًا من الأيام في منصرفها من مدرستها ببعض من الأحجار عثرة برحت بها فاحتملتها على ظهرها حتى جاءت بها إلى المنزل .

وتقول أخرى لقد كنت أراها تمر كل يوم بحارتنا فلانة المسكينة فتعطيها رغيفًا من طعامها ثم تستمر أدراجها إلى مدرستها وهكذا ظل كل منهم يذكر ما يعرف عنها من الفضائل والمزايا حتى ساعة الدفن فعلت الأصوات بالبكاء ثم غيبوها في قبرها وحثوا عليها التراب ، وكان الليل قد أظل المكان بجناحيه وساد فيه سكون موحش رهيب فانصرفوا مطرقين أجمعين يقول بعضهم لبعض ، وارحمتاه لها ، لقد خرجت من الدنيا غريبة كما وفدت إليها .

■ ■ ■

الناشئ الفقير

لي ولد وحيد في السابعة من عمره لا أستطيع على حبي إياه وافتتاني به أن أتركه من بعدي غنيًا لأب فقير وما أنا بآسف على ذلك ولا مبتئس لأني أرجو بفضل الله وعونه ورحمته وإحسانه أن أترك له ثروة من العقل والأدب هي عندي خير ألف مرة من ثروة الفضة والذهب أحب أن ينشأ معتمدًا على نفسه في تحصيل رزقه أو تكوين حياته لا على شيء آخر حتى على التي يتركها له أبوه ومن نشأ هذا المنشأ وألف أن لا يأكل إلا من الخبز الذي يصنعه بيد أنه نشأ عزوفًا مترفعًا لا يطلع إلا ما في يد غيره ، ولا يستعذب طعم الصدقة والإحسان .

أحب أن ينشأ رجلًا ولا سبيل إلى الرجولة إلا من ناحية العمل ، وقلما يعمل العامل إلا بسابق من الضرورة ودافع من الحاجة وفرق بين الفتى الذي يعمل لتنمية ثروته وتعظيم شأنها شرهًا وفضولًا وبين الفقير الذي يعمل لتحصيل قوته وتقويم أود حياته أحب أن يعيش فردًا من أفراد هذا المجتمع الهائل المعترك في ميدان الحياة يصارع العيش ويغالبه ويزاحم العاملين بمنكبيه ، ويفكر ويتروى ويجرب ويختبر ويقارن الأمور بأشباهها ونظائرها ، ويستنتج نتائج الأشياء من مقدماتها ، ويعثر مرة وينهض أخرى ، ويخطئ حينًا ويصيب أحيانًا ، فمن لا يخطئ لا يصيب ، ومن لا يعثر لا ينهض حتى يستقيم له شؤون حياته .

ذلك خير له من أن يجلس في شرفة من شرف قصره مطلًا على العاملين المجاهدين يتمتع نظره بمرآهم كأنما يشاهد رواية تمثيلية في أحد ملاعب التمثيل .

أحب أن يمر بجميع الطبقات ويخالط جميع الناس ويذوق مرارة العيش ويشاهد بعينه بؤس البؤساء ، وشقاء الأشقياء ، ويسمع بأذنه أنات المتألمين ، وزفرات المتوجعين ليشكر الله على نعمته إن كان خيرًا منهم ، ويشاركهم في همومهم وآلامهم إن كان حظه في الحياة مثل حظهم ولتنمو في نفسه عاطفة الرفق والرحمة ، فيعطف على الفقير عطف الأخ ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم .

أما الغني الذي لم يذق طعم الفقر في حياته فقلما يشعر بآلام الناس ومصائبهم أو يعطف على بأسهم وضرائهم ، فإن حاول يومًا أن يمد يده بالمعونة إلى بائس أو منكوب ، فعل متفضلًا ممتنًا ، لا راحمًا ولا متألمًا .

والألم هو الينبوع الذي تنفجر منه جميع عواطف الخير والإحسان في الأرض وهو الصلة الكبرى بين أفراد المجتمع الإنساني والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه بل هو معنى الإنسانية وروحها وجوهرها فمن حرمه حرم كل فضيلة من فضائل النفس ، وكل مكرمة من مكرماتها وأصبح بالصخرة الصلدة الصماء أشبه منه بالإنسان الناطق .

أحب أن يجوع ليجد لذة الشبع ويظمأ ليستعذب طعم الري ويتعب ليشعر ببرد الراحة ، ويسهر لينام ملء جفونه أي أنني أحب له السعادة الحقيقة التي لا سعادة في الدنيا سواها .

وما السعادة في الدنيا إلا لمحات كلمحات البرق تخفق حينًا بعد حين في ظلمات الشقاء فمن لا يرى تلك الظلمات لا يراها وأشقى الأشقياء أولئك المترهفون الناعمون الذين يوافيهم الدهر بجميع لذائذهم ومشتهياتهم فلا يزالون يمنعون فيها ويتقلبون في جنباتها حتى يستنفذوها فيستولي على عقولهم مرض السآمة والضجر فيتألمون من الراحة أكثر مما يقاسي المحروم من عذاب الحرمان وقد تدفعهم تلك الحالة إلى الإلمام بمشتهيات غريبة لا يتفق مع البشرية ولا تدخل تحت حكمها تفريجًا لكربتهم وتنفيسًا عن أنفسهم وما هؤلاء المساكين الذين نراهم سهارى طول لياليهم في ملاعب القمار ومجالس الشراب ومواقف الرهان إلا جماعة الفارين من سجون السآمة والملل يعالجون الداء بالداء ويفرون من الموت إلى الموت .

أحب أن يكون غنيًا بالمعنى الحقيقي لا بالمعنى الاصطلاحي أي أن يكون مستغنيًا بنفسه عن غيره لا كثير المال والثراء ، وما سمى المال غني إلا باعتبار أنه وسيلة إلى الغنى وطريق إليه ، وهو اعتبار خطأ ما في ذلك ريب ، فإن أكثر الناس فقرًا إلى المال وأشدهم طمعًا في إحرازه وأعظمهم مخاطرة بكرامتهم وفضائل نفوسهم في سبيله هم الأغنياء أصحاب المال والثراء ، وإن كان في الدنيا شيء يسمى قناعة واعتدالًا فهو في جانب الفقراء المقلين أكثر منه في جانب الأغنياء المكثرين ،

ولا يزال المرء يعتبر المال وسيلة إلى الحياة وذريعة من ذرائعها حتى يكثر في يده فإذا هو في نظره الحياة نفسها يجمعه ولا يدري ماذا يريد منه ويعبده وهو لا يرجو ثوابه ، ولا يخشى عقابه ويستكثر منه وهو على ثقة من نفسه في نظره حقائق الكون وتغيير نواميسه فيرى الرؤوس أذنابًا والأذناب رؤوسًا والوسائل غايات والغايات وسائل فقل على عقله السلام ، لا أكره أن ينشأ ولدي غنيًا ولا أحب أن أعرضه لمخاطرة الفقر وآفاته ولكني أخاف عليه الغنى أكثر مما أخاف عليه الفقر .

أخاف عليه أن يعتد بالمال اعتدادًا كثيرًا ويقدره فوق قدره ويعتبره الكمال الإنساني كله فلا يهتم بإصلاح أخلاقه وتهذيب نفسه وإن لم يجد من حوله أصدقائه ومعارفه مرآة يرى فيها عيوبه وهناته لأن عشراء الأغنياء متملقون مداهنون يطوون سيئاتهم ويزخرفون حسناتهم أخاف عليه أن تستحيل نفسه إلى نفس مادية جامدة لا تفهم من شؤون الحياة غير المادة ولا تغني بشيء سواها فيصبح رجلًا قاسيًا صلبًا ميت النفس والعواطف لا يرحم بائسًا ولا يعطف على محزن ، ولا يرثي لأمه ولا يبكي على وطن ، ولا يشترك في شأن من شؤون العالم العامة خيرها أو شرها ، ولا يعنيه ما دام راضيًا عن نفسه مغتبطًا بحظه أسقطت السماء على الأرض أو بقيت في مكانها أخاف عليه أن يحتقر العلم والفنون والآداب ، ويزدري المواهب والعقول والفضائل والمزايا فيصبح عار أمته وشنارها

ووصمتها الخالدة التي لا تزال ومن أشرب قلبه حب المال ونزل من نفسه إلى قرارتها لا يحترم غيره ولا يقيم لغير أربابه وزنًا ، ويخيل إليه أن من عداهم من فئات الناس لا شأن لهم في الحياة بل لا حق لهم في الوجود أخاف عليه إن تزوج أن يأتي الزواج إلا من غنية يرى أنها هي التي تليق بمقامه ومنزلته ، ومن اشترط الغنى في زوجة لا يستطيع أن يشترط شيئًا سواه فيسقط في زواجه سقطة يشقى بها طول حياته من حيث لا ينفعه ماله ولا جاهه أخاف عليه إن ولد أن لا يجد بين أوقاته ساعة فراغ يتولى فيها النظر في تهذيب ولده وتربيته فيتركه صغيرًا في أيدي الخدم وكبيرًا في أيدي عشراء السوء فيصبح نكبته الكبرى في حياته .

وعاره الدائم بعد مماته أخاف عليه أن يقضي أيامه ولياليه خائفًا مذعورًا مروع القلب مستطار الفؤاد تقتله الخسارة إن خسر ، ويضعفه فوت الربح إن فاته ويطير بنومه وهدوئه ويذهب براحته وسكونه هبوط الأسعار ونزول الأسهم وتقلبات الأسواق وخسران القضايا ومنازعات الخصوم والآفات السماوية والجوائح الأرضية وما حزن الفقير الذي أنفق آخر درهم كان بيده من حيث لا يعرف له طريقًا إلى سواه على نفسه وعلى مستقبله بأشد من حزن الغني الشحيح على الدرهم الذي نقص من مليونه والذي كان يؤمل أن يتمم به مليونه فلم يتح له ، وما ليلة البائس المسكين الذين يتصايح أولاده من حوله جوعًا

ولا يجد ما يسد به رمقهم بأطول من ليلة الغني الذي يسقط إليه الخبر بأن سلعه من سلعة قد نفقت أو أن سهمًا من أسهمه قد نزل ولقد رأيت بعيني من جن وهو واقف ينظر إلى قصر من قصوره ويحترق وسمعت كثيرًا عن حوادث المنتحرين والمصعوقين على أثر منكبات مالية والخسائر التجارية التي لا تفقرهم ولا تصل بهم إلى درجة الإملاق بل ربما كان كل أثر عندهم أنها تنقلهم إلى منزلة في غنى أدنى من منزلتهم الأولى أخاف عليه أن يصبح واحدًا من أولئك الوارثين .

أخاف عليه أن يصبح واحدًا من أولئك الوارثين المستهترين الذين لا عمل لهم في حياتهم سوى هدم حياتهم بأيديهم وهدم ما ترك لهم آباؤهم وأجدادهم من مال وجاه فأندب حظي في قبري ، وأقرع السن على أن لم أكن قد فارقت هذه الحياة ولا مال فيها ولا ولد .

ولا أزال أذكر حتى الساعة أنني مررت بأحد شوارع القاهرة من بضع سنين فرأيت في مكان واحد منه منظرين مختلفين متناقضين ، رأيت غلامًا من الوارثين جالسًا بإحدى الحانات يمرح في نعمائه ، وآخر من المتشردين نائمًا تحت الرصيف على مقربة منه يضطرب في بأسائه .

أما الأول فقد كان جالسًا بين مائدتي شراب وقمار تسلب الأولى عقله والأخرى ماله ، وقد أحاط به جماعة من الخلعاء المارقين يلعبون بعقله لعب الغلمان بالكرة في ميادينها ، يضحكون لنكاته ، ويؤمنون على أقواله ، ويصدقون أكاذيبه ، ويتحركون بحركته ، ويسكنون بسكونه وهو يقهقه بينهم قهقهة المجانين ويصيح صياح الثعالب ، أما الثاني فقد كان عاريًا إلا قليلًا ، يفتح إحدى عينيه من حين إلى حين كلما رنت في أذنه ضحكات هؤلاء السكارى وضوضاؤهم ويضم ركبته إلى صدره كلما أحس بصوت مركبة مارة بجانبه وقد يبسط كفه أحيانًا وهو مغمض أن خيل إليه يدًا تمتد إليه بالإحسان ولا يد هناك ولا إحسان رأيت هذين المنظرين الغريبين المتباينين فثارت في نفسي تلك الساعة عاطفتان مختلفتان ، عاطفة البغض والاحتقار للأول ، وعاطفة الرحمة أو الشفقة على الثاني وقلت في نفسي لو كان لي ولد وكان لابد له من أن يكون أحد هذين الغلامين ، أما الوارث الجالس فوق الرصيف ينثر الذهب نثرًا ، أما المتشرد النائم من تحته يسأل الناس لقمة فلا يجدها لفضلت أن أراه بين فئة المتشردين على أن أراه بين جماعة الوارثين لأني أرجو له في الأولى أن يجد بين الراحمين راحمًا يحسن إليه ويستنقذه من شقائه ويأخذ بيده من طريق الحياة الطيبة الصالحة أما في الثانية فإني لا أرجو له شيئًا .

إن للرحمة طيش كطيش القسوة والشدة وأطيش الراحمين ذلك الذي يستنفذ أيام حياته في جمع الثروة لأولاده دائبًا ليله ونهاره لا يهدأ ولا يفتر من حيث يغفل النظر في شأن تربيتهم وتعليمهم ضنًا بهم أن يزعج نفوسهم بشيء من تكاليف الحياة وأثقالها ، فإذا ذهب لسبيله وخلى بينهم وبين ذلك المال الذي جمعه لهم لا يكون لهم من الشأن فيه أكثر مما يكون لهم لجماعة الحمالين من الشأن في الأثقال التي يحملونها من مكان إلى آخر ، فهم ينقلونه من خزائنه شيئًا فشيئًا إلى خزائن الخمارين والمرابين والعاهرين حتى ينتهوا فإذا فرغوا منه جلسوا في عرصاتهم المقفرة جلسة الباكي الحزين صفر الأكف فارغي الجيوب مطرقي الرؤوس لا حول لهم ولا حيلة ، قد أضاعوا حياتهم وحياة آبائهم وأجدادهم وهدموا في عام واحد أو عامين قرنًا كاملًا مجيدًا من علاه إلى أسفله ، ولا يعلم الله ماذا يكون شأنهم بعد ذلك .

ولو أنه كان يرحمهم رحمة حقيقية ويشفق عليهم إشفاقًا صحيحًا لرحمهم من هذه العاقبة الوخيمة ، وأشفق عليهم من هذا الميراث المشؤوم .

يقولون : إن الفقر يدفع إلى الجرائم والقتل وارتكاب السرقات وأنا أقول : أننا إذا استطعنا أن نفهم الجريمة بمعناها الحقيقي وإلا ينخدع بصور الألفاظ وألوانها علمنا أن للأغنياء جرائم كجرائم الفقراء بل أشد منها خطرًا وأعظم هولًا فإن كان بين الفقراء اللصوص والقتلة والعيارون

وقطاعو الطريق فبين الأغنياء المحتالون والمزورون والمغتصبون والخائنون والمداهنون والمماالئون ، وأصحاب المعامل والشركات الذين يغذون أجسامهم بدماء عالمهم والتجار الذين يسرقون من الأمة في شهر واحد باسم الحرية التجارية مالًا يسرقه جميع لصوص البلد وعياروه في سنة كاملة والقوم والأوصياء الذين يرثون الزكاة من دون وارثيها ويأكلون أموال اليتامى والمعتوهين باسم صيانتها وفي المحافظة عليها والسماسرة الذين يسرقون الأسواق بأجمعها ، والمرابون الذين يختلسون الثروات بأكملها .

على أن جرائم اللصوصية والسرقة ليست جرائم الفقر بل جرائم الغني فلولا شح الأغنياء بأموالهم وكلبهم عليها وحيازتها عدا الفقراء لما وجد في الأرض قاتل ولا سارق ولا قاطع طريق ، ولا يسرق السارق ولا ينهب الناهب ولا يلص اللص إلا جزاء من حقه الذي كان يجب أن يكون له لو كان للمال زكاة وللرحمة سبيل إلى الأفئدة والقلوب لفتح الأغنياء المدارس ولبنوا الملاجئ ولينشئوا المصانع والمعامل للعاطلين والمتشردين وليتعهدوا المنكوبين والساقطين في ميدان الحياة بالمساعدة والمعونة فإن وجدوا بعد ذلك لصوصًا أو قتلة أو مجرمين فليتهموا الفقر ولينعوا عليه جرائمه وآثامه .

لا أريد أن أقول إن الغنى علة فساد الأخلاق ولا أن الفقر علة صلاحها ولكن الذي أستطيع أن أقوله عن تجربة واستقراء أني رأيت كثيرًا من أبناء الفقراء ناجحين ولم أر إلا قليلًا من أبناء الأغنياء عاملين .

إن العلوم والمعارف والمخترعات والمكتشفات المدنية الحديثة بأجمعها حسنة من حسنات الفقر ، وثمرة من ثمراته وما المداد الذي كتبت به المصنفات ودونت به الآثار إلا دموع البؤس والفاقة ، وما الآراء السامية والأفكار الناضجة التي رفعت شأن المدنية الحديثة إلى مستواها الحاضر إلا أبخرة الأدمغة المحترقة غير أن الهموم والأحزان وما تفجرت ينابيع الخيالات الشعرية والتصورات الفنية إلا من صدوع القلوب الكسيرة .

والأفئدة الحزينة ، وما أشرقت شموس الذكاء والعقل في مشارق الأرض ومغاربها إلا من ظلمات الأكواخ الحقيرة والزوايا المهجورة وما نبغ النابغون من فلاسفة وعلماء أو حكماء وأدباء إلا في مهود الفقر وحجور الإملاق ، ولولا الفقر ما كان الغنى ولولا الشقاء ما وجدت السعادة .

إن المجتمع الإنساني اليوم ميدان حرب يعترك فيه الناس ويقتتلون لا يرحم أحدًا أحد ولا يلوي مقبل على مدبر يسدون ويسرعون ، ويتصادمون ويتخبطون ، ويأخذ بعضهم بتلابيب بعض ، كأنهم هاربون من معركة أو مفلتون من مارستان ، ودماء الشرف والفضيلة تسيل تحت أقدامهم ، وتموج موج البحر الزاخر ، يغرق فيه من يغرق ، وينجو من ينجو .

أتدرون لما سقطت الهيئة الاجتماعية هذا السقوط الهائل الذي لم تصل إلى مثله في دور من أدوار حياتها الماضية ولم هذا الجنون الاجتماعي الثائر في أدمغة الناس خاصتهم وعامتهم علمائهم وجهلائهم ولم هذه الحروب القائمة والثورات الدائمة ، والنزاع المستمر بين البشر جماعات وأفراد وقبائل وشعوبًا ممالك ودولًا .

لا سبب لذلك سوى شيء واحد ، وهو أن الناس يعتقدون اعتقادًا خطأ أن المال أساس السعادة وميزانها الذي توزن به فهم يسعون إليه لا من أجل القوت والكفاف كما يجب أن يكون بل من أجل الجمع والادخار والمال في العالم كمية محددة لا تكفي لملء جميع الخزائن وتهدئة كافة المطامع فهم يتخاطفونه ويتناهبونه ويتصارعون من حوله كما تتصارع الكلاب حول الجيف الملقاة ويسمون عملهم هذا تنازع الحياة أو تنازع البقاء وما هو بالتنازع ولا التناظر إنما هو العراك والقتال ، والدم السائل ، والعدوان الدائم ، والشقاء الخالد والعلاج الوحيد لهذه الحالة المخيفة المزعجة وهو أن يفهم الناس أن لا صلة بين المال وبين السعادة ، وأن الإفراط في الطلب كالتقصير فيه ، وأن سعادة العيش وهناءه وراحة النفس وسكونها لا تأتي إلا من طريق واحد وهو الاعتدال .

الآن أستطيع غير خاش لومًا ولا عتبًا أن أقضي للناشئ الفقير على الناشئ الغني قضاء لا مجاملة فيه ولا محاباة من ذا الذي يجامل الفقراء ويحابيهم وأن أقول للناشئ صبرًا يا بني وعزاء فإنك لم تخلق إلا للعمل ، فاعمل واجتهد ، ولا تعتمد في حياتك إلا على نفسك ولا تحصد غير الذي زرعته يدك فإن لم تجد معلمًا يعلمك فعلم نفسك والزمن خير مؤدب ومهذب ، وإن ضاقت بك المدارس فادرس في مدرسة الكون ، ففيها علوم الحياة بأجمعها ،

وإن كنت ممن لا يعدون وظائف الحكومة ومناصبتها غنمًا كما يعدها القعدة العاجزون فيها هو ذا فضاء الأرض أمامك فامش فيه وفتش عن قوتك كما تفتش عنه الطيور القواطع التي ليس لها مثل عقلك وفطنتك وحليتك وقوتك ، فإن الله لم يخلقك في هذا العالم ولم يبرزك في هذا الوجود لتموت فيه جوعًا أو تهلك ظمأ ولا تصدق ما يقولونه لك من أن الناشئ الغني أسعد منك حالًا وأوفر حظًا وإن راقك منظره وأعجبك ظاهره فلكل نفس همومها وآلامها وهموم الفقر على شدتها أقل هموم الحياة وأهونها .

وحسبك من السعادة في الدنيا ضمير نقي ، ونفس هادئة! وقلب شريف وأن تعمل بيدك فترى بعينك ثمرات مجهودك ومساعيك تنمو بين يديك وتترعرع فتغبط بمرآها اغتباط الزارع بمنظر الخضرة والنماء في الأرض التي فلحها بيده وتعهدها بنفسه وسقاها من عرق جبينه .

■ ■ ■

قتيلة الجوع

قرأت في بعض الصحف أن رجال الشرطة عثروا على جثة امرأة في جبل المقطم فظنوها قتيلة أو منتحرة حتى حضر الطبيب ففحص أمرها وقرر أنها ماتت جوعًا .

تلك أول مرة سمعت بمثل هذه الميتة الشنعاء في مصر وهذا أول يوم سجلت فيه يد الدهر في جريدة مصائبنا ورزايانا هذا الشفاء الجديد .

لم تمت هذه المرأة المسكينة في مغارة منقطعة أو بيداء مجهل فتفزع في أمرها إلى قضاء الله وحده بل ماتت بين سمع الناس وبصرهم وفي ملتقى غاديهم برائحهم ولابد أنها مرت قبل موتها بكثير من المنازل تطرقها فلم تسمع مجيبًا ووقفت في طريق كثير من الناس تسألهم المعونة على أمرها فلم تجد من يمد إليها يده بلقمة واحدة تسد بها جوعتها فما أقسى قلب الإنسان وما أبعد الرحمة في فؤاده وما أقدره على الوقوف موقف الثبات والصبر أمام مشاهد البؤس ومواقف الشقاء .

لم ذهبت هذه البائسة المسكينة إلى الجبل في ساعتها الأخيرة لعلها ظنت أن الصخرة ألين قلبًا من الإنسان .

فذهبت إليه تبثه شكواها ، أو أن الوحوش أقرب منه رحمة فجاءته تستمنحه فضلة طعام ، وأحسب لو أن الصخر فهم شكواها لأشكاها ، ولو أن الوحش ألم بسريرة نفسها لرثي لها وحنا عليها لأني لا أعرف مخلوقًا على وجه الأرض يستطيع أن يملك نفسه ودموعه أمام مشهد الجوع وعذابه غير الإنسان .

ألم يلتقي بها أحد في طريقها فيرى صفرة وجهها وترقرق مدامعها وذبول جسمها فيعلم أنها جائعة فيرحمها .

ألم يكن لها جار يسمع أنينها في جوف الليل ويرى غدوها ورواحها حائرة ملتاعة في طلب القوت فيكفيها أمره .

أقفرت البلاد من الخبز والقوت فلا يوجد بين أفراد الأمة جميعها من أصحاب قصورها إلى سكان أكواخها رجل واحد يملك رغيفًا واحدًا زائدًا عن حاجته فيتصدق به عليها .

اللهم لا هذا ولا ذاك فالمال والحمد لله كثير والخير أكثر منه ومواضع الخلات والحاجات بادية مكشوفة يراها الراؤون ويسمع صداها السامعون ولكن الأمة التي ألفت ألا تبزل معروفها إلا في موقف المفاخرة والمكاثرة والتي لا تفهم معنى الإحسان إلا أنه الغل الثقيل الذي يوضع في رقاب الفقراء لاستعبادهم واسترقاقهم لا يمكن أن ينشأ فيها محسن مخلص يحمل بين جنبيه قلبًا رحيمًا .

لقد كان الإحسان في مصر كثيرًا في عصر الاكتتابات والحفلات وفي العهد الذي تسجل فيه حسنات المحسنين على صفحات الصحف تسجيلًا يشهده أربعة عشر مليونًا من الشهود

أما اليوم وقد أصبح كل امرئ موكولًا نفسه ومسؤولًا أمام ربه وضميره أن يتفقد جيرته وأصدقاءه وذوي رحمة ويتلمس موضع خلاتهم وحاجاتهم ليسدها فها هم الفقراء يموتون جوعًا بين تلال الرمال وفوق شقاق الجبال

من حيث لا رحمة ولا معين لقد كان في استطاعة تلك المرأة المسكينة أن تسرق رغيفًا تتبلغ به أو درهمًا تبتاع به رغيفًا فلم تفعل لأنها امرأة شريفة تفضل أن تموت بحسرتها على أن تعيش بعارها فما أعظم جريمة الأمة التي لا يموت فيها جوعًا غير شرفائها وأعفائها .

■ ■ ■

الشاعر سيرانو دي برجراك

للشاعر الفرنسي العظيم إدمون روستان

ملخصة

بقلم المرحوم

مصطفى لطفي المنفلوطي

الإهداء

إلى الشعراء

مؤلف هذه الرواية شاعر وبطلها شاعر ، وأكثر أشخاصها شعراء ، وموضوعها الشعر والأدب ، وعبرتها أن النفس الشعرية هي أجمل شيء في العالم وأبدع صورة رسمتها ريشة المصور الأعظم في لوح الكائنات ، وأنها هي التي يهيم بها الهائمون ، ويتوله المتولهون ، حين يظنون أنهم يعشقون الصور ويستهيمون بمحاسن الوجوه .

لذلك أقدمها هدية إلى الشعراء فهم رجالها وأبطالها وأصحاب الشأن فيها ، ولا أطلب منهم جزاء عليها أكثر من أن أراهم جميعًا في حياتهم الأدبية والاجتماعية : سرانو دي برجراك .

مصطفي لطفي المنفلوطي

أول مايو سنة 1921

مقدمة

أطلعني حضرة الصديق الكريم الدكتور محمد عبد السلام الجندي على هذه الرواية التي عربها عن اللغة الفرنسية تعريبًا حرفيًا حافظ فيه على الأصل محافظة دقيقة ، وطلب إليَّ أن أهذب عبارتها ليقدمها إلى فرقة تمثيلية تقوم بتمثيلها ففعلت ، واستطعت في أثناء ذلك أن أقرأ الراوية قراءة دقيقة ، وأن أستشف أغراضها ومغازيها التي أراد المؤلف أن يضمّنها إياها فأعجبني منها الشيء الكثير ، وأفضل ما أعجبني منها أنها صورت التضحية تصويرًا بديعًا وهي الفضيلة التي أعتقد أنها مصدر جميع الفضائل الإنسانية ونقطة دائرتها ، فرأيت أن أحولها من القالب التمثيلي إلى القالب القصصي ، ليستطيع القارئ أن يراها على صفحات القرطاس كما يستطيع المشاهد أن يراها على مسرح التمثيل ، وقد حافظت على روح الأصل بتمامه وقيدت نفسي به تقييدًا شديدًا ، فلم أتجاوز إلا في حذف جمل لا أهمية لها وزيادة بعض عبارات اضطرتني إليها ضرورة النقل والتحويل واتساق الأغراض والمقاصد ، بدون إخلال بالأصل والخروج عن دائرته ، فمن قرأ التعريب قرأ الأصل الفرنسي بعينه ، إلا ما كان من الفرق بين بلاغة القلمين ومقدرة الكاتبين وما لابد من عروضه على كل منقول من لغة إلى أخرى وخاصة إذا قيّد المعرب نفسه وحبس قلمه عن التصرف والافتنان .

مصطفى لطفي المنفلوطي

أشخاص الرواية

سيرانو دي برجراك

شاعر فرنسي من شعراء القرن السابع عشر نشأ غريبًا في أطواره وأخلاقه منفردًا بصفات قل أن تجتمع لأحد من معاصريه ، فكان جامعًا بين الشجاعة إلى درجة التهور ، والخجل إلى درجة الضعف ، وبين القسوة إلى معاقبة أعدائه على أصغر الهفوات ، والرقة إلى البكاء على بؤس البائسين من أصدقائه وأبناء حرفته ، وكان كريمًا متلافًا لا يبقي على شيء مما في يده ، وعفيفًا لا يمدّ يده إلى مخلوق كائنًا من كان ، وصريحًا لا يتردد لحظة واحدة في مجابهة صاحب العيب بعيبه كيفما كانت النتيجة المترتبة على ذلك ، فكان عدو الكاذبين والمرائين والمغرورين والسفلة والمتملقين ، أي أنه كان عدوًا للهيئة الاجتماعية التي يعيش فيها تقريبًا ، كما كانت عدوة له كذلك ، لا تهدأ عن مشاكسته ومناوأته وابتغاء الغوائل به .

ولم يكن له من الأصدقاء إلا أفراد قلائل جدًا هم الذين يفهمون حقيقة نفسه وجوهرها ويقدرونه قدره وقدر صفاته الكريمة التي كان يتصف بها .

وكان الخلق الغالب عليه من بين جميع أخلاقه خلق العزة والأنفة فكان شديد الاحتفاظ بكرامته والضن بعرضه أن ينال منهما نائل أو يعبث بهما عابث ، وكان لا يرى في أكثر أوقاته إلا مبارزًا أو مناضلًا أو ثائرًا أو مهتاجًا واضعًا يده على مقبض سيفه أو ملقيًا قفازه على وجه خصمه ، شأن الفوارس الأبطال في ذلك العصر .

وكانت بليته العظمى في حياته ومنبع شقائه وبلائه أنه كان دميم الوجه كبير الأنف جدًا إلى درجة تلفت النظر وتستثير الدهشة ، وكان يعلم ذلك من نفسه حق العلم ويتألم بسببه تألمًا كثيرًا لأنه كان عاشقًا لابنة عمه « روكسان » الشهيرة بجمالها النادر وذكائها الخارق ، وكان يعتقد أن المرأة مهما سمت أخلاقها وجلت صفاتها لا يمكن أن تقع في أحبولة غرامية غير أحبولة الجمال ولا تعني بحسن إلا بحسن الوجوه والصور ، فكان وهو أشجع الناس وأجرؤهم وأعظمهم مخاطرة وإقدامًا لا يجسر أن يفاتح حبيبته هذه في شأن حبه حياء من نفسه وخجلًا .

فكان أنفه سبب شقائه من جهتين : أنه وقف عقبة بينه وبين غرامه ، وأنه كان المنفذ العظيم الذي ينحدر منه أعداؤه وخصومه إلى السخرية به والتهكم عليه ، وهو لا يطيق ذلك ولا يحتمله ، فكان النزاع بينه وبينهم دائبًا لا ينقطع ، وكان لا ينتهي غالبًا إلا بمبارزة يخرج منها في الغالب فائزًا منتصرًا ولكن كثير الخصوم والأعداء .

وكان جنديًا في فصيلة شبان الحرس من الجيش الفرنسي ، وكان أفراد تلك الفصيلة جميعهم من الجاسكونين مثله ، وهو قوم معروفون بخشونة الأخلاق ووعورتها وبكثرة التبجح والادعاء والغرور والكذب ، ولهم مع ذلك فضيلة الشجاعة والصبر والقناعة والشرف وعزة النفس ، وكان سيرانو متصفًا بحسناتهم مترفعًا عن سيئاتهم

فكان له في نفوسهم أسمى منزلة من الإجلال والإعظام ، وكانوا يحبونه حبًا شديدًا ويذعنون لرأيه ويستطرفون أحاديثه ودعاباته ويفاخرون به وبنبوغه وشجاعته وجرأته وصراحته ، كما كان يفخر بهم وبعصبيتهم ، وكان من أسوأ الشعراء حظًا في حياته فقد قضى عمره كله خاملًا مغمورًا ، يجهل الدهماء قدره لأنهم لا يفهمونه ، وينكر الأدباء فضله لأنهم يبغضونه ويجدون عليه وينقمون منه خشونته وشدته في مؤاخذتهم ونقدهم ، فلم يكن يحفل بذلك كثيرًا لأنه كان مخلصًا لا يهمه إلا أن يكون عظيمًا في عين نفسه ثم لا يبالي بعد ذلك بما يكون .

وكثيرًا ما كان ينظم الرواية الجليلة ذات المغزى العظيم والأسلوب الرائق فلا يفكر في إهدائها إلى أحد من العظماء ليتوسل بذلك إلى نشرها وترويجها وحمل الفرق التمثيلية على تمثيلها كما كان يفعل الشعراء في عصره ؛ أنفة وإباء وضنًا بنفسه أن يقف موقف الذل والضراعة على أي باب من الأبواب كيفما كان شأنه ، وربما سرق بعض الروائيين قطعًا من رواياته فضمنوها رواياتهم وانتفعوا بها فلا يغضبه ذلك ولا يزعجه ، وكل ما كان يفكر فيه أو يسأل عنه في هذا الموقف : ماذا كان وقع تلك القطعة في نفوس الجماهير حينما سمعوها؟ ولقد أخلص في حبه لابنة عمه « روكسان » إخلاصًا لم يسمع بمثله في تاريخ الحب ؛ فأحبها وهي لا تعلم بحبه ، وتألم في سبيل ذلك الحب ألمًا شديدًا وهي لا تشعر بألمه وأحبت غيره فلم يحقد ولم ينتقم بل كان أكبر عون لها في غرامها الذي اختارته لنفسها ،

ولم يلبث أن اتخذ حبيبها الذي آثرته صديقًا له وأخلص في مودته إخلاصًا عظيمًا وأعانه على استمرار صلته بها وبقاء حبه في قلبها ، لأنه ما كان يهمه شيء في العالم سوى أن يراها سعيدة في حياتها مغتبطة بعيشها ، وهذا كل حظه في الحياة .

ولم يزل هذا شأنه طول حياته حتى خرج من دنياه ولم تعلم روكسان بسريرة نفسه إلا في الساعة الأخيرة التي لا يغني عندها العلم شيئًا .

روكسان

ابنة عم سيرانو دي برجراك ، وهي فتاة شريفة متعلمة وافرة الفضل والذكاء عالية الهمة عفيفة الذيل ، مولعة بالشعر والأدب ، إلا أنها كانت تذهب في ذوقها الأدبي مذهب النساء المتحذلقات في ذلك العصر ، أي أنها كانت كثيرة التكلف في أحاديثها وإشاراتها ، وكان لا يعجبها من الكلام إلا ذلك النوع الذي يسمونه بالصناعة اللفظية ، ولا من المعاني إلا تلك الخيالات الطائرة الهائمة على وجهها التي لا أساس لها في الحياة ولا وجود لها في فطرة النفس وطبيعتها .

وقد نشأت يتيمة منقطعة لا أهل لها ولا أقرباء إلا ابن عمها سيرانو ، إلا أنها كانت تعيش عيشًا رغدًا هنيئًا بفضل الثروة الواسعة التي ورثتها عن أبويها .

فأحبها كثير من النبلاء والأشراف وعرضوا عليها الزواج فلم تحفل بهم وأحبها « الكونت دي جيش » وهو أحد قواد الجيش الفرنسي وكان متزوجًا بابنة أخت الكردينال دي ريشلييه ؛ فأراد أن يستخدم نفوذه وجاهه في حملها على الزواج من فتى من أشياعه اسمه الفيكونت فالفير على الطريقة المعروفة في ذلك العهد عند الملوك والنبلاء ، فدفعته عنها برفق وحكمة خوفًا على نفسها منه ، وظلت تماطله زمنًا طويلًا حتى أحبها البارون كرستيان دي نوفييت فأحبته وأخلصت له إخلاصًا عظيمًا ، ولم يكن في الحقيقة متصفًا بصفات الفطنة والذكاء والنبوغ التي كانت تظنها مجتمعة فيه ، لولا الحيلة الغريبة التي احتالها عليها سيرانو حتى أوهما ذلك ، وهنا نكتة الرواية وبيت قصيدها ، ثم تزوجت منه بعد ذلك زواجًا سريًا ، ولكنها لم تكد تضع شفتها على الكأس حتى انتزعت منها ، وكان هذا آخر عهدها بسعادة الحياة وهنائها .

كرستيان دي نوفييت

نبيلًا من نبلاء الريف وفد إلى باريس ليلتحق بفرقة الحرس من الجيش الفرنسي كما كانت عادة الأشراف في ذلك العهد وهي الفرقة التي كان يعمل فيها سيرانو ، وكان فتى جميل الصورة شريف النفس طيب القلب إلا أنه كان أقرب إلى البلادة منه إلى الذكاء ، فوقع نظره على روكسان في حانة بورجونيا فأحبها وأحبته على البعد ،

وكان قد علم من أمرها أنها فتاة قديرة متفوقة ذكية الفؤاد غزيرة العلم قوية الإرادة ، لا يعجبها من الرجال إلا الأذكياء المتفوقون ، فهاب الدنو منها ومفاتحتها في شأن حبه ، وخشي أن يسقط من عينها سقطة لا قيام له من بعدها ولم يزل هذا شأنه حتى أدركه سيرانو واحتال له تلك الحيلة الغريبة المدهشة التي جعلت روكسان تعتقد أنها قد أحبت أذكى الناس وأسماهم عقلًا وأبعدهم غورًا وأطلقهم لسانًا وأبلغهم قلمًا ، لا يريد بذلك إلا سعادتها وهناءها وهو يتهالك بينه وبين نفسه غمًا وكمدًا ، لأنه وهو ظامئ هيمان يقدم الكأس بيده للشاربين ولا يذوق منها قطرة واحدة .

الكونت دي جيش

أحد قوّاد الجيش الفرنسي وهو من أصل جاسكوني كسيرانو وروكسان ، إلا أنه كان يذهب في حياته مذهبًا غير مذهب أبناء جلدته الجاسكونيين في قناعتهم وخشونتهم وبساطة عيشهم ، بل كان رجلًا واسع المطامع شغوفًا بالمعالي متطلعًا إلى المناصب العليا والمراتب الكبرى ، وقد تم له ما أراد من ذلك بجهده واجتهاده فأصبح قائدًا من قواد الجيش الفرنسي وصهرًا للكردينال دي ريشلييه .

وقد رأى روكسان في طريقه مرة فشغف بها شغفًا عظيمًا ، وأراد أن يضمها إليه من طريق تزويجها من أحد صنائعه فاحتالت للخروج من ذلك المأزق بحيلة لطيفة جدًا ، وتزوجت من الرجل الذي أحبته بمعونة ابن عمها سيرانو ، فعاداها الكونت من أجل ذلك وانتقم منها ومن زوجها ومن سيرانو انتقامًا هائلًا .

لينيير

شاعر مسكين من أصدقاء سيرانو نظم قصيدة طويلة هجا بها الكونت دي جيش وعرض فيها بقصته مع روكسان وفضح جريمته التي أراد أن يقترفها معها ، فحقد عليه الكونت حقدًا شديدًا ، ودس له كمينًا مؤلفًا من مائة رجل ليقتلوه عند رجوعه إلى منزله ليلًا ، لولا أن أدركه سيرانو وأعانه على أعدائه فنجا .

لبريه

أحد أصدقاء سيرانو المخلصين ، ينصحه دائمًا بالهدوء والسكينة وينعي عليه شدته وصرامته في أخلاقه وطباعه ، وينصح له باتخاذ خطة في الحياة تناسب البيئة التي يعيش فيها رحمة بنفسه وإبقاء على راحته وسكونه ، فلا يحفل بنصحه لأن له رأيًا في الحياة غير رأيه ومذهبًا غير مذهبه ، ولم يكن اختلافهما هذا في المشرب والخطة مانعًا لهما من الصداقة والإخلاص ووفاء كل منهما لصاحبه حتى ما كانا يستطيعان الافتراق ساعة واحدة .

مونفلوري

أحد الممثلين في حانة بورجونيا ، وكان مشهورًا بحسن إلقائه لرواية « كلوريز » تأليف الروائي الشهير « بارو » .

وكان سيرانو يبغضه ويستثقل حركاته التمثيلية وينقم عليه إعجابه بنفسه على قبحه ودمامته ، ويأخذ عليه كثرة ترديد نظره أثناء التمثيل في مخادع السيدات يحاول افتتانهن واجتذاب قلوبهن وقد رآه مرة ينظر إلى روكسان نظرة مريبة فتعلل عليه بعض العلل وأمره أن ينقطع عن التمثيل شهرًا كاملًا ، فحاول الامتناع عليه وعصيان أمره فأنزله من المسرح بالقوة وطرده رغم دفاع الكثيرين من الأشراف والنبلاء عنه وخاصة الكونت دي جيش .

راجنو

طباخ مشهور يبيع في حانوته الكبير أفخر أنواع المطاعم من شواء وفطائر ، وحلوى ، وكان محبًا للشعر والأدب والتمثيل عطوفًا على البؤساء من الشعراء والممثلين ، وكان يستقبلهم في حانوته استقبالًا حافلًا ، ويقدم لهم على حسابه ما يقترحون من طعام وشراب ، وكان كل حظه منهم أن يجلس إليهم ويسمع محاوراتهم الأدبية ويلتقط ما يتناثر حولهم من مسودات أشعارهم وفصولهم ويسمعهم ما ينظمه من الشعر الضعيف التافه فيتظاهرون باستحسانه والإعجاب إبقاء على مودته ، حتى أدركته حرفة الأدب فأفلس ، وأغلق حانوته ، فأعانه سيرانو على شؤون حياته وكان من أكبر أنصاره والمتشيعين له ، ولكن الحظ كان قد فارقه فلم ينجح في عمل من الأعمال التي اشتغل بها وظل البؤس ملازمًا له طول حياته .

ليز

زوجة راجنو وهي امرأة فاسدة الأخلاق خبيثة النفس ، كانت تهزأ بزوجها وتسخر منه وتنعي عليه اشتغاله بالشعر والأدب واهتمامه بالشعراء والأدباء وعنايته بهم ، وكانت تفضل أن تقدم هي بنفسها الحانوت كله لضابط من ضباط الجيش تعجب به ، على أن يقدم زوجها راجنو لقمة واحدة منه لأديب من الأدباء ، ولما رأت تضعضع حاله وانتكاس أمره فرت مع أحد ضباط الجيش بعد ذلك .

كاربون دي كاستل

قائد فصيلة شبان الحرس وكان كل أفرادها من الجاسكونيين وهو جاسكوني مثلهم فكان يحبهم حبًا شديدًا ويعطف عليهم ، وكان يعتمد في أعماله على سيرانو ويعده خير جنوده ، والتاريخ يذكر له دفاعه العظيم بفصيلته في ميدان أراس عن الموقع الذي اختار جيش العدو مهاجمته حتى تمّ النصر للراية الفرنسية على الراية الأسبانية .

■ ■ ■

الفصل الأول

1- حانة بوروجونيا

في ليلة من ليالي سنة (1640) بدأ الناس يفدون إلى حانة بوروجونيا في باريس لمشاهدة رواية « كلوريز » ، وهي إحدى روايات الشاعر المشهور « بلتازار بارو » ، ولم يكن للتمثيل في ذلك العصر دور خاصة به ، وإنما كانوا يمثلون في الحانات أو المطاعم الكبيرة على مسارح خاصة يعدونها لذلك .

وكان جمهور المشاهدين في تلك الليلة كما هو شأنهم في جميع الليالي خليطًا من العمال والجنود واللصوص والخدم والأشراف والعلماء والكتاب وأعضاء المجتمع الفرنسي ، وقد اختلط بعضهم ببعض وجلس أخيارهم بجانب أشرارهم ، فبينما العلماء يتناقشون في مباحثهم العلمية ، والأدباء يتحدثون في شؤونهم الأدبية ، إذا فريق من الخدم قد ألصقوا شمعة بالأرض واستداروا حولها حلقة واسعة وأخذوا يقامرون بالمال الذي سرقوه من أسيادهم في ساعات لهوهم واستهتارهم ، وآخرون من أبناء الأشراف قد تماسكوا بأيديهم وظلوا يدورون حول أنفسهم راقصين مترنحين ، وآخرون من الغوغاء يأكلون ويقصفون ويتسابون ويتلاكمون ويجأرون بأصوات عالية متنوعة كأنهم في سوق من أسواق المزايدة وجماعة من الجند يتلهون بالمبارزة والملاكمة لا يبالون من يطأون بأقدامهم ،

أو يصيبون بشفرات سيوفهم ، وفئة من الصعاليك قد اصطفوا صفًا واحدًا بين يدي لص من دهاة اللصوص ومناكيرهم يعلمهم كيف يسرقون الساعات من الصدور ، ويمزقون الجيوب عن الأكياس ، وكيف يتغفلون صاحب المعطف عن معطفه ، والقبعة عن قبعته والعصا عن عصاه ، كأنه يدرب جنوده على الحركات العسكرية .

وفتى من المتأنقين المتطرفين يطارد فتاة المقصف من ركن إلى ركن يحاول إمساكها والعبث بها وهي تتمنع عليه وتتأبى تأبيًا أشبه بالإغراء منه بالامتناع ، وجندي من جنود الحرس قد تغفل البواب عند دخوله وأملس من يده دون أن يدفع إليه شيئًا والبواب يطارده ويلاحقه ويأخذ بتلابيبه فيجادل عن نفسه بأنه حارس الملك وحراس الملك أحرار يدخلون من الأمكنة ما يشاؤون ، وزمرة من المتأدبين قد انتبذوا ناحية من القاعة وأخذوا يندبون الأدب وحظه وشقاء أهليه وبلاءهم ويقول بعضهم لبعض : أليس من مصائب الدهر ورزاياه أن يقف موقف الممثل بين هذا الجمهور الساقط أمثال «منفلوري» و«بلروز» و«بويريه» و«حودليه» ، وأن تمثل على مثل هذا المسرح الحقير المبتذل روايات أكابر الشعراء الروائيين أمثال « روترو » و« كورني » و« بارو » ؟

ولم يكن يضيء تلك القاعة على كبرها واتساعها إلا بضعة مصابيح ضئيلة تتراءى تلك الجماهير على نورها كأنها الأشباح المتحركة ، أو الأرواح الهائمة ، وقد يسمع السامع فيها من حين إلى حين في وسط هذه الضوضاء صوت فتاة المقصف ، وهي تصيح خلف مقصفها بصوتها الدقيق الرنّان : « اللبن » ، « الحلوى » ،

« عصير البرتقال » ، « عصير الرمان » ، « الشواء » ، « الفطير » ، « النبيذ » ، أو صوت شيخ هرم يسب ويحتدم ويضرب الأرض بقدميه ، وهو عاري الرأس منقلب السحنة لأن أحد الجالسين في الطبقة العليا من الملعب قد أرسل على رأسه المستعار شصًا فاجتذبه به وظل معلقًا في الفضاء على مرأى من الجماهير الضاحكين ، أو صارخًا متألمًا قد وضع يده على عينه وظل يصيح واغوثاه واويلتاه لأن بعض المتفرجين صوّب إليها حصاة صغيرة أو نواة فأصابها بها ، إلى أمثال ذلك من صراخ الصارخين وهتاف الهاتفين من جميع جوانب القاعة : أشعلوا الأنوار وارفعوا الستار .

ولم يزل هذا شأنهم حتى دقت الساعة العاشرة من الليل وقرب ميعاد التمثيل فدخل جماعة من الأشراف المتأنقين يجرون أذيالهم ويشمخون بأنوفهم ، ويتأففون لضعف الأنوار وضوضاء الجماهير ، ويصيحون : الطريق الطريق ، أيها الصعاليك ، فتنفرج الصفوف لهم انفراجًا ، حتى بلغوا مكان المسرح فصعدوا عليه وجلسوا فيه على مقاعد متفرقة في أنحائه جلسة باردة وقحة لا أدب فيها ولا احتشام ، وكانت المقاصير في ذلك التاريخ خاصة بالنساء لا يجلس فيها غيرهن إلا مقصورة واحدة بجانب المسرح يجلس فيها الكردينال إذا حضر أو من ينزل منزلته من عظماء المملكة ووجوهها .

■ ■ ■

جلس في ركن من أركان القاعة في تلك الساعة شخصان منفردان أحدهما الشاعر «لينيير» ، وهو رجل بائس مسكين مغرم بالشراب ومعاقرته لا تكاد تفارق يده الكأس ليله ونهاره ، وثانيهما البارون « كرستيان دي نوفييت » وهو فتى من أشراف الريف ، جميل الطلعة حسن الزي والثياب ، إلا أن هندامه على الطراز القديم ؛ حضر من « تورين » إلى باريس منذ عشرين يومًا ليلتحق بفرقة الحرس من الجيش الفرنسي فلم يدخلها إلا صباح اليوم ، فقال الشاعر للبارون : إن صاحبتك لم تحضر حتى الساعة ، وها هي مقصورتها التي أشرت لي إليها لا تزال خالية ، وقد اشتد ظمئي فأذن لي بالذهاب إلى إحدى الحانات القريبة لأتناول قليلًا من الشراب ثم أعود إليك ، فاضطرب كرستيان وشبث بثوبه وقال له : إنك إن ذهبت لن تعود يا لينيير ، وأنا في أشد الحاجة إليك ، فإني أريد أن أعرف من هي؟ وما منبت دوحتها ، وربما بدا لي أن أزورها الليلة في مقصورتها وأتعرف إليها ، وليس في استطاعتي أن أقدم على ذلك وحدي ، فأنت تعلم أنني رجل جندي ساذج حديث عهد بهذا البلد وأهليه وآدابه ومصطلحاته ، ويخيل إليّ ، وإن لم أكن قد حادثتها أو جلست إليها ، أنها فتاة ذكية متوقدة بارعة في أساليب الحديث ومناهجه وأخاف إن أنا لقيتها وحدي أن أضعف أمامها وأضطرب أو أرتبك في حركة من الحركات بين يديها فأسقط من عينها سقطة لا مقيل لي منها أبد الدهر ، فابق معي وكن عونًا لي عليها لتتم بذلك يدك عندي .

وهنا مرت فتاة المقصف حاملة على يديها صينية بيضاء ، وهي تتغنى بصوتها الرقيق الشجي ، فناداها لينيير فدنت منه فسألها عما عندها فظلت تسرد عليه أسماء فطائرها وقدائدها وأشربتها ، وحلواها ، وهو لا يأبه لشيء من ذلك حتى ذكرت له نبيذ « بوردو » فتهلل وجهه وتحلب فوه ، وطلب إليها أن تأتيه بالجيد منه ، فأتت له بما أراد ، فملأ كأسه وبدأ يشرب ويتغنى ، وما هي إلا لحظة حتى قال لكرستيان : الآن أستطيع أن أبقى معك قليلًا أيها الصديق الكريم .

وفي تلك اللحظة دخل القاعة رجل قصير ضخم الجثة غريب الهيئة في ملابس الطهاة وشمائلهم فصرخ الجماهير حين رأوه : راجنو! راجنو! راجنو! فلم يأبه لهم ، ولم يلتفت إليهم ، واندفع مسرعًا إلى لينيير ، وقال له بصوت متهدج مضطرب دون أن يحييه أو يحيي جليسه : ألم تر صديقنا سيرانو يا لينيير؟ قال : لا ، ومالي أراك مضطربًا هكذا كأنك هارب من معركة أو مأخوذ بجريمة ، قال : ما أحسب إلا أنه سيحدث الليلة في هذه القاعة حادث عظيم لا يعلم إلا الله كيف تكون عاقبته ، فانزعج لينيير ، وقال : أي حادث تريد؟ قال : قد علمت الساعة أن سيرانو كان وجد على الممثل مونفلوري منذ أيام في شأن من الشؤون لا أعلمه فحكم عليه بأن ينقطع عن التمثيل شهرًا كاملًا وهدده بالموت إن خالف أمره ، وكنت أظن أن الرجل قد أذعن لهذا الحكم ضنًا بنفسه وبحياته ،

ولكني رأيته الساعة في حجرة الممثلين يترنم بقطعة تمثيلية وأظن أنه سيقوم بتمثيل دوره الذي اعتاد أن يمثله في رواية « كلوريز » ، وهو دور « فيدين » فإن فعل فقد وقعت الكارثة العظمى التي لا حيلة لنا ولا لأحد من الناس في دفعها ، وسيرانو كما نعلم رجل مخاطر جريء لا يبالي بعواقب الأمور ، ولا يفكر في نتائجها ؛ فقهقه لينيير ضاحكًا وقال : يا له من قاض غريب ويا له من حكم عجيب ، هدئ روعك يا صديقي ، فالأمر أهون مما تظن فربما لا يحضر سيرانو أو لا يمثل منفلوري فلا يقع شيء من المكروه الذي تتوقعه .

ثم التفت إلى كرستيان وقال له : أقدم إليك المسيو راجنو طاهي الشعراء والممثلين ، وهو اللقب الذي اختاره لنفسه وعرف به بين الناس جميعًا ، لأنه صديقهم المخلص الذي يحبهم ويكرمهم ويذود عنهم ويفتح لهم باب مطعمه على مصراعيه يأكلون منه ما يشتهون ، ويشربون ما يقترحون لا يتقاضاهم على ذلك أجرًا سوى قصيدة من الشعر يملونها عليه ، أو قطعة تمثيلية يمثلونها بين يديه ، أي أنه يملأ لهم أفواههم طعامًا ، فيملأون له أذنيه كلامًا ، والأذن كما تعلم ليس طريقًا إلى المعدة كالفم ، وهو فوق ذلك شاعر متفنن مطبوع ينظم أكثر شعره في وصف فطائره وحلواه ؛ فانحنى راجنو بين يدي كرستيان وقال : نعم يا سيدي ، إنني صديق الشعراء والممثلين بل عبدهم ومولاهم ، وصنيعة فضلهم وإحسانهم

وإن ساعة أقضيها في حضرتهم أسمع طرائف أشعارهم ، وبدائع فضولهم ، لهي عندي ساعة الحياة التي لا أعدل بها ساعة غيرها ، فشكر له كرستيان فضله وأدبه وأثنى خيرًا على شرف عواطفه واكتمال مروءته ، وما هي إلا كرة الطرف حتى عاد إلى راجنو قلقه واضطرابه وأخذ يدور بعينيه في الجماهير يفتش عن سيرانو ، فقال له لينيير : إنه لم يحضر حتى الآن ، وها هو الوقاد قد بدأ في إشعال المصابيح ، وها هو الستار قد أوشك أن يرتفع ، وما أظنه حاضرًا بعد ذلك .

سيرانو

وكان رجل من الأشراف اسمه المركيز دي جيجي جالسًا على مقربة منهم يسمع حديثهم وينصت لحوارهم فوضع يده على كتف راجنو فالتفت راجنو إليه فقال له :

أتستطيع أن تخبرني من هو سيرانو هذا الذي تتحدثون عنه؟ فهز راجنو رأسه كالمستغرب وقال له : إني لأعجب لأمرك يا سيدي فهي أول مرة سمعت فيها إنسانًا في العالم لا يعرف السيد سيرانو! قال : إنني أعرف عنه شيئًا قليلًا ، وأريد أن أعلم أنبيل هو أم صعلوك؟ قال : إن كنت تريد من النبل شيئًا غير الشرائط والأوسمة والذهب والفضة والحرير والديباج فهو أنبل النبلاء وأشرفهم لأنه جندي شجاع جرئ في موقفه ومشاهده صادق في قوله وفعله ، لا يحابي ولا يجامل ، ولا يتذلل ولا يتزلف ، ولا يخضع في شأن من شؤون حياته إلا للحق الذي يعبده ويدين له ، ولو عرفته يا سيدي لعرفت أفضل الناس خلقًا وأشرفهم نفسًا ، وأطيبهم قلبًا وأشدهم عطفًا على البؤساء والمنكوبين .

وهو فوق ذلك شاعر مجيد ، وعالم فاضل ، وناقد بارع ، وأما شكله فمن أغرب الأشكال وأعجبها ، حتى لو أراد مصورنا العظيم « فيليب دي شامبيني » أن يرسمه كما هو لعجز عن ذلك أو كاد ، فإن الناظر إليه ليعجب كل العجب لمنظر قبعته المحلاة بالريشات الثلاث ، وردائه الملون الجميل ، وقبائه الواسع المسدس الأطراف الذي يرفع مؤخره بطرف سيفه ، ثم يمشي به مختالًا كأنه طاووس يجر ذنبه وراءه وله أنف هائل جدًا لا يراه الرائي حتى يذعر ويرتاع ويقف أمامه مدهوشًا منذهلًا يعجب لصاحبه كيف استطاع أن يحمله في رقعة وجهه وكيف لا يلتمس السبيل إلى الخلاص منه ، أما هو فراض عنه كل الرضا ، لا يشعر بثقله ، ولا يفكر في الخلاص منه بحال من الأحوال ، والويل كل الويل لمن يرفع نظره إليه أو تختلج شفتاه بابتسامة العجب منه أو السخرية به ، فإن رأسه يطير بضربة واحدة من حد سيفه ، فقال له المركيز : كيفما كان الأمر فإنني أستطيع أن أقول لك ، وأنا على ثقة مما أقوم ، إنه أعجز من أن يمنع مونفلوري عن التمثيل بل هو لا يحضر الحفلة الليلة فرارًا من وعيده الكاذب ، فقال راجنو : وأنا أراهن على حضوره بدجاجة مشوية من مطعم « راجنو » الشهير ، ولا أرزؤك دانقًا واحدًا إن أنا ربحت الرهان! ثم أدار ظهره إليه وجلس يتحدث إلى لينيير وكرستيان .

وإنه لكذلك إذ لمح رجلًا مقبلًا على البعد فقال صاحبه : ها هو المسيو « لبريه » صديق المسيو سيرانو الحليم ، فأذنا لي بالذهاب إليه علني أستطيع أن أعلم من شأنه شيئًا ، ثم تركهما وذهب إليه فرآه يقلب نظره في الجماهير ويلتفت يمنة ويسرة فقال له : لعلك تفتش عن سيرانو أيها الصديق؟ قال : نعم وإني قلق من أجله جدًا ؛ قال : قد فتشت عنه قبلك فلم أجده ، ثم انتحى به ناحية من القاعة وجلسا معًا يتحدثان .

روكسان

وهنا ظهرت روكسان في مقصورتها فضج الجمهور حين رآها ضجيج السرور والابتهاج وصاح أحد الأشراف الجالسين على المسرح : آه يا إلهي ، إن جمالها فوق ما يتصور العقل البشري ، وقال آخر : إنها زهرة تبتسم في أشعة الشمس ؛ وقال آخر : إنها روضة يانعة يحمل النسيم رياها العطر إلى القلوب فينعشها ، وكان كرستيان مشغولًا بأداء ثمن الشراب الذي شربه لينيير فلم ينتبه إليها ، ثم التفت فرآها فارتعد واصفر وجهه وأخذ بيد لينيير وقال له : ها هي ذي فقل لي من هي! إنني خائف جدًا يا صديقي فضع يدك على قلبي فما أحسب إلا أنه يحاول الفرار من مكانه رهبة وجزعًا ، حدثني عنها واذكر لي كل ما تعلم من أمرها وارفق بي في حديثك ، حتى لا تقضي على الأمل الوحيد الباقي لي من حياتي .

فقهقه لينيير ضاحكًا وقال له : بخ بخ يا كرستيان ، لقد أحسنت الاختيار لنفسك كل الإحسان وما أحببت إلا أجمل فتاة في فرنسا ، فإن كان صحيحًا ما تقول من أنها تمنحك من ودها مثل ما تمنحها ، وأنها تنظر إليك بمثل العين التي تنظر بها إليها فأنت أحسن الناس حظًا وأسعدهم طالعًا ، إنها السيدة مادلين دي رويان الشهيرة بروكسان ، وهي فتاة عذراء يتيمة لا أهل لها ولا أقرباء سوى ابن عمها سيرانو دي برجراك الذي كانوا يتحدثون عنه الآن ، وهي على فرط جمالها وكثرة محاسنها عفيفة طاهرة الذيل عاقلة رزينة تجلس إلى أذكياء الرجال وتحادثهم وتفتتن بتصوراتهم وأفكارهم ، وتخوض معهم في كل شأن من شؤون الحياة حتى شأن الحب ولكنها لا تأذن لأحد أن يحبها أو يعبث بقلبها ، فإن حاول ذلك منهم محاولة دفعته عنها برقة ورفق وحكمة فسلم لها شرفها وكرمها ، ولا عيب فيها إلا أنها من فريق الأدبيات المتحذلقات اللواتي أفسد الأدباء المتحذلقون أذواقهن الأدبية فذهب التكلف والتعمل في أحاديثهن وحوارهن فلا ينطقن بكلمة صريحة خالية من التشابيه والمجازات والإشارات والكنايات ، ولا يواجهن المعاني التي يردن الأفضاء بها إلى السامعين مواجهة بل يدرن حولها دورات كثيرة حتى يصلن إليها ، فإذا أردن أن يقلن في أحاديثهن العادية : أشرقت الشمس قلن : « ذر قرن الغزالة » أو : أقبل الليل قلن : « هجم جيش الظلام » ، أو طلعت النجوم قلن : « تجلت عروس الزنج في قلائدها الدرية » ، أو : ها هو ذا الكرسي فاجلس عليه قلن : « ها هو الكرسي يفتح ذراعيه لاستقبالك فتفضل بإلقاء نفسك بين أحضانه » .

أي أنهن لا يعجبهن من الألفاظ إلا المتكلف المصنوع ولا من المعاني إلا المجلوب المختصر ولا من الشعراء والكتاب إلا المتكلفون المتشدقون في أساليبهم وتصوراتهم ، وهي سعيدة في عيشها مغتبطة بحياتها لا ينغص عليها صفوها غير هذا الرجل الهمجي المتوحش الذي تراه واقفًا بجانبها الآن ، فالتفت كرستيان فرأى رجلًا رشيقًا متأنقًا حسن الزي والهندام متشحًا بوشاح حريري أزرق متقلدًا سيفًا عسكريًا مرصعًا قد أسند ذراعه إلى ظهر كرسيها كأنه يحتضنها وظل يحادثها بصوت منخفض كأنه يسارها ويناجيها فقال له وهو يرتجف غيظًا وحنقًا : من هذا الرجل؟ وكان لينيير قد ثقل وبدأ يتمتم ويتلعثم بنغمة الفأفأة : إنه الكونت دي جيش أحد قواد الجيش الفرنسي وصهر الكردينال دي ريشيلييه وزير فرنسا العظيم وقد أحب روكسان وأغرم بها غرامًا شديدًا ولما رأى أن لا سبيل له إليها من طريق المخالة لأنها شريفة مترفعة ، ولا من طريق الزواج لأنه متزوج بابنة أخت الكردينال أراد أن يزوجها من رجل ساقط من أشياعه لا تحبه ولا تأبه له اسمه الفيكونت « فالفير » طمعًا في أن ينال منها من طريقه ما لم ينل من طريق آخر فهالها الأمر وتعظمها وأبت أن تذعن لرأيه أو تنزل على حكمه ، ولكنه لا يزال يلح عليها ويضايقها وهي تدافعه عنها بلطف وأدب وحذر واحتياط ، وأخاف إن استمرت هذه الحال أن ينتهي بها الأمر الخضوع والإذعان ؛ لأن الرجل قوي جريء مدل بمكانه من قيادة الجيش وبحظوته عند الكردينال وليس في أنحاء المملكة كلها جميعًا من يجرؤ على التفكير في مشادته أو الخلاف عليه .

ولقد أثرت هذه الحادثة في نفسي تأثيرًا شديدًا وأشفقت على تلك الفتاة المسكينة أن يستبد بها وبمستقبلها رجل جائر متوحش كهذا الرجل فنظمت قصيدة رنانة شرحت فيها قصته معها وهجوته فيها هجاء مرًا لا أحسب أنه يغتفره لي مدى الدهر ، وإن شئت أن تسمع هذه القصيدة فهاكها ، وكان الشراب قد نال منه أقصى مناله فنهض قائمًا على قدميه وأخذ يصوب إلى الكونت نظرة هائلة مخيفة ورفع الكأس بيده وحاول أن يتغنى بقصيدته فأسكته كرستيان وقال له : لا تفعل فإني ذاهب ، قال : إلى أين؟ قال : أفتش عن فالفير ، قال : ماذا تريد منه؟ قال : أقتله ، قال : إني أخاف عليك منه لأنه أقوى منك وربما قتلك ، قال : لا أبالي الموت في سبيلها ، قال : انظر ها هي ذي تنظر إليك وتحدق فيك تحديقًا شديدًا فلا يشغلك شاغل عنها ، أما أنا فإني ذاهب لشأني فإن أصدقائي ينتظرونني في الحال ولا خير لي في الكأس من دونهم ، فأذن لي بالذهاب ، فأذن له وانصرف وظل هو شاخصًا إلى مقصورة روكسان يبادلها نظرات الحب والشغف ، ويفضي إليها من طريق الصمت والسكون بما عجز عن الإفضاء به من طريق الكلام ، وكان الكونت دي جيش قد نزل من مقصورتها ومشى في القاعة يحف به جمع عظيم من حاشيته وأصدقائه يتملقونه ويدهنونه ، وحساده ومنافسوه من نبلاء القوم وأشرافهم يتغامزون عليه فيما بينهم ويرمونه بنظرات الحقد والحرد ويسمونه القائد المغرور مرة والجاسكوني الكذاب أخرى ، حتى إذا مر بين أيديهم نهضوا له إعظامًا وانحنوا بين يديه وداروا به يصانعونه ويماسحونه حتى بلغ مكان المسرح فصعد إليه هو وأتباعه وجلس على كرسيه المعد له ثم التفت حوله وقال :

أين الفيكونت فالفير؟ فأجابه : ها أنذا يا سيدي ، قال : تعال بجانبي لأحدثك قليلًا ، وكان كرستيان واقفًا مكانه ينظر إليه على البعد نظرات الحقد والموجدة ، فما سمع اسم فالفير حتى ثار ثائره وغلى دمه في رأسه ، وعلم أنه قد وجد خصمه ، فوثب من مكانه وثبة عظمى وصاح ها قد عرفته وسألطمه بقفازي على وجهه لطمة هائلة ، ووضع يده في جيبه ليخرج قفازه منه فدهش حين عثرت يده فيه بيد أخرى غريبة فقبض عليها بشدة والتفت وراءه فإذا لص قبيح المنظر زري الهيئة يحاول سرقته ، فصاح فيه : من أنت وماذا تريد؟ فتضعضع الرجل واستخذى واستطير عقله خوفًا ورعبًا ، ثم ما لبث أن عاد إلى نفسه واستجمع قواه وقال له : عفوًا يا سيدي فإني ما أردت سرقتك ، وإنما هو تمرين بسيط فقد تلقيت الساعة أول درس من دروس اللصوصية على أستاذي « بوار » وقد بعثني إليك كما بعث غيري إلى غيرك لا لنسرقكم أو نحول بينكم وبين أموالكم بل لنستوثق من أنفسنا أننا قد حذقنا دروسنا واستظهرنا فاعف عني واغتفر لي هذه الزلة واعلم أن في صدري سرًا هائلًا جدًا ينفعك نفعًا عظيمًا أن أفضي به إليك ، وهو خير لك مني ألف مرة ، فضحك كرستيان طويلًا وقال : أي سر تريد؟ قال : إن صديقك الذي كان جالسًا معك منذ هنيهة وقد نسيت اسمه الآن هو في الساعة الأخيرة من ساعات حياته إن لم تسرع إلى نجدته ، قال : أتريد لينيير؟

قال : نعم ، فدهش كرستيان وقال : لم أفهم ما تريد ، قال إنه كان قد هجا منذ أيام عظيمًا من عظماء هذا البلد بقصيدة مقذعة فحقدها عليه حقدًا شديدًا ورأى أن ينتقم لنفسه منه فأعد له مائة رجل يكمنون له الليلة في جنح الظلام عند باب « نيل » في طريقه إلى منزله ليقتلوه وأنا أحد أولئك الرجال ، فاخرج الآن واطلبه في الحانات التي يجلس فيها وهي المضغط الذهبي والتفاحة الخشبية والحزام الممزق والمشاعل والأقماع الثلاثة ، واترك له بطاقة في كل واحدة منها لتنذره بهذا الخطر الداهم ، قال : ومن هو ذلك العظيم الذي دبر له هذه المكيدة؟ قال : ذلك سر المهنة لا أستطيع أن أبوح به ، فضحك كرستيان وقال : لا حاجة بي إليك فقد عرفته ، ثم خلى سبيله فذهب لشأنه ، والتفت هو إلى مقصورة روكسان فرآها متلفتة إليه لا تكاد ترفع نظرها عنه ، فألقى عليها نظرة حزينة وقال في نفسه : واأسفاه لابد لي أن أتركها الآن ، ثم ألقى على الفيكونت نظرة ملتهبة وقال : وأن أتركه أيضًا ، لأني أريد إنقاذ لينير ، ثم ترك الملعب وانصرف ليفتش عن صديقه في تلك الحانات الخمس .

البطل

بدأ الموسيقيون يوقعون على آلاتهم نغماتهم الرقيقة الشجية وسكنت الجماهير تنتظر رفع الستار ، فهمس لبرية في أذن راجنو : ترى هل يظهر منفلوري على المسرح الآن؟ قال : نعم ما من ذلك بد ، لأنه صاحب الدور الأول في الرواية ، ولأنه قد علم أن سيرانو لا يحضر بعد الآن ، وأظن أني قد خسرت الرهان ، قال : فليكن فقد كنت أتوقع من حضوره شرًا عظيمًا .

وهنا دق الجرس ثلاث دقات ثم ارتفع الستار فظهر منفلوري على المسرح لابسًا ملابس راع وعلى رأسه قبعة محلاة بالورود مائلة إلى أذنه وفي يده أرغول طويل ينفخ فيه ، فصفق له الجمهور تصفيقًا كثيرًا فشكرهم بإيماءة رأسه ، ثم أنشأ يمثل دور فيدين ويتغنى بهذه القطعة : « هنيئًا للذين يبتعدون عن قصور الملوك جهدهم ، بل يعتزلوا العالم بأسره ويفرون منه إلى مكان ناء في منقطع العمران لا يرون فيه غير وجه الطبيعة الجميل » .

وهنا رن صوت عظيم في جوانب القاعة يقول : « ألم أحرم عليك التمثيل شهرًا كاملًا يا منفلوري؟ » ، فدهش الجمهور وجمد منفلوري في مكانه والتفت الناس يمنة ويسرة يفتشون عن صاحب الصوت أين مكانه ، ووقفت النساء في المقاصير ينظرن ماذا جرى ، وهمس راجنو في أذن لبريه ، قد ربحت الرهان يا صديقي فها هو سيرانو قد حضر ، فقال لبريه : ليته لم يحضر وليتك خسرت كل شيء ، وما هي إلا لحظة حتى ظهر سيرانو يتخطى الرقاب ويدفع المقاعد بين يديه دفعًا ويزمجر زمجرة الرعد حتى وصل إلى كرسي أمام المسرح فاعتلاه وهز عصاه الطويلة في وجه الممثل وقال له : اترك المسرح حالًا يا أحقر الممثلين وإلا فأنت أعلم بما يكون ، فسخط جمهور من الناس سخطًا شديدًا وضجوا من كل ناحية : مثل يا منفلوري مثل ولا تخف ، فتشجع منفلوري وعاد إلى التغني بقطعته : « هنيئًا للذين يبتعدون عن قصور الملوك جهدهم ، بل يعتزلوا العالم بأسره .... »

فقاطعه سيرانو وصاح وهو يزأر زئير الليث : كأنك تأبى أيها الغبي الأحمق إلا أن أجعل ظهرك مزرعة لعصاي هذه فاترك المسرح حالًا فقد أوشكت أن أغضب ، فاحتدم الجمهور غيظًا وأخذوا يصيحون : صه أيها المجنون ، مثل يا منفلوري إنه فضول غريب ، إنها سماجة نادرة ؛ فعاد إلى الممثل هدوءه وسكونه ، وعاد إلى التغني بقطعته : « هنيئًا للذين ..... » فما نطق بأول حرف منها حتى وثب سيرانو من كرسيه الذي كان واقفًا عليه إلى أقرب كرسي إلى المسرح وهز عصاه في وجهه وصاح : لا تمثل أيها الدب الهائل ولا تنطق بحرف واحد ، فإن فعلت ضربتك بعصاي هذه على وجهك ضربة لا تعرف من بعدها أي مكان أنفك منك! قد أمرتك وليس في العالم قوة تستطيع أن تعترض أمري .

فطاش عقل منفلوري وتلجلج لسانه والتفت إلى الأشراف الجالسين على المسرح من حوله وقال : النجدة يا سادتي ، فنظر أحدهم إلى سيرانو نظرة عظمة وكبرياء ، وقال له : كفى هذيان أيها الفضولي الثرثار فقد أزعجتنا بضوضائك وكدرت صفونا ، والتفت آخر إلى الممثل وقال له : مثل يا رجل ولا تحفل بشيء فأنا أحميك ، وقال آخر : لقد تجاوز الحد هذا الوقح حتى كاد يفرغ صبرنا ، فاتجه إليهم سيرانو وأنشأ يخاطبهم ويقول : يجب على حضرات السادة الأشراف أن يلزموا أماكنهم ويحافظوا على حيدتهم ، فإني أشعر أن عصاي تتلهف شوقًا إلى التهام شرائطهم وأوسمتهم! فانتفض الأشراف غيظًا وتناهضوا للقيام

وهاج الجمهور هياجًا شديدًا وأحاط جمع عظيم منهم بكرسي سيرانو وأخذوا يصيحون في وجهه ويولولون ويقلدون أصوات الحيوان كالديك والهر والكلب والحمار ، فاستدار نحوهم سيرانو وألقى عليهم نظرة مخيفة فتراجعوا قليلًا إلا أنهم ظلوا مستمرين في هياجهم وضوضائهم وأخذوا يغنون بصوت واحد أنشودة هزلية يقولون فيها : « برغمك يا سيرانو ستمثل رواية كلوريز ، برغمك يا سيرانو سيمثل منفلوري » ، يكررونها مرارًا ، فاستدار إليهم ثانية وزمجر في وجوههم وصرخ فيهم صرخة هائلة وقال : ألا تستطيعون أيها السفلة الأوغاد أن تتركوا سيفي هادئًا في غمده ساعة واحدة؟ لا أحب أن أسمع منكم هذه الأنشودة مرة أخرى وإلا حطمتكم جميعًا ، فقال له أحدهم : إنك لست بشمشوم الجبار الذي ضرب جمعًا عظيمًا من الناس بفك كلب فقتلهم ، فالتفت إليهم وقال : أستطيع أن أكون مثله لو أنك أعرتني فكك يا هذا! ثم التفت إلى منفلوري فرآه لا يزال واقفًا مكانه فقال : يا للعجب ، إنه لم ينفذ أمري حتى الآن إنه يأبى إلا أن أجعل هذا المسرح مائدة أشرح عليها لحمه تشريحًا ، فعاد منفلوري إلى استنجاده واستصراخه وظل يقول : النجدة النجدة ، الغوث الغوث ؛ فازداد غضب الجمهور وهياجهم وأحاطوا بكرسي سيرانو من كل ناحية وأخذوا يهددونه وينذرونه بالويل والثبور ، وعادوا إلى الترنم بأنشودتهم الأولى وتقليد أصوات الحيوان ، فاستدار إليهم فجأة ثم وثب من كرسيه إلى الأرض

وتقدم نحوهم بعصاه فتقهقروا بين يديه حتى اتسعت الدائرة من حوله اتساعًا عظيمًا فصاح فيهم إني آمركم جميعًا أن تسكتوا ، لا ينطق أحد منكم بحرف واحد بعد الآن ، إني أعرف صور وجوهكم جميعًا فليس في استطاعة واحد منكم أن يفلت من يدي ، من ذا الذي يريد أن يكون أول ناطق ليكون أول قتيل؟ ثم مر بهم يتصفح وجوههم واحدًا فواحدًا ويقول : من ذا الذي يريد؟ أنت أيها الفتى؟ أم أنت أيها الكهل؟ أم أنت أيها الشيخ الهرم؟ من منكم يحب أن يكون اسمه أول اسم في جريدة الأموات! لم يجبني أحد بحرف واحد؟ ما سكوتكم؟ أجبتم؟ ما لكم تفرون من وجهي؟ قلدوا أصوات الحيوان ، غنوا الأنشودة الباردة! أرى صمتًا عميقًا وسكونًا سائدًا لا حركة ولا إشارة ؛ أظنهم قد ماتوا من شدة الخوف الآن أستطيع أن أستمر في عملي ، ثم اتجه إلى المسرح وأنشأ يقول بصوت خشن أجش : أيها الأشراف ، أيها الغوغاء ، أيها الرجل ، أيتها النساء ، لا أريد أن أرى على جسم هذا المسرح هذا الدمل القذر الخبيث فإن لم ينفجر من نفسه فجرته بهذا المبضع القاتل ولا أحب أن يعترض أحد منكم على إرادتي أو أخذت البريء بذنب المجرم والجار بذنب الجار ، ثم وضع يده على مقبض سيفه وقد استحالت صورته إلة صورة وحش هائل كشر عن أنيابه للفتك بكل ما يدنو منه ؛ فسكن الجمهور سكونًا عميقًا لا نأمة فيه ولا حركة .

فقال منفلوري بصوت متقطع : إنك بإهانتك إياي يا سيدي قد أهنت الإلهة « نالي » فقال : لا شأن لك بتلك الإلهة أيها الأحمق المأفون ؛ لأنها إلهة التمثيل لا إلهة السخافات ولو أنها شاهدت موقفك هذا وأنت تمثل بهذا الجسم الضخم الغليظ وهذه الحركات الباردة الثقيلة لتناولت مني عصاي هذه وضربتك بها على أحقر عضو في جسمك وها أنا ذا أصفق ثلاث مرات ، وعند التصفيقة الثالثة لابد أن تتلاشى من المسرح يا رأس الثور ، أسمعت؟ فحاول منفلوري أن يتكلم فصفق سيرانو التصفيقة الأولى فطار قلب الممثل فرقًا ورعبًا ، وظل يقلب نظره في الجماهير فلم يجد بينهم معينًا ولا ناصرًا ، فأنشأ يقول بصوت مرتعد : سادتي سادتي .... أيرضيكم أن أهان في حضرتكم وأن يهان الفن على مرأى منكم ومسمع؟ فصفق سيرانو التصفيقة الثانية ، فاشتد اهتمام الجماهير وتطاولت أعناقهم وتحولوا من الهياج والغضب إلى الاهتمام بمعرفة النتيجة وأخذ بعضهم يهمس في أذن بعض بأمثال هذه الكلمات : سيبقى ، سيخرج ، سيجبن ، سيقاوم ، ولا يستطيع البقاء ، لا يليق به الفرار ؛ فحاول منفلوري أن يقول شيئًا آخر ولكنه سمع التصفيقة الثالثة فاختفى من المسرح كأنما قد غاص في مهوى عميق .

فهتف الجمهور لسيرانو هتافًا عظيمًا إلا بضعة أفراد قلائل ، لا بل أخذ الكثير منهم يسب الممثل ويشتمه ويسخر منه ، وجلس سيرانو على كرسيه جلسة الفائز المنتصر ، فتقدم نحوه فتى من المتفرجين وقال له : أتأذن لي يا سيدي أن أسألك ما هو السبب في بغضك منفلوري؟ فصمت سيرانو لحظة ثم ألقى عليه نظرة باسمة هادئة وقال له : عندي لذلك سببان أولهما قبح تمثيله ورداءة حركاته وأنه يغني الشعر العذب الرقيق بصوت مأخوذ مختنق فيفسده على صاحبه وينغصه على الناس ، وأما السبب الثاني فهو سري الخاص الذي لا يمكنني أن أبوح به لأحد ، فتقدم نحوه فتى آخر وقال له : ولكنك حرمتنا على كل حال مشاهدة رواية «كلوريز» وما كنا نؤثر ذلك ولا نرضاه ، قال : أظن أني لم أحرمك شيئًا نفيسًا أيها الفتى ، فإن نظم «بارو» كنثره كلاهما بارد غث لا يساوي شيئًا ولذلك قد كفيتكم وكفيت نفسي مؤونة سماع روايته السخيفة غير آسف عليها ، فصاحت فتاة في المقاصير : من ذا الذي يعيب شاعرنا بارو؟ أيستطيع أحد أن يجرؤ على ذلك؟

وتكلمت فتيات أخريات بمثل كلامها فرفع سيرانو نظره إلى المقاصير وأنشأ يخاطبهن ويقول : لكن يا سيداتي أن تكن جميلات رائعات كما تشأن ، ولكن أن تختلبن الألباب وتستلبن العقول بحسنكن ودلكن ، ولكن أن تبتسمن الابتسامات اللامعة البديعة التي تضيء بنورها ظلمات هذه الحياة ، ولكن أن تبعثن السعادة والغبطة والسرور والبهجة في نفوس الناس جميعًا فيحيوا بفضلكن في هذا العالم حياة المسرة والهناء ،

ولكن أن توحين روح الشعر إلى الشعراء ، وتمليها عليهم بسحركن وفتنتكن فيستطيعوا أن يطيروا بأجنحتهم في أجواء السموات العلا ويشرقوا منها على الدنيا ومن فيها شموسًا وأقمارًا ، لكن كل هذا ، ولكن ليس لكن أن تجلسن في محكمة الشعر لتحكمن في قضية الشعراء .

وكان « بلروز » صاحب الخان واقفًا على مقربة منه فقال له : وما رأيك يا سيدي في المال الذي خسرته الليلة بسببك؟ قال : هذه هي الكلمة الوحيدة المعقولة التي سمعتها الليلة في هذا المكان ، ثم ضرب يده في جيبه فأخرج منه كيسًا مملوءًا فضة ورمى به إليه ، فتهلل بلروز فرحًا وابتهاجًا وقال له : بمثل هذا الثمن آذن لك يا سيدي بالحضور كل ليلة وبتعطيل ما تشاء من الروايات ، ثم التفت إلى المتفرجين ، وقال لهم : قد انتهى التمثيل يا سادتي فهيا جميعًا إلى الباب لتستردوا نقودكم .

الأنفيات

وهنا تقدم رجل زري الهيئة قذر المنظر تلوح على وجهه سمات المهانة والضعة ممزوجة بالوقاحة والسماجة وقال له بصوت خشن أجش : لا يقف موقفك هذا يا سيدي ، ولا يجرؤ على مثل ما جرؤت عليه إلا أحد رجلين : إما عظيم أو صنيعة رجل عظيم ، فهل لم أن تخبرني من هو مولاك الذي أنت صنيعته؟ فعجب سيرانو لأمره

وظل يردد نظره فيه ساعة ، ثم قال له : ما أنا بصنيعة أحد أيها الرجل ، قال : أليس لك سيد يحميك ويرعاك؟ قال : لا ، قال : ألا تلجأ في ساعات شدتك وحرصك إلى نبيل من نبلاء هذا البلد أو أمير من أمرائه يسبل عليك ستر حمايته؟ قال : قلت لك : لا مرتين فهل ترى حتمًا لازمًا أن أقولها لك مائة مرة لتفهمها؟ ثم وضع يده على مقبض سيفه وقال : ليس لي حام ولا سيد غير هذا ، فقال : إذن لا تطلع عليك شمس الغد حتى تكون قد شددت رحلك وتزودت زادك وغادرت باريس إلى بلد ناء لا رجعة لك منه أبد الدهر ، قال : لماذا؟ قال : لأن مونفلوري الذي أهنته الليلة صنيعة رجل عظيم هو « الدوق دي كندال » وذراع هذا الرجل طويلة جدًا تتناول أبعد الأشياء ولو كانت في قرن الشمس ، قال : ولكنها ليست أطول من ذراعي حين أصلها بسيفي ، قال : إنك لا تستطيع أن تزعم في نفسك أنك .... فقاطعه سيرانو وصاح : أستطيع أن أزعم كل شيء أيها الفضولي الثرثار فاغرب عن وجهي واطلب لنفسك طريق الخلاص مني ، فظل الرجل جامدًا مكانه يحدق فيه تحديقًا شديدًا لا يطرف ولا يتحرك ، فانفجر سيرانو غيظًا وانقض عليه وأخذ بتلابيبه وقال له : اخرج من هنا حالًا أو حدثني ما لي أراك تنظر إلى أنفي هذه النظرة المريبة؟ فصعق الرجل في مكانه وظل يرتعد بين يديه ، وكان يعلم كما يعلم الناس جميعًا أن سيرانو لا يغضب لشيء من الأشياء غضبه لأنفه ولا ينتقم لشيء انتقامه له وقال : أنا يا سيدي؟

قال : نعم أنت فما الذي تراه غريبًا فيه؟ قال : إنك واهم يا سيدي فإنني أقسم لك ما فكرت قط في شيء مما تقول ، قال : أتراه رخوًا متهدلًا كخرطوم الفيل؟ قال : لا يا سيدي ، قال : أو محدودبًا كمنقار البومة؟ قال : لا يا سيدي ، قال : أو يخيل إليك أن أرنبته دمل كبير يزعجك منظره؟ قال : أبدًا يا سيدي ، ما فكرت في ذلك قط ، قال : أو يتراءى لك أن الذباب يمشي منزلقًا فوق تضاريسه؟ قال : لا يا سيدي لم يخطر ببالي شيء من ذلك وأقسم لك ، قال : أتراه أعجوبة من أعاجيب الدهر أو فلتة من فلتات الطبيعة؟ قال : لا يا سيدي لا هذا ولا ذاك ، قال : أترى لونه مضرًا بالنظر أو وضعه خارجًا عن الحد أو شكله مخالفًا للآداب العامة؟ قال : آه يا إلهي ، إنني لم أسمح لنفسي بالنظر إليه مطلقًا ، قال : ولم لا تسمح لنفسك بالنظر إليه؟ أتشمئز منه؟ قال : أبدًا يا سيدي أقسم لك ...!! قال : أهو في نظرك كبير جدًا إلى هذا الحد؟ قال : لا بل صغير جدًا لا أكاد أشعر به ، قال : أتهزأ بي أيها الرجل! قال : عفوًا يا سيدي فإني لا أدري ما أقول ، قال : وهل تظن أيها الغبي الأحمق أن الأنف الصغيرة مفخرة من المفاخر التي يعتز بها صاحبها؟ نعم إن أنفي كبير جدًا لا يكبره أنف في هذا البلد ، وذلك ما أفخر به كل الفخر ، لأن الأنف الكبير عنوان الكرم والشرف والشجاعة والشمم ، وأنا ذلك الذي اجتمعت له هذه الصفات جميعها ،

وأما الوجه الكروي الأملس المجرد من هذا العنوان الشريف كوجهك هذا فلا يستحق غير اللطم ، ولطمه على وجهه لطمة هائلة ، ثم وكزه برجله ففر الرجل هاربًا من بين يديه وهو يصيح : النجدة النجدة! فعاد سيرانو إلى مكانه وجلس على كرسيه مفتخرًا وظل يقول : هذا إنذار مني لجميع الفضوليين الثرثارين اللذين يحاولون أن يهزأوا بهذا الموضع الناتيء في وجهي أن لا يفعلوا ، فإن حدثتهم نفوسهم بشيء من ذلك سواء أكانوا من الغوغاء أم من النبلاء فليعلموا أنني لا أسمح لهم بالفرار من يدي كما سمحت لهذا الجبان الرعديد قبل أن أغرس ذباب سيفي في سويداء قلوبهم .

فانتفض الأشراف غيظًا وثاروا من أماكنهم ، وقال الكونت دي جيش : يخيل إليّ أن الرجل قد بدأ يضايقنا ، ثم انحدر من المسرح تتبعه حاشيته حتى دنا من سيرانو والتفت إلى أصحابه وقال لهم : ألا يوجد بينكم من يصلح لمقارعة هذا الرجل؟ فقال الكونت فالفير : أنا صاحبه يا سيدي فانتظر قليلًا فإني سأفوق إليه سهمًا لا قبل له بالنجاة منه ، ثم تقدم نحو سيرانو ، وهو جالس على كرسيه جلسة العظمة والكبرياء وظل يرد النظر في وجهه طويلًا ، ثم قال له : إن أنفك أيها الرجل قبيح جدًا ، فرفع سيرانو نظره إليه بهدوء وسكون ، ثم قهقه قهقهة طويلة وقال : ثم ماذا؟ قال : لا شيء سوى أن أقول لك مرة أخرى : إن أنفك أعجوبة من أعاجيب الزمان ؛ فنهض سيرانو عن كرسيه متثاقلًا وتقدم نحوه خطوة

وألقى عليه نظرة من تلكم النظرات الهائلة التي اعتاد أن يصرع بها خصومه حين يلقيها عليهم وقال له : ثم ماذا؟ فاضطرب الفيكونت وشعر بدبيب الخوف في قلبه وقال : لا شيء ، قال : أهذا هو السهم القاتل الذي أردت أن ترميني به ، لقد كنت أظن أنك أذكى من ذلك ، فازداد اضطراب الفيكونت وقال : وماذا تريد؟ قال : أريد أن أقول لك إن مجال القول في الآناف ذو سعة ، ولو كان عندك ذرة واحدة من الفطنة والذكاء أو أن لك بعض العلم بأساليب الخطاب ومناهجه لاستطعت أن تقول لي في هذا الموضوع شيئًا كثيرًا ، كأن تقول لي مثلًا بلهجة « المتنطعين » : لو كان لي أيها الرجل أنف مثل أنفك هذا لأرحت نفسي والعالم منه بضربة واحدة من حد سيفي ، وبلهجة « المتلطفين » : حبذا لو صنعت يا سيدي لأنفك كأسًا خاصة به فإني أراه يشرب معك من كأسك التي تشرب منها ، وبأسلوب « الواصفين » : ما أرى أنفك إلا صخرة عاتية ، أو هضبة مشرفة ، أو روشنا مطلًا أو رأسًا ناتئًا ، أو لسانًا ممتدًا ، وبنغمة «الفضوليين» : ما هذا الشيء الناتئ في وجهك يا سيدي؟ أمحارة مستطيلة أم دواة للكتابة ، أم صندوق للأمواس ، أم علبة للمقاريض؟ وبلهجة « الماجنين » : أبلغ بك غرامك بالطيور يا سيدي أن تبني لها في وجهك برجًا خاصًا بها لتقع عليه كلما قطعت شوطًا من أشواطها؟ وبأسلوب « المداهنين » :

هنيئًا لك يا سيدي هذا القصر الفخم الذي بنيته لنفسك على هذه الربوة البديعة! وباللهجة الشعرية : أأنفك القيثارة التي توقع عليها إلهة الشعر أنغامها الشجية؟ وبروح السذاجة : في أي ساعة تفتح أبواب هذا الهيكل يا سيدي الحارس؟ وبالبساطة الريفية : ما هذا يا سيدي أأنف ضخم ، أم لفتة كبيرة ، أم شمامة صغيرة؟ وباللهجة العسكرية : صوب هذا المدفع نحو فرقة الفرسان أيها الجندي ، وباللغة المالية : أتريد أن تضع أنفك هذا في « اليانصيب » إنه يكون بلا شك النمرة الكبرى ، وباللغة التمثيلية : أهذا هو الأنف الذي أفسد تخطيط وجه صاحبه فسادًا عظيمًا يا له من مجرم أثيم ، ومعتد زنيم .

ويمكنك أن تقول لي « متعجرفًا » : ألا تخاف أيها الرجل وأنت تنفث دخان لفافتك من هذه المدخنة الضخمة أن يصيح الناس حين يرونك : الحريق الحريق؟ و« متأدبًا » : لقد أخل النتوء البارز في وجهك يا سيدي بتوازن جسمك فاحترس من السقوط ، و« متأنقًا » : ألا يجمل بك يا سيدي أن تضع لأنفك هذا مظلة خاصة به حتى لا يتغير لونه من تأثير حرارة الشمس؟

و« متحذلقًا » : إن الحيوان الضخم الذي سماه الفيلسوف أرستوقان « تيتلخر تيفيلو جملوس » هو الحيوان الوحيد الذي يحمل كمية من اللحم توازن الكمية التي تحملها في وجهك ، و« مازحًا » : ما أجمله مشجبًا لتعليق القلانس والطيالس ، و« مغاليًا » : ليس في استطاعة أي ريح مهما اشتد هبوبها أن تجلب لأنفك الزكام غير ريح السموم ، و« متهكمًا » : ما أجمله إعلانًا لو وضع على واجهة حانوت من حوانيت الروائح العطرية! و« متفجعًا » : ما البحر الأحمر إلا الدم الذي فصد من أنفك .

ذلك ما كان يجب أن تقوله لو كان في رأسك ذرة واحدة من الفطنة والذكاء ، على أنك لو استطعت لحال بينك وبين ذلك الخوف والرعب ، لأنك تعلم أنني إن سمحت لنفسي بالسخرية من نفسي أحيانًا فإنني لا أسمح لأحد بالسخرية مني مطلقًا ، فلقد جمعت في نفسك بين الغباوة والجهل ، والجبن والخور ، حتى لا أحسب أنك لا تحسن هجاء كلمة في اللغة غير كلمة الحماقة ، ولا تحمل في رأسك معنى غير معناها ؛ فجن الكونت دي جيش غيظًا وقال للفيكونت : من رأيي أن نترك هذا المجنون وشأنه فإننا ممتحنون الليلة برجل لابد أن يكون قد أفلت الساعة من يد حارس المارستان ، فقال الفيكونت : إن الذي يغيظني ويؤلمني أن تصدر أمثال هذه الكلمات المملوءة كبرًا وعظمة من حقير مفلوك لا يملك من متاع الدنيا شيء حتى قفازًا في يده ولا يحمل على ثوبه أي علامة من علامات الشرف ؛ فارتعش سيرانو غيظًا ولكنه تجلد واستمسك وأنشأ يقول بصوت هادئ رزين :

نعم أعترف لك يا سيدي بأنني رجل فقير مفلوك لا أملك من متاع الدنيا شيئًا وأنني لا أحمل على صدري أي هنة من تلك الهنات التي تسمونها شارات الشرف ، ولكن ائذن لي أن أقول لك كلمة واحدة ثم أنت وشأنك بعد ذلك .

إنني لا أحفل يا سيدي بالصور والرسوم والأزياء والألوان ، ولا يعنيني جمال الصورة وحسنها ولا برقشة الثياب ونمنمتها ، وحسبي من الجمال أنني رجل شريف مستقيم ، ولا أكذب ولا أتلون ، ولا أداهن ، ولا أتملق وأن نفسي نقية بيضاء غير ملوثة بأدران الرذائل والمفاسد ، فلئن فاتني الوجه الجميل والثوب الملفوف ، والوسام اللامع والجوهر الساطع ، فلم يفتني شرف المبدأ ولا عزة النفس ولا إباء الضيم ولا نقاء الضمير .

إن الجبهة العالية يا سيدي لا تحتاج إلى تاج يزينها ، وإن الصدر المملوء بالشرف والفضيلة لا يحتاج إلى وسام يتلألأ فوقه ، فلينفجر الفاخرون بما شاءوا من فضتهم وذهبهم وألقابهم ومناصبهم ، أما أنا فحسبي من الفخر أنني أستطيع أن أمشي بين الناس برأس عال ، وجبهة مرتفعة ، ونفس مطمئنة ، وثوب نقي أبيض ، لم تعلق به ذرة من غبار ، ولم تلوثه شائبة من شوائب السفالة والدناءة ، لا أهاب شيئًا ، ولا أغضي لشيء ، ولا أخجل من شيء .

نعم إنني لا أملك قفازًا في يدي كما تقول ، ولكن أتدري ما السبب في ذلك؟ السبب فيه أنني قطعت جميع قفازاتي على وجوه السفهاء والفضوليين الذين يعترضون طريقي مثلك عقابًا على وقاحتهم وفضولهم ، ولم يكن باقيًا لي منها حتى ليلة أمس إلا زوج عتيق جدًاحتجت إليه في موقف كموقفي هذا معك فرميت به في وجه أحد السفهاء فلصق بخده فتركته مكانه وانصرفت .

فجن الفيكونت غيظًا وأخذ يهذي ويقول : صعلوك ، بائس ، وقح ، حقير ، سافل ، فانحنى سيرانو بين يديه رافعًا قبعته عن رأسه وقال له : تشرفت بمعرفة اسمك يا سيدي ، أما أنا فاسمي سيرانو سافينيان هركيل دي برجراك الجاسكوني ، فصاح الفيوكونت : صه أيها النذل الساقط ، فجمد سيرانو لحظة ثم انحنى على نفسه وأخذ يتلوى ويصيح كأنما أصيب بألم شديد في بعض أعضائه ، فظن الفيكونت أنه قد عرض له عارض مميت ، فحنا عليه وقال ماذا أصابك؟ فلم يجب ، وظل يصيح ويتأوه ، فقال له : ما مشكلتك أيها المسكين؟ قال : خدر شديد يؤلمني جدًا ، قال : في قدمك؟ قال : لا ، قال : في فخذك؟ قال : لا ، قال : إذن في ذراعك؟ قال : ليته كان كذلك ، قال : قل لي في أي مكان هو؟ قال : في سيفي ، فدهش الفيكونت وقال : وماذا تريد؟ قال : لقد طال لبثه في غمده زمنًا طويلًا فأصابه هذا التنميل الشديد ولا علاج له غير الامتشاق .

المبارزة الشعرية

ففطن الفيكونت لما أراد وعلم أنها المبارزة ما من ذلك بد فتشجع وقال فليكن ما تريد ، قال : أتعلم أنني سأضربك ضربة غريبة لم ير الراؤون مثلها؟ قال : خيال شاعر كذاب ، قال : إن الشاعر لا يكذب ولكنه يقول ما لا يفهمه الأغبياء فيظنونه كاذبًا ، وفي استطاعتي أن أرتجل في أثناء القتال ويدور بيني وبينك موشحًا لا أقول فيه شيئًا إلا فعلته ، وسيكون مركبًا من خمس قطع يبتدئ أولها بابتداء المبارزة وينتهي آخرها بانتهاء حياتك يا فيكونت ،

فصاح الفيكونت كذبت وإنك لأعجز من ذلك ، قال : لم أكذب في حياتي قط ، وها هو ذا عنوان موشحي الجديد وأخذ يلقي العنوان مادًا به صوته كأنما يمثل على مسرح ويقول : « موشح القتال الذي دار بين السيد سيرانو دي برجراك وبين صعلوك من الصعاليك المتنبلين اسمه الفيكونت فالفير في حانة بورجونيا » ثم جرد سيفه وبدأ يقاتل ويلقي موشحه ويوقع ضرباته على نغماته ويقول :

إنني أرمي بهدوء قبعتي ، وأخلع عن منكبي ردائي ، ثم أجرد من غمده سيفي ، ثم أتقدم نحوك رشيقًا كسيلادون وشجاعًا كاسكاريوس ، ولابد أني في المقطع الأخير أصيب .

***

وكان جديرًا بك أن تضن بنفسك على الموت ، إن الموت لابد آت إليك ، لا أدري أين أضع ذباب سيفي من جسمك أفي جنبك تحت ثدييك؟ أم في قلبك سامك على كل حال ففي المقطع الأخير أصيب .

ترسك يرن تحت ضربات سيفي ، ذباب سيفي يلتهب التهابًا ، قلبك يخفق من الرعب والخوف ، فرائصك ترتعد وتضطرب فلابد أني ففي المقطع الأخير أصيب .

***

ها أنت ذا قد بدأت تتقهقر لأنني أفسدت عليك الضربة الوحيدة التي تعرفها ، أوسعت لك المجال فاغتررت وهجمت فلم تلبث أن فشلت وخذلت ، ويل لك من المستقبل المظلم ، فإني في المقطع الأخير أصيب .

***

أسأل الله رحمته وإحسانه ، فها هو ذا الموت يرفرف فوق رأسك قد سددت عليك جميع الأبواب ولم يبق لك حيلة في دفع القضاء ، قد وعدت ولابد أن أفي بوعدي أنني في الكلمة الأخير من المقطع الأخير أصيب .

وهنا ضربه ضربة هائلة اخترقت صدره فسقط يترنح من وقع الضربة وضجت القاعة بالتصفيق والتهليل وأحاط القوم بسيرانو يباركونه ويمسحونه ، وأخذت النساء تنثر عليه الورود والأزهار ، وكانت روكسان أكثرهن اهتمامًا بالمبارزة وأشدهن سرورًا بنتيجتها ، وظل الجماهير يصيحون بأصوات مختلفة : ما أشجعه! ما أشعره! إنه بطل عظيم ، حادث بديع ، منظر جميل ، شاعر وبطل معًا ، لا يقول إلا ما يفعل قد أصابه في الكلمة الأخيرة من المقطع الأخير كما قال ؛ وتقدم نحوه السيد دارتنيان رئيس حراس الملك ومد إليه يده وقال له : ائذن لي يا سيدي أن أشكرك وأصافحك وأقول لك إنك أفضل مبارز رأيته في حياتي ؛ فلم يزد سيرانو على أن ألقى عليه نظرة هادئة ساكنة ومد يده إليه فصافحه بسكون .

ثم أخذ الناس ينصرفون من القاعة تباعًا وكان الممثل منفلوري لا يزال واقفًا في الطريق العام فظلوا يسبونه ويشتمونه كلما مروا به ويعيرونه بالجبن والفرار ، حتى إذا لم يبق في الحانة أحد قال لبريه لسيرانو : هل لك أن تتخلف هنا قليلًا أيها الصديق لأني أريد أن أتحدث إليك في بعض الشؤون؟ فقال سيرانو لصاحب الحانة : أتأذن لنا أن نبقى هنا هنيهة أنا وصديقي لبريه؟ قال : نعم كما تشاء يا سيدي وسأخرج أنا وجماعة الممثلين لنتناول طعام العشاء ونتنزه قليلًا ثم نعود بعد ساعة لتهيئة الرواية المقبلة وصاح بالخدم : أغلقوا الأبواب وأبقوا الأنوار كما هي حتى نعود ، ثم انصرف هو وسائر الممثلين .

سريرة سيرانو

قال لبريه لسيرانو : وأنت ألا تريد أن تتعشى أيضًا؟ قال : لا ، قال : لماذا؟ قال : لأني لا أملك نقودًا ، فقهقه لبريه ضاحكًا ، فدهش سيرانو والتفت إليه وقال له : مم تضحك؟ قال : تذكرت ذلك الموقف الجميل وأنت تخرج كيسك من جيبك وترمي به بكل قواك إلى بلروز وتقول له : خذ أيها الرجل فهو لك ، قال : ألا ترى أنها كانت حركة بديعة ، قال : نعم ، ولكنها لا تغني عن العشاء شيئًا ولا أدري ماذا تصنع بعد اليوم وأنت لا تزال في الأسبوع الأول من الشهر ، ولا أحسب أباك يرسل إليك النفقة الشهرية مرة أخرى ،

وكانت فتاة المقصف واقفة على مقربة منهما تسمع حديثهما دون أن ينتبها لها فتحركت حركة مسموعة فالتفت إليها سيرانو فمشت نحوه ووضعت يدها على كتفه وألقت عليه نظرة عطف وحنو لو أنها ألقتها على وجه غير وجهه لظنها الناس لجمالها ورقتها نظرة حب وغرام وقالت له : أنت ضيفي الليلة يا سيدي ، وها هو ذا الطعام بين يديك فادن من المائدة وتناول منها ما تشاء ، فقال : شكرًا لك يا صديقتي ، وبالرغم من أن عظمتي الجاسكونية لا تسمح لي أن أمد يدي لتناول أي شيء من أي إنسان فإني ألبي دعوتك إبقاء على صداقتك وودك ، ثم تقدم نحو المائدة وتناول ثلاث حبات من العنب وقرصًا صغيرًا وكأسًا من الماء ، وقال : هذا يكفيني ، قالت له : خذ شيئًا آخر ، قال : لا حاجة بي إلى شيء بعد ذلك إلا إلى قبلة من يدك الجميلة فاسمحي لي بها ، وتناول يدها فقبلها ووجهها يلتهب حياءً وخجلًا ، ثم وضع الطعام بين يديه وهو يتمتم بصوت ضعيف ويقول: « لقمة صغيرة لا تملأ معدة طفل وثلاث حبات من العنب لا تملأ الفم ، آه ما أشد جوعي » ، ثم التفت إلى لبريه وقال له : ماذا كنت تريد أن تقول يا لبريه؟ تكلم فإني مصغ إليك ، قال : كنت أريد أن أقول لك ، إن هؤلاء الطائشين المغرورين الذين لا حديث لهم ليلهم ونهارهم إلا حديث الطعن والضرب والمغالبة والمصارعة سيفسدون عليك عقلك ، ويهدمون نظام حياتك ، ولو أنك جريت معهم في هذا المضمار طويلًا ، لكانت عاقبتك أوخم العواقب وأردأها ،

سل العقلاء أصحاب العقول الراجحة والآراء المستحصدة ، ماذا كان وقع حادث الليلة في نفوسهم وخاصة في نفس رجل عاقل كيس كنيافة الكردينال؟ فقال له وكان قد انتهى من طعامه : أكان الكردينال هنا؟ قال : نعم ، ولابد أن يكون رأيه فيك سيئًا جدًا ، قال : لا بل بالعكس ، لأنه شاعر ، والشاعر يعجبه دائمًا أن يرى بعينيه منظر سقوط رواية ينظمها شاعر آخر .

قال : ولكنك قد اتخذت لك الليلة أعداء كثيرين لا أدري ماذا يكون شأنك معهم غدًا ، قال : كم تظنهم على وجه التقريب! قال : أربعين غير النساء ، قال : أذكر لي بعضهم مثلًا ، قال : منفلوري ، دي جيشن ، دي جيجي ، فالفير ، بارو مؤلف الرواية ، الممثلون ، أعضاء المجمع العلمي .... قال : كفى كفى ، فقد فهمت ، إنها نتيجة جميلة جدًا ، كنت أظن أن أعدائي أصغر شأنًا من ذلك ، فعجب لبريه لأمره وقال له : أعترف بك يا سيرانو أنني قد عييت بأمرك إعياءً شديدًا وأصبحت لا أدري إلى أين تصل بك هذه الحالة الغريبة وتلك الأساليب الشاذة ولا أفهم ما هي حقيقة رأيك في الحياة ولا ما هي خطتك التي انتهجتها لنفسك فيها! فأطرق سيرانو لحظة ثم رفع رأسه وقال له : اسمع يا لبريه :

إن الخطط في الحياة كثيرة جدًا ومتشعبة تشبعًا يحار فيه العقل ، ولقد ضللت في مسالكها برهة من الزمن لا أعرف ماذا آخذ منها وماذا أدع ، حتى اهتديت أخيرًا إلى أبسطها وأسهلها ، قال : وما هو؟ قال : هو أن أكون موضع الإعجاب في كل شيء ومن كل إنسان ، قال : فليكن ما تريد ، ولكن على شرط أن تكون أفعالك أشبه بأفعال العقلاء منها بأفعال المجانين ، قال : لا أستطيع أن أعرف الحد الفاصل بين العقل والجنون ، قال : هل لك أن تخبرني لم تضمر في نفسك هذا البغض الشديد لمنفلوري ، وما أذكر أن الرجل أساء إليك في حياته قط؟ قال : أبغضه لأنه وهو ذلك العتل البطين الذي لا تستطيع يده أن تصل إلى سرته يظن نفسه رشيقًا جميلًا يستطيع أن يخلب قلوب النساء ويستهوي ألبابهن بخفته ورشاقته ، فإذا وقف على المسرح للتمثيل ألقى عليهن في مقاصيرهن نظرات كنظرات الضفادع بصورة تعافها الأنفس وتندى لها الوجوه ولقد أضمرت له في نفسي تلك الموجدة منذ الليلة التي رأيته يجترئ على أن يوجه إليها نظراته الخنفسائية البشعة ، فلقد خيل إليّ في تلك الساعة أن دودة سوداء قد دبت من مكانها إلى وردة نضرة ناعمة فلصقت بها فأزعجني هذا المنظر المؤلم إزعاجًا شديدًا ولم أر بدًا من معاقبته على جهله وغباوته فحكمت عليه بالانقطاع عن التمثيل شهرًا كاملًا ، فقال لبريه : ومن هي تلك التي تريد؟

يخيل إلي أنك عاشق يا سيرانو ، فابتسم ابتسامة الممتعض المتألم ثم تنفس تنفسة طويلة كادت تتساقط لها جوانب نفسه وقال : نعم يا لبريه ، إنني أحب حبًا قاتلًا لابد أن يسوقني إلى القبر ، قال : وهل يمكنني أن أعرف من هي تلك التي تحبها؟ فإنك لم تحدثني عنها قبل اليوم ، قال : أي فائدة لي من ذكرها وهي لا تحبني؟ قال : وكيف عرفت ذلك ، هل فاتحتها في شيء؟ قال : وكيف يمكنني أن أفاتحها وأنا أعلم أن هذا الأنف البشع القبيح الذي أحمله يتقدمني حيثما ذهبت وأنى سلكت ، فلا يسمح لي بالطمع في قلب امرأة قبيحة شوهاء فضلًا عن جميلة حسناء؟ قال : ألا يمكنني أن أعرف من هي؟ قال : إذا عرفت أن سيرانو لا يمكن أن يحب إلا أجمل امرأة في العالم أمكنك أن تعرف من هي؟ فصمت لبريه هنيهة وهو يفكر حتى عجز فقال : لم أستطع أن أفهم شيئًا ، فهل لك أن تصفها لي؟ قال : أما هذه فنعم ، هي الخطر العظيم الذي يحيط بالمرء من جميع نواحيه فلا يعرف له سبيلًا إلى الخلاص منه ، هي المغناطيس الجذاب الذي يستهوي قلب الناظر إليه وعقله وجميع حواسه ومشاعره ، هي الوردة النضرة الناعمة التي تكمن حية الحب السامة بين أوراقها ، من رأى ابتسامتها رأى الكمال الإنساني كله ،

ومن رأى نظراتها رأى الدعة واللطف والعذوبة وجميع معاني الحياة اللذيذة ، وفي كل حركة من حركاتها ، وإشاراتها ، ولفته من لفتاتها شمس تضيء الكون وتنير ظلماته ، ليس في استطاعة « الزهرة » ربة الجمال وهي جالسة فوق علياء عرشها العظيم أن تضارعها في بهائها وجلالها . ولا في استطاعة « ديانا » إلهة الحب حين تسير بخفة ورشاقة وسط الرياض الناضرة أن تحاكيها في مشيتها وهي سائرة على قدميها الصغيرتين في مماشي بستانها .

فقال لبريه : حسبك يا سيرانو فإنك تحب ابنة عمك روكسان ، ولكن لا أدري لم لا تفضي إليها بذات نفسك ما دمت تمت إليها بصلة القربى التي بينك وبينها؟ قال : ذلك ما أعجز عنه يا صديقي ، فإنني رجل بائس مسكين قضى الله عليّ أن أعيش في هذا العالم بلا أمل ولا رجاء ، تأمل في وجهي قليلًا وانظر هل يستطيع صاحب مثل هذا الوجه البشع الدميم أن يحيا في العالم حياة الحب والغرام؟ أو أن يكون له أمل في اختلاف الأفئدة واجتذاب القلوب؟ لقد تمر بي في بعض أيامي ساعات أشعر فيها بحاجة قلبي إلى تلك الحياة الحلوة اللذيذة التي يحياها الناس جميعًا حياة الحب والغرام فأدخل إحدى الحدائق العامة وأمشي بين رياضها وأزهارها ، وأتنسم روائحها وأنفاسها ، فأنسى نفسي ويخيل إليّ أني أسبح في جور رائق صاف من العواطف والجدانات فإذا رأيت في ضوء أشعة القمر الفضية امرأة جميلة تمشي وحدها خيل إلي أني أستطيع أن أكون رفيقها الآخذ بذراعها ،

وإذا رأيت فتى وفتاة سائرين على مهل يتهامسان ويتناجيان وتتموج أنوار الحب بينهما خيل إلي أن بجانبي رفيقة حسناء ترفرف علي وعليها هذه الأجنحة البيضاء التي ترفرف عليهما، ثم أستسلم لهذه التصورات والأفكار وأستغرق فيها ساعة طويلة حتى إذا وقع نظري فجأة على خيال وجهي في حائط الحديقة في ضوء القمر عدت إلى صوابي وأفقت من غيبوبتي ورجعت أدراجي إلى منزلي وبي من الحزن ما الله به عليم، ثم نكس رأسه مليًا وصمت عميقًا كأنما يعالج في نفسه ألمًا ممضًا فحنا عليه لبريه، وقال له: رحمة بنفسك يا صديقي، فرفع رأسه وقال: نعم إن آلامي عظيمة جدًا لا يحتملها بشر، فليت الله إذا خلقني على هذه الصورة الدميمة البشعة لم يخلق لي قلبًا خفاقًا، أو ليته إذ خلق لي هذا القلب الخفاق خلق له أجنحة يستطيع أن يطير بها في جو الحب كما تطير القلوب الخوافق؛ أما الآن فإنني أشعر أني وحيد في هذه الدنيا لا سند لي فيها ولا عضد، ولا أنيس ولا عشير، ولا زوجة ولا ولد، ثم عاد إلى إطراقه مرة أخرى وأخذ يبكي فقال له: أتبكي يا سيرانو؟ فانتفض ورفع رأسه وقال: لا يا لبريه، إن البكاء قبيح بمثلي، ولا يوجد في العالم منظر أقبح ولا أسمج من منظر الدمعة الجميلة، وهي سائلة على مثل هذا الأنف الضخم الطويل، لا شيء في العالم أبدع ولا أرق ولا أجمل من الدموع، وإني أضن بها أن أذيلها وأهينها وأكدر صفوها وأشوه جمالها، فتأثر لبريه لمنظره تأثرًا شديدًا وكاد يبكي لبكائه، ولكنه تجلد واستمسك وقال له: لا تحزن يا صديقي ولا تستسلم لهذه الأوهام فما الحب في الدنيا إلا حظوظ وجدود، وقد يأتيك عفوًا ما تظن أنه أبعد الأشياء منالًا منك.

قال : لا أنت مخطئ يا لبريه فإنه لا يجوز لي أن أطمع في حب « كليوباترة » إلا إذا كنت «قيصر» ولا في حب « ببرنيس » إلا إذا كنت « تيتوس » ، قال : إن الله قد وهبك من العقل والذكاء والصفات الكريمة النادرة ما يقوم لك مقام الجمال ، ألم تر تلك الفتاة بائعة الحلوى ، وهي تنظر إليك نظرات الحب والشغف على أثر تلك المبارزة الغريبة التي انتصرت فيها على الفيكونت الليلة؟ كذلك كان شأن روكسان ، فقد شاهدتها وهي تتبع حركاتك أثناء المبارزة باهتمام عظيم وقلقها عليك ظاهر في اضطراب أعضائها واكفهرار وجهها حتى انتصرت على خصمك كانت هي أعظم الناس سرورًا بانتصارك ، فانتعش سيرانو وهدأت نفسه قليلًا ، وقال : أصحيح ما تقوله يا لبريه؟ قال : نعم ولابد أن تكون تلك الحادثة قد تركت في قلبها أثرًا عظيمًا ، فانتهز هذه الفرصة وفاتحها في شأن حبك ، قال : أخاف أن تسخر مني ، وهو الأمر الذي أخشاه أكثر من كل شيء في العالم .

وهنا ظهرت وصيفة روكسان داخلة من الباب الكبير ، ولم تزل سائرة حتى وقفت أمام سيرانو ، فدهش لرؤيتها دهشة عظمى وخفق قلبه خفقًا متداركًا وقال : آه يا إلهي إنها وصيفتها ، وظل يرتعد ويضطرب ؛ فانحنت الوصيفة بين يديه محيية وقالت له : إن سيدتي روكسان تسأل ابن عمها البطل الشجاع سيرانو دي برجراك : متى يمكنها أن تراه غدًا على انفراد لتحادثه في بعش الشؤون؟ وأين يكون مكان الاجتماع؟ فازداد اضطرابه وارتعاده وقال : تراني أنا؟ قالت : نعم في المكان الذي تريده ،

وفي الساعة التي تراها ، قال : آه يا إلهي ، كيف يمكنني أن أصدق ذلك؟ قالت : إنها ستذهب غدًا عند تفتح زهرات الصباح لسماع خطبة الوعظ في كنيسة « سان روك » ففي أي مكان تحب أن تقابلها بعد خروجها من الكنيسة؟ فارتج عليه وظل يهمهم ويتمتم وانتشر عليه رأيه فلم يعرف ماذا يقول ، فقالت له : ما لي أراك مضطربًا هكذا؟ أسرع بالجواب فإنها تنتظرني ، فقال بصوت خافت منقطع : إني أنتظرها في الساعة السابعة من صباح الغد في مطعم راجنو ، قالت : وأين مكان هذا المطعم؟ قال : في رأس شارع سان اتريه ، قالت : سأبلغها ذلك ، وانحنت ثانية بين يديه وانصرفت ، فظل شاخصًا ببصره إلى السماء كالذاهل المشدوه ، وهو يردد بينه وبين نفسه : آه يا إلهي ، كيف يمكنني أن أصدق ذلك؟ إنها أرسلت إليّ وصيفتها تسألني أن أقابلها على انفراد فليت شعري ماذا تريد أن تقول لي؟ فقال له لبريه : تريد أن تقول لك إنها تحبك ، ما في ذلك ريب ، ولقد تنبأت لك بذلك من قبل فلم تصدقني ، قال : كيفما كان الأمر كذلك فحسبي منها أني خطرت ببالها وأنها تعلم أن في العالم إنسانًا اسمه سيرانو ، قال : ما أحسبك إلا راضيًا عن نفسك الآن ولابد أن تكون قد هدأت تلك الثورة التي كانت قائمة في نفسك ،

قال : لا ما هدأت ولا فترت ، بل أصبحت ثائرًا جدًا ، وأشعر أن قوتي قد ازدادت أضعافًا مضاعفة ، فلو لقيت الآن جيشًا كامل العدة والعدد لقهرته وحدي ، ويخيل إلي أن بين جنبي عشرة قلوب ، وأن في منطقتي عشرة سيوف أستطيع أن أقاتل بها جميعًا في آن واحد ، ولا يكفيني أن أحارب الأقزام والضاوين والجبناء كذلك المسخ الذي حاربته الليلة بل لابد لي من جبابرة وعمالقة أفخر بقتالهم والفلج عليهم .

باب نيل

وكان يتكلم بصوت عال رنان ويصرخ صرخات هائلة مزعجة تدوي بها أرجاء القاعة كأنما خيل إليه أنه في ميدان حرب ، وأنه يقاتل في أولئك العمالقة والجبابرة الذين ذكرهم .

وكان الممثلون قد عادوا من نزهتهم ، وأخذوا يهيئون على المسرح الرواية المقبلة فأزعجهم صوت سيرانو ، وهو يصرخ فصاح به أحدهم : ألا تزال باقيًا هنا حتى الآن يا سيرانو؟ لقد أزعجتنا بضوضائك وصخبك فاهدأ قليلًا لنستطيع أن نأخذ في عملنا ، فابتسم سيرانو وقال : عفوًا يا سيدي فسأترك لكم المكان مسرورًا مغتبطًا ، وهمّ بالخروج ، فما راعه إلا جماعة من الجنود والضباط قد دخلوا الحانة يحيطون برجل يترنح سكرًا فتأمله فإذا هو لينيير ، فهرع إليه مذعورًا وقال : ما بك يا صديقي؟ قال بلهجة متثاقلة :

خذ هذه الورقة واقرأها إنها تنذرني بأن مائة رجل يكمنون لي الليلة في طريقي إلى منزلي عند « باب نيل » ليقتلوني بسبب تلك القصيدة التي تعلمها ، فأذن لي بالذهاب إلى منزلك لأنام فيه الليلة ؛ فأطرق سيرانو هنيهة ، وهو يهمهم قائلًا : مائة رجل على رجل واحد؟ ما أجبنهم وأسفل نفوسهم ، ثم رفع رأسه وألقى على لينيير نظرة عالية مترفعة وقال له بهدوء وسكون : لينيير! إنك ستنام الليلة في بيتك ، فلم يفهم غرضه وقال له وهو يترنح ويتملق : ولكنك تعلم يا سيدي أنني رجل ضعيف مسكين لا أقوى على مقاتلة هر فمن لي بلقاء مائة رجل وحدي؟ قال : إنني أنا الذي ألقاهم ، وأنا الذي سأقاتلهم ، فخذ المصباح من يد البواب وسر أمامي ، وأقسم لك أنك ستنام الليلة في بيتك ، وأنني سأمهد لك فراشك بيدي ، لقد كنت أتمنى منذ هنيهة أن أقاتل جيشًا كامل العدة والعدد ، وها هو ذا الجيش الذي كنت أتمناه قد وافاني وحده ، إنني في هذه الليلة بل في هذه الساعة على الأخص لا يجمل بي أن أقاتل أقل من هذا العدد ، فتقدم نحوه لبريه ووضع يده على كتفه وأسر في أذنه :

ألا يستطيع هذا الرجل أن ينام الليلة في غير بيته؟ وهل ترى من اللازم الحتم أن تخاطر بنفسك دفاعًا عن مثل هذا الأبله المأفون ، وكان الممثلون قد نزلوا من المسرح وأقبلوا يشاهدون الحادثة فوضع سيرانو يده على كتف لبريه ، وقال له وهو يبتسم ابتسامة هادئة لطيفة :

إن هذا السكير الذي لا يفيق بل الزق الذي لا ينفد هو أرق الناس قلبًا وأجملهم حسًا وأشرفهم شعورًا ، رأيته مرة وقد خرج من الكنيسة يوم الأحد فرأى المرأة التي يحبها تتناول بيدها اللطيفة قليلًا من الماء المقدس فظل يرقبها حتى انصرفت فهجم على الحوض الذي وضعت يدها فيه ، وما على وجه الأرض شيء أبغض إليه من الماء القراح ؛ فما زال يكرع منه حتى أتى عليه ، فصاحت إحدى الممثلات : ما أجمل هذه الحادثة ، وما أرق هذا الشعور! فالتفت إليها سيرانوا وقال لها : أليس كذلك أيتها الفتاة؟ قالت : وارحمتاه لهذا الرجل المسكين كيف يسمح مائة رجل لأنفسهم أن يتفقوا عليه. ألا تعلم ما هو السبب في ذلك يا سيدي؟ فلم يجبها سيرانو والتفت إلى جماعة من الجند الذين دخلوا مع لينيير وقال لهم : ها أنذا ذاهب إلى المعركة الليلة ؛ فإن شئتم أن تكونوا معي فأنتم وشأنكم ، غير أن لي عليكم شرطًا واحدًا فقط ، هو أنكم مهما رأيتم من الخطر المحدق بي فلا يتقدم أحد منكم لمساعدتي ، وليكن مكانكم مني مكان مراسلي الصحف ومندوبيها في المعارك ، يشاهدونها ولا يقربونها ؛ فقالت الممثلة : هل تأذن لي يا سيدي أن أذهب معكم حيث تذهبون! قال : نعم آذن لك ولكل من أراد منكم ، فصاح الممثلون والموسيقيون جميعًا :

كلنا نذهب معك ؛ فابتهج سيرانو وتهلل وجهه وقال : يا له من موكب شائق بديع ، ثم جرد سيفه من غمده وضرب به الهواء وصاح صيحة القائد في جنده ليتقدم الضابط ثم الجند ثم الممثلون ثم الممثلات ثم الموسيقيون ، وهم يعزفون بألحانهم الحماسية ، وليأخذ كل منكم في يده شمعة أو مصباحًا ، أما أنا فإني قائدكم العام وها هي الريشة التي ناولني إياها يد المجد والفخار ترفرف فوق قبعتي .

فأخذوا يصطفون كما أمرهم ، وهم يمجنون ويضحكون كأنهم ذاهبون إلى مرقص ، وهنا التفت سيرانو إلى الممثلة التي أعجبتها قصة لينيير وقال لها : قد كنت سألتني أيتها الفتاة منذ هنيهة : لم يتفق مائة رجل على رجل واحد مسكين؟ فأقول لك جوابًا على ذلك : إنهم ما فعلوا ذلك من أجله بل من أجلي ؛ لأنهم يعلمون أني صديقه الذي لا يخذله ، ثم أمر البواب أن يفتح الباب الكبير على مصراعيه ففعل فتجلى أمامه منظر باريس العام في ضوء القمر الساطع فوقف هنيهة يتأمل هذا المنظر البديع ويقول : آه لقد طلع البدر وتلألأت أشعته فاختفت باريس المظلمة وحلت باريس المنيرة ، ها هي النجوم اللامعة تسطع في سمائها ، وها هي أشعة القمر تسيل على منحدرات سطوحها ، وها هو نهر السين يرتجف تحت أبخرته البيضاء ارتجاف المرآة السحرية .

إن الطبيعة تهيئ لنا ميدانًا جميلًا للقتال الرهيب فهيا بنا جميعًا إلى « باب نيل » .

ثم مشى فمشى الجميع وراءه ينقلون خطواتهم على نغم الموسيقى .

■ ■ ■

الفصل الثاني

2- المتشاعرون

فتح راجنو طاهي الشعراء والممثلين مطعمه مبكرًا كعادته والطيور لا تزال جاثمة في أوكارها فجلس بين يدي منضدته ينظم على ضوء المصباح قطعة شعرية في وصف « اللوزينج » فكان يكب على أوراقه مرة ليقيد ما حضره من الأبيات ويرفع عينيه إلى السماء أخرى ليستمد من إلهة الشعر روحها ويستهلمها وحيها ، ولم يزل على ذلك ساعة حتى بدأت الشمس ترسل أشعتها الأولى من خلال النوافذ والكوى ودوت في المطبخ جلبة العمال وضوضاؤهم وصلصة الآنية والقدور فألقى قلمه واعتدل في جلسته وتأوه آهة طويلة ثم قال مخاطبًا إلهة الشعر : وداعًا أيتها الإلهة القوية القادرة ، قد انقضى الليل وانقضى سكونه وهدوءه ، وجاء النهار بجلبته وضوضائه فدعيني واذهبي لشأنك غير مقلية ولا مجتواة وموعدنا الليلة المقبلة ، ثم مشى إلى المطبخ فرأى في مدخله إناء من النحاس الأصفر قد ألقت الشمس عليه أشعتها الصفراء فاشتد وميضه ولأؤه فوقف أمامه لحظة يتأمله ويقول : هذه هي الشمس قد استطاعت أن تصنع ما لا يصنعه الكيمائي الماهر ،

فقد حولت النحاس الأصفر بشعاع واحد من أشعتها إلى عسجد وهاج ، ثم قال : ما أجمل هذا المعنى وأبدعه ، لابد لي من تقييده حتى لا يفلت من يدي إذا احتجت إليه ، وأخرج دفتره من جيبه فقيده ، ثم وقف بأحد الغلمان وهو يشق بمدية في يده رغيفًا إلى شقين فقال له : لقد أخطأت القسمة أيها الغلام فالمصراعان غير متوازيين ، ورأى آخر يشوي في نصل واحد ديكًا كبيرًا وعصفورًا صغيرًا فقال : إنها طريقة الشاعر « مالرب » وهي لا تعجبني ، فإما أن يكون البيت تامًا كله أو مجزوءًا كله ، ومر بطباخ يطبخ مرقًا في قدر فتناول الملعقة وأدار ما فيه ثم قال له : ما أرق هذا الحساء! إنه كالشعر المهلهل وأنا لا يعجبني إلا الجزل المتين ، ووقف أحد العمال بين يديه وسأله : كم قيراطًا تحب أن يكون ارتفاع قبة الفالوذج اليوم؟ قال : ثلاثة تفاعيل ، وتقدم بين يديه آخر حاملًا على يديه صينية مغطاة بنسيج رقيق وقال له : لقد اخترعت اليوم هذا الشكل يا سيدي فلعله يعجبك ثم رفع النسيج فإذا قيثارة مصنوعة من الحلوى مغشاة بدقيق السكر الأبيض فتهلل وجهه فرحًا وصاح : فكرة شعرية جميلة لم يسبقك إليها أحد ، وقد أعفيتك اليوم من العمل مكافأة لك على حسن تصورك وسمو خيالك ؛ فاذهب لشأنك وخذ القطعة الفضية واشرب بها نخب الفنون الجميلة .

لم يزل يطوف بالعمال ويخاطبهم بهذا الأسلوب المضحك الغريب ، وهم يتغامزون عليه ويتضاحكون من ورائه حتى خرج فمشى إلى قاعة الطعام فرأى زوجته « ليز » تصفف على المائدة أنواع الحلوى والفطائر والقدائد والرشارش والرقائق وقد اتخذت أوعيتها وأكياسها من صحائف الكتب الأدبية ودواوين الشعراء التي كانت تبتاعها من الوراقين لهذا الغرض ، فألقى على الأكياس نظرة حزينة مكتئبة وقال : أهكذا تصنعين بدواوين أصدقائي الشعراء المجيدين! لقد كنت أتمنى أن أرى وجه الموت قبل أن أرى تلك الأعلاق النفيسة والجواهر المنتقاة أوعية للفطائر والحلوى في حوانيت الطهاة والحلويين فوارحمتاه للأدب وواأسفاه عليه وعلى عهده الزاهر النضير ، فألقت عليه نظرة ازدراء واحتقار وقالت له : إننا ما أردنا إهانة دواوين أصدقائك ولا الزراية بها ولكننا علمنا أنها لم تخلق إلا للعثة والأرضة وأن شعاع الشمس لن يصل إلى مكانها أبد الدهر ، فأردنا أن نحتال على الناس في أمرها فنشرناها من قبورها وقدمناها إليهم لفائف للفطائر والحلوى علهم يلمحونها عرضًا فيقرؤونها ، فليشكر لنا أصدقائك منتنا عليهم ويدنا عندهم ، فاحتد راجنو غيظًا وقال لها: أيتها النملة الضعيفة لا تهيني الثور العظيم فيصرعك بحافره صرعة لا قيامة لك من بعدها ، فقالت : لعنة الله عليك وعلى جميع ثيرانك من عهد هومير إلى عهدك ، وتركته وانصرفت .

وما هي إلا هنيهة حتى دخل المطعم غلام صغير يطلب قرصًا من الحلوى فتناول راجنو أحد الأكياس وتأمله قبل أن يعطيه إياه فوقع نظره على هذه الكلمة : « ولما فارق عولس بينيلوي » فأعاده إلى مكانه وقال : شعر بديع لا أستطيع أن أسمح به ، وتناول كيسًا آخر فقرأ عليه هذا العنون « إلى أبولون » فقال : وأن هذا ، ووضعه مكانه وتناول كيسًا ثالثًا فقرأ عليه : « إلى فيلبس » فقال : ولا هذا أيضًا ، وأراد أن يعيده إلى مكانه فالتفتت إليه زوجته فخافها وأعطاها الغلام فأخذه وانصرف .

ولم يلبث أن تغفل زوجته وعدا وراء الغلام حتى أدركه في الطريق فضرع إليه أن يرد له الكيس فارغًا فأبى الغلام إلا إذا أخذ في مقابله قرصًا آخر أو أخذ القرص بلا ثمن! فرد إليه راجنو الثمن وعاد بالصحيفة فرحًا مغتبطًا يمسح عنها الدهن الذي غمرها ويضمها إلى صدره ويترنم بأبياتها .

الموعد

وإنه لكذلك إذ فتح الباب فجأة سيرانو وهو مصفر الوجه ، شاحب اللون على أثر تلك المعركة الليلة التي دارت بينه وبين أعداء لينير ، فسأل راجنو : كم الساعة الآن؟ قال : السادسة يا سيدي ، وقدم له كرسيًا فجلس عليه ثم وقف بين يديه متأدبًا متخشعًا وقال له : أهنئك يا سيدي بانتصارك العظيم الذي انتصرته ليلة أمس ،

فلقد كانت تلك المعركة أجمل معركة حضرتها في حياتي ، وسيمر بي زمن طويل قبل أن أنساها وأنسى حسنها وجمالها ، فالتفت إليه سيرانو ، وقال : أي معركة تريد؟ قال : معركة « بورجونيا » قال : لعلك تريد المبارزة؟ قال : نعم أريد تلك المبارزة الغريبة التي ألفت فيها بين نغمات سيفك ونغمات شعرك تأليفًا بديعًا كأحسن ما يصنع الموسيقار الماهر وارتجلت فيها ذلك الموشح الجميل الذي لم يسبقك إليه شاعر من قبلك ، كأن إلهة الشعر كانت مرفرفة فوق رأسك تمدك بروحها وقوتها ، فقالت ليز وهي تشير إلى زوجها : نعم يا سيدي إنه ما زال يلهج بتلك الحادثة مذ رآها حتى الساعة لا يفارق خيالها يقظته ولا منامه ، حتى ليخيل إلي أنه قد أصابه مس من الشيطان .

فقال راجنو : نعم إنها لم تفارق خيالي قط ، وما حسدت أحدًا في حياتي على موقف من المواقف حسدي إياك على موقفك هذا ، ثم مد يده إلى المائدة وتناول مدية طويلة وأخذ يلوح بها في الهواء مقبلًا ومدبرًا متقاصرًا متطاولًا كأنما يمثل تلك المبارزة ويترنم في أثناء تمثيله بهذا الشطر : « وفي المقطع الأخير أصيب ، وفي المقطع الأخير أصيب » ثم يقول : ما أجمل هذه النغمة! وما أبلغ هذا الشعر وما أمتن تلك القافية ، وسيرانو ينظر إليه مدهوشًا مستغربًا حتى فرغ من تمثيله ، فقال له : كم الساعة الآن يا راجنو ، ست وعشرون دقيقة يا سيدي ، فقال في نفسه : لم يبق على السابعة إلا القليل ؛

ثم وقف وأخذ يتمشى في أرجاء القاعة ذهابًا وجيئة فمر بليز وهي واقفة بجانب المائدة فلمحت في يده جرحًا داميًا فقالت له : ماذا أصابك يا سيدي ، وما هذا الجرح الذي في يدك؟ قال : خدش بسيط لا أهمية له ، فقالت : يخيل إلي أنك كنت في معركة ، قال : لا ، فقالت : أخاف أن تكون كاذبًا ، قال : هل رأيت أنفي يضطرب؟ تلك هي العلامة الوحيدة للكذب في مذهبي ، ثم التفت إليها وإلى راجنو وقال لهما : إنني أنتظر بعض الناس هنا وأحب أن أكون معهم على انفراد فاتركا القاعة الآن ، فلم يبق على حضوره إلا القليل ، قال راجنو : ولكن ماذا أصنع بشعرائي يا سيدي ، وهم على وشك الحضور الآن ، قال : لا بأس أن يحضروا على شرط أن تأذنهم بالانصراف أو بالتحول إلى غرفة أخرى عندما أشير إليك ، ثم سأله كم الساعة الآن؟ قال : ست وثلاثون دقيقة ، قال : أعطني قلمًا وقرطاسًا فإني أريد أن أكتب شيئًا ، فجاءه بما أراد ، فجلس على منضدة راجنو وأمسك بالقلم وأنشأ يقول بينه وبين نفسه : ليس في استطاعتي أن أفاتحها في شيء مما أحب أن أفاتحها فيه ، فخير لي أن أكتب لها كتابًا أقدمه إليها بنفسي عند حضورها ثم أتركها وأنصرف لشأني لتقرأه وحدها ، وأطرق برأسه ثم تنفس نفسًا طويلًا وقال :

آه ، لقد كنت أظن أنني شجاع جريء لا أهاب الإقدام على أي خطر من الأخطار مهما كان شأنه ، فإذا أنا جبان عاجز لا حول لي فيما يعرض لي من الخطوب ولا حيلة ويخيل إلي أن الموت هو أهون علي من أن أقف أمامها وجهًا لوجه وأفضي إليها بشيء مما يجيش في صدري ،

ثم أكب على المنضدة وحاول أن يكتب شيئًا فازدحمت الأفكار في رأسه وانتشرت عليه خيالاته وتصوراته فلم يستطع أن يكتب حرفًا واحدًا ، فألقى القلم من يده وقال : قبح الله التكلف والتعمل لولا أنها تلميذة « المدرسة القديمة » وأنها من فريق المتأنقين المتشدقين المفتتنين بالصور والأساليب لما وجد قلمي في طريقه ما يعترضه دون الوصول إلى الغاية التي يريدها ، فالكتاب مسطور في صدري بأكمله وليس بيني وبينه إن أردته إلا أن أضع قلبي بجانبي وأستمليه ما يشعر به فيمليه علي ببساطة ووضوح ، ثم تناول القلم مرة أخرى وشرع في الكتابة فإذا هو صوت غليظ أجش يقعقع ناحية الباب « صباح الخير يا ليز » ، فرفع سيرانو رأسه فإذا ضابط ضخم الجثة هائل الخلقة ذو شاربين كثيفين مستطيلين ، فسأل راجنو من الرجل؟ فقال : إنه ضابط من ضباط الجيش الفرنسي يسمي نفسه « الرجل الهائل » وهو كما يزعم بطل من الأبطال المغاوير الذين لم يسمح الدهر بمثلهم في جيش من جيوش العالم ، وهو صديق زوجتي ليز ولا يأتي هنا إلا لزيارتها ، فألقى سيرانو على الضابط نظرة شديدة ثم عاد إلى شأنه واستمر يكتب كتابه ويهمهم بينه وبين نفسه من حين إلى حين بأمثال هذه الكلمات : «أحبك حبًا يعجز القلم عن بيانه لأن القلم مادة من مواد العالم الأرضي والحب روح من أرواح الملأ الأعلى » ،

« لا يرى الناس من عينيك الجميلتين سوى صفائهما ورونقهما ، أما أنا فإني أستشف من ورائهما نفسك الجميلة العذبة المملوءة رقة وشعورًا ؛ فإذا قال الناس ما أجمل عينيها وأحلامها! قلت : ما أجمل نفسها المترقرقة في عينيها ، وما أصفى أديمها! » ، « إنني أعيش في هذا العالم عيش اليائس القانط ، واليأس يقتل الفضائل في النفوس ويميتها ، فأحييني بالأمل واخلقي مني إنسانًا جديدًا تتخذي عندي بل عند العالم أجمع يدًا لا أنساها لك أبد الدهر ، وفي اعتقادي أن ليس بيني وبين أن أكون إنسانًا نافعًا في المجتمع ، بل نعمة على الدنيا بأجمعها إلا أن تسلبي علي ستر حمايتك ورعايتك » .

بؤس الأدباء

وظل مستغرقًا في تصوراته وأفكاره التي كان يرسمها على قرطاسه كما يرسم المصور منظرًا بديعًا من مناظر الطبيعة على لوحته كما يراه لا يزخرف ولا يوشي ولا يبتدع ولا يبتكر فلم ينتبه إلى جماعة الشعراء حين دخلوا الحانوت هاتفين مهللين وهم في ملابسهم الزرية الغبراء ونعالهم البالية وقبعاتهم الممزقة فقالت ليز لزوجها وأشارت إليهم : ها هم صعاليكك وقاذوراتك يا راجنو ، فلم يعبأ بها فقام لاستقبالهم والترحيب بهم فعانقوه فحيوه ودعوه بالزميل والرصيف والصديق وبكل ما يحب من الألقاب والنعوت وهو فرح مغتبط فوقف زعيمهم وسط القاعة وأخذ يتشمم بأنفه ويقول : ما أذكى رائحة بلاطك يا ملك الطهاة والشوائين ،

فانحنى راجنو بين يديه شاكرًا وقال : ما أسعد الساعة التي أراكم فيها أيها الأصدقاء الأوفياء! ثم أشار لهم إلى المائدة فوقفوا حولها وضربوا بأعينهم في أنحائها وظلوا يأكلون ويقصفون ويمزحون ويمجنون فيقول أحدهم وهو يشير إلى قطعة من الحلوى ذات رأس مسنم : إن هذه القطعة لم تحسن وضع قلنسوتها على رأسها فلابد من معاقبتها! فيقول له الآخر : وبم تعاقبها؟ فيقول : بهشم رأسها ، ثم يتناولها فيهشمها كلها رأسًا وجسدًا ؛ وينظر آخر إلى قطعة أخرى محشوة بالقشدة ويضغطها فتبرز قشدتها البيضاء فيقول : ما أجملها! كأنها ثغر ضاحك فلابد لي من تقبيله ، ثم يدينها من فمه ليقبلها ، ويقول آخر وهو ينظر إلى قيثارة الحلوى التي صنعها ذلك العامل في الصباح وأجازه راجنو عليها : كانت القيثارة قبل اليوم غذاء الأرواح ، أما اليوم فهي اليوم غذاء الأجسام ، ثم ينقض عليها فيأكلها وراجنو واقف أمامهم يبتسم ويتهلل ويقول في نفسه : ما أجمل هذه المعاني وأبدعها ، يأبى الشاعر إلا أن يكون شاعرًا في كل موقف وفي كل مقام .

ثم قال : هل تأذنون لي أيها السادة أن أنشد بين أيديكم قصيدتي الجديدة التي نظمتها في وصف « اللوزينج » وسميتها باسمه؟ فصاحوا جميعًا : نعم نعم! ولابد أن تكون قصيدة جميلة لأن عنوانها جميل جدًا فاغتره مدحهم وثناؤهم فرفع عقيرته وأخذ ينشد قصيدته ويرجع في إنشادها ترجيعًا مضحكًا وهم لاهون عنه بشأنهم لا يعبأون به ولا يلتفتون إليه في الفينة بعد الفينة ، فقال له الرجل الهائل : ألا تراهم يا راجنو وهم يلتهمون حلواك وأنت لاه عنهم بألحانك وأغانيك فمشى نحوه وانحنى عليه وألقى في أذنه هذه الكلمات :

إنني أراهم أيها الغبي الأبله ولكنني أغض الطرف عنهم رحمة بهم وإشفاقًا عليهم ، فهم قوم بؤساء معدمون قلما يرون وجه الطعام الشهي إلا في حانوتي وأظنك لا تجهل أن ضيوفي أولى بالتجلة والإكرام من ضيوف زوجتي : وكانا على مقربة من مكان سيرانو فانتبه لكلماته الأخيرة فرفع رأسه وقال له : ادن مني يا راجنو ، فدنا منه فقال له : إنك تعجبني أيها الرجل ، فالشعراء في هذا العالم كالشجرة الوارفة في المهمة القفز ، يفيئ إلى ظلها الغادون والرائحون وهي وحدها التي تحتمل حر الهاجرة ولظاها فرحمة الله ورضوانه على من يحسن إليهم ويتصدق عليهم ، ثم عاد إلى شأنه الذي هو فيه وظل الشعراء يأكلون ويقصفون ويبتاعون ما شاؤوا من فطائر راجنو وحلواه بطرقهم الأدبية وملحهم النادرة حتى فتح الباب ودخل عليهم أحد زملائهم وكان قد تخلف عنهم قليلًا فهللوا حين رأوه وصاحوا بصوت واحد : لقد تأخرت أيها الصديق! قال : قد حال بيني وبين اللحاق بكم ازدحام الناس ازدحامًا شديدًا عند « باب نيل » ؛ قال : وهل حدث شيء هناك؟ قال : نعم ، كان ازدحامهم على ثمانية قتلى وجدوهم هناك مضرجين بدمائهم ، ولا يعلم أحد كيف قتلوا ولا من جنى عليهم هذه الجناية الفظيعة ، فانتبه سيرانو للحديث واعتدل في جلسته وقال في نفسه : يا للعجب ، كنت أظنهم سبعة فقط ، إذًا قد ربحنا واحدًا آخر ، فقال راجنو للمتكلم : وما ظن الناس بهذه الحادثة؟ قال : يقول بعضهم : إن رجلًا واحدًا هو الذي قام بمفرده بمقاتلة هؤلاء اللصوص وكانوا مائة أو يزيدون فانتصر عليهم جميعًا وفرق شملهم وقتل منهم هذا العدد الكثير

ولقد رأينا العصي والخناجر والمدي التي كانت مع أفراد تلك العصابة مبعثرة ههنا وههنا وظل الناس يلتقطون القبعات التي طارت عن رؤوس المنهزمين من باب نيل إلى النهر ، فمشى راجنو إلى سيرانو وقال له : أسامع أنت هذا الحديث يا سيدي! قال : نعم ، فما ظنك ببطل هذه الواقعة! فرفع رأسه إليه وقال : لا أعرفه ، فهرعت ليز إلى صديقها « الرجل الهائل » تسأله : وأنت يا سيدي! فابتسم وفتل شاربيه وغمز بعينيه وقال : أظنني أعرفه .

وكان سيرانو قد أتم كتابه وأراد أن يوقع عليه ثم توقف وقال : لا لزوم للتوقيع لأنني سأقدمه إليها بنفسي ، ثم طواه ووضعه في صدره ونهض قائمًا على قدميه وهتف براجنو فأسرع إليه فسأله : كم الساعة الآن؟ قال : ست وخمسون دقيقة ، فقال في نفسه : لم يبق إلا عشر دقائق ، وأخذ يتمشى في القاعة ذهابًا وجيئة ، وكانت ليز وصديقها الضابط جالسين على انفراد في أحد أركان القاعة فخيل لسيرانو أنه رأى بينهما شيئًا مريبًا ، فدنا منهما ووضع يده على كتف المرأة وقال لها : يخيل إلي أيتها السيدة أن هذا البطل الجالس بجانبك يدبر خطة للهجوم على حصنك ، فانتفضت وتظاهرت بالغضب ، وقالت له : ماذا تقول يا سيدي إن نظرة واحدة مني تكفي لهزيمة من يحاول ذلك ، قال : ولكني أرى عينيك ذابلتين متضعضعتين تلوح عليهما علائم الانكسار ، فاضطربت وحاولت أن تقول شيئًا فخانها صوتها فصمتت ، فقال لها : أيتها الفتاة إن راجنو يعجبني جدًا لذلك لا أسمح لأحد أن يعبث بشرفه أمامي ، ثم التفت إلى الضابط فنظر إليه نظرة شزراء ، وقال : ولقد سمع من كانت له أذنان أليس كذلك أيها « الرجل الهائل » ، ثم تركهما واستمر في سبيله .

فهمست « ليز » في أذن صديقها تقول له : إنك تدهشني جدًا يا صديقي ، ولا أعلم سببًا لسكوتك وصمتك حتى ليخيل إنك تخافه وتخشاه! قل له كلمة تؤلمه وتكسر من شرته أو اسخر من أنفه على الأقل فإنه موضع الضعف منه ، فنظر إليها ذاهلًا مشدوهًا ، وقد سرت في جسمه رعدة شديدة ، وقال : أنفه! لا ، لا ، ما لنا وللسخرية بمصائب الناس وأرزائهم ، ثم تسلل من مكانه وخرج من القاعة ، قد جاء الميعاد يا راجنو ، فهتف راجنو بشعرائه : هيا بنا أيها الأصدقاء إلى الحجرة الثانية ، وأغلق بابها عليهم ، ووقف سيرانو على مقربة من باب المطعم ينتظر قدوم روكسان ويقول في نفسه : لا أعطيها الكتاب إلا إذا رأيت في وجهها بارقة أمل .

اللقاء

وهنا سمع حفيف ثوب مقبل فخفق قلبه خفقانًا شديدًا ، ثم فتح الباب ودخلت روكسان وراء وصيفتها وهي تخطر في مشيتها تلك الخطوة البديعة التي عرفت بها وافتتن بها الناس من أجلها ، وقد أسبلت قناعها على وجهها فحيته فحياها تحية تترجح بين الأدب والكبرياء وأشار لها إلى كرسي قد أعد لها فجلست عليه ، ثم تركها وذهب إلى الوصيفة ، وكانت واقفة على عتبة الباب تقلب نظرها في صنوف الأطعمة المنتشرة على المائدة فقال لها بلهجة المازح المداعب : أشرهة أنت أيتها الفتاة! قالت : نعم يا سيدي إلى الموت ،

فمشى إلى المائدة وتناول كيسين من أكياس الحلوى وقال لها : هاك قصيدتين بديعتين للشاعر « بنسراد » فخذيها ؛ فلم تفهم ما يريد ، وقالت : وما أصنع بهما! قال : قد اتخذتهما « ليز » كما اتخذت غيرهما من قصائد المجيدين أكياس للحلوى وأوعية للفطائر فخذيهما واجلسي خارج الباب فإنك ستجدين فيهما من ألوان الحلوى ما تشتهين ولا تعودي إلا بعد أن تشبعي ، فتلألأ وجهها فرحًا وسرورًا وتناولت الكيسين وعادت أدراجها ، ورجع سيرانو إلى روكسان فوقف بين يديها حاسر الرأس وقال لها : لقد أسديت إلي يا سيدتي بزيارتك هذه نعمة لا أنساها لك مدى الدهر وإني أفتخر بهذه الثقة التي أوليتنيها وأنتظر بكل شوق سماع ما تريدين أن تفضي به إلي ، فحسرت قناعها عن وجهها فأضاء ضوء القمر الساطع في الدجنة الحالكة وقالت له : شكرًا لك يا ابن عمي ، إنك قد أحسنت ، إلي ليلة أمس إحسانًا عظيمًا بقتلك ذلك الفتى الوقح الجريء الذي حاول أن يعبث بك ويستهين بكرامتك فغضبت لنفسك غضبة الأبي الأنوف ، ولم ترم مكانك حتى غسلت بدمه أثر الإهانة التي لحقت بك ، أتعرف هذا الفتى يا سيرانو؟ قال : لا يا سيدتي ، قالت : أبارزته دون أن تعرف اسمه! قال : نعم ، قالت : إنه الفيكونت « فالفير » الذي أراد أحد المغرمين بي من عظماء هذا البلد ، وهو الكونت دي جيش أن يزوجني منه على الرغم مني زواجًا لا أعرف كيف أسميه! قال : زواجًا اسميًا! فأطرقت برأسها حياءً وخجلًا

وقالت : نعم ، فقال : ما أفظع ما تقولين! لقد أصبحت الآن راضيًا عن نفسي كل الرضا في تلك الخطة التي انتهجتها معه والتي انتهت بانتهاء حياته بعدما علمت أنني إنما كنت أقاتل في سبيلك لا في سبيل نفسي وأذود عن عينيك الجميلتين لا عن أنفي ، فاستضحكت وأشارت إلى كرسي بجانبها فجلس عليه صامتًا ساكنًا ينتظر ما تقول .

وساد السكون بينهما هنيهة ، ثم أقبلت عليه وقالت له : كنت أريد أن أقول لك كلمة أخرى يا سيرانو فهل تسمح لي بها؟ قال : نعم أسمح لك بكل شيء فقولي ما تشائين ، قالت : أتذكر تلك الأيام الماضية التي قضيناها معًا ونحن صغيران في « برجراك » في تلك المروج الخضراء على ضفاف البحيرة؟ فانتعشت نفسه وخفق قلبه خفقانًا شديدًا وقال : نعم يا ابنة عمي أيام كنت تأتين هناك مع أبويك لقضاء فصل الصيف في كل عام قالت : إني أذكر تلك الأوقات الجميلة كأنها حاضرة بين يدي وأذكر تلك الأعواد الشائكة التي كنت تقطعها بيديك من أشجار الغاب وتتخذ منها أسيافًا صغيرة تلعب بها في الهواء كأنك تبارز أشباحًا خفية تتراءى لك ، قال : نعم أذكر ذلك ولا أنساه ، وأذكر أنك كنت تجمعين أعواد الذرة من الحقل ثم تجلسين على ضفة البحيرة لتتخذي من خيوطها شعورًا ذهبية لعرائسك الجميلة ، قالت : نعم ما كان أجمل تلك الأيام ، وما كان أسعد ساعاتها! وما كان أحلى مذاق العيش فيها! كان يخيل إليّ في ذلك الوقت أنني صاحبة السلطان المطلق عليك وأنت تحبني حبًا شديدًا وتهتم بشأني اهتمامًا عظيمًا بل تأتمر بأمري في كل ما أشير به عليك وتنزل عند جميع رغباتي وآمالي

وأظن أني كنت جميلة في ذلك الحين أليس كذلك؟ فازداد خفقان قلبه وخيل إليه أنه يرى بين شفتيها ظل تلك الكلمة العذبة التي تلهف شوقًا إلى سماعها من فمها ، فرفع رأسه ونظر إليها نظرة باسمة عذبة وقال : نعم يا سيدتي كما أنت الآن ، قالت : وكنت كثير الشغف بتسلق الأشجار الشائكة والمخاطرة بنفسك في ذلك مخاطرة عظمى فكنت إذا أصابك جرح في يدك هرعت إليك وعطفت عليك عطف الأم الرؤوم على ولدها وأخذت يدك بين يدي هكذا ، ومدت يدها إلى يده فجذبتها إليها فوقع نظرها على ذلك الجرح الدامي الذي أصابه في معركة الليل فدهشت وقالت : ما هذا يا سيرانو؟ ثم ابتسمت وقالت : ألا تزال تتسلق الأشجار حتى الآن! فضحك وقال : نعم لا أزال أحب اللعب حتى الآن ، ولقد لعبت ليلة أمس لعبة شيطانية عند « باب نيل » سفكت فيها دم أعدائي فوق ما سفكوا من دمي أضعافًا مضاعفة ، ثم حاول أن يسترد يده فأمسكت بها ، وقالت له : لابد أن تدعها لي الآن حتى أرى الجرح وأسبره كما كنت أفعل في عهد طفولتي وأعالجه بالطريقة التي كنت أعالج بها جروحك من قبل .

ثم أخرجت منديلها من صدرها وغمست طرفه في قدح الماء وظلت تمسح به الجرح برفق وتؤدة وتقول له : هكذا كنت أعالج جروحك التي كانت تصيبك من تسلق الأشجار الشائكة في عهد طفولتك الأولى ، وهو يرتعد بين يديها ويضطرب من تأثير ملامسة جسمها لجسمه ويقول : نعم يا روكسان ، إنها رحمة لا تكون إلا في قلوب الأمهات ،

قالت : قل لي كم كان عدد أعدائك الذين قاتلتهم في تلك المعركة؟ قال : مائة أو يزيدون ، قالت : مائة! يا للشجاعة النادرة ، قال : وربما كنت لا تعلمين أنها المرة الثانية التي قاتلت فيها من أجلك في ليلة واحدة ، قالت : من أجلي؟ لم أفهم ما تريد ، قال : نعم لأنني كنت أدافع عن ذلك الشاعر المسكين الذي انتصر لك وزاد عنك ومثل بخصمك أقبح تمثيل في قصيدته التي هجاه بها فحقدها عليه ودس له هؤلاء الرعاع ليقتلوه في جنح الظلام ، قالت : ما أعظم شكري لك يا ابن عمي ، وما أكبر شأن تلك النعمة التي أسديتها إلي ، حدثني حديث الواقعة من مبدئها إلى منتهاها فلابد أن تكون وقعة غريبة جدًا لم يسطر التاريخ مثلها ، قال سأحدثك عنها فيما بعد ، أما الآن فحدثيني أنت عن ذلك الأمر الذي جئتني من أجله ، والذي لم تجرئي على أن تفاتحيني فيه حتى الآن ، قالت وهي لا تزال آخذة بيده تمسحها وتستغثها : أما وقد ألقينا نظرة على ماضينا الجميل وجددنا عهد تلك الذكرى القديمة وعلمنا أن الصلة التي بيننا صلة وثيقة محكمة لا تنال منها يد الدهر ولا تأخذ منها عاديات الأيام ، فاسمح لي أن أفضي إليك بسري وأن أقول لك بصراحة إنني عاشقة يا سيرانو ، فتلألأ وجهه وانتعشت نفسه ومشت رعدة خفيفة في أجزاء جسمه وكاد منظره ينم عما في نفسه لولا تجلده واستمساكه وقال لها : ومن هو هذا الإنسان السعيد الذي يتمتع بنعمة حبك؟ قالت : إنه لا يعلم شيئًا مما أضمره له في قلبي حتى الآن ولم أفض إليه بسريرة نفسي حتى الساعة ، وسيكون سروره عظيمًا جدًا حينما يعلم أن الفتاة التي يحبها ويموت وجدًا بها تلك تضمرنا لها ، فازداد سروره وانتعاشه

وقال : ألا تستطيعين أن تقولي لي من هو يا روكسان؟ قالت : سأصفه لك لتكون أول ناطق باسمه ، هو شاب خجول شديد الحياء ، يحبني حبًا يملك عليه حواسه ومشاعره ، ولكنه يكتم سره في صدره ، قال : وكيف وقفت على سريرة نفسه؟ قالت : عرفتها من ارتجاف شفتيه واكفهرار وجهه وتدله نظراته كلما رآني ، قال : ثم ماذا؟ قالت : وهو ذكي نبيه تلوح على وجهه علائم التفوق والنبوغ .

فأطرق برأسه حياء وحاول أن يجتذب يده من يدها وكانت قد انتهت من تضميدها ، فقالت له : دعها لي الآن فهي لا تزال ملتهبة بالحمى ، فتركها لها وهو يقول في نفسه : ما أسعدني وأعظم هنائي ، واستمرت في حديثها تقول : وهو فوق ذلك شجاع مقدام شريف النفس عالي الهمة ، يأبى الضيم ويأنف الذل ، ولا يبيت على ضيم يراد به ، قال : هيه! قالت : وهو جندي في فصيلة شبان الحرس أي فصيلتك يا سيرانو ، فهمهم بين شفتيه : لم يبق في الأمر ريب ، قالت : أما صورته فهي أجمل صورة خلقها الله في العالم ، فصعق عند سماع هذه الكلمة التي ذهبت بجميع آماله وأحلامه وتأوه آهة شديدة كادت تخرج فيها نفسه ، فعجبت لأمره وقالت له : ماذا أصابك يا سيرانو؟ فتراجع إلى نفسه سريعًا واستجمع من قواه في تلك اللحظة ما يعجز أشجع الرجال وأصبرهم عن استجماعه فيها وقال : لا شيء لقد أحسست بوخز في يدي من تأثير الحمى وقد ذهب الآن كل شيء ، وصمت لحظة ثم قال : نعم قد ذهب كل شيء فتحدثي فإني مصغ إليك

قالت : لقد أحببت هذا الفتى حبًا ملك علي عواطفي واستغرق مشاعري ولا عهد لي به إلا منذ أيام قلائل كنت أراه فيها يختلف إلى قاعة التمثيل ، فيجلس منفردًا وحده فأنظر إليه من بعيد ، وقد جئتك الآن لأتحدث إليك في شأنه ، فأطرق هنيهة ، ثم رفع رأسه إليها ، وقال لها بصوت ساكن هادئ : ألم تتحدثي إليه قبل اليوم؟ قالت : لم نتخاطب إلا بالعيون ، قال : وكيف عرفت جميع هذه الصفات التي ذكرتها فيه وما حادثته ولا جلست إليه؟ قالت : سمعتها منذ أيام تحت أشجار الزيزفون في الميدان الملكي في مجتمع العجائز الفضوليات لا حرمنا الله من ثرثرتهن وفضولهن ، قال : وهل هو من فرقة الشبان؟ قالت : نعم شبان الحرس ، قال : أعترف لك يا سيدتي أنني عجزت عن معرفة اسمه فقولي لي من هو؟ قالت : هو « البارون كرستيان دي نوفييت » ، قال : لا أذكر أني سمعت بهذا الاسم قبل اليوم ، قالت : إنه لم يدخل الفرقة إلا في هذا الصباح تحت قيادة « كاربون دي كاستل جالو » فصمت هنيهة ثم نظر إليها نظرة عطف وحنو وقال لها : ولكن يخيل إليَّ يا روكسان أنك تخاطرين بقلبك في هذا الحب مخاطرة عظمى لا تدرين ما عاقبتها ، وأنك تلقين بنفسك في هوة لا تعرفين السبيل إلى الخلاص منها ، وكانت الوصيفة قد فرغت من طعامها في هذه اللحظة فدفعت الباب وأطلت برأسها وقالت : قد أكلت كل شيء يا سيدي ، فماذا أصنع؟

فالتفت إليها وقال : حسبك ذلك فاقرئي ما على الأكياس من الأشعار ، ولا تعودي إلا إذا دعوتك ، فانصرفت وعاد هو إلى إتمام حديثه فقال : أنت يا ابنة عمي فتاة رقيقة الشعور ، ذكية الفؤاد ، لا يعجبك إلا التفوق والنبوغ ولا تأنس نفسك إلا بالذكاء الخارق والفطنة النادرة فماذا يكون شأنك غدًا لو أن ذلك الفتى الذي أحببته واصطفيته كان بليدًا أو غبيًا أو ضعيف الذهن أو خامل الفكر .

قالت : لا يمكن أن يكون كذلك ، قال : لماذا؟ قالت : لأن منظر شعره الذي يشبه صفوته ولمعانه منظر شعر أبطال « أورفيه » يدل على نبوغه وذكائه ، قال : ربما كان جميل الشعر بديع الصورة ولكنه بليد الذهن ضيق العطن ، قالت : لا أظن بل يخيل إلي وإن لم أجلس إليه ولم أسمع حديثه أنه أرق الناس حديثًا ، وأعذبهم سمرًا ، وأفصحهم لسانًا ، وأغزرهم بيانًا ، فقال في نفسه : نعم كل الألفاظ جميلة ما دام الفم الذي ينطق بها جميلًا ، ثم قال لها : ولكن ماذا تصنعين لو تبين لك أنه جاهل أحمق؟ قالت : إذن أموت همًا وكمدًا ، قال : هذا الذي أخاف عليك منه ، وصمت هنيهة وهو يردد بينه وبين نفسه : وارحمتاه لها إنها على شفا الهاوية؟ ثم قال لها : وفي أي شأن من شؤونه تريدين أن تتحدثي إلي؟ قالت : قد علمت بالأمس أمرًا أحزنني جدًا وأقلق مضجعي فلم أطعم الغمض ساعة واحدة ، قال : وما هو؟ قالت : علمت أن جنود فصيلتكم جميعهم من الجاسكونيين الجفاة وأنهم لا يحبون أن يدخل فصيلتهم غريب عنهم ، فإذا دخل ناوأوه وشاكسوه حتى يحرجوه ،

وربما تعللوا عليه العلل فبارزوه وقتلوه ؛ ففطن لغرضها وقال : نعم إنهم قد يفعلون ذلك ولهم الحق فيما يفعلون ، وخاصة إذا كان هذا الواغل عليهم أحد أولئك الأغبياء الجهلاء الذين ينتظمون في سلك الفرقة من طريق الشفاعات والوصايات لا من طريق الكفاءة والاستحقاق ، قالت : ذلك ما جئتك من أجله ، فقد أعجبني موقفك الشريف الذي وقفته ليلة أمس أمام ذلك الفتى الوقح البذيء الذي حاول أن يهزأ بك وينال من كرامتك ، وامتلأ قلبي ثقة بما كنت لا أزال أعرفه لك طول حياتك من الشجاعة والحمية وعلو الهمة وإباء الضيم فأتيت إليك أسألك أن تتولى كرستيان بحمايتك .

فصمت سيرانو لحظة ذهبت نفسه فيها كل مذهب وتمثلت له روكسان في صورتين مختلفتين قد وقفت إحداهما بجانب الأخرى : صورة امرأة عاشقة مستهترة تريد أن تسخره في غرض من أغراضها الغرامية وتطلب إليه أن يضع يده في تلك اليد التي قتلته وأتلفت عليه نفسه وأن يكون صديقًا لذلك الفتى الذي حرمه سعادته وهناءه وقطع عليه سبيل حياته ووقف عقبة بينه وبين آماله وأمانيه ، وصورة امرأة مسكينة ضعيفة من أقربائه وذوي رحمه قد نزلت بها نكبة من النكبات العظام ففزعت إليه فيها تسأله أن يعينها عليها ثقة منها بفضله وكرمه ، وهمته ومروءته ، وهي لا تعلم من شؤون قلبه شيئًا ، ولا تدري أن هذا الذي تفزع إليه فيه إنما هي نفسه التي بين جنبيه وحياته التي لا يملك في يده حياة غيرها .

ثم ما لبث أن رأى الصورة الأولى تتضاءل في نظره وتتصاغر حتى تلاشت واضمحلت ، وظلت الثانية ثابتة في مكانها بارزة واضحة إليه نظرة الضراعة والاسترحام وتبسط إليه يد الرجاء والأمل ، فالتفت إليها وقد هبت من بين أردانه رائحة الكرم وقال لها بصوت قوي رنان لا تتخلله رنة الحزن ولا تمازجه نغمة اليأس « كوني مطمئنة يا روكسان فإني سأتولى حمايته » ، وما علم أنه قد نطق في نطقه بهذه الكلمة بحكم الموت على نفسه .

فقالت له : شكرًا لك يا ابن عمي فسأعتمد على وعدك ما حييت ، قال : اعتمدي ما شئت ، قالت : وكن صديقه الوفي الذي يأخذ بيده في جميع شدائده ومخاطره ، قال : بل أصدق أصدقائه ، قالت : وحل بينه وبين التعرض لأخطار المبارزات والمشاجرات ، قال : إنه لن يبارز قط ، قالت : أتقسم لي؟ قال : لا ؛ لأني ما تعودت الكذب ، فتلألأ وجهها فرحًا وسرورًا وقالت : الآن يمكنني أن أنصرف آمنة مطمئنة شاكرة لك فضلك الذي لا أنساه قط ، ثم تناولت برقعها فألقته على وجهها وهي تقول : إنك لم تتمم لي حديث الواقعة التي جرحت فيها فحدثني عنها قليلًا .

يا للعجب! مائة رجل كانوا ضدك؟ إنك كفء لكل عظيمة يا ابن العم ، لا تنس أن تقول له أن يكتب إلي اليوم كتابًا! حدثني حديث الواقعة يا صديقي ، مائة رجل؟ يا للشجاعة النادرة! إن كرستيان لا يعلم أني أحبه حتى الساعة ، فكن أول من يحمل إليه هذه البشرى ، قل لي كيف استطعت أن تلقي وحدك هذا العدد الكثير أو قل لي ذلك فيما بعد لأني تأخرت كثيرًا ، ولابد لي من الذهاب الآن .

ثم نهضت ومدت يدها فقبلها ، فقالت : إلى اللقاء يا ابن العم إني أنتظر من كرستيان كتابًا اليوم ، ثم انصرفت ، فوقف على عتبة الباب ، يشيعها بنظراته حتى غابت عن عينيه ، ثم عاد يترنح همًا وحزنًا ، حتى وصل إلى كرسيه فتهافت عليه وهو يقول : إنها تعجب لشجاعتي في تلك المعركة ، وأنا في هذه الساعة أشجع مني في كل موقف وقفته في حياتي .

وكان راجنو قد أحس بخروج روكسان فأطل من باب الحجرة فرأى سيرانو جالسًا جلسته تلك فصاح به : أيمكننا الرجوع الآن يا سيدي؟ قال : نعم ؛ فأشار إلى أصدقائه الشعراء فدخلوا جميعًا ودخل في تلك الساعة نفسها من باب المطعم « كاربون دي كاستل جالو » قائد الحرس وهو يهدر بصوت كالرعد : قد عرفنا كل شيء يا سيرانو ، وإني أهنئك من صميم قلبي بذلك النجاح العظيم الذي أحرزته ليلة أمس على أعدائك المائة ، فنهض سيرانو متضعضعًا وانحنى بين يدي قائده وقال : شكرًا لك يا سيدي ، فقال : ما لي أراك شاحبًا مصفرًا؟ وما هذه الغبرة السوداء المنتشرة على وجهك؟ يخيل إلي أنك قد لقيت في تلك المعركة عناء عظيمًا ، قال : نعم يا سيدي ، إن ورائي ثلاثين جنديًا من أبناء فرقتك قد اجتمعوا في تلك الحانة المقابلة لهذا المطعم ، وهم يريدون تهنئتك والاحتفال بانتصارك ، فاذهب إليهم وقابلهم ، ثم قال : لا ، لابد أن يأتوا هم إليك بأنفسهم ليهنئوك تكرمة لك وإعظامًا لشأنك ، ثم وقف على عتبة باب المطعم وصاح بأعلى صوته :

أيها الأصدقاء ، إن البطل لا يستطيع الحضور إليكم لأنه تعب قليلًا ، فاحضروا أنتم إليه ، وما هي إلا هنيهة حتى أقبل الجنود الثلاثون يزلزلون الأرض بخفق نعالهم وصلصلة أسلحتهم ويطمطمون بلغتهم الجاسكونية سانديوس – ميل ديوس – كاب ديوس – موردیوس – بوكاب ديوس ، ثم دخلوا ، ففزع راجنو عند رؤيتهم لما هاله من طول قاماتهم وضخامة أجسامهم وقال له : أكلكم أيها السادة جاسكونيون؟ فأجابوا جميعًا بصوت واحد : نعم كلنا ، ثم اندفعوا نحو سيرانو يقبلونه ويعانقونه ويهزون يده ويهتفون : ليحيا البطل ، لتحيا جاسكونيا ، ليحيا الجيش ، وهو يتململ في نفسه ولكنه كان يبتسم في وجوههم ويستقبل تهانئهم له بالشكر والارتياح .

وكان خبر تلك المعركة قد انتشر في أنحاء باريس جميعها ، فوفد جمهور عظيم من الناس إلى المطعم يتقدمهم « لبريه » صديق سيرانو وهم يصيحون : ليحيا البطل لتحيا فرنسا ، ثم دخلوا جميعًا يركضون ويتدافعون ويحطمون كل شيء بين أيديهم وراجنو واقف مكانه يتأمل هذا المنظر الغريب بسرور وارتياح ويقول : واطرباه ها هو ذا الفن يتوج اليوم في مطعمي ، حتى بلغوا مكان سيرانو فداروا به يهنئونه ويقبلونه وكلهم يناديه : أيها الأخ ، أيها الصديق ، أيها الزميل ، فيقول في نفسه : واعجباه لكم أيها الناس! لم يكن لي بالأمس بينكم صديق واليوم كلكم أصدقائي ، ووقفت في تلك الساعة مركبة فخمة أمام باب المطعم ونزل منها ثلاثة من الأشراف فدخلوا الحانوت وظلوا يدفعون الناس أمامهم دفعًا حتى دنوا من سيرانو ، فوضع أحدهم يده في يده وشد عليها بقوة

وقال له : آه لو كنت تدري يا صديقي مقدار سروري بك وبنجاحك ، فالتفت إليه سيرانو غاضبًا وقال له : ما أنا بصديقك يا سيدي ، لأنني ما عرفتك قبل اليوم ، وقال له الآخر : إن بعض السيدات ينتظرنك في مركبتهن أمام الباب ليهنئنك بانتصارك فلو تفضلت بمرافقتي إليهن لأقدمك لهن ! فقال له : وكيف تسمح لنفسك يا سيدي أن تقدمني إلى غيرك قبل أن تقدم نفسك إلي؟ وقدم الثالث كأسًا من الخمر وقال له : اشرب معي يا سيدي نخب بأسك وشجاعتك ، فالتفت إليه وقال له : يخيل إليّ يا سيدي أنك أشجع مني ، لأنك قدمت إلي شيئًا قبل أن تعلم ما رأيي فيه ، ثم دفع الكأس عنه بقوة فهراقاه ، وجاءه أحد مراسلي الصحف ، وقد أمسك بيمينه قلمًا وبيسراه قرطاسًا وقال له : قص عليّ حديث واقعتك أيها الفارس البطل لأنشره في جريدتي ، فنظر إليه شزرًا وقال له : إنني لم أقاتل من أجلك يا سيدي ، ولا من أجل جريدتك بل من أجل صديقي لينيير ، فتململ لبريه من خشونته وجفائه ، وكان جالسًا على مقربة منه فجذبه من ثوبه ، وقال له هامسًا : ما الذي أصابك يا سيرانو ما هذه الخشونة التي تستقبل بها أصدقائك الذين يهنئونك ويمجدونك؟ فقال له : لا تصدق كل ما تراه يا لبريه! فليس لي في العالم صديق سواك .

وإنهم لكذلك إذ ساد السكون وانقطعت الضوضاء وانفرج الجمهور صفين متقابلين خاشعين مستكينين ، وإذا الكونت دي جيش القائد الفرنسي العظيم قد أقبل يجرر أذياله ويسدد أنفه إلى كبد السماء عظمة وخيلاء ووراءه كثير من الأشراف ورجال الجيش حتى توسط القاعة فوقف ونادى : أين سيرانو فالتفت سيرانو فرآه فدهش وقال في نفسه : لعله جاء أيضًا لتهنئتي ، ولئن فعل لتكونن أعجوبة الأعاجيب ، ثم أجابه وهو واقف مكانه لا يتحرك ، ولا يحتفل ، ها أنا ذا يا سيدي ، قال : أقدم إليك تهنئتي الخاصة وأبلغك أن جناب القائد العام المرشال « دي جاسيون » قد أمرني أن أبلغك تهنئته لك وثناءه عليك وإعجابه بك واغتباطه بعملك العظيم الذي قمت به ليلة أمس وأضفت به إلى سجل الشجاعة الفرنسية صفحة من أشرف الصفحات وأمجدها ، ولقد كان في شك من صحة الخبر ، لولا أن أقسم له بعض الضباط الذين صحبوك ليلة أمس إلى « باب نيل » أنهم شاهدوا الحادثة بأعينهم ، فرفع سيرانو نظره إلى الكونت بهدوء وسكون ، وقال له : لا شك أن للمرشال قدمًا راسخة في الفنون الحربية وأساليبها ومثله من يقدر أقدار الرجال فبلغه شكري ، فدهش الناس لجوابه الخشن الجافي ، وطار عقل لبريه حتى كاد ينفجر غيظًا وحنقًا ، إلا أنه تماسك وتجلد وهمس في أذنه : إن هذا لا يليق بك مطلقًا ، قل له كلمة أجمل من هذه ردًا على تحيته واستقبل الصنيعة بمثلها ،

فصمت سيرانو هنيهة ثم قال بصوت خافت : دعني يا لبريه فإنني لا أطيق أن أشكر رجلًا جاء لتهنئتي بانتصاري عليه ، فقال له : يخيل إلي أنك متألم يا صديقي ، فانتفض سيرانو وقال : أنا! لا ، أتظن أنني أتألم أمام أحد مهما برح بي الهم وأمضني ، أو أسمح لعدو من أعدائي أن يشمت بي ويرى بعينيه منظر بؤسي وشقائي؟

انتظر قليلًا فسوف ترى ، وكان الكونت قد جلس على كرسيه المعد له جلسة العظمة والكبرياء؟ فالتفت إلى سيرانو ، وقال له بنغمة الساخر الهازئ : إن تاريخك يا مسيو سيرانو حافل بالحوادث والوقائع ويخيل إلي أنني رأيتك في فرقة هؤلاء الجاسكونيين الشياطين أليس كذلك؟ فصاح الجاسكونيون جميعًا : نعم هو في فرقتنا ولنا بذلك الفخر العظيم ، فالتفت الكونت إليهم وقلب نظره في وجوههم ، وهم وقوف بجانب قائدهم « كاربون دي كاستل جالو » وقال : أكل هؤلاء الذين تلوح عليهم مخائل العظمة الكاذبة جاسكونيون؟ فهتف كاربون بسيرانو ، وقال له : تفضل أيها البطل الباسل بتقديم فرقتي بالنيابة عني إلى حضرة القائد العظيم ، فمشى سيرانو نحو الكونت خطوتين وأخذ يقدم إليه الفرقة بموشح بديع ارتجله في الحال وضمنه الثناء عليهم والتنويه بفضلهم والإشادة بذكرهم حتى أتمه ، فأعجب الكونت ببداهته وحضور ذهنه .

وقال في نفسه : إن اصطناع شاعر مجيد كهذا الشاعر مفخرة عظمى لمن يصطنعه ، وليس من الرأي أن يفلت مثله من أيدينا ، ثم استدناه منه وقال له : أتحب أن تكون لي يا سيرانو؟ فانتفض وقال : لا يا سيدي ولا لأي إنسان ، قال : إن خالي الكردينال « ريشلييه » كثير الإعجاب بك وبأدبك ويحب أن يراك ، فإن شئت قدمتك إليه ، ولقد قيل لي إنك نظمت منذ عامين رواية تمثيلية جميلة لم توتي إلى تمثيلها حتى اليوم ، فلو أنك ذهبت بها إليه ورفعتها له لعرف لك فضلك فيها وأحسن جزائك عليها كما أحسن من قبل على غيرك من الكتاب والشعراء ، فهمس لبريه في أذن سيرانو : لقد آن لروايتك « أجريبين » أن تمثل فليهنك ذلك ، فلم يلتفت إليه سيرانو ، وقال للكونت بنغمة الساخر المتهكم : أحمق ما تقول يا سيدي؟ قال : نعم والرجل كما تعلمون أديب بارع راسخ القدم في النقد الأدبي ؛ وسينظر في روايتك هذه نظر الناقد البصير وربما أجرى فيها قلم تهذيبه وتنقيحه فجاءت آية الآيات في حسنها وجمالها ، فاكفهر وجه سيرانوا وتفصد جبينه عرقًا ، وقال للكونت : ذلك مستحيل يا سيدي ، وإن دمي ليجمد في عروقي عندما أتخيل أن إنسانًا في العالم يحدث نفسه بتغيير حرف واحد من قصيدة من قصائدي ، وما أنا في حاجة إلى الاستعانة على أدبي بأحد من الناس كائنًا من كان ، قال : ولكنك تعلم أنه إذا أعجبه بيت من الشعر دفع ثمنه غاليًا ، قال : نعم أعلم ذلك ، ولكنه لا يستطيع أن يبذل فيه ثمنًا مثل الذي بذلته ، لأنني إنما أسكب فيه دم قلبي حارًا ، ودم القلب أغلى قيمة من الفضة والذهب ، قال : إنك أبي النفس يا سيرانو ، قال : نعم ، وكان جديرًا بك أن تفهم ذلك من قبل .

وهنا دخل رجل يحمل على يديه قبعات كثيرة قذرة وجدها في ميدان المعركة عند « باب نيل » من آثار الفارين والمنهزمين ، فألقاها بين يدي سيرانو ، وقال له : ها هي أسلاب المعركة التي تركتها احتقارًا لها وازدراء بها قد حملتها إليك ، لا لأنها تستحق عنايتك والتفاتك ، بل لأنها دليل قاطع على جبن أعدائك ونذالتهم ، فضحك الجمهور طويلًا وظلوا يهتفون : قبعات الهاربين! وقال سيرانو ، وهو ينظر خلسة إلى وجه الكونت : ليت شعري من هو ذلك الجبان النذل الذي جرد مثل هذا الجيش السافل ليحارب به شاعرًا مسكينًا؟ ما أحسبه الآن إلا خزيان نادمًا يتمنى أن لو انفرجت الأرض تحت قدميه فهوى في أعماقها إلى أبد الآبدين ، فصاح الجمهور من كل ناحية : لا شك في ذلك ، فارتعد الكونت غيظًا واربد وجهه وصاح بصوت أجش كهزيم الرعد : ماذا تقولون؟ أنا الذي جرد هذا الجيش السافل كما تقولون لأني أردت تأديب ذلك الرجل الوقح البذيء ، ولا يتولى تأديب سافل دنئ مثله إلا سفلة أدنياء ، فقهقه سيرانو ضاحكًا وأخذ يجمع القبعات بحد سيفه ، ثم دفعها تحت قدمي الكونت ، وقال له : إذن يمكنني أن أكلفك برد هذه القبعات إلى أصدقائك .

فثار الكونت من مكانه غاضبًا ونظر إلى سيرانو نظرة ملتهبة ينبعث الشرر من جوانبها ، وقال له : هل قرأت أيها الرجل « دون كيشوت » قال : نعم قرأته وأنا حاسر الرأس أعجابًا بذلك البطل الشريف ، قال : أتذكر من قصصه قصة الطواحين الهوائية؟ فانحنى سيرانو وقال : نعم « في الباب الثالث عشر »

قال : وما رأيك فيمن يحاول مهاجمة تلك الطواحين أو اعتراض سبيلها؟ ففطن سيرانو لما أراد وقال : ما كنت أظن أن أعدائي طواحين هوائية تذهب مع كل ريح ، قال : إنها تمد أذرعها الطويلة لتتناول من يجسر على مقاومتها وتقذف به في الهوة العميقة ، قال : أو الكوكب العالي ؛ فصاح الكونت : مركبتي وخدمي ، فابتدر الأشراف تنفيذ أمره وظلوا يتراكضون ويتدافعون كأنهم بعض الخدم ، وما هي إلا لحظات حتى حضرت المركبة فخرج الكونت وخرج بخروجه جميع الأشراف والنبلاء ، من حضر منهم معه ومن حضر قبل ذلك ، لا يحيون سيرانو ولا يدنون منه ولا يرفعون أنظارهم إليه مصانعة للكونت ومداهنة ، فمشى وراءهم سيرانو يشيعهم إلى الباب وهو يقول لهم : ماذا دهاكم يا أصدقائي؟ ما لكم تعرضون عني وتفرون مني؟ ما لكم لا تودعون البطل الذي جئتم الساعة لتهنئته وتكريمه؟ وما زال يشيعهم بأمثال هذه الكلمات حتى ركبوا مركباتهم وانصرفوا .

فعاد إلى مكانه الأول وهتف : « لبريه » فلباه فاستدناه منه واحتضنه إلى صدره وقال له : ألم أقل لك أيها الصديق إنه ليس لي في العالم صديق سواك!؟

نكس لبريه رأسه مليًا ثم نظر إلى سيرانو نظرة حزينة مكتئبة وقال له : قل لي أيها الصديق ماذا أعددت لنفسك من الوسائل غدًا للخلاص من هذه الهوة العميقة التي قذفت بنفسك فيها؟ واسمح لي أن أقول لك إنني قد جننت جنونًا لا أدري كيف يتركونك بعده خارج المارستان ، أليس كل ما تستطيع الذود عن نفسك في سلوك هذه الخطة العسراء أن تقول كل يوم : إنك تحب أن تعيش حرًا مستقلًا في حياتك لا يسيطر عليك أي مسيطر من القيود والتقاليد؟ فليكن ما تريد ، ولكن هل تستطيع أن تنكر أنك غال متطرف؟ إنني لا أطلب إليك شيئًا سوى أن تعترف لي بذلك ، فابتسم سيرانو وقال له : إن كان هذا هو كل ما يرضيك فإني أعترف لك به ، فتهلل لبريه فرحًا وقال له : آه لقد اعترفت أيها الصديق فلزمنك الحجة التي لا قبل لك بدفعها ، قال : إنني لا أنكر يا لبريه أنني مغال متطرف كما تقول ولكن في سبيل المبدأ والفكرة ، والتطرف قبيح في كل شيء إلا في هذا السبيل ، قال : ولكنك في حاجة إلى شيء من حسن السياسة وسعة الصدر ولين الجانب لتستطيع أن تصل إلى المجد الذي تحبه وتتعشقه ، فاستوى سيرانو في مكانه جالسًا وقد ظللت جبينه سحابة سوداء من الهم واستحالت صورته إلى صورة مريعة مخيفة وقال :

ماذا تريد مني يا لبريه ، وما هي الخطة التي تحب أن ترسمها لي لأنفذ من طريقها إلى المجد الذي تتحدث عنه وتزعم أنني أتعشقه وأصبو إليه؟

أتريد أن أعتمد في حياتي على غيري وأن أضع زمام نفسي في يد عظيم من العظماء أو نبيل من النبلاء يصطنعني ويجتبيني مؤونة عيشي ويحمل عني هموم الحياة وأثقالها فيكون مثلي مثل شجرة « اللبلاب » لا عمل لها في حياتها سوى أن تلتف بأحد الجذوع تلعق قشرته وتمتص مادة حياته بدلًا من أن تعتمد في حياتها على نفسها ذلك ما لا يكون .

أتريد أن أحمل نفسي على عاتقي كما يحمل الدلال سلعته وأدور بها في الأسواق مناديًا عليها : من منكم أيها الأغنياء والأثرياء والوزراء والعظماء وأصحاب الجاه والسلطان يبتاع نفسًا بذمتها وضميرها وعواطفها ومشاعرها بلقمة عيش وجرعة ماء؟

أتريد أن أنصب نفسي سخرية في الأندية الخاصة والمجتمعات العامة ، ألعب كما يلعب القرد وأنطق كما ينطق الببغاء ، وأتلون كما تتلون الحرباء ، رجاء أن أجد التفاتة من عيني أمير أو أرى ابتسامة على شفتي وزير؟

أتريد أن تستحيل قامتي المعتدلة إلى قوس من كثرة الانحناء ، وأن تنهدل أجفاني من كثرة الإطراق والإغضاء وأن تجتمع فوق ركبتي طبقة سميكة من كثرة الركوع والسجود والجثي بين يدي العظماء؟

أتريد أن يكون لي لسانان : لسان كاذب أمدح به ذلك الذي اصطنعني واجتباني ، ولسان أعدد به عيوبه وسيئاته ، وأن يكون لي وجهان : وجه يزود عني ويحميني ، ووجه ساخط عليه لأنه يستعبدني ويسترقني؟

أتريد أن أقضي حياتي كلها واقفًا في مكاني وسط دائرة واحدة أثب فيها وأطفر وأتطاول بعنقي ليتوهم الناس أني طويل وما أنا بطويل ، أو أن أتخذ لي بوقًا ضخمًا أنفخ فيه ليتوهم السامعون أني جهوري الصوت وما أنا إلا نافخ في بوقه؟

أتريد أن أسيّر سفينة شعري في العالم بأذرع العظماء والكبراء ، بدلًا من المجاذيف التي أنحتها بفأسي ، وبشعور « الدوقات » الغانيات بدلًا من الأشرعة التي أنسجها بيدي ، وبتنهدات الأميرات العاشقات بدلًا من الرياح الجارية التي يسخرها الله لي؟

أتريد أن أجعل حياتي الأدبية تحت رحمة المقرظين والناقدين والراضين والساخطين؟ فإن شاءوا رفعوني إلى علية السماء ، وإن شاءوا هووا بي إلى أعماق الجحيم؟

ذلك ما لا يكون والموت أهون علي من ذلك .

أريد أن أعيش حرًا مستقلًا لا أخشى أحدًا ولا أهاب شيئًا ، لا يعنيني تهديد الجرائد التجارية الساقطة ، ولا يفرحني أن تنشر الصحف الكبيرة اسمي بالأحرف الضخمة في أكبر أنهارها ، ولا أبالي أتداول الناس قصائدي وتدارسوها ورنت نغماتها في أرجاء المسارح ، أم بقيت في كسر خزانتي أقرأها بنفسي لنفسي وأتغنى بها في ساعات وحشتي وخلوتي؟

أريد أن أعيش حرًا ، أضحك كما أشاء ، وأبكي كما أريد وأحتفظ بنظري سليمًا ، وصوتي رنانًا ، وخطوتي منتظمة ، ورأسي مرتفعًا ، وقولي صريحًا ، أنظم الشعر في الساعة التي أختارها ، وفي الشأن الذي أريده فإن أعجبني ما ورد علي منه فذاك ، وإلا تركته غير آسف عليه وأخذت في نظم غيره بدلًا من أن أتوسل إلى الطابعين أن ينشروه ، والأدباء أن يقرظوه ، والممثلين أن يمثلوه ، والعظماء أن ينوهوا به ويرفعوا من شأنه .

أحب أن لا أنظم من الشعر إلا ما يجود به خاطري ، ولا أنظم إلا بالطريقة التي أريدها أنا ، لا التي يريدها الناس لي ، وأن لا أمتع نظري إلا بمنظر الأزهار التي أغرسها بيدي في حديقتي ، فإن قدر الله لي منزلة في الحياة فلن أكون مدينًا بها لأحد غيري ، ولن يكون فخرها عائدًا إلا علي وحدي ، ولا أسمح لأحد من الناس كائنًا من كان أن يرفعني بل لابد لي من أن أرفع نفسي بنفسي .

أريد أن أعيش حرًا طليقًا أناضل من أشاء ، وأنتقد من أشاء ، وأجادل من أشاء ، وأن أقول كلمتي الخير والشر للأخيار والأشرار في وجوههم لا متملقًا أولئك ولا خاشيًا هؤلاء .

إن العبد المقيد بقيود الإحسان والنعم لا يمكن أن يكون حرًا طليقًا ، فليعفني الناس من أياديهم وصنائعهم ، لأني لا أحب أن أكون عبدًا لهم ولا أسيرًا في أيديهم .

وآخر ما أقول لك أني أفضل أن أعيش ممقوتًا مرذولًا عند الناس على أن أعيش ذليلًا مستعبدًا لهم ، ولا أحب أن أرتفع ارتفاع الزيزفون والسرو إذا كانت اليد التي ترفعني غير يدي ، وحسبي من الرفعة والشرف أن أنال منهما نصيبي الذي قسم لي قدر ما تسمح به قوتي ومواهبي لا أزيد على ذلك شيئًا .

فقال له لبريه : عش بنفسك وحيدًا كما شئت ، ولكن لا تكن عدوًا للجميع .

قال : ربما أكون مغاليًا في ذلك ، ولكن ما دعاني إلى المغالاة في المعاداة إلا مغالاتكم معشر المتكلفين والمتعلمين في المصادقة والمولاة ، وتصنعكم في اجتذاب الخلان والأصدقاء ، وما بغض إلي التودد والتحاب إلا بغضي لتلك الابتسامات الباردة الثقيلة التي تنفرج عنها شفاهكم كلما قابلتم صديقًا أو عدوًا ، وشريفًا أو وضيعًا ، كريمًا أو لئيمًا ؛ حتى أصبحت لا أحب شيئًا في العالم حبي لبغض الناس إياي ، ولا أكره شيئًا كرهي لحبهم وتوددهم إلي .

هذا هو عيبي الوحيد الذي لا أعرف لنفسي عيبًا سواه ولكنه عيب يعجبني جدًا ويلذ لي كثيرًا ، وإنك لا تستطيع أن تدرك مقدار ما أجده من اللذة في نفسي عندما أسير في طريقي فأراه مملوءًا بنظرات البغض ملتهبًا بنيران الحقد وأرى نفسي محاطًا بنطاق محكم من قلوب الساخطين والناقمين .

أما الشتائم التي أسمعها واللعنات التي تصوب إلي فهمي أشبه الأشياء عندي بذلك البرد المتساقط الذي يتناثر من الجو على ردائي ثم ينزلق عنه إلى الأرض فأدوسه بقدمي .

إن الصداقة الباردة المتفككة التي يسعى وراءها الناس أشبه شيء بالياقة الإيطالية اللينة التي تتهدل حول العنق فيتهدل العنق معها ، فهي وإن كانت لينة مريحة إلا أنها رخوة مهلهلة ليست لها مسكة ولا قوام .

أما العداوة فهي الدرع الحديدية الصلبة التي تدور بالجسم فتحفظ كيانه وقوته وتمنعه عن أن يضعف أو أن يخور ، وكل عدو جديد هو حلقة جديدة في تلك الدرع القوية المتينة .

فقال لبريه : إنني لم أرك في حياتي راضيًا عن البغض مثل اليوم ، وإن نفسي تحدثني بأن كارثة من الكوارث العظمى قد نزلت بك فأثارت هذه الخواطر في نفسك .

فاضطرب سيرانو وخفت صوته وهدأت تلك الزوبعة التي كانت ثائرة في نفسه وقال : ماذا تقول يا لبريه؟ قال : أظن أنك قد عرفت منها عندما قابلتها أنها لا تحبك ، فأنت ناقم على الحب راضٍ عن البغض ، فنكس رأسه وصمت صمتًا طويلًا لا يقول فيه شيئًا ، ففهم لبريه كل شيء .

المعركة النفسية

وفي هذه اللحظة دخل المطعم البارون كرستيان يختال في حلته الجميلة ورونقه الشائق البديع ورأى أبناء فرقته مجتمعين فتقدم لتحيتهم فلم يعبأوا به وحاول أن يداخلهم ويتحبب إليهم كما هو شأن أبناء الفرقة الواحدة عندما يجتمعون في مكان واحد فانقبضوا عنه وتسللوا من جواره فلم ير بدًا من أن ينتبذ مكانًا قصيًا ويجلس فيه وحده ،

فلم يقنعهم ذلك منه حتى أرادوا إزعاجه وإقلاقه وكان من شأنهم – كما حدثت روكسان عنهم – أنهم لا يحبون أن يدخل فرقتهم غريب عنهم عصبية لأنفسهم واحتفاظًا بجامعتهم ،و الجنوبيون في فرنسا ينظرون دائمًا إلى الشماليين بعين البغض والازدراء ويسمون ترفهم ونعومتهم ضعفًا وجبنًا ، فمشى أحدهم إلى سيرانو وقال له وهو يغمز كرستيان بعينه : قد كنت وعدتنا يا سيد منذ هنيهة أن تقص علينا الواقعة التي انتصرت فيها ليلة أمس على أعدائك الشماليين الجبناء فحدثنا ذلك الحديث الآن ليكون درسًا تهذيبيًا لهذا الفتى الشمالي المتأنث ، وأشار إلى كرستيان فانتفض كرستيان غضبًا والتفت إلى المتكلم وقال له : ماذا تقول؟ وكان سيرانو مشتغلًا بمحادثة صديقه لبريه ، وكان يفشي إليه بشأنه مع روكسان فلم يشعر بشيء مما حوله فتركه الفتى ومشى إلى كرستيان فوقف أمامه وقال له : عندي نصيحة لك أيها السيد أحب أن أقدمها إليك لتنتفع بها في مستقبل حياتك معنا ، فألقى عليه كرستيان نظرة ازدراء واحتقار وأشاح بوجهه عنه فقال له الفتى : أترى هذا الرجل ذا الأنف الكبير والسحنة المخيفة الجالس هناك ، إن ههنا كلمة لا يجوز لأحد النطق بها أمامه مطلقًا كما لا يجوز النطق بكلمة الحبل في بيت المشنوق وأحب أن لا يفوتك العلم بها ضنًا بحياتك ، فعجب كرستيان لأمره ورفه رأسه إليه وقال : أي كلمة تريد؟ قال : انظر إلى وجهي تفهم معناها فإنني لا أستطيع النطق بها!

ثم وضع أصبعه في أنفه ، وهو يلتفت ويتحذر فقال له : أتريد كلمة الأنـ..... ، فقاطعه الفتى وقال صه إياك أن تتمها فيسمعها فيكون هلاكك ، فلم يرفع كرستيان طرفه إليه أنفة وكبرياء فتقدم نحوه فتى آخر وقال له : ولابد لك أن تعلم أيضًا أن أحدًا من الناس لا يحدث نفسه بمناوأة هذا الرجل أو مخاشنته إلا إذا كان رأيه من أن يلاقي حتفه قبل نهاية أجله ثم وقف به آخر وقال له : احذر الحذر كله من أن تنطق على مسمع منه بهذه الكلمة أو ما يشبهها لا تصريحًا ولا تلميحًا ولا كناية ، ولا تعريضًا ، فقد قتل في الأسبوع الماضي رجلًا أخنف لأنه ظنه يتخانف هزءًا به وسخرية ، وقتل آخر منذ يومين لأنه أخرج منديله من جيبه وأدناه من أنفه .

وهكذا ظلوا يتقدمون نحوه واحدًا بعد آخر ينذرونه ويهمسون في أذنه بكلمات مختلفة ويشيرون بين يديه إشارات غريبة تهويلًا عليه وإرهابًا له ، وهو صامت ساكن لا يرفع طرفه إليهم حتى برم بهم ، فنهض من مكانه بهدوء وسكون ومشى إلى « كاربون دي كاستل » قائد الفرقة ، وهو جالس على كرسيه فوقف بين يديه وقال له : ماذا يصنع الإنسان يا سيدي القائد إذا رمت به يد المقادير بين جماعة من الجنوبيين الوقحاء ، وهم لا يزالون يشاكسونه ويناوئونه ويستثيرون غيظه وحفيظته بسفاهتم ووقاحتهم ؟ فأجابه القائد ببساطة غير محتفل به ولا مكترث : يبرهن لهم على أنه ، وإن كان شماليًا فهو شجاع مثلهم ، فانحنى كرستيان بين يديه ، وقال : سأفعل ما أشرت به يا سيدي ، وعاد إلى مكانه الأول .

وكان سيرانو قد فرغ من حديثه مع لبريه واعتدل في جلسته فهرع إليه الجنود من كل ناحية وأحاطوا به وقالوا : الحديث يا سيرانو ، فاتجه إليهم وأنشأ يقص عليهم قصته ويقول :
تقدمت نحوهم وحدي منفردًا ، وكان القمر يلمع في قبة السماء لمعان القطعة الفضية في رمال الصحراء ، ثم لم يلبث أن غشيته سحابة دكناء فصار الظلام حالكًا مدلهمًا لا يستطيع المرء أن يرى فيه أبعد من .... فقاطعه كرستيان وقال : « أنفه » فدهش القوم واصفر وجه سيرانو وتهالك في نفسه ، ثم صرخ يصوت كهزيم الرعد قائلًا : من هذا الرجل! وهم بالهجوم عليه ليفتك به ، فقال له أحد الجنود : هو رجل شمالي دخل فرقتنا صباح هذا اليوم ، فجمد سيرانو في مكانه ذاهلًا ومر بخاطره كلمح البصر حديث روكسان فقال : صباح هذا اليوم! وما اسمه! قال : يزعم أن اسمه البارون كرستيان دي نوفييت ، فتضعضع سيرانو وتخاذل وشعر أن نفسه تتسرب من بين جنبيه ، وقال : آه .... إنه هو ، ثم استحالت صورته إلى صورة مرعبة مخيفة وظلت أطرافه ترتجف ارتجافًا شديدًا فتهافت على كرسي بجانبه وصمت صمتًا عميقًا لا حس فيه ولا حركة ، ثم أخذ يعود إلى نفسه شيئًا فشيئًا حتى هدأ فألقى نظرة على الجنود المحيطين به وقال لهم ماذا كنت أقول لكم! آه لقد تذكرت ، كنت أقول إن الظلام في تلك الساعة كان حالكًا جدًا حتى إن المرء لا يستطيع أن ينظر إلى أبعد مما تحت قدميه ...

وتوقف عن إتمام كلامه لأنه تذكر مقاطعة كرستيان إياه عند وصوله إلى هذه الكلمة فوثب من مكانه وثبة النمر الجائع وهجم عليه هجمة ما كان عند الحاضرين ريب في أنها تحمل في طيتها الموت الأحمر ، وهو يطمطم بلهجته الجاسكونية موردیوس ، میل دیوس ، ولكنه لم يبلغ مكانه حتى جمد أمامه جمود التمثال فوق قاعدته وظل يزفر زفيرًا متتابعًا ، ثم تراجع بهدوء وسكون إلى مكانه الأول والقوم يتتبعونه بأنظارهم ويعجبون لأمره ويقولون في أنفسهم : ما له يقدم ، ثم يحجم! وما الذي يبدو له فيتراجع بعد اندفاعه! وما هي إلا هنيهة حتى هدأ وسكن وعاد إلى حديثه يقول : كنت أعلم أنني مقدم على خطر من أعظم الأخطار وأنني إنما أحارب في الحقيقة رجلًا عظيم الجاه والسلطان لو شاء أن يسحقني بقدمه كما يسحق السائر النملة الدارجة في طريقه لفعل ، بل لو شاء أن يضعني بين .... فقاطعه كرستيان وقال : « منخريه » فاهتز سيرانو في كرسيه يمنة ويسرة وغلا دمه في رأسه غليان الماء في مرجله ، ولكنه لم يتوقف بل استمر في حديثه يقول : بين شدقيه لما حال بينه وبين ذلك حائل ، لأنه صهر الكردينال ، والكاردينال هو كل شيء في فرنسا .

ومرت بي ساعة ضعف كنت أقول فيها لنفسي – وهنا نظر إلى كرستيان كأنه يخاطبه – إنك قد عرضت نفسك أيها الرجل المسكين بتهورك وجنونك للهلاك الذي لابد لك منه ، ووضعت أصبعك بين الشجرة ولحائها ، وليس بكثير على رجل قاس مستبد كهذا الرجل أن يزعم ....

فقاطعه كرستيان وقال : « أنفك » فتصامم سيرانو ، وكأنه لم يسمع شيئًا وقال : إرادتك على ما يريد ، ولكنني تجلدت واستمسكت ، ولم أعبأ بهذه الاعتبارات جميعها ، وقلت في نفسي : سر أيها الجاسكوني الحر وامض في سبيلك قدمًا لا تحتفل بشيء مما يعترض طريقك وقم بواجبك الذي حملت عليه كما يفعل الحر الشريف ، وبينا أنا أفكر في ذلك إذ لمحت شقيًا من أولئك الأشقياء يهيء لي في هذا الظلام الحالك المدلهم ضربة قوية ، فما هو إلا أن لمحتها حتى رغت منها بأسرع من شربة السيف فأفسدتها عليه ، ولكنني لم ألبث أن وجدت نفسي في الحال وجهًا لوجه .... فقاطعه كرستيان وقال : « أو أنفًا لأنف » ، فزأر سيرانو زئيرًا مخيفًا ووضع يده على مقبض سيفه وصاح : « يا لصواعق السماء ورجومها » فذعر القوم وأيقنوا بالشر وأتلعوا إليه أعناقهم ماذا يفعل فلم يفعل شيئًا ، بل استمر في حديثه يقول : وجدت نفسي أمام مائة من الغوغاء الساقطين تنم ثيابهم البالية وأزيائهم القبيحة عن حقارتهم وسفالتهم وتتصاعد من أردانهم القذرة روائح كريهة تملأ ... فقاطعه كرستيان وقال : « الأنف » ، فانفرجت شفتاه عن مثل ما تنفرج شفتا الليث ، ولكنه لم يلتفت إليه واستمر يقول : تملأ الجو وتزهق النفس ، فلم أتردد لحظة واحدة في الهجوم عليهم ففتكت باثنين منهم ، ثم اتبعتهما بثالث ، وإذا بأحدهم يصوب إلي سهمًا .. فقاطعه كرستيان وقال : « أنفيًا » فلم يستطع على ذلك صبرًا وهب من مكانه هبوب العاصفة وصرخ صرخة عظمى : اخرجوا من هنا جميعكم ودعوني مع هذا الرجل وحدي .

ففروا من وجهه جميعًا يستبقون الباب ويتراكضون ويهمس كل منهم في أذن صاحبه : إنها وثبة الأسد ما في ذلك ريب ، وراجنو يقلب كفيه حزنًا وأسفًا ويقول : واأسفاه عليك أيها الفتى المسكين ، ما أحسبها إلا لمحة الطرف حتى أراك قطعًا متناثرة على مائدتي .

فلما خلا المكان بسيرانو وصاحبه ظلا يتناظران ساعة في صمت وسكون لا يفوهان بحرف واحد وكرستيان ينتظر وقوع الكارثة ويتأهب لها تأهب الجريء المقدم ، ثم ما لبث أن رأى سيرانو يتقدم نحوه رويدًا رويدًا حتى وقف أمامه ووضع يده على عاتقه فارتعد كرستيان ارتعادًا خفيفًا ، وبينا هو ينتظر عاصفة من الشر تهب عليه إذ سمعه يناديه بنغمة لطيفة هادئة ويقول له : سيدي كرستيان! فرفع طرفه إليه فرآه باسمًا متلطفًا فعجب لأمره وقال له : ماذا تريد يا سيدي؟ قال : أريد أن أعانقك وأقبلك أيها الصديق فتعال إلي ، فظل كرستيان ينظر إليه حائرًا متضعضعًا لا يفهم من أمره شيئًا ، فقال سيرانو : تعالى إلي وقبلني فإني أخوها ، قد بعثتني برسالة إليك فاستمعها ، فازدادت حيرة كرستيان ولم يفهم ما يريد وقال له : أخو من يا سيدي؟ قال : أخو الفتاة التي تحبها ، قال : أي فتاة تريد؟ قال : روكسان ، قال : أنت أخوها؟ وظل يقلب نظره في وجهه كأنه يفتش عن وجه الشبه بين الأخوين فلا يجده ، ففطن سيرانو لغرضه وقال : أخوها تقريبًا ، أي ابن عمها ، فتلألأ وجه كرستيان سرورًا وقال : هل حدثتك عني؟ قال : نعم ، قال : وهل أخبرتك أنها تحبني؟ قال : ربما ، فازداد سروره واغتباطه وقال له :

ما أجمل هذه البشرى التي جئتني بها يا سيدي وما أعظم شكري لك ، فابتسم سيرانو وقال : ما أغرب عواطف النفوس وما أسرع تقلباتها ، فقال : اعف عني يا سيدي فقد أسأت إليك ، قال : وما رأيك في تلك الأنفيات التي رميتني بها منذ هنيهة ! قال : إنني أستردها جميعها وأجثو تحت قدميك معتذرًا عنها معتمدًا على كرمك وإحسانك ، قال : الآن أستطيع أن أقول لك إنها اعترفت لي بأنها تحبك حبًا شديدًا وشريفًا ، وتضمر لك في قلبها من الوجد مثل ما تضمر لها ، وقد كلفتني أن أقول لك إنها تنتظر منك اليوم كتابًا ، قال : واأسفاه ، ذلك ما لا أستطيعه ، قال : ولم؟ قال : لأنني رجل عاطل من جميع المواهب والمزايا لا أملك حلية من حلى الدنيا غير الصمت ، فإني عطلت منها هلكت وافتضحت ، قال : عجبًا لك ، ألا تستطيع أن تكتب كتابًا؟ قال : لا ، لأنني غبي بليد ، قال : إنك مغال جدًا وحسبك من الذكاء أنك تعرف مقدار نفسك ، على أن أسلوبك في مقاطعتي ومغايظتي يدل على أنك لم تحرم فضيلة الشجاعة والذكاء ، قال : أستطيع أحيانًا أن أكون شجاعًا إذا كان الحديث بين وبين رجل ، أما المرأة فإني أضعف الناس منة بين يديها ، قال : ولكنك جميل ، والجمال قوة يستمد منها اللسان فصاحته وبيانه ، قال : لا أنكر أن لنظراتي تأثيرًا خاصًا على النساء ، وأنني ما مررت بهن إلا استثرت بجمالي إعجابهن ودهشتهن ولكن أذوب حياء وخجلًا إذا جلست إليهن أو جمع الحديث بيني وبينهن ،

وربما استطعت في بعض الأحيان أن أتحدث إليهن في بعض الشؤون العامة التي لا يتحامى فيها أحد أحدًا حتى إذا وصلنا إلى حديث الحب كان الموت أهون علي من أن أنطق بحرف واحد فيه ، قال : إني لأعجب لأمرك جدًا يا كرستيان ، ويخيل إلي أنني لو كان لي مثل حظك من الجمال لأحسنت الكلام في الحب ، قال : ويخيل إلي أنا أيضًا أنني لو كان لي مثل حظك في الفصاحة لاستطعت الكلام فيه ، قال : ليتني أستطيع إذا جلست إلى النساء أن أستثير بجمالي إعجابهن ودهشتهن ، قال : وليتني أستطيع إذا جلست إليهن أن أسترعي ببياني أسماعهن .

وصمت كريستان لحظة ، ثم قال : لقد حدثوني عنها أنها فتاة ذكية متفوقة تتعشق في الرجال الذكاء والفطنة قبل أن تتعشق فيهم الحسن والجمال ، فماذا يكون شأني معها إذا كتبت إليها كتابًا فقرأته فلم تر بين سطوره إلا عيًا وركاكة ، وضعفًا واضطرابًا؟ فقال وهو يصعد نظره في وجهه ويصوبه ويعجب بجماله ووضاءته : يخيل إلي يا كرستيان أنك لو أعرتني جمالك أو لو أعرتك لساني لتألف منا إنسان تام المواهب والمزايا ، قال : نعم ما في ذلك ريب ، قال : ألا تتمنى أن تكون ذلك الإنسان؟ قال : نعم أتمنى أن أكونه ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ قال : إن في استطاعتي أن أنفخ فيك روح الفصاحة وأنفث في صدرك سحرها فإذا أنت أجمل الناس وأذكاهم معًا ،

قال : لا أستطيع أن أتصور ذلك إلا إذا زعمت أنك من الساحرين ، قال : هل تعجز عن حفظ ما يلقى إليك من الجمل والكلمات وإن لم تفهم معناه؟ قال : لا ، فإن ذاكرتي قوية جدًا ، ولكنها كذاكرة الببغاء تنقل ولا تعقل شيئًا ، وأظن أني قد فهمت غرضك الآن ، وإني لأعجب أشد العجب من اهتمامك بهذا الأمر الاهتمام الشديد ومن إلحاحك في تلمس الوسائل للوصول إليه هذا الإلحاح كله كأنه شأن من شؤونك الخاصة التي تعنيك ، قال : سأفضي إليك بسر هذه المسألة فاستمع لما أقول :

إن روكسان ابنة عمي وصديقتي ورفيقة صباي وطفولتي ليس لها في العالم من صديق ولا معين سواي ، ويهمني جدًا أن أراها سعيدة في حياتها هانئة في عيشها لا يكدر عليها مكدر من عوادي الدهر ونكبات الأيام ، ولا أكتمك أني أخاف عليها الخوف كله أن تحل بها في هذا الحب الذي اختارته لنفسها نكبة من النكبات العظام ، أو فاجعة من الفواجع الجسام تقضي عليها وعلى آمالها ، وما أحسبك تتمنى لها إلا ما أتمناه أو تضمر لها في نفسك إلا العطف الذي أضمره لها ، خصوصًا وأن الصلة التي بينكما ستتحول طبعًا إلى عشرة زوجية طويلة لا يقطع حبلها إلا الموت ؛ لذلك أردت أن نتعاقد يدًا واحدة على إسعادها وترفيه عيشها وحماية ذلك الحب في قلبها وحراسته من أن تغشاه غاشية من وساوس اليأس أو خيبة الأمل ، أنت بحسنك وجمالك وأنا بفصاحتي وبياني ، تسمع صوتي

ولكن من فمك ، وتحس بروحي ولكن في جسمك وتشرب عواطفي ولكن من كأسك ، وتطرب لنغماتي ولكن من قيثارتك ، أي أنني أتقمص في جسمك وأتسرب بين حنايا خدعك وأكمن في قرارة نفسك فنستحيل نحن الاثنين إلى شخص واحد ، أو تصبح أنت كل شيء وأصبح أنا لا شيء ، وما دامت سعادتها في الحياة تتوقف على أن ترى بجانبها إنسانًا يجمع في نفسه بين موهبتي الفصاحة والجمال فليتألف مني ومنك ذلك الإنسان الذي تريده وتتمناه ، ولا تقل أننا نخدعها بذلك أو نغترها ؛ فإنا لا نريد بها نفعل إلا سعادتها وهناءها .

هذا هو الغرض الذي أرمي إليه ولا أرمي لغرض سواه ، فارتجف كرستيان وقال : إنك تخيفني جدًا يا سيرانو ، ويخيل إلي أن عقلي يحاول الفرار مني دهشة وعجبًا فإنك تقترح عليّ أمرًا ما سمعت بمثله في حياتي ، قال : إنك مغال يا كرستيان والمسألة بسيطة جدًا ، ألم تقل لي منذ هنيهة إنك تخاف إن جالستها أو تحدثت إليها أن تملكك وتحتويك فتموت عواطف الحب في قلبها؟ .... فما الذي يريبك مني وأنا لا أريد إلا ما تريده ، ولا أرمي إلا إلى بقاء عاطفة الحب حية في قلبها نامية ، فتتمتع أنت بقلب الفتاة التي تحبها وأتمتع أنا بسعادة الصديقة التي أجلها وأحترمها وأحرص على راحتها وهدوئها ، قال : وهل تشعر في نفسك أنك سعيد بذلك؟ فانتفض سيرانو انتفاضة خفيفة لم يشعر بها كرستيان وقال بصوت خافت : سعيد ، وصمت لحظة

ثم قال بصوت متهدج مرتعش : نعم ، سأكون سعيدًا يا كرستيان لأنني شاعر ، والشاعر ممثل بفطرته ، يلذ له دائمًا أن يلبس ثوبًا غير ثوبه ويتراءى في صورة غير صورته ، فيمثل دور المجنون وهو عاقل ، ودور الشجاع وهو جبان ، ودور السعيد وهو شقي ، ودور العاشق الولهان وما في قلبه ذرة واحدة من الحب والغرام ، فاسمح لي أن أمثل دور العاشق الولهان فهو الدور الذي يلذ لي تمثيله أكثر من غيره ، وكن أنت المسرح الذي أمثله عليه وأخطر في أرجائه جيئة وذهابًا .

كن اللسان وأنا الفكر ، كن الجسم وأنا الروح ، كن الجمال وأنا العقل ، كن الزهرة وأنا العطر ، كن العين وأنا النور المنبعث منها ، كن القلب وأنا حبته الكامنة فيه ، فلا تكتب إليها إلا ما أمليه عليك ، ولا تحدثها إلا بما ألفتك إياه وليكن ذلك سرًا بيني وبينك لا تعرفه روكسان ولا يعرفه أحد من الناس .

فهدأ كرستيان وسرى عنه واستقر في نفسه أن الرجل صادق فيما يقول ، ولكنه لو استطاع أن يفهم الحقيقة كما يفهمها بقية الناس لأدرك أن سيرانو عاشق مثله لتلك الفتاة التي يحبها وأنه لما أخفق في حبه وساء حظه فيه وعجز عن أن يفضي إلى حبيبته بذات نفسه وسريرة قلبه وجهًا لوجه أراد أن يتخذ منه بوقًا يهتف في جوفه بأناته وزفراته لتصل إلى آذانها فتسمعه من حيث لا تراه ولا تشعر بمكانه لا يرجو من وراء ذلك غرضًا ولا غاية سوى أن يرفه عن نفسه بعض همومها وآلامها بالمناجاة والشكوى كما يرفه المريض عن نفسه آلامه وأوجاعه بترديد الأنات ، وتصعيد الزفرات .

فقال له كرستيان : ولكن ما العمل في الكتاب الذي قلت لي أنها تريد أن أرسله إليها اليوم؟ فمد سيرانو يده إلى صدره وأخرج تلك الرسالة التي كان يريد أن يقدمها إليها في الصباح فلم يفعل وأعطاه إياها وقال له : ابعث إليها بهذه الرسالة فهي تامة لا ينقصها غير التوقيع ، فدهش كرستيان وعاودته وساوسه وهواجسه وقال له : وهل كتبتها من أجلي؟ وما الذي دعاك إلى ذلك؟ قال : لم أكتبها من أجلك ولا من أجل أحد من الناس ، ولكننا معشر الشعراء لا تخلو جيوبنا غالبًا من أمثال هذه الرسائل الغرامية الخيالية ، فإننا وإن كنا محرومين سعادة الحب وهناءه ولكننا نتخيل أحيانًا صورًا وهمية لا وجود لها في الخارج نخاطبها ونناجيها كما يناجي المحب محبوبه لنستطيع إمداد الفن الذي نشتغل به بحقائق الحياة وصوره ، ولقد أودعت هذه الرسالة جميع ما يمكن لمحب مفتن أن يضمره في نفسه من لواعج الحب والغرام ، ولقد كانت أناتي وزفراتي قبل اليوم طائره هائمة في أجواء الفضاء لا تجد لها مستقرًا ولا مهبطًا أما الآن فقد وجدت على يدك المستقر الذي تطلبه وتسعى إليه ، وستقرأ روكسان هذه الرسالة بعد ساعة وسترى أنها الصورة الحقيقية لعواطفك وشعورك لا ينقصها شيء حتى روح الإخلاص وجوهره ، قال : ألا تحتاج لتغيير شيء فيها؟ قال : لا ، قال : أخاف أن ترتاب بها ، قال : كن على ثقة من أنها ستعتقد حين تقرأها أنها ما كتبت إلا لها ، وأنها هي التي أوحت بها إلى نفس كاتبها .

فتناول كرستيان الرسالة طائرًا بها فرحًا وترامى على عنق سيرانو يقبله ويلثمه ويضمه إلى صدره ويقول : آه صديقي الكريم ، ما أعظم شكري لك واغتباطي بصحبتك ، وظل على ذلك هنيهة وكان القوم وقوفًا أمام باب المطعم ينتظرون إذن سيرانو لهم بالرجوع وهم يسمعون ضوضاء الحديث بينه وبين صاحبه فيتوهمون أنه الجدال العنيف والخصام الشديد حتى شعروا بذلك السكون الذي ساد بينهما فريعوا وخيل إليهم أنه سكون الموت فدفع راجنو الباب قليلًا وأطل من فجوته فرأى هذا المنظر فذعر وخيل إليه الرعب الذي لحقه أنه يرى منظر الموت وأن كرستيان صريع بين يدي سيرانو ، فظل يرتجف ارتجافًا شديدًا ، فهمس القوم في أذنه : ماذا ترى؟ قال : دعوني فإني لا أجرؤ على النظر وأكاد أموت خوفًا ورعبًا ، فدفعوا الباب جميعًا ودخلوا ، ففهموا الحقيقة التي ما كانوا يتصورونها ولا يقدرونها في أنفسهم ورأوا أن ذلك الصراع الذي كانوا يتوهمونه بين خصمين متباغضين إنما هو عناق طويل بين صديقين مخلصين ، فدهشوا دهشة عظمى ، وظل بعضهم يهمس في أذن بعض : إنه يعانقه ويلتزمه كأنه أصدق أصدقائه ، وقال « كاربون دي كاستل » : أحمد الله تعالى فإن شيطاننا قد اهتدى ، وصاح آخر : عجبًا لك يا سيرانو! لقد أصبحت مسيحيًا تقيًا إذا ضربك أحد على أحد منخريك أدرت له الآخر .

فلم يغضب سيرانو هذه المرة ولم يكترث بل ابتسم له وتطلق ، كان بين الداخلين « الرجل الهائل » صديق « ليز » فأطمعه هذا الموقف في حلم سيرانو ، وقال في نفسه : لقد فقد الرجل حميته وانطفأت شعلة حماسته وأظن أني أستطيع أن أتكلم عن أنفه الآن باطمئنان ، ثم أشار إلى ليز فاقتربت منه ، فقال لها : سأريك الآن منظرًا من أبدع المناظر وأبهجها وأخذ يدور في أنحاء القاعة ويستنشق الهواء بصوت عال كأنما يشعر برائحة غريبة حتى دنا من سيرانو فلمس كتفه وقال له : ما هذه الرائحة الغريبة يا سيدي؟ فصمت سيرانو ولم يقل شيئًا ، فأدنى وجهه من وجهه وأطال النظر إلى أنفه وقال له : قل لي ما هذه الرائحة الغريبة المنتشرة في هذا الجو ، فإنك تستطيع أن تفهمها أكثر مني؟ فما أتم كلمته حتى لطمه سيرانو على وجهه لطمة هائلة رنت في أرجاء القاعة وقال : رائحة الذعر أيها الجبان ، فصفق القوم تصفيقًا شديدًا ، وأغربوا في الضحك جميعًا حتى ليز .

■ ■ ■

الفصل الثالث

حرفة الأدب

منزل روكسان منزل جميل ، أنيق تمتد أمام بابه شرفة عالية بديعة ، قائمة على ساريتين ضخمتين تتسلق فوقهما أغصان ياسمين مغروسة أمام الباب حتى تصل إلى الشرفة فتنتشر في أنحائها ، ويقابل هذا المنزل منزل آخر يشبهه في شكله ورونقه ، ولا يختلف عنه بشيء سوى أن حلقة بابه ملفقة بقطعة من نسيج كأنها أصبع مجروحة مضمدة ، وبين المنزلين ميدان واسع يتوسطه مقعد مستطيل من الرخام جلست عليه وصيفة روكسان وراجنو الشواء يتحدثان ، فمسح راجنو دمعة كانت تترقرق في عينيه وقال لها :

ولقد حزنت كثيرًا لفرارها مع ذلك الضابط الخبيث وبكيت ما شاء الله أن أفعل لأنها كانت سلوة حياتي ، ومعينتي على أمري ، وما هي إلا أيام قلائل حتى تكشف الغطاء عن ذلك الإفلاس العظيم الذي كان كامنًا في حسابي ، والذي كنت أستره بجدي وجدها وتراكمت علي الديون وعجزت عن الوفاء فلم أر بدًا من الانتحار فخلوت في حانوتي ليلة أمس وألقيت آخية في عنقي ، وما هو إلا أن صعدت على الكرسي ووضعت قدمي على حافته لأدفعه من تحتي حتى دخل سيرانو فهاله الأمر وتعاظمه وفهم للنظرة الأولى كل شيء ، فابتدر الحبل فقطعه بسيفه وقال : ماذا أصابك أيها المسكين؟

فنفضت له جملة حالي وبثثته همي ، فأشفق علي وجذبني من يدي حتى جاء بي إلى هنا وقص على روكسان قصتي وقال لها : إن راجنو صديقًا وصاحب اليد البيضاء علينا ، وعلى الأدباء جميعًا شعرائهم وكتابهم ، وهو وإن لم يكن من نوابغ الشعراء المجيدين فهو أديب متفنن محسن إلى رجال الشعر والأدب ضنين بهم وبكرامتهم ، فلم أجفل كثيرًا بتلك الغمزة التي غمزنيها في حديثه ، وما زال بها حتى استثار عطفها وشفقتها فبكت رحمة بي ، واستدنتني إليها وواستني ببعض الكلمات الطيبة ثم عهدت إلي بهذا الشأن الذي أقوم به في منزلها كما تعلمين ، فاستعبرت الوصيفة باكية ، وقالت : لقد كان يخيل إلي يا راجنو أنك سعيد الطالع في أعمالك ، وأنك تربح كثيرًا فما الذي دهاك وجر عليك هذا البلاء؟ قال : حرفة الأدب يا سيدتي ، فقد كنت أحب رجال الشعر ، وكانت « ليز » تحب رجال السيف فلم يزل « مارس » يأكل ما يشاء ، ثم يلقي ما تبقى منه إلى « أبولون » حتى نزل بي ما ترين!

فرثت الوصيفة لحاله وظلت تلاطفه وتواسيه حتى هدأ وسكن ، ثم نهضت من مكانها واتجهت جهة الشرفة وظلت تنادي : سيدتي روكسان أسرعي ، فقد دنا ميعاد المحاضرة ، فأجابتها سيدتها من داخل البيت : ها أنا ذا آتية فانتظري قليلًا ؛ فقال لها راجنو : أية محاضرة تريدين؟ قال : سيحضر الساعة إلى منزل « كلوميز » –

وأشارت إلى ذلك المنزل المقابل لمنزل سيدتها – رجل من العلماء الباحثين اسمه « الكاندر » ليلقي محاضرة عن الحب ، وقد دعيت سيدتي لاستماعها وسأذهب معا بالطبع ، فضحك راجنو وقال : ما سمعت قبل اليوم أن الحب فن من الفنون التي يلقى فيها المحاضرات ، قالت وهي تبتسم : ليس في الفنون ما هو أحق بالمحاضرات من الحب .

وهنا سمعا صوت قيثارة آتية من بعيد فالتفتا وراءهما فإذا سيرانو مقبل ووراءه غلامان صغيران يحمل كل منهما في يده قيثارة يوقع عليها ، وهو ينهرهما ويتغيظ عليهما كأنهما طالبان بين يدي مؤدبهما ، ويقول لهما : قد أمرتكما أيها البليدان أن تثلثا النغمات وأنتما تأبيان إلا أن تثنيتها ، فقال له راجنو : بخ بخ يا سيرانو ، متى كان عهدك بمعرفة المثالث والمثاني! قال : عهدي بها منذ ذلك اليوم الذي جثوت فيه بين يدي جاصندي الموسيقي العظيم ، وما أنا إلا تلميذه وخريج مدرسته ، ثم التفت إلى أحد الغلامين وانتزع منه قيثارته واستقبل شرفة روكسان وأخذ يغني هذه القطعة :

« قد جئت أسلم على ياسمينك ، وأقدم تحياتي لورودك وألثم بخضوع وخشوع أوراق زنابقك البيضاء » ، فسمعت روكسان صوته فخرجت إلى الشرفة فرأته ، فقالت : ها أنا ذي قادمة يا سيرانو ، وكانت قد فرغت من زينتها ولباسها ، فنزلت فحيته ،

وقالت له : ما هذا المنظر الغريب! ومن هذا الغلامان الصغيران! قال : هما ولدان موسيقيان قد ربحتهما اليوم في رهان ، فضحكت وقالت : أي رهان؟ قال : جادلت اليوم « داسوسي » في مسألة نحوية موضعها الفرق بين « لا وبلى » واشتد بيننا اللجاج ساعة فاستحمق وأشار إلى هذين الغلامين ، وكانا واقفين بين يديه ،

وقال لي : سأراجع المسألة الآن في مظانها من الكتب وليكونن هذان الغلامان طوع أمرك ليلة كاملة تذهب حيث تشاء ويغنيانك ما تريد إن كان الفوز لك فيها ، ثم قام إلى خزانة كتبه فراجع المسألة فكان الحق في جانبي فأخذت الغلامين وسرت بهما يغنياني ويأتمران بأمري في كل ما أقترحه عليهما من الضروب والألحان حتى وصلنا إلى هنا ، قالت : وهل أنت راض عنهما؟ قال : إنهما يجيدان بعض الإجادة ، وقد طربت لنغماتهما ساعة ، ثم سئمتهما ، ولا أدري ماذا أصنع بهما الآن! وأحسب أني لا أستطيع احتمالهما حتى مطلع الفجر ، وصمت هنيهة ثم ابتسم والتفت إليهما ، وقال لهما : أتعرفان منزل مونفلوري الممثل البطين؟ قالا : نعم ، قال : اذهبا إليه وقفا تحت نافذة مخدعه الذي ينام فيه واضربا لحنًا طويلًا مزعجًا مضطرب النغمات يذهب براحته وسكونه ويملأ صدره غيظًا وحنقًا ، ثم عودا إلي بعد ذلك .

فانحنى الغلامان بين يديه وانصرفا ، فالتفت سيرانو إلى روكسان وقال لها : قد جئت أسأل سيدتي كما أسأل لها كل ليلة ما رأيها في حبيبها كرستيان؟ ألا تزال تراه إنسانًا كاملًا خاليًا من العيوب والهنات حتى الآن! قالت : نعم ما في ذلك ريب فلقد جمع الله له بين فضيلتي الجمال الباهر ، والذكاء النادر ، وقلما اجتمعا لإنسان سواه ، قال : أترين أنه ذكي إلى هذا الحد؟ قالت : نعم ، بل أذكى من كل من عرفت في حياتي حتى أنت يا سيرانو ؛ فاغتبط سيرانو في نفسه اغتباطًا عظيمًا ، ولكنه تظاهر بالتبرم والاستياء وهز رأسه كالمرتاب وقال : ربما ، قالت : ولقد بلغ من الذكاء والفطنة تلك المنزلة التي يتكلم فيها المرء بأشياء غريبة مدهشة يظنها السامع لأول وهلة أنها لا شيء والحقيقة أنها كل شيء ، ولقد يضعف نور ذكائه أحيانًا ويشرد ذهنه حتى يخيل إلي أنه عيي أو غبي ، ولكنه متى عاد إلى نفسه صاغ بلباقة ومهارة تلك الجواهر البديعة التي لم أر مثلها في حياتي ، قال : وهل يحسن الكلام عن القلب؟ قالت : إنه لا يقنع بالكلام حتى يحلله تحليلًا دقيقًا ، قال : وما رأيك في كتابته؟ قالت : إنه يكتب أحسن مما يتكلم ، وكأن أسلوبه لماء النمير المترقرق على بياض الحصباء وما أجمل كلمته التي يقول فيها :

« خذي من قلبي ما شئت فسيبقى لي منه ما يكفيني » ، ألا ترى أنه معنى بديع؟ قال : لا بأس به ، قالت : واسمع هذه الجملة أيضًا وقل لي ما رأيك فيها؟ : « إن كان لابد لك من أن تحتفظي بقلبي لديك فأعيريني قلبك بدلًا منه فإنني في حاجة إليه لاحتمال ما ألاقيه في سبيلك من الآلام والأوجاع » .

فقال وهو يكاد يطير في نفسه فرحًا : إنه يناقض نفسه بنفسه ، أحيانًا يغالي وأحيانًا يكون غير وفي ولا أدري ماذا يريد بقلبه! فتململت روكسان وقالت : إنك تضايقني كثيرًا يا سيرانو وما أحسبك إلا غيورًا ، فانتفض سيرانو وخيل إليه أنها قد ألمت بسريرة نفسه فظل ناظرًا إليها ذاهلًا لا يدري ماذا يقول حتى قالت له : وكذلك أنتم معشر الشعراء لا يطيق أحدكم أن يسمع كلمة ثناء على رفيقه ، فهدأ روعه وعلم أين ذهبت في حديثها ، ثم قالت له : واسمع هذه الجملة أيضًا فهي في غاية الغايات في قوتها ومتنانتها : « لو كان في استطاعتي أن أرسم قبلاتي على صفحات قرطاسي لقرأت كتابي بشفتيك بدلًا من عينيك » ، ما رأيك في هذه أيضًا؟ هل تستطيع أن تجد فيها مأخذًا؟ قال : لا أنكر أنها جميلة بديعة لولا ركة في بعض أجزائها ، فأربد وجهها غيظًا وقالت له : إنك عنيد يا سيرانو ، فاسمع هذه القطعة أيضًا فهي خير من جميع ما مضى ، فقاطعها وقال لها : هل بلغ بك الاهتمام بأمره أن تستظهري كلماته وتعيها في صدرك؟ قالت : نعم ، قال : ما يطمع كاتب من الكتاب في منزلة أعظم من هذه يا سيدتي ، قالت : إنه نابغة ما في ذلك ريب ، فاحمر وجهه خجلًا كأنما خيل إليه أنها قد ألمت بسريرة قلبه وإنها إنما تعنيه بكلامها ، وقال : إنك تغالين يا روكسان .

وإنهما لذلك إذ أقبلت الوصيفة مسرعة وقالت : قد جاء الكونت دي جيش ، فاضطربت روكسان وقالت لسيرانو : لا أحب أن يراك هذا الرجل عندي فأنت صديق كرستيان وأخاف إن رآك أن يدرك سر غرامي فيفجعني فيه ، فادخل المنزل ولا تظهر له حتى ينصرف لشأنه ، قال : سأفعل كل ما يرضيك يا روكسان ، ودخل المنزل ودخلت الوصيفة وبقية الخدم وراءه .

دهاء المرأة

أقبل الكونت دي جيش فرأى روكسان واقفة وحدها في مكانها فانحنى بين يديها وحياها وقال لها : قد جئتك اليوم يا سيدتي مودعًا وربما كان الوداع الأخير ؛ قالت : أمسافر أنت؟ قال : نعم قد صدر الأمر إلى الجيش بالسفر إلى « أراس » بعد بضع ساعات لتخليصها من يد العدو ويظهر لي أن نبأ سفري لم يؤثر عليك أقل تأثير ؛ قالت : لا تظن ذلك يا سيدي الكونت ، قال : أما أنا فإني حزين لفراقك حزنًا شديدًا ولا أدري ما الله صانع بي بعد اليوم؟ هل كتب لي في لوح مقاديره أن أراك مرة أخرى ، أم هو الفراق الدائم الذي لا لقاء من بعده؟ وأطرق برأسه حزينًا مكتئبًا ثم قال لها : وهل علمت أن الملك قد عهد إلي أمس برياسة أركان حرب الجيش؟ قالت : ما كنت أعلم ذلك من قبل ، وإنه لنجاح باهر يا سيدي الكونت ؛ لله درك ، قال : أي أنني أصبحت صاحب السلطان المطلق على الجيش بأجمعه بعد القائد العام ،

وفي استطاعتي أن أنتقم لنفسي في ميدان المعركة من جميع أعدائي وخصومي خصوصًا ذلك الرجل الوقح الجريء ابن عمك سيرانو وأن أحاسبه حسابًا غير يسير على جرائمه وآثامه ، فذعرت روكسان وخفق قلبها خفقًا شديدًا لا خوفًا على سيرانو بل على كرستيان ، لأنها فهمت من كلامه أن فرقة شبان الحرس ستسافر مع بقية فرق الجيش ، فقالت له : أتذهب فرقة شبان الحرس إلى الحرب؟ قال : نعم كما تسافر جميع الفرق ، فاصفر وجهها وتخاذلت أعضاؤها ومدت يدها إلى المقعد فاعتمدت عليه وهي تقول بصوت خافت متهافت : آه يا كرستيان ! فعجب الكونت لأمرها وسألها ما بالها؟ قالت : إن هذا السفر يحزنني جدًا خصوصًا عندما أتصور أن الشخص الذي يهمني أمره أكثر من كل إنسان في العالم يخوض تلك المعامع المهلكة التي يرفرف عليها طائر الموت ، ولا أعلم هل أراه بعد اليوم أم هذا آخر العهد به .

فافتر ثغره وتهلل وجهه بشرًا وحبورًا وخيل إليه أنها إنما بكلامها وأنه هو الشخص الذي يشغلها ويعنيها والذي تخشى عليه أن تلم به تلك الكارثة العظمى فقال لها : ما كنت أعلم يا روكسان قبل اليوم أنك تضمرين لي في نفسك هذا الحب كله ، فصمتت لحظة ثم التفتت إليه وقالت : وهل أنت مصمم على الانتقام من سيرانو؟ قال : نعم إلا إذا كنت تكرهين ذلك ، قالت : لا بل لا أريد غير ذلك ،

قال : هذا ما أعتقده ، ثم قال : ألا يزال هذا الرجل يختلف إلى منزلك حتى اليوم؟ قالت : لا إنه لا يزورني إلا نادرًا جدًا ، وليته لا يفعل ، ولولا صلة القربى التي بيني وبينه ما أذنته بزيارتي ، قال : قد حدثوني عنه أنه منصرف في هذه الأيام إلى مرافقة جندي نبيل من جنود الحرس الطارئين ويقولون إنه لا يكاد يفارقه ليله ونهاره ، قالت : ومن هو هذا الجندي النبيل؟ قال : قد نسيت اسمه الآن ، وهو كما وصفوه لي فتى طويل القامة مشرق الوجه أصفر الشعر تلوح على محياه مخائل العز والنعمة وتلمع في صفحة وجهه بارقة خفيفة من الجمال ، ولكنه غبي بليد ، ولا أفهم حتى الآن ما هي الصلة التي بينهما!

فصمتت روكسان طويلًا ذهبت نفسها فيه كل مذهب ، ثم التفتت إليه بغتة ، وقالت له ، وهي تبتسم ابتسامة غريبة لا يفهم معناها إلا من فهم سريرة المرأة واضطلع بغرائزها وسجاياها : أتظن يا سيدي الكونت أنك تكون قد انتقمت لنفسك منه إذا عرضته لنار الحرب التي يحبها ويعبدها ، ولا يقترح شيئًا سوى أن يصطلي بها ويخوض غمارها؟ هذه هي المرة الأولى التي رأيتك فيها تنظر في أمر من الأمور نظر الغرارة والسذاجة! قال : آه لقد فاتني أن أنتبه إلى ذلك فما العمل؟ قالت : عاقبه بحرمانه من أمنيته التي يتمناها ، فذلك أقتل له من القتل وأنكى له من الموت ،

فليسافر الجيش بأجمعه وليتخلف هو وحده بل تتخلف معه فرقته جميعها ، فإنها كما علمت مؤلفة من أشرار متمردين يذهبون مذهبه في أخلاقه وطباعه ويساعدونه في كل جرائمه وآثامه ، ولتكن حجتك في ذلك إن شئت : إن باريس في حاجة إلى فرقة من الجيش تتخلف للدفاع عنها وقت الحاجة ، وإنك قد اخترت لها هذه الفرقة للدفاع عنها ، وهكذا يموت الرجل همًا وكمدًا وتتمزق أحشاؤه غيظًا وحنقًا ويغرب نجم شهرته غروبًا لا طلوع له بعده ، فيصبح بطل الطرق والشوارع ، لا بطل الحروب والمعامع .

فابتهج الكونت ولمعت أسارير وجهه ووضع يده على كتفها وقال لها : لله درك يا سيدتي ، لقد صدق من قال : « لا يحسن الانتقام من الرجل مثل المرأة » .

ثم حنا عليها وقال لها : إذن أنت تحبيني يا روكسان؟ فنظرت إليه نظرة باسمة متلألئة وأطرقت برأسها ، ولم تقل شيئًا ، ففسر ابتسامتها التفسير الذي أراده ، وابتسامة المرأة لفظ مشترك يحتمل جميع المعاني وضروبها من الحب القاتل إلى البغض العميق ، ثم قال لها : ذلك ما كنت أقدره يا روكسان مذ عرفتك حتى اليوم فلم يخطئ ظني ، ثم أخرج من جيبه كتبًا مغلقة معنونة بعناوين فرق الجيش فأمر نظره عليها إمرارًا حتى عثر بكتاب فرقة شبان الحرس ففصله عن بقية الكتب ووضعه في صدره ،

وهو يقول : ما أشد دهاءك يا روكسان ، وما أوسع حيلتك! نعم إن مزاج الرجل حربي متوقد فلا يقتله ولا يفت في عضده ، ولا يلصق أنفه بالرغام غير حرمانه ميدان الحرب وتركه في شوارع باريس يتسكع فيها تسكع العاطلين المتبلدين ، ثم نظر إليها باسمًا وقال لها : أهذا شأنك دائمًا يا روكسان أن تكيدي للناس أمثال هذه المكائد؟ فابتسمت وقالت : لا ، بل لا أفعل ذلك إلا عند الضرورة .

فأطرق برأسه وصمت طويلًا ، وقد أخذت شفتاه تختلجان وترتجفان كأنما تحدثه نفسه بشيء يحاول أن يقوله لها فلا يستطيعه ، ثم تشجع ، وقال : بقيت لي كلمة أحب أن أقولها لك يا سيدتي فهل تسمحين لي بها؟ قالت : قل ما تشاء فأنا مصغية إليك ، قال : إنني أحببتك يا روكسان من عهد بعيد كما تعلمين ، وكان كل أملي في حياتي أن أعيش بجانبك عيش القانع بك عن جميع متع الحياة ولذائذها فحالت بيني وبينك الحوائل التي تعلمينها ، وقد كنت أظن أنني سلوتك وغنيت عنك بغيرك ونفضت يدي أبد الدهر منك ، ثم ما لبثت أن علمت أنني واهم فيما ظننت ، وأن ذلك الداء القديم لا يزال كامنًا بين أحناء ضلوعي ، فسمج في نظري وجه الحياة ومر في فمي مذاقها وأصبحت حائرًا قلقًا لا يهدأ لي روع ولا يستقر بي مضجع ،

ولا أدري حين أراك وأرى ابتسامتك اللامعة المضيئة ونظراتك العذبة الجميلة هل تضمرين لي في قلبك الحب مثل ما أضمر؟ أو أنها المصانعة والمجاملة ومجاراة الود بالود والرجاء بالتأميل؟ وما زال هذا الشك يساورني ليلي ونهاري حتى رأيت الآن بعيني تلك الرجفة الشديدة التي سرت في أعضائك عندما أنبأتك نبأ سفري ، فعلمت أنك تحبيني وما كشف أسرا الحب ، ولا هتك الستر عن مخابئه ومكامنه مواقف الوداع .

وها أنذا الآن على وشك السفر ولا أعلم هل هو فراق وشيك أم هو السفر الدائم الذي لا رجعة من بعده؟ فأسألك أن تزوديني بقليل من الزاد أستعين به على مشقة السفر ووحشة الطريق ، حتى إذا دنت الساعة الأخيرة تمثلت صورته في ذهني فهانت علي آلام الموت ؛ فإن سمحت به فائذني لي أن أتخلف الليلة عن السفر مع الجيش على أن لا تطلع شمس الغد حتى أكون قد امتطيت جوادي ولحقت به في المكان الذي وصل إليه .

فارتجفت روكسان ، وقالت : ولكن ماذا يقول الناس إذا رأوا رئيس أركان حرب الجيش قد تخلف عن جيشه وبقي في باريس لغرض من أغراضه الغرامية؟

قال : ذلك ما لم يفتني النظر فيه والحيطة له ، يوجد بالقرب من هذا المكان دير في شارع أورليان أسسه رئيس الكابوشان « الأب أتاناس » وله قانون غريب يقضي بأن لا يطأ أرضه أحد من الناس سوى رهبانه وقساوسته ، وأنا إن لم أكن راهبًا ولا قسيسًا ، ولكنني صهر الكردينال ريشيليه رئيس الكهنوت الأعظم ،

ولا شك أن الذين يخافونه ويخشون صولته لا يستطيعون أن يرفضوا نزولي بديرهم بضع ساعات بل ليس في استطاعتهم إن أردت أن يمتنعوا عن أن يخبئوني تحت قلانسهم أو في ثنايا بئالسهم أو فروج أكمامهم لأنها واسعة جدًا لا تضيق بمثلي! وها أنذا ذاهب الآن إلى ذلك الدير المقدس لأكمن فيه بضع ساعات حتى إذا انتصف الليل لبست قناعي وجئتك متنكرًا في جنح الظلام فلا يشعر أحد بمقدمي ، ولا منصرفي .

فاستطير عقل روكسان وجن جنونها ودهمها من الأمر ما لا تعرف وجه الحيلة فيه ، ولا طريق المخرج منه ، ثم ما لبثت أن رجعت إلى نفسها وملكت زمام عواطفها ، وقالت له بهدوء وسكون : إن مجدك وعظمتك يا مولاي يأبيان عليك ذلك الإباء كله ، ولئن استطعت أن تكاتم الناس أمرك فإنك لا تستطيع أن تكاتمه نفسك أو تخادع فيه ضميرك .

إن فرنسا تطالبك بطرد العدو عن أرضها واستنفاذها من يده القاهرة المسيطرة ، فليكن هذا هو كل ما تفكر فيه ، ولا يشغلك عنه شاغل من شهوات نفسك ولذائذها ، ولا تسمح لأحد من الناس أن يتحدث عنك ، لا بل لا تسمح لنفسك أن تحاسبك على ليلة قضيتها لاهيًا ناعمًا في بيت امرأة تحبها و « آراس » باكية حزينة تضطرب بين يدي قاهرها اضطراب الحمامة الوديعة في مخالب الصقر الجارح وتصرخ صرخات مؤلمات أنت أول يا مولاي من يسمعها ويضطرب شعوره لها .

سر يا سيدي على رأس جيشك ، وكن نجمه الذي يهتدي به في ظلماته وملجأه الذي يأوي إليه في شدته ، واعلم أنك لن تستطيع أن تنزل منزلة الحب والكرامة في نفوس الذين يحبونك إلا إذا كانت فرنسا أحب إليك منهم ، بل من نفسك التي بين جنبيك .

فاستخزى لكلماتها وتضعضع وقال لها : إذن أنت تحبينني يا روكسان؟ قالت : كيف لا أحب صميم فؤادي من خفق قلبي خفقة الحزن والألم جزعًا لفراقه وإشفاقًا على حياته؟ فصاح : واطرباه وافرحتاه سأنزل على حكمك في كل ما تريدين وسأسافر الساعة طوعًا لأمرك فاذكريني دائمًا ولا تنسيني ، قالت : لا أستطيع أن أنساك قط ، فتناول يدها وقبلها وانحنى بين يديها وانصرف .

وكانت روجينا وصيفة روكسان مختبئة وراء سارية الشرفة تسمع حديثهما وتفهم مغزاه ، فما أبعد الكونت قليلًا حتى برزت من مخبئها وهي تغرب في الضحك وتقول : ما أشد حزني لحزنك يا سيدتي! فضحكت روكسان وقالت لها : اكتمي كل شيء عن سيرانو فإنه لا يغتفر لي أبد الدهر حرماني إياه من الحرب فوارحمتاه له ؛ ثم هتفت به فخرج من المنزل وهو يقول : ما أكثر الذين يحبونك يا روكسان! قالت : نعم ولكنني لا أحب إلا واحدًا منهم ، ثم قالت له : قد دعيت الليلة إلى هذا المنزل : « وأشارت إلى منزل كلومير المقابل لمنزلها » لسماع المحاضرة التي يلقيها « الكاندر » عن الحب فأذن لي بالذهاب وابق أنت هنا ، فإذا جاء كرستيان فقل له ينتظرني حتى أعود ، قال : سأفعل إن شاء الله ،

ولكنك لم تخبريني كعادتك في أي موضوع من مواضيع الحب تحبين أن يتحدث كرستيان الليلة إليك؟ قالت : لقد كان حديثنا بالأمس عن «موقف الوداع» فليكن حديثنا الليلة عن « النظرة الأولى » لا بل عن « الغيرة » لا بل عن «الأمل الضائع» لا بل اتركه على سجيته لا تحدد له موضوعًا خاصًا حتى لا يستعد ، فإنني أريد أن أختبر بديهته كما اختبرت رويته من قبل ، فقل له يحدثني عن « الحب » وكفى ، ثم حيته وانصرفت وتبعتها وصيفتها .

وكان كرستيان مقبلًا في تلك اللحظة فسمع آخر كلماتها فقال : ما الرأي يا سيرانو؟ قال : عد بنا إلى المنزل لمذاكرة الدرس الجديد وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى نكون قد فرغنا وعدنا قبل عودتها ، فصمت كرستيان هنيهة ثم رفع رأسه وقال : لا ، لا أريد الليلة دروسًا ولا مذاكرة فإني أذوب شوقًا لرؤيتها ، قال : ولكنك لا تعرف كيف تحادثها! قال : دعني وشأني فقد شببت الطوق وتجاوزت تلك السن التي يعجز فيها المرء عن أن ينطق إلا بما يلقنه إياه أبواه وأظآره فقال : إنك تخاطر بنفسك مخاطرة عظمى ، قال : فليكن ما أراد الله فقد استحييت من نفسي لكثرة ما مثلت من هذا الدور الشائن المعيب دور الآلة الموسيقية التي يوقع عليها ضاربها فتنبعث منها نغماتها المطربة دون أن تشعر بنفسها وبما ينبعث منها ؛ على أنني قد استفدت من دروسك الماضية ما يسمح لي بمحادثتها ومذاكرتها والإفاضة معها في كل شأن من الشؤون التي أريدها ،

وما أنا بغبي إلى الدرجة التي تتصورها فسأكلمها بنفسي وسأشرح لها جميع عواطفي التي تختلج في صدري ، وما أحسبها تطالبني بأكثر من ذلك ، قال : هل أنت على ثقة من نفسك؟ قال : كيفما كان الأمر فقد تجاوزت الصلة التي بيني وبينها حد الذرائع ، والوسائل إلى الحب الخالص المتين الذي تغتفر معه الهفوات ، وتستحيل فيه السيئات إلى حسنات ، ولئن عجزت عن أن أحدثها بلساني فسأحدثها بلسان القبلات واللثمات .

وهنا سمع صوت روكسان ، وهي خارجة من منزل « كلومير » في جمع عظيم من النساء ، فقال سيرانو لكرستيان : قد فات الأوان فائذن لي بالذهاب ؛ فذعر كرستيان واستطير عقله ، وقال : بل ابق معي يا صديقي ؛ قال : لا ، فقد أصبحت غنيًا بنفسك عني ، وتركه وانصرف .

ولكنه لم يبعد إلا قليلًا حتى عاد متسللًا من حيث لا يشعر به أحد واختبأ وراء حائط الحديقة يتسمع حديثهما .

الشرفة

قالت روكسان لكرستيان ، وقد جلسا معًا على المقعد الرخامي في وسط الساحة : لم أدرك من المحاضرة الغرامية التي ألقيت في منزل « كلومير » إلا ختامها ، فلم أستفد منها شيئًا فحدثني أنت عن الحب وأطلق لنفسك العنان فيه ما شئت ،

وها هو الليل قد أظلنا بسكونه وهدوئه ، وها هي باريس قد أوت جميعًا إلى مضجعها فتحدث فإني مصغية إليك ؛ فارتجف كرستيان ارتجاف الطالب الضعيف في موقف الامتحان ، ولكنه لم ير بدًا من أن يتكلم ، فانثنى إليها ، وقال لها : أحبك يا روكسان ، وصمت ، فقالت له : وأنا أحبك أيضًا يا كرستيان ثم ماذا؟ فلم يفتح الله عليه بكلمة أخرى فعاد إلى نغمته الأولى ، وقال لها : أحبك يا روكسان حبًا جمًا وسكت ، فقالت له : هذا هو النسيج فوشه وطرزه فازداد ارتباكه واضطرابه ، وقال : آه ما أشد حبي لك يا روكسان ، قالت : ما شككت في ذلك قط! ولكني أريد أن تقول لي كيف تحبني؟ قال : أحبك حبًا ما أحبه أحد من قبلي أحدًا ، قالت : صوّر لي عواطفك وشعورك ، قال : ليتك تضمرين لي في قلبك من الحب مثل ما أضمر لك ، قالت : إنك تقدم لي من اللبن مخيضه ، وأنا لا أريد إلا زبدته ، قل قل كيف تحبني؟ قال : أحبك حبًا يعجز لساني عن التعبير عنه لأنه فوق طاقتي ؛ قالت : ولكني أريد أن تعبر لي عنه وأن تلمس بيدك أوتار قلبي وتملك علي عواطفي وشعوري ، قال : آه لو استطعت أن ألثم جيدك الفضي الجميل ، فجزعت وانحرفت عنه قليلًا وقالت : كرستيان ، إنك قد جننت ، قال : ما أشوقني إلى لثمة من فيك أبرد بها غليلي ، فنهضت قائمة وقالت : إنك تضايقني الليلة كثيرًا يا سيدي! وأرادت الذهاب فأمسك بثوبها ، وقل عفوًا يا روكسان ، فإن ذنبي عظيم ،

وما زال يضرع إليها بنظراته المنكسرة حتى هدأت وجلست ، فقال لها : آه لو تعلمين كم أحبك ، قالت : أهذا كل ما عندك؟ وأرادت النهوض مرة أخرى فأمسك بيدها ، وقد طار صوابه والتاث عليه أمره وظل يقول لها : لا ، لا تغضبي يا روكسان فإنني لا أحبك ، فضحكت وقالت له : ذلك خير لي ، فانتبه إلى هفوته وقال : لا تصدقي ما قلت فإني أردت أن أقول لك : إنني لا أحبك فقط بل أعبدك وأدين بك ، فتململت وقالت : لقد ضاق صدري ، قال : أعترف لك بأنني قد أصبحت بليدًا لا أفهم شيئًا .

قالت : ذلك ما يحزنني كثيرًا فالبلادة عندي والدمامة سواء ، فاذهب الآن واجمع شتات ذهنك ثم عد إلي الليلة الآتية ، ونهضت قائمة فتشبث بها وقال : انتظري قليلًا فإنني سأقول لك شيئًا جميلًا ، انتظري يا روكسان فإني أريد أن أقول لك .... فقاطعته وقالت : إنك تحبني وتعبدني وتموت وجدًا بي ، فلقد عرفت ذلك كله ولا أريد أن أسمع منه شيئًا ، فاذهب لشأنك فقد ضقت بك ذرعًا .

ثم تركته ودخلت المنزل فجن جنونه وظل واقفًا مكانه يتحرق ويتغيظ ، ويقول : آه ذلك ما كنت أخافه ، أين أنت يا سيرانو؟ فما أتم كلمته حتى رأى سيرانو مقبلًا عليه يبتسم ابتسامة المتهكم ويقول له : أهنئك بالنجاح العظيم الذي أحرزته يا كرستيان ، فانتفض وقال : أنت هنا؟ ثم ترامى بين ذراعيه ،

وقال : الرحمة يا صديقي فإني أكاد أموت غمًا ، قال : وما الحيلة بعد الذي كان؟ لقد انقضى كل شيء فلا سبيل إلى الرجوع ، قال إن لم تر لي الساعة رأيًا قتلت نفسي ، إنني لا أستطيع أن أنصرف من هنا وهي واجدة علي ، فارحمني واتخذها عندي يدًا لا أنساها لك مدى الدهر ، فصمت سيرانو وهو يعالج في نفسه ألمًا ممضًا لا تستشف مكانه من أعماق قلبه عين واحدة هي عين الله تعالى ، ثم قال له : ها هو الظلام حالك لا يلمع فيه نجم ، وها هي الطريق مقفرة لا يطرقها طارق ، فاستمع لما ألقي عليك ، فاستطير كرستيان فرحًا وتناول بها آمرك به ، قال : ما عصيت لك أمرًا قبل اليوم ، قف هنا أمام الشرفة وسأقف أنا من تحتها على قيد خطوة منك حيث تراك روكسان ولا تراني ، ثم نادها ، فإذا أشرفت عليك فسألقنك همسًا ما يجب أن تقوله لها .

وإنهما لكذلك إذ أقبل الغلامان الموسيقيان اللذان كانا أرسلهما سيرانو لإزعاج مونفلوري في مرقده فقال لهما : أفعلتما ما أمرتكما به؟ قالا : نعم ، ما زلنا نضرب اللحن المضطرب المشوش زمنًا طويلًا حتى طاش عقله وجن جنونه فأطل من النافذة وظل يشتمنا ويسبنا ويستعدي رجال الشرطة علينا حتى انصرفنا ، قال : أحسنتما فارجعا الآن وقفا على رأس هذا الشارع ، وليكن كل واحد منكما وراء سارية من سواريه وراقبا الطريق فإذا رأيتما سوادًا مقبلًا فاضربا لحنًا قصيرًا ، فقالا له : أي نوع من الألحان تريد أن نضرب؟ قال : اضربا لحنًا محزنًا إن كان القادم رجلًا ، ومفرحًا إن كان امرأة ،

فعاد الغلامان أدراجهما ووقفا حيث أمرهما ، ودفع سيرانو كرستيان وأقامه أمام الشرفة ووقف هو من تحتها على مقربة منه وقال له : نادها واخفض صوتك ، ما استطعت ، فاتجه كرستيان إلى النافذة ونادى روكسان! روكسان! فما لبث أن فتحت الباب الموصل إلى الشرفة وخرجت إليها وقالت من ينادي؟ قال : أنا قالت : ومن أنا قال كرستيان قالت : ماذا تريد قال : أريد أن أكلمك قالت : ذلك مستحيل لأنك لا تحسن الكلام قال : أضرع إليك قالت : إنك لا تحبني ، ولو كان في قلبك ذرة واحدة من الحب لأحسنت الكلام فيه .

قال – وسيرانو يلقنه – يا لله! إنها تتهمني بأنني قد سلوتها في الساعة التي أتجرع فيها كأس الموت وجدًا بها ، وكانت قد همت بالدخول فاستوقفتها هذه الكلمة وقالت : كيف تحبني؟ قال : قد اتخذ طفل لحب من نفسي الجائشة المضطربة أرجوحة لينة يلهو فيها ويلعب وينمو ويترعرع حتى إذا شب وأيفع وبلغ أشده عقها وغدر بها وجازاها شر الجزاء على صنيعها وقسا عليها القسوة التي يقسوها الطفل على عصفوره الضعيف المسكين ، فأصغت إليه وشعرت في حديثه روحًا جديدة لم تكن فيه من قبل ، فقالت له : ولم لم تخنقه في مهده قبل أن يشب ويترعرع؟ قال : ما كنت أستطيع ذلك لأنه ولد جبارًا قويًا متنمرًا حتى إنه استطاع وهو لا يزال يلعب في أرجوحته أن يصارع شيطان الكبرياء فيّ حتى صرعه وألقاه جثة هامدة بين يديه ، فاتكأت روكسان على حافة شرفتها ،

وقد أطربتها هذه النغمة الجديدة وقالت : ما أشد سواد هذا الظلام إنني لا أتبين موقفك جيدًا يا كرستيان ولكنني أشعر أن كلامك ينير لي مكانك فتكلم فإنك تطربني كثيرًا ، ولكن ما لي أرى نغمة حديثك تصدر عنك متقطعة كأنما قد أصبت بالنقرس في مخيلتك ، وكان عهدي بك قبل الآن طلق اللسان متدفقًا كالسيل المنصهر ، فذعر سيرانو وخاف أن ينكشف الأمر فجذب كرستيان إلى ما تحت الشرفة ووقف هو في مكانه وانثنى إليه وأسر في أذنه قد أصبح الموقف حرجًا جدًا فأصمت أنت وسأتكلم أنا عنك بصوت يشبه صوتك ، ثم أنشأ يجيب روكسان على سؤالها مقلدًا صوت كرستيان ويقول : ذلك لأن كلماتي تتخبط في هذا الظلام الحالك أثناء صعودها باحثة عن أذنك الصغيرة جدًا فلا يستقيم مسيرها ، قالت : ولم لا تضطرب كلماتي في هبوطها اضطراب كلماتك في عروجها؟ قال : لأنها تنحدر إلى قلبي مباشرة وقلبي رحب واسع فلا تضل طريقها ، على أن كلماتي صاعدة وكلماتك منحدرة والنزول أسهل من الصعود ، قالت : ما أبدع هذا المعنى! ويخيل إلي الآن أن كلماتك قد انتظم مسيرها فإنها تصل إلى أذني بأسرع من ذي قبل ، قال : ذلك لأنها ألفت هذه الحركة وحذقتها ؛ فصمتت لحظة ثم دارت بعينيها في الفضاء وقالت : حقيقة إنني أتكلم من علو شاهق ، قال : إذن فاحترسي فإن كلمة واحدة قاسية تلقينها علي من موقفك هذا كافية لقتلي ؛ فاستضحكت وقالت : لا تخف يا كرستيان فإني آتية لأحدثك وجهًا لوجه ، لا تفعلي ؛ بل ابقي في مكانك ، قالت : لماذا؟

قال : لأن هذا الموقف جميل جدًا يعجبني ويطربني ، فلنتحدث كما نحن كأننا روحان هائمتان في أجواء الفضاء تفتش كل منهما عن صاحبتها فلا تكاد تعثر بها ، دعينا نتحدث كما نحن وبيننا هذا الموج المتلاطم من الدجنة الحالكة ، لا ترين مني إلا سواد معطفي المسبل علي ولا أرى منك إلا بياض ثوبك الصيفي فأنت تمثلين الكوكب الساطع في سمائه ، وأنا مثل الظلام المخيم على سطح الغبراء .

إن لهذا الموقف الشعري الجميل في هذه الساعة الساكنة من الليل أعظم الفضل في صفاء ذهني وانتعاش نفسي ويقظة قلبي وانطلاق لساني من حبسته وجموده ، فكوني كما أنت ، ولأكن كما أنا ، لا تشعرين مني بغير خفقان قلبي ، ولا أشعر منك بغير أشعة جمالك ، أناجيك كأنني أناجي الله في علياء سمائه وتصغين إلى مناجاتي إصغاء الملائكة الأبرار إلى أنات البائسين وزفراتهم على ظهر الأرض .

وكان قد غلبه الموقف على أمره واستلهاه حسنها وجمالها واستغرق في شعوره ووجدانه فنسي أنه يتكلم بلسان غيره فأطلق لنفسه عنانها ، وأصبح يحدثها بنغمة غريبة لا هي نغمته ولا هي نغمة كرستيان بل نغمة النفس الوالهة المعذبة المتألمة ، فنالت من نفسها منالًا عظيمًا وقالت : إنك تحدثني الآن يا كرستيان بلهجة غير لهجتك الأولى ، حتى ليخيل إلي أنك قد تبدلت من نفسك نفسًا أخرى غيرها ، قال : نعم لأن كلامي قبل الآن لم يكن صادرًا من أعماق قلبي لأنني إنما كنت أحدثك بلسان ..

وكان يريد أن يقول : « كرستيان » فاستدرك هفوته وقال : بلسان الدهشة والحيرة والاضطراب الذي كان يلم بكل من يجرؤ على أن يقف موقفي هذا بين يديك ، أما الآن فنفسي هادئة وجأشي ساكن وروحي مطمئنة حتى ليخيل إلي أنني أناجيك للمرة الأولى في حياتي ، قالت : صدقت ويخيل إلي أنا أيضًا أنك تتكلم بصوت غير صوتك الأول .

قال : نعم ؛ لأنني استطعت في هذا السكون السائد والظلام الحالك ، الذي يحجبني عن العيون أن أكون أنا نفسي وأن أناجيك من طريقي لا من طريق ... وأراد أن يقول « غيري » فشعر بهفوته وحاول أن يصلحها فلم يستطع فتلعثم وتلجلج فقالت له : طريق من؟ قال : عفوًا يا روكسان إن شرد لبي واضطرب جناني بين يديك ، فقد سحرني وملك على عقلي هذا الموقف الجديد ، الذي لم أقفه مرة في حياتي ، فعجبت لأمره وقالت : جديد؟ قال : نعم جديد ، لأنه أول موقف استطعت فيه أن أكون صريحًا في كلامي ، حرًا في أفكاري جريئًا في حديثي ، أطلق العنان لنفسي فتهيم وتنبعث حيث تشاء ، فلا يحول بينها وبين الغاية التي تريدها حائل ، قالت : وهل لم يكن ذلك شأنك من قبل؟ قال : لا ، لأن خوفي من هزئك بي وسخريتك مني كان يزعجني جدًا ويملأ قلبي رعبًا وخوفًا ، فدهشت وقالت : سخريتي! ولماذا؟ قال : تسخرين من تطرفي واندفاعي وتبسطي في الإفضاء بمكنونات نفسي فقد كان قلبي متسربلًا بسربال عقلي والعقل سربال ضاغط لا يطيقه القلب ، وكنت كلما هممت أن أترك السبيل لعواطفي أن تفيض وتنساب حيث تشاء أدركني الحياء والخجل فتلومت

واحتشمت ووقفت دون الغاية التي أريدها ، ولا ألبث أن أتطلع إلى الكوكب النائي في سمائه وأخطو الخطوات الأولى إليه لتناوله واستنزاله من فلكه حتى أشعر بالخجل من نفسي فأعود أدراجي قانعًا من حظي بزهرة صغيرة أجدها في طريقي من زهرات حديقة السماء فأقتطفها ، قالت : إن الزهرة جميلة أحيانًا ، قال : ولكنني لا أريدها الليلة ولا أقنع بها ، قالت : إنك ما كلمتني قط يا كرستيان بمثل هذه اللهجة البسيطة التي تكلمني بها الآن ، قال : نعم ، وليتنا نستطيع دائمًا أن نحتقر في مواقف الحب توافه الأشياء وحثالاتها وأن نترك التأنق والتجمل في صلاتنا وعلائقنا ونطلق العنان لأنفسنا لتعبر عن مشاعرها وعواطفها ، بالصورة التي تريدها بدلًا من أن نقيدها بتلك القيود الثقيلة التي تحبسها في محبس ضيق لا سبيل لها إلى التفلت منه .

فلنطرح بعيدًا عنا هذه الكأس الذهبية الصغيرة ، التي نتعاطى بها شرابنا قطرة قطرة فلا نكاد نشعر بلذة ما نتعطاه ولنندفع معًا إلى ذلك الغدير المترع المتدفق فنجثو على ضفته ونكرع من مائه العذب حتى نرتوي .

قالت : ولكنني أحب البلاغة يا كرستيان ؛ قال : إني أجل هذا الليل الساكن الهادئ وهذا الموقف الجليل المهيب وهذه النفحات العطرية المترقرقة ، وهذه القبة الجوفاء المرصعة بمصابيحها اللامعة ، أن أهينها بهذا الشيء الذي يسمونه البلاغة أو أن يكون حديثي معك بتلك اللغة التي يتفكه بها العشاق الكاذبون في رسائلهم الغرامية ، فلنتحدث بما توحيه إلينا ضمائرنا ، لا بما توحيه إلينا دواوين الشعراء ورسائل الكتاب ، ولنهدم تلك الحواجز المادية القائمة بين نفسينا ، حتى تتلامسا وتتماس وتستحيلا إلى نفس واحدة ، فإنني أخشى إن نحن ظللنا نشتغل زمنًا طويلًا بهذه التجارب الكيمائية أن تتبخر عواطفنا وتتلاشى في أجواء الفضاء ، وأن يكون فيما نظنه كل شيء القضاء على كل شيء .

قالت : ولكن البلاغة جميلة جدًا ، قال : وأنا أكرهها في الحب ، وأرى أن من أكبر الجرائم وأفظعها أن نشتغل عن أنفسنا ومطارح آمالنا ، ومسارح عواطفنا ، بإدراة هذه المعركة اللفظية التي لا طائل تحتها ، وأن تكون تلك المحاولات التي لا فائدة منها هي غاية مقصدنا من الحب ومنتهى أملنا منه والثمرة الأخيرة التي نجنيها من حياتنا .

إننا ما اجتمعنا هنا لنرى كيف نتحدث ، بل لنتحدث ونتناجى ، وما وقفنا هذا الموقف الجليل المهيب ، بين أحضان هذه الطبيعة الحلوة العذبة ، لنشتغل بتهذيب اللغة وابتكار الأساليب واختراع المعاني ، ولا ليقول كل منا لصاحبه ما أبلغك ، وما أسمى خيالك ، وما أبدع تصوراتك ، وأفكارك ، ولا لنتدارس البلاغة وأصولها وقوانينها ، ولا لنتحدى الشعراء والكتب في أساليبهم ومناهجهم ، بل ليسكب كل منا نفسه صاحبه فإذا هما في نفس واحدة تشعران بشعور واحد وتحسان إحساسًا واحدًا ، حتى لو استطعنا أن نصل إلى هذه الغاية ونحن سكوت لا نتكلم ولا ننبس بحرف واحد ، فعلنا .

هذه هي البلاغة وهذه هي حقيقتها ، أما الإغراق في التخيل والمبالغة في الوصف وخلق الصور والأساليب التي لا وجود لها في الخارج ، ولا أساس لها في الذهن ، وابتكار المعاني الغريبة التي تنبعث شرارتها من شعلة الذكاء ولا تنفجر من ينبوع القلب فهي وإن كانت جميلة محبوبة تستلهي الخاطر وتستوقف الناظر ولكنها ليست من البلاغة في شيء .

نريد أن نترك السبيل لنفسينا أن تتحادثا وتتناجيا كما شاءتا وأن لا تنغص عليهما نجواهما وسمرهما بهذه الضوضاء اللفظية التي نثيرها من حولهما .

نريد أن نفارق هذا العالم المملوء بالأكاذيب والأباطيل ، والصور والتهاويل إلى أفق طاهر نقي ، صاف مترقرق ، تتكاشف فيه وتتراءى ويتحدث كل منا إلى صاحبه بلغة تشبه في جمالها وحسنها ، وبساطتها وطهارتها ، ورقتها وعذوبتها ذلك الأفق الجميل الذي نسبح فيه ونطير في أجوائه ، فيكون مثلنا مثل الكوكبين الهائمين في أجواء الفضاء يتحادثان بلسان الضوء ويتناجيان بلغة الأثير .

قالت : وماذا تقول لي لو أردت أن تحدثني بتلك اللغة؟ قال : ألقي إليك بكل ما يخطر ببالي من الكلمات مبعثرًا غير منتظم ولا مرتب ، كما تتناثر أوراق الزهر عن أغصانها فأقول لك مثلًا :

أحبك يا روكسان حب العابد معبوده ، لا أستطيع أن أصبر عنك لحظة واحدة ، أصبحت على وشك الجنون بك وربما أكون قد جننت من حيث لا أدري ، كأن قلبي معبد وكأن اسمك ناقوسه ، فإذا وقع نظري عليك ارتعدت وارتجفت ، فرن اسمك في قلبي رنين الناقوس في المعبد ، قد احتملت فيك فوق ما يستطيع أن يحتمله البشر ، فما شكوت ولا تألمت ، أحببت فيك كل شيء ، أحببت فيك حتى كبرياءك ، وأحببت من أجلك حتى شقائي ، يخيل إلي أن الشمس على جدار قصرك أجمل منها على جدران القصور الأخرى ، وأن الروض الذي تخطرين فيه أبدع رياض الدنيا والآخرة ، لا أستطيع أن أنساك أو أنسى حالة من حالاتك أو حركة من حركاتك مهما طال عليهما الزمن ،

رأيتك صباح الأحد الماضي ، وأنت خارجة من بيتك وقد غيرت نظام شعرك الذي أعرفه لك ، فأصبح لامعًا متألقًا يدور بوجهك دورة الهالة بالقمر ، فبهرني هذا المنظر وارتسم في شبكة عيني ، فأصبحت أراه في كل ما يقع عليه نظري من المنظورات كما يرى الناظر إلى ضوء الشمس هالة بيضاء في كل ما يتناوله بصره من الأشياء ، وسمعتك منذ أيام تضحكين ، فما غرد طائر على فنن ، ولا رنت قطرات الغيث على صفحات الماء ، ولا مرت النسائم بين خمائل الأشجار إلا خيل إلي أنني أسمع رنين تلك الضحكة في كل ما أسمع من هذه الألحان .

وهنا اضطربت روكسان ، واشتد خفوق قلبها ، وقالت بصوت خافت متهدج : « نعم هذا هو الحب » .

قال : نعم هو الحب الذي غالب قلبي حتى غلبه واتخذه أسيرًا عنده وهو حب شرس غيور يتوقد حدة وحرارة ، وأنه على ذلك متواضع بسيط خال من الأثرة وحب النفس .

إنني لا أستطيع أن أخلص لنفسي يا روكسان كما أخلص لك ، إنني في سبيل هنائك أجود بهنائي كله ، وإن لم تشعري بذلك ، حسبي من الدنيا أن أسمع من بعيد رنين ضحكاتك ، فأعلم أنك سعيدة مغتبطة ، وأن ما ضحيت به لك من سعادتي وهنائي كان هو السبب في هناء عيشك وراحة نفسك ، كل نظرة من نظراتك تثير قي فضيلة جديدة ، كانت كامنة بين أطواء قلبي لا أهتدي إلى مكانها ، وتبث في نفسي خلق الشجاعة والإقدام ، مم أخاف إن كنت راضية عني؟ وبم أغتبط إن كنت ساخطة علي؟ وهل الدنيا شيء سواك في إقبالها وإدبارها؟

قالت : ما أعذب كلامك يا كرستيان! إن قلبي يخفق له خفقانًا شديدًا .

قال : أرأيت الآن كيف أن الكلمات الصادرة من القلب لا تكلف ولا تصنع لا يستطيع حائل أن يحول بينها وبين قلب سامعها ، ألا تلمسين بيدك نفسي الحزينة وهي صاعدة إليك في هذا الظلام الحالك؟ ألا تسمعين خفقان قلبي وهو يرن في جوف هذا الليل البهيم؟ آه ما أحلى هذه الساعة وما أجملها ، إنها الساعة الوحيدة التي ذقت فيها حلاوة السمر والمناجاة ، ما كنت أصدق أن أقف يومًا من الأيام هذا الموقف العظيم بيد يديك ، أتكلم وتسمعين ، وأبثك ما في نفسي وتنصتين لي ، ولم يبق لي من أرب في الحياة بعد اليوم ، فليأت الموت إلي فقد بلغت جميع أماني وآمالي ، ها هي يدك ترتجف الآن من تأثير كلماتي كما ترجف الورقة الخضراء بين النسمات المتناوحة ؛ ولقد نم غصن الياسمين الذي تمسكين فقد مشت فيه تلك الرجفة حتى وصلت إلى يدي ، ثم انحنى على طرف الغصن الذي في يده فلثمه في صمت وسكون .

فقالت روكسان : نعم إنني أرتجف وأبكي ، وما بلغ امرؤ مني في حياته ما بلغت مني ، ولقد سحرني حديثك وملك علي لبي حتى أصبحت أشعر أنني قد أصبحت ملك يدك وأن لا شأن لي في أمر نفسي .

قال : فليأت الموت إلي إذن فقد بلغت من حياتي ما كنت أرجو ، وأتمنى ولينهني ، إنني أنا الذي قدمت إليك بيدي الكأس التي أسكرتك وأخذت بلبك فلم يبق لي مما أتمناه غير شيء واحد ، قالت : ما هو؟

وهنا نطق كرستيان ، وهو في مكانه تحت الشرفة بعد هذا الصمت الطويل وقال : « قبلة » ؛ فذعر سيرانو وقال له بصوت خافت : لقد تسرعت في الطلب ؛ قال : لا ؛ إنها الآن ذاهلة مسحورة ، فلأنتهز هذه الفرصة التي لا تؤاتيني في كل حين ، فقالت روكسان : ماذا قلت! فقال كرستيان : « أريد قبلة » ، فوكزه سيرانو برجله وقال : اسكت يا كرستيان ، فسمعت روكسان كلمته فقالت له : مع من تتحدث! وهل كرستيان شخص سواك؟ قال : أتحدث مع نفسي : اسكت يا كرستيان ، فحسبك منها أنها أصغت إليك ، وسمعت صوت قلبك وأذرفت من أجلك دمعة من دموعها الغالية ، فلا تطمع فيما وراء ذلك .

وهنا رن صوت قيثارتي الغلامين من بعيد فقال سيرانو : ادخلي الآن يا روكسان فإنني أسمع صوت قادم ، ثم عودي إلي بعد قليل ، فدخلت روكسان غرفتها وأقفلت باب نافذتها وأصغى سيرانو إلى الصوت فسمع في آن واحد لحنين مختلفين لحنًا مفرحًا وآخر محزنًا ، فقال : يا للعجب! إن القادم ليس برجل ولا امرأة ، فلابد أن يكون قسيسًا ، وما أتم كلمته حتى أقبل قسيس شيخ وبيده مصباح ضيئل وجعل يمر بأبواب المنازل بابًا بابًا ويدني مصباحه ليتبينها ، كأنه يفتش عن منزل يقصده ، فتقدم نحوه سيرانو وقال له : إنك تعيد لنا أيها الشيخ عهد يدوجين فهل تفتش عن الرجل؟ قال : لا بل عن المرأة ، إني أفتش عن منزل السيدة مادلين روبان الشهيرة بروكسان ، فانبرى له كرستيان وهو يقول في نفسه : إن الرجل يضايقنا في مثل هذه الساعة ، ولما نتته من أمر « القبلة » ،

وأمسك بيده وأشار له إلى جهة بعيدة ، وقال له : هناك أيها الشيخ هناك ، فسر أمامك ، لا تعطف يمنة ولا يسرة حتى تجد المنزل الذي تريده ، فشكر له الشيخ فضله وعاد أدراجه ، فقال كرستيان لسيرانو : لا أستطيع أن أبرح هذا المكان ، حتى أنال القبلة التي أريدها ، قال : لا تعجل يا صديقي فستوافيكما سريعًا تلك اللحظة السحرية العجيبة لحظة الذهول والاستغراق التي تثملان فيها بخمرة الحب وتذهلان فيها عن نفسيكما ، فإذا شفاتكما ذاهبتان وحدهما كل منهما إلى صاحبتها حتى تتلامسا ، وصمت لحظة ثم قال في نفسه : ما دامت تلك اللحظة آتية لا ريب فخير لي أن أكون صاحب الفضل فيها ، ثم قال له : نادها يا كرستيان فستنال منها القبلة التي تريدها ، فناداها ففتحت النافذة وخرجت إلى الشرفة وهي تقول : أباق أنت يا كرستيان حتى الآن! فقال سيرانو : لقد جاء هنا الساعة كاهن شيخ يسأل عن منزلك فلم تعجبني زيارته في مثل هذا الوقت ، فأضللته عن الطريق وأظن أن في يده كتابًا ؛ فذعرت روكسان واضطربت مخافة أن يكون الكونت دي جيش قد أخلف وعده وتخلف عن السفر واختبأ في الدير وأن يكون هذا الكاهن رسوله ، ولكنها ما لبثت أن سرت في نفسها وأنساها موقف الغرام كل شيء عداه وقالت : أظن أننا كنا نتكلم عن .. وتلعثم لسانها فقال سيرانو : عن « القبلة » ، وما لك لا تجسرين على النطق بها كأنها تحرق شفتيك ، فإذا كان هذا شأنك مع لفظها فكيف يكون شأنك مع معناها ، تجلدي يا روكسان ، ولا تجزعي فلقد تحولت منذ هنيهة من الدعابة إلى الاضطراب ، ومنه إلى الخفقان ، ومنه إلى التنهد ، ومنه إلى البكاء ، وليس بين الدموع والقبلة إلا رجفة .

فارتعدت روكسان وقالت : لا أمنحك إياها حتى تصفها لي ، قال : هي الميثاق الذي يعطى عن قرب ، والوعد الصادق الذي لا ريبة فيه ، والاعتراف بالحقيقة الواقعة ، والنقطة المرموقة تحت باء الحب ، والسر العميق الذي يصل إلى القلب من طريق الفم ، واللحظة الأبدية التي يقصر زمنها وتدوم حلاوتها ، واتفاق الخاطرين على معنى واحد ، والطريق المختصر لاستنشاق رائحة القلب وتذوق طعم النفس على الشفاه؟ لها دوي النحل في صوتها ، ومذاق العسل في حلاوتها وعبير الأزهار في رائحتها .

فاضطربت روكسان وقالت : حسبك يا كرستيان ؛ فقال : إن القبلة شريفة يا سيدتي ، حتى إن ملكة فرنسا لم تبخل بها على نبيل من نبلاء الإنكليز وكلاهما شريف عظيم ، قالت : اسكت ولا تزد ، قال : أنت الملكة التي أعبدها ، وأدين لها أكثر مما دانت فرنسا لملكتها ، وأنا اللورد بوكنجهام في صدقه وإخلاصه وألمه وحزنه ، قالت : وفي جماله أيضًا ، فانتفض سيرانو وشعر بوخزة الألم في قلبه وقال : نعم في جماله ، ولقد كنت لذلك ناسيًا ، فقالت له : اصعد أيها السعيد المجدود لاقتطاف تلك الزهرة التي لا نظير لها ، فأخذ سيرانو بيد كرستيان وقال له بصوت خافت : اصعد وتناول القبلة التي تريدها ، فجبن وتلكأ وقال : ما أشد خجلي وحيائي ، قال : اصعد أيها الحيوان وتناول القبلة التي لا يستحقها منها غير شفتيك الورديتين ، ثم دفعه بيده فتسلق أغصان الياسمين ، حتى بلغ مكان روكسان على الشرفة

فألقت رأسها الجميل على عاتقه ، فاحتضنها إليه ورسم على شفتيها تلك القبلة التي لها دوي النحل في صوتها ومذاق العسل في حلاوتها وعبير الأزهار في رائحتها ، وسيرانو واضع يده على قلبه يتلوى في مكانه تلوي الملسوع ويتأوه آهات خفيات مضمرات ، ولكنه ما لبث أن ارعوى وتجمل ولجأ إلى سلوته التي اعتاد أن يلجأ إليها كلما عظمت آلامه وهمومه ، وأخذ يعزي نفسه ويقول :

يا مآدبة الحب العظيمة التي أنا صاحبها ومحييها ؛ هنيئًا للذين يذوقون طعامك ، ويتناولون ثمارك ، ويرتشفون كؤوسك ، أما أنا الحسبي منك هذا الفتات الذي يتناثر علي من مائدتك فإن روكسان لا تقبل شفتي كرستيان ، بل تقبل عليها كلماتي التي ألقيتها في أذنها وسحرتها بها .

وهنا رن صوت قيثارتي الغلامين بلحنين مختلفين ، لحن مفرح وآخر محزن ، فسألت روكسان : ما هذا؟ فقال لها كرستيان : لعله سيرانو يتمشى في الطريق مع غلاميه الموسيقيين ، فانفتل سيرانو من تحت الشرفة إلى موقف الغلامين فحدثهما قليلًا ثم أشار إليهما بالانصراف ومشى يترنح في مشيته كأنه شرب ثمل ويتغنى ببعض الألحان كأنه قادم الساعة ، فما وقع نظره على كرستيان حتى تظاهر بالدهشة وقال له : أباق أنت هنا يا كرستيان حتى الآن؟ فقال له بصوت عال تسمعه روكسان : نعم أحدث روكسان وتحدثني وإلى أين أنت ذاهب؟ لقد مللت هذين الغلامين وسئمت ألحانهما

وتعبت من طول المسير فعزمت على الرواح إلى المنزل ، فأشرفت عليه روكسان عندما سمعت صوته وقالت له : انتظر يا سيرانو فإني قادمة إليك ، وأقفلت باب الشرفة ، وفي هذه اللحظة أقبل الكاهن بمصباحه وهو يحدث نفسه ويقول : ما زلت على رأيي الأول فإن المنزل هنا في هذا الميدان .

وهنا ظهرت روكسان على عتبة بابها يتبعها كرستيان وراجنو ، فلما رأت الكاهن ذعرت واضطربت فتقدم نحوها وحياها ومد يده إليها بكتاب فقالت له : ما هذا؟ قال : كتاب بعثني به إليك السيد الصالح التقي الكونت دي جيش صهر سيدنا ومولانا صاحب القداسة الكردينال دي ريشلييه من دير القديس « أتاناس » ولابد أن يكون مشتملًا على غرض من الأغراض الشريفة المقدسة أو مكرمة من المكارم العليا فاقرئيه ؛ فتناولته وقرأت فيه على مصباح راجنو وهي صامتة هذه الكلمات :

سيدتي :

الطبول تدق وقد أعد الجيش عدته للرحيل ، والجميع يظنون أني في مقدمته ولكنني تخلفت وعصيت أمرك لأنني لم أستطع السفر دون أن أتزود منك بذلك الزاد القليل الذي سألتك إياه ، فاغتفري لي ذنبي فإنني ما أذنبت إلا في سبيلك وها أنا ذا قادم إليك بعد قليل ، فمهدي لي سبيل زيارتك ، إن ثغرك قد ابتسم لي اليوم ابتسامًا جميلًا ، ولا أحب أن أفارقك قبل أن أراه مرة أخرى يبتسم لي تلك الابتسامة البديعة المؤثرة .

وقد بعثت إليك بكتابي هذا مع قسيس أبله لا يفهم من شؤون الحياة شيئًا سوى إقامة الصلوات ، وتعزية المحتضرين ومباركة المتزوجين ؛ فلا يعنيك من أمره شيء .

دي جيش

وهنا برقت عيناها ببارق غريب والتفتت إلى الكاهن وقالت له : اسمع يا أبت نص الكتاب فهو بمثابة أمر صادر إليك ، وأخذت تقرأ بصوت عال ما لا وجود له إلا في مخيلتها وتقول :

سيدتي :

يجب عليك إطاعة أمر قداسة الكردينال ، وهو يأمرك أن تتزوجي الليلة سرًا من البارون كرستيان دي نوفييت ، وأنا وإن كنت أعلم أنك غير راضية عن هذا الزواج ، وأنك لا تحبين هذا الفتى ، ولا تجدين في نفسك ارتياحًا لمعاشرته ، فإنني أرى لك أن تخضعي لأمر الكاهن الأعظم وتذعني لرغبته ، فالخير كل الخير فيما يراه ويشير به ؛ فاصبري على قضاء الله وقدره ، وانتظري حسن المثوبة منه والجزاء الأوفى .

وقد بعثت إليك بكاهن من أفضل الكهان وأتقاهم وأحفظهم للأسرار ليقوم بعقد هذا الزواج السري بينكما في منزلك ، فاقرئي عليه كتابي هذا وبلغيه أمري وكوني على ثقة من إخلاصي لك واحترامي الدائم لمقامك الكريم .

ثم طوت الكتاب ، وهي تتظاهر بالأسف والحزن وتقول : آه ما أسوأ حظي وأعظم شقائي ، ثم همست في أذن كرستيان قائله له : ألا ترى أنني أحسن قراءة الرسائل؟ قال : اسكتي فإنني أكاد أموت فرحًا ، أما الكاهن فقد تهلل وجهه وانبسطت أساريره وظل يقول له : الله من سيد نبيل كريم ما خاب ظني فيه ، وفي حسن مقاصده وشرف أغراضه ، ثم رفع المصباح إلى وجه سيرانو وقال له : لعلك الزوج يا سيدي؟ فامتقع لون سيرانو وأشاح بوجهه عنه فتقدم نحوه كرستيان وقال : لا ..... بل أنا يا سيدي ، فأدنى المصباح من وجهه فرأى وجهًا جميلًا مشرقًا فظل يهز رأسه كالمرتاب ، ثم التفت إلى روكسان وقال لها : يخيل إلي يا سيدتي أن مصيبتك في هذا الزواج ليست عظيمة كما تتوهمين ؛ فارتعدت وخفق قلبها خفقًا شديدًا مخافة أن يكون قد فهم شيئًا ، ثم ما لبث أن عرفت وجه الحيلة في ذلك ففتحت الكتاب بلهفة وقالت : لقد فاتني يا أبت أن أقرأ عليك الحاشية التي كتبها الكونت في كتابه ، وهي تتعلق بديركم المقدس فاستمعها ، وقرأت ما يأتي :

« ويأمرك صاحب القداسة أيضًا أن تتبرعي للدير من مالك الخاص بعشرة آلاف فرنك ، فائتمري بأمره وادخريها يدًا عند الله صالحة » ، فتلألأ وجه الكاهن واستطير فرحًا وسرورًا ، ولم يبق لتلك الريبة التي خالجته أثر في نفسه ،

وقال لها : لا مناص لك يا بنيتي من الإذعان لأمر صاحب القداسة والله يتولاك برعايته ، فقالت : سأذهب لأمرك يا أبت ، ثم هتفت براجنو وأمرته أن يمشي أمامهم بمصباحه ، ففعل فدخلوا المنزل جميعًا وتراجعت روكسان قليلًا قبل دخولها ، فجذبت سيرانو من يده وأسرت في أذنه قائلة : أما أنت فابق هنا حتى يأتي الكونت فامنعه من الدخول ودافعه بكل حيلة وترفق في الأمر ما استطعت حتى يتم عقد الزواج ، فقال : سأفعل ما يرضيك يا روكسان فكوني مطمئنة ، فتركته ولحقت بالقوم وبقي هو وحده يفكر في الطريقة التي يمنع بها الكونت من الدخول إذا جاء .

سياحة في القمر

وما هي إلا هنيهة حتى رأى شبح الكونت مقبلًا من بعيد فخلع سيفه والتف بمعطفه وأنزل قبعته على عينيه وتسلق شجرة الياسمين وكمن بين أغصانها ، وأقبل الكونت واضعًا على وجهه نقابًا أسود ، وهو يتلمس الطريق في هذا الظلام الحالك ويقول : ليت شعري أين ذهب ذلك الكاهن المنحوس وماذا صنع بالرسالة التي بعثته بها؟ لابد أن يكون قد بلغها إلى روكسان وانصرف لشأنه ، ولابد أنها تنتظرني الساعة داخل المنزل .

واتجه جهة الباب ، فما دنا منه حتى سقط جسم عظيم بين يديه سقطة هائلة دوت بها جوانب الميدان كأنما هو هابط من علياء السماء ، فتأمله فإذا هو رجل متلفع ملثم فذعر وتراجع وقال من هذا؟ فتقدم سيرانو بخطوات بطيئة متثاقلة ، وقال له بنغمة أشبه بنغمة الحالم المستغرق : كم الساعة الآن ، أيها الإنسان؟ فقال له : من أنت؟ قال : أنا رجل من سكان كوكب القمر سقطت منه من زمن لا أعلم مقداره ، هل هو يوم أو ساعة أو دقيقة أو عام أو أعوام ، لأن صدمة السقوط أذهلتني عن نفسي فلم أفق إلا هذه اللحظة ، ولا أعلم هل سقطت في كوكب الأرض أم في كوكب آخر غيره ، فقل لي أين أنا ، وفي أي عام ، وفي أي يوم ، وفي أي ساعة؟ فعلم الكونت أنه مجنون أو ثمل ، فأراد ملاينته ومداورته ، فقال له : اسمح لي بالمرور أولًا وسأخبرك فيما بعد عما تريد ، قال : يخيل إلي أنك تظنني معتوهًا أو مخبولًا ، فاعلم أنني لا أحدثك عن خيال بل عن حقيقة لا ريب فيها ، وأنني قد سقطت من كوكب القمر سقوطًا اضطراريًا لم أملك فيه الخيار لنفسي ، فظللت أتخبط بين الكواكب والنجوم والمذنبات والشهب حتى وقعت في هذا المكان الذي أجهله ، ولا أعلم أين موقعه من العالم ، ثم رفع نظره إلى وجه الكونت وصرخ صرخة هائلة فزع لها الرجل وتراجع بضع خطوات وظل يسأله : ما بالك ، ما بالك! فقال دلني سواد وجهك وظلمته على أنني قد سقطت في خط الاستواء بين قبائل الزنوج ، فواأسفاه وواسوء خطاه ، فلمس الكونت وجهه بيده ، وكان قد ذهل عن نقابه فحسره عنه

وقال له : لا تخف إنما هو نقاب أسود كنت أسدلته على وجهي لبعض الأسباب الخاصة ، فهدأ سيرانو قليلًا ، وقال له : عفوًا يا سيدي ، إذًا أنا في فينيسيا أو فيينا فقل لي في أي المدينتين أنا؟ فضجر الكونت ، وقال له : سواء أكنت في هذه أم في تلك فدعني أمر فإن إحدى السيدات تنتظرني ، فقال : آه لقد فهمت الآن ، لابد أن أكون في باريس بلد الوعود والمقابلات والأسياد والسيدات فالحمد لله على ذلك ، ومد يده إلى ردائه وظل يمسحه كأنما ينفض الغبار عنه ، ثم وقف متأدبًا وأحنى رأسه بين يديه ، وقال له :

« اغفر لي يا سيدي مقابلتي إياك بهذه الملابس الرثة المغبرة فقد كان سقوطي مع الزوبعة الأخيرة فانتشر غبار الأثير على ملابسي وامتلأت عيناي بذرات الضوء ، وعلقت بنعلي بضع ريشات من ريش النسر الطائر » ، ثم مد يده إلى نعله كأنما يتناول ريشة عالقة بها وظل ينفخها في الهواء ، فازداد غيظ الكونت وعظم ضجره ، وقال له : تنح عن طريقي يا سيدي ، فإني أريد الدخول وظل يدفعه أمامه حتى بلغا الباب فترامى سيرانو على الأرض ومد ساقه في مدخل الباب وكشف عنها وقال له : انظر يا سيدي إلى ساقي لقد عضني فيها « الدب الأكبر » عضة مؤلمة لا يزال أثرها باقيًا حتى الآن ولقد وقع لي ذلك في الساعة التي كان يطاردني فيها « السماك الرامح » برمحه المثلث الأسنة ، وما أفلت من مخالب الدب حتى سقطت فوق حمة العقرب فلدغتني في ساقي الثانية ، وانظر ها هو أثرها ، ومد إليه ساقه الثانية أيضًا فاستحال على الكونت المرور ، ثم قال له :

وأؤكد لك يا سيدي أنني لو عصرت أنفي الآن لجرى منه سيل دافق يغمر هذا الميدان جميعه ، أتدري لماذا؟ قال : لا ، قال : لأني سقطت بعد ذلك في نهر « المجرة » فظللت أسبح فيه حتى أعياني الجهد ، ولولا أن « الدب الأصغر » مد يده إلي فأنقذني لما نجوت ، وأعلم أنه لم يفعل ذلك تكرمة منه وتفضلًا بل كان يريد أن يعضني أيضًا كما عضني أخوه من قبله فعجز عن ذلك لأن أسنانه صغيرة جدًا كأنها حبب الكأس فاستطعت الإفلات منه وانحدرت إلى « القيثارة » فاخترمتها وعلقت يدي بوتر من أوتارها فانقطع وظل معي حتى الآن وسأريكه إذا أردت ، ومد يده إلى جيبه كأنما يريد أن يخرجه ، ثم قال : لا لزوم لذلك الآن ، فقد عزمت على أن أؤلف كتابًا اسمه « سياحة في القمر » أدون فيه هذه الرحلة جميعها وسأرصع دفتيه بالشهب الصغيرة التي جمعتها في معطفي من غابات السماء .

فاشتد جزع الكونت ونفد صبره وقال له : ثم ماذا؟ قال : أظن أنك تريد أن تعرف الآن شيئًا من أخبار سكان ذلك الكوكب الذي عشت فيه حقبة من الزمان .... فقاطعه الكونت وقال : لا ، لا أريد أن أعرف شيئًا فدعني أمر ، فإن بيني وبين أصحاب هذا المنزل ميعادًا لابد لي من الوفاء به ؛ قال : ولكنك وقد عرفت كيف نزلت من السماء لابد لك أن تعرف كيف صعدت إليها ، إنني صعدت إليها بطريقة عجيبة جدًا ، أنا الذي اخترعتها وابتكرتها فلم ألجأ إلى النسر البليدي كما فعل « رجيومونتانوس »

ولا إلى الحمامة البلهاء كما فعل « أركيتاس » وكان دي جيش مولعًا بعض الولع بعلم الفلك ، ولوع الكثير من الأشراف والنبلاء الذين يزاولون بعض الفنون تجملا وتلهيًا دون أن يدركوا من أسرارها شيئًا ، فقال في نفسه : إن الرجل وإن كان مجنونًا فهو واسع الإطلاع غزير المادة واستهواه حديثه فبدأ ينصت له واستمر سيرانو يقول :

ولم أقلد أحدًا من الطيارين الذين سبقوني بل خطرت على بالي ست طرق لاختراق أطباق السماوات ، لم تخطر على بال أحد من فحول علم الفلك ونوابغه ، فدهش الكونت وقال : ست طرق؟! قال : نعم ، هل تعدني أن تصغي إليّ حتى أسردها عليك جميعها؟ قال : نعم أعدك بذلك فتكلم وأوجز ، قال : تعال إذن معي إلى هذا المقعد لنجلس عليه قليلًا فقد انتقض عليّ جرحي الذي في ساقي ؛ ثم جذبه من ردائه فأجلسه بجانبه وظل يقول له :

أولها : أن أتجرد من ثيابي وأدير حول جسمي بضع قارورات بلورية ملأى بقطر الندى ، ثم أقف تحت الشمس فتمد إليّ خيوط أشعتها فتجذبني إليها ، كما هو شأنها في امتصاص الأبخرة والأنداء حين تشرق عليها .

وثانيا : أن أعمد إلى صندوق كبير ، فأفرغه من الهواء بواسطة حرارة المرايا المضلعة ، ثم أملؤه بالأهوية المتصاعدة وأجلس فيه فيصعد إلى العلا .

وثالثها : أن أصنع جرادة من الصلب ذات أذرع كبيرة وأضع في جوفها بارودًا ملتهبًا ثم أمتطيها ، فكلما فرقع البارود اندفعت صاعدة في جو السماء .

ورابعها : أن أملأ « بالونا » بالدخان ، والدخان كما تعلم يطلب العلا دائمًا فأركبه فيصعد بي حيث أشاء .

وخامسها : أن أدهن نفسي بنخاع الثور ، فإذا دنا كوكب « فيبيه » أي القمر من الأرض ، وهو كما تعلم مولع بامتصاص هذا الدهن امتصني معه .

وسادسها : أن أركب لوحًا من الحديد ، وأمسك بيدي قطعة من المغناطيس وأقذفها في الهواء ، والمغناطيس كما تعلم يجذب الحديد ، فإذا سقطت تلقفتها ، وقذفتها مرة أخرى ، وهكذا حتى أصل إلى غايتي .

فأعجب الكونت بذكائه وفطنته وقال له : حسبك ذلك وائذن لي بالذهاب ؛ وتأهب للقيام ، فانزعج سيرانو وتشبث بردائه وقال له : ولكن فاتك يا سيدي أن تسألني عن الطريقة التي اخترتها من بين تلك الطرق واعتمدت عليها في هذه الرحلة القمرية؟ قال : قل لي وأسرع ، قال : لم أختر واحدة منها ، بل اخترت طريقة سابعة هي أغرب الجميع وأعجبها ، قال : قل ما هي وعجل ، قال : أراهن انك لا تعرفها ولو فكرت فيها ثلاثة أيام ؛ فضاق صدر الكونت وقال : أعترف لك أني عاجز عن معرفتها ، فقل لي ما هي فقد ضقت بك ذرعًا؟ وثار من مكانه غاضبًا ، فوثب سيرانو واعترض سبيله

وقال له : هي هي فاستمعها ، ثم مد ذراعيه إلى الأمام وظل يلوح بهما في الهواء كما يفعل السابح على سطح الماء ويقول : هو ، هو ، هو ، فدهش الكونت وقال : ما هذا؟ قال : الموج المتلاطم ، قال : لا أفهم ما تريد ، قال : المد والجزر ، قال : لا أفهم شيئًا فقل ماذا تريد؟ قال : بما أني أعلم أن القمر هو السبب في حركة المد والجزر فقد نمت على ضفة النهر ساعة المد حتى غمرني الماء ، منتظرًا ساعة الجزر ، وما هي إلا لحظة حتى دنا القمر من اللجة فجذبها وجذبني معها ولم أزل صاعدًا أخترق حجب السماء حجابًا حتى .. ومد صوته بها طويلًا فقال له الكونت بضجر شديد : حتى ماذا؟ وكان سيرانو قد سمع جلبة القوم وهم مقبلون من داخل المنزل فعلم أن الأمر قد انتهى ، فقال له : حتى تمت حفلة القران ، وألقى عنه رداءه ورفع قبعته عن رأسه فظهر وجهه وفي مقدمته ذلك الأنف الضخم العظيم ، فانتفض الكونت وقال : سيرانو! ثم التفت وراءه فرأى العروسين مقبلين في ملابس عرسهما ، وأمامهما الشموع ووراءهما القسيس والخدم ، ففهم كل شيء وصاح : ماذا أرى؟ يخيل إليّ أني قد جننت ، وأخذ يدور بعينيه ههنا وههنا كالذاهل المخبول ثم مشى نحو روكسان فانحنى بين يديها وقال : لله درك يا سيدتي! إنك من أمهر الماكرات ، ثم التفت إلى سيرانو وقال له :

أقدم إليك تهنئتي أيها المخترع العظيم على تفوقك ونبوغك ، وسيكون مؤلفك الجليل أعظم مؤلف نافع للمجتمع ، ولا تنس أن ترصّع دفتيه بتلك الشهب الذهبية التي صدتها في معطفك من غابات السماء ، قال : سأفعل إن شاء الله يا سيدي وسأقدم الكتاب إليك تذكارًا لهذه المهزلة البديعة ؛ فأعرض عنه والتفت إلى القسيس

وقال متهكمًا : لقد أديت الرسالة أيها الشيخ أحسن تأدية فلك الشكر على ذلك ، فلم يفهم القسيس غرضه وقال له : لعلك راض عني يا مولاي؟ قال : نعم كل الرضا ، ثم أخذ يخطو في تلك السحنة العسكرية القاسية ، ونظر إلى روكسان نظرة جامدة مخيفة وقال لها بصوت قاس شديد : ودّعي زوجك يا سيدتي ، فذعرت واصفر لونها وقالت : لماذا؟ قال : لأن فرقة الحرس ستسافر الآن مع بقية فرق الجيش ، وأخرج من ثنايا قميصه ذلك الكتاب الذي كان قد فصله عن بقية الكتب منذ ساعة ونادى كرستيان بصوت هائل زنان ، فلباه ووقف بين يديه فقال له : خذ هذا الكتاب وسلمه بنفسك إلى قائد فرقتك ، فقالت روكسان : ولكنك كنت وعدتني أن تتخلف هذه الفرقة .. فقاطعها وقال لها : قد غيرت رأيي عندما علمت أنك إنما كنت تكيدين لي لا لابن عمك سيرانو ؛ فصمتت وقد نال من نفسها منالًا شديدًا وملأ قلبها حزنًا وشجنًا ، إنها لم تكد تلمس بفمها شفة الكأس حتى انتزعت من يدها ، ثم ترامت بين ذراعي زوجها ، وظلت تقبله وتبكي بكاءً مرًا ، فضمها إلى صدره وظل يبكي لبكائها فصاح الكونت : حسبكما ليلة الزفاف ولعلها قريبة جدًا ،

ثم تركهما وانصرف ليصدر بعض أوامره إلى الجيش وهو يرمي سيرانو بنظرات هائلة لو رمى بها أحدًا غيره لصعق لها ، على أن سيرانو كان في شاغل عنه بما كان يعالجه في أعماق نفسه من الألم الممض عند رؤية تلك القبلات الجميلات المتبادلة بين هذين العاشقين الجميلين ، وظل يقول بينه وبين نفسه : يا له من سعيد!

ويا لي من شقي! كلانا يحبها ، وكلانا يموت وجدًا بها ، ولكنه استطاع لأنه جميل أن يلثمها ويقبلها ، ولم أستطع لأني دميم أن أنال منها شيئًا في حياتي ، أكثر من أن أقبل طرف الغصن الذي كانت واضعة يدها على طرفه الآخر من حيث لا تدري ، وها هو ذا الآن يضمها إلى صدره ضمة الوداع ويتزود منها الزاد الذي يعينه على سفره الطويل وشقته البعيدة ، أما أنا فكل زادي منها هذه الدمعة التي تترقق في عيني ولا أستطيع إرسالها مخافة أن تراها .

وهنا دقت طبول الجيش مؤذنة بالرحيل فدنا منهما سيرانو وقال لكرستيان : حسبك ذلك الآن فهيا بنا ، فلم تنتبه كرستيان إليه واستمر في شأنه فظل يجذبه من يده ويقول : هيا بنا فقد دقت طبول الرحيل ، فقال : أمهلني قليلاً يا سيرانو فإنك لا تعلم ما يصنع الفراق بقلوب العاشقين ، قال : أعلم ذلك حق العلم فهيا بنا ، فالتفتت إليه روكسان وقالت إني أكل إليك أمره يا سيرانو فعدني ألا يهدد حياته شيء ، قال : سأجتهد إن شاء الله تعالى ، قالت : وعدني أن يكون حذرًا متيقظًا ؛ قال : سأحاول ذلك ، قالت : وأن لا يتألم من البرد والصقيع في تلك الأجواء الثلجية الباردة ، قال : سأفعل ما في وسعي ، قالت : وأن يكون لي وفيًا مخلصًا ، قال : أظنه لا يستطيع أن يكون غير ذلك ، قالت : وأن يكتب لي دائمًا ، قال : أما هذه فأعدك بها .

■ ■ ■

الفصل الرابع

الميدان

بدأ الفجر يرسل أشعته الأولى إلى جوانب الميدان ، وكانت فرقة الحرس نائمة في سفح تل مرتفع يحميها ويحمي موقعها ، وكانت قد مرت على الجنود ثلاثة أيام لم يذوقوا طعامًا ، ولم يتبلغوا بشيء حتى ساءت حالهم وشحبت ألوانهم ، وخارت قواهم ، فاستيقظ أحدهم وهو يتضور جوعًا ويقول : آه ما أشد ألمي ؛ فاستيقظ بعض رفاقه على صوت أنينه وظلوا يتضورون مثله ، فشعر قائدهم بحركتهم ، وكان واقفًا على قمة التل ليله كله يتولى حراسة الموقع بنفسه ؛ فانحدر إليهم وقلب نظره في وجوههم ، ثم قال لهم : ناموا يا أولادي فالنهار لا يزال بعيدًا ، فقال له أحدهم : وكيف لنا بالنوم وقد أقلق الجوع مضاجعنا وحال بيننا وبين الغمض ، فنكس رأسه وصمت ، وقد أضمر بين جنبيه لوعة لا يعلم إلا الله مكانها من أعماق نفسه .

وإنهم لكذلك إذ سمعوا من ناحية العدو بضع طلقات نارية فثاروا جميعًا وابتدروا سيوفهم فجردوها من غمادها فصاح فيهم « لبريه » : هدئوا روعكم يا إخواني والبثوا في أماكنكم فإن سيرانو قد عاد من رحلته التي اعتاد أن يرحلها سحر كل ليلة وأظن أن الأعداء قد لمحوا شبحه من بعيد فأطلقوا عليه بعض المقذوفات وأرجو أن لا يكون قد أصابه منها شيء ، فسكن جأشهم وعادوا إلى مضاجعهم ، وما هي إلا هنيهة حتى ظهر سيرانو على قمة التل فهرع إليه صديقه لبريه متلهفًا

وقال له ؛ هل جرحت ، قال : لا ، لأنهم يخطئونني دائمًا ، قال : ولكني أخاف عليك إن أخطأوك اليوم أن يصيبوك غدًا ، قال : وماذا أصنع ، وقد وعدتها عنه أن يكتب إليها كثيرًا ، ولابد لي من الوفاء بعهدي ، قال : إنك لم تخبرني حتى الآن عن الطريقة التي اتخذتها للتنكر والتواري عن عيون الأعداء وأرصادهم ؛ قال : لقد اهتديت من زمن إلى مسلك خفي وراء هذا الجبل لا تناله أنظارهم ولا تمتد إليه خواطرهم ، فأنا أسلكه برفق وحذر حتى أصل إلى الموضع الذي أجد فيه من يتولى توصيل الكتاب إلى روكسان ، قال : إذن يمكنك أن تأتينا كل ليلة بشيء من القوت نسد به جوعتنا؟ قال : ليتني أستطيع ذلك ، بل ليتني أستطيع أن أقوت نفسي ، إننا جئنا هنا لنحاصر الأعداء في أراس فأصبحنا محصورين خارجها ، وقد أحاط بنا جيش العدو من كل جانب وأخذ علينا شعاب الأرض فلا سبيل لنا إلى أي شيء حتى إلى القوت ، وأطرق برأسه هنيهة ، ثم قال : ولقد وقفت الليلة أثناء عودتي على حركة في جيش العدو هائلة جدًا ، ويخيل إليّ أن الغد يحمل في طياته أعظم حادثة مرت بنا في هذا الميدان فإما نجا الجيش الفرنسي من مخالب الجوع أو هلك من أوله إلى آخره .

فاصفر وجه لبريه وقال له : قال لي ماذا رأيت؟ قال : لا أستطيع لأني لست على يقين ، فدعني وشأني وأستودعك الله ، قال : إلى أين؟ قال : إلى خيمتي لأكتب إلى روكسان رسالة الغد ، وربما كانت الرسالة الأخيرة ، ثم مشى إلى خيمته ولبريه يتبعه بنظراته الحزينة الدامعة ، ويقول : وا رحمتاه لك أيها الصديق المسكين .

الوطن

نشرت الشمس رايتها البيضاء في آفاق السماء ، فاستيقظ الجنود من نومهم يتألمون من الجوع ويترنحون ضعفًا وإعياءً فتقدم نحوهم قائدهم وحاول أن يعزيهم ويهون عليهم آلامهم ، وهو إلى التعزية والتهوين أحوج منهم ، فلم يأبهوا له وأخذوا يرمونه بنظرات السخط والغضب ، فأمرهم أن يتقلدوا أسلحتهم ويأخذوا أهبتهم فأعرضوا عنه ، ولم يحفلوا به ومشي بعضهم إلى بعض يتهامسون ويتغامزون ومرت بخاطرهم وجرت على أفواههم كلمة «الثورة» ، وهي الكلمة الهائلة التي تأتي دائمًا في ترتيب قاموس الحياة بعد كلمة الجوع ، فانتفض القائد واستطير رعبًا وفزعًا ، وهرع إلى خيمة سيرانو فهتف به ، فلباه ، فقال له : أدرك الجنود يا سيرانو ، فقد نال منهم اليأس أو كاد ، حتى نطقوا بكلمة الثورة المخيفة ، فخرج إليهم سيرانو وأخذ يخطو بينهم خطوات هادئة مطمئنة ويسارقهم من حين إلى حين نظرات العتب والتأنيب ، حتى سكنوا وهدأوا وغضوا أبصارهم حياءً منه وخجلًا ، ثم أخذ يمازحهم ويداعبهم ويتفنن في مفاكهتهم ومطايبتهم حتى سرى عنهم بعض ما بهم ، فقال له أحدهم : أما في هموم الحياة وآلامها ما يشغلك عن الفكاهة يا سيرانو؟ قال : لا ، ولو أن لامرئ أن يختار لنفسه الميتة التي يريدها لاخترت لنفسي أن أموت في ليلة صافية الأديم متلألئة النجوم تحت قبة السماء بأجمل سلاح ، وهو السيف ، وفي أجمل بقعة ، وهي الميدان ، وأن يكون آخر ما أنطق به ملحة لطيفة يتحرك بها فمي في الساعة التي يلمس فيها ذباب السيف قلبي .

ثم هتف « يابراتراندو » فلباه جندي شيخ قد أوفى على الستين من عمره فقال له : أخرج نايك من كيسك وإن لهؤلاء الأطفال الشرهين تلك الأغنية الجاسكونية التي تذكرهم ببلادهم ومعاهد طفولتهم ومغاني صباهم فأخذ الرجل يغنيها ويجيد في توقيعها وسيرانو يغني معه ، فأطرق الجنود برؤوسهم ، وقد تمثلت لهم بلادهم كأنها حاضرة بين أيديهم يرون جبالها ووديانها وغاباتها وأحراشها ويرون الرعاة السمر بقلانسهم الحمراء يسوقون أمامهم قطعان البقر والأغنام والفتيات في أثوابهن القصيرة حاملات جرارهن على رؤوسهن وهن ذاهبات إلى الغدران أو صادرات عنها فأخذت مدامعهم تنحدر على خدودهم فيمسحونها بأطراف أرديتهم في صمت وسكون .

فقال القائد لسيرانو : إنك تهيج أشجانهم وتستثير آلامهم بهذه الذكرى، قال : فليبكوا وليتألموا علهم يتلهون قليلًا عن آلام الجوع التي يكابدونها ، وليت جميع آلامهم تنتقل من أمعائهم إلى قلوبهم فيستريحوا ، قال : إني أخاف على حميتهم أن تفتر وتتضعضع ، قال : لا يخيفك ذلك يا سيدي فإن بكائهم على وطنهم الصغير لا ينسيهم واجبهم لوطنهم الكبير ؛ وإن أردت أن تكون على بينة من ذلك فانظر ماذا أصنع ، ثم أشار إشارة خفية إلى حامل الطبل أن يدق طبلة دقة الهجوم ففعل ، فانتفض الجنود من أماكنهم وثاروا إلى أسلحتهم يتقلدونها فقال للقائد : انظر يا سيدي إلى هؤلاء الأطفال الباكين كيف استحالوا في لحظة واحدة إلى ليوث كواسر عندما سمعوا نداء وطنهم ، ثم التفت إليهم فهدأ روعهم وقال : لا عدمتكم فرنسا يا أبناء جاسكونيا .

وإنهم لكذلك إذ هتف الحارس القائم على رأس التل باسم الكونت دي جيش رئيس أركان الحرب ، فما سمع الجنود اسمه حتى وجموا وامتعضوا وانتشر على وجوههم الألم والانقباض وأخذ بعضهم يقول لبعض : ما أثقل ظله! ما أسمج وجهه! إنه فاسد الذوق ، يلبس الشفوف الرقيقة فوق الدرع ويلبس الحذاء اللامع في ميدان الحرب ، ما أكثر تملقه! إنه لم ينجح في حياته إلا من طريق المداهنة ، حسبه أنه صهر ذلك الرجل الذي يأكل في اليوم أربع أكلات في الوقت الذي لا نكاد نظفر فيه بأكلة واحدة ، في الأربعة الأيام ، فانتهرهم قائدهم « كاربون دي كاستل » وقد سمع حديثهم وقال لهم :

ولكن ى تنسوا أنه جاسكوني مثلكم ، فقال له أحدهم : نعم ، ولكنه جاسكوني عاقل ، وما خلق الجاسكوني إلا ليكون مجنونًا ، فقال سيرانو : نصيحتي إليكم يا إخواني أن تتجلدوا أمامه وتكتموا في أعماق نفوسكم همومكم وآلامكم ولا تسمحوا له بالشماتة بكم ، أما أنا فسأجلس هناك قليلًا على هذه الصخرة لأقرأ في كتاب « دي كارت » حتى ينصرف ذلك الرجل لشأنه ، فأسرعوا بمسح آثار الدموع من خدودهم واستداروا حلقات صغيرة وأخذوا يلعبون الورق ويتضاحكون كأنهم لا يشكون همًا ولا ألمًا ، فدخل الكونت دي جيش متجهم الوجه مكفهر الجبين ، وكان قد سمع آخر حديثهم وقرأ على وجوههم ما يضمرون له من البغضاء بين جوانحهم فصاح فيهم : لقد سمعت بأذني بعض ما تقولون أيها الأشقياء ، فعلمت أنكم لا تتركون فرصة تمر بكم دون أن تتناولوني بألسنتكم

وتنالون مني ، فتسمونني تارة متملقًا وأخرى منافقًا ، وتعيبون علي حسن هندامي ونظافة ملبسي ؛ كأنما ترون أن الجاسكوني لا يكون صحيح النسب إلا إذا تصعلك وتشعث وأصبح من البائسين المفلوكين .

وكان يتكلم والجنود مقبلون على ألعابهم يتشاغلون بها كأنهم لا يسمعون ما يقول ، فقال لهم وهو يشير إلى قائدهم : ولقد كنت أريد أن آمر قائدكم بمعاقبتكم ولكنني .. فقاطعه القائد وقال له : لو أنك فعلت ذلك يا سيدي لما أذعنت لأمرك ، فاصفر وجه الكونت وقال : لماذا؟ قال : لأنني دفعت للقيادة العامة ضريبة الرياسة وهي تجعلني صاحب السلطان المطلق على فرقتي لا ينازعني فيها منازع ولا أخضع في أمرها لإرادة غير إرادتي ، وبعد فليس من الرأي أن يحاسب القائد جنوده على الحب والبغض والرضا والسخط ، أو أن يطلب إليهم شيئًا سوى الطاعة والإذعان لأوامره ونواهيه ، فوجم الكونت ولم يستطع أن يقول شيئًا ، ولكنه التفت إلى الجنود وقال لهم : إني أحتقركم جميعًا أيها السفهاء الثرثارون وأحتقر مطاعنكم ومغامزكم لأنني أعرف مكانة نفسي ، كما أن الناس جميعًا يعرفونها وأعلم أني جندي شريف مقدام لا أبالي بالمخاطر التي تعترضني في طريقي ، وقد رأيتم جميعًا موقفي العظيم في « بابوم » الليلة الماضية وهجومي بنفسي ثلاث مرات على رجال الكونت « دي بكوا » حتى ألجأتهم إلى الهزيمة التي تعرفونها .

وكان سيرانو لا يزال مكبًا على كتابه يقرأ فيه فقال له وهو مطرق برأسه لا يرفعه : وما رأيك في وشاحك الأبيض يا سيدي؟ فدهش الكونت واصفر وجهه وقال له : ومن أين لك علم بذلك؟ نعم وقع لي ليلة أمس أنني بينما كنت أجول في أنحاء الميدان لأجمع رجالي استعدادًا للهجوم الثالث إذ لمحت فصيلة صغيرة من فصائل جيش العدو تتقهقر على مقربة مني فطمعت فيها واندفعت وراءها اندفاع اليائس المستقتل لا ألوي على شيء مما ورائي ، فما هو إلا أن أدركتها وأعملت سيفي في ساقتها حتى رأيتني بعد قليل وسط خطوط جيش العدو الأكبر وإذا الخطر محدق بي من كل جانب ، فخفت الأسر من أجل نفسي بل من أجل الجيش الذي أقوده وأدير حركاته وكان الظلام حالكًا جدًا فلا ينم على شيء سوى ردائي الأبيض فأسرعت بإلقائه إلى الأرض لأستطيع أن أتواري عن عيون الأعداء فيخفى عليهم مكاني ، ثم انسللت من بينهم وغادرت صفوفهم آمنًا مطمئنًا ، وما هو إلا أن بلغت مأمني حتى جمعت رجالي وكررت عليهم كرة هائلة فكانت الواقعة الثالثة التي أحرزنا فيها النصر العظيم ، فماذا تقولون في هذه الحيلة الغريبة؟ وكان الجنود لا يزالون مكبين على ألعابهم لا يرفعون إليه أنظارهم ، يستمعون القصة وكأنهم لا يسمعونها حتى انتهى منها ؛ فأمسكوا عن اللعب وشخصوا بأبصارهم إلى سيرانو ليروا ماذا يقول ، فقال له : إن هنري الرابع يا سيدي ، ما كان يرضى لنفسه ، مهما كان الخطر المحدق به عظيمًا ، أن يتنازل عن ريشته البيضاء لأعدائه ..!

فتهلل الجنود فرحًا وانبسطت أساريرهم ، وعادوا إلى جلبتهم وضوضائهم ، فقال له الكونت : ذلك لا يعنيني ، وإنما الذي يعنيني أنني قد حقنت دمي ، واستبقيت حياتي لوطني ، وسلبت من العدو يومًا كان يريد أن يعده من أيام مجده وفخاره ، قال : أما الفكرة فبديعة جدًا لا أرتاب فيها ، ولكن الذي أعلمه أن الجندي ما خلق إلا ليموت ، فمن العار أن يخسر هذا الشرف بأي ثمن كان ، وأقسم لك يا سيدي أنني لو كنت حاضرًا معك في تلك الساعة ما هان علي أن أرى وشاحك العظيم في يد أعدائك دون أن أقاتل عنه ، حتى أفتديه ولو بحياتي ، قال : قسم ضائع لا قيمة له لأنك لم تكن معي ، قال : بل كنت معك يا سيدي ، وقاتلت عن وشاحك حتى استنقذته من يد أعدائك وها هو ذا ، ومد يده إلى جيبه فاستخرج منه الوشاح وألقى به بين يديه ، فأربد وجه الكونت وانتفض غيظًا وألقى على سيرانو وعلى الجنود نظرة شزراء ملتهبة وقال لهم : أتدرون ماذا أصنع الآن بهذا الوشاح؟ قالوا : لا ، قال سألوح به في الجو تلويحًا لا يسركم ولا ليهنؤكم ، وصعد إلى التل ولوّح به ثلاث مرات في الهواء والجنود يعجبون لأمره ولا يدرون ماذا يريد ثم نزل وهو يقول : أما وقد انقضى كل شيء فسأقضي إليكم بسر من أسرار الحرب ما زلت أكتمه في صدري حتى حان وقته فاستمعوه :

قد اتفقت منذ أيام مع جاسوس من جواسيس العدو على أن يكون عونًا لي على قومه فيما أريد ، وأن يكون مخلصًا لي مؤتمرًا بأمري .. فقاطعه سيرانو وقال له : ولكنك تصطنع رجلًا خائنًا يا مولاي ، قال : ومن أصطنع إن لم أصطنع الخائنين؟ فهو يدلني على مقاتل قومه وعوراتهم ومكامن أسرارهم من حيث لا يدلهم على شيء إلا على ما أريد أن يدلهم عليه ، أي أنه يخدعهم ويضللهم من حيث يظنون أنه ينصحهم ويصدقهم وقد جمع قائدنا العام مجلسه الحربي صباح أمس ونظر في كارثة الجوع التي نزلت بنا ، فاستقر الرأي على أن يسافر هو بنفسه خلسة على رأس فرقتين من فرق الجيش إلى « أورلنس » ليجلب منها المؤونة والذخيرة فسافر من حيث لا يشعر العدو بمكانه وترك بقية الجيش هدفًا للهجوم العام ، فقال له كاربون : أخاف أن يعلم العدو بذلك ، فيكون الخطب عظيمًا ، قال : قد علم فعلًا وهو يتأهب منذ الأمس لمهاجمتنا ، فهمس سيرانو في أذن لبريه : ذلك ما حدثتك عنه صباح اليوم ، واستمر الكونت يقول : وقد بعثوا جاسوسهم هذا ليتفقد لهم خطوط جيشنا ويدلهم على أضعف نقطة فيه ليهاجمونا ، فاتفقت معه على أن يدلهم على النقطة التي أريدها وأعطيه الإشارة منها ، مضمرًا في نفسي أن أغريهم بالهجوم على أقوى فرقة في الجيش لتستطيع مشاغلتهم ومطاولتهم زمنًا طويلًا حتى يتمكن قائدنا من العودة بجيشه إلى مركزه آمنًا سالمًا ، ولما كانت فرقتكم هي أقوى فرق الجيش وأمضاها عزمًا ، وأصلبها عودًا ، فقد رأيت أن أجعلها هدف ذلك الهجوم ، وإن كنت أعلم أنها ستموت عن آخرها ، وقد كنت أمرت ذلك الجاسوس أن يقف وراء هذا التل لينتظر إشارتي فيذهب بها ، وها أنتم أولاء ترون أنني قد أعطيته إياها بخفقة ذلك الوشاح فاستعدوا للموت فقد انقضى كل شيء .

فقال له سيرانو : أهذا كل انتقامك يا سيدي؟ إنك قد أحسنت إلينا من حيث أردت إساءتنا ، فالجاسكوني لا يخاف الموت بل يخاف الحياة مع الذل والعار ؛ قال : ما شككت في شجاعتك قط يا سيرانو فإن من يقاتل مائة رجل وحده فيغلبهم لا يبالي بخطر من الأخطار مهما عظم شأنه! ثم التفت إلى الجنود وقال لهم : لا أكتمكم أنني أحببتكم ورضيت عنكم وحمدت عشرتكم وسيرتكم ، أما الآن فقد استطعت بعمل واحد أن أؤدي واجبي وأشفي غليلي ، فقال له سيرانو : وشيء آخر يا سيدي ، قال : وما هو؟ فمشي نحوه خطوة وأسر في أذنه : أن تترمل روكسان ، فارتعد الكونت ، ونكس رأسه وتسلل من مكانه دون أن يقول شيئًا .

فالتفت سيرانو إلى الجنود وقال لهم : لقد آن أيها الأصدقاء أن نضع على شعار جاسكونيا ذي الألوان الستة لونًا دمويًا أحمر كان ينقصه ليكون أجمل شعار في العالم ، فكونوا عند ظني وظن فرنسا بكم ، واعلموا أنه ما من ميتة في العالم أفخر ولا أمجد من هذه الميتة التي ستموتونها اليوم ؛ فهتفوا جميعًا بحياة جاسكونيا وحياة فرنسا وابتدروا أسلحتهم يشحذونها ويصقلونها .

والتفت سيرانو فرأى كرستيان واقفًا وراءه مطرقًا جامدًا ، وقد انتشرت على وجهه غبرة سوداء من الحزن فتقدم نحوه وقال له : أخائف أنت يا كرستيان؟ قال : بل حزين لأني سأفارقها ، فانتفض سيرانو عند سماع كلمة الفراق ووضع يده على قلبه ورفع عينيه إلى السماء ولكنه لم يستطع أن يقول شيئًا ، وصمت هنيهة ثم قال له : هون عليك الأمر يا صديقي فرحمة الله أوسع من أن تضيق بنا ، فقال : كنت أريد على الأقل أن أكتب لها كتاب وداع أبثها فيه خواطر نفسي ولواعجها في ساعتي الأخيرة ، قال : لقد حدثتني نفسي ليلة الأمس – ولا أعلم كيف كان ذلك – بهذا المصير الذي سنصير إليه الآن وأن هذا اليوم هو آخر أيامنا على وجه الأرض فكتبت إليها عن لسانك الكتاب الذي تريده وسأبعث به إليها الآن، قال : أرنيه ، قال : ها هو ذا ، وأخرج الكتاب من جيبه فأعطاه إياه ، فأخذ يقرؤه حتى وصل إلى سطر من سطوره الأخيرة فتوقف ذاهلًا مدهوشًا وقال : غريب جدًا! ما هذا الذي أرى! قال : ماذا؟ قال نقطة بيضاء على الورق كأنها دمعة ، فاختطف سيرانو الكتاب من يده وقال : أرني ، وظل يتأمل فيها مصعدًا منحدرًا ، كأنه يفتش عن النقطة فلا يراها ، فقال له كرستيان : إنها دمعة يا سيرانو ما في ذلك ريب ولا شك ، فهل كنت تبكي؟ فانتفض إلا أنه تجلد وتمسك

وقال : نعم ؛ قال : وما الذي أبكاك؟ قال : ذلك شأن الشعراء دائمًا ، لا يتناولون موضوعًا من الموضوعات المحزنة للكتابة فيه عن لسان غيرهم ، حتى يتأثروا به كأنهم أبطاله وأصحاب الشأن فيه ، ولقد بدأت في كتابة هذا الكتاب وأنت ماثل في ذهني لا تفارقه ، فما زال يمتد بي الخيال ويطير بي في أجوائه حتى تمثل لي أنني أنا الحزين المتألم والمفارق المفجوع ، وأن الذي أصفه إنما هي هموم نفسي وآلامها ، فانحدرت من عيني بالرغم مني هذه الدمعة التي تراها ، فنظر إليه كرستيان نظرة غريبة واختطف الكتاب من يده وقال له : دعه معي الآن ؛ ثم طواه ووضعه في ثنايا قميصه وانصرف .

جواز المرور

وقامت في هذه اللحظة ضجة في المعسكر ، وسمعت أجراس مركبة قادمة من بعيد وصائح يصيح من رجال الحرس بصوت غليظ أجش من القادم؟ فصعد سيرانو وكرستيان إلى التل لينظروا ماذا جرى فرأوا مركبة مقفلة جميلة تحمل شارة من شارات الشرف ويجلس بجانب حوذيها غلامان حسنا الزي والهندام فما شك الجميع في أنها قادمة من باريس وأن راكبها رسول من قبل الملك يحمل أمرًا من أوامره ، فاصطفوا صفين متقابلين وسكنوا سكونًا عميقًا لا حس فيه ولا حركة ، حتى وقفت المركبة على مقربة منهم فأتلعوا إليها أعناقهم وشخصوا بأبصارهم لينظروا من القادم ،

ثم فتح بابها فإذا سيدة باهرة الجمال مشرقة الطلعة قد وثبت منها وثبة الجؤذر من خميلته فصاح سيرانو وكرستيان معًا بصوت واحد : روكسان! وكانت كما يقولون ، فصعدت إلى التل بخفة ورشاقة حتى بلغت قمته وقالت : صباح الخير أيها الأصدقاء ، لعلكم جميعًا بخير ؛ فرفع الجنود قبعاتهم وأحنوا رؤوسهم وعقدوا حولها نطاقًا منهم ومن أنظارهم وظلوا باهتين لمرآها ذاهلين ، وكأنما أدركهم الخجل منها لرثاثة ملابسهم وتشعث هيئاتهم فظلوا يمسحون لحاهم ويفتلون شواربهم ويقلبون النظر في أعطافهم ليروا هل لصق بها أو خالطها ما تقذى به عيون السيدات الجميلات ، ومرت بهم روكسان في مواقفهم واحدًا فواحدًا بابتسامتها اللامعة المتلألئة وكلماتها العذبة الجميلة ، حتى بلغت موقف كرستيان فألقت نفسها بين ذراعيه ، فقال لها وهو ذاهل مدهوش : ما الذي جاء بك يا روكسان؟ قالت : أنت الذي جئت بي يا زوجي العزيز .

وكان سيرانو واقفًا منذ رآها وراء إحدى الربوات موقف الذاهل المشدوه ، يرعد ويضطرب ويغالب في نفسه ثورة هائلة تتوثب نارها بين أضالعه ، ثم ما لبث أن سمع صوتها يناديه فانتبه من غشيته وتقدم نحوها وانحنى بين يديها فابتسمت له وصافحته مصافحة طويلة وقالت له : لعلك بخير يا ابن عمي ؛ قال : نعم وأشكر لك تفضلك بزيارتنا وإن كنت أرجو أن تكون زيارة قصيرة ، قالت : لماذا! قال : لأننا في ميدان حرب وأخشى أن يصيبك من شرها شيء ، قالت :

بل سأبقى معكم أطول مما تظنون فأعدّوا لي مقعدًا أجلس عليه ، فابتدر الجنود تلبية أمرها ولم يبق بينهم حامل طبل أو صاحب صندوق إلا قدمه إليها ، فجلست وهي تقول : ما أطول المسافة بين باريس وأراس لقد كنت أظنها أقصر من ذلك ، ولقد مررت في طريقي ببلاد شملها الخراب والدمار ، ورأيت بعيني منظر الجائعين والعارية والمتألمين والصارخين وما كنت أحسب أن الحرب تنال من الإنسانية هذا المنال العظيم ، والحق أقول يا أصدقائي إن العاطفة التي جاءت بي إلى هنا أجمل وأرق من العاطفة التي جاءت بكم ، فكم بين من يأتي ليقبل حبيبته ، ومن يأتي ليقتل عدوه ، والتفتت إلى كرستيان وقالت له : أليس كذلك يا زوجي العزيز؟ قال : له . فقال لها سيرانو : وكيف استطعت اختراق خطوط العدو ، وتجشم هذه المخاطر كلها؟

قالت : لقد كان ذلك سهلًا جدًا يا ابن عمي ، واسمحوا لي أيها الأصدقاء أن أقول لكم ، إن أعدائكم الأسبانيين قوم ظرفاء أرقاء لم تسمح لهم شهامتهم وشرف نفوسهم ، أن يطلقوا النار على امرأة عزلاء ، فلقد كنت كلما مررت بحارس من حراسهم فتحت نافذة مركبتي وأشرفت عليه وابتسمت في وجهه ابتسامة لطيفة فلا يلبث أن يستقبلني بمثلها ويتنحى لي عن طريق فأمضي في سبيلي ، فكانت الابتسامة هي « جواز المرور » الذي فتح لي جميع الأبواب الموصدة أمامي حتى وصلت إلى هنا ، قال : ألم يسألك أحد عن وجهتك التي تقصدينها؟ قالت : كان إذا سألني أحدهم قلت له :

إنني ذاهبة لرؤية عشيقي ؛ فتقع هذه الكلمة العذبة الجميلة من نفسه موقع الماء من مهجة الظامئ الهيمان فيبن في وجهي ويحييني بإحناء رأسه ويتركني وشأني فقاطعها كرستيان وقال لها : ولكنني لست بعشيقك يا سيدتي بل زوجك ، قال : ما ارتبت في ذلك قط يا زوجي العزيز ، ولكن كلمة العشيق تنال من نفس العاشق المفارق – وكلكم ذلك الرجل – ما لا تنال منها كلمة الزوج فسامحني واغفر لي ذنبي .

وهنا دخل الكونت دي جيش رئيس أركان حرب الجيش فرأى روكسان واقفة موقفها هذا بين الجنود فدهش دهشة عظمى إذ رآها ، ودنا منها فحياها وقال لها : ما الذي جاء بك إلى هنا يا سيدتي؟ قالت : جئت لأرى زوجي ، لأنني لم أتمتع برؤيته بعد زواجي منه إلا تلك اللحظة القصيرة التي تعلمها ؛ فأربد وجهه غيظًا وقال لها : لقد أخطأت بعملك هذا خطأ عظيمًا وليس من الرأي أن تلبثي هنا بعد الآن لحظة واحدة ، فأعدي عدتك للرجوع من حيث أتيت ، قالت : لماذا؟ قال : لأن المعركة ستدور بعد ساعة أو ساعتين ، ولا مكان للنساء في ميادين الحروب ؛ فقال كرستيان : وسنموت في تلك المعركة يا سيدتي عن آخرنا لأن الكونت أراد ذلك ، فذعرت روكسان واصفر وجهها ، والتفتت إلى الكونت وقالت : أصحيح ما يقول يا سيدي؟ إنك إذن تريد أن أصبح أرملة؟ قال : لا ، وأقسم لك ، قالت : ألا تعلم أنه إذا قدر لي هذا المصير كان ذلك آخر عهدي بالدنيا ونعيمها واستحال على عين الشمس أن تراني بعد اليوم إلا إذا استطاعت أن تخترق بأشعتها صفائح القبور؟

قال : أقسم لك يا سيدتي أنني .. فقاطعته وقالت : كيفما كان الأمر فمحال أن أغادر هذا المكان لأنني أريد أن أموت مع أبناء وطني ، فهتف سيرانو بصوت عال : لقد نطقت بكلمة الأبطال يا سيدتي فأهنئك .

فابتسمت وقالت : ذلك لأنني ابنة عمك يا سيرانو ، فصاح الجنود بصوت واحد : سندافع عنك يا سيدتي إلى الموت ، قالت : شكرًا لكم يا أصدقائي ذلك أملي فيكم وفي الدم الجاسكوني الذي يجري في عروقكم ؛ فتقدم نحوها « كاربون » قائد الفرقة وانحنى بين يديها وقال لها : أما وقد أصبحت شريكتنا في حظنا ومصيرنا فائذني لي أن ألجأ إليك في طلبة واحدة ؛ قالت : وما هي؟ قال : أن تفتحي يدك القابضة على هذا المنديل الحريري الجميل ، فلم تفهم ما يريد ولكنها فتحت يدها فسقط المنديل على الأرض ، فالتقطه وقال لها : إن فرقتي يا سيدتي ليست لها راية وسيكون منديلك هذا رايتها التي تقاتل في ظلها ، واعلمي أن جنودي سيموتون جميعًا دفاعًا عن الراية التي قدمتها لهم أجمل فتاة في فرنسا ، ثم عقد المنديل بسنان رمحه الطويل وركزه على قمة التل فظلت الريح تعبث به وظل الجنود ينظرون إليه نظر السائر إلى نجمة القطب الخافقة في كبد السماء .

فالتفتت روكسان إلى الجنود باسمة وقالت : ألا تقدمون لي شيئًا من طعامكم وشرابكم أيها الأخوان ، فإني أكاد أموت جوعًا ، فنظر القوم بعضهم إلى بعض ، وقد مشت في وجوههم صفرة الموت ودهمهم من الأمر ما لم يكن يخطر لهم ببال ، فشعرت روكسان بحيرتهم واضطرابهم ؛ فابتسمت وقالت أو قوموا بنا جميعًا إلى مطعم « راجنو » لنتناول عنده من الطعام ما نريد ، فقال لها أحدهم : إنك تهزئين بنا يا سيدتي ، فأين نحن من راجنو ومطعمه ، قالت : إذن لا أستطيع أن أتصور كيف يكون سروركم واغتباطكم ، إذا علمتم أنني قد نقلت لكم هذا المطعم وصاحبه من باريس إلى هنا .

وتركتهم ذاهلين مدهوشين لكلامها وصعدت إلى التل وصاحت : راجنو! راجنو! هات لنا غذاءنا ، فما أن أتمت كلمتها حتى أقبل راجنو والغلامان الخادمان يحملون على أيديهم سلال الخبز وصناديق الخمر وأفخاذ اللحم الناضجة ، وأنواع الفطائر والحلوى ، فهتف الجنود : راجنو راجنو وداروا به يحيونه ويعتنقونه ويجاذبونه أثوابه ، فصاح فيهم ؛ دعوني أيها الكسالى واذهبوا إلى المركبة واحملوا الطعام الذي جئناكم به بأنفسكم فحسبان ما حملنا لكم ، فهرعوا إلى المركبة وعادوا بها بقي من لحم وخمر وحلوى وفاكهة فرحين مغتبطين ، وهم يقولون : كيف غفلت عيون الأعداء يا راجنو عن هذا الطعام الشهي؟ قال : لأن عيون روكسان الجميلة كان أشهى إليهم منه .

وما هي إلا هنيهة حتى استداروا حلقات واسعة وأنشأوا يأكلون ويصفقون وروكسان قائمة في خدمتهم تقدم لهذا كأسًا ولهذا رغيفًا ولهذا سكينًا ، ومدامعها تتلألأ في عينيها رحمة بهم وإشفاقًا عليهم وسيرانو واقف ناحية ينظر إليهم نظرة السرور والغبطة ويردد بينه وبين نفسه : يا ملاك الرحمة والإحسان ، يا أجمل نسمة طاهرة على وجه الأرض ، يا نفسا نقية صافية لم يخلق الله لها مثالًا بين نفوس البشر ، حسبي منك أن أراك ، وأن ينفذ شعاع من أشعة جمالك إلى قلبي المظلم الحالك ، فيضيء ظلمته ويشرق في جوانبه .

وإنهم لكذلك إذ سمعوا صوت الكونت دي جيش مقبلًا من بعيد فقال بعضهم لبعض : محال أن ينال هذا الرجل البغيض لقمة واحدة من طعامنا ، فلنطو عنه كل شيء حتى ينصرف لشأنه ، وما هي إلا كرة الطرف أن اختفى كل شيء في ثنايا معاطفهم وفروج أكمامهم ووراء صناديقهم ، ثم دخل الكونت وهو يقول : ما هذه الرائحة الجديدة؟ فصمت الجنود ولم يقولوا شيئًا ، فظل يقلب النظر في وجوههم فيرى الحمرة التي سرت فيها من حرارة الغذاء ونشوة الشراب فيعجب لها عجبًا شديدًا ، ثم قال : ما لي أراكم منتعشين متهللين وعهدي بكم قبل هذه اللحظة تتهافتون جوعًا وتتساقطون ضعفًا وإعياءًا! فقال له سيرانو : إنها صحوة الموت يا سيدي ، فأشاح بوجهه عنه والتفت إلى روكسان وقال لها : أباقية أنت هنا حتى الآن يا سيدتي؟ قالت : نعم ، وما أنا ببارحة هذا المكان حتى أعود بكم أو أموت معكم .

فأطرق هنيهة ، ثم رفع رأسه وهتف بكاربون فلباه ووقف بين يديه فقال له : إنك ستدير المعركة المقبلة بالنيابة عني يا حضرة القائد ، قال وأنت يا سيدي؟ قال أما أنا فباق هنا لأدافع عن روكسان بنفسي لأني لا أستطيع أن أترك امرأة في خطر ، فأكبر القوم جميعًا هذه الشهامة الكبرى والعظمة النفسية وهمس بعضهم في أذن بعض : إن الرجل لا يزال يجري في عروقه الدم الجاسكوني ، فقال لهم سيرانو : إذن يمكننا أن نقدم إليه شيئًا من طعامنا وشرابنا ، فاندفعوا جميعًا نحوه ومدوا إليه أيديهم بما معهم من الطعام والشراب ، فألقى عليهم نظرة عالية مترفعة وقال لهم : نعم إنني أموت جوعًا وسغبًا ولكن الجاسكوني الشريف لا يأكل فضلات طعام غيره ، فصاح سيرانو : شهامة أخرى أيها الأصدقاء لا تنسوها له ، وهتف ليحيي الكونت دي جيش ، فهتف الجنود بهتافه ، فشكرهم الكونت بإيماءة من رأسه ، ثم أنشأ يخطب فيهم خطبة الحرب ويلقي عليهم الأوامر العسكرية حتى قال لهم ، وهو يشير إلى مدفع جاثم بين يديه : إنكم ما تعودتم إطلاق المدافع قبل اليوم ، فاعلموا أن هذا المدفع يتراجع بشدة عند خروج القذيفة منه فكونوا على بينة من ذلك واحذروه ، فصاح أحدهم بصوت عال : إن مدفع الجاسكونيين مثلهم يا سيدي لا يتراجع قط ، فابتسم له وشكره وقال : لا يخيبن أملي فيكم يا أبناء وطني ؛ ثم التفت إلى روكسان وقال لها : تعالي معي يا سيدتي لتشاهدي منظر استعراض الجيش فأعطته يدها فصعدا معًا إلى قمة التل .

وما أبعدا إلا قليلًا حتى مشى سيرانو إلى كرستيان وقال له همسًا : كلمة واحدة أريد أن أقولها لك ، فامش معي قليلًا ، فمشي معه فقال له : ربما فاتحتك روكسان في شأن الرسائل التي كانت ترد عليها منك وستقول لك إنها كانت تتلقى منك كل يوم رسالة ، فلا يدهشك ذلك ولا ترتبك لئلا يفتضح الأمر ، قال : وهل كنت تكتب إليها كل يوم؟ قال : نعم ؛ لأنني تعهدت لها عنك قبل سفرنا – كما تعلم – أن تكتب إليها كثيرًا فلم أر بدًا من الوفاء ، وما كان يكلفني ذلك أكثر من التعبير عن شعورك وخوالج نفسك ، وذلك ما لا ينقصني العلم به ، فإذا فاتحتك في هذا الشأن فلا يكن لك فيه قول غير الذي قلت لك ، قال : وكيف كنت تستطيع توصيل هذه الرسائل إليها ، وقد حصرنا العدو من كل جانب وذادنا عن كل شيء حتى عن طعامنا وشرابنا؟ قال : الأمر بسيط جدًا ، كنت أخرج في سحر كل ليلة متنكر تحت جنح الظلام ، فأكمن تارة وأظهر أخرى .. فقاطعه كرستيان وقال له : وهل هذا بسيط جدًا؟ الحق أقول لك يا صديقي ، إنني أصبحت أعجب لأمرك كثيرًا ، ولئن استطعت أن أفهم كل شيء فإنني لا أستطيع أن أفهم اهتمامك بهذا الأمر هذا الاهتمام كله إلى درجة المخاطرة بحياتك في سبيله ، قال : ما في الأمر مخاطرة ولا مجازفة ، فقد كان يلذ لي كثيرًا أن أقوم لك بهذه الخدمة ، وأن ألاقي ما ألاقي من الأخطار في سبيلها ، قال : وما الذي كان يعجبك من ذلك؟ قال : التمثيل قال : أي تمثيل؟ قال : تمثيل عواطفك وشعورك ؛ فإنني منذ أخذت نفسي بتمثيل دورك في هذه المأساة المحزنة لم يزل يستهويني التمثيل ويهيمن على نفسي ، حتى أصبحت أتخيل أنني صاحب الدور الذي أمثله ،

وأنني أنا المعني دونك بكتابة هذه الرسائل والعناية بها والتذرع بكل وسيلة إلى توصيلها إليها؟ قال : وهل تبلغ لذة التمثيل بامرئ هذه المبالغ كلها؟ قال : نعم ؛ وكثيرًا ما ذرف الممثلون دموعًا لم يذرفها العاشقون أنفسهم ، ثم التفت فرأى روكسان مقبلة فقال له : لقد فهمت الآن كل شيء ، فكن حكيمًا حازمًا ، ثم تسلل إلى خيمته وتركه واقفًا مكانه .

حقيقة الجمال

قال كرستيان لروكسان ، وقد جلسا معًا على بعض المقاعد : هل لك أن تحدثيني يا روكسان : ما الذي جاء بك إلى هنا؟ فإنني لا أزال أعجب لأمرك كل العجب ، ولا أكاد أصدق أن الحب يجشم صاحبه هذه الأخطار التي تجشمتها نفسك في سبيله ، قالت : لقد سحرتني وملكت على قلبي رسائلك العذبة الجميلة التي كنت ترسلها إليّ صبيحة كل يوم وتودعها شعور قلبك وهواجس نفسك وتكتبها بتلك اللغة الغريبة المؤثرة التي لو لامست الصخر الأصم لانفجر وتناثرت شظاياه في أجواء الفضاء ؛ وقد حاولت كثيرًا أن أثبت لها وأقاوم تأثيرها على نفسي بكل سبيل فغلبتني على أمري وقادتني إليك كما تراني ، قال : أمن أجل بضع رسائل بسيطة؟ فقاطعته وقالت : لا تقل بسيطة ، بل هي الوحي الإلهي الذي ينزل على نفوس الملهمين من البشر ، بل هي القوة الغيبية التي تهيمن على العالم وتحيط به من جميع أقطاره دون أن يدرك أحد مكانها أو يعرف مأتاها ،

ولقد كان يخيل إلي وأنا أقرؤها ، أنني أرى صورتك فيها كما يرى الناظر صورة البدر من وراء السحب الرقيقة فأهوي إليها بفمي لأقبلها فإذا أنا أقبل السطور والكلمات ، فأطرق كرستيان برأسه ، وقد ألم بنفسه من الهمم والكمد ما الله عالم به ، واستمرت روكسان في حديثها تقول : إنني يا كرستيان ما أحببتك حبًا صادقًا متغلغلاً في أعماق نفسي إلا منذ تلك الليلة التي رأيتك فيها واقفًا تحت شرفتي تناجيني نجاء عذبًا رقيقًا بتلك النغمة الرقيقة المؤثرة ، وتفضي إليّ بذات نفسك كأنك قد ألمستني فؤادك ووضعت يدي على قلبك ، ثم توالت عليّ رسائلك بعد ذلك ، فكنت أسمع فيها دائمًا تلك النغمة الموسيقية الخلابة ، وكأنك لا تزال واقفًا أمام شرفتي تناجيني فلا أستطيع أن أملك نفسي دون البكاء والحنين ، وأقسم لك لو أن « بينيلوب » وردت عليها من زوجها « عولس » تلك الرسائل التي وردت عليّ منك لما أطاقت صبرًا على فراقه ولألفت بنسيجها الذي عرفت به في التاريخ وذهبت تفتش عنه بين سمع الأرض وبصرها حتى تلقاه ؛ فقال ونفسه تذوب حسرة وكمدًا : ما كنت أقدر يا روكسان أن تلك الرسائل الصغيرة تبلغ من نفسك هذه المبالغ كلها ، قالت : لقد كان سلطانها على نفسي عظيمًا جدًا ، وكنت أعيد قراءتها مرات كثيرة حتى تتشربها نفسي وتتمثلها روحي ، وحتى كان يخيّل إليّ أن كل كلمة من كلماتها ورقة تطير إليّ من أوراق روحك؟ فما لبثت أن شعرت أنني قد أصبحت ملكًا لك وأسيرة في يدك ، وأن أمر نفسي قد خرج من يدي فلا حول لي فيه ولا حيلة .

فاكتأب كرستيان وتقبض وجهه وقال لها : أهذا كل ما جاء بك إلى هنا؟ قالت : نعم ، لأستغفرك من ذلك الذنب الذي أذنبته إليك ، فقد أحببتك لأول عهدي به لجمالك ورونقك وقسامة وجهك كأن الجمال هو كل فضائلك ومزاياك فأهنك بذلك إهانة عظمى ، أما الآن فإني أجثو بين يديك – لا بجسمي – فإنك لا تلبث أن ترفعني بيديك – بل بروحي التي لا يمكنك أن تغير مكانها منك أبدًا ، طالبة صفحك وعفوك عن تلك الجريمة التي اقترفتها ، وما أحسبك تضن عليّ بذلك في هذه الساعة التي نقف فيها جميعًا على أبواب الأبدية ونودع فيها الحياة الوداع الأخير .

فانتفض كرستيان وشخص في وجهها ساعة ، ثم قال لها : هذا شأنك في الماضي ، ثم ماذا بعد ذلك؟ قالت : كنت بعد ذلك أكثر تعقلًا وروية وأبعد فكرًا ونظرًا فامتزج في نظري جمال صورتك بجمال جسمك فاستحالتا إلى صورة واحدة فأحببتها ؛ قال : والآن؟ قالت : أما الآن فقد انتصرت نفسك عليك انتصارًا عظيمًا فأصبحت لا أحب منك سواها ، ولا أشعر بسلطان لغيرها على قلبي ، فاصفر وجهه اصفرارًا شديدًا وأطرق برأسه وظل يقول بينه وبين نفسه : إنها ما احبتني في حياتها لحظة واحدة ، واستمرت هي في حديثها تقول : فليهنك ذلك الحب الثمين يا زوجي العزيز فإن أسعد الناس حالًا في هذه الحياة وأحظاهم بنعمة العيش فيها أولئك الذي منحهم الله نفسًا جميلة شعرية تتعشقها القلوب وتتشربها لنفوس وتهفو لها الأحلام ، وتقوم لهم في كل موقف ومقام مقام الجمال الجثماني إن فاتهم أو نزلت به كارثة من كوارث الدهر ،

وما الجمال الجثماني إلا سحابة رقيقة تطير بها برودة الهواء أو هضبة ثلجية تذيبها حرارة الشمس ، وما أحب المحبوب قط في الصورة الجميلة جمالها ورونقها بل جمال النفوس الكامنة في طياتها ولا أبغض المبغضون في الصور الدميمة قبحها ودمامتها بل قبح النفس المسكنة فيها ، فإذا اختلف العنوان عن الكتاب في إحدى الحالتين كان الفوز العظيم للجمال النفسي على صاحبه ، وإني أعترف لك يا كرستيان بأني ما أحببتك عند النظرة الأولى إلا لجمالك لأني ما كنت أرى في سماء حياتك كوكبًا مشرقًا سواه ، وما هي إلا أيام قلائل حتى أخذ ذلك الكوكب يتضاءل أمام عيني شيئًا فشيئًا بجانب تلك الأشعة الباهرة التي كانت تتدفق من ينبوع نفسك الجاشية الفياضة حتى أصبحت لا أراه ولا أشعر به ، فازداد اضطرابه واصفراره وظل ينظر إليها نظرًا غريبًا حائرًا .

فقالت له : ما لي أراك حزينًا مكتئبًا كأنك في شك من هذا الانتصار العظيم الذي تم لنفسك عليك؟ فنظر إليها نظرة ساكنة جامدة ، ثم قال : اسمعي يا روكسان ، إنني لا أحفل بهذا الحب ولا أغتبط به ولا أريد إلا أن تنظري إليّ دائمًا بتلك العين التي نظرت بها إليّ لأول عهدك بي ، قالت : إني أعجب لأمرك كثيرًا يا كرستيان ، فإن الحب الذي تؤثره وتغتبط به حب تافه لا قيمة له ولا ثبات لظله ، أما الآن فإني أحبك لصفاتك الكريمة النادرة التي قلما اجتمعت لمخلوق سواك ، أحبك بذكائك الخارق وفطنتك النادرة وشرف عواطفك ، ورقة شعورك ، ولطف حسك وسعة خيالك ، وذلك البيان الرائق الصافي الذي يشف عن جوهر نفسك شفوف الغدير الساكن عن لآلئه وجوهره ،

أحبك من أجل ذلك كله حبًا ثابتًا راسخًا لا تعبث به صروف الدهر ، ولا تنال منه عاديات الأيام ، حتى لو استحالت صورتك إلى صورة أخرى غيرها لما نقص حبي إياك ذرة واحدة .

فارتعد كرستيان وشعر أن نفسه قد بدأت تتسرب من بين جنبيه فمد يده إليها ضارعًا وقال : الرحمة يا روكسان ؛ قالت : بل لو ذهب جمالك بحادثة من حوادث القضاء فأصبحت بشع الصورة دميم الخلقة .. فقاطعها وصاح : دميم الخلقة؟ قالت : نعم وأقسم لك على ذلك يا زوجي العزيز ويا أحب الناس إليّ ، فظل يرتعد ويضطرب اضطرابًا ، خيل إليها أنه نشوة الحب وسكرة السرور فقالت له : أسعيد أنت الآن يا كرستيان؟ فنظر إليها نظرة غريبة لا يعلم إلا الله ما يكمن وراءها وقال : نعم سعيد جدًا ومن هو أولى بالسعادة مني ، ونهض قائمًا يريد الانصراف فقالت له : إلي أين؟ قال : لم يبق بيننا وبين المعركة إلا لحظات قليلة ولابد أن يكون هذا آخر اجتماع لنا ، فالوداع ، قالت : ألم يغلب يأسك على رجائك ورحمة الله أوسع من أن تضيق بك؟ قال : إن السعادة أضن بنفسها من أن تثبت زمنًا طويلًا في مكان واحد ، فالوداع يا روكسان وداعًا لا لقاء من بعده ؛ وأخذ يبتعد عنها شيئًا فشيئًا دون أن يضع يده في يدها أو يقبلها قبلة الوداع ، فمشت وراءه وهي تعجب لأمره وتقول : ما بك يا كرستيان؟ قف قليلًا لأقول لك كلمة واحدة ثم اصنع ما شئت ،

إنك لم تفهم غرضي ، وأقسم لك أنك لو فهمته لعلمت أنني أحببتك حبًا ما أحبه أحد من قبلي أحدًا ، قال : حسبك يا روكسان وعودي إلى هؤلاء الجنود المساكين البائسين فإنهم يفكرون في مثل ما أفكر فيه ويودعون الحياة كما أودعها ، فاذهبي إليهم واجلسي بينهم قليلًا وعزيهم بابتسامتك العذبة الجميلة عن همومهم وآلامها ، أما أنا فذاهب لقضاء بعض الشئون وربما عدت إليك بعد قليل ، ثم اختفى عن نظرها .

المكاشفة

دخل كرستيان على سيرانو في خيمته شاحب اللون مكفهر الجبين ، فقال له سيرانو : ما بك يا صديقي؟ قال : إنها حدثتني الآن حديثًا طويلًا علمت منها أنها لا تحبني بل ما أحبتني قط في يوم من أيام حياتها ، قال : ماذا تقول؟ قال : وأقول أيضًا إنها تحبك أنت ولا تحب في الدنيا أحد سواك ، فانتفض سيرانو انتفاضة شديدة كادت تتطاير لها أجزاء نفسه وقال : أنا؟ قال : نعم لأنها اعترفت لي بأنها لا تحب مني إلا نفسي وأنت الذي تكمن بين أضالعي ، فهي تحبك حب العابد معبوده ، وما جاءت هنا إلا من أجلك ، وما أشك في أنك تضمر لها في قلبك من الحب مثل ما تضمر لك ، فصرخ سيرانو ، وقال : لا ، أقسم .. فقاطعه كرستيان وقال : لا تفعل فلقد نمت عليك الدمعة التي رأيتها بعيني في كتاب الوداع الذي كتبته إليها ، وما هي بدمعة الشعر كما تقول بل دمعة الحب وما كنت تكتب إليها عن لساني كما تزعم ، بل عن لسانك أنت ، فاعترف بأنك تحبها .

فصمت سيرانو هنيهة ذهب نفسه فيها كل مذهب ثم رفع رأسه وقال : نعم يا كرستيان أعترف لك بأني أحبها ، وأقسم لك أنني ما طمعت فيها قط ، قال : نعم أعلم ذلك فوا رحمتاه لك ولتلك الآلام الطوال التي قاسيتها في ماضي حياتك ، أما الآن ففي استطاعتك أن تطمع فيها كما تشاء ، ولا يوجد في العالم شيء يحول بينك وبينها ، قال : لا أستطيع ، فإن من يحمل وجهًا مثل وجهي لا يطمع في حياة الحب والغرام ، قال : إنها أقسمت لي أنني لو كنت بشع الخلقة دميم الوجه لما نقص حبها إياي ذرة واحدة ، فانتعش سيرانو وقال : أو قالت لك ذلك؟ قال : نعم مازالت تقوله حتى أملتني وأضجرتني ، قال : لا تحفل بقولها فهي فتاة شعرية الأفكار والتصورات ، تقول بلسانها غير الذي تضمر في أعماق نفسها ، فابق محبوبها الجميل كما كنت ولأبق أنا لسانك الناطق بين يديها حتى يقض الله فينا جميعًا بقضائه ، قال : ذلك مستحيل بعد الآن ، فإني أشعر في أعماق نفسي بخجل ما أحسب إلا أنه سيقضي على حياتي قبل أن تقضي عليها القذيفة التي تنتظرني في ساحة القتال ، فاذهب إليها واعترف لها بكل شيء ، وقل لها إن الرجل الذي أحببته من أجل ذكائه وفطنته وذلاقة لسانه وقوة بيانه كاذب غاش ، ينتحل مواهب الناس وفضائلهم لنفسه ، وليس له فيها من الحظ شيء ، قال : ذلك فوق الاحتمال يا كرستيان ، قال : لابد من ذلك فليس من العدل أن أقتل هناءك من أجل الطبيعة إن الطبيعة جملتني بهذه الحيلة البسيطة من الجمال ، قال : وليس من العدل أن أفجعك في سعادتك ، لأن الطبيعة منحتني شيئًا من القدرة على التعبير عن عواطفي ،

قال : لابد أن تفاتحها في موضوع حبك ، فأنت محبوبها الحقيقي أما أنا فخلعتك الجميلة التي تلبسها وتتجمل بها ، فانزعها عنك وتقدم إليها بأي ثوب تريده فهي لا تبالي بجمال الأثواب وزخرفا ، إنني ضقت ذرعًا بهذه النفس الغريبة التي أحملها بين جوانحي ، حتى أعييت بأمرها إعياءًا شديدًا ولا راحة لي إلا في الخلاص منها ، قال : إنك تريد شقائي يا صديقي ، قال : لا بل سعادتك ؛ فاذهب إليها وقص عليها القصة من مبدئها إلى منتهاها واترك لها الخيار في أمرها ، فإن اختارتك ، فقد أنصفتك ، ولقد كان عقد الزواج الذي جرى بيننا عقدًا سريًا لا تحفل به الكنيسة ولا يعبأ به الناس فما أسهل التخلص منه ، وإن اختارتني لا أكون غاشًا لها ولا خادعًا ، قال : ستختارك أنت بلا شك ؛ قال : أرجو أن يكون ذلك ، وها هي ذي مقبلة فاشرح لها كل شيء ، أما أنا فذاهب إلى نهاية الخط لشأن من الشئون لابد لي من قضائه وربما عدت إليك بعد قليل ؛ فارتاب سيرانو في أمره وأمسك بيده وقال له : إنني أقرأ على جبينك آية اليأس يا كرستيان فهل تقسم لي أنك لا تقتل نفسك ، قال : نعم ، أقسم لك ألا أقتل نفسي ، ثم التفت فرأى روكسان على مقربة منه فقال لها : سيحدثك سيرانو حديثًا خطيرًا فاذهبي إليه ، ثم وضع يده على مقبض سيفه فجرده من غمده وهرع إلى ساحة القتال وهو يقول : الوداع يا نور السماء .

فدنت روكسان من سيرانو وقالت : ما باله؟ إني أعجب لأمره كثيرًا ولا أدري ما الذي دهاه ، فما هو الحديث الخطير الذي تريد أن تحدثنيه؟ قال : لا شيء إنه يهتم بأصغر الأمور وأبسطها ، فلقد كان يروى لي تلك المحادثة التي دارت بينك وبينه منذ هنيهة ، قالت : نعم نعم ويخيل إليّ أنه لم يفهم غرضي أو أنه في شك مما أفضيت به إليه ، وأؤكد لك يا صديقي أنني ما قلت له إلا الحقيقة التي أعتقدها فإنني أصبحت بعد اطلاعي على تلك الرسائل البليغة التي كان يرسلها إليّ كل يوم من ميدان الحرب مفتتنة بعقله وذكائه أكثر من افتتاني بحسنه وجماله حتى لو استحالت صورته إلى صورة أخرى غيرها أو ذهب بجماله حادث من حوادث الدهر فأصبح .. ثم سكتت حياءًا وخجلًا ، فقال دميمًا؟ قالت : نعم ولو أصبح كذلك ، قال : ويشع الصورة؟ قالت : نعم ، قال : ومشوه الوجه؟ قالت : نعم ، قال : وضحكة الناس وسخريتهم؟ قالت : إن من كان له مثل عقله ولسانه لا يكون ضحكة الناس وسخريتهم ، وهنا سمعنا أول طلقة من طلقات المعركة فلم يحفلا بها واستمر سيرانو في حديثه يقول : أتحبينه رغم كل شيء؟ قالت : نعم رغم كل شيء ، فقد غمر جمال نفسه جمال صورته حتى أصبحت لا أراها ولا أشعر بها ، فاغتبط سيرانو في نفسه اغتباطًا عظيمًا وعلم أنه قد أشرف على السعادة التي ظل ينتظرها أعوامًا طوالًا ولم يبق بينه وبينها إلا كلمة أخرى ينطق بها فإذا هي بين يديه .

في هذه اللحظة أقبل « لبريه » من ناحية الميدان مسرعًا وأسر في أذن سيرانو هذه الكلمة « قد قتل كرستيان » ؛ فانتفض وقال : وكيف قتل؟ قال : بأول قذيفة من قذائف المعركة ، فاصفر وجهه وارتعدت فرائصه وغشت على عينيه غمامة سوداء ، فعجبت روكسان لأمره وقالت له : ما بك يا سيرانو؟ قال : لا شيء ؛ قالت : أتمم حديثك ، ماذا كنت تريد أن تقول لي؟ فصمت وأطرق هنيهة وظل يقول بينه وبين نفسه : قد انقضى كل شيء فلا أستطيع أن أقول شيئًا ، ولقد كان كرستيان صديقي وعشيري فليس في استطاعتي أن أبني سعادتي على أنقاض شقائه ، فظلت روكسان تنظر إليه ذاهلة حائرة وتقول : ليت شعري ماذا جرى؟ وسيرانو مطرق لا يرفع رأسه حتى أقبل جماعة من الجنود يحملون على أيديهم شيئًا مسجى يشبه الجثة فوضعوه ناحية فارتعدت روكسان وكأن نفسها حدثتها بما كان فظلت تنظر إلى ذلك الشيء باهتة مدهوشة وتقول : انظر يا سيرانو ما هذا الذي أرى! أتدري ماذا يحمل هؤلاء الرجال؟ فانتبه إليها وقال : دعيهم وشأنهم يا سيدتي واسمعي بقية حديثي ، وحاول أن يجمع شتات ذهنه المبعثر فلم يستطع ، فأخذ يتكلم كلامًا مضطربًا متقطعًا ويقول : كنت أريد أن أقول لك .. آه ماذا كنت أريد أن أقول لك! لا أستطيع أن أقول شيئًا فقد انقضى كل شيء ، كنت أريد أن أقول .. آه قد تذكرت ، أقسم لك يا روكسان أنك صادقة فيما قلت ؛ نعم كان كرستيان كما قلت فتى .. فقاطعته وصرخت صرخة عظمى وقالت : « كان » يخيل لي أنك ترثيه ، ودفعته دفعة شديدة وهرعت إلى الجثة وكشفت الغطاء عنها فإذا كرستيان في سكرة الموت .

فألقت بنفسها عليه وقد أصابها مثل الجنون وظلت تبكي وتنتحب انتحابًا محزنًا وتصرخ صرخات مؤلمة ، ثم لمحت في صدره الجرح الذي ينبعث من الدم فمزقت قميصها واقتطعت منه قطعة وهرعت إلى موضع الماء لتبللها ففتح كرستيان عينيه في تلك اللحظة وتأوه آهة طويلة فدنا منه سيرانو وأكب عليه وهمس في أذنه : أبشر يا كرستيان فقد بحت لها بكل شيء وخيرتها بيني وبينك ، فاختارتك من دوني وهي لا تحب أحدًا سواك ؛ وعادت روكسان وفي يدها القطعة المبللة فظلت تمسح بها الجرح وتقول : إنه لا يزال حيًا ، وسيلتئم جرحه بعد قليل ، وسيعيش بجانبي دهرًا ، أليس كذلك يا سيرانو؟ ثم وضعت خدها على خده فشعرت ببرودة الموت تسري في جسمه فاصفرت وتخاذلت أعضاؤها وظلت تناجيه نجاء محزونًا مؤثرًا وتضرع إليه أن يعيش من أجلها لأنها في حاجة إليه ولا تستطيع أن تهنأ بالحياة من بعده ثم وضعت يدها على صدره فعثرت بذلك الكتاب الذي كان قد أخذه من سيرانو فأمرت نظرها عليه فوجدته معنونًا باسمها ورأت عليه نقطة من الدم وتلك القطرة من الدمع فقالت : وا رحمتاه له! إنه كان يحدّث نفسه بهذا المصير الذي صار إليه ، واحتضنته إلى صدرها وظلت تقبله وتلثمه ففتح عينيه للمرة الأخيرة فرآها ، فحاول أن يتحرك فلم يستطع ، فشهق شهقة كانت فيها نفسه .

المعركة

وكانت المعركة قد اشتدت ودوى الميدان بصرخات الجنود وصيحاتهم وقعقعة السلاح وأزيز الرصاص وهتاف القواد بالجند أن تقدموا ولا تتقهقروا أيها الأبطال البواسل وانتزعوا النصر من بين مخالب أعدائكم انتزاعًا ، فهاج الموقف نفس سيرانو فجذب يده من روكسان وكانت آخذة بها ليهجم مع الهاجمين فاستوقفته وقالت له : ابق معي قليلًا يا سيرانو ، فلقد مات كرستيان وليس لي في العالم من يعينني على نكبتي فيه سواك ، لقد كنت الرجل الوحيد الذي عرفه حق المعرفة وأدرك ما اشتملت عليه نفسه من الفضائل والمزايا فقل لي ألم يكن في حياته عظيمًا قال : بلى ، قالت : وذا همة عالية لا تسمو إليها همم الرجال؟ قال : بلى ، قالت : وذا نفس عذبة صافية كأنها قطرة الندى الصافية المترقرقة في الزهرة الناضرة؟ قال : بلى قالت : وشاعرًا عبقريًا لم يطلع الشمس على مثله في عهد من عهودها الخالية؟ قال : بلى قالت : لقد هوى ذلك الكوكب المنير من سمائه وانحدرت تلك الشمس المشرقة إلى مغربها من حيث لا رجعة لها ، فوا أسفاه عليه! ثم صرخت صرخة تتقطع لها نياط القلوب وألقت بنفسها عليه وظلت ترثيه وتندبه وتذرف فوق جثته جميع ما أودع الله عيونها من دموع ، فوقف سيرانو وجرد سيفه من غمده وقال : إنها الآن تبكيني في بكائها على كرستيان فيجب أن أموت ، وكان رصاص الأعداء يحصد الجاسكونيين حصدًا

فيتساقطون تساقط أوراق الشجر الجافة أمام الزوبعة الهائلة وهم لا ينثنون ولا يتحلحلون والكونت دي جيش في مقدمتهم يصيح بصوت عال : ها هو ذا جيش قائدنا قد اقترب فاصبروا ساعة أخرى يتم النصر لفرنسا ؛ فصرخ سيرانو : الوداع يا روكسان ، واندفع إلى قمة التل فاستقبله الكونت واعترض طريقه وقال له : قف مكانك لا تلق بيدك إلى التهلكة فقد آن أوان الهزيمة أو هلك الجنود جميعًا ؛ قال : إن الجاسكونيين لا يتراجعون ولو أمرتهم بذلك ، فكل أمرهم إليّ ودعني وشأني فإنني ناقم موتور أريد أن أنتقم لصديقي الذي ثكلته ، وهنائي الذي فقدته ، فاذهب أنت إلى روكسان ودافع عنها كما وعدتها حتى تبلغ مأمنها . ثم صاح في الجنود : تشجعوا أيها الأصدقاء ولا تتقهقروا فالحياة أمامكم وليست وراءكم فتقدموا أيها الأبطال وموتوا جميعًا ، فما في الموت شيء سوى أن تنقلوا مكان اجتماعكم من الأرض إلى السماء ، موتوا فالموت أهون عليكم من أن تروا وطنكم ذليلًا في يد أعدائكم ، وقد مات أصدقاؤكم ورفقاؤكم فما بقاؤكم في الحياة من بعدهم؟ رفرف علينا أيها العلم الصغير المطرز باسمها وابعث في قلوبنا جميعًا روح القوة والشجاعة لنموت عن آخرنا تحت ظلك الخافق .

فظل الجنود ثابتين في أماكنهم ومنجل القضاء يحصدهم حصدًا حتى وصل جيش العدو إلى قمة التل وصاح قائدهم : ألقوا بأسلحتكم أيها القوم فستموتون جميعًا إن لم تسلموا ولا يجدي عليكم الموت شيئًا ، فأجابه سيرانو : لا يسلم إلا الأذلاء الجبناء ، وما فينا جبان ولا ذليل! الهجمة الأخيرة أيها الأبطال فها هي طبول القائد الأعظم تدنو منا وتقترب ، وليس بينكم وبين النصر إلا كرة واحدة .

وكان الأمر كما يقول ، فما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى أشرف جيش القائد العام وهاجم الأعداء من خلفهم فالتحم الجيشان ، وما هي إلا جولة أو جولتان حتى تم النصر للراية الفرنسية على الراية الأسبانية ، ولكن بعد أن تلاشى الجنود الجاسكونيين في المعمعة جميعًا .

■ ■ ■

الفصل الخامس

بعد خمسة عشر يومًا

لدير الراهبات بباريس فناء واسع قد غرست في أنحائه بضع أشجار ضخمة باسقة قد تناثرت من تحتها أوراقها الساقطة الصفراء ووضع في وسطه مقعد حجري هلالي الشكل فخرجت الراهبات بعد أداء صلواتهن في محاريبهن ، يتمشين في ذلك الفناء ويتحدثن بأحاديث مختلفة لا يخلو بعضها من ذكر العالم الدنيوي وشئونه والحياة ووقائعها ، كأن ذلك الحجاب الحجري الذي أسدل دونهم الأسوار والجدران لم يستطع أن يقطع الصلة بينهن وبين الحياة التي هجرنها وأطرحنها وأقسمن بين يدي الله أن ينسينها أبد الدهر فلم يزل بين جوانحهن بصيص ضعيف من تلك الذكرى يلمع من حين إلى حين ، لأنهن لا يستطعن – مهما بلغن من قوة اليقين ورسوخ الإيمان وثبات العزيمة – أن ينتزعن الطبيعة من بين جنوبهن كما يرفعن قبعاتهن عن رؤوسهن ، وأرديتهن عن أكتافهن ، ويرمين بها وراء تلك الأسوار والجدران ، كما أرادت منهن ذلك الشائع النظرية التي لا صلة بينها وبين حقائق الحياة وطبائعها .

فقالت الأخت « مارت » للأخت « كلير » : لقد رأيتك اليوم واقفة أمام المرآة مرتين ، ورأيت في يدك مشطًا تحاولين أن تمشطي به شعرك ، وسأرفع أمرك إلى الرئيسة!

قالت : إنك لا تستطيعين أن تفعلي إلا إذا استطعت أن تحدثيني عن تلك الأغنية الغرامية التي كنت تتغنين بها ليلة أمس في غرفتك بصوت خافت شجي كأنك تتذكرين بها عهدًا قديمًا ، فابتسمت الأخت « مارت » وقالت : إنني إن أعفيتك من الشكوى إلى الرئيسة فلن أعفيك من الشكوى إلى المسيو برجراك عند حضوره ، قالت : كأنك تأبين إلا أن نصبح ضحكة الناس وسخريتهم ، فسيرانو رجل شديد قاس يكره الحركات النسائية المتطرفة ، وينعي عليها نعيًا شديدًا ؛ قالت : ولكنه يذهب في نقده مذهب التهكم البديع المستطرف فهو إلى الفكاهة أقرب منه إلى الجد ، فقالت الأخت مارجريت : الحق أقول يا أخواتي إنني لم أر في حياتي أظرف من هذا الرجل ولا أعذب منه لسانًا ولا أحلى مجونًا ولا أطيب قلبًا ، ولا أنقى سريرة ، فقالت لها « كلير » : أصحيح يا أختاه أنه يختلف إلى هذا الدير منذ اثنى عشر عامًا قالت : بل أكثر من ذلك مذ هجرت ابنة عمه الأخت روكسان العالم الدنيوي : ونزلت بنا كما ينزل الطير الحزين وسط الطيور البيضاء ، ومزجت سواد رهبانيتها بسواد حدادها ، وسيرانو هو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يعزي نفسها ويمسح دموعها ويخفف أحزانها الكامنة في أعماق قلبها ، فقالت « مارت » : ولكنه ويا للأسف غير متمسك بواجباته الدينية ، وهو إلى الإلحاد أقرب منه إلى الإيمان ، فقالت « كلير » : أظن أننا نستطيع أن نهديه إذا نحن حاولنا منه ذلك .

وهنا أقبلت الرئيسة ، وقد سمعت هذه الكلمة الأخيرة فعلمت أنهن يتكلمن نحن سيرانو ، فقالت : إني أمنعكن جميعًا عن مفاتحته في هذا الأمر فدعنه وشأنه والله يتولى أمره ، فقالت « مارت » : ولكنه مكابر عنيد لا يزال يولع بمحادثتي ومغايظتي كلما رآني ، فقد قال لي يوم السبت الماضي عند حضوره : إنه أكل بالأمس لحمًا دسمًا فلم أطق استماع ذلك منه وكدت أختصمه ، قالت : لا تصدقيه يا بنيتي فإنه حينما جاءنا في المرة الماضية كان قد مر به يومان لم يذق فيهما طعم الخبز ؛ فدهشت الراهبات جميعًا ونظرن إلى الرئيسة باهتات مذهولات! فقالت لهن : لا يدهشكن ذلك يا بنياتي ، فسيرانو رجل فقير معدم لا يملك من متاع الدنيا شيئًا ، فقالت لها « مرجريت » : عجيب جدًا ، من أخبرك بذلك؟ قالت : صديقه « لبريه » ، قالت : ألا يساعده أحد؟ قالت : لا لأنه لا يريد ذلك .

وإنهن لكذلك إذا أقبلت روكسان من ناحية الدير في لباسها الأسود وبجانبها الكونت دي جيش ، وكان قد وصل في مجده الدنيوي إلى الغاية القصوى التي لا غاية وراءها فأصبح القائد العام للجيش الفرنسي وأصبح يدعى « الدوق ماريشال دي جرامونت » ، وكان قد أشرف في ذلك الوقت على سن الشيخوخة ، فهدأت في نفسه تلك العواطف القديمة الثائرة ، عواطف الشرور والشهوات ، فأخذ نفسه بزيارة روكسان في ديرها من حين إلى حين للتعزية والوفاء والتكفير عن سيئاته الماضية إليها .

فلم يزل سائرًا معها حتى بلغا ذلك المقعد فجلسا عليه ، ثم نظر إليها نظرة حزينة مكتئبة وقال لها : أهكذا تعيشين دائمًا يا روكسان في عزلتك هذه لا تفكرين في شأن من شئون الحياة ولا تأسفين على عهد من عهودك الماضية؟ قالت : نعم دائمًا لا أذكر غيره ولا يمر بخاطري شيء سواه ، قال : وهل غفرت لي ذلك الذنب الذي أذنبته إليك أم لا تزال في قلبك بقعة من العتب والموجدة عليّ؟ فاغرورقت عيناها بالدموع وصمتت هنيهة ثم رفعت نظرها إلى صليب الدير العظيم الماثل أمامها وقالت مادمت في هذا المكان وما دام هذا ماثلًا أمام عيني فأنا أغتفر جميع الذنوب حاضرها وماضيها ، قال : وا رحمتاه لذلك الفتى المسكين! ما كنت أظن أن نفس إنسان في العالم تشتمل على مثل الصفات التي كانت تشتمل عليها نفسه لولا أنك أقسمت على ذلك ، قالت : إنك لو عرفته معرفتي إياه لامتلأت نفسك إعجابًا به وإعظامًا له ، ولكان حزنك عليه عظيمًا كحزني ، قال : وهل لا تزالين محتفظة بكتابه الأخير حتى اليوم؟ قالت : إنه لا يفارق صدري قط كأنه الكتاب المقدس ، قال : أتحبينه حتى بعد الموت؟ قالت : يخيل إليّ أحيانًا أنه لم يمت؟ لأن مكانه في قلبي لا يزال باقيًا كما هو ، وكأن روحه ترفرف عليّ وتتبعني حيثما سرت ، وأنى حللت ، ولا تزال ترن في أذني حتى تلك الساعة تلك النغمة الجميلة التي كان يحدثني بها ليلة الشرفة كأن لم يمر بها إلا يوم واحد ، وقال : وهل سيأتي سيرانو لزيارتك أحيانًا؟

قالت : نعم ، يفد إلي دائمًا يوم السبت من كل أسبوع في ساعة معينة لا يتأخر عنها ولا يتقدم ، فإذا حضر رآني جالسة أمام منسجي فيجلس على مقربة مني فوق مقعد يعدونه له ويبدأ حديثه معي بالهزل والمجون والسخرية بي وبمنسجي ويسميه الحركة الدائمة التي لا نهاية لها ، فإذا فرغ من ذلك أخذ يقص عليّ حوادث الأسبوع يومًا فيومًا كأنه جريدة أسبوعية ، واعلم يا سيدي أن ذلك الصديق القديم والأخ الوافي هو الشخص الوحيد الذي يسرّي عني بعض همومي وآلامي ويحمل عني الشيء الكثير من أثقال هذه الحياة وأعباءها ولولاه لمت في عزلتي هذه همًا وكمدًا .

وهنا فتح باب الدير ودخل « لبريه » فتقدم نحو روكسان فحياها فقالت له : كيف حال صديقك يا لبريه؟ قال : في أسوأ حال يا سيدتي ، فإن غرابة أخلاقه وشذوذ طباعه وتهوره في منوله وآرائه وصلابة عوده في خصوماته ومناظراته قد بلغت به المبلغ الذي كنت أتوقعه له من عهد بعيد : الفقر والعدم ، والشقاء والبؤس ، والخصوم الألداء والأعداء الثائرين المتنمرين الذي يكيدون له ليلهم ونهارهم لا يهدأون ولا يفترون ، وهو في غفلة عن هذا كله ، لا يعجبه ولا يطربه ولا يلذ له غير الانتقاد المر ، والتهكم المؤلم بالأشراف والنبلاء ورجال الدين والأدباء والصحفيين والشعراء والممثلين لا يهادنهم ولا يواتيهم ولا يهدأ عنهم لحظة واحدة ، فينعي على القسيس نظرة واحدة يلقيها عرضًا على وجه جميل ، وعلى الشاعر معنى بسيط يسرقه من شاعر متقدم ،

وعلى النبيل مشية الخيلاء يمشيها في طريقه ، وعلى الصحفي نشر إعلان خمر في جريدته أو خبر مكذوب ، كأنه موكل بهداية البشر وتقويم اعوجاجهم وتهذيب أخلاقهم ، وكل ما يعتذر به عن نفسه إن لامه في ذلك لائم : أنه يقول ما يعتقده ، وينطق بما يعلم ، كأنما لا يوجد في العالم كله من يعلم ما يعلمه سواه .

وما أظن الهيئة الاجتماعية التي يشاكسها ويثاورها ، ويزعم أنه قادر على تقويم معوجها وإصلاح فاسدها تستطيع الصبر عليه طويلًا ، ويخيّل إليّ أن انتقامها منه سيكون هائلًا جدًا وأنه سيموت عما قليل شهيد ذلك الشيء الذي يسميه « الحرية الفكرية والنقد الصحيح » .

فقالت روكسان : ولكن سيفه القاطع يحميه من هؤلاء جميعًا ؛ قال : ربما يحميه ولكنني أخشى عليه عدوًا واحدًا هو أشد عليه من جميع أعدائه ، قالت : ومن هو؟ قال : الجوع ، فإنه يقاسي من آلامه ما لا يستطيع أن يحتمله بشر ، وكثيرًا ما قضى الليالي ذوات العدد شادًا منطقته على بطنه من السغب لا يشكو ولا يتبرم ، ولا يسمح لنفسه أن يمد إلى غير خالقه إلى أن تتيسر له اللقمة التي يعتقد أنها معجونة بعرق جبينه فلا يمتن بها عليه أحد حتى ذبل جسمه وشحب لونه وعرقت عظامه وأصبح أشبه بالهيكل منه بالإنسان .

أما اللباس فقد أصبح عاريًا منه إلا قليلًا ، ولقد باع في الأسابيع الأخيرة جميع ثيابه ، فلم يبق له منها إلا رداءً واحدًا من الصوف الأسود يتعهده بالترقيع من حين إلى حين ، ولا أدري ماذا يكون شأنه غدًا إذا نزل به ضيف الشتاء القادم فلا يجد في غرفته المظلمة الباردة بصيصًا ولا قبسًا .

فقال الدوق : إنك تبالغ كثيرًا يا لبريه في الحزن عليه والرثاء له ، فسيرانو رجل عظيم لا يكترث بالآم الحياة ومصائبها ولا ينظر إليها بمثل العين التي تنظر بها إليها ، ولقد عاش طول حياته حرًا مستقلًا في آرائه ومذاهبه غير مبال بما يلاقيه في هذه السبيل من المكاره الآلام ولا يزال شأنه في حاضره مثله في ماضيه فأعجبوا به كل الإعجاب ولا تهينوه بالتألم له والبكاء عليه .

فدهش لبريه وظل ينظر إلى الدوق نظرًا حائرًا مضطربًا لأنه ما كان يتوقع منه بعد الذي كان بينه وبين سيرانو أن يجري لسانه بكلمة ثناء عليه أو إعجاب به ، فقال له الدوق : لا تعجب يا لبريه ، فإنني وإن كنت أعلم أنني قد نلت من حياتي كل شيء وأنه قد حرم كل شيء فأنا أعتقد أنه خير مني وأن نفسه تشتمل على أفضل مما تشتمل عليه نفسي ، وليتني أستطيع أن أستغفره ذنبي الذي أذنبته إليه وأن أضع يده في يدي فأصافحه مصافحة الصديق للصديق .

ثم نهض قائمًا وقال : أستودعك الله يا روكسان ، فنهضت روكسان لتوديعه ومشت معه تشيعه إلى الباب فقالت له وهي تسايره – وكان ذل ردائها يجر معه كثيرًا من أوراق الشجر الجافة المتساقطة فيحدث صوتًا أشبه بالحفيف : أتقول الحقيقة عن سيرانو يا سيدي أم أنت تتهكم به؟ قال : لا ، بل أقول الحقيقة التي أعتقدها ، وأقسم لك يا روكسان أنني كثيرًا ما غبطته بيني وبين نفسي وتمنيت أن أكون مثله ، فدهشت وقالت : ولكنك عظيم يا مولاي ؛ قال إن المرء حينما يصل إلى ذروة العظمة في الحياة لابد أن تمر به ساعات مهما كان طاهرًا وبريئًا يشعر فيها ببعض آلام خفية تلذع نفسه وتؤلمها ، وربما لا تبلغ في قوتها وتأثيرها مبلغ تبكيت الضمير ، ولكنها على كل حال تزعجه وتقلقه وتستولي على شيء من راحته من جماجم الموتى وأشلائهم ، أو أن يناموا ملء جفونهم إلا أنهم أسهروا كثيرًا من عيون البائسين والمعدمين في سبيل راحتهم وهنائهم ، أو أن يمشوا في طريقهم رافعي الرؤوس شامخي الأنوف إلا لأن وراءهم كثيرًا من المطرقين الصامتين الذين لا تفارق أنظارهم الأرض همدًا وكمدًا .. وربما لا يشعرون بشيء من تلك الجرائم التي يقترفونها وهم في نشوة عزهم وضوضاء عظمتهم ولكنهم متى خلوا إلى أنفسهم وأووا إلى مضاجعهم ساورتهم تلك الآلام الخفية اللاذعة التي لا يشعر بمثلها الجائعون والظامئون ، والمرضى والمعوزون ، لا تصدقي يا سيدتي في أن في الدنيا سعيدًا واحدًا قد خلت كأسه التي يشربها من قذى ينغصها عليه ،

ولابد للعظيم وهو صاعد إلى قمة عظمته أن يشعر أن ذيل معطفه المسبل وراءه يجر معه كثيرًا من أنات الباكين وصرخات المتألمين الذين بنى عظمته على أنقاض شقائهم فيسمع لها خشخشة كخشخشة الأوراق الجافة التي يجرها وراءه ذيل معطفك الآن .

ثم وقف في مكانه وأطرق برأسه طويلًا فنظرت إليه روكسان ذاهلة ووضعت يدها على عاتقه وقالت له : أتتألم يا مولاي؟ قال : نعم فما نحن سعداء إلا في أنظار الناس واعتباراتهم ، ولو كشف لهم من خبايا نفوسنا ما كشف لنا منها ، ولمسوا بأيديهم مواقع الألم من أفئدتنا لرثوا لنا أكثر مما نرثي لهم ، ولرأوا أننا أولى الناس بالرحمة والإشفاق منهم ، وليتهم يقفون على هذه الحقيقة فيعلموا أن السلامة والنجاة وراحة النفس وهدوءها في القناعة والإقلال ، فيستريحوا من هموم الأحقاد وآلامها ، فإنهم ما حسدونا ولا اشتغلت بين جوانحهم نيران الحقد والموجدة علينا إلا لأنهم ظنوا أننا سعداء ، ولو نظروا إلينا بالعين التي ننظر بها إلى أنفسنا لتضرعوا إلى الله تعالى بأن ينجيهم مما ابتلانا به ويريحهم من همومنا وشقائنا ؛ ثم مد يده إليها فصافحها وقال : أستودعك الله يا سيدتي ، والتفت وهو منصرف إلى لبريه وكان لا يزال واقفًا في مكانه فهتف به فلباه ، فقال له : لي كلمة أريد أن أقولها لك فتعال معي ، فمشي وراءه فالتفت إليه وقال له : نعم إن صديقك سيرانو بطل شجاع كما تقول روكسان

ولكنني علمت من طريق خاص لا أستطيع أن أبوح لك به أن بعض أعدائه قد عزم على قتله غيلة فاذهب إليه وحذره ، وليقلل من الخروج من منزله ما استطاع ، قال : ذلك مستحيل ياسيدي ، لأنه لا يهاب شيئًا ولا يخاف أحدًا ، قال : لا تفارقه لحظة واحدة فحياته في خطر عظيم ، قال : سأفعل ما أستطيع يا مولاي ، وسأشكر لك فضلك ما حييت ، ثم تناول يده فقبلها وانصرف .

فما سار إلا قليلًا حتى رأى « راجنو » مقبلًا عليه ، يولول ويستغيث فسأله ما باله؟ فقال : خطب عظيم يا لبريه ، قال : أي خطب؟ قال : قد أصيب صديقنا قال : سيرانو؟ قال : نعم ، قال : قل كل شيء وأوجز ، قال : خرجت اليوم من منزلي ذاهبًا إليه لزيارته في منزله ، فلما وصلت رأس الشارع الذي يسكنه رأيته خارجًا من المنزل فهرعت إليه لأدركه ، حتى إذا لم يبق بيني وبينه بضع خطوات ، إذ سقط على رأسه من أحد المنازل المهجورة جذع عظيم ، يخيل إليّ أنه لم يسقط عفوًا بل تعمده به متعمد ، فصرخ لبريه : يا للنذالة والجبن! ثم ماذا؟ قال : فدنوت منه فرأيت ويا هول ما رأيت ذلك الصديق الكريم والرجل العظيم والشاعر النابغة الجليل ملقى على الأرض ، مضرجًا بدمائه ، وقد فتح في رأسه جرح كبير .. قال : وهل مات؟ قال : لا ، ولكنه حالته سيئة جدًا ،

فحملته إلى منزله أو إلى ذلك الجحر الضيق الذي يسمونه منزلًا .. قال : وهل يتألم؟ قال : لا ، لأنه فقد رشده فلم يعد يشعر بشيء ، قال : ألم يزره طبيب؟ قال : أشفق عليه طبيب من جيرانه فزاره قال : وا رحمتاه لك أيها الصديق المسكين! لا تخبر روكسان الآن بهذا الخبر ، وماذا قال الطبيب؟ قال : لم أفهم من كلامه شيئًا ؛ فإنه أخذ يردد كلمات كثيرة : حمى ، التهاب ، أغشية .. إلخ .

آه يا سيدي لو رأيته وقد دارت برأسه الأربطة والضمائد وأصبحت صورته أشبه شيء بصور الموتى في قبورهم ، هيا بنا نذهب إليه فهو وحيد في غرفته وأخاف أن يحاول القيام من فراشه فيسقط ميتًا ؛ ثم ذهبا يعدوان ويتلهفان .

النغمة

جلست روكسان أما منسجها في فناء الدير تنتظر حضور سيرانو وكان قد جاء ميعاده الذي يحضر فيه من يوم السبت من كل أسبوع وأخذت تقول : ما أجمل هذا اليوم! إن الخريف يخفف عني كثيرًا من آلامي التي يهيجها الربيع ويستثيرها ، فحمدًا لك يا إلهي على ما منحت وصبرًا على ما ابتليت ، ولك المنة العظمى في حالي رضاك وسخطك ونعمائك وبأسائك ، ما أعظم شكري لك يا سيرانو! إنك رسول العناية الإلهية إليّ والعزاء الباقي لي في هذه الحياة بعدما فقدت كل عزاء وسلوى! فليت الله يتولى جزاءك عني فإني لا أستطيع أن أقوم بشكرك .

وهنا حضرت راهبتان تحملان بين أيديهما لمقعد الذي اعتاد سيرانو أن يجلس عليه عند حضوره ، فوضعتاه وراء مجلس روكسان فشكرتهما وانصرفتا ، ثم دقت الساعة الرابعة فأصغت إليها روكسان حتى انتهت دقاتها ثم قالت : إنه سيأتي الآن ، وأخذت تردد نظرها جهة الباب هنيهة فلم يحضر ، فمدت يدها إلى علبة إبراها وخيوطها ، وظلت تقول بينها وبين نفسها : دقت الساعة الرابعة منذ دقائق ولم يحضر ، أين خيوطي؟ ها قد وجدتها ، هذا يدهشني جدًا! إنها المرة الأولى التي تأخر فيها عن ميعاده منذ خمسة عشر عامًا ، لابد أن تكون الأخت « مارت » قد أزعجته بنصائحها وعظاتها ، أين كستباني؟ ليت شعري ماذا حدث له؟ قد أوشك الظلام أن يخيم ألوان الخيوط قاتمة فلا أستطيع التمييز بين متشابهاتها ، إنه ما تأخر عن زيارتي قبل اليوم ، ولكن لابد أن يحضر الآن .

وهنا سقطت ورقة جافة من الشجر على منسجها فاصفرت وقالت : ورقة ميتة قد انقضى أجلها فهوت إلى مستقرها ، يا الله لا يمكن لشيء من الأشياء .. إن الأوراق الجافة المتساقطة تزعجني جدًا لا يمكن لأي شيء مهما كان أن يحول بينه وبين الحضور .

وما إن أتمت كلمتها حتى وقفت راهبة على رأس السلم وصاحت : السيد برجراك فانتعشت روكسان وقالت : ليدخل ، فدخل وهو مصفر الوجه يتوكأ على عصاه ببطء شديد ، وقد أسدل قبعته على جبينه فسترت الضمائد المحيطة برأسه ، وكانت روكسان مشتغلة بترتيب منسجها ،

فلم تلتفت إليه حتى جلس على مقعده وحياها ، فقالت له بنغمة العاتب دون أن تلتفت إليه : هذه أول مرة تأخرت فيها عن ميعادك منذ خمسة عشر عامًا يا سيرانو ، فأجابها بصوت قاتم مظلم يحاول أن يجعله ضاحكًا رنانًا : نعم يا سيدتي ، يا لغرائب الدهر ، ما كنت أظن أن شيئًا في العالم حتى الموت ، يستطيع أن يحول بيني وبين الحضور إليك في ميعادي ، آه أني أكاد أموت غيظًا ، وحنقًا ، ما أخرني عنك إلا ضيف ثقيل « يريد الموت » جاء لزيارتي في وقت غير مناسب ، وما كنت أتوقع أن يفد إليّ في مثل هذه الساعة ، قالت وكيف تخلصت منه! قال : لم أتخلص منه حتى الآن ، وكل ما في الأمر أني اعتذرت إليه وقلت له : إن اليوم يوم السبت وهو الميعاد الذي يجب عليّ فيه أن أقوم بزيارة صديق كريم لا يمكن أن يحول بيني وبين زيارته في هذا الميعاد حائل ، فاذهب الآن وعد إليّ بعد ساعة واحدة ، قالت : إذن سيطول انتظاره لك إذا عاد إليك لأني لن أسمح لك بالخروج من هنا قبل المساء ، قال : ربما اضطررت للذهاب قبل ذلك ، وأغمض عينيه وأطرق برأسه وكانت الأخت « مارت » مارة في تلك اللحظة فأومأت روكسان إليها برأسها فحضرت فقالت لسيرانو وهي لا تزال مشتغلة بترتيب خيوطها : إنك لم تمزح مع الأخت « مارت » كعادتك يا سيرانو ، فانتفض رفع رأسه فدهشت « مارت » عند رؤيته وفغرت فاها وحاولت أن تتكلم فأشار إليها بالصمت فلم تفهم شيئًا ولكنها صمتت فقال لها بصوت ضخم مضحك : اقتربي مني أيها الأخت ،

مالك تعرضين عني يا ذات العينين الجميلتين ، هاتي يدك البيضاء لأقبلها باسم البركة والعبادة لا باسم الحب والغرام ، واقتربي مني لأخبرك خبرًا غريبًا جدًا ، قالت وهي ترثي له ولحاله : وما هو؟ قال : قد أكلت بالأمس لحمًا ودسمًا فما رأيك؟ فهزت رأسها وظلت تقول بينها وبين نفسها : وا رحمتاه له ، إنه يكذب عليّ وربما مر به يومان لم يذق فيهما طعم الخبز كما فعل في المرة السابقة ثم قالت له : أحب أن تزورني في غرفتي قبل خروجك من هنا فسأقدم إليك هدية من الحلوى جميلة جدًا ، فقالت له روكسان احذر أن تذهب إليها يا سيرانو فإنها تريد أن تعظك ، فقال سيرانو : أظن أن عظاتك الماضية يا مارت قد أخذت مأخذها من نفسي ، فقد أصبحت أقرب إلى الإيمان مني إلى الكفر ، ولذلك أسمح لك أن تصلي الليلة في معبدك من أجلي ، فدهشت « مارت » وقالت : ماذا تقول؟ أتهزل أم تجد؟ قال : قد فات وقت الهزل ولم يبق أمامي إلا الجد ، فانصرفت لشأنها وهي تعجب لأمره كل العجب وأقبل هو على روكسان وقال لها وهي لا تزال مكبة على منسجها : ليت شعري هل أعيش وهل يعيش العالم ، حتى يرى ختام هذا النسيج؟ قالت : كنت في انتظار سماع هذه الكلمة منك يا سيرانو ، إن نسيجي لا ينتهي حتى تنتهي ملحك وأحماضك .

وفي هذه اللحظة هبت ريح شديدة فتساقطت على الأرض أوراق كثيرة من الأشجار فانقبضت روكسان وقالت : إن تساقط هذه الأوراق يحزنني جدًا ، قال : أما أنا فعلى عكس ذلك لأنه يعجبني منها كثيرًا أنها رغم حزنها على فراق أغصانها التي تركتها ورغم فزعها من الفناء الذي يستقبلها على وجه الأرض فهي تتساقط برقة ورشاقة وتقصي هذه السياحة القصيرة بين الحياة والموت مائسة مختالة كأنها في حفلة رقص أو مجمع شراب ، فقالت : إني أسمع منك نغمة حزن يا سيرانو فهل أنت حزين؟ قال : لا ، وليس من عادتي أن ألجأ إلى الحزن في أي موقف من المواقف حتى في الموقف الذي يحزن فيه الناس جميعًا ، قلت فلندع الأوراق تتساقط كيفما تشاء وأسمعني جريدتك الأسبوعية فإني في شوق عظيم إليها ، قال : اسمعي يا سيدتي ، وكان الألم قد نال منه منالًا عظيمًا وبدأ الذهول يختم على عقله فأنشأ يقول :

يوم السبت : أصيب الملك بمرض الحمى على أثر ثماني أكلات أكلها من عنب « سيت » فحكم الطبيب على مرضه بطعنة مبضع في قلبه لاقترافه جريمة الاعتداء على صاحب الجلالة .

يوم الأحد : أشعلوا ليلة الحفلة الكبرى في قصر الملك ثلاثًا وستين وسبعمائة شمعة بيضاء ، يقولون إن جيوشنا قد انتصرت على جيوش جان النمسوي ، شنق أربعة من السحرة ، حقنوا كلب السيدة « دانيس الصغير » .

فاعترضته روكسان وقالت : ما هذه الأخبار يا سيرانو؟ فاستمر في كلامه يقول :

يوم الاثنين : لا شيء سوى أن « ليجدامير » استبدلت بعشيقها ، فتململت روكسان وقالت : ما هذا الذي تقول؟ إنك تمزح يا صديقي ، فلم يلتفت إليها وظل يقول :

يوم الثلاثاء : انتقل البلاط كله إلى « فونتنبلو » .

يوم الأربعاء : قالت السيدة « دي منتجلا » للكونت دي فيسك « لا »!

يوم الخميس : توجت « فانسيني » ملكة على فرنسا أو ما هو معنى في ذلك .

يوم الجمعة : قالت السيدة « دي منتجلا » للكونت دي فيسك « نعم » .

وهنا ثقلت عيناه ، واحتبس صوته ، واهتز هزة شديدة ، ثم سقط على صدره ، وساد من حوله سكون عميق ، فاستغربت روكسان سكوته والتفتت وراءها فرأته على هذه الحالة ولم تكن قد نظرت إليه من قبل هذه اللحظة فارتاعت وهرعت إليه ووضعت يدها على عاتقه ونادته : سيرانو! فانتفض ورفع رأسه وظل يدير يديه حول قبعته ويضغطها ضغطًا شديدًا ويقول : لا شيء أؤكد لك يا سيدتي أن الأمر بسيط جدًا ، قالت : قل لي ما بالك يا سيرانو؟ وما هذه الغبرة السوداء المنتشرة على وجهك؟ قال : لا شيء ، إنه الجرح القديم الذي أصبت به في معركة « أراس » لا يزال يعاودني من حين إلى حين ، حتى الآن ، فتنهدت ، وأرسلت بصرها إلى السماء ، ثم قالت : كل منا له جرح قديم يا سيرانو ، غير أن جرحك في جسمك

وجرحي هنا دائمًا لا يندمل أبدًا ، وأشارت إلى قلبها ، ثم قالت : هنا كتاب الوداع الأخير الذي كتبه إليّ قبل موته قد تشعث وتقبض واصفر ورقه ، ولا تزال آثار القطرتين : قطرة الدمع وقطرة الدم ظاهرة فيه ، فارتعد سيرانو وقال : كتابه الأخير؟ وشخص ببصره إلى السماء ، كأنما يتذكر شيئًا بعيدًا ثم قال : ألا تذكرين يا روكسان أنك كنت وعدتني مرة باطلاعي على هذا الكتاب؟ قالت : نعم أذكر ذلك ، قال : هل لك أن تفي بوعدك الآن؟ قالت : ها هو ذا ، ومدت يدها إلى صدرها فأخرجت الكتاب من كيس صغير حريري معلق في عنقها ، وأعطته إياه ثم عادت إلى مقعدها .

وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله على أكناف الدير ، فأخذت روكسان ترتب خيوطها وإبرها لتضعها في علبتها وأخذ سيرانو يقرأ الكتاب بصوت عال رنان كأنما هو يخطب أو يهتف ويناجي ويقول :

الوداع يا روكسان ، فإني سأموت عما قليل ، وربما كانت هذه الليلة آخر ليالي في الحياة .

كنت أرجو أن أعيش بجانبك ، لأتولى حراسة سعادتك التي عاهدت نفسي على أن أكفلها لك ما حييت ، فحالت المقادير بيني وبين ذلك ، فليت شعري ماذا يكون حالك من بعدي؟ إنني لا أخاف الموت من أجلي بل من أجلك ، ويخيل إليّ أنك ستقضين من بعد موتي أيامًا شديدة عليك وعلى نفسك الرقيقة الحساسة ، وهذا كل جزعي من الموت .

فوا رحمتاه لك أيتها الصديقة المسكينة .

وكانت روكسان تصغي إلى قراءته ، ذاهلة مدهوشة ، وتقول بينها وبين نفسها : ما أغرب صوته ، وما أعظم تأثره! إنه يقرأ وكأنه يحدثني ويناجيني ، ويخيل إليّ أن وراء هذه النغمة الغريبة التي ينطق بها سرًا كامنًا في أعماق نفسه ، واستمر هو في قراءته يقول : ستغتمض عيناي بعد قليل ، وستنطفئ تلك النظرات التي كانت مرآتك الصقيلة التي تتراءى فيها صورتك البديعة الساحرة وترتسم فيها دقائق حسنك ، وأسرار جمالك ، فمن لك بمرآة ترين فيها نفسك بعد أن تمتلئ عيناي بتراب القبر؟

إن بين جنبي كنزًا ثمينًا من حبك لم أستطع أن أكشف لك إلا عن مقدار قليل من جواهره ولآلئه ، وكنت أود أن أفرغه جميعه بين يديك قبل موتي ولكن ماذا أصنع وقد أعجلني الموت عنه ولا حيلة لي في قضاء الله وقدره .

الوداع يا روكسان ، الوداع يا حبيبتي ، الوداع يا حبيبتي ، الوداع يا أعز الناس عليّ وآثرهم في نفسي ، إن قلبي لم يفارقك لحظة واحدة في حياتي وسيبقى ملازمًا لك بعد مماتي ، فليكن عزائي عنك أن روحي سترفرف عليك وتحوم حولك في كل مكان تكونين فيه ، فكأننا لم نفترق وكأن حجاب الموت المسبل دوننا وهم من الأوهام وباطل من الأباطيل .

وكان قد ذهل عن الكتاب الذي في يده وعن كل ما يحيط به من الأشياء ولم يبق في خياله سوى أن يناجي المرأة التي يحبها ويفضي إليها بأسرار نفسه ويودعها الوداع الأخير ، فأغمض عينيه واستغرق في شعوره ووجدانه واستحال صوته إلى صوت غريب ، لا يشبه الأصوات في رنته ونغمته لأنه صوت الروح

وهتافها ونفثاتها المتصاعدة إلى آفاق السماء ، فظلت روكسان تضطرب وترتعد وتقول بينها وبين نفسها ، إنها نغمة غريبة جدًا تذكرني بنغمة مثلها سمعتها في ساعة من ساعات حياتي الماضية فليت شعري متى كان ذلك؟

وكان الظلام قد نشر ملاءته السوداء على أكناف الدير فالتفتت إليه وحدقت النظر فيه فلمحت بياض الكتاب في يده فعجبت له كيف يستطيع القراءة في هذا الظلام الحالك ، فنهضت من مكانها ومشت نحوه تختلس خطواتها اختلاسًا حتى بلغته فوقعت بجانبه فرأت عينيه مغمضتين ورأته لا يزال مستمرًا في قراءته فاشتد ذعرها وخوفها ووضعت يدها على كتفه وقالت له : كيف تستطيع القراءة والظلام حالك وعيناك مغمضتان؟ فانتفض انتفاضة شديدة فسقط الكتاب من يده وسقط رأسه على صدره .

وساد بينهما سكون عميق ذهل كل منهما فيه عن نفسه ثم أخذت روكسان تستفيق شيئًا فشيئًا وتقول بينها وبين نفسها : آه ماذا أرى! إن الأمر هائل جدًا! إن النغمة التي أسمعها منه الآن هي بعينها النغمة التي كانت ترن في أذني ليلة الشرفة منذ خمسة عشر عامًا! لابد أن يكون هو صاحبها .

آه ما أعظم شقائي! لقد فهمت الآن كل شيء وليتني ما فهمت شيئًا ، ثم وقفت أمام سيرانو صامتة مطرقة وحتى استفاق من غشيته فتقدمت نحوه وأخذت بيده وقالت له : لا تخف عني شيئًا يا صديقي فقد علمت الحقيقة المؤلمة التي لا ريب فيها ،

لقد كنت أنت الذي ناجاني ليلة الشرفة وحدثني عن الحب وكشف لي عن خبايا القلب الإنساني ، فقاطعها وهو يرتجف ويرتعد وقال : لا .. لم أكن أنا ، قالت : وكان الظلام في تلك الليلة حالكًا جدًا فلم أستطيع أن أتبينك لأعلم أنك أنت الذي يحدثني ويناجيني ، فصاح : لا ، أقسم لك ، قالت : وكانت تلك الكلمات الجميلة التي سحرتني وملكت عليّ شعوري ووجداني كلماتك فصرخ : لا بل كلماته ، قالت : وذلك الصوت الموسيقي الذي كان يرن في أذني رنين القيثارة الإلهية في آذان سكان السماء كان صوتك .

قال : لا ، قالت : وتلك الرسائل البليغة المؤثرة التي جشمتني مشقة السفر من باريس إلى أراس كانت رسائلك؟ قال : لا ، قالت : وذلك الكتاب الذي قرأته الآن بتلك النغمة العذبة الجميلة كان كتابك ، قال : لا تصدقي ذلك يا سيدتي فما أذكر أنني أحببتك في حياتي قط ، قالت : أحببتني ولا تزال تحبني حتى الساعة ، قال : ذلك مستحيل لأن مثلي لا يجرؤ أن يحب مثلك ، قالت : ذلك ما حملك على كتمان أمرك وتمثيل الدور المحزن الأليم ، قال وقد بدأ صوته يضعف ويتهدج : إنك واهمة يا روكسان ، قالت : ما أنا بواهمة ولا مخدوعة ، ولم كتمت أمرك عني هذه السنين الطوال مادمت تحبني وما دام الكتاب كتابك وهذه الدمعة دمعتك؟ قال : ولكن الدم دمه ، قالت : قد اعترفت من حيث لا تدري ، فوا رحمتاه لك أيها البائس المسكين وأطرقت برأسها إطراقًا طويلًا لا يعلم إلا الله ماذا كانت تحدثها نفسها فيه ، وإنهما لكذلك إذ دخل لبريه وراجنو وهما يصيحان ويولولان حتى دنوا من سيرانو

فقال لبريه : ماذا صنعت بنفسك أيها المسكين؟ ولماذا جئت إلى هنا وقد أوصاك الطبيب بملازمة فراشك لا تبرحه لحظة واحدة؟ فصاحت روكسان : الطبيب! ولماذا؟ قال لبريه : ألا تعلمين ما حل به يا سيدتي حتى الآن؟ قالت : لا أعلم شيئًا ، فأراد أن يقص عليها القصة فقاطعه سيرانو وقال له : أتدري يا لبريه لم جئت إلى هنا رغم أوامر الطبيب؟ قال : لا ، قال لأتلو على روكسان الجريدة الأسبوعية التي اعتدت أن أتلوها عليها يوم السبت من كل أسبوع ولا أستطيع أن أخلف وعدي لها ، ثم التفت إلى روكسان وقال لها : إنني لم أتمم لك جريدتي الأسبوعية فاسمحي لي بإتمامها ، ثم أنشأ يقول : يوم السبت الثالث والعشرين من شهر مايو سنة (1655) « قتل المسيو سيرانو دي برجراك » .

وهنا حسر قبعته عن رأسه فظهرت الأربطة والضمائد المحيطة به مضرجة بالدم فذعرت روكسان وحنت عليه وقالت : ما صنعوا بك يا صديقي؟ قال : كنت أتمنى طول حياتي أن أموت في ميدان حرب بضربة سيف من يد بطل ؛ فقضى الله أن أموت في زقاق ضيق بجذع شجرة من يد خادم لأكون قد حرمت كل شيء في حياتي حتى الميتة التي أحبها ، وأطرق برأسه ثانية وظل على ذلك ساعة ، وقد ساد من حوله سكون عميق لا تسمع فيه إلا معمعة الأحشاء المتقدة في قلوب الجاثين حوله .

ثم استفاق قليلًا فرفع رأسه وفتح عينيه فرأى راجنو جاثيًا تحت قدميه يبكي وينتحب فقال له : لا تبك يا راجنو وقل لي ما مهنتك اليوم ، فإن لك في كل مهنة جديدة ، قال : أنا الآن خادم عند « موليير » ، ولكنني سأترك خدمته منذ الغد ، قال : لماذا؟ قال : لأنه لص من لصوص الأدب ، هم عندي أقبح اللصوص وأسفلهم ، قال وهو يبتسم : هل سرق من شعرك شيئًا؟ قال : لا ، بل من شعرك أنت ، فقد سطا على روايتك « أجربين » فأخذ منها موقفًا كاملًا وضمنه روايته الجديدة « أسكابين » التي مثلت ليلة أمس ، قال : لقد أحسن فيما فعل ، وماذا كان وقع ذلك الموقف في نفوس الجماهير؟ قال : مازالوا يضحكون حتى رحموا أنفسهم ، قال : ذلك كل ما يهمني فلقد قدر لي طول عمري أن يكون دوري في رواية الحياة دور الملقن الذي لا يعده الجمهور شيئًا ، وهو كل شيء ، ثم التفت إلى روكسان وقال لها : أتذكرين تلك الليلة التي كنت أحدثك فيها بلسان كرستيان ؛ قالت : نعم أذكرها ولا أذكر شيئًا سواها ، قال : إنها رمز حياتي فمن أولها إلى آخرها ؛ صعد كرستيان منذ خمسة عشر عامًا إلى شرفتك ليتناول القبلة التي سمحت له بها مكافأة له على تلك الكلمات البليغة المؤثرة التي أنا صاحبها ومبتكرها ، واليوم يتمتع « موليير » بهتاف الجماهير وتهليلهم إعجابًا بتلك القطعة الهزلية البديعة التي خطها قلمي ، وما أنا بآسف على ذلك ولا واجد فكرستيان فتى جميل فيجب أن ينال هو القبلة وموليير شاعر شهير فيجب أن يكون هو صاحب القطعة ، والتفت حوله فرأى الراهبات داخلات إلى الكنيسة في ملابسهن البيضاء

وهن يرتلن صلواتهن على نغمات « الأرغن » فأصغى إلى أصواتهن ساعة ، ثم تأوه طويلًا وقال : آه ما كنت أعبأ بالحياة ولا آسف على شيء فيها لولا الموسيقي وروكسان ، ولئن كان صحيحًا ما يقولون من أن في السماء موسيقى كما في الأرض ، وأن الصديقين اللذين يفترقان في هذه الدار يلتقيان في الدار الآخرة غدًا فليس ورائي ما آسف على فراقه ، فصاحت روكسان : ابق في الحياة يا سيرانو فإنني أحبك ، قال : ذلك مستحيل إلا إذا استطاعت كلمتك هذه أن تمحو قبحي ودمامتي ، كما روا في بعض الأساطير أن أميرًا دميم الخلقة سمع مرة من يقول له : إني أحبك ، فتلاشى قبحه بتأثير تلك الكلمة وأصبح جميلًا وضيئًا ، ولو أنني عشت بعد اليوم ألف سنة ما نقص ثقل أنفي قيراطًا واحدًا .

فبكت واشتد نشيجها وقالت : اغفر لي ذنبي يا سيرانو ، فقد كنت السبب في جميع ما حل بك في حياتك من المصائب ، قال : لا ، بل بالعكس فلقد قضيت حياتي كلها محرومًا لذة عطف المرأة وحنانها حتى إن أمي كما حدثوني لم تكن تستطيع أن تراني جميلًا كما يرى الأمهات أولادهن المشوهين ، ولو كانت لي أخت أو عمة أو خالة لكان شأنهن معي ذلك الشأن ، ولم أر يومًا من الأيام في عيون النساء جميعًا جميلات كن أو دميمات غير نظرات الهزء والسخرية والنفور والاشمئزاز ، وأنت المرأة الوحيدة التي استطاعت أن تتخذني صديقًا واستطعت أن ألجأ من عطفها ورحمها إلى ظل ظليل فما أعظم شكري لك ، فقالت :

عش يا سيرانو فإني أحبك ، بل ما أحببت في حياتي أحدًا سواك ، وما لبست ثوب الحداد خمسة عشر عامًا إلا من أجلك ، قال : لا تحاولي الغدر بكرستيان يا سيدتي واحذري أن يجف حزنك عليه وبكاؤك على مصرعه فإنه صديقي ، وكل ما أطلبه إليك : أن تضمي إلى شارات حدادك شارة صغيرة من أجلي ليكون حزنك عليّ جزءًا من حزنك عليه ، فصاحت : آه ما أشقاني لقد أحببت في حياتي حبيبًا واحدًا ففقدته مرتين .

وكان كوكب الليل قد أشرق من مطلعه ، فانبسطت أشعته في فناء الدير فانتعش سيرانو حين رآه وقال : ها هو ذا صديقي « فيبيه » قد أرسل إليّ أشعته لتحملني إليه فشكرًا له على ذلك ، سأصعد الليلة إلى السماء على نعش جميل من تلك الأشعة الفضية اللامعة دون أن أحتاج إلى تلك الآلات الرافعة التي سردتها على الكونت دي جيش ، وسيكون مقامي هناك في ذلك الكوكب الجميل مع تلك النفوس العظيمة ، التي أحبها وأجلها : سقراط وأفلاطون وغاليلي وجميع الذين ماتوا ضحايا صدقهم وإخلاصهم .

وهنا انتحب لبريه وقال : واأسفًا عليك أيها الصديق الكريم! وما أشد ظلمة الحياة من بعدك! فانتبه إليه سيرانو وقال له : لا تحزن عليّ كثيرًا يا لبريه فإني ذاهب لملاقاة صديقي كاربون دي كاستل وسائر أبناء وطني الذين ماتوا ميتة الشرف والفخار في ميدان أراس وسيكون مجتمعنا هناك جميلًا جدًا لا يكده علينا ممثل ثقيل ولا نبيل جاهل ولا شاب مغرور .

وصمت صمتًا طويلًا كان يعاني فيه من الآلام ما يحتمله بشر ، ثم ثار من مكانه هائجًا مضطربًا وجرد سيفه من غمده وأخذ يصيح : لا ، لا ، لا أريد أن أموت على هذا المقعد ميتة العاجز الجبان ، فذعر أصدقاؤه ، ونهضوا بنهوضه ، وحاول راجنو أن يمسكه فدفعه عنه وأسند ظهره إلى شجرة ضخمة وقال : دعوني فإني أريد أن أموت واقفًا وأخذ ينظر أمامه ويحدق النظر كأنما يرى شبحًا مقبلًا عليه ، ثم قال : تعال أيها الموت تقدم ولا تخف ، فقد أصبحت رجلًا ضعيفًا خائرًا لا قبل لي بمواثبتك ومغالبتك ، تقدم فما أنا بسيرانو دي برجراك إنما أنا خياله الماضي وصورته الضئيلة ، فهل بلغ بك الجبن أن تخاف الصور والخيالات؟ لقد ضعف في يدي ذلك السيف الذي كنت أقاتلك به وأصبح رأسي ثقيلًا ويداي مغلولتين ، وكأن قدمي مصبوبتان في قالب من الرصاص ، أقبل ولا تخف ، مالي أراك تنظر إلى أنفي نظر الساخر الهازئ ، أشماتة هي أيها الساقط الجبان ، ماذا تقول إنك أقوى مني ، نعم ما أنكرت عليك ذلك ، ولكني على هذا سأقاتلك وأثبت ، لا لأني أطمع في أن أنتصر عليك ، بل لأني أريد أن أموت ميتة الأبطال من قبلي ، ثم أخذ يدير عينيه يمنة ويسرة ويقول : من هؤلاء! مرحبًا بكن أيتها الرذائل ، لقد عرفتكن يا أعدائي القدماء ؛ ما أكثر عددكن وأقبح وجوهكن ، نعم سأموت ، ولكن بعد أن شفيت منكن غليلي ومثلت بكن أقبح تمثيل .. اغربن من وجهي قبحكن الله وقبح صوركن وأزياءكن .

وظل يطعن بسيفه يمينًا وشمالًا ، وأمام ووراء ويقول : خذ أيها الكذب ، خذ أيها الطمع ، مت أيها الغدر ، تبًا لك أيتها السافلة ، سحقًا لك أيتها الخيانة .

وظل يدور حول نفسه ساعة حتى بلغ منه الجهد فسقط بين أذرع لبريه وراجنو ، وظل على ذلك هنيهة ، ثم فتح عينيه وحدق النظر أمامه طويلًا وقال : تقدم أيها الموت وخذ ما تريد مني ، أتدري ماذا تستطيع أن تسلبني! إنك تستطيع أن تسلبني حياتي وجسمي ، وهذا السيف العزيز عليّ ، ولكن شيئًا واحدًا لا تستطيع أن تسلبنيه ، وسيرافقني في سفرتي التي انتويتها إلى السماء حتى أقف بين يدي الله تعالى رافع الرأس عزة وفخارًا ، وهو .... وهنا عجز عن النطق فحاول أن ينطق الكلمة التي أرادها فلم يستطع ، فانحنت عليه روكسان وقبلته في جبينه وأرسلت دمعة حارة على وجهه وقالت : وما هو يا سيرانو؟ ففتح عينيه للمرة الأخيرة فرآها فابتسم وقال : حريتي واستقلالي! ثم خفق قلبه الخفقة التي لم يخفق بعدها .

وكذلك انقضت حياة هذا الرجل العظيم كما تنقضي حياة أمثاله من العظماء لم يتمتع يومًا واحدًا برؤية مجده وعظمته حتى إذا قضى سمح له التاريخ بعد مماته بما ضن به عليه في حياته أما روكسان فلم يعلم الناس من أمرها بعد ذلك شيئًا سوى أن مقعدها الذي كانت تقعد عليه أمام منسجها قد أصبح خاليًا مقفرًا ، فلم يعرفوا : ألزمت جوف محرابها تدعو الله تعالى ليلها ونهارها أن يلحقها بصديقها ؛ أم رقدت بجانبه في مقبرة الدير الرقدة الدائمة؟

تمت

الفهرس